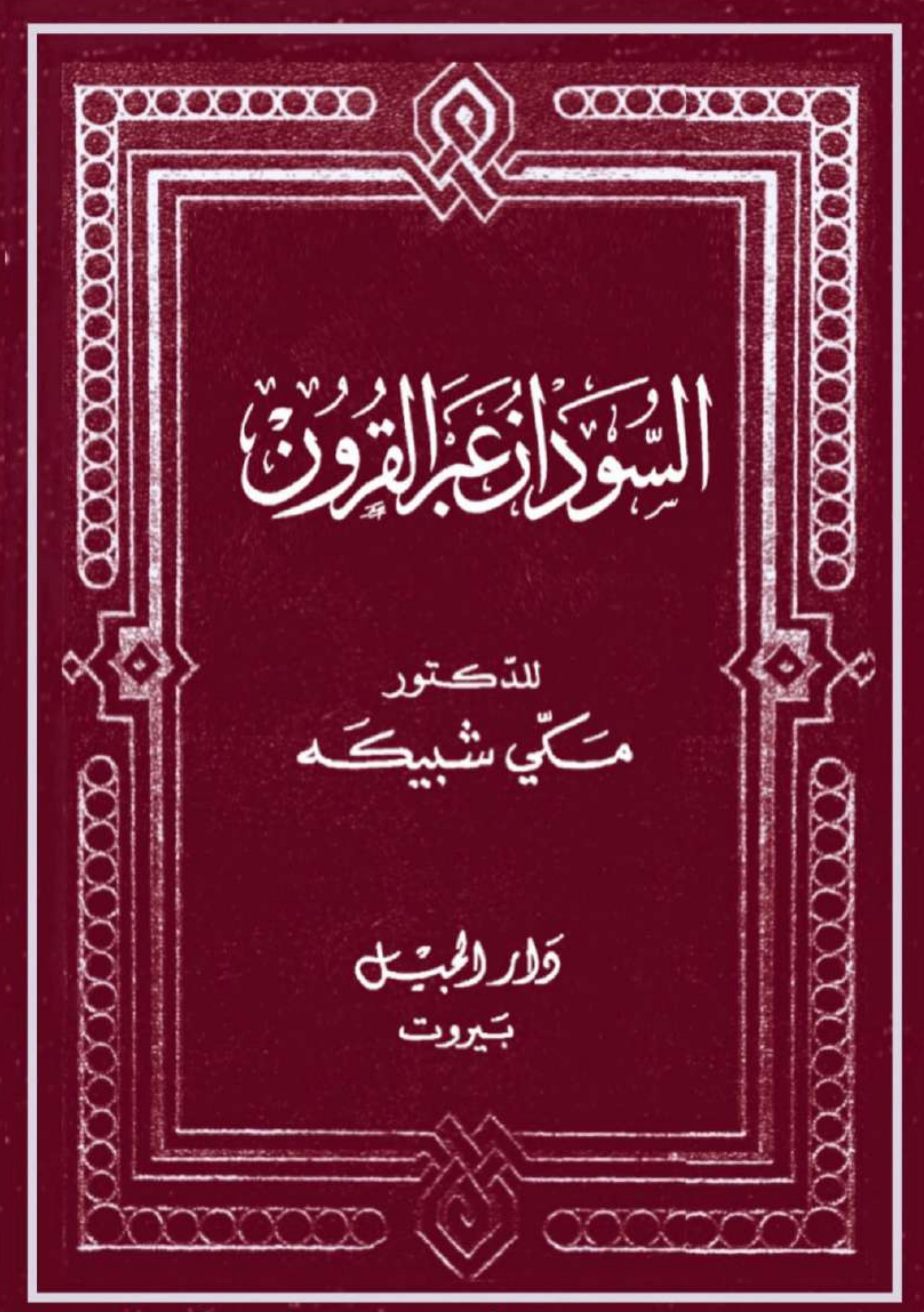


السودان عبر القرون

للدكتور
مكّي شبيكه

دار الجيل
بيروت


السودان عبر القرون

السودان عبر القرون

للدكتور
مكّي شبيكه
أستاذ التاريخ بجامعة الخرطوم

دار الجيل
بيروت

١٤١١هـ - ١٩٩١م

مقدمة الطبعة الثانية والثالثة

نفذت الطبعتان الاولى والثانية في أقل من سنتين وزعت معظم النسخ في البلاد العربية الشقيقـة حيث تسنى لابناء الوطن العربي الكبير متابعة تاريخنا منذ أقدم عصوره حتى وقوفنا على ابواب الحرب العالمية الثانية . واذا ما رزقنا الله الصحة والعافية تابعنا تاريخنا الى يوم الاستقـلال في يناير ١٩٥٦ وابرزنا معالمه الرئيسية لان التاريخ الحقيقي للحقبة الاخيرة لا يكتب اليوم .

مكي شبيكه

مقدمة الطبعة الأولى

عندما نشرت لجنة التأليف والنشر كتابي « السودان في قرن » لأول مرة ، نظرت فيه لجنة جوائز الدولة التقديرية والمعروفة باسم الملك السابق آنذاك ، ورأت فيه مجهودا يستحق الذكر والتنويه ، ورأت ان تمنحني بعثة دراسية للخارج لولا انها وجدتني في بعثة آنذاك .

واكتسب « السودان في قرن » شخصية خاصة وطبع ثلاث مرات ونفدت طبعاته . ورأيت استجابة لطلب الكثيرين في ان يروا تاريخاً متصل الحلقات للسودان منذ أقدم العصور الى قيام الحرب العالمية الثانية ان اكتب فصولا تكملة « للسودان في قرن » .

واعتمدت في الفصل الأول عن تاريخ السودان القديم والعهد المسيحي على كتاب المستر اركل بالانجليزية ، وهو يعالج تاريخ السودان الى سنة ١٨٢١ ، وكذلك على مذكرات طلبة الآداب بجامعة الخرطوم من محاضرات زميلي الدكتور فوزي جاد الله . وفي فصل العروبة والاسلام كان مصدري كتاب الدكتور مصطفى محمد مسعد « الاسلام والنوبة في العصور الوسطى » ، وهو خير كتاب يعالج تاريخ السودان في هذه الحقبة. ومؤلف مستر كروفورد عن « تاريخ الفونج ومملكة سنار » كان مصدري عن فصل دولة الفونج الاسلامية . فهو قد جمع كل الاخبار عن هذه الحقبة . اما الفصل الذي تلى سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٣٩ فقد اعتمدت فيه

على كتابي بالانجليزية « السودان المستقل » ، واستفـــدت من كتاب الدكتور هولت « تاريخ السودان الحديث » وكذلك من مذكرات اخذها السيد جعفر محمد علي بخيت من أوراق كرومر الخاصة . ومع ذلك فهذا الجزء لم يصبح تاريخا بعد لأن وثائقه السرية لم تظهر . وحدثت تغييرات في حقبة السودان في قرن على ضوء الوثائق التي ظهرت في دور المحفوظات بعد كتابته . ورأيت ان خير خرائط توضح الاماكن التي ورد ذكرها في الكتاب هي تلك الملحقة بكتاب تاريخ السودان الذي وضعته شعبة التاريخ بمعهد المعلمين ببخت الرضا تحت اشراف السيد مندوز المهدي عميد المعهد الحالي .

الخرطوم في أغسطس سنة ١٩٦٤

مكي شبيكة

السودان القديم والعهد المسيحي

لغرض هذه الدراسة التاريخية للسودان فانه يشمل كل الاراضي التي تقع جنوبي الشلال الاول عند مدينة أسوان اذ كانت كل الحضارات والدول التي تعاقبت على الحكم في مصر تقف عند اسوان وتنظـر الى الاراضي الجنوبية على انها خارجة عنها ، ومع ذلك فان تاريخ السودان في مختلـف عصوره وعهوده يتأثر بالحضارات والدول التي قامت في مصر وكل تغيير يحدث هناك يكون له أثره على اقاليم السودان . ولا غرابة في ذلك لأن اتصال سكان الاراضي الجنوبية بمصر بدأ منذ عهـــد الاسرات الاولى لحضارة قدماء المصريين لدوافع يرد ذكرها عند سرد تاريخ السودان القديم . ومن المعلومات البسيطة التي كشفت عنها الآثـــار يتضح لنا انه قامت حضارات في وادي النيل جنوبـي الشلال الاول منـذ اقدم العصـور التاريخية . غير ان هذه الحفريات لم تمدنا بتفاصيل وافية لنجعل مـــن تاريخنا قصة متصلة الحلقات ولذلك عمد الاثريون على تقسيم تلك الحضارات الى مجموعات اطلقوا عليها أحرفـاً بحسب اسبقيتهـا (ا) و (ب) و (ج) و (س) و (X) A.B,C,X وذكروا مميزات كل حضارة حسب ما علموه على وجه التحقيق او الترجيح من آثارهم وخاصة من قبورهم .

المجموعة (أ) ٣٤٠٠ ــ ٢٧٢٠ ق٠م٠

سكنت هذه المجموعة في أراضي النوبة السفلى الحالية بالقرب من

النيل حيث كونت رواسب الطمى أرضاً صالحة للزراعة واحترف السكان الزراعةعلى هذه الاراضيوطابقت الاواني والمصنوعات التيعثر عليها الاواني والمصنوعات المصرية وطريقة دفن موتاهم هي نفس الطريقة المصرية ومنذ ذاك العهد اهتم قدماء المصريين بتلك الاراضي اما لمستلزمات الامن وطريق التجارة او للتعدين وقطع احجار الجراتيت ، ولا بد ان هناك بعض المقاومة لبعض التسرب المصري . والمصريون من جانبهم — لحماية طرقهم وضمان مستخرجات المعادن — لا بد وأن يسيّروا حملات تأديبية لاحباط المقاومة . وتدون لنا اخبار الاسرة الرابعة واحدة من تلك الحملات حيث قاد سنفرو حملة في بلاد تانحسى وقبض على ٧٠٠٠ اسير و ٢٠٠،٠٠٠ من الماشيـــة والاغنام . والمبالغة في الارقام واضحة الا انها لها دلالتها على ان المصالح المصرية في تلك المنطقة ومقاومة المجموعة (ا) ادت الى مثل هذه الحملات التأديبية ولا بد ان توالي هذه الحملات قاد في نهايتــه الى ضعف هــذه المجموعة التي لا قبل لها باستمرار المقاومة للجهاز الحربي لمدنية مثل مدنية قدماء المصريين .

المجموعة (ب) ٢٧٢٠ — ٢٢٧٠ ق.م.

ويبدو ان هناك مجموعة هبطت الى المنطقة ووجدت حضارة المجموعة (ا) في حالة من الضعف والانهيار ما جعل هذه المجموعة الجديدة (ب) تسيطر على المنطقة وتطعّم سكانها بدماء جديدة من الناحية الحربية ، ولا يعني هذا ان حضارتهم أرقى من المجموعة (ا) . والواقع ان حضارة هذه المجموعة وهي معاصرة للأسرة السادسة كانت صورة منحطة لحضارة المجموعة (ا) في أوانيهم وفي طريقة دفنهم التي اختلفت عن طريقة الدفن المصرية . غير ان الفراعنة ما زالوا في اهتمامهم بالمنطقة واصرارهم علــى تأمين التجــارة والتعدين . وتوالت غاراتهم وازداد نفوذهم وتسربهم حتى صرنا نعثر على

نقوش بأسماء ملوك الاسرات في الدولة القديمة المصرية وظهرت وظيفة حاكم الجنوب وكشف هذه الحقيقة مقبرة اوني uni احد هــؤلاء الحكام في أبدوس ومن اعمال أوني التي دونتها النقوش شق مجاري وقنوات في الشلال الاول لتيسير الملاحة وبناء مراكب أحضر أخشابهــا رؤساء قبائــل ارثت وواوات ، واستمر بناء المراكب عاماً كاملا وعند اتمامها نقلت كتل أحجار للمباني المصرية وتوالى تعيين الحكام للأمن ولضمان وصول منتجات التعدين ويذكر ان رؤساء النوبة قدموا فروض الولاء والطاعة .

ولم يكتف المصريون بالسيطرة على النوبة السفلى بــل فكروا في اكتشاف طرق التجارة والتوغل جنوبا ، وقد قام حرقوف وهو ابن لحاكم الفنتين بالقرب من أسوان بعدة رحلات تجارية في الجنــوب وفي احدى رحلاته توغل مسافة كبيرة امتدت الى أشهر ؛ ويرى أركل أن حرقوفا في هذه الرحلة ربما وصل الى كردفان او دارفور ولكنه مجرد استنتاج ، وقام احد الفراعنة في ذلك العهد برحلة ملكية الى حدوده الجنوبية ، وفي الفنتين قدمت قبائل النوبة لتأدية فروض الولاء ، ولم تكن لمصر في هذا العهــد — عهد الدولة القديمة — أهداف توسعية بالمعنى المعروف ولكنها تصر على تأمين التجارة واكتشاف طرق جديدة لها الى الجنوب وتأديب كل من تسول له نفسه بتعريض هذه التجارة او التعدين للخطر ، ولم يعرف في عهد الدولة القديمة ان تركت مصر حاميات حربية ، وانتهت الدولــة القديمة في مصر والعلاقات بينها وبين الاراضي الجنوبيــة لم تتعــد التجارة والتعديــن وتأمينهما .

المجموعة (ج) ٢٣٠٠ — ١٦٠٠ ق.م.

بدأت هذه المجموعة تظهر في النوبة منذ ان بدأ الانحلال يعتري جسم الدولة المصرية وتطور السودان بحضارته بعيداً عن المؤثرات والحمــلات

المصرية ، والعنصر الغالب في هذه المجموعة هو الليبـــي خاصة في النوبة السفلى . وعند قيام الدولة الوسطى في مصر بعد عصر الانحلال والتدهور وعندما انتعشت ورسخت أقدامها رنت بأبصارها نحو الجنوب لتؤمن طريق تجارتها ومعادنها ولم يقتصر فراعنة الدولة الوسطى بعلاقات تجارية ولكنهم بسطوا سيطرتهم على النوبة السفلى حتى الشلال الثاني على ما يبدو وأقاموا حصوناً لتحمي الطريق النهري من غارات بدو الصحراء او من تمرد يقوم به النوبيون ، وامتدت حضارتهم الى هذا الجزء الذي احتلوه ، وكما هو منتظر عند احتكاك حضارة راقية بحضارة أقل منها لا بد وأن تتأثر الاخيرة بها ، وظهر التأثر في تطور مقابرهم وفخارهم وأدوات زينتهم ، والآثار تدل على عمران خاصة في تربية الماشية والاغنام ويظهر ان تلك المنطقة الجرداء الآن كان بها من الخضرة وفرص الرعي أكثر مما عليه في العصور المتأخرة . وبهذا الاحتلال المصري خضع النوبيون للحكم الجديد وعاشوا في امن وسلام واختفت مقاومتهم متأثرين بالحضارة المصرية .

حضارة كرمة

اكتشف رايزنر في كرمة مباني بها كثير من الاواني والادوات بعضها يرجع الى الدولة القديمة وبعضها الى الدولة الوسطى اغلبيتها مصرية ومعها قليل من الاواني والفخار يظن انها صناعات محلية ، وفي المنطقة اكتشفت مقبرة طريقة الدفن فيها مختلفة عن طريقة الدفن المصرية بأن الميت يرقد على عنقريب وحوله نساؤه . واستنتج بأن هذا موقع حصن مصري ، والمقبرة بها حكام مصريون عدّلوا في طريقة دفنهم حسب تقاليد اهل البلاد بتأثير من نسائهم النوبيات . وهذا الزعم تدحضه عدة دلائل منها ان هذا الموقع يبعد كثيراً من آخر حصن للمصريين في الشمال ، ويستبعد ان تكون هذه المنطقة مقراً لحاكم الجنوب او نائب الملك ، واذا كانوا مصريين حقاً فهم

يتمسكون بطريقة دفنهم التقليدية ولا يرضون ان يدفنوا في ارض غير مصرية ، اما وجود الاواني والادوات المصرية فمرده الى ان اصحاب هذه الحضارة في كرمة متصلين عن طريق التجارة بمصر اتصالا وثيقا ، وان هذه الآثار في كرمة تشير الى مركز تجاري لتبادل السلع ولا بد لحكام المنطقة واثريائها ان يقتنوا عن طريق الشراء الاواني والادوات المصرية لأنها ادوات المدنية ، وهناك نقش في سمنه يؤكد انها هي آخر التحصينات المصرية الجنوبية ، فلوحة سنوسرت الثالث هناك تقول « هذه حدودي الجنوبية ... وان كل ولد من اولادي يحافظ على هذه الحدود الجنوبية لهو ولدي حقاً ومن صلبي الابن الذي يحمي اباه حقا » . والمرجح ان سكان منطقة حضارة كرمة هم الاصل الذي يرجع اليه الكوشيون وان عملهم في التجارة مع مصر جعلهم يعيشون في رغد من العيش وتقدم في الحضارة والمدنية مقتفين اثر الحضارة المصرية لاتصالهم الوثيق بها .

تمصير السودان الشمالي

والظاهر ان حضارة كرمة امتدت الى الجنوب بازدهار التبادل التجاري حتى وصلت الشلال الرابع وربما تمدته جنوباً ، وفي مصر انهارت الدولة الوسطى وتلاها عصر الاضمحلال الثاني الى ان قيض لمصر احمس حيث طرد الهكسوس واسس اول اسرة في الدولة الحديثة ، دولة التوسع والفتوحات، ولا بد ان تمتد فتوحاتها الى جنوب طريق التجارة الى قلب افريقية ولا بد ان تكون السيطرة هذه المرة كاملة لم تقتصر على احتلال فقط بل تمدته الى تمصير كامل الى الشلال الرابع . وهناك آثار في كرقس باقليم الرباطاب تدل على امتداد النفوذ المصري في الدولة الحديثة الى تلك المنطقة ، وحوادث التوسع هذا والتمصير الكامل كشفت عنه الآثار في منطقة جبل البركل في العاصمة نبته (كريمة) ، وفي النقوش المصرية .

جهاز الحكم والادارة في كوش

كان يتربع على هرم الجهاز الاداري في منطقـــة كوش نائب الملك ، ويعرف بابن الملك كلقب تكريم وتشريف ، وليس ابنا حقيقيا ، وحتى في العصر الحديث نجد محمد علـــي والي مصر ، يخاطب حكام الاقاليـــم وحكمداري السودان يابننا فلان ، واختصاصات نائب الملك ، المقيم في نبتا واسعة ، فهو المشرف على طريق التجارة ، وهو قائد الجيش بما فيه من فرق الرماة النوبية ذات الشهرة الكبيرة ، لأنها برهنت في ظروف عدة على اهميتها بالنسبة لدفاع مصر ــ وهو المسؤول عن الضرائب زيادة علـــى مستلزمات الحكم العادية ، وكان يختار لهذا المنصب الموثوق به من حاشية الملك ، ولنائب الملك معاونان رئيسيان ، احدهمـــا لواوات وهي النوبـــة السفلى ، والثاني لكوش وهي النوبة العليا . واذا كان من الضروري ان كبار المعاونين لا بد وأن يكونوا من المصريين ، الا ان عملية استخـــدام الكوشيين في بعض المناصب أمر تحتمه الضرورة وخاصة في جباية الضرائب. وتنفيذاً لسياسة التمصير هذه ، كان ابناء الرؤساء والزعماء في اقاليم النوبة يفسح لهم المجال ويعينون في الوظائف بعد هذه التنشئة المصرية . والمصريون من كهنة وصناع وغيرهم يفدون لكوش ويختلطون بالسكان ويؤثرون فيهم ، وكلما شب جيل جديد فتح عيونه على مقومات حضارة مصر وأخذ بها وصار كالمصري قلبا وروحا .

اصل الكوشيين

اعتنق الكوشيون ديانة آمون ، وحتى عندما ضعفت ودخلت عليها البدع اصبحت كوش حامية هذه الديانة ، وتدخل فريـــق الرماة احيانـــاً لمناصرة فريق ضد الآخر في النزاع الملكي في مصر ، ويتدخل نائب الملك

احياناً في تنصيب رئيس الكهنة ، وعندما تدخل الليبيون في حكم مصر .
وقبل ان ندخل في الحقبة التي تم لحكام كوش غزو مصر وتوحيد القطرين فترة من الزمن يجدر بنا ان نقف قليلا لنبحث في أصل الكوشيين ونسرد الآراء المتعارضة في المسألة . فرايزنر الذي قام بالحفريات في منطقة نباتا وفي مروري يرى انهم من اصل ليبي ، فكما غزا فريق من الليبيين مصر عرّج فريق آخر على بلاد النوبة ، ويرى فريق اخر من الباحثين انهم من اصل مصري ، ويؤيدون حجتهم بوجود الطابع الحضاري المصري الكامل في ارض كوش ، وعرف ان نواب الملك الأوائل كانوا يختارون من اقرب المقربين لحاشية الملك في مصر لاهمية المنصب وتشتد المناقشة هذه بصدد اولئك الحكام الذين بدأوا بغزو مصر من نباتا عاصمة كوش ، ووحدوا القطرين ، ونحن هنا لسنا بصدد فترة قصيرة بل نناقش عهداً امتد الى قرون منذ تأسيس كوش في عاصمتها نباتا الى حين بداية الغزو لمصر من قاعدة عاصمة كوش .

فمهما كان اصل الطبقة الحاكمة في كوش فانها اصبحت سودانية نتيجة عملية التزاوج والتأثير بالاقاليم وانقطاع الصلة بالأصل ان كانت هناك صحة لهذا الزعم . فلا بد لهذه الطبقة ان تتأقلم وتتصل مصالحها بالشعب الذي تحكمه . وفي وقتنا الحاضر نعرف عائلات بل قبائل حضر اسلافها الى السودان قبل ثلاثمائة سنة او اكثر ولا يعرف نسلهم الحاضر وطنا غير السودان ، وان هم حاولوا عمليا الانتساب الى وطن آخر يفشلون . فحكام كوش حينما قادوا جيشا سودانيا لغزو مصر كانوا يفعلون ذلك بصفتهم دولة سودانية ذات اتصال وثيق بالحضارة المصرية من جميع نواحيها وسنرى انهم كانوا يرمون الى تخليص هذه الحضارة التي يرون انها حضارتهم هم من العناصر الاجنبية الدخيلة عليها .

بعنخي يفتح مصر ٧٥١ ـ ٦١٦ ق٠م٠

تقص لنا لوحة بعنخى التي سجل فيها انتصاراته في مصر على الليبيين القصة الكاملة بتفاصيلها لحوادث الفتح . وعثر على هذه اللوحة في أوائل هذا القرن في البركل ونقلت الى متحف القاهرة ٠ غير اننا نعلم من لوحة اخرى ان اوّل حاكم كوشي استولى على مصر العليا هو كشتا ، الذي منح نفسه لقب ملك ، ولكنه لم يستخدم الألقاب الفرعونية ٠ وعندما خلف بعنخى كشتا سمع عن سيطرة الليبيين بزعامة تفنخت على مصر ، ووصلته اصوات الاستغاثة ، فعزم عزماً اكيداً على تطهير الاراضي المصرية مـــن الليبيين . وتقدم جيش بعث بعنخى به من نباتا نحو صعيد مصر ، فهزم اسطول الليبيين في طيبة العاصمة وفر الليبيون شمالا منهزمين وتبعهـم جيش نباتا واستخلص منهم الصعيد بكامله ووالوا فرارهـم الى الوجه البحري ، ومع توالي تلك الانتصارات لم يرض بعنخى حيث ان العدو لم يقض عليه ، وخف بنفسه ليتولى القيادة ويحرز انتصارا عند مطلع العام الجديد ويحتفل بأمون في الكرنك ، وتم له ما اراد وحاصر الأشمونـين واستولى عليها وساءه ان يرى الخيول هناك عجافا اذ كانت انسانيته تمتد الى الحيوان ، وعرف عنه حبه للخيل ٠

واصل بعنخى زحفه نحو الوجه البحري ، وعندما وصل الى مشارف مدينة منف وجدها منيعة الحصون ، وقاد الهجوم بنفسه من الناحية الشرقية المطلة على النيل والتي رأى في حصونها بعض الضعف ، وتـم استيلاؤه عليها بعد ان اثار في نفوس جنوده الحماس ، وأنها مشيئة الاله ، وحذرهم من مهاجمة من يستسلم اذ عرف عنه النبل في مواجهة العدو ، فالمستسلـم والضعيف والمريض والغافل لا يناله بأذى. وبعد سقوط هذه القلعة الحصينة استسلم امراء الوجه البحري ، وكان تفنخت العدو الاول يوالي الفرار بعد كل نصر يحرزه بعنخى ولجأ اخيرا الى جزيرة على النيل ولكن لا عاصم له

من ملك نباتا ، ورأى التسليم اخيرا وقبل بعنخى استرحامه وعفا عنه . وعندما ادى مهمته على خير ما كان يرجو ويأمل ، رجع الى عاصمته نباتا ليدون انتصاراته في اللوحة الشهيرة ، وأقامها في معبد آمون في البركل . واكتفى بعنخى بولاء الامراء وتعهدهم بدفع الجزية، وما اقام سلطة مركزية في عاصمة من عواصم مصر . وما ان تأكد لتفنخت ان بعنخى توغل في بلاد النوبة راجعا لمقر ملكه الا ونسى تضرعه واستسلامه وخان العهد ، وفرض سلطته ونفوذه كملك على الوجه البحري ، وعندما توفي تولى ابنه من بعده . وتوفي بعنخى ايضا وترك لخلفه مهمة استرجاع مصر من الليبيين .

شباكو ٧٠٧ ـ ٦٩٦

نقل شباكو العاصمة الى طيبة وأحرق خليفة تفنخت بعد ان ظفر به ولعله أخذ درسا من معاملة بعنخى الحسنة لتفنخت باطلاق سراحه ، وجعل لمصر حكومة مركزية باشرها بنفسه كملك لكوش ومصر . وظهرت في ذلك الوقت دولة الاشوريين في العراق بقوتها الرهيبة ، وزحفت غربا حيث استولت على مملكة اسرائيل ، وكان لملك كوش ومصر ان يحمي نفسه من تلك القوة الاسيوية الرهيبة بأن يحرض المملكات الصغيرة لتكون حاجزا بين آشور ومصر ، ولذلك حرضوا دولة يهودا الصغيرة ويبدو انه حالفها . وهاجم ملك آشور مملكة يهودا وحاصرها وخف شباكو لنجدتها بأن ارسل اخاه تهراقة على رأس جيش وهو صغير السن فاحتقر ملك آشور جيش كوش مخاطبا يهودا بأنها اعتمدت على قصبة مرضوضة ، وقبل ان يدخل الجيشان في معركة تفشى الطاعون في جيش آشور ورفع الحصار .

شبكتو ٦٩٨ ــ ٦٨٣ ق٠م٠

خلف شبكتو عمه شباكو وقوة آشور الرهيبة لا زالت تهدد أمن مصر وحكامها من الكوشيين ، ومات شبكتو قبل ان يدخل في معركة ضد آشور ولكن شعوره بخطرها جعله يوصي بالحكم لاخيه الاصغر تهراقا متخطيا من يكبرونه لكفاءته وقدرته لمجابهة الخطر الاشوري ، وكان قد اشركه في الحكم قبل وفاته ، واستبشر الناس خيراً بعهده حين فاض النهر الى درجة لم يبلغها من قبل والى الآن يستبشر الناس بالحاكم الذي يخضر الزرع ويدر الضرع في عهده . وربض تهراقا في شرق الدلتا تاركا عاصمته في الصعيد ليكون على مقربة من منطقة الخطر في فلسطين ، واتخذ سياسة اثارة الدويلات الصغيرة كيهودا والفينيقيين ضد الاشوريين ومناهم بالعون ، وثار ملك صيدا وتلاه ملك صور في فينيقيا ، ولكن آشور قضت على مقاومتهما قبل ان يخف تهراقا لنجدتهما . وما كان لاسرحدون ملك آشور الا وأن يتجه بقوته في ٦٧١ م الى مصر ، وقابله تهراقا على الحدود ، وانهزم ملك مصر وكوش وأسرت نساؤه واولاده ، وتقهقر هو الى عاصمته طيبة ليجمع وينظم جهازه الحربي من جديد واكتفى اسرحدون بهذا النصر ورجع لبلاده وترك مصر السفلى ليحتلها تهراقا . عاود أسرحدون التقدم نحو مصر بحملة جديدة ، ولكنه مات ونفذ ما نواه خليفته آشور بنيبال وتم له النصر على تهراقا في الدلتا ، وتابعه حين تقهقر نحو طيبة حيث احتلها ايضاً وعين امراء مصريين .

ثانوت آمون

تربع على العرش بعد موت تهراقا ثانوت آمون بن شبكتو وابن اخت تهراقا ، وكان اول عمل قام به هو ان يستعيد املاك اسلافه ، وينقذ مصر

من الاشوريين ، فقاد جيشاً زحف به نحو الشمال ووصل طيبة واحتلها حيث استقبل استقبالا رائعا كمنقذ وتحصن حكام الدلتا في مدنهم ودخل منف وخضع له بعض الحكام ، غير ان الاشوريين عاودوا هجومهم وتقهقر ثانوت آمون الى طيبة وتبعه الاشوريون هذه المرة اليها وخرج منها متوغلا في اقليم كوش حتى وصل عاصمته نباتا وكان آخر ملك من سلسلة ملوك مصر وكوش ، وامتد هذا العهد الى ٧٥ سنة حيث توحد القطران مصر والسودان تحت ملوك كوش .

كوش بعد التقهقر من مصر ٦٦٠ ق.م الى ٣٥٠ م

رجع الكوشيون الى عاصمتهم نبتا وباشروا مهام ملكهم باستقلال كامل لا تشوبه شائبة ، وهم منذ ان بدأوا غزو مصر للقضاء على سيطرة العنصر الليبي فيها اتخذوا لانفسهم لقب الملوك بعد ان كانوا نوابا للملك في مصر وتحت امره ولتعاقب العناصر الاجنبية على حكم مصر منذ ان غادرها الكوشيون اصبحت حضارة نبتة حامية الحضارة المصرية الفرعونية . فهم منذ ان تم تمصير بلادهم تمصيرا كاملا ، اخذوا بأسباب هذه الحضارة فدياناتهم ومعابدهم وطرق دفنهم وما اقتنوه من اواني وخزف ومعمارهم ، كلها اخذت من معين الحضارة المصرية الفرعونية . واستمروا عهدا طويلا منذ تقهقرهم الى بلادهم يمثلون هذه الحضارة في اجلى مظاهرها .

الاكتشافات الاثرية

وضحت معالم هذه الحضارة الرئيسية في حقبة الاستقلال هذا من الحفريات التي قام بها الاثريون في منطقة البركل وما جاورها وبقية اجزاء

كوش الشمالية في منطقة مروى القديمة (منطقة شندي ـ كيوشيه) وعلى رأسهم رايزنر ومن تبعوه • فاكتشفت المعابد والمباني الملكية وفوق كل ذلك القبور وهي كمقابر قدماء المصريون لا تحوي رفات الملوك بل تحوي تاريخهم ، ومن النقوش تمكن رايزنر ان يمدنا باسماء الملوك سواء كانوا في المنطقة الشمالية او الجنوبية في مروى ، ومن الاواني والخزف وتوابيتهم ومستوى العمارة تتبعوا فترات الارتقاء والتدهور ومن النقوش هنا وفي مصر عرفوا شيئا عن علاقات مملكة كوش بجيرانها ، وامدنا كذلك كتاب اليونان والرومان ببعض المعلومات ، ولكن المصدر الاصلي هو ما اكتشف في الحفريات . ومع ذلك لا تزال هناك بعض الحلقات المفقودة ولا تــزال آراء الباحثين تختلف في بعض النقاط والكلمة الاخيرة عن حضارة كوش ومروى لم تكتب بعد اذ كشفت حفريات هنزا الالماني في السنين الاخيرة بعض الحقائق التي اضفت ضوءاً على الغموض وناقضت بعض النتائج التي توصل اليها اسلافه من علماء الآثار ، والعمل متواصل من البعثات الاثرية الخارجية ، وستنزل مصلحة آثارنا وجامعتنا في الميدان في القريب العاجل ان شاء الله .

مركز الثقل ينتقل الى مروى

والمنطقة التي قامت فيها المدنيات الاولى السودانية تقع في اقليم دنقلا وحلفا وقد كانت كما هي عليه الآن محدودة المجال ، فالرقعة الزراعية شريط ضيق على الشواطىء وتتسع الى حد ما في بعض المناطق وتضيق احيانــا ويحتل الشاطىء في احيان اخرى الصخور . والظروف المحتملة في مثل هذه الاحوال هي انه بازدهار الحضارة وارتفاع مستوى المعيشة ، وبالزيادة الطبيعية في السكان تزداد احتياجات الانسان وتنمو قطعان مواشيه واغنامه وتصبح الحاجة ملحة لاطعام السكان والحيوان . وبديهي ان تتجه الانظار

لمجال حيوي يستوعب هذا الفائض من السكان وتجد القطعان المتكاثرة مراعي لعلفها . ففي الشمال بلاد النوبة السفلى وهي اسوأ حالا من النوبة العليا وفي الشرق والغرب صحاري لا تصلح لسكنى القوم المتحضرين ذوي المدنية العريقة ، وفي مجرى النيل الاعلى لنبتا يقع اقليم المناصير بصخوره وشلالاته وهو يشبه الى حد ما اقليم النوبة السفلى . ولم يبق امامهم الا تلك الاراضي التي تقع على مجرى النيل جنوبي ارض المناصير والرباطاب المجدبة . والوصول اليها عرفوه من قوافل التجارة التي تصل هذه الاراضي باقليم دنقلا عبر صحراء بيوضة . وبدأ تسلل تدريجي الى هذه الاراضي وأسس فرع لحكومة كوش في هذا الاقليم واتخذ عاصمة له مروى القديمة بالقرب من قرية البجراوية غير بعيد عن كبوشية الحالية .

مميزات اقليم مروى

واقليم مروى القديمة هذا والذي اصبح مقرا لمملكة كوش اخـــيرا وانتقلت العاصمة اليه يمتاز باتساع رقعة اراضيه التي يرويها النيل وامتداد هذه الاراضي الى الجنوب مسافات بعيدة وفوق ذلك فالاراضي التي تقع على شرقي النيل وغربه وخاصة الشرقية تهطل فيها امطــار بكميات تنبت العشب للمراعي . وقد تصلح للزراعة المطرية وتنبت من الاشجار ما يصلح لصناعة المراكب وللوقود ، وتمر عليها القوافل التجارية متجهة للشرق حتى سواحل البحر الاحمر وغربا لكردفان ودارفور وربما لابعد منها ، وشمالا تصلها بالجزء الشمالي من المملكة ، وجنوبا بارض الرقيق وحاصلات المناطق ذات الامطار الغزيرة . وامتازت مروى بصناعة الحديد حيث توجد الاحجار التي تحوي المادة الخام له ، وحيث خشب الوقود لصهره متوفر ، وربما كانت بداية هذه الصناعة منذ عهد تهراقا حيث تبين له ان قوة الاشوريين الكاسحة تعتمد في الدرجة الاولى على الاسلحة المصنوعة مــن الحديد ،

وكانت آنذاك بمثابة سلاح جديد يجعل من القوة التي تستخدمه لاول مرة ميزة حربية لا تقاوم وآثار هذه الصناعة اكتشفت من الاواني والاسلحة التي اكتشفت والتي امتد اثرها على اجزاء اخرى من القارة الافريقية ومن التلال التي لا تزال ظاهرة من خبث الحديد (Slag) وهذه الحقيقة عند اكتشافها جعلت البروفسير سايس يطلق على مروى برمنجهام السودان . تدهورت حضارة مروى القديمة تدريجيا لاسباب لم نتبينها حتى لقيت الضربة القاضية على يد عيزانا ملك اكسوم الحبشية حسب ما دونتها لوحاتهم .

المرحلة الاولى للمسيحية

تلت فترة انقضاء الحضارة المروية حقبة غموض لم يتبين منها شيء نسبة لصمت المصادر عنها ، وتجدد ذكر السودان في المصادر عندما انتشرت المسيحية خاصة في مصر . وتحدثنا الروايات عن وجود ثلاث دول نوبية ، الاولى في الشمال وتسمى نوباديا وعاصمتها فرس ، والثانية في اقليم دنقلا وتدعى المقرة وعاصمتها دنقلة العجوز ، والثالثة علوة وعاصمتها سوبا جنوبي الخرطوم بقليل . وكما حدث في العهود السابقة وفي العهود التالية فان احداث مصر لا بد وان تؤثر في حضارة السودان . فالمسيحية دخلت مصر في وقت مبكر وناهضتها امبراطورية الرومان ، كما ناهضوها في بقية اجزاء الامبراطورية ومصر من بينها وتعرض من اعتنقوا المسيحية الى الاضطهاد وتحت وطأة هذه المقاومة الرسمية هجر بعض المتحمسين للدين الجديد اوطانهم في الوجه البحري ، ولجأوا الى الصعيد ، وبعضهم الى الصحراء ، وتعمق بعضهم اكثر الى بلاد النوبة وكان تأثيرهم على من اختلطوا بهم من النوبيين نتيجته الطبيعية اعتناق بعضهم المسيحية ، ولاسيما ان دياناتهم القديمة بما فيها من ديانات الحضارة المصرية القديمة قد فقدت

فعاليتها وجاذبيتها . والاتصال التجاري بين السودان ومصر وتردد النوبيين على مصر لم ينقطع . وحتى عندما خفت حدة الاضطهاد للمسيحيين في مصر منذ ايام الامبراطور قسطنطين وزالت نهائيا فيما بعـــد عندما اصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي ظلت البعثات التبشيرية كأفراد توالي نشاطها في بلاد النوبة ، ويبرز لنا في هذه المرحلة اسم ثيودور اسقف فيلة وأسوان حيث عاش كرجل دين في تلك المنطقة نحو خمسين عاما وتعـرف وصادق زعماء النوبيين فيما وراء الشلال الاول وتردد على زيارة بلادهم وقام من بين النوبيين زعيم يدعى سلكو ، تحمس للدين الجديد ، ولا غرابة بعد هذا اذا ما انتشرت المسيحية على الاقل في ذلك الجزء الاسفل الموالي لاسوان من الاراضي النوبية .

المرحلة الثانية

ونشطت حركة التبشير واخذت طابعا رسميا في عهـد الامبراطور جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥ م) عندما قضى على كل معالم الوثنية في مصر وأغلق معبد فيلة الوثني بالقرب من اسوان حيث كان يتردد عليه البلميين سكان الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الاحمر وسعى لان يدخل البلميين والنوبيين في المسيحية لتتم له السيطرة على أطراف امبراطوريته ولكـن الصراع المذهبي على طبيعة المسيح جعل الكنيسـة المصريـة التي تنادي بالطبيعة الواحدة للمسيح تدخل في سباق مع انصار الطبيعتين يؤيدهم الامبراطور جستنيان . غير ان الكنيسة القبطية وجـدت في الامبراطورة ثيودورا نصيرا ومؤيدا لها وبالاتفاق مع بطريرك الكنيسة القبطية المنفي ثيودوسيوس دبرت حملة تبشيرية لبلاد النوبة قام بها اثنان من رجال هذا البطريرك وكانا معه في المنفى وهما يوليان ولونجينوس ، ويروي لنا قصة هذا السباق في بلاد النوبة يوحنا الافسوسي وهو على مذهب الكنيسة

القبطية ولذا لا بد من أخذ سرده لتلك القصة بالتحفظ . ذهب في أول الامر يوليان الى مملكة نوباديا لتأييد مذهب الكنيسة القبطية هناك . وما كان لجستنيان وهو يناهض هذا المذهب الا ان يبعث برجال آخريــن من رجال المذهب الملكاني المنادي بالطبيعتين لمناهضة بعثــة جوليان وعرقلــة أعمالها التبشيرية . وفطنت ثيودورا لهذا الامر وبعثت برسالة الى حاكم مصر العليا تهدده ان لم يحجز بعثة الامبراطور ويمكن لبعثة جوليان بالسير ، ويبدو ان نفوذ ثيودورا في الامبراطورية كان كبيرا لدرجة ان هذا الحاكم نفذ أوامرها فعلا ضد بعثة الامبراطور نفسه . فادعى عدم وجــود وسائل النقل لبعثة الملكانية حتى اذا ما حضر يوليان جهز له قافلة حملته الى نوباديا بصحبة ثيودور أسقف فيلة الذي مهد لقبول البعثة اليعقوبية (القبطية) باتصاله الطويل ونفوذه على النوبيين كما قدمنا ، ووجدت البعثة كل اكرام من ملك النوباديين وشعبه . وعندما اتت بعثة المذهب الملكاني وجــدت الطريق مقفولا امامها ولم تنجح في زعزعة عقيدة النوبيين على مذهب كنيسة اليعاقبة وبعد ان بقي نحو سنتين في بلاد النوبة رجع يوليــان وتوفي بعد ذلــك .

وادرك البطريرك المنفي (تيودوسيوس) ان لا بد من مواصلة تبشيره في بلاد النوبة وباستشارته ، عينت ثيودورا لونجينيوس أسقفا لبلاد النوبة ووصلها في ٥٦٩ م بعد ان تنكر واحتضنه النوبيون كمعلم وكمرشد بدلا من معلمهم جوليان المتوفي ومرشدهم الاول ثيودور كبير السن . والذي ظل في أبرشيته في فيلة لا يغادرها . وبقي خمس سنوات وغادرهم الى مصر ليقوم بواجبه في انتخاب بطريرك يعقوبي وحزنوا لفراقه ، وكانوا يودون لو بقي معهم يعلمهم ويرشدهم . وقام لونجينيوس برحلة ثانية لبلاد النوبة سنة ٥٨٠ م حيث وصل نوباديا اولا ثم الى علــوة في السودان الاوسط استجابة لطلب ملك علوة المتكرر لانهم كما يبدو كانوا في حالة فراغ روحي وترامى الى اسماعهم ما قام به المبشرون في مملكة نوباديا وأرادوا اعتناق

هذا الدين الجديد ذي الحيوية بديلا عن دياناتهم الوثنية المتحجرة ويظهر ان حدة النزاع بين الكنيستين لم تفتر فأصدر البطريرك الملكاني حرمانا من الكنيسة للونجينيوس وأصدر صورة من هذا الحرمان لملك نوباديا غير ان النوباديين تعمقت فيهم العقيدة اليعقوبية فلم يأبهوا لذلك .

رحلة لونجينيوس الى علوة

وحين علم رجال الكنيسة الملكانية بعزم لونجينيوس للسفر الى علوة بعثوا برسلهم قبله يخبرونهم بهرطقة ذلك الاسقف وبطرده من الكنيسة المسيحية غير ان ملك علوة عملا بالمعلومات التي وصلته من نوباديا طردهم ولم يستمع لنصحهم ولن يقبل سوى لونجينيوس الذي ذاعت شهرته في مملكة نوباديا . ويبدو ان مملكة مقرة في هذه الحقبة قد اعتنقت المسيحية على المذهب الملكاني او انها كانت حليفة لهذه الكنيسة او انها كانت في عداوة مع جاراتها نوباديا وعلوة . وعلى ذلك كان على الاسقف لونجينيوس ان يتفادى طريق النيل حتى لا يلحق به ملوك مقرة اذى ودبر له ملك نوباديا طريقا في ارض البجة ويتضح لنا ذلك من رسالة بعث بها ملك نوباديا الى الاسكندرية يقول فيها : وبسبب مؤامرات ملك مقرة الشهيرة فاني قد ارسلت ابي لونجينيوس الى ملك البجة حتى يدله على طريق آخر بعيد عن وادي النيل في جبال البحر الاحمر . ومع ذلك فان ملك مقرة سمع بذلك ايضا وأرسل عيونه يبحثون عن ابي في كل مكان ، في السهول والجبال حتى البحر الاحمر يريدون وضع ايديهم عليه ويوقفون بذلك اعماله الصالحة في سبيل الله . ويبدو ان ملك البجة انذاك ان لم يكن معتنقا للمسيحة فانه كان على صلات ودية مع ملك نوباديا . وفي هذه الرحلة التي استمرت نحو سبعة اشهر لاقى الاسقف صعابا وأهوالا عظيمة هو ومرافقوه ، ووصل الى ارض علوة وتلقاه ملكها بالترحاب ويقول « وبشرنا الملك وعمدناه مع كل

اسرته وحاشيته ونبلائه ، وكان عمل الرب ينمو كل يوم » وبذلك اصبحت علوة مثل نوباديا قبلها يعقوبية وكانت مقرة ملكانية كما يبدو اذ يعتقد ان بعثة جوستينيان التي فشلت في نوباديا ربما اتخذت طريقها جنوبا وتم لها تحويل مقرة الى المسيحية على المذهب الملكاني .

مملكتا مقرة وعلوة

ولا تنير لنا المصادر ما حدث بعد هذا حتى اذا ما جاء الفتح الاسلامي لمصر وقضى على نفوذ الملكانيين الذين تؤيدهم بيزنطية اصبحت الكنيسة القبطية صاحبة النفوذ الوحيد في مصر وبلاد النوبة ، ويبدو ان مقرة عندما زال نفوذ الملكانيين في مصر وانقطع مصدر إرشادهم الروحي تحولوا الى المذهب اليعقوبي حيث اتصلوا بالكنيسة القبطية صاحبة السيطرة على الدين المسيحي وزال اسم مملكة نوباديا في المصادر العربية التي تعرضت لممالك النوبة واصبحت لا تذكر الا مملكة المقرة وعاصمتها دنقلا وعلوة وعاصمتها سوبة ، ويبدو انه تم اندماج نوباديا في مقرة . وكل هذه القصص التي تسرد دخول المسيحية في السودان تؤكد ان التحول الى المسيحية بدأ بالملوك وطبقة الحكام والحاشية وان تحول السكان انفسهم لا بد وان يكون تدريجيا وان فهمهم للمسيحية لم يكن على مستوى الحجج اللاهوتية والمنافسات المنطقية الفلسفية العميقة وربما كان انتشارها وفهمها على مستوى فوق المتوسط في الاراضي الشمالية أكثر منه في اواسط السودان واجزاء علوة العليا نظرا لقرب الاجزاء الشمالية من مصر واتصالها بالمصريين وتردد القسس والرهبان والاقباط عليها ، ووجود بعض العادات الوثنية التي تتعارض مع المسيحية نوعا ما دليل على عدم تفهمهم لها تفهما صحيحا . وهذا يفسر لنا ان دولة مقرة في الشمال قاومت التسرب العربي الاسلامي مقاومة شديدة ، ولولا كما سيظهر فيما يلي من فصول ، المنافسات

الشخصية من افراد البيت المالك لما نجحت حملات الدول الاسلامية في مصر على بلاد النوبة ، ومع ذلك كان تسرب الاسلام بطيئا نسبة لتلك المقاومة . اما علوة فلم يكن فهم سكانها عميقا للديانة المسيحية ولانهم في اماكن نائية انقطع وصول الاساقفة لبلادهم ولذا نجدهم في حالة استعداد لقبول المسلمين في بلادهم ، وفي حالة تخوف من سطوة الدول الاسلامية .

حضارة النوبة المسيحية

كان السودان بمملكتيه في العهد المسيحي يحكم على اساس اقليمي اذ لم تكن القبيلة بمدلولها الحالي لها وجود قبل دخول العرب في السودان ، ومع وجود السلطة المركزية وعلى رأسها الملك يحكم الاقاليم ملوك صغار يدينون للملك الكبير بالطاعة والولاء ، وكان للملوك كل شارات الملك من سرير وتاج مرصع بالاحجار الكريمة ومظلة يحملها اتباعه فوق رأسه في تحركاته ، ونظام العرش يسير على نظام الامومة ، فابن الاخت يرث العرش من خاله كما يبدو ، الا انه في بعض الحالات يروى لنا عن ابناء خلفوا آبائهم. وهذا الاضطراب في نظام الوراثة مسؤول عن تلك المنافسات في افراد البيت المالك والتي تنشأ من وقت لآخر . ويظهر من الروايات ان صاحب الجبل في فرس كان اعظم الملوك حكام الاقاليم. وتمثله الصورة التي وجدت في كنيسة صاحب الجبل يلبس عمامة يبرز فيها قرنان وهذا يدل على ان الطاقية ام قرنين التي استخدمت في عهد الفونج كدليل على السلطة مأخوذة من العهد المسيحي. ويبدو ان الملك يمتلك كل الاراضي ويعتبر رعاياه من عبيده لا حق لهم في امتلاكها او التصرف فيها بالبيع والشراء ، وهذا يقودنا الى الاستنتاج بأن المجتمع يتألف من طبقتين : الحكام والشعب ، وأن العلاقة بينهما هي علاقة السيد والمسود . والسودانيون يذكرون لفظة العنج (الانج) كثيرا ويطلقونها على الشعوب التي كانت تقطن البلاد قبل دخول العرب خاصة

في السودان الاوسط ، وفي كردفان والصورة التي تبدو في اذهانهم عـن هؤلاء القوم هي انهم اصحاب حضارة راقية بدليل الحفائر الموجودة الآن في بعض الاماكن ويشيرون اليها بأنها للعنج ، وقد رأيت سلسلـة منها في المرحلة الثالثة من مشروع المناقل قبل ان تخطط للزراعة ولا يتضح لنا فيما اذا كانت ترجع للعهد المسيحي او العهد المروي .

العروبة والاسلام

في بلاد السودان

اتصال المسلمين بالنوبة

تدفقت الجيوش الاسلامية في عهد سيدنا عمر بن الخطاب عبر برزخ السويس الى مصر بقيادة عمرو بن العاص وتغلبت على مقاومة الروم وتقبلهم المصريون بالرضا حيث خلصوهم من حكام بيزنطية . ولكل جيش دخل الوجه البحري في مصر فانها لا بد وان تمتد فتوحاته الى الصعيـــد حتى اسوان وقد فعل المسلمون ذلك جنوبي اسوان تمتد حيث ممالك النوبة وكانت على اتصالات تجارية وثقافية ودينية مع مصر ، ولا بد للجيوش الاسلامية وقد وقفت عند اسوان ان تؤمن هذا الطريق التجاري وان تؤمن حدودها الجنوبية . فدخلت فرقة إسلامية بقيادة عقبة بن نافع في سنة ٦٤١ م ووقع صدام بينه وبين النوبة الشمالية ولم يتوغل المسلمون كثيرا ، والظاهر ان الطرفين اتفقا على هدنة . ولكن ما ان غادر عمرو بن العاص مصر وخلفه عبد الله بن ابي السرح حتى نقض النوبيون العهد وكان لزاما على الوالي الجديد ان يجرد لهم جيشا يتوغل هذه المرة في مملكة المقرة حتى عاصمتها دنقلا (دنقلا العجوز) في سنة ٦٥٢ م واحكـم الحصار حولها ورماهـا بالمنجنيق حتى طلب الملك قليدوروث الصلح .

عهد عبدالله بن ابي السرح

وأملى المسلمون شروطهم على الملك . فقد عاهدهم القائد الاسلامي على الامان لا يحاربهم المسلمون وان يدخل النوبة بلاد المسلمين مجتازين غير مقيمين فيها . وعلى النوبة حفظ من نزل بلادهم من المسلمين او المعاهدين حتى يخرج منها . وعليهم رد كل آبق دخل بلادهم من عبيد المسلمين وعليهم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بدنقلة وكنسه وإسراجه وتكرمته وألا يمنعوا عنه مصليا وان يدفعوا في كل سنة ثلثمائة وستين رأسا من اوسط رقيقهم غير المعيب يكون فيه ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم . وحينما شكا الملك من فقر البلاد وحاجتهم لمؤن من مصر تبرع المسلمون بإمدادهم سنويا بكميات من الحبوب والملابس .

وهذا الصلح ورد ذكره في المصادر العربية باسم البقط ولعله يعني Paetum الرومية ومعناه الاتفاق . واكتفى المسلمون بهذا العهد الذي امن حدودهم الجنوبية واعطى حرية المرور داخل اراضي النوبة للتجار المسلمين وإقامة شعائر دينهم في قلب عاصمة النوبة . وليسوا بحاجة لاحتلالها وضمها للاراضي الاسلامية او التوغل جنوبا حيث تبدي لهم فقرها وقفرها وهم بصدد تدبير حملات لارض غنية في شمال إفريقيا وتثبيت اقدامهم فيما تم فتحه من بلدان . واستمرت علاقة الدولة الاسلامية بمملكة مقرة المسيحية نحو ستة قرون على اساس هذه المعاهدة .

العلاقات مع البجة

تذكر لنا المصادر لاول مرة عن غارة قام بها البجة وهم سكان الصحراء ما بين النيل والبحر الاحمر على صعيد مصر في سنة ٧٢٥ م ، والظاهر ان

المسلمين ردوا هذا الهجوم وصالحهم ابن (الحبحاب) بعهد يدفع البجة عوجبه ثلاثمائة من الابل الصغيرة وان يجتازوا الريف تجارا غير مقيمين وألا يقتلوا مسلما او ذميا وألا يؤوا عبيد المسلمين ويظل وكيلهم في الريف رهينة في يد المسلمين . وهذا العهد ضمن للمسلمين تأمين حدودهم على الصحراء وفي الوقت نفسه ترك العلاقات التجارية حرة كما كانت من قبل . وظلت العلاقات ودية حتى اذا ما كنا في عهد المأمون العباسي جدد البجة غاراتهم على اسوان وعند سماع الخليفة بالخبر امر بتجريد حملة عليهم وعقد لواءها لعبد الله بن الجهم سنة ٨٤١ م ونتيجة لذلك املى عليهم عهدا جديدا جعل عوجبه بلاد البجة من حد اسوان الى ما بين دهلك (مصوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكا للخليفة وان يكون كنون بن عبد العزيز رئيسهم هو واهل بلده عبيدا لامير المؤمنين . وعلى ملك البجة ان يؤدي خراجا سنويا مقداره مائة من الابل او ٣٠٠ دينار وان يحترم البجة الاسلام وألا يعينوا احدا على المسلمين وألا يقتلوا مسلما او ذميا حرا او عبدا في ارض البجة او في مصر او النوبة وعليهم تأمين حياة المسلمين المجتازين لبلادهم للتجارة او الاقامة . واذا ما دخل البجة صعيد مصر مجتازين او تجارا لا يظهرون سلاحا ولا يدخلون المدائن والقرى وألا يهدموا المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وعلى كنون ملكهم ان يدخل عمال امير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من اسلم من البجة .

الاسلام والعروبة في ارض البجة

يتضح من هذا العهد ان الاسلام شق طريقه قبل هذا العهد لان وجود المساجد والمسلمين الذين يدخل عمال المسلمين بلاد البجة لقبض صدقات من اسلم من البجة دلائل واضحة على انتشار الاسلام سواء كانوا من العرب الذين اقاموا هناك او من البجة الذين اعتنقوا الدين الاسلامي نتيجة

اختلاطهم بالعرب . من النتف التي تذكرها المصادر العربية نعلم عن دخول جماعات من قبائل بلى وجهينة لغرض التجارة او جذبتهم معادن الذهب او المراعي عقب الفتح الاسلامي لمصر ، وبديهي ان يدخل بعض البجة ديـن الاسلام نتيجة اختلاطهم بهم . وعبر فريق من هوازن البحر الاحمر عرفوا فيما بعد بالحلانقة واقاموا في بلاد البجة ثم رحلوا لاقليم التاقة (كسلا) . وعندما انهارت الخلافة الاموية واعمل العباسيون السيف في بني اميـة هربت جماعة منهم الى بلاد النوبة والبجة واستقر بعضهم في مينـاء باضع ودلت الاحداث الاثرية على وجود شواهد قبور اسلامية وعلى مسجد في سنكات ـ يستنتج انها طريق الفارين من الامويين . وبعض الروايـات العربية تقول ببقاء بعض من كانوا في حملة ابن الجهم في ارض البجة وربما نزحت بعض القبائل من صعيد مصر وتوغلت في الصحراء الشرقية تحت ضغط قبائل عربية اخرى . فبلاد البجة اذا اصبحت مجـالا حيويا لقبائل عربية مسلمة بعضها جذب ببريق معدن الذهب وبعضها تحت ضغط قبائل اخرى وبعضها تخلف بعد نجاح حملات تأديبية وبعضها عـبر البحر الاحمر واستقر على الساحل الغربي وبعضها تبعت موارد المياه والعشب لانعامها واغنامها وبعضها لجأ الى الصحراء متوغلا فيها خوفا من سيوف العباسيين .

رحلة ابن ملك النوبة لبغداد

اصبح دفع ثلاثمائة وستين من الرقيق سنويا للمسلمين في مصر عبثـا ثقيلا على النوبة ، فهم يؤدونـه على مضض خوفا مـن سطوة الدولـة الاسلامية لانه استنزاف سنوي لايديهم العاملة وربمـا يحصلون عليه ممن جاورهم بعد شن الغارات عليهم واذا تعذر ذلك يؤدونه من ابنائهم حسب رواية البلاذري . وولاة المسلمين من جانبهم لا يتهاونون في هذا البقط فاذا ما امتنع النوبة عن ادائه شنوا عليهم الحملات لارغامهم على دفعه او امتنعوا

عن دفع ما يقابله من حبوب وملابس . وفي عهد الخليفة المعتصم العباسي كان ملك النوبة زكريا بن يوحنس وابنه جورج . فحرض الابن الشاب والده على عصيان المسلمين وألا يقبل مذلة او مهانة بعد اليوم بأدائه البقط ونتيجة لفورة الشباب وبدافع العزة القومية امتنع النوبيون عن اداء البقط مدة اربعة عشر عاما تعرضوا خلالها لضغط متزايد من قبل ولاة المسلمين في الصعيد الاعلى لمصر . ولكن زكريا رأى ألا يبدأ بحرب المسلمين إلا بعد استطلاع احوالهم ومعرفة مدى قوتهم . وتنفيذا لهذا رأى ان يبعث بابنه جورج وهو زعيم المقاومة لنفوذ المسلمين الى بلاط الخليفة ببغداد ليشاهد بنفسه قوة المسلمين ويقيس عليها استعداد النوبة لمحاربتهم . وهناك في عاصمة العباسيين بهرته حضارة المسلمين وقوتهم واقتنع بأن لا طاقة لهم بمقاومة الدولة العباسية .والمعتصم من جانبه أكرم وفادة ابن ملك النوبة واحسن معاملته واتفق معه على تأدية بقط سنة واحدة كل ثلاث سنوات ، وان يستمر المسلمون في تأدية ما كانوا يرسلونه للنوبةوأصدر الخليفة اوامره بالافراج عن سجناء النوبة نتيجة لطلب جورج غير انه لم يجبه على طلب إزالة الحامية العسكرية التي اقامها المسلمون بمدينة القصر .

حملة القمي على ارض البجة

تركنا البجة والخليفة المأمون العباسي عن طريق قائده عبد الله ابن الجهم يملي عليهم شروطا قاسية جعلتهم حسب منطوق العهد عبيدا لامير المؤمنين ، ولكن من يعرف طباعهم يتيقن انهم لا بد من ان يثوروا على هذا الظلم والعهد الغير متكافىء فاغاروا في عهد المتوكل العباسي على مناجم الذهب بالعلاقي فندب المتوكل لحربهم محمد بن عبد الله القمي سنة ٨٥٤ م وأمر واليه على مصر ان عده بالرجال وقاد القمي جيشا عرمرما يبلغ تعداده عشرين الفا من نظامي ومتطوعين ، وعند مروره على وادي العلاقي تبعه

من ربيعة ومضر واليمن نحو ثلاثة آلاف ، وحملت المراكب المؤن الى ميناء عيذاب . وكانت خطة البجة هي عدم الالتقاء في معركة في اول الامر بل المطاولة والمناوشة البسيطة وامتداد خط مواصلات المسلمين حتى يوغلوا في الصحراء وتنفذ اقواتهم وبعدها يلاقونهم على هذه الحالة من الجوع ونقص الكفاءة الحربية ولكن القمي قابل هذه الخطة بما افسدها اذ ظلت امداداته بالمراكب تتوالى الى ميناء عيذاب في فترات وأخذ زمام المبادءة في القتال حتى تمكن من الغلبة عليهم ، وعندها طلب ملكهم علي بابا الصلح بأن يدفع الخراج وألا يمنع المسلمين من العمل في المعدن . وافق القمي على الشروط وزادها بأن يطأ علي بابا بساط الخليفة في سر من رأى عاصمة العباسيين آنذاك وهناك اكرم الخليفة وفادته .

تجمعات العرب في المناجم

نقل علي بابا الى قومه ما شاهده من عظمة وقوة المسلمين في عاصمتهم وادركوا ان لا قبل لهم بمعاداتهم وتدفق مزيد من العرب على معادن الذهب واكتشفت مواطن اخرى في المنطقة وترك لهم امر استغلال المناجم لان البجة على ما يبدو لم تكن لهم خبرة بأمرها ، واكتفوا بمساكنة ومجاورة ومصاهرة العرب وربما زاد عدد من اعتنق الاسلام منهم ، وبسطت الدولة الاسلامية نفوذها على المنطقة ومما زاد في هجرة أعراب البادية من مصر نحو اراضي البجة سياسة الخليفة المعتصم العباسي المتجهة نحو تجنيد الاتراك في جيشه والاستغناء عن خدمات العرب ونتيجة لذلك امر والي مصر بقطع العطاء عنهم ، وثار العرب لهذا القرار وأسر الوالي زعماء الثورة وربما اعقبت هذه الحوادث موجة من الاضطهاد لهم مما ادى الى هجرة بعضهم جنوبا في الصحراء حيث استقرت قبائل قبلهم ، وهذه السياسة الجديدة نحو العرب قادت الى تعيين حكام وولاة مصر من الاتراك دون العرب وابتدع ابن

المدبر والي الخراج في مصر ضرائب مختلفة زادت في حنق العرب نحو الاتراك اظهروه في ثورات اخضعها الاتراك بعنف وامتلأت السجون من الزعماء مع فرض الغرامات واتجهوا منسابين نحو الجنوب والغرب مبتعدين عن هذا الجو العدائي وهم ابناء الصحراء ولهم في الاماكن التي هاجروا اليها اهل وعشيرة استقروا هناك .

حملات العمري

وعندما تسلم زمام السلطة في مصر احمد بن طولون واعلن قيام الدولة الطولونية سنة ٨٦٨ م جهز حملة حربية الى بلاد النوبة والبجة بقيادة ابي عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمري واشترك كثير من العرب في هذه الحملة خاصة ربيعة وجهينة ، ولعل الهدف الاكبر لهذه الحملة هو الاستيلاء على مناجم الذهب واكتشاف غيرها نتيجة الروايات التي بولغ فيها زيادة على تأمين حدود الدولة من غارات النوبة والبجة ، وسار العمري بجيشه سنة ٨٦٨ م حتى وصل الى اقليم شنقير (يظن انها منطقة الرباطاب والمناصير) واهتدى الى مواقع جديدة للتبر واقام قواعد على النهر للحصول على المياه لحياة الاستقرار وتغلب على قوات جورج الاول ملك النوبة . ثم تحـرك شمالا عندما سمع بخروج بعض قبائل الشام عليه بعد ان اقاموا في منطقة إدنذان باتفاق مع النوبيين وهزمته فانسحب شمالا واتسعت منطقة نفوذه حتى منطقة عيذاب شرقا وحدودها الشمالية اسوان . وخشي ابن طولون على نفسه من اتساع نفوذ العمري وارسل جيشا لمحاربته فانهزمت جيوش ابن طولون امام العمري وتحرك شمالا حتى إدفو ، إلا انه رأى الرجوع الى منطقة نفوذه في المناجم ، وانشقت عليه قبيلة ربيعة وحاربته غير انه هزمها وكانت نهايته على يد اغتالته من قبيلة مضر . وبعد موت العمري كان هناك خلق كثير من ربيعة وجهينة خاصة حول اسوان وتنازعوا على امتلاك

معادن الذهب بالعلاقي غير ان الغلبة كانت لفريق من ربيعة استمال البجة وتزوجوا بنات رؤسائهم .

الاسلام والعروبة بين البجة والنوبة

فالعمري وهو شخصية دينية فذة نشر بغزواته هذه في ارض البجة والنوبة الاسلام والثقافة العربية وزاد من عدد العرب الذين استقروا في المنطقتين وبالتالي في الفرص التي اتاحها للاختلاط بين سكان البلاد الاصليين والعرب الوافدين ، وحدث ما يمكن ان يحدث في مثل هذه الظروف عند التقاء حضارة ناشئة ذات فعالية بحضارة متدهورة اذ لا بد من غلبة الاولى على الثانية . فالمسعودي حين زار مصر حوالي سنة ٩٤٠ م يحدثنا عن اختلاط عرب ربيعة بالبجة في منطقة المناجم وباتحاد الفريقين تغلبوا على من ناوأهم سواء كانوا من النوبة او غيرهم من السكان ، ويذكر ان اميرهم ابا مروان بشر بن إسحق بن ربيعة يتحكم في جيش قوامه ثلاثة آلاف فارس من ربيعة ومن حالفهم من العرب وثلاثين ألفا من الحدارية (ولعل اصلهم من حضرموت) على الابل ويتضح لنا من هذا الوصف ان دولة عربية صغيرة قامت في تلك البلاد . ويذكر لنا المسعودي وصول الاسلام الى جزيرة سواكن حيث تقيم جماعة اعتنقت الاسلام تعرف بالخاسة . وفي بلاد النوبة السفلى الموالية لاسوان يحدثنا المسعودي عن جماعات من قبائل قحطان وربيعة وقريش تقدموا من أسوان جنوبا حيث اشتروا اراضي من النوبة ووجدوا مقاومة من ملوك تلك الجهات بحجة ان النوبيين عبيد لملوكهم ولا يحق لهم بيع الاراضي ولكن العرب عند التقاضي لدى حاكم اسوان لقنوا النوبيين حجة انهم ليسوا بعبيد ولهم حق التصرف في املاكهم وقضى الحاكم بصلاحية البيع ومع ذلك فملاك هذه الاراضي من المسلمين ظلوا يدفعون خراجا عنها لملك النوبة المسيحي كل

ذلك حدث في النوبة السفلى اما النوبة العليا في جهات دنقلا شمالا الى الشلال الثاني فالعرب يسمح لهم بالتجارة لا بالاقامة حسب نصوص عهد ابن ابي السرح .

تجدد غارات النوبة

في اواخر عهد الاخشيديين عندما بدأت الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا ترنو بأبصارها نحو مصر وحين شعر النوبيون باضطراب الاحوال في مصر وعدم استقرارها نشطوا في غاراتهم فبدأوا بالواحة الخارجة سنة ٩٥١ م واعقبوها بأخرى على اسوان سنة ٩٥٦ م وكان على الدولة الاخشيدية ان ترد هذا العدوان فبعث انوجور بن الاخشيد محمد بن عبد الله الخازن بجيش سنة ٩٥٧ م ولاقى النوبيين في معركة هزمهم فيها وتقدم نحو الجنوب حتى ابريم وسبى وغنم ورجع الى مصر . وفي عهد كافور غزى النوبيون صعيد مصر متقدمين شمالا حتى أدفو ونتيجة ذلك كله هو الامتناع عن دفع البقط .

اول اتصال بالفاطميين

وعندما دخلت جيوش الفاطميين بقيادة جوهر الصقلي مصر سنة ٩٦٩ م وعلم جوهر بغارات النوبيين داخل الاراضي المصرية في اواخر عهد الاخشيديين وامتناعهم عن دفع البقط بعث باحمد بن سليم الاسواني للملك النوبة جورج يطالبه بدفع ما عليه من بقط للدولة الاسلامية في مصر وعرف جورج قوة الفاطميين وخضع للامر وادى ما عليه . وهناك رواية تقول بان جوهرا دعا الملك جورج لاعتناق الاسلام وهذه الرواية محتملة نسبة لما عرف عن الفاطميين من سياسة الدعاية والتوسع . وبقيام دولة اسلامية

جديدة في مصر اشتد نفوذ العرب في بلاد النوبة السفلى حيث يروي ابن سليم هذا أن المسلمين هناك كانوا في حالة من الاستقرار والاستقلال في المنطقة وكانت لهم أملاك يستغلونها لصالحهم ، وروى أن كثيرا من النوبيين اعتنقوا الاسلام مع تمسكهم بلغاتهم وجهلهم باللغة العربية ويعتقد أن العرب أنفسهم تعلموا لغة النوبة . ويزيد ابن سليم أن المسلمين توغلوا داخل الاراضي السودانية حتى اقليم مملكة علوة وعاصمتها سوبا لغرض التجارة حتى أنه أصبح لهم رباط خاص به جماعة من المسلمين . وكان عهد الفاطميين بأكمله عهد ود ومصالحة مع النوبة .

كنز الدولة

ذكرنا قبلا ان عرب ربيعة أنشأوا دويلة اسلامية امتد نفوذها من اسوان جنوبا في بلاد النوبة وشرقها في الصحراء الى البحر الاحمر وأن مؤسسها هو بشر بن اسحق . ولكن النزاع بين بطون ربيعة في العلاقي وعيذاب أدى الى قتل مؤسس الامارة وخلفه ابن عمه محمد بن علي المعروف باسم ابن يزيد اسحق وارتبط العرب بالنوبيين حيث تزوجوا بنات الزعماء من النوبة وتكونت بذلك طبقة حاكمة في النوبة السفلى أزالت نفوذ الملك المسيحي في تلك المنطقة ، ويبدو ان كثيرا من النوبيين تحولوا للاسلام والدولة الفاطمية سرها امتداد الاسلام لبلاد النوبة واعترفت بالامارة بل استعان الخليفة الحاكم بأمر الله بأبي المكارم هبة الله أمير ربيعة في مطاردة الثائر ابي ركوة وهو من بني امية يحل ركوة لوضوئه . وكان في القيروان ثم مر على بني قرة برقة ودعاهم للثورة على الحاكم فبايعوه وهزموا والي الحاكم هناك وانضمت اليه جماعة أخرى من كتامة وتوالت انتصاراته على جيوش الفاطميين حتى وصل أهرامات الجيزة ولكنه انهزم في الفيوم حيث تخلت عنه بنو قرة وفر لاجئا لبلاد النوبة ونجح ابو المكارم في القبض عليه

سنة ١٠٠٦ م ولذا أضفى عليه الحاكم لقب كنز الدولة تكريما ومكافأة له وصار كل زعيم منهم يحمل هذا اللقب بل عرفت القبيلة بني الكنز وهم الكنوز المعروفون .

النوبيون في جيش مصر

والسياسة التي اختطها الخليفة المعتصم العباسي في أن يجند في جيش الدولة العباسية عناصر غير عربية كالأتراك جعلت احمد بن طولون يستخدم النوبيين في جيشه ، ويروي أنهم كانوا ٤٠ الفا في عهده أسكنهم في حي يعرف باسمهم . ويروي المقريزي أنه حصل عليهم بطريق الشراء ويبدو أنهم لم يكونوا كلهم من سكان بلاد النوبة بل يحتمل أن جلب بعضهم من الاراضي التي تقع في اواسط السودان كرقيق بواسطة تجار الرقيق . واستمرت دولة الاخشيديين في استخدامهم وخاصة في عهد كافور ودولة الفاطميين زادت في عددهم بتشجيع من ام المستنصر وهي سودانية الاصل وحسب بعض الروايات انهم بلغوا في ذلك العهد ٥٠ الفا وكانوا وهم بهذه القوة عنصرا هاما في اخماد الثورات وفي التكتلات الحزبية داخل الهيئة الحاكمة . ولا شك ان بعض النوبيين نزحوا لمصر للعمل هناك بل برز من ابنائهم الذين ولدوا في مصر يزيد ابن ابي حبيب حيث تعمق في العلوم الاسلامية واتصل بعدد من صحابة الرسول الذين شهدوا فتح مصر وتابعيهم وكان والده من سبي النوبة في الحملة الاسلامية الثانية على تلك البلاد ، وابو الفيض ثوبان بن ابراهيم الملقب بذي النون المصري اصله نوبي ودرس الموطأ عن اصحاب مالك بن انس عندما خرج حاجا للحجاز وعرف بعد رجوعه لمصر بميله لحياة التصوف وساح في البلاد الاسلامية حتى توفي بالجيزة وحمل جثمانه لمصر ودفن بها . ولا بد ان بعض من استخدم في مصر من النوبيين رجع لبلاده وحمل اليهم الثقافة الاسلامية واثر على بعضهم باعتناق الاسلام .

علاقة الدولة الايوبية بالسودانيين وبني كنز

كانت علاقة صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الايوبية في مصر سيئة مع الجند السودانيين لانهم حاولوا اقصاءه من الوزارة في عهد الخليفة العاضد الفاطمي وفشلت محاولتهم لانه قاومهم بحملة قادها شجاع الدين البعلبكي سنة ١١٧٢ م ودارت المعارك بين الفريقين في شوارع القاهرة وانهزم الجند السوداني الى الصعيد . اما كنز الدولة فوالى صلاح الدين في حربه مع الجند السودانيين الا ان صلاح الدين كان يتهم بني كنز بتشيعهم للعلوية ومعنى هذا انهم روحيا مع الفاطميين . وحين ارسل اخاه توران شاه بجيش لغزو بلاد النوبة كان من ضمن اهدافه القضاء على نفوذ بني كنز وتوغل توران شاه في النوبة حتى ابريم ، ولكن فقر البلاد جعله يكتفي بهذا القدر من التوغل في البلاد واكتفى صلاح الدين بإقطاع ذلك الاقليم لاحد امرائه وفي هذا دلالة واضحة بأنه لا يود لكنز الدولة السيطرة عليه . فثار كنز الدولة وهجم بجيشه على والي صلاح الدين وقتله ، وكانت هناك حركة في مصر ترمي لاعادة الدولة الفاطمية ويعتقد ان كنز الدولة كان على اتصال بزعماء الحركة . وتمكن صلاح الدين من القضاء على تلك الحركة في مصر وارسل اخاه الملك العادل بجيش الى أسوان فهزم كنز الدولة وقتله ونتيجة لذلك رحل بنو كنز عن اسوان ونقلوا مركز امارتهم الى الجنوب في ارض النوبة وتم اندماجهم مع سكانها . وتذمر جنود النوبة حين استبدلهم صلاح الدين بعناصر كردية وتركية وديلمية وحاول النوبيون استعادة ملك الفاطميين وبالتالي مكانتهم في جيشهم .

عيذاب

كانت عيذاب تعرف بميناء الذهب وهي تقع على ساحل البحر الأحمر

شمالي سواكن بكثير وعندما احتل الصليبيون ارض فلسطين لم يعد طريق سيناء للحجيج المصري والمغربي آمنا فتحولوا الى ميناء عيذاب منذ القرن الثاني عشر الميلادي وعندما نشطت حركة الحجيج بها وتردد عليها المسلمون في ذهابهم وايابهم من الاراضي المقدسة في الحجاز بدأت المراكب التي تحمل بضائع اليمن والهند ترسو بها وبالتالي عمرت منطقتها وزادت حركة القوافل بينها وبين قوص على النيل في مصر . وكان هذا العمران في اواخر عهد الفاطميين الى اوائل دولة المماليك الثانية وكانت دولة المماليك تبعث لها بوالي من قبلها مع الوالي الحدربي وكذلك انشئت محكمة مملوكية يشرف عليها قاض . وتنبه الصليبيون اليها عندما رسخت اقدامهم في ارض فلسطين وعلموا بتحويل التجارة والحجيج اليها وما كان لهم وهم يقاتلون المسلمين بدوافع دينية الا ان يحاولوا القضاء على المركز الممتاز الذي احتلته عيذاب في حياة المسلمين الدينية والتجارية وخاصة اذا علمنا ان الدافع الرئيسي لاثارة الحملات الصليبية على فلسطين كان اعتقادهم بأن السلاجقة جعلوا حجيج المسيحيين الغربيين الى اماكنهم المقدسة فيها صعب المنال . وقاد ارناط حملة في البحر الأحمر الى عيذاب سنة ١١٨٢ م وكان هدفه ارض الحجاز ولكنه فشل.غير انه تمكن من تحطيم ١٦ سفينة وجدها في ميناء عيذاب .

سواكن

وهذه المحاولة الصليبية التي كانت تهدف الى احتلال الاراضي المقدسة الاسلامية في الحجاز ونجاحها في تحطيم ما وجدته من سفن في ميناء عيذاب جعلت حكام المسلمين في مصر يوجهون اهتمامهم لسلامة البحر الأحمر من خطر الصليبيين . فزيادة على تأمين ميناء عيذاب اهتموا بميناء سواكن وهو مخرج لتجارة ممالك النوبة المسيحية في السودان . والظاهر

ان نشاط مصر التجاري لم يقتصر على عيذاب وحدها . ولكن تعداه مينائي سواكن وجنوبا الى موقع مصوع وتعرض حاكم سواكن وحاكم جزر دهلك قبالة مصوع لأموال من توفي في بلادهم من التجار المصريين وأهمل صاحب سواكن احتجاج السلطان المملوكي بيبرس وما كان له الا ان يبعث بحملة تأديبية لسواكن في سنة ١٢٦٥م وكانت النتيجةان فر صاحب سواكن واحتلتها الجيوش المملوكية واستقرت حامية دائمة هناك وبهذا اصبح هذا المنفذ البحري لأقاليم النوبة المسيحية على النيل تحت سيطرة الدولة الاسلامية .

رد الفعل لدى النوبة

يتضح لنا من ذلك ان الدولة الاسلامية في مصر قد سدت على مملكة النوبة المسيحية في دنقلا المنافذ الى العالم الخارجي وخاصة للأراضي المقدسة في فلسطين والتجارة مع الخارج . فميناء السودان الوحيد تحت سيطرة المسلمين وقامت دولة اسلامية صغيرة في النوبة السفلى تحت حكم بني كنز وانتشر العرب في الصحراء وعرف ان نوبة مسيحيي النوبة كانوا يترددون على الاراضي المقدسة في فلسطين وسرهم احتلال مسيحيي الغرب لها وساءهم حين علموا بانحسار ظل الصليبيين عن فلسطين في عهد صلاح الدين الايوبي وفي عهد المماليك بعده وربما تأثروا بموجة اضطهاد قيل انها حدثت للاقباط اخوانهم في الدين على يد السلطان بيبرس حيث اتهمهم بحرق بعض احياء القاهرة سنة ١٢٦٤ م ولو انه لم تظهر المصادر المعروفة لدينا اية علاقات بين الصليبيين في فلسطين ودولة النوبة المسيحية في السودان الا انه يظن ان النوبيين كانوا على علم بالنزاع بين المسلمين وبينهم في فلسطين وخاصة تلك المحاولة التي قام بها ارناط في البحر الاحمر . فهم متعاونون مع الصليبيين في الناحية الدينية وقد احكم المسلمون الحصار عليهم وعزلوهم عن العالم الخارجي وها هم يسمعون عن اضطهاد لحق باخوانهم

في الدين في مصر . تجمعت كل هذه الاسباب لتقود داود متملك المقرة في عاصمته دنقلا العجوز لأن يحاول فك هذا الحصار الذي فرض عليه وليمنع تعديلات اخرى من جانب المسلمين على ارضه .

النضال بين النوبة والمماليك

ففي سنة ١٢٧٢ م اغار النوبيون على ثغر عيذاب ونهبوا متاجرها وقتلوا عددا من اهلها بما فيهم القاضي والوالي ثم على مدينة اسوان فخربوا السواقي وأسروا عدداً من السكان وعندما وصلوا بهم لدنقلة سخروهم في بناء كنيسة . وبدأت بعد ذلك سلسلة متصلة الحلقات من النزاع وإرسال الحملات بين النوبة والمماليك حيث ارسل السلطان بيبرس في سنة ١٢٧٣ م حملة يقودها واليه على قوص وتقدمت حتى وصلت دنقلا لكن داود تقهقر جنوباً حتى لا تناله يد المماليك فعادت الحملة بعدد من الاسرى . ورأى بيبرس ان يستغل النزاع في البيت المالك النوبي حين قدم الى القاهرة شكندة متظلماً من خاله داود الملك لأنه ادعى انه اغتصب الملك منه . فجهز بيبرس جيشا سنة ١٢٧٦ وسار معهم شكندة وتقوى الجيش بعربان الوجه القبلي وبدأت المقاومة لهذا الجيش عند الدر فتمكن المماليك من اخضاع هذه المقاومة الاولى وتابع الجيش سيره واخترق جنادل الشلال الثاني وسلم الارض التي اخضعها الجيش الى شكندة ليحكمها وعندما دنت الحملة من دنقلا خرج لها داود وعشيرته فيما جمعوه من قوة غير ان النتيجة كانت هزيمتهم وفرار داود وجاء شكندة الى دنقلا وتم تتويجه ملكاً للنوبة بنفوذ وسلطة الجيش المملوكي وكانت هذه بداية الحماية المملوكية على مملكة مقرة اذ لم يحاول المماليك ضم البلاد الى املاكهم بل اكتفوا بأن يكون الجالس على العرش من اختيارهم على ان يرتبط معهم بعهد يقطعه على نفسه ومعه شعبه .

شروط المماليك

ولأهمية هذه الشروط والعهود التي بمقتضاها اجلس المماليك شكندة على عرش دنقله نورد اهم ما تضمنته : اصبح شكندة مرتبطا بيمين الطاعة والولاء لسلطان المماليك ونائبا عنه في حكم مملكـة المقرة ويرسل نصف ما تجمعه من المملكة للسلطان ومعه بعض التحف كهدايا ، وهناك ضريبة يدفعها كل نوبي عاقل بالغ تبلغ دينارا كجزية طالما بقوا على النصرانية وان تسلم كل ممتلكات داود ومن تبعه للسلطان وان يمنع شكندة الاعراب من الاستقرار في بلاد النوبة وان يطلع شكندة السلطان على كل الاحوال ، وايدت هذه الشروط بيمين حلفه شكندة . وعندما اكملت الحملة المملوكية مهمتها على هذا النحو اخذت معها عددا من امراء النوبـة كضمان لوفاء النوبيين بالشروط . ويروى ان الحملة حملت معها عددا من اسرى رقيـق النوبة بلغ الآلاف وبيع بأثمان بخسة في اسواق النخاسة في القاهرة . فاذا صحت هذه الرواية فان بلاد النوبة تعرضت لخراب اقتصادي حين حرمت من تلك الايدي العاملة في الانتاج الزراعـي فزادتها فقـرا على فقرها ، والظاهر إن اثر هذه الحملة المملوكية على مملكة مقرة المسيحية في دنقلا كان لها صداها في الجزء الشمالي من مملكة علوة والذي يعرف بالابواب في منطقة شندي او شمالها ، فقد لجأ داود على ما يبدو الى هذه المملكة لأنها مسيحية ولكن ملك الابواب ابى ان يدخل في عراك مع دولة المماليـك بسبب داود فقبض عليه وأرسله مقيدا الى القاهرة حيث اعتقـل الى ان مـات .

تحكيم قلاوون في النزاع بين دنقلة وعلوة

وبالرغم من العهود والمواثيق التي قطعها شكندة على نفسه بالعمل تحت ظل راية المماليك ، فان السلطان بيبرس بعث ببعض الاسماعيلية الى

دنقلا لمراقبته حتى لا تحدثه نفسه بالتمرد ، ومـــات شكندة قتيـــلا في سنة ١٢٧٧ م ربما بيد بعض المتحمسين لدينهم وقوميتهم ، واعتلى العرش بعده امير من البيت المالك يدعى برك الا ان السلطان قلاوون الذي خلف بيبرس في القاهرة لم يطمئن اليه فارسل حملة الى بلاد النوبة انتهت بقتل برك وتنصيب سمامون ملكا بنفس الشروط السابقة . وتذكر لنا مخطوطة تاريخ قلاوون ان ادور ملك الابواب (الجزء الشمالي من علوة) ارسل سفراء له حاملين هدايا لقلاوون يشكون فيه من سوء معاملة سمامون ملك دنقلا ويحكمون في النزاع ويظهرون الولاء والطاعة للسلطان المملوكي . وسمامون من جانبه حينما علم بسفارة ملك الابواب بعث بسفارته وهداياه ايضا للدفاع عن وجهة نظره ، ورأى قلاوون حين اجتمع بالسفارتين ان يبعث بمندوبه للاقليمين للتحقيق فأرسل مبعوثا للملك الابــواب والاجزاء الاخرى الصغيرة من مملكة علوة مع سفراء الابواب عن طريق عيذاب خشية التعرض لهم من قبل ملك دنقلا وبعث برسول آخر للملك دنقلا . ونتيجة لهذا التحقيق اقتنع قلاوون بان سمامون هو الجانب الظالم . ومما زاد الطين بلة انْ مبعوث السلطان الى الابواب قبض عليه جواسيس سمامون عند رجوعه واراد قتله الا ان حاشيته ورعاياه منعوه من ذلك خوفا مـــن ان يخرب السلطان ديارهم ولا شك ان المبعوث حين رجع سالما لمصر ابلــغ قلاوون امر هذا الحادث .

حملة لتاديب سمامون

اظهر سمامون عدم اخلاصه وولائه ، ويبدو انه لم يرسل الجزية والبقط واصبح لزاما على السلطان ان يبعث بحملة لتأديبه . وغادرت الحملة القاهرة في عام ١٢٨٧ على ان يشترك فيها والي قوص الامير عز الدين أيدمر واخذ معه من العربان اولاد ابي بكر واولاد عمر واولاد شريف واولاد شيبان

واولاد الكنز وبنو هلال ، وسار فريق بقيادة الامير علم الدين سنجر الخياط بالبر الغربي وقاد أيدمر فريقا آخر بالبر الشرقي . وكانت خطة سمامون هي ان يجعل جيش المماليك يتوغل داخل مملكته ويلاقيه على ابواب دنقله ، وتنفيذا لهذه الخطة امر نائبه على منطقة الدر ويدعى جريس ، ولقبه الرسمي صاحب الجبل ، باخلاء البلاد والتقهقر جنوبا . وحينما وصل ايدمر بجيشه على مشارف دنقلة خرج له سمامون بجيشه والتحم معه في معركة انتهت بهزيمة سمامون وفراره جنوبا فتتبعه ايدمر الى مسافة خمسة عشر يوما دون ان يلحق به ووقع جريس في الاسر . وبرجوع ايدمر لدنقلا، تم تنصيب ابن اخت سمامون ملكا وافرج عن جريس وثبت في منصبه لأنه اعلن الولاء ؛ ورأى قلاوون ان يبقى ايدمر ليكون ضابطا سياسيا مقيما كمندوب سامي للسلطان ، وبعث بسعد الدين ابن اخت داود وكان بالقاهرة آنذاك ليكون مستشاراً لايدمر ورجع باقي الجيش لمصر .

ظهور سمامون مرة اخرى

ويبدو ان سمامون كان على علم بما حدث في مخبئه ، فما ان غادر الجيش المملوكي دنقلا حتى ظهر مرة اخرى واستعد لاسترجاع ملكه ، ويظهر ان سمامون لم يكن وحيداً في مقاومته للاحتلال المملوكي بل له اتباع وانصار في هذا الامر من افراد الشعب النوبي ، حتى ان ملك النوبة الجديد وجريس معه فرا الى القاهرة ولو ان المصادر لا تذكر ذلك فان ايدمر ايضا غادر دنقلا . وجهزت حملة كبيرة بلغت اربعين الفا ومعها عدد لم يجهز من قبل من المراكب على النيل وسارت من القاهرة سنة ١٢٨٩ واشترك فيها ايدمر وصحبها ملك النوبة وجريس صاحب الجبل ، وعندما مات الملك في الطريق عين ابن اخت الملك داود بدلا عنه ، وقاد ايدمر الفريق الذي سار شرقي النيل كما فعل في المرة السابقة ، والظاهر ان انباء هذه الحملة الكبيرة

وما جرته الحملات السابقة من خراب للبلاد هبطت بحماس من كانوا ملتفين حول سمامون وتخلوا عنه ولذلك فر جنوبا واختبأ في جزيرة على النيل ثم جنوبا الى منطقة الابواب ، وطلب الاسقف والقساوسة الامان من ايدمر واحتل الجيش دنقلة واحتفل بعيد النصر في دنقلة ونصبوا الملك الجديد بالطريقة التقليدية ورجع الجيش لمصر بعد ان بقيت فرقة منه في دنقلة .

ظهور سمامون

وكما فعل قبلا فما ان علم برجوع الجيش لمصر حتى ظهر ووصل دنقلة متخفيا واستمال اليه بعض من خذلوه قبلا وقبض على الامير المملوكي المقيم بدنقلة وارسله ورجاله الى القاهرة وقتل الملك الجديد وجريس صاحب الجبل وكتب الى السلطان يطلب منه العفو والصفح ومهد لذلك بأنه لم يصب الامير المملوكي وجماعته بأذى وارسل مع خطابه بعض الهدايا من رقيق وغيره وتعهد بدفع الالتزامات . وقبل السلطان تأكيدات سمامون ويبدو انه ادرك قوته وسيطرته على البلاد ولا يود تجهيز حملة اخرى لانه كان آنذاك يستعد لازالة اخر معقل للصليبيين في عكا . والى الآن وضح لنا مكر سمامون ودهاؤه ولا غرابة في ان ينقض العهد ويستعيد حريته عندما ترامى الى اسماعه موت قلاوون واظهر استقلاله بأن منع ارسال البقط والجزية سنة ١٢٩١ م ولكنه آثر الدبلوماسية على التمرد الواضح اذ بعث للسلطان خليل الذي خلف والده قلاوون يعتذر عن تأخير البقط الى السنة التالية لأن البلاد اصابها الخراب من الغزوات المتتالية عليها وعندما اصر خليل على ابقاء الالتزامات وتوعد سمامون وعد الاخير بارسال البقط حالا واتفق على ان تكون والدة سمامون وبقية اهله رهائن في القاهرة بدار الضيافة . غير انه لم يمض وقت طويل اذ ارسل سمامون اخاه جريسا للقاهرة يستعطف السلطان بارسال والدته له بدعوى « ان ملوك

النوبة ما يدبرهم غير النساء » كما شكا من ملك الابواب ولكي يجعل طلباته مقبولة لدى السلطان بعث بهدايا من حاصلات بلاده .

حملة جديدة لبلاد النوبة

ضاق السلطان خليل ذرعا بمراوغة سمامون وجهز حملة قادها عز الدين الافرم لعزل سمامون والقبض على امير نوبي يدعى آني لأنه خرج على السلطان ، وتوغلت هذه الحملة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما جنوبي دنقلة لا نعرف الى اي اتجاه ولكنها وراء آني الثائر الذي التجأ اخيرا كما تقول المصادر الى بلاد الانج ، ويظن انه هرب الى جبل الحرازة شمال كردفان . ورجع الافرم الى دنقلا بغنائم واسلاب واسر عددا كبيرا من السكان . اما سمامون فلم يرد له ذكر لأنه هرب الى مكان مجهول ومات او قتل . وكالعادة بعث السلطان خليل بأمير نوبي يسمى بدمة للامير الافرم حيث تمت مراسيم تنصيبه ملكا في دنقلة وعين جريس نائبا للملك وربما كان اخا لسمامون واقسم الاثنان يمين الولاء والطاعة للسلطان وحلف رعاياهما بالولاء للملك الجديد على اساس ولائه للسلطان « لولا مولانا السلطان ما اطعناك ومتى تغيرت ازلناك ونحن نرضى ان يقيم مولانا السلطان ملكا فلاحا او جبليا فان بلاد النوبة ما لها ملك الا مولانا السلطان ونحن رعيته » . وهذه الحملات المتكررة وخاصة الأخيرة زادت في اضطراب الاحوال في بلاد النوبة وهروب بعضهم من ديارهم اذ كان من اول مطالب بدمة من قائد السلطان السماح للهاربين بالرجوع لبلادهم لاصلاح دورهم. وملك الابواب اتباعاً لسياسته السابقة لم يترك مجالاً لسوء تفاهم بينه وبين المماليك اذ بعث برسالة لقائد السلطان يجدد فيه الولاء والطاعة ويخبره بمطاردته للامير الثائر آني فاذا ما تم الاستقرار فان جميع البلاد ستخضع للسلطان . .

حملة الناصر ابن قلاوون

وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون وكان لا يزال طفلا قدم ملك النوبة اماي للقاهرة وطلب مساعدة الدولة المملوكية له ضد اعدائه ، ولم يعرف على وجه التحديد من هم اعداؤه . وجهزت الحملــة بقيادة والي قوص واصطحبها عدد من العربان وتوغلت اكثر من اي حملــة اخرى سبقتها اذ غابت عن مصر تسعة عشر شهرا خلال سنتي ١٣٠٦ ــ ١٣٠٧ م . ويبدو ان هذه الحملة ما جهزت لمساعدة متملك دنقلا خاصة اذ انها حاولت ان تقضي على كل عوامل الشغب في الاقاليم السودانية وكانت اولى مهامها هي تأديب العربان الذين قطعوا الطريق ببرية عيذاب ، فتوغل الجيش في الصحراء بعد اوامر مشددة من الابواب السلطانية للاستهانة بالأخطار ووصلوا عيذاب ومنها واصلوا سيرهم الى سواكن ولاقوا عنتآ في الطريق بسبب قلة المياه ، ومن سواكن اقتفى الجيش العربان وكانوا ينهبون ما يجدونه من اغنـــام وماشية لغذائهم ، ووصلوا الى جبل صغير يقال له ازبينات يقع على شاطىء نهر اتبرة وتابعوا مجرى النهر ثم انتهوا الى جبل كسلان وجبل السوس وهذا حد بلاد التاكه من الحبشة ، ووصفوا ارضا كثيرة الاشجار ولعلها دلتا القاش وقاتلوا قوما يدعون هلنكه ولعلها تحريف للحلانقة . ثم رجعوا الى نهر اتبره الى الجبل الذي سموه اربينات ودخلوا بلاد الابواب وعندما استدعوا ملكها خاف من دخول المعسكر وارسل لهم مائتي رأس من البقر والاغنام وكمية من الذرة ولم يكتف الجند بذلك بل نهبوا ما صادفوه في طريقهم من الذرة ثم توجهوا لأرض دنقلة خــلال ارض كثيرة الاشجار والافيلة والقرود والنسانيس والوحش الذي يسمى المرغفيف (المرفمين وهو الذئب) ووجدوا في دنقلا ملكها عبد الله برشنبو وزودهــم هذا ، وبعدها توجهوا الى اسوان ثم قوص . قد نستطيع ان نعين الاماكن التي مروا بها في هذه الحملة وان نصحح التحريف في الاسماء ولكن الغابــة

الكثيفة التي تسكن فيها الفيلة والوحوش بين الابـــواب ودنقلة قد لا نهتدي اليها .

اول ملك نوبي مسلم

مات اماي قتيلا حسب بعض الروايات سنة (١٢١١) ولعل اغتياله كان نتيجة حماس بعض المتحمسين لدينهم وقوميتهـــم لما رأوا خضوعه للمماليك ، وخلفه على العرش اخوه كرنبس واظهارا لولائه للمماليك سافر للقا ة حاملا الجزية والبقط . وعندما تثبتت اقدامه راودته نفسه بالتخلص من التبعية المملوكية فامتنع عن اداء الجزية سنة ١٣١٥ م وصادف هذا ان بلغ السلطان سن الرشد وارسل على التو حملة الى بلاد النوبة لم تنجح في القبض على كرنبس لأنه لجأ لبلاد الابواب وكالعادة لجأ المماليك الى اختيار ملك جديد من الامراء النوبيين الذين كانوا في القاهرة آنذاك ومنهـم عبد الله برشمبو الذي اسلم وحسن اسلامه في سنة ١٣١٦ م . وعندما علم كنز الدولة وهو ابن اخت كرنبس الهارب طالب بان يجلس علـى عرش المملكة حسب تقاليد النوبيين بان ينتقل الملك الى ابن الأخت ، وايده خاله كرنبس في ذلك بان وصى عليه لاسيما وان نية السلطان اتجهت الى تعيين ملك مسلم فكنز الدولة يستوي مع برشمبو في الاسلام ويزيد عليه بانه ابن اخت الملك . غير ان السلطان اصر على تثبيت برشمبو واحتجز كنز الدولة ومنعه من العودة لبلاد النوبة . اما كرنبس فيروي ان ملك الابواب قبض عليه وسلمه لجنود السلطان . وهكذا تربع عرش مقـرة المسيحية اول ملك مسلم .

كنز الدولة

لأمر ما لم يستقر عبد الله برشمبو في عرشه ولم يعترف به النوبيون

لانه حسب رواية النويري غـيّر قواعد البلاد وتكبر على رعيته وعاملهم بغلظة ، غير ان نهايته كانت على يد كنز الدولة الذي افرج عنه من الاعتقال في القاهرة ولم يكن راضيا منذ البداية على تعيين برشمبو. لانــه يرى في نفسه اللياقة من حيث انه سلالة امراء من المسلمين وزاد على ذلك انه ابن اخت الملك ووصل الى الدر سنة ١٣١٧ م والتف حوله النوبيون هنـاك ونادوا به ملكاً عليهم ، ويبدو ان العرب في المنطقة ناصروه ايضا وتقدم جنوبا وحارب برشمبو وهزمه واعتلى العرش ولكنه لم يضع تاج الملك على رأسه متظاهرا باكرامه وتعظيمه لاخواله ، ولكن الراجح ان التاج يحمل علامة الصليب ولا يليق به وهو مسلم ان يحمله على رأســـه . وما كان للسلطان الناصر ان يعترف بهذا الملك الذي وصل اليه كنز الدولة بدون تأييد الدولة المملوكية وكذلك اطلق سراح ابرام احد اخوة كرنبس وطلب اليه ان يقبض على ابن اخته بالحيلة ووعده باطلاق سراح اخيه واعادتـه لعرشه . وفي دنقلا خرج كنز الدولة طائعاً ويروي انه سلم اليه الملك وسارا معا شمالا لحث النوبيين على طاعة ابرام . غير ان الخال قبض على ابن اخته وارسله مقيداً الى القاهرة ، وقبل ان يغادر بلاد النوبة في طريقه للقاهرة مات ابرام والتف النوبيون مرة اخرى حول كنز الدولة ولبس هذه المرة التاج ومارس حقوقه كملك سنة ١٣١٧ م. وبعث بحملة جديدة سنة ١٣٢٣م. تمكنت من تنصيب كرنبس ملكا بعد ان هرب كنز الدولة من دنقلة . ولكن العرش كان على اسس واهية حيث استرجعه كنز الدولة بمجرد مغادرة الحملة لدنقلة .

يتضح من هذه الاحداث التي سردناها منذ ان بدأت علاقة المماليك ببلاد النوبة ان استقلال دولة المقرة النوبية بدأ يضمحل ولم يكتف المماليك بعلاقة دفع البقط كما اكتفى سلفهم من الدول الاسلامية في مصر بل فرضوا جزية وكان لنفوذهم العامل الفعال في تنصيب الملـــوك وكان النوبيون يحاولون التملص من سيطرة المماليك كلما سنحت لهم فرصة حتى اولئك

الذين تربعوا على العرش بنفوذ وحماية المماليك . ويبدو ان الدولة المملوكية ما كانت ترضى عن استقرار العرب في بلاد النوبة لان ذلك ظهر في العهود التي اخذها ملوك النوبة على انفسهم ولذلك كان اعداؤهم لبني الكنز وتفضيل سلالة الملوك الاصليين عليهم . ومع ذلك تسرب العرب واستقروا في بلاد النوبة اما من تلقاء انفسهم او البقاء في البلاد عقب كل حملة مملوكية جردت على بلاد النوبة . وكانوا عونا وعضدا لدولة بني كنز في نضالها ضد المماليك واستمر دخول النوبيين في الاسلام كلما زاد اختلاطهم بالعرب وكلما زار النوبيون الذين يعملون في مصر اوطانهم ، وتقلص نفوذ المسيحية لان الحصار احكم على منافذها على البحر الاحمر وفي حدود مصر وضعفت علاقتهم بمصادر تعاليمهم الدينية في مصر ، بل ان القساوسة في بلاد النوبة آثروا السلامة وخذلوا ملوكهم الثائرين على المماليك في بعض الاحيان فلا غرابة اذا ما زالت المسيحية منها الا القليل جدا في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي وبعدها زالت تماما .

زوال الملك الموحد

للنوبة تقاليدهم القديمة العريقة في الملوكية ، وقد يتنافر أفراد البيت المالك فيما بينهم من وقت لآخر ، غير ان الملك ما زال موحداً حتى اذا ما اعتلى بنو كنز العرش وعمرت بلاد النوبة بكثير من القبائل العربية ثارت العصبيات القبلية وثار الزعماء على الملك وانشأوا امارات صغيرة مستقلة وصارت الوحدة القبلية تطغى على رابطة الدين والاقليم ، ولم نعرف على وجه التحديد متى زال الحكم الموحد في بلاد النوبة ولكن عند تغلب الفونج على مملكة علوة في الجنوب في بداية القرن السادس عشر لم يجدوا فيما كان يعرف قبلا بمملكة المقرة اية سلطة مركزية تبسط نفوذها على الاقليم بكامله بل وجدوها وحدات قبلية او اقليمية صغيرة وهذا من تأثير القبائل العربية.

ويبدو ان بني كنز تقلوا مركز نشاطهم الى النوبـة السفلى لان المصادر تروي سلسلة من حوادث المعارك بينهم وبين المماليك في اسوان وفي النوبة السفلى . وفي اوائل القرن الخامس عشر نسمع عن نشاط قامت به قبيلة هوارة ، وكانت تسكن صعيد مصر . وهاجمت اسوان حيث كان بنو كنز مسيطرين عليها وهزموهم وتقدمت جنوبا في ارض النوبة . وبتقلص الحكم المركزي في جهات دنقلة وبضعف سيطرة المماليك علـــى اسوان سنحت الفرصة لقبائل عربية ان تتسرب الى بلاد السودان امثال جهينة وفزارة وتعمقوا في السودان الاوسط وبعضهم الى الغرب .

مملكة علوة

عندما زالت مملكة مروى على يد عيزانا ملك اكسوم ندخل في حقبة غامضة لا تتبين فيها ما حل بأشلاء هذه المملكة ، ولعل مروى كانت تنحدر وتتداعى عندما خربتها جيوش اكسوم وفرقت شملها ، ويحتمل ان البعض من امرائها والطبقة الحاكمة فروا غربا نحو كردفان ودارفور وان بعضهم ذهب الى ما وراء دارفور غربا حيث تشعر قبيلة اليوروبا في منطقة نيجريا الغربية ان اسلافهم تحدروا من مروى ويقوم بعضهم ببحوث في هـــذا الصدد ، ولكن افراد الشعب لا بد وانهم احتملوا هـــذه الهزة وبدأوا يزاولون حياتهم من جديد ويقفز بنا الزمن قفزته حتى اذا بدأنا نسمع عن نشاط التبشير المسيحي في بلاد السودان عرفنا ان هناك مملكة تدعى علوة وعاصمتها سوبا الشهيرة جنوبي الخرطوم بقليل على الضفة الشرقية للنيل الازرق ولها منطقة شمال الخرطوم تعرف بالابواب ، والظاهر انها كانت اكبر الاقاليم التابعة لمملكة علوة ولا بــد وانهم ورثــوا حضارة مروى المتداعية .

وعندما دخلت الجيوش الاسلامية مصر وبدأت المصادر العربية تصف

لنا طبيعة وحوادث العلاقات بين الدولة النوبية الشمالية المعروفة بمقرّة ، تذكر لنا من حين لآخر علوة وخاصة اقليمها الشمالي المعروف بالأبواب ، وفي كل الحالات التي تذكر علوة او جزءها الشمالي يتبين لنا انهم يودون المصالحة والمسالمة ولا يريدون الاصطدام بقوة الدولة الاسلامية في مصر .
ويصف لنا المقريزي نقلا عن ابن سليم الاسواني مملكة علوة بأن سوبا عاصمتهم تقع شرق الجزيرة الكبرى بين البحرين وفيها « ابنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ولها رباط فيه جماعة من المسلمين ومتملك علو اكثر مالا من متملك المقرة واعظم جيشا وعنده من الخيل ما ليس عند المقري وبلده أخصب واوسع والنخل والكرم عندهم يسير واكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الارز منها خبزهم ومزرهم واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي والمروج الواسعة حتى انه لا يوصل الى الجبل (الصحراء) الا في ايام وعندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب ودينهم النصرانية يعاقبة واساقفتهم من قبل صاحب الاسكندرية كالنوبة وكتبهم بالرومية (اليونانية) يفسرونها بلسانهم وهم اقل فهما من النوبة وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه يسجدون له ولا يعصون امره على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيس فليكن امره وهو يتوج بالذهب والذهب كثير في بلده » . ووصف ابن سليم ان بعضهم يعترف بوحدانية الله « ويتقربون اليه بالشمس والقمر والكواكب ، ومنهم من لا يعرف الخالق ويعبد الشمس والنار ، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة او بهيمة » .

وصف لحضارة علوة

يتضح من وصف ابن سليم بامكانيات علوة التي تتفوق على المقرة وهذا يؤيده الواقع الجغرافي الذي لا يتغير كثيرا ، فاتساع رقعة علوه

وهطول الامطار فيها وتوفر المراعي والزراعة المطرية يجعلها من الناحية الزراعية والرعوية مجالا حيويا لحشود القبائل العربية المتدفقة من الشمال ، وطبيعة اراضي علوة تناسبهم اكثر من رقعة دنقلا الضيقة ومسيحيتهم حتى عند الذين اعتنقوها من السكان لم تكن بدرجة من التعصب تجعلهم يقاومون هذا الزحف العربي المتدفق وبعضهم لا يدين بالمسيحية او يمزج بينها وبين الوثنية ، وفوق كل ذلك فارض الله واسعة لا يشعرون بضيق او منافسة بالوافدين عليهم ولاسيما اعراب البادية ، لانهم يحتلون اماكن خالية او شبه خالية من السكان اذ المعروف عن الحضارات التي سبقت دخول العرب انها مستقرة لا بدوية متنقلة . وهذه الصورة التي رسمها لنا ابن سليم قد تتعدل نوعا ما بالحفريات التي سيقوم بها الاثريون في هذه المنطقة .

تدهور علوة

والظاهر ان انتشار القبائل العربيـة في السودان الاوسط وسقوط المملكة المسيحية وقيام دولة اسلامية في مقرة سنة ١٣٢٣ ميلادية قطع الاتصال بين الكنيسة المسيحية في علوة وبين مصدر ارشادها في مصر ، وكان لأثر ذلك ان اهملت الطقوس الدينية وهجرت الكنائس وتداعت وخاصة اذا علمنا ان معظمها بني من الطين ، ويحتمل ان العرب عندما اشتد ساعدهم في تلك الاقاليم قاموا باعتداءات على السكان وسبوهم ، ولو انه لم يصلنا نص صريح ، الا انه قياسا على ما قامت به بعض القبائل العربية من اعتداءات في جهات افريقية اخرى وعلى شعب اسلامي افريقي لا يستبعد مثل هذه الاعتداءات اذ وردت شكوى من سلطان برنو الى السلطان الظاهر ابي سعيد برقوق سنة ١٣٩٢ ضد بعض الاعراب قال فيها : « فان الاعراب الذين يسمون جذاما وغيرهم قد سبوا احرارنا من النساء

والصبيان وضعفاء الرجال وقرابتنا وغيرهم من المسلمين... وهؤلاء الاعراب قد افسدوا ارضنا كلها في بلد برنو كافة حتى الآن وسبوا احرارنا وقرابتنا من المسلمين ويبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم ويختدمون ببعضهم ..»

وصف لعلوة في آخر ايامها

وعندما تقارن الصورة التي رسمها لنا ابن سليم في أوائل العهد الفاطمي بصورة اخرى رسمها فرنسيسكو الفاريز البرتغالي في أوائل القرن السادس عشر يتضح لنا ما آلت اليه حالة الكنيسة المسيحية في علوة يقول الفاريز: «ان اولئك النوبيين يجهلون دينهم فلا هم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين او اليهود، ويقال أنهم كانوا على النصرانية، غير انهمفقدوا دينهم ولم تبق لهم عقيدة ويأملون ان يكونوا مسيحيين » وعندما وصلوا هذه الحالة من الجهل بتعاليم دينهم ولم يتمكنوا من الحصول على قساوسة من الاسكندرية بعثوا الى نجاشي الحبشة سنة ١٥٢٢ م ليرسل لهم قساوسة يرشدونهم الى دينهم ، ولم يتمكن النجاش من تلبية هذا الطلب حين خاطبهم قائلا : « انه يعتمد على البطريرك في بلاد المسلمين في ارسال « ابونا » فكيف يعطيهم من يتفضل بهم عليه غيره » . واضاف الفاريز رواية سمعها من بعض الاحباش انه منذ وفاة اسقف علوة من زمن بعيد لم يجدوا من يخلفه بسبب الحروب من القبائل العربية في النوبة الشمالية وبذلك تركت كنائسهم بدون رعاية ونسوا نتيجة لذلك كل شيء عن المسيحية ، وذكر حنا السوري الذي زار علوة في اخريات ايامها هذه ان بها ١٥٠ كنيسة قديمة تحمل جدرانها صور السيد المسيح والعذراء فاذا كانت الارقام صحيحة فانه يظهر لنا بجلاء عدد ما تهدم منها ، اذ يذكر ابو صالح الارمني حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي انها كانت نحو ٤٠٠ كنيسة .

الحالة قبيل تاسيس دولة الفونج

بالرغم من انه لا نصوص لدينا تروي لنا حالة السودان قبيل تأسيس دولة الفونج الا اننا مما ورد ذكره سابقا ومن طبيعة الارض ومن مسلك القبائل العربية ومن حالة السكان الاجتماعية والدينية قبل تغلب العرب نستطيع ان نرسم صورة لحالة السودان آنذاك . ففي مقرة تأسس حكـم اسلامي واختلط العرب بالنوبة وزالت تقاليد الملك والحكم التي كانت على اساس اقليمي لا قبلي ولكن الحضارة النوبية تمكنت في كثير من اقليم مقرة على الحفاظ بطابعها التقليدي حيث قبلوا الاسلام دينا ولكنهم ابقوا على لغتهم وتأقلم العرب الذين شاركوهم الديار واعتناق النوبة للاسلام اخرجهم من العبودية لملوكهم وساوى بينهم وبين اخوانهم العرب في المركز الاجتماعي. غير ان طابع النعرات القبلية كانت له الغلبة في اسلوب الحكم اذ انقسمت البلاد الى امارات دون حكم مركزي قوي موحد . وفي اقاليم علوة تكاثر العرب وتغلبوا عدديا على السكان الاصليين واعتنق شعب علوة الاسلام ولم يكونوا كلهم على دين المسيحية ومن كانـوا على هذا الديـن جهلوه والاسلام انقذهم من العبودية لملوكهم وتغلبت العربية على اللهجات المحلية. وفي اقليم البجة ايضا تفاعلت العناصر الاصلية مع العناصر الدخيلة وصار الاسلام دين الجميع الا انه كما حدث في كثير من اقاليم مقرة اعتنق البجة الاسلام وامتزجوا مع العرب غير انهم احتفظوا بطابعهم التقليدي ولغتهم وتأقلم الذين كانوا من اصل عربي . والعربي في كل مكان حلّ به يحتفظ بنسبه لقبيلة عربية ومهما ابتعد من موطنه الاصلي فان قوميته العربية اولا وقبيلته او البطن من القبيلة ثانيا ، تاريخ يتلقاه الابناء عن آبائهم من بعدهم وحينما تركزت تلك القبائل في مواطنهـا وامتزجت واختلطت بالسكـان الاصليين الذين اعتنقوا الاسلام اصبح لا مكان لرجـل لا ينتمي لقبيلـة معروفة ، والتف جميع السكان حول زعامة القبيلـة المتغلبة في اقليمهـم

وانصهروا فيها ، وبمرور الزمن ما كانوا يختلفون عن افرادها وبذلك تكونت المجموعات العربية المختلفة في مواطنها الحالية في السودان الاوسط وتكونت امارات ومشيخات عديدة كل منها مستقل عن الآخر عندما بدأ الفونج يبسطون نفوذهم على البلاد .

دولة الفونج الاسلامية

عمارة دونقس ١٥٠٤ م

حوالي اوائل القرن السادس عشر الميلادي وفي فترة الغموض وقلة المصادر عن اخريات مملكة علوة او العنج كما يسمونها في السودان ظهرت دولة اسلامية يرأسها الملك عمارة دونقس من مجموعة تدعى الفونج . وبالرغم من ان هذه الحقبة من تاريخ السودان قريبة منا نسبيا فان مصادرها قليلة ومشوشة والعهد الذي سبقها في علوة المسيحية كان اشد غموضا . وهناك روايات محلية بعضها يلقنه الآباء للابناء وخاصة ما كان متعلقا منها بأيام القبائل ورجالها المشهورين وبعضها دونت في فترات متأخرة سماعية ونقلها آخرون تناولوها بالحذف والاضافة وحتى اول سائح اجنبي دخل مملكة سنار في ايامها الاولى وهو داود روبيني ترك لنا روايات مشوشة مضطربة فيها فجوات وفيها اسماء لاماكن وشخصيات يصعب تحقيقها وانطباقها على الاسماء المعروفة لدينا واختلف الباحثون في تحديدها .

وثار جدل لم ينته بعد حول اصل الفونج ومن اي مواطن دخلوا السودان وفي اي وقت دخلوا في حلف مع العبدلاب ، ومملكة سوبا التي قامت على انقاضها دولة الفونج لم يتضح لنا على وجه التحديد هل كانت نهايتها تدريجية ام كانت بهجوم على عاصمتها سوبا وتخريبها على حسب الروايات ، والروايات الوطنية تفقد احيانا الحاسة الزمنية مما يجعل مهمة

الباحث بالغة الصعوبة ومع ذلك فلا بد لنا من الاعتماد على مصادر مكتوبة ومدونة عندما نبدأ قصة التأسيس الاول كدولة الفونـج ، وهنا يبرز لنا مصدران رئيسيان في هذا الصدد اولهما مخطوطة للشيخ احمد كاتب الشونة الذي عاصر اواخر عهد الفونج واوائل عهد الحكم التركي المصري وعمـل حينا في شونة الخرطوم ، ولذلك سمي بكاتب الشونة ، ومخطوطته تسرد تاريخ الفونج منذ تأسيسها وتذكر عن ملوكها الاوائل نبذا قصيرة ولكن عندما تمتد القصة الى عهد تزدحم الحوادث ويطيـل في سردها ، ويبدو انه اطلع على الكشف الذي يحوي ملوك الفونج وتاريـخ توليتهم ، وهـذه الروايات الوطنية تقول بانقضاء دولة العنج في سوبة على يد عمارة دونقس وحليفه عبدالله جماع من عربان القواسمة ، والمصدر الثاني هو داود روبيني يهودي شرقي زار السودان ١٥٢١ وهبط ارض السودان في ميناء سواكن وسافر في قافلة مكونة من ٣٠٠٠ بعير وجهتها ارض كوش ولم يتضح لنا الطريق الذي اتخذته القافلة ولكن الارجح هو الطريق التقليدي الى النيل في بربر او ضواحيها ومنها توغل في البلاد حتى حل على عمارة دونقس في مكان يدعى Lamul ولعلها لولو التي يذكرهـا الشيخ أحمـد على انها في الصعيد الاعلى وجنودها لهم نفوذ في سياسة دولة الفونج لانهم حسب ما يبدو كانوا دعامة جيش عمارة الذي اسس به مملكته وذكر ان الملـك عمارة يقيم على النيل ومن ذلك يتضح لنا ان عمارة في سنة ١٥٢١ كان ملكا مؤسسا لدولة إسلامية وان مقره كان على ضفاف النيل .

تنقلات عمارة في مملكته

كان عمارة أسود اللون حسب ما شاهـده روبيني ويحكـم السود والبيض وكان من عادته التنقل باستمرار في أرجاء مملكته ، وبقي روبيني في صحبته نحوا من عشرة أشهر لم يقم الملك خلالها بل بقي في طواف مستمر ،

تحرسه كوكبة من الفرسان تزيد على الستين تحت إمرة ابي كامل وفي كل مرحلة تبني الرواكيب للاستراحة ، وفي حاشية الملك عدد من الاشراف آل البيت ، ويصف ما يملكه عمارة من الابل والمواشي والاغنام ويذكر وجود التبر في ارضه وحلى نسائه الذهبية . ويتضح لنا من هذا الوصف أمران : اولهما ان عمارة بسط نفوذه على اراضيه الشاسعة لتنقلاته ومروره على رعاياه بدلا من ان يقبع في موضع واحد وثانيهما ان ظهور دولة اسلامية في مجاهل افريقيا جذب اليه رهطا من رواد المسلمين وبعضهم كان من آل البيت وبعضهم ادعى ذلك . وكان الملك يتلقاهم بالترحاب والتكريم ويحتمل ان روبيني نفسه ادعى الاسلام والنسبة لآل البيت ولا نجد تفسيرا لما كان يتمتع به من ترحيب واكرام في السودان وخاصة من الملك غير ذلك .

روبيني يفارق عمارة

ومن روايته نستدل على أن روبيني شعر بأن أمره قد ينكشف حيث يذكر حضور شريف من مكة ومعه كتاب ولعله يحوى الانساب . أخبر هذا الشريف المكي الملك بأن روبيني دعي ودافع عن نفسه ولم يمسه الملك بسوء ولكنه صمم على مغادرة البلاد وسمح له الملك وأمده بخبير وفرسين وبعثه لامين خزانته المقيم بسنار . وصلها بعد ثمانية ايام اجتاز خلالها حسب ما يروى أنهارا من الطين ولعله سافر في أخريات فصل الامطار . ولم يمكث الا يوما واحدا على الارجح في سنار وغادرها الى سوبا بعد رحلة استغرقت خمسة أيام ووجدها خرابا ، ومن كانوا هناك يقيمون في رواكيب حولها . وبعد مسيرة عشرة ايام وصل مملكة آل جعل وهي تابعة لمملكة سوبا حسب ما يروى ، وتحت حكم عمارة ، وملك آل الجعل يدعى أبو عقرب . وفي جبل ام علي كما يعتقد قابل زعيما كبيرا يسمى عبد الوهاب الذي نصحه بأن يسافر الى دنقلة والظاهر أنه اطمأن الى عبد الوهاب حيث مكث ستة ايام

ولكنه استأنف سفره عندما حضر مبعوثون من ملـك سنار منادين عبد الوهاب من الشاطىء المقابل حسب ما يروي روبيني بأن يبقى حتى تصله هدايا الملك من رقيق وإبل ، وفي الحال امتلأت قرب الميـاه ووضعت على ظهور الابل ورافقه عبد الوهاب نفسه عبر الصحراء حتى وصلوا دنقلة . والغريب أنه لا يذكر انه مرّ على قرى وفي هذا دلالـة واضحة على ان مشيخة العبدلاب لم تؤسس بعد ، ولنا رجعـة لموضوعهم ، ويـؤكد لنا روبيني خراب سوبا ووجود مملكة جعل وانها تابعـة لسوبا وتحت امرة عمارة . هل نستنتج من ذلك ان مملكة الجعليين حلت محل مملكة الابواب وعندما سقطت سوبا دانت المملكة لحكومة الفونج التي حلت محل سوبا ؟ هناك احتمال كبير .

حدود الفونج الشمالية

بالرغم من مذكرات روبيني المشوشة والتي أملاها من الذاكرة عند وصوله لاوربا يتضح لنا ان بلاد سكوت والمحس خارجة عن نطاق نفوذه وهذه تؤيد الرواية القائلة بأن قتالا نشب بين قبيلة الجوابرة . منطقة نفوذ الفونج وقبيلة الغربية بمعونة الاتراك نتيجة الحد الفاصل بين حكومة مصر الجديدة وحكومة الفونج الناشئة ايضا وعند مرور روبيني بمنطقة الحدود هذه لاحظ الحد الفاصل . وهـذا يوافق الاحـداث في مصر حيث تغلب السلطان سليم العثماني على آخر دولة للمماليك في مصر سنة ١٥١٧ . وتقول روايات منطقة سكوت والمحس ان الجوابرة كانوا على وشك الانتصار على قبيلة الغربية وعندما شعروا بقـوة الجوابرة استنجدوا بالاتـراك في مصر فخفت سنة ١٥٢٠ سرية جند من البوسنة تحت قيادة حسن قوسي وتمكنوا من التغلب على الجوابرة حيث تقهقروا الى اقليم دنقلا واصبح حسن قوسي حاكما شبه مستقل على بلاد النوبة الا انه يدين بالولاء والطاعة للسيادة

العثمانية في مصر ويرسل لهم جزية وعند وفاته تولت ذريته حكم المنطقة من بعده وجعلوا عاصمتهم الدر وعرفوا بالكشاف الغز .

علاقة الفونج بالعثمانيين

وصل نفوذ بني عثمان كما قدمنا الى بلاد سكوت والمحس وجاوروا الفونج من جهة الشمال واحتلوا سواكن منفذ بلاد السودان الوحيد الى الخارج وخاصة لتأدية فريضة الحج ولا بد والحالة هذه ان ينزعج عمارة من هذه القوة الجديدة الفتية والتي اتخذ سلطانها لقب خليفة المسلمين وبديهي ان تساوره الشكوك عن نيات العثمانيين اذ ربما بقوة الاندفاع هذه وبلقب خليفة المسلمين يتوغلون في اراضيه التي لم يمض وقت طويــل على بسط نفوذه عليها . وهنا تأتي رواية نعوم شقير التي لم يبين لنا مصدرها بان الامام السمرقندي اشار على عمارة بان يبعث الى السلطان سليم ينبئه فيها بانهم يدينون بالاسلام وانهم ينحدرون من قبائل عربية صميمة وتعزيزا لهذه الدعوة بعث له بأنساب القبائل التي تقطن السودان وان هذه الوثائــق محفوظة في استنابول . ولا نعرف عن الامام السمرقندي اكثر من هــذا ولعله ان صحت الرواية من اولئك الرهط من المسلمين الذين وفدوا الى عمارة عندما ترامى اليهم تأسيس دولة اسلامية في قلب افريقيا ولعله هــذا الشريف الذي ذكره روبيني ومعه كتاب من مكة وكــان سببا في رحيله اذ اتهمه بانه دعي . وهذه الوثائق لم تظهر في محفوظات استانبول ولعلها محفوظة في القسم العثماني بمحفوظات القلعة في القاهرة .

اصل الفونج

وقصة الانساب هذه تقودنا الى اصل الفونج . وهم كبقية معظــم سكان السودان الاوسط والشمالي يرجعون باصولهم الى العرب والى بني

امية بالذات . والمصادر العربية تذكر ان بعضا من امراء بني امية هربوا من مصر الى بلاد النوبة والبجة عندما خر صريعا في مصر مروان بن محمد آخر خليفة لهم ، وكانت سياسة بني العباس ترمي الى ابادة البيت الاموي . فلا غرابة اذا ما توغل بعضهم في مجاهل افريقيا وقفارها خوفا من سياسة الابادة هذه . يروى ان اميرا من هؤلاء ، وفد على ملك النوبة وناقشه في مسألة خروج المسلمين على قواعد دينهم وطرده الى مصر حتى لا تحل اللعنة ببلاده بقدوم هؤلاء الذين لم يراعوا قواعد دينهم . والآثار في منطقة البجة كشفت عن مسجد في سنكات وعن آثار قبور اسلامية منتشرة في الطريق المؤدي ارتريا . ويمتد الزمن منذ سقوط الدولة الاموية الى حين قيام دولة الفونج الى نحو ٧٥٠ سنة . فلا بد ان زواج هؤلاء الامراء الفارين بالافريقيات اثر في الوانهم وطباعهم وتقاليدهم وجعل بعض الباحثين يشكون في هذه النسبة ومنذ ان نشر جيمس بروس كتابه متضمنا اخبار سنار في رحلته لاكتشاف منابع النيل بدأ الجدل بمختلف النظريات عن اصل الفونج .

نظرية اصل الفونج من السلوك

اول من نسب الفونج الى الشلك هو جيمس بروس السائح الاسكتلندي الذي دون معلوماته من نقاط غير مرتبطة بعضها ببعض ويرجح أنه أخذها من أحمد سيد القوم ونستطيع ان نتخيل أحمد سيد القوم يسرد لبروس معلومات مبعثرة عن الاحداث الهامة في تاريخ الفونج منذ تأسيس دولتهم الى سنته التي يروي فيها احاديثه هذه ، ونلاحظ مدى مقدرة بروس عن تفهم لهجة سيد القوم وهي تختلف عما درسه من اللغة العربية ، ولحسن الحظ أن مذكراته التي دون فيها رؤوس الموضوعات والتي نسج منها قصة متصلة فيما بعد في كتابه قد نشرت وها هي حسب ما دونها كروفورد في كتابه « مملكة الفونج في سنار » : مشايخ أعالي النيل الازرق مواطنون من ذاك

الاقليم وهم فونج وفدوا من نفس الاقليم الذي جاء منه شنقالا Shangala الذين طردوا العرب تحت زعامـــة ود عجيب . فازوغلي وقباهي مواطـــن الفونج . ملك الفونج من شنقالا . (الاسم الخاص شلك) ؛ هؤلاء يقطنون في (ثلاث جزر رئيسية) على النيل الابيض وينهبون بواسطة قوارب في أعالي النيل الابيض . وهم كثيرو العدد يأتون غالبا من ثلاث جزر مسيرة يوم واحد صعيد الليس وآخرون صعيد هذه الجزر . ومدنهم تقـع على الضفة الغربية للنهر وعددهم كثير . بين النيل الازرق والنيل الابيض جنس آخر من النوبة ، وهؤلاء هم النوبة الاصليـــين وموطن الذهـــب ، هؤلاء السود الآخرين اتوا من قبا ونوبا وفازوغلي ، وقبا ونوبا تقع نحو آخر حدود كوارا في الاقليم الحار المنخفض جنوب شرقي تلك المقاطعة . ولـم تعرف عن بروس الامانة والدقة في سرد اخبار رحلته وخلط بين حوادث منفصلة تمام الانفصال عن بعضها البعض . فقد ورد في مذكراته هذه . ذكر اولاد عجيب ويقصد به الشيخ عجيب المانجلـــك ثاني مشائـــخ العبدلاب وليس من المعقول ان يكونوا في الوجود عند تأسيس دولة الفونج لانـــه اذا صحت رواية الحلف بين عمارة وعبد الله فالاخـــير هو مؤسس مشيخة العبدلاب وليس احفاده . وفي تاريخ الفونج حروب مع الشلك ومع النوبة وقد احضر منهم عدد كبير كسبايا اسكنهم الملك في قرى بالقرب من سنار وبروس نفسه زارهم ووصف حياتهم . ويتضح من ذكر فازوغلي وقبا ان الفونج كانوا في اول امرهم هناك يؤيده ان عماد جندهم من تلك المناطق ولو صح ان لامول التي ذكرها روبيني ولولو ، التي ذكرها الشيخ احمد كاتب الشونة هما اسمان لمكان واحد مع تحريف احداهما لاشارت كـــل الدلائل على ان موطن الفونج الاول والذي منه بسطوا نفوذهم هو اقليم فازوغلي .

نظرية الاصل من برنو

ويرجع اركل الفونج الى مملكة برنو من رواية وردت في تاريخ برنو تقول بان ماي عثمان احد افراد العائلة المالكة ابعد من برنو سنة ١٤٨٦ وذهب الى اقليم MalaKad وهناك حكم الشرق والغرب لمائة سنة الى ان فتح مملكته الاتراك ويعتبر ان مالكاد هذه هي المكادة وهو الاسم العربي للحبشة ويعتبرها اركل لاثبات نظريته مملكة سنار وعليه فان ماي عثمان او واحد من ابنائه هو المؤسس الاول لمملكة الفونج ونقطة الضعف في هذه النظرية هي ان اقصاء ماي عثمان حدد له سنة ١٤٨٦ وان مدة حكم مملكته حددت بمائة سنة ومعروف لدينا ان دولة الفونج ظلت قائمة لاكثر من ثلثمائة سنة وفوق كل هذا لم نسمع لا من الشلك ولا من السلالة الحاكمة في برنو ان احد افرادهم او مجموعة منهم قامت بتأسيس مملكة سنار والفونج انفسهم مطمئنون على اصلهم العربي الاموي مع الاعتراف باختلاط اسلافهم عبر القرون بالافريقيين وهذا يفسر لهم سواد الوانهم وتأقلمهم بالبيئة وهذا ينطبق على غيرهم من القبائل العربية في السودان .

دور العبدلاب

الروايات المتداولة كما تمثلها مخطوطة الشيخ احمد تجعل لنهاية حكم العنج وبداية عهد الفونج قصة تحالف بين عمارة دونقس وعبد الله جمـاع وباتحادهما انتصرا على العنج وخربا سوبا واصبح عبدالله وكيلا لعمارة في الجزء الشمالي . ولكن داود روبيني في رحلته لم يذكر انه مر على قرّي عاصمة العبدلاب ولم يذكر مملكة بهذا الاسم ، وقد ذكر مملكة آل جعل وملكها ابو عقرب . وهناك دليل آخر يرجح ان مشيخة العبدلاب قامت في وقت متأخر عن قيام مملكة الفونج وهو ان الفونج حسب الروايات قامت

دولتهم سنة ١٥٠٤ م ومؤكد ان الشيخ عجيب المانجلك مات في معركة مع عدلان ملك الفونج في سنة ١٦١١ م ومعنى هذا ان عبد الله وعجيب فيما بينهما حكما اكثر من مائة سنة . والمرجح ان هذا الحلف قام في اخريات عهد عمارة وقد حكم نحو ثلاثين سنة وسبقته الحادات على رأسها عبد الله اضفت عليه لقب جماع لانه جمع القبائل واستقر النظام على سيادة الفونج ووكالة العبدلاب من اريجي شمالا الى الحدود مع النوبة وجنوب اريجي وشرق النيل الازرق وجنوب الجزيرة الى الحدود الاثيوبية يسيطر عليه الفونج مباشرة .

دكين ودنايل ١٥٦٩ م

توالى على حكم مملكة الفونج بعد عمارة ثلاثة ملوك لم تذكر لنا المصادر ما يستحق التنويه به ولكن عندما تربع الملك دكين نرى فيه ملكا احدث تطورات هامة في نظام الحكم . يقول الشيخ احمد عنه : وهو من افخر ملوك الفونج فرتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لها قوانين مربوطة لا يتعداها احد من جميع اهل مملكته وجعل لكل جهة من جهات مملكتـــه رئيسا معلوما وقنن لمن عادته الجلوس بحضرتـــه رتبا الاعلـــى فالاعلى في جلوسهم امامه وما زال شارعا في تمهيد دولته الى ان توفاه الله تعالى سنة ٩٨٥ هـ » . ومن هذا النص يتضح لنا ان تقاليد تعيين المشايخ والرؤساء للجهات المختلفة بدأت تنتظم من عهد دكين . ويبدو ان الشيخ عجيب المانجلك زعيم العبدلاب ووكيل الفونج في قري اشرف على هذه التنظيمات وقام بدور فعال في ارساء قواعدها .

عدلان ود أي ١٦١١ م

تتابع ملوك آخرون بعد دكين لا يسترعون انتباهنا حتى عهد عدلان

حيث تتناول مخطوطة الشيخ احمد النهضة الدينية في عهده بذكر اسماء رجال الدين والصالحين امثال الشيخ ادريس ودالارباب والشيخ حسن ود حسونة والشيخ ابراهيم البولادي والشيخ محمد المصري وتاج الدين البهاري ولكن اهم حادثة في عهده هي خروج الشيخ عجيب على الفونج والتقاء جيش الفونج مع جيش العبدلاب في جريف كركوج على الارجح وانهزمت عساكر عجيب ومات في المعركة وفرت عائلته الى دنقلا ولكن بواسطة الشيخ ادريس ودالأرباب رجعت العائلة وأقام الملك عدلان العجيل اكبر ابناء عجيب شيخا على قرى . وقصة الشيخ عجيب وخروجه عن طاعة الفونج ومجاهرتهم بالعصيان تؤكد لنا المكانة العظيمة التي وصل اليها والنفوذ الذي بسطه على كل الاراضي التي تقع تحت امرته مباشرة وهي تضم قبائل عربية تعتز بأصولها وتمتاز بوعيها النسبي اذا ما قورنت ببقية انحاء السودان وفوق كل هذا كانت في تلك الاراضي نهضة تعليمية دينية عمادها بعض الرواد من انحاء العالم الاسلامي ومن السودانيين الذين درسوا في الخارج وخاصة في الازهر ومن اولئك الذين تلقوا علومهم الدينية على ايدي الفريقين . ويظهر لنا عجيب كشخصية تشجع هذا الاتجاه وتسهم فيه فقد بنى رواقا للسنارية في المدينة المنورة وآخر في الازهر وأكرم العلماء والصالحين واقطعهم الاراضي وقبل شفاعتهم . ورجل له مثل هذه المكانة ومنطقة لها هذا الوعي النسبي لا بد وان يحاول التحرر من اية سيطرة عليه . فلا غرابة والحالة هذه ان يتمرد ويرفض الخضوع المتوارث لسلاطين الفونج ولكن الكلمة الاخيرة في الحرب ليست للوعي ولا لقوة الشخصية بل لقوة الجهاز الحربي وهذا ما كان يتمتع به سلاطين الفونج .

النهضة الدينية

دون لنا مواطننا صاحب « طبقات ود ضيف الله » تراجم لأكثر من ماءتين لروّاد العلوم الدينية من شريعة ومتصوفة وممن يجمع الصفتين

والصورة تبدو واضحة من ان المسلمين قبل تأسيس دولة الفونج كانوا في حاجة الى مرشدين وتم لهم ذلك عندما اصبح الاسلام دين الدولة الرسمي وسأقدم صورا خاطفة عن بعض هؤلاء المرشدين كما وصفهم صاحب الطبقات . يذكر عن الشيخ ابراهيم البولادي بأنه ولد بدار الشايقية ورحل الى مصر وتفقه على الشيخ محمد البنوفري وأخذ عليه الفقه والاصول والنحو ورجع لبلاده ليدرّس فيها خليل والرسالة وهو اول من درّس خليل ببلاد الفونج . وفي اخبار الشيخ ادريس ود الارباب حدث جدل بين العلماء والصالحين عن التنباك والقهوة امتد الى علماء الازهر . وفي حلقة الشيخ صغيرون ألف طالب وتلاميذه صاروا شيوخ الاسلام . والمسلمي جمع بين العلم والعمل وتفقه على الشيخ عبد الرحمن بن جابر وهو احد تلاميذه الاربعين الذين بلغوا درجة القطبانية . وأرباب العقائد شدّت اليه الرحال في علم التوحيد والتصوف وزاد عدد طلبته على الالف من دار الفونج الى دار برنو ، وألف كتابا في اركان الايمان وسماه الجواهر . والمضوي درّس الرسالة والنحو وعلم الكلام والاصول والمنطق وألف كتبا وسافر لسنار للاطلاع على مكتبة الخطيب عمار ودخل على الملك ففرق الديوان لأجله وقام اليه وعانقه وعاتبه واغدق عليه المنح والعطايا . وقدم الى السودان الشيخ تاج الدين البهاري من بغداد في اول عهد الشيخ عجيب وقد نشر طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني وسلك عليه الطريق الشيخ محمد الهميم والشيخ بانقا الضرير وحجازي باني اريحي ومسجدها وشاع الدين ولد التويم والشيخ عجيب نفسه والشيخ حسن ود حسونة المثل الاعلى في الزهد والتقشف والكرم وسافر الى سنار في ركب عظيم ادهش ملك الفونج .

بادي سيد القوم ١٦١١ م

بالرغم من انتصاره العظيم على الشيخ عجيب فان الفونج خلعوا عدلانا

وتولى بعده بادي سيد القوم واستعادوا نفوذهم وسيطرتهم على الاقاليم الشمالية التي حاول الشيخ عجيب ان يحرمهم منها فقد اكدوا سيادتهم على نقطة الجمارك في دنقلا ونصيب الدولة من جمارك سواكن يصلها بانتظام ولأول مرة نسمع عن بدء سوء العلاقات مع الحبشة مستقاة من مصادر حبشية ويبدو ان ملك الحبشة حاول معاملة بادي كتابع وذلك بمعاونة والد بادي المخلوع والملتجىء بالحبشة ومما زاد في الجفوة بين الفريقين ان نايل ود العجيب في الشرق تعدى على الحدود الحبشية ولم يرد بادي على احتجاج الامبراطور وان حاكما تابعا للحبشة لجأ الى منطقة نفوذ سنار ومعه فرسانه ونحاسه وطالب الامبراطور بارجاع النحاس على الاقل ولم يرد بادي وغير ذلك من ضروب عدم التعاون . وتفسيرنا لهذا المسلك من بادي نحو الامبراطور هو ان بادي خاف على ملكه من والده عبد القادر اذ اكرم الامبراطور وفادته واقطعه وربما يذهب خطوة اخرى بأن يمد له يد المساعدة في استرجاع عرشه من ابنه . وتجمعت كل هذه الاسباب لتجعل الامبراطور يفكر جديا في غزو الاقاليم السنارية ولكن حوادثها لم تقع في عهده بل في عهد خليفته رباط .

الحروب الحبشية الاولى
١٦١٨ ــ ١٦١٩ م

بدأت الاعتداءات الحبشية حسب ما ترويه مصادرها بمناوشات على الحدود اولا ثم بوضع خطة هجوم شاملة من اعالي النيل الازرق الى منطقة كسلا ووزع الجيش المعتدي على ثلاثة قطاعات . ففي جبهة القضارف قاموا بهجومين خاطفين لم يصلوا فيهما الى نهر عطبرة ورجعوا بغنائم واكتفوا بذلك بعد ان فر سكان المنطقة داخل السودان . وجيش ثان توجه الى دبركي ولكنه لم يصلها واكتفى بالغنائم . وجيش التاكا لا يذكر عنه الا انه

دخل الاقليم ولم تصل للامبراطور غنائم وربما استولى عليها قادة الجيش . وبعد حين يروي لنا خبر هجوم توغل فيه الاحباش في السهول يهدفون هذه المرة الى اخضاع ملكة اروما التي تتزعم قبائل بدوية ويظهر ان بهـا سوقا كبيرة لقبائل نهر عطبرة واقليم التاكا ووصل هذا الجيش الى اهدافه وحصل على غنائم واسلاب غير ان الملكة فاطمة تمكنت من الهرب واختفت . وعندما بعث لها قائد الجيش منذرا بانه سوف يبقى الشتاء بكامله فـي منطقتها سلمت نفسها له واحضرت امام الامبراطور وعندما راعى ضعفها وكبر سنها عاملها برقة وخاطبها معاتبا اياها لامتناعها عن تأديه الضريبة التي درج اسلافها على تأديتها له . فأجابته بأنها لم تستقبل من يطلبها منذ امد بعيد ، وفي هذه الاثناء خضعت لحكم الفونج . وعندما تم الاتفاق علـى تأدية الضريبة رجعت لبلادها معززة مكرمة . هذه هي القصة كما ترويها مصادر الحبشة . اما مصادر سنار فصامتة ازاءها لانه لم تكن فيها قصص بطولة لجيشهم وملوكهم اولا ولانها في الحدود وبعيدة عن السلطة المركزية ويجب والحالة هذه ان نسلم بقدر من المبالغة في هذه الروايات الحبشية .

بادي ابو دقن ١٦٤٥ م

تولى بعد رباط ابنه بادي ابو دقن ويقول عنه الشيخ احمد « وهو من ذوي الشجاعة والكرم والهمم العالية وقد غزا النيل الابيض وفتـك بسكانه المعروفين بشلك ، وغزا جبال تقلى الواقعة غـرب النيل الابيض بنحو مرحلتين وسبب غزوه لها انه كان له صاحب سافر الى تقلى فتعدى عليه ملك تقلى واستلب ما معه من الارزاق ، فقيل له ان هذا الرجل صديق ملك سنار ، فقال ان ملك سنار اذا قصدني لاجله وتجاوز باجة ام لماع فليفعل ما يفعل » وسمع بادي بالقصة وسار على رأس جيشه وعند وصوله اول الباجة ترجل هو وعساكره من خيولهم لاجتيازها على اقدامهم ، وبعد

ان اصابهم التعب اشار احد الجنود للرجل الذي رافقهم ان ينبيء الملك بانهم اجتازوها ، وركب الملك بعد ذلك وركبت جنوده . وعند مشارف جبال النوبة بدأ بادي يقتل ويأسر في النوبة حتى بلغ مقـر ملك تقلـى الحصين . وصار يقاتل الجيش الغازي بالنهار ويرسل لهم الاقوات بالليل . وتأثر بادي لهذه المعاملة الكريمة وقبل الصلح معه على جزية سنوية خاصة جعلته تابعا لمملكة سنار ، ورجع بسبايا جبال النوبة حيث اسكنها في قرى حول سنار شرق وغرب النيل الازرق ، كل فريق في قرى خاصة بهم سميت باسماء جبالهم التي اتوا منها واصبحوا جندا له وتناسلـوا وتكاثروا في قراهم هذه ، ويبدو انهم اصبحوا عماد الجيش النظامي لمملكة الفونج .

عرف بادي ابو دقن بتدينه واكرامه لاهل العلم والدين ومن عادته ان يبعث بهدايا الى علماء الازهر حتى عرف بينهم بكرمه واكرامه لهم ، ودونت لنا قصائد في مدحه وخاصة من الشيخ عمر المغربي بعضها يصل السبعين بيتا نجتزيء من احداها بما يلي :

أيـا ناهضا من مصر وشاطيء نيلهـا
وأزهرهـا المعمور بالعلم والذكـر
لـك الخير ان وافيت سنـار قف بها
وقـوف محب واتهز فرصـة الدهر
الى حضرة السلطان والملـك الذي
حمى بيضة الاسلام بالبيض والسمـر
هو الملك المنصور (بادي) الذي له
مدائح قد جلت عـن العـد والحصر

واختط (بادي) جامعا بسنار وقصرا للحكومة به ابواب عديدة كل منها مخصص لدخول احد كبار الدولة ، ولكل منهم ديوان خاص للنظر في شؤون الدولة التي تخصه مع الملك .

استقلال الشايقية

وفي عهده تم للشايقية استهلالهم من سيطرة ونفوذ الفونج والعبدلاب ، والقصة كما يرويها الشايقية ان عديلة فارسة شهيرة تركب في طليعة الجيش حين يتقدم الى ميدان القتال ولوجودها في الميـدان اثره السحـري في استماتتهم ، والظاهر انها سنت للشايقية هذه العادة حيث تركب امرأة مع الفرسان في مقدمة الجيش لتحرضهم على القتال ، وقد فعلوا ذلك حين لاقاهم جيش اسماعيل بن محمد علي . ولعديله ابن يدعى عثمان ود حمد تزعم قبيلته اوى هاربا من وجه الشيخ الامين ود عجيب صاحب السيادة بالوكالة على ذلك الجزء الشمالي من دولة الفونج . وارسل الشـيخ الامين لعثمان يأمره بان يسلم الهارب لرسوله او يقتله . ولكـن رد عثمان لم يكتـف بالرفض وعدم الانصياع للامر بل اجاب بان للشيخ الامين الحرية بان يأتي بنفسه لأخذه ان استطاع .

وما كان لصاحب السيادة الا ان يجهز جيشه لتأديب التابع المتمرد ، وعسكر على شاطىء النيل قبالة موطن عثمان ، وبدأ عثمان بخدعة الشيخ الامين حيث ظلت خيوله القليلة ترد النهر لتشرب في الوان وصبغات مختلفة حتى خيل لرجال العبدلاب ان قوة عثمان الحربية كبيرة ، نتيجة لذلك رأى ان يطلب المفاوضة السلمية بدل الحرب ، وعبر عثمان النهر بمفرده وكان ود عجيب يلعب المنقلة مع احد اتباعه حينما اهل عليهم عثمان مـن بعيد وعندما نزل عثمان من ظهر جواده عثرت رجله بالركاب واسر ود عجيب الى احد اتباعه بان الله سلمه في ايدينا فسمع شايقي كان في المجلس هذه العبارة وصرخ قائلا بلهجة شايقية لم يفهمها العبدلاب « وحيـاة الرب شرك ام حبيبة في رقيبتك طب » ومعناها ان شرك الطير كاد يطبق عليك فما عليك الا ان تنجو بنفسك . فأدرك عثمان ما يعنيه قول الشايقي وسرعان ما قفز على ظهر فرسه ورجع مسرعا الى قومه .

وفي الليل البهيم عبروا النهر خلسة وربطوا على ظهور خيولهم حزما من القش الناشف والحطب واشعلوا النيران في المـادة الملتهبة ووجهـوا الخيول نحو معسكر ود عجيب وهم يغطون في نوم عميق ، فألقت الذعر والاضطراب في معسكرهم وهبوا متفرقين مشتتين في كل صوب ، وتركوا زعيمهم دون ان تحدثه نفسه بالهرب ، فقبل الامر الواقع وفرش فروته في انتظار الموت بكرامة وعزة حتى لا يروي عنه الجبن والفرار من الموت ، ووقف عثمان على رأسه شاهرا سيفه موعدا اياه بالعفو والابقاء علـى حياته ان هو اعترف باستقلال الشايقية . وهذه القصة قد يكون مبالغا فيها ، وقد تكون من نسج الخيال ، ولكن الحقيقة الواقعة هي ان قبيلـة الشايقية تمتعت بالحرية والاستقلال عن سلطة الفونج والعبدلاب منذ ذلك الحين . وربما تكون هذه القبيلة شعرت بقوتها منذ وقت سابق وهي لبعد موطنها عن العبدلاب كانت في مركز يمكنها من اظهار هذه النزعة الاستقلالية. ومن روايات السائحين الذين زاروا السودان بعد ذلك الوقت يظهر لنا جليا ان الشايقية كانوا خطرا على طريق القوافل التي تعبر صحراء بيوضة من دنقلا .

النزعات الاستقلالية

ومن رواية استقلال الشايقية هذه ومن القتال الذي حدث بين الفونج والعبدلاب في عهد الشيخ عجيب المانجلك والذي انهزم فيـه وقتل ومن المؤامرة التي دبرها فريق من الفونج بالاتفاق مع العبدلاب ضد الملك . ومن ايام القبائل التي يحفظها شيوخها ويروونها لابنائهم واحفادهم في مختلـف جهات السودان ضد جيرانهم من القبائل الاخرى يتضح لنا جليا ان الحكم في ايام الفونج لم يكن مركزيا موحدا . وعرفنا فيما سبق عن سقوط دولة المقرة النوبية ان القبائل العربية هناك أزالت الحكم المركزي ، ورأينـا

اقليم دنقلة عندما تأسست دولة الفونج منقسما الى امارات صغيرة وحدتها القبيلة لا الاقليم . ولا غرابة في ذلك فرابطة القبيلة عند القبائل العربية هي الاساس وليست الوحدة القومية ، ولا زالت الى وقتنا الحاضر بعض بقايا هذه النعرة القبلية والتي لا يستطيع الباحث التغاضي عنها او اهمالها .

بادي الاحمر ١٦٩٢ م

بعد حكم دام نحو ٣٥ سنة توفي بادي ابو دقن وخلفه ابن اخيه اونسه ولد ناصر وفي عهده دونت لنا الروايات غلاء اجبر الناس على اكل الكلاب ، ولذلك كانوا يؤرخون لها بسنة ام لحم ، ومات خلق كثير من تأثير المجاعة ووباء الجدري ، وعند وفاته خلفه ابنه بادي الأحمر وخرج عليه جماعة من الفونج تآمروا عليه مع الامين ارادب من العبدلاب ونصبوا اميرا من العائلة المالكة ملكا بدلا عنه ، الا انه دحرهم وثبت على عرشه . ويتسم عهد بادي الاحمر بنشاط تبشيري من الكنيسة الكاثوليكية يشرف عليه قنصل فرنسا العام في مصر ، وهدفه تحويل الكنيسة الحبشية من اليعاقبة (الكنيسة القبطية) الى الكاثوليكية ، وربما عاودهم الامل بالتبشير في بلاد السودان واحياء المسيحية فيها واتخذوا سنار طريقا لهم في رحلاتهم للحبشة . ودونوا لنا ملاحظاتهم عن الاقاليم التي مروا بها والشخصيات التي قابلوها ورووا الكثير من العادات والتقاليد .

رحلة بونيسية ١٦٩٨ ـ ١٦٩٩ م

كان لامبراطور الحبشة ابن مريض يريد له العلاج على يد طبيب مؤهل فاوصى تركياً يدعى حاجي علي كان يتردد بين مصر والحبشة ربما للتجارة بأن يتفق مع طبيب لهذا الغرض من مصر . وفي القاهرة اشار القنصل

الفرنسي الى بونسية واغراه بان يذهب للحبشة لتأدية هذه المهمة ولأن سياسة محاولة تحويل الكنيسة الحبشية كانت مقررة ، صحب بونسية مبشر من الجزويت يدعى Brevedent . وصلوا مشو في ٢٦ اكتوبر ١٦٩٨ م عن طريق الواحات ، وفي ارقو مقر الارباب (الحاكم) دفعوا ما عليهم من جمارك ودعاهم الارباب الى قصره المبني من الطوب النيء ، وواصلوا رحلتهم الى دنقلا العجوز واعجبوا بالخيل الدنقلاوية ، ووصموا السكان بانهم يجهلون كل شيء سوى ترديد الشهادة . وهناك دعاهم الملك الى مائدته وافرطوا في شرب الخمر وانطلقت السنتهم في جدال بين الاسلام والمسيحية مع خبير القافلة وعندما احتدم النقاش في هذه المسائل الحساسة اوقفها الملك ، وفي هذا دلالة على ان السكان المسلمين اتصفوا بتسامح ديني حيث سمحوا لسائحين مسيحيين ان يدخلوا في جدل ومناقشة مع مسلم في بلاد اسلامية . وهذه الدعوات لتناول الطعام معهم تدل على اكرامهم للضيوف الغرباء في الجنس والدين .

وعندما غادروا دنقلا يذكرون زعيما يدعى الشيخ قنديل بالقرب من كورتي ، وكالعادة دعاهم لمائدته وحذرهم من السير محاذين للنيل اكثر مما فعلوا لان سكان المنطقة التي تقع فوقهم تمردوا على سلطان الفونج ، وهذا يؤيد استقلال الشايقية . وقطعوا الصحراء وحطوا رحالهم على النيل . وساروا محاذين للضفة الغربية الى ان واجهوا مدينة قرى التي تقع شرق النيل . وعلى طول الطريق كان السكان يمدونهم بما هم في حاجة اليه من المواد الغذائية ، ويذكرون ان احد واجبات المانجل في قرى هو التأكد من خلو المسافرين من مرض الجدري ، فاذا ما كانت هناك علامات تدل عليه حجزوا في كرتتينة وانهم اعفوا من هذا الاجراء كتكريم خاص لهم . وعند مرورهم بالحلفاية لاحظوا عمرانها واتساعها وان بعض ابنيتها كانت بالحجر ، ويذكرون من القرى في طريقهم جنوبا العيلفون وكترانج والكاملين (شرق) واريجي عندما عبروا النيل الى الضفة الغربية ولاحظوا بين اريجي وسنار

غابات السنط الكثيفة بطيورها الغريدة وحطوا رحالهم في مدينة سنار في فبراير سنة ١٦٩٩ م . وفي اليوم التالي لوصولهم قابلوا الملك في سرايه ووصفوه بانه شاب في نحو التاسعة عشرة من عمره اسود ذو هيبة وتقاطيع عربية . وقدموا له بعض الهدايا وقبلها شاكرا ووجه لهم الكثير من الاسئلة عن الاحوال في اوربا وعندما فارقوا مجلسه حملت اليهم في منزلتهم مقادير كبيرة من السمن والعسل وثورين وخروفين واشياء اخرى ، وبقوا في سنار ثلاثة اشهر وبعدها واصلوا سيرهم للحبشة .

وصف بونسيه للحالة في سنار

تقع سنار على مرتفع من الارض وابنيتها من دور واحد وشوارعها غير منتظمة ويسكنها على وجه التقريب نحو ١٠٠،٠٠٠ من السكان . ومن عادة الملك ان يخرج في ركب عظيم كل يوم سبت واربعاء من كل اسبوع الى احدى الضواحي تتقدمه ثلة من الفرسان ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ فارس ، ويحف بالملك عدد من البيادة بموسيقى طبلية صاخبة يتغنون بمدائحه ، ويأتي بعد ذلك موكب عماده نحو ٧٠٠ او ٨٠٠ من النساء والفتيات يحملن سلال الطعام من لحوم وفواكه وفي المؤخرة عدد من الفرسان مثل المقدمة . وعند وصول الركب الى المكان المقصود يترجل الملك وتترجل حاشيته ويجلس الى الطعام وهو ملثم بحرير شفـاف متعدد الالـوان الزاهية ، وتتناول الحاشية الطعام ويتبارى الملك مع كبار دولتــه في التدريب على اصابــة الهدف بالبنادق والذي يذكره بونسية انهم لا يجيدونها ، وفي المساء يرجع الركب بنفس التشكيل الى العاصمة .

ومن عادة الملك ان يجلس في ديوانه في الصباح وفي المساء لادارة شؤون دولته وللنظر في المظالم . وفي سنار تنظر الجرائم ويعاقب مرتكبوها في الحين ، وقد شاهد بونسيه اثناء اقامته في سنار الحكم على شخــص

بالاعدام ضربا بالعصى الغليظة . ويصف بونسيه رخص الاسعار في سوق سنار الذي يظل مفتوحا طيلة اليوم ، ومن منتجات الاقاليم سن الفيل والتمر هندي والزباد والتنباك وتبر الذهب وغيرها . اما الرقيق فيباع في سوق آخر يعقد بالقرب من سراي الملك . ويقوم التجار المصريين بشراء عدد كبير من هذا الرقيق . والنقود المتداولة في السوق فرنسية وتركية واسبانية . ويصف بونسيه الناس بالخداع والدهاء وبميلهم للخرافات وبتمسكهم بدينهم وعندما يقابلهم مسيحي في الطريق ينطقون بالشهادة . وشرب الخمور محرم عليهم ولكنهم يتعاطونها في السر ومشروبهم العادي الخمر يسمونه « بوظة » . ولبس النساء من الطبقة الراقية قميص قد يكون من الحرير او غيره من الاقمشة الجيدة يتدلى الى الارض ، ولعله يصف الثوب لا القميص ، وتتحلى النساء بالذهب ويمشطن شعورهن ويلبسن في اقدامهن نعالا بسيور ، ولعلها (الشقيانة) امـا نساء الطبقات العادية فلباسهن من ما بين اوساطهن وركبهن فقط . والبضائع التي ترد لسنار من الخارج هي : البهارات والورق والنحاس الاصفر والحديد واسلاك النحاس والادوات الحديدية والعطور والكحل وغيرها من ادوات الزينة . وتجار سنار حسب ما يروي بونسيه يتعاملون مع ميناء سواكن حيث يأتون باللؤلؤ من مغاصاته في تلك المدينة ويتاجرون مع مخا في اليمن ومع سورات (الهند ؟) وهناك ينقلون اليها الذهب ، والزباد وسن الفيل ويرجعون بالبهارات والبضائع الهندية الاخرى وقد يغيبون في هـذه الرحلة نحـو سنتين . ويصف بونسيه عادة وحشية عند موت الملك حيث يختار الملك مجلس مكون لهذا الغرض ويأمر بقتل جميع اخوته لازالة فرص المنافسة والمؤامرات .

رحلة كرمب Krump ١٧٠١ م

يؤكد لنا كرمب عمران المنطقة الواقعة بين مشو ودنقلة العجوز ، فهي

مساكن متصلة وبها خرائب كنائس وفي دنقلة حطوا رحالهم خارجها ما يقرب من شهرين حيث طالبهم الارباب هناك بالجمارك ورفضوا هم بحجة انهم اطباء في طريقهم للملك سنار وباتصالهم بسنار وحضور المندوب لدنقلا ألزموا بدفع الجمارك ، ولكنهم اعفوا من التفتيش ، وحمدوا الله على ذلك لان امتعتهم تحوي من الكتب والرسائل والهدايا ما سوف يفضح مهمتهم السرية والدبة آنذاك تعتبر مقرا للأولياء والصالحين وحرما لا يصح لحاكم ان يطالب بهارب التجأ اليها ، ولاحظ تقشف وزهد اولئك الفقراء وصلاتهم الكثيرة وحلقات ذكرهم ونوباتهم (طبولهم) ونار القرآن وتلاوته وكتابته في الواح الخشب . وفي كورتي تجمعت القافلة لتعبر الصحراء ، وفي رأيه ان تلك المدينة اجمل مكان في بلاد النوبة ، وصحبهم حرس خاص تحت رئاسة مندوب الملك ، ربما لخوفهم من غارات الشايقية ، وعندما وصلوا قبالة قرى قطعوا النهر ولم يبقوا في قرى الا ريثما يستعدون لاستئناف سيرهم لأن المانجل كان غائبا في اريجى وعند مرورهم بالحلفاية وصفوها بأنها كبيرة وعامرة ، وذكروا العيلفون وكترانج والبشاقرة وعبر مركب النهر الى الضفة الغربية تاركا القافلة مستمرة في سيرها بالشرق ومر على ابو عشر واريجى وام سنت ولم يذكر ود مدني .

كرمب ورفاقه في سنار

وفي اول مايو سنة ١٧٠١ م وصلت مجموعة المبشرين الى سنار ووجدوا هناك مجموعة اخرى وتبادل الفريقان المعلومات والتقارير وافردت لهم المنازل لاقامتهم وكان الذي يشرف عليهم ويحميهم هو الارباب آدم وقدمهم للملك الذي وصفه كرمب بأنه يلبس طاقية حريرية متعددة الالوان محلاة بالذهب وفي اصابعه خواتم ذهبية عليها احجار كريمة وفي اذنيه حلقات ذهبية ايضا ممسكا بيده سيفا تركيا مسلولا وعلى الجانبين مسدسان . وبعد

السؤال عن احوالهم ومهنهم واهدافهم من الرحلة قدموا له هدايا متعددة قوبلت بسرور وارتياح وسمح لهم بالاقامة في دولته وحرية السفر متى ارادوا ذلك . سافر جماعته الى الحبشة وبقي كرمب كطبيب خاص للملك . غير انه لم يستقر في سنار حتى اتى مندوب من قبل المانجل في قرى يطلبه للعلاج وبالرغم من تمنعه ومرضه في الطريق سار بالقوة مع المندوب وحرس ملك سنار الذين حملوا خطابا للمانجل من الملك .

كرمب في قرى

وفي ٢٢ يوليو ١٧٠١ وصل ركبهم الى مدينة قرى حيث قوبلوا بالزغاريد ووصلوا الى ديوان الملك بين الحراس حيث وجدوا المانجل جالسا على دكة عالية وعليها برش دقيق الصنع بالوان زاهية يلبس قميصا بعض خيوطه من الحرير وعلى رأسه طاقية حريرية متعددة الالوان وعليها اسلاك الذهب والفضة وعندما تناول خطاب الملك وضعه على رأسه اولا ثم أمر بقراءته جهرة ركع بعدها الملك وتابعته حاشيته ولمس الارض بجبهته مرات عديدة وكذلك فعلت حاشيته وهذه علامات التبعية والخضوع لملك سنار . وبعد تناول القهوة سار كرمب لمنزلته وحمل اليه السمن والعسل وبعض الدقيق مع خروف وعبد لخدمته ، وأثناء معالجته للمانجل شاهد استعراضات يومية وتدريب على المبارزة ووصف طعام المانجل بأنه عصيدة بالمرق يقدم في اقداح من الخشب وعن اتساع ملكه وصف منطقة نفوذه بأنها تشمل كل بلاد النوبة شمالا وتصل جنوبا الى اريحي وشرقا الى مشارق سواكن وللمانجل ان يعلن الحرب بعد التصريح له بذلك من ملك سنار . وأثناء اقامته في قرى شاهد احتفالات النصر الذي احرزه احد قواده في جهات البحر الاحمر . وتمكن كرمب اخيرا وبعد معارضة شديدة من الرجوع لسنار وبعد اقامته فترة من الزمن رجع لمصر .

وصف كرمب لسنار

سنار مركز تجاري هام وتتردد القوافل التجارية بينها وبين القاهرة ودنقلا وبلاد النوبة والهند واثيوبيا ودارفور وبرنو وفزان وغيرها من الاقطار وهي تأتي في المرتبة الثانية بعد القاهرة من حيث ازدحام السكان بها ويقطنها جميع الاجناس بحرية واطمئنان وسوقها منظم وكل سلعة لها اماكن خاصة تعرض فيها ومن السلع المعروضة الرقيق حيث يعرض نحو ٢٠٠ يشتريهم الاتراك لبيعهم في مصر والهند . ويؤيد كرمب طريقة اختيار الملك الجديد بواسطة مجلس من الكبراء وقتل اخوانه . وشاهد كرمب وهو بسنار حضور المانجل زعيم العبدلاب في ركب لسنار لتقديم فروض الولاء والطاعة والتشاور في شؤون المملكة ومعه ضريبة مكونة من مئات العبيد والخيل والابل ومقدار من النقود . وعندما اقترب موكب المانجل من سنار خرج اليه الملك في موكبه بفرسانه ومشاته وعند اللقاء ترجل المانجل وقبل رجل الملك نهض بعدها ليركب ويدخل الموكبان سويا للمدينة . وفي الميدان الفسيح جرت استعراضات من المشاة والخيالة في تدريبات حربية ومعارك صورية ويذكر ان ملك سنار يمتلك آنذاك نحو ٢٠٠ بندقية كان حاملوها يطلقون اعيرتها النارية في الهواء . وفي الموكب كانت الخدم من النساء يحملن جرارا ملأى بروائح عطرية ينثرنها على الجمهور ويغنين ويزغردن يعاونهن نساء المدينة عند مرور الموكب في الزغاريد واظهار السرور والانشراح . وانتهى الاستعراض بطلقة من المدفع الوحيد الذي يمتلكه الملك .

سفارة دي رول Du Roule

كانت فرنسا ترنو بأبصارها نحو الحبشة . فزيادة على النشاط التبشيري الذي بدأ برحلات بونسية وكرمب ورفاقهم قررت سياسة

التعاون التجاري بأن تصبح الحبشة سوقا لمنتجاتها ، وعليه فلا بد من ان تثير الفتنة بين الحبشة وبين مملكة سنار ، ولا بد من ان تسيطر على ميناءي مصوع وسواكن . ولفرنسا ان تقدم العون الحربي بأن تورد لامبراطور الحبشة الاسلحة وتمده بالمدربين وعين دي رول سفيرا فوق العادة ومعه بعض المرافقين وصناديق عديدة ملأى بالهدايا وتعليماته من باريس كانت لاغراض دينية وتجارية ، ولكن في الوقت نفسه عهد اليه جمع المعلومات عن القوة الحربية في البلاد التي يمر بها واكد De Maillet دي ميليه قنصلهم العام في مصر هذه الناحية الحربية وجعل لها الاهمية الاولى ، ولتمهيد الطريق لسفارة دي رول رأى ذلك ميليه ان يبعث بيونسيه وشخص آخر يدعى الياس عن طريق مصوع للامبراطور بخطابات يثيره فيها على الاتراك وعلى ملك سنار اذ أكد له ان ملك سنار يستورد كميات من الاسلحة والذخيرة من مصر وان في بلاطه بعض الاوربيين الذين يدربون جنده على استخدام الاسلحة النارية بما فيها المدافع كل ذلك لاستخدام هذا الجهاز الحربي ضد الحبشة . وعلى الامبراطور والحالة هذه ان يطلب معونة دولة اوروبية كفرنسا لتساعده على مقاومة هذا الهجوم المنتظر وان دي رول وهو خبير حربي سيصله لهذه المهمة ، وكتب دي ميليه في الوقت نفسه خطابا لملك سنار ووزيره علي الصغير ملمحا بقوة فرنسا الرهيبة ولبعد سنار من القاهرة فكأنه يقول لهم لا تعتمدوا على القاهرة . هذه سياسة استعمارية واضحة سبقت تلك الحمى الاستعمارية في القرن التاسع عشر .

مقتل دي رول

ولكن الكنيسة القبطية في مصر واقفة بالمرصاد لتلك النوايا الفرنسية وخاصة فيما يتعلق بتحويل الحبشة من مذهب اليعاقبة الى المذهب الكاثوليكي وبعثوا برسالة الى ملك سنار يخبرونه بتلك الخطة التي ترمي الى مساعدة

الاحباش للعدوان على سنار ، وأيد هذا الخطاب ما ذكره دي رول نفسه في خطاب بعث به لدى ميليت يخبره فيه بالمضايقات التي يعانيها في سنار وان الوزير السناري اخبره بأنه وردت اخبار من مصر من شخصيات لها اعتبارها تقول بأن له رسالة ترمي الى اتفاق بين الحبشة وفرنسا لمهاجمة الاتراك واجلائهم عن ميناءي مصوع وسواكن . وربما تكون تلك الصناديق الضخمة العديدة والتي تحوي الهدايا اتهمت سنار بأنها تحوي اموالا طائلة. واحتجز دي رول في سنار ولم يسمح له بالسفر وحاول مرارا الهروب ولكنه لم يفلح واخيرا قتل ونهبت صناديقه وفشلت نتيجة لذلك خطة فرنسا الاستعمارية في ذلك الوقت . ومقتل هذا السفير الفرنسي بهدايا لامبراطور الحبشة وبخطابات ترمي الى تقوية الروابط بين البلدين ربما يكون احدى الاسباب التي قادت الى الحرب الحبشية الثانية مع سنار كما سنرويه فيما بعد . ولكن لم تظهر علاقة مباشرة .

اونسه الثالث ١٧١٦ م ونول ١٧٢٠ م

توفي بادي الاحمر بعد ان قضى على المؤامرات التي دبرت ضده من بعض جماعة الفرنج بالاتفاق مع الامين أرادب العبدلاب وبعد ان حدثت تحركات المبشرين عبر مملكة سنار في طريقهم للحبشة ودنوا لنا الكثير عن الاحوال في السودان وخلفه ابنه اونسه الذي عرف بانهماكه في اللهو واللعب وارتكاب الفواحش وعندما وصلت اخباره الى الفونج بالصعيد وهم جنود لولو قرروا عزله وحضروا الى ضواحي سنار وارسلوا له بأن بقاءه على العرش يتوقف على قتل وزيره ففعل ولكنهم تنكروا له وعزلوه وأمنوه فخرج من سنار بعائلته وولوا على العرش الملك نول وهو يتصل بالبيت المالك من جهة الام ، وبذلك انتقل الملك الى بيت جديد لم تكن له قداسة وتقاليد البيت المالك الاصيل حتى سهل فيما بعد الخلاص من الملوك

وعزلهم وتولية غيرهم . وانما كان اختيار نول لكفاءته الشخصية من حيث استقامته وتدينه وصفاته التي كانت على طرفي نقيض من صفات اونسه المربيد المستهتر ومن عدله وانصافه سمته رعيته النوم لراحتهم في عهـده واطمئنانهم لعدله .

بادي ابو شلوخ ١٧٢٤ م والحرب الحبشية الثانية ابريل ١٧٤٤ م

في عهد اياسوس الثاني (Yasous) امبراطور الحبشة بدأ الاحباش يغيرون على حدود مملكة سنار كانت نتائجها فرار الاهالي وغنائم من الماشية والابل والغنم ولكن في ٨ مارس ١٧٤٤ سار اياسوس نفسه على رأس جيش من غندار متجها نحو مملكة سنار وكانت اوامره صارمة وواضحة وهي حرق القرى وقتل الناس واخذ جمالهم وماشيتهم . ساروا ثمانية ايام وهم ينفذون هذه الاوامر ، وكان بعض العربان ينضمون للحملة الحبشية ، وذكرت الروايات نايل ودعجيب وكانت اول مقاومة حادة على ضفاف الدندر حيث ثبت العرب المؤيدون لحكومة سنار حتى قطعت مواشيهم النهر ولكـن الاحباش تغلبوا عليهم في النهاية وسار جزء كبير من الجيش في طريقه حتى وصل النيل الازرق قبالة سنار بالشرق وبقية الجيش ما زالت شرقي الدندر وبذلك انقسم الجيش الحبشي الى قسمين ولكن سنار عندما رأت جيوش الاحباش قابلتها ساد الهرج والمرج فيها وكاد الملك يأمر باخلائها لولا ان اشار خميس من عائلة دارفور المالكة والملتجىء بسنار على الملك بأن يعبر الجيش السناري النيل الازرق شمالي سنار ويقاتل العدو هناك ، وفعـلا نفذت الخطة وتمكن خميس من حصر جيش الاحباش في مثلث بين النيـل الازرق والدندر ودحره وعندما وصل الخبر لبقيـة الجيش الحبشي الذي يقوده الامبراطور رؤى ان لا سبيل الى انقـاذ جيشهم المحصور وقرروا

التراجع الى بلادهم والروايات الوطنية تذكر الامين كقائـد لجيش الفونج وبعضها تذكر الشيخ محمد ابو لكيلك قائد الفرسان ولكن الخطة التي انقذت سنـار وربما دولة الفونج بأسرهـا هي التي دبرها خميس امير دارفـور اللاجيء بسنار .

ومخطوطة الشيخ احمد تذكر عن تلك الواقعة في سرد حوادث عهد بادي ابو شلوخ ما يلي « وهو الذي جاءت الحبشة في زمانه والذي جاءه السلطان اياسو وحده بلا وزرائه البعيدين جاءه نحو ثلاثين الفا وقد رأيت في رقعة مقطوعة انه خرج الى سنار في مائة الف ، فلما سمع الملك بادي بذلك طلب من جميع المراتب الدعاء وارسل الى المراتب البعيدين واشتد الكرب على المسلمين واقبلوا الى الله بالدعوات وتضرعوا اليه بالعبرات فأجابهم مـن يجيب المضطر اذا دعاه جيش جيشه وأمر عليهم الأمين ومعهم مقاديم جماعة فرسان مشهورين فقطعوا البحر الى الشرق الى السلطان خميس سلطان فور واجتمعوا وساروا فتلاقوا مع السلطان اياسو قرب ميمون وعجيب بالدندر ويقال بمحل يقال له الزكيات ، فتقاتلوا مع بعض عساكر اياسو وهو جالس في خيمته ومعه وزيره وخالد ولد الملول وهو حكم السطيح راقد على سرير فهزم الله تعالى عسكر اياسو وهم يمشون على مهلتهم ولم يطردهم وهذا أمر من الله تعالى رب العالمين وفرح الملك بادي واهل سنار ووفوا بنذرهم وعملوا الموالد وذبحوا الولائم ونشروا الحرير وزينوا المسجد والسوق سبعة ايام وسمع سلطان الروم (الخليفة العثماني) بذلك ففرح بنصره الاسلام والدين ... وكانت هذه آخر محاولة تعمق فيها الاحباش في السودان وقبلها كانت حملة عيزانا قبل الميلاد والتي قضى فيها على مدينة مروى القديمة .

بادي بعد الحرب الحبشية

يتبين لنا من الفقرة السابقة التي اقتطفناها من مخطوطة الشيخ احمد ان رجال الدين في ذلك الوقت كان يطلب منهم بان يسهمو في حماية البلاد

من غارات الاعداء بالدعاء والتوسل الى الله بأن ينقذ المسلمين من ضائقتهم وقد يعزي مثل هذا النصر الى توسلات الاولياء والصالحين اكثر من قـوة الجيوش ويتضح لنا ايضا ان العالم الاسلامي رأى في انتصار جيوش سنار نصرا اسلاميا رائعا حتى ان الخليفة العثمانـي انشرح صـدره له ، وفي الروايات الاخرى ان سنار ذاع صيتها « حتى قصدتها الوفود من الحجاز والسند والهند واهل صعيد مصر والمغـرب الاقصى واستوطنوا بها » .
ولكن بعد هذا الانتصار الرائع تجمع الروايات الوطنية على ان بادي ابو شلوخ سلك مسلكا اغضب رعيته وكبراءها ويوصف بانه «طالت مدة ولايته الا انه من اول ولايته الى نصفها كان له وزراء من اهل الخير والصلاح قاموا بتدبير الملك اتم قيام الى ان ادركهم الحمام ثم استقل الملك بتدبـير دولته واول ما بدأ به قتل بقية الاونساب وغير كثيرا من القوانين والعوايد المربوطة واستعان بالنوبة وجعلهم رؤساء عوضا عن اهل الاصول والرواتب القديمة وتجارى على فعل امور ذميمة من النهب والقتل حتى انه تجارى على الخطيب عبد اللطيف العالم المشهور وقتله زيادة على ما ارتكبه من المظالم مجيزا لانيابه في الظلم والفساد وبالجملة ظهرت منه امور شنيعة نفرت منـه قلوب رعيته لا سيما كبراء دولته من الفونج وغيرهم .

حملة كردفان

لم تحدث حروب كبيرة بين سنار وكردفان غير غارات خاطفة من النيل الابيض رعا على جبال النوبة ولكن بعد الانتصار العظيم على الحبشة دبرت هذه الحملة لغزو كردفان ولم تتبين لنا دوافعها ويحتمل ان يكون خميس هو الذي اشار بها اذ رعا فتح كردفان يعقبه زحف على دار فـور التي اقصى منها . والحملة قادها ود تومة ومعه زعماء العبدلاب ومحمد ابو لكيلك وخميس وفي مكان يدعى قحيف سنة ١٧٤٧ اندحر جيش سنار وقتل قائده ودتومة

وزعيم العبدلاب وانفرط عقد الجيش ، غير ان ابو لكيلك نجح في تجميع الجيش ولاقى به جيش للسبعات مرة ثانية وقتل زعيمان آخران من العبدلاب في الموقعة وبعدها تولى ابو لكيلك القيادة العامة ونجح في ضم كردفان الى دولة سنار وهناك قوي الجيش بما انضم اليه مـن فرسان كردفان ووجـد الشيخ محمد ابو لكيلك في كردفان منطقـة ذات خـيرات وذات امكانيات ضخمة في الرجال والخيل وكان معه عدد من كبراء الفونج وغيرهم وترامى الى مسامعهم المظالم التي ارتكبهـا بادي في غيبتهم وضد اهليهم وقفـل الشيخ محمد راجعا بجيشه لسنار لتسوية الأمور التـي ساءت وسواء قدم ناصر بن الملك لمقابلة الشيخ محمد في الليس على النيل الابيض او استدعاه الشيخ محمد فانه قد قرر الجميع على خلع الملك وتولية ابنه ناصر مكانه .

خلع بادي ابو شلوخ

خضع بادي للأمر الواقع وخرج من سنار الى سوبا ، حسب الروايات الوطنية والى سواكن حسب رواية اخرى ، والتجأ اخيرا بالحبشة حسب رواية بروس حيث استقبله الراس سهيل ميخائيل حيث وعد باعادته الـى عرشه اذا ما وافق الامبراطور على غزو سنار ، وعندما قابـل الامبراطور قبل الارض امامه ورضي بأن يكون تابعا واقنعه بالتريث والصبر حتى تحين فرصة اعادته الى عرشه ، وفي نفس الوقت منحه مقاطعة رأس الفيل ولكن مؤامرة باضت وأفرخت في سنار خدعته بأن يذهب لحوض نهر عطبرة حيث يتم اعداد جيش قوي يسترجع به عرشه ونجحت المؤامرة بعد ان استدرجوه داخل السودان وقبض عليه الشيخ ولد حسن حاكم تيوه بـين القضارف والرهد وقتله غيلة .

الشيخ محمد ابو لكيلك

وبخلع بادي اصبح ملوك سنار العوبة بيد وزرائهم من الهمج منذ عهد الشيخ محمد هذا الى زوال مملكة سنار في سنة ١٨٢١ غير ان الملك احتفظ بمظاهر السلطة كما كان العهد بين خلفاء العباسيين في عهود الجند الاتراك والسلاجقة وينتمي الشيخ محمد باتفاق المصادر الى الهمج والجدل لا يزال قائما عن اصل الهمج كما هي عليه الحالة في اصل الفونج ، ولنرجع الى رواياتنا الوطنية علنا نستخلص منها شيئا ينير لنا الطريق . فمن بادي تقول رواية بأنه آخر الملوك ذوي الشوكة « لأنه في آخر مدته تغلبت مشايخ الهمج وصارت تولية الملوك رسما لا حقيقة لها وصار الحل والعقد بين الهمج وهم طائفة من ذراري العرب المتناسلين من الانواب ، وقيل انهم فرع من الجعليين العوضية المتصلين بسيدنا العباس بن عبد المطلب والله تعالى اعلم» . ورواية اخرى تقول عن بادي ايضا «اخذ من اهل الاصول اصولهم من الديار وتعضد بالانواب واعطاهم ديار اهل الاصول » واخرى تقول « واستقل الملك بادي بالتدبير وقتل بقية الاونساب وغيّر وبدّل كثيرا في القوانين المربوطة والفوائد المضبوطة واستعان بالنوبة وجعلهم رؤوساء عوضا عن اصحاب الاصول والرتب القديمة » . فاذا ما عرفنا ان اولئك النوبة الذين اسكنهم بادي أبو دقن في قرى حول سنار وجعل منهم جنده وحرسه الخاص وتكاثروا وتناسلوا وتزوج منهم بعض العرب ولا بد لاية مجموعة في السودان ان تنتمي الى قبيلة فاطلق عليهم قبيلة « الانواب » مثلهم مثل الميرقاب والرباطاب والاصل الذي تحدر منه الشيخ محمد ابو لكيلك كان زواجا من جعلي عوضي من نساء الانواب وتزعم هذه المجموعة وتعضد بها ومكنته من السيطرة والاحتفاظ بحقيقة الملك في نسله تاركا الاسم والمظهر للفونج ومهما كان من أمر فان شخصية الشيخ محمد الفذة جعلت منه سودانيا ذا كفاءة ومقدرة خليقة بتحمل اعباء الحكم بعد ان أظهر هذه

الكفاءة في ميادين الحرب والقتال في كردفان وجعلها لوقت ما جزءا من مملكة سنار .

بدء الاضطراب والتدهور

ولم يبق ناصر في العرش الذي أقعده عليه الشيخ محمد كثيرا اذ عزل وحددت اقامته في حلة البقرة خارج سنار ، ولكنه حاول التآمر على سلطة الشيخ محمد بالاتفاق مع جماعة من الفونج محاولين رد ملكهم الى مؤسسيه ولكنهم فشلوا وانتهى الأمر بقتل ناصر وتولية اسماعيل احد اخوة ناصر وكانت سنى الشيخ محمد الاخيرة اوقات غلاء وقحط وزيادة في فيضان النيل سبب تلفا ، واعقبته أمراض ، وبعد وفاة الشيخ محمد تولى المشيخة ابن اخيه بادي ود رجب حيث نازعه الفونج بمحاولة اخرى غير ان المؤامرة انكشف امرها وانتهت بعزل اسماعيل ونفيه الى سواكن ، وقبل ان تتابع الخلافات والحروب الاهلية التي تلت عزل اسماعيل يجدر بنا ان نقف قليلا لنلم بما دونه جيمس بروس الاسكتلندي الذي رجع من الحبشة عن طريق سنار في عهد اسماعيل .

جيمس بروس ١٧٧٢ م

دخل جيمس بروس الحبشة عن طريق مصوع وبقي بها نحو السنتين ونصف لاكتشاف منابع النيل ودوّن الكثير عن احوالها ، غير ان اهتمامنا يجب ان ينصب على تلك الفصول التي دونها عن مملكة سنار وخاصة مدة اقامته في مدينة سنار نفسها ما يزيد على اربعة اشهر . ويذكر لنا قبل وصوله لتلك المدينة قصته مع الشيخ فضيل (ربما فضل) حاكم اقليم تيوه (القضارف) ومحاولة ذلك الزعيم استنزاف امواله وما معه من الذهب

ومحاولة اغتياله اخيرا غير انه نجا وواصل سيره نحو سنار وهناك اتصل بثلاث شخصيات ، الملك اسماعيل واحمد سيد القوم وعدلان ، ففي مجلس اسماعيل بحضور الملك تحدثوا وتناقشوا في قصة يأجوج ومأجوج ، ويروي لنا انتدابه لمعالجة حريم الملك وعددهن وسواد بشرتهن واشكا معظمهن القبيحة وهن من جانبهن عرتهن الدهشة من بياض بشرته ، وخف لزيارة الوزير عدلان في مقره في العيرة خارج سنار ، واعجب بشخصيته وبفرسانه الذين يحفون به في معسكراتهم ، ووصف جودة خيلهم وأصالتها ، ودروعهم واسلحتهم واستعدادهم لامتطائها بكامل آلات الحرب رهن اشارة زعيمهم وكلهم من عبيده ويلبس عدلان الذي قدر عمره بالستين الطاقية ام قرين ويجلس على جذع نخلة ينظر لخيوله وفرسانه وبسمة السرور على محياه ، واثناء المحادثة ورد ذكر الحرب الحبشية الاخيرة ورأى عدلان ان الاحباش باعتدائهم اساءوا الى العلاقات مع سنار ولا زالت متوترة ، ولكنها ليست عدائية ، وعلم بروس ان الوزير في ذاك الوقت يعمل لجمع الضرائب من العربان ، وعند الانتهاء من تلك المهمة عده بحرس خاص لسفره ، ويرى عدلان في الملك انه ليست له كفاءة للحكم ، ولا يقبل النصح ممن يعرفون ، وعند الضرورة لا يعلن الحرب ، ولا يترك غيره يقوم بالواجب ، ومحادثته مع احمد سيد القوم على ما يبدو انحصرت في تاريخ الفونج حيث دوّن مذكراته عن اصل الفونج ، ونقل كشفا بملوكهم وسني حكمهم ، وضمن القصة كتابه .

بروس يغادر سنار

وسافر بروس بطريقة فجائية دون ان يودع عدلان ، ويطلب منه الحرس الخاص الذي وعده به والظاهر ان روح دي رول قتيل سنار تبدت له وارعبته ، وغادر المدينة خوفا من ان يلقى نفس المصير، وفي الطريق وصف

خزن الذرة في مطامير للسنين العجاف ، وعندما حط رحاله بأربجي واصبح بعيدا عن سنار كتب خطابا لعدلان يشكره ويودعه ، وفي الجديد قبالة العيلفون عبر النهر الى الضفة الشرقية وفي شندي يتحدث عن الملكة ستنا ، ولكنها في الحقيقة كانت ام الملك ادريس ، وبعد شندي شاهد آثار مروى القديمة في البجراوية ، وفي الدامر وصف شيخها ود المجذوب واعتقاد الجعليين في صلاحه وكرامته حيث تصيب من يغضب عليه بالعرج والعمى والجنون ولهذا يخافه الناس ويرهبونه وتمر القوافل بدار المكابراب وهم قطاع طرق كما يصفهم بروس في حماية المجذوب وفي الحصا شمالي بربر نزل النهر واستحم وشعر بنشوة السلامة من المخاطر واوغلت قافلته في الصحراء .

منازعات داخلية

ولكن الامور لم تستقر بعزل اسماعيل وتقيه ، بل بدأ صراع في بيت الهمج انفسهم يحاول ان يتعضد بمجموعة او قبيلة ليبسط نفوذه والظاهر انهم رأوها تركة تحدرت اليهم من الشيخ محمد ابو لكيلك كل منهم يرى ان يأخذ نصيبه كاملا من ظنه المغتصب ونتيجة لهذا الصراع الداخلي قتل الشيخ بادي ود رجب وتولى بعده رجب بن الشيخ محمد وسافر الى كردفان ربما على رأس حملة تأديبية لاخضاع متمردين هناك ، وأثناء غيبته تجددت المقاومة لحكم الهمج والتفوا حول الملك عدلان بن اسماعيل وقتلوا ابراهيم احد اخوة الشيخ رجب وهرب النعيسان الا نقيب (الشاعر المحلى) الى كردفان ، وكان متهما باتصاله بالهمج ، وهناك نقل عن طريق الشعر خبر قتل اخيه ناعيا اياه . وعندما وقف الشيخ رجب ونادى اتباعه بأن يضربوا الدنقر (النحاس) ، وعندما تمت مراسيم المأتم زحف بجيوشه راجعا ووجهته سنار ، والتقى بجيش السلطان عدلان وانهزم عدلان ومات مغموما وتلى ذلك منازعات داخلية كل فريق ينادي بسلطان يؤيده ضد دعوى الفريق

الآخر ، وليس فيما بقي من سنين لدولة الفونج غير الانقسامات والحروب الاهلية حتى دخلت جيوش محمد علي بقيادة ابنه اسماعيل غازية بلاد السودان في سنة ١٨٢٠ ــ ٢١ م .

تقاليد للمجتمع موروثة

بالرغم من ان دولة الفونج اسلامية ولغتها العربية فقد ورث العرب الوافدون تقاليد وطقوس كان معمولا بها في السودان من قبل . فتقبيل رجل الملك من المانجل وطقوس التولية بتفاصيلها العديدة للملك وللمانجل وللارباب والجلوس على الككر (كرسي صغير من الخشب) ولبس الطاقية ام قرين كلها عرفت في هذه البلاد في الحضارات التي سبقت دخول العرب للسودان وكثير من هذه العادات والتقاليد تتعارض مع تقاليد وعادات العرب وترتكز في مجموعها على وجود طبقة ارستقراطية حاكمة وطبقة عبيد واتباع . والغريب في الامر ان هذه الطقوس والتقاليد من التبعية ، وتعظيم الرئيس امتدت الى الزعامات الدينية حيث اصبح شيخ الطريقة او الولي المعتقد يدخل عليه تابعه حاسر الرأس حافي القدمين متمنطقا بثوبه ، مقبلا يديه وربما رجليه ، ولا يرفع بصره نحوه ولا يرتفع صوت في حضرته وكله آذان صاغية لتلقي توجيهاته وارشاداته دون الرد عليها او ابداء رأي مخالف لها . ويلاحظ ان الملك له حق امتلاك كل الاراضي وتوزيعها بموجب وثائق عليها ختمه ، ولا زالت بعض العائلات في السودان تحتفظ بمثل هذه الوثائق، وفي بعض الاحيان تكون الارض مشاعا للقبيلة ويبدو ان هذا التعديل ادخلته عادات العرب القبلية ، ولا بد ان عادة امتلاك الارض للملك تحدرت اليهم من النظام النوبي القديم الذي يعتبر كل الرعايا عبيدا للملك . والعادات والطقوس التي ما زالت جارية في مناسبات الزواج والختان والولادة طابعها قديم ورثناه من سكان البلاد الاصليين السابقين لدخول العرب في السودان .

اثر العروبة والاسلام

ومن الناحية الاخرى اصبح كل سوداني ينتمي لقبيلة لها دارهــا وموطنها والسكان الاصليين عندما تغلبت عليهم العروبــة خضعوا لهذا النظام القبلي ، وانضموا الى القبائل التي تساكنهم الديار ونسوا اصولهم وتأقلموا بالمجتمع الجديد وأثر هذا بدوره في امكان اقامة حكومة مركزية قوية ، فقد رأينا كيف تهاوت دولة مقره وانقسمت الى امارات عندما طبعت بالطابع العربي وحتى في دولة الفونج رأينا تلك النزاعات الاستقلالية والتمرد على السلطة المركزية والوقائع المستمرة بين القبائل . وفي الناحية الدينية تغلب الطابع الصوفي على طابع التفقه في العلم والشريعة ورجل الكرامات والشطحات وشيخ الطريقة كون لنفسه العديد من الاتباع والمريدين رهن اشارته وطوع بنانه ينظرون اليه بعين التقدير والاعجاب والقداسة ، واذا ما توفى اصبح ضريحه مزارا تعقد فيه حلقات الذكر في المناسبات الدينية وواصلوا ولاءهم واخلاصهم لخليفته والخلفاء من بعده وتكون بذلك نظام من الرئاسة الدينية يشبه في كثير من ملامحه نظام الامامة عند الشيعة وكلما زاد عدد القباب التي تحوي رفات الاولياء والصالحين زادت رابطة اخوة دينية جديدة بكل ما يتبعها من خضوع وولاء وتأدب . وتتفاوت هــذه الطرق الدينية في عدد اتباعهــا ، وتتفاوت في نفوذهــا على اتباعها ومدى خضوعهم لها ومدى استخدام زعمائها لهذه التبعية ذات الولاء الديني في ميادين السياسة والتكتلات الحزبية . وبهذا تكونت ركائز مجتمعنا الحالي في عهد الفونج حيث تفاعلت الطقوس والتقاليد القديمة مع مؤثرات النعرة القبلية والدين الاسلامي مع تغلب ناحية الطرق الصوفية عليه .

غزوة محمد علي للسودان

دوافع الفتح

رأي محمد علي في اسواق النخاسين السود المرد وسمع عن شدة بأسهم وقوة مراسهم وتحملهم للمصاعب والمتاعب ، ثم عرف انهم ينقادون بسهولة لسادتهم . فاذا ما ثبت لديهم قوتهم وشجاعتهم مع الطاعة والاخلاص ، فما اجدر بهم ان يكونوا المثل الاعلى للجندية . ورأى في الحجاز اكثر مما رأى في مصر وعرف ان الحلابين يسوقون منهم كل سنة ما يبلغ اربعة آلاف لمصر والحجاز ، ولا شك ان محمد علي وهو يسعى لتوطيد مركزه في مصر ، ويسعى ايضا لايجاد جيش جديد يدعم هذا المركز يفكر في الانتفاع بهذه المادة الخام من الرجال لجيشه في المستقبل . وخاصة ان جنوده من الترك والارنؤط لم يخضعوا للنظام الجديد ولأمر ما لم ير ان يجند الفلاح المصري بل تركه يفلح الارض .

وسمع ان جنوب السودان رماله الذهب وان فيه من الخيرات ما لو استغل لساعد في ايجاد المال اللازم لما يريده محمد علي من اصلاح ومن تأسيس دولة قوية ذات عزة ومنعة ولكنه يحرص على تركيز ارجله اولا ، ويدرس قبل ان ينفذ ، فبعث بمندوب خاص كسفير يحمل هدايا لملك سنار في الظاهر ولكنه في الحقيقة جاسوس يقدم تقريرا للوالي عن حالة الحكومة من حيث القوة والضعف . وقابله وهو في الحجاز الملك نصر الدين ملك الميرفاب الذي استولى على ملكه أثناء غيابه منافسه علي ود تمساح فطلب

منه العون لازالته وكذلك اتصل به الملك طنبل لمثل هذا الغرض . فالبلاد اذاً كثيرة الخيرات والبركات ، والجنود السود سيكونون جيشا قويا منيعا ، والمماليك فروا جنوبا وانشأوا لانفسهم مملكة ترامت اخبارها لمحمد علي . وقد ينتهزون فرصة ضعف المملكات الصغيرة في السودان ويبتلعونها الواحدة تلو الاخرى ، وقد يتقدمون شمالا بقوتهم الجديدة لاسترداد حقهم الذي اغتصبه منهم محمد علي ، وقد يقودون جيشا من السود الذين عرف وسمع عن قوة بأسهم وشدة مراسهم ما عرف وسمع . كلها عوامل تعاونت لتجهيز الحملة وانفاذها .

عوامل الكشف والوحدة

ومن غريب التوافق والمصادفات انه ما من ملك او سلطان حكم مصر مستقلا عن دولة اخرى الا وفكر في امتداد ملكه جنوبا . فالفراعنة بدأوا اتصالاتهم بالاراضي الجنوبية في وقت مبكر منذ الأسر الاولى ، وما فترت او انقطعت الاتصالات الا بعد ان تعاقب على حكم مصر شعوب أتتها غازية وجعلت ولاية ضمن امبراطورية اخرى عظيمة . هكذا كان حال الفرس واليونان والرومان والاتراك اخيرا . اما محمد علي الذي يريد ان يكون لمصر شخصية مستقلة ، ويريد لنفسه ان يكون رأس تلك الشخصية ، لا بد وان يأخذ حب الاستطلاع للصعود مع هذا النيل ليرى اين ينبع ، وما سبب فيضانه ، واي الشعوب الاخرى تقطن على ضفافه ، وماذا يحدث لمصر لو سيطرت على منابعه او روافده العليا قوة اخرى قد تكون معادية لا صديقة او حليفة ؟ اقول هذه الافكار لا بد ان تدور في مخيلة كل عاهل او ملك جعل القاهرة عاصمته ومقره، ويطمع في ان يبقى فيها ويكون بها ملكا وقوة.

محمد علي لاظوغلي يجهز الحملة

اكتسب محمد علي خبرة لا تقدر في حروبه مع الوهابيين ، فمشاكل النقل عبر الصحراء وتهدئه القبائل البدوية وفتـــح اقاليم تدين بالديـــن الاسلامي وفوق ذلك ملاقاة محاربين شديدي البأس يستخدمون اسلحة غير نارية . فما نجح في الحجاز من طرق ووسائل قد يعاد استخدامه في حروب السودان . اشار محمد علي لصديقه ومستشاره في الشؤون الحربية محمد بك لاظوغلي بالخطوط الرئيسية التي يجب ان يتبعها في تجهيز تلك الحلة . فجلب المراكب من الوجهين البحري والقبلي وتجهيز المؤن والذخائر لحرب طويلة في بلاد مجهولة وتسيير العلماء من المذاهب الاربعة مع الحلة لاقناع المسلمين بالحجة والبرهان واغراء عربان البادية بالرواتب الكبيرة ليسيروا مع الجيش اذ هم ابناء الصحراء يتحملون حرها ومتاعبها ومشايخ العربان في مصر قد يحتاج لخدمتهم في الاتصال ببوادي السودان واغرائهم للدخول في طاعة عزيز مصر ـ كلها تمت حسب الخطة الموضوعة .

ترحيل الجيش الى حلفا

جمع محمد بك الجيش من مغاربة واتراك وارنـــؤوط وعربان الباديـــة وبالاخص العبابدة فبلغ عدده نحو اربعة آلاف وثمانمائة مقاتل ولكنه ليس بالجيش الذي يريده محمد علي لمستقبل ايامه فهم على النظام القديم ويتكونون من عناصر مختلفة غير انهم يمتازون بشيء واحد هو بمثابة سلاح سري بالنسبة لجند سنار وهو الاسلحة النارية . وزيادة على العناصر المختلفة للجيش فان روح التمرد لا تزال كامنة في نفوسهم وقد قتل جنود المدفعية احد رؤسائهم وفر البعض الى ديارهم وقراهم . أتم محمد بك كل هذه الاستعدادات ورحل الجيش الى حلفاء نقطة التجمع ونسف بعض الصخور التي سوف تعترض

سير المراكب في الشلال الثاني ، وقبل ان يغادر حلفا راجعـا انشأ شونة للغلال والذخائر فوق الشلال الثاني وسلم له اربعة وعشرون من المماليك عندما علموا بأن حملة الباشا لا تقاوم وانه الافضل لهم ان يغادروا دنقـلا شمالا لتسليم انفسهم بدلا من الفرار جنوبا الى مجاهل افريقية ثم تسلم محمد بك ايضا ما يزيد على الخمسين امرأة من زوجات المماليـك لارسالهن لاهلهن في مصر وسمع وهو بحلفا ايضا ان نحو الثلثماية من المماليك غادروا دنقلا جنوبا وحطوا رحالهم في معسكرات خارج شندى .

اسماعيل بن محمد علي قائد الحملة

عقد محمد علي لواء الحملة لابنه اسماعيل وهو ابن خمس وعشرين سنة يجري دم الشباب في عروقه ونشأ وهو يعـرف نفسه انه ابن عـزيز مصر وعرف بالجرأة والاقدام ولكنه يستبد برأيـه دون استشارة المحنكين مـن قواده ويتمتع بقدر عظيم من الذكاء ومعلوماته العامة لا بأس بها وقد تنبأ وادنجتون حينما قابله في معسكره بدار الشايقية بأنه سيكون تركيا عظيما . وهو ملم بالاحوال الاوروبية من سياسية وجغرافية ويتلعثم في كلامه نتيجة لعيب طبيعي في فكه ويزيد على ذلك محاولته الاسراع في الكلام فيصعب على السامع الا اذا درب على الاصغاء اليه ان يتابع ما يقوله او يتفهمه . وقد يكون هذا من اسباب غضبه وثورته عندما يخاطب ملـوك السودان ولا يفهمون ما يقول .

القواد الكبار

يرافق اسماعيل باشا كبير معاونيه عبدي [1] كاشف وهو قد خدم محمد علي نحو خمس عشرة سنة باخلاص ونزاهة وبلغ الخمسين من عمره حين

---

(1) كتبه كايو عابدين بك ووادنجتون عابدين كاشف والوثائق كلها وختمه تؤيـد انه عبدي وليس بعابدين .

رافق الحملة وعرف كاشفا للمنيا بادارته الحسنــة . هادىء في طبعه يجلس الساعات الطوال ليقنع من يعارضه بالدليل والبرهان وعرف كيف يتعامل مع الافرنج ويفوز باحترامهم وتقديرهم وكانت الخطة الموضوعة ان يبقى عبدي كاشف حاكما لدنقلا وعند فتحها ليدير شؤونها اولا وليكون مركز تموين للجيش المتقدم جنوبا او نقطة تراجع فيما لو انهزم . ولكن رؤي من الحكمة ان يستمر مع اسماعيل معينا ومعاونا . والقائد الآخر هو قوجة احمد أغا خبر الجندية والحروب وخبرته مدة خمس وعشرين سنة ويلي هذين حسن دار وصالح دار وعمر كاشف .

تكوين الجيش

اغلبية الجيش الساحقة من الجنود المرتزقة الذين يتقاضون مرتباتهم شهرا بشهر ويستطيعون الخروج من الجندية في اي وقت شاؤا الا انهــم ملزمون بالبقاء في الحملة حتى نهايتها اذا ما تطوعوا فيها وقد قبضوا مرتبات ستة اشهر ، وحددت نهاية المرحلة الاولى من الحملة بفتح دنقلا ، وبعــدها يستمرون بعقود جديدة ووسائل اغراء اخرى . وجمع الجيش عناصر متعددة ومختلفة فمنهم بدو الصحراء الذين عاشوا تحت سمائها الصحو وحرها اللافح وبردها القارس وتعودوا قوة البأس وتحمل جدبها وقلة انتاجها . ومنهــم المغاربة وكلهم فرسان شبوا على اعمال الفروسيــة واضافوا على اسلحتهم التقليدية استعمال البندقية والمسدس . اما الاتراك والالبان فخوفا مــن تمردهم فقد وزعوا على الفرق المختلفة تحت قواد متعددين . فجيش يقاتل لمرتبه وعقده لا ينتظر ان تعلو روحه المعنوية ، ولكنهم عوضوا عن ذلك الاسلحة النارية ، واثني عشر مدفعا ضد خصومهم الذيــن مهما سمت روحهم المعنوية وقوى جنانهم فهم يقاتلون بالسيف والرمح والعصي احيانا.

مسير الحملة

اوسقت المراكب من الشونة التي تقع فوق الشلال الثاني جنوبي وادي حلفا بالمؤن والذخائر والبيادة ورافقهم على الشاطىء الفرسان على جيادهم والبدو فوق ظهور ابلهم وقوبلوا في ارض سكوت والمحس بالطاعة والانقياد ولا سيما حاكم المحس لانه لم يلق التأييد الذي اراده من المماليك ضد خصمه الملك طمبل فاتجه نحو الباشا قبل مجيء الحملة . حلت الحملة بارقو ودخلت دنقلة العرضي بعد ذلك دون مقاومة لان الاهالي وملوكهم ذاقوا الامرين من الشايقية اولا ثم اكثر من ذلك من المماليك وفوق هذا فهم شعب شغلوا بفلاحة الارض والسيادة التي بسطها عليهم الشايقية اولا والمماليك اخيرا لم تترك لهم شيئا من روح الحرب والمقاومة .

الشايقية

يتزعم الشايقية آنذاك ملكان كبيران وآخرون يلونهما في المرتبة فأولهم الملك شاويش الذي يقيم في عاصمته مروى ، ويقال انه كان بدينا فكه الحديث لونه يضرب للبياض بخلاف بقية قبيلته والآخر الملك صبير وهو مشهور بقوة بأسه وشدة مراسه . وكأن الشايقية لم يخلقوا الا للكفاح والنضال ، فانهم ان لم يواجههم عدو مشترك اغارت كل قبيلة منهم على الاخرى ، وكأنهم ادركوا ان التدريب لا يكون الا بالقتال الحقيقي لا بالتمثيل . ولذا كان تاريخهم سلسلة متصلة الحلقات من حروب داخلية وخارجية . والآن فهذا عدو مشترك يزحف عليهم وقد أتى بقوة وعدد لم يألفوها ولكنهم ورثوا البسالة وحب القتال والخيول والاسلحة من اجدادهم فهل يسلمونها لاول مغير ؟ انه عار لا يريدون ان يوصموا به . لم يفعلوا ذلك مع المماليك فحاربوهم وناضلوا الى ان فروا اخيرا جنوبا وكفوهم

شرهم . ولكن المماليك لا يزيدون على الثلاثمائــة والباشا يزحف بجيش يبلــغ الآلاف .

نظرية الشايقية

وأقر الشايقية فيا بينهم ان يقبلوا دفع جزية او ضريبة للباشا ، ولكنهم لا يتنازلون عن خيلهم واسلحتهم فهي لهم الحياة والحياة كلها ، بعث لهم اسماعيل عندما استقر بــدنقلا ان يسلموا انفسهم واسلحتهــم كما سلمت القبائل التي تقع الى الشمال منهم فردوا بأنهم يدفعــون اتاوة او ضريبة فقط ، وبعث الباشا لهم للمرة الثانية بتسليم خيلهم واسلحتهم ضمانا لولائهم واخلاصهم واخبرهم بأن والده يريدهم شعبا يفلح الارض لا ليحمل السلاح ويقاتل ، فلم يتزحزحوا عن موقفهم الاول ، لان الخيل والاسلحة ألفوها منذ صغرهم وورثوها عن آبائهم ، وقد عودوا العمل على صهوات الجيــاد واستخدام السلاح لا استعمال الفأس والجراف عودوا خوض غمار الحروب لا السقي والزرع والحصاد . ارضهم يزرعها عبيــدهم ومن اسروه مــن الشعوب التي يحكمونها ، فهل يريدهم الباشا ان يتنزلوا ويعملوا مثل ما يعمل عبيدهم ؟ انها لخطة لاذلالهم واخضاعهم . فلماذا الرماح والتروس والسيوف ولماذا الفروسية اذا لم تكن للذود عن مالهم وعرضهم والتمسك بمستواهــم ؟

منطق اسماعيل

واسماعيل من ناحيته لم يطلب الا كل ما يجب ان يعمله قائد يفهــم ابجديات مهنته . فمهمته اخضاع بلاد السودان حتى تدين بالطاعة ، وهو مقدم فيا لو قبل شروط الشايقية على حروب في بــلاد الجعليين وفي دار

العبدلاب واخيرا في سنار مقر الملك والسلطان في بلاد السودان . فهل يترك الشايقية وراءه وهم بهذه القوة والمنعة ؟ وهل يحتمل ان يقطعوا خط مواصلاته مع مصر ويسيطروا على ما فتحه من البلدان ؟ الأصول الحربية تقوده ان يقاتلهم ويقضي على قوتهم قبل ان يتقدم نحو بقية السودان التي يحتمل ان تقاوم والا تخضع ، ولكن من الناحية السياسية يجدر به ان يثق عا يقدمونه له من ضمان وان يحترم كلمتهم ويحسن معاملتهم حتى لا يشعرهم بالذلة والصغار وقد اشار اليه والده في خطاب ارسله له بعد ان وقعت الحرب معهم بان مسلكه نحوهم لم يكن بالحكيم :

محمد علي يؤنب ابنه

« يا ولدي [1] الاعز ان من المعلوم عن ارباب الحكومة الذين تكون نفوسهم تحت حكم عقولهم ان استجلاب قلوب العباد متوقف على نشر العدالة وان تسخير البوادي والبلاد موقوف على حسن الاستمالة ومن الظاهر لا يمكن لاي حاكم ان يقوم بعمل بدون عدالة كما ان من البديهي الباهر ان لا يمكن الوصول الى منزله المقصود والى غايته من غير استمالة ، فبناء على ذلك كان الواجب عليكم ان تمتلكوا اهالي الشايقية بحسن استمالتهم وتملكوهم وبلادهم بتأمينهم وتأليفهم . فمن العجيب جدا تبعيدكم اياهم عنكم وتنفيرهم من اطاعتكم بتكليفكم اياهم تسليم خيولهم واسلحتهم ، فانه كنتم غير مطلعين على احوال ارباب السيف الذين نجوا في اعمالهم في الازمان السالفة افلم تسمعوا ولم تعلموا ان الفرنسيين الذين أتوا مصر في زمن قريب الى اي درجة كانت عدالتهم في مجيئهم لاجل تسخير البلاد والى اي درجة اظهروا العدل حينما ارادوا الذهاب والانسحاب لاجل تأمين سلامتهم وكيف كان مجيء الانجليز وذهابهم مقرونين بالعدل » ؟.

---

(1) دفتر معية تركي ترجمة مكاتبة تركية رقم ١٧ بتاريخ ٩ ربيع الآخر سنة ١٢٣٦ .

الحرب

رفض الشايقية شروط الباشا ولم يبق له الا ان يزحف جنوبا لملاقاتهم. وقاموا هم بهجوم بسيط بالقرب من دنقلة العجوز ردته جنود اسماعيل وحدث اصطدام آخر أسر فيه عبدي كاشف ابنة احد الملـوك وكانت في هودجها على جمل تطلق الزغاريد لتثير في نفوس الرجال الحماس فبعث بهـا عبدي الى اسماعيل فأحسن هذا لقاءها وخلع عليها كسوة ومصاغا وردها بكل اعزاز واكرام الى والدها الذي دهش لهذه المعاملة وقـرر الا يرفع سيفا بعد ذلك في وجه رجل احسن اليه هذا الاحسان فسلم للباشا عن معه من الرجال . وحاول اسماعيل قبل الالتحام معهم في معركة كبرى ان يتخذ من الطرق ما يدخل الرعب في قلوبهم عله بهذا يضعـف روحهم المعنوية ، فصار يرسل الصواريخ صاعدة نحو السماء ثم تنحدر على الارض كالشهب السماوية وكانت استجابة الشايقية الاستهزاء بقولهم « ان الباشا يريـد حرب السماء » .

موقعة كورتي

وبعد ايام من حادثة الفتاة الاسيرة كان الباشا معسكرا على بعد نحو ثلاثة او اربعة اميال من النيل في الصحراء بالقرب من كورتي فما شعر الا والصياح من حوله « وين الباشا وين الباشا » فنهض لتوه وكانوا ينوفون على الالفين يحيطون بمعسكره . ورجاله لا يزيدون على ثلثماية مقاتل وليس لديهم مدفع واحد وما من جنوده يحمل اكثر من خمس عشرة رصاصة فاسرج له الحصان واعتلى صهوته ويمم وجهه شطر عبدي كاشف وقال له « اتريد ان اقاتل بطريقتي او بطريقتكم » ، واجابه عبدي بأنه عود القتـال وفق طريقة قائده . وهنا بدأ اسماعيـل يعد جنده لملاقـاة عدوه فجعل البدو

والمغاربة في المقدمة وخلف البدو صالح دار وجنده وخلف المغاربة عبدي كاشف وجعل الحال والحملـة والمؤن في المؤخرة . وبالرغـم من قلة عدده وذخيرته فان الحظ كان بجانبه لان الشايقية لم يحملوا غير حراب وسيوف عادية ويرتدي قادتهم وبعض فرسانهم دروعا اذا هي درأت عنهم ضربات السيف فليست بالتي ترد عادية الرصاص . واندفع الشايقية نحو جيش اسماعيل بنفوس اشربت حب القتال وتعوده قلوب لم يتطرق اليها خوف او وجل يتدافعون بالمناكب حتى ينتهوا الى خط العدو يطعنون ويتلقون الرصاص كأنهم في حلقة اللعب لا في حلبة القتال . وهم فوق هذا يقاتلون بدافع قوي اذ لا يريدون مفارقة خيلهم التي ألفوها وألفتهم ولا يريدون ان يلقو بالحربة والسيف من ايديهم ليتناولوا المحراث او يحملوا عصا الجريد يضربون بها ثيران الساقية .

حمل الشايقية حملة قوية زحزحت المغاربة والبدو ولكن عبدي كاشف التف من الجناح وحل محلهم في المقدمة ونجح في ان يرد حملاتهم الاولى وبدأ المغاربة والبدو في استعادة مراكزهم والثبات في اماكنهم مرة ثانية وكانت المجموعة من جيش اسماعيل تطلق بنادقها ومسدساتها وتتراجع لتملأها مرة ثانية بينما تأخذ مكانها في اطلاق النيران فرقة اخرى حتى تعود الاولى التي عبأت اسلحتها لخط النار وظلوا هكذا يتناوبون اطلاق نيرانهم وظل الشايقية يتدافعون لينالوا من عدوهم في قتال اليد باليد ولكنهم اخفقوا في اختراق المربع وظل الرصاص يحصدهم حتى ادركوا بعد ان تركوا في ميدان المعركة نحو الستمائة قتيل انه نوع من القتال لم يعدوا انفسهم له وانه سلاح سري بالنسبة لهم فبدأوا يتقهقرون فالفرسان منهم تمكنوا من النجاة اما البيادة فقد وقع أكثرهم في الاسر وكانوا كلهم من العبيد او الجند المرتزقة في جيش الشايقية. ولجأ الناجون الى قلاع اعدت من قبل ينتظرون تجربة حظهم مرة اخرى مع الباشا .

واصل اسماعيل زحفه حتى ادركهم في قلاعهم التي احتموا بها ولكنه تريث هذه المرة حتى احضر المدفع وصار يدكها ووجهوا سلاحا آخر اشد فتكا من الرصاص ينهال عليهم من مسافة بعيدة وذات مرة هبطت القنبلة دون ان تنفجر وراحوا يقلبونها ويمتحنونها حتى انفجرت فأهلكت من تجمع حولها وهنا ادركوا انهم لا يقاتلون آدميين اذ انهم لا يخافونهم بل حزبا من الشياطين ولم تغن عنهم بسالتهم او احجبتهم التي يلبسونها لمثل هذه المناسبات فخارت قواهم وهبطت روحهم المعنوية وفروا امام الجيش دون ملاقاته .

سلم بعض الشايقية انفسهم وفر الملك شاويش واتباعه عبر الصحراء ورحل الى شندى بعيدا عن الجيش ليعطي لجسمه وفكره راحة واستجماما حتى يفكر فيما يجب عمله . وكأن الشايقية لم يخلقو الا للجندية وخوض المعارك ومقارعة الرجال لانهم حين وصل اسماعيل الى شندى سلموا له وعملا بنصيحة والده في التأليف والترغيب وثق فيهم واطمأنوا له وانخرطوا في سلك جيشه وبدأت تلك المعاونة بينهم وبين الحكم الجديد معاونة استمرت كل ايام الحكم التركي حتى نشوب الثورة المهدية .

بقية المماليك

تركنا المماليك وهم يفرون جنوبا عندما سمعوا بتقدم الجيش ورأيناهم يقيمون في شندى حتى وصل اسماعيل الى البر الغربي من بربر وهناك قابله عدد منهم راجعا الى شندى مؤثرا التسليم على العناد الذي لا طائل تحته . اما الذين ما زالوا يكفرون بمحمد علي اولا وبمعاملته لهم فيما اذا سلموا انفسهم ثانيا اتجهت اغلبيتهم الباقية نحو كردفان بخيولهم البيضاء يقودهم عبد الرحمن بك زعيمهم وفضلت شرذمة اخرى الاتجاه شرقا حتى الحجاز . فالفرقة الاولى يقال انها وصلت ليبيا ولم يسمع عنها بعد ذلك والثانية انقطعت اخبارها منذ ان غادرت شندى وانتهى امر شعب قدر له ان يرتفع

من العبودية الى السيادة ويترك اثره في الاقطار الاسلامية وفي مصر خاصة وحقبة من الزمن في سوريا والحجاز وقدر لهذا الشعب الا يحكم فقط بل ان يكون آخر الشعوب الاسلامية التي ترد كيد الصليبيين ويتم امر اجلائهم عن الاراضي الاسلامية على يديهم وبذلك اتموا رسالة صلاح الدين الايوبي. وكانت شندى المدينة السودانية آخر مدينة شاهدت مصرعهم ولفظوا فيها النفس الاخير من عظمتهم ونفوذهم ولم يبق لهم من اثر في هذه البلاد الا دنقلة العرضي التي اختطوها وعمروها .

اسماعيل يختلف مع قواده

بعد انهيار مقاومة الشايقية بدىء بالاستعداد للمرحلة الثانية بعد أن خضعت دنقلا ودانت بالطاعة والولاء وقد ظل اسماعيل يتنطس أخبار الجنوب فنمى اليه أن نمرا ملك شندي يؤثر السلافة ولا يبغي حربا او مقاومة غير أن المساعد ملك المتمة وملك الحلفاية وحكومة سنار كلهم على استعداد للوقوف امام الجيش الفاتح . ولنتركهم الآن في استعدادهم لعبور صحراء جكدول ولنرجع الى القاهرة في ديوان محمد علي ونراه يولي جيشه في الجنوب كل عنايته واهتمامه ويتلقى أخبار تقدمه وأنباء الانسجام أو الاختلاف بين قادته ، وقد عرف استبداد ابنه بالامر دون اللجوء الى قادته المجربين المحنكين ، ووصلته أنباء تذمرهم واستيائهم مما يعاملهم به اسماعيل الشاب وهو حريص غاية الحرص ان تكلل مجهوداته بالنجاح وقد عرف طباع ابنه وحدّة مزاجه وعرف ما سوف يجر اليه عدم الانسجام والمعاونة من نتائج سيئة وحرر له الخطاب الذي اقتبسنا من فقراته ما يؤنبه فيه على معاملته للشايقية ، وها هو يحذره من الاستبداد بالرأي والرضوخ لمشورة البطانة السيئة :

« فكيف يليق بك أن تجعل مثل سلحدارك الغر الغشيم قائدا على

قوجه أحمد أغا وعبدي كاشف الذين بمعيتك من الرجال المتدربين في أمور الحرب فأحدهما لم يزل يخدم منذ خمس أو ست وعشرين سنة ، والآخر منذ خمس عشرة سنة فهما وان كانا يطيعانكم لكنهما على ثقل هذه الاطاعة على أنفسهما يتسليان بأنهما يتابعان نجل مولاهما لكنهما كيـف يدخلان تحت حكم سلحدارك الذي نشأ من غير أن يحضر المعارك ولا ان يحادث أرباب الحروب وكيف يتسليان تحت حكم مثله وهما ليسا من الرجال الذين أتوا في ممالك الروم حديثا ولم يشاهدوا العساكر ولا القواد حتى تجوز المعاملة معهما كالمعاملة مع قطائع الغنم ... فيدل عملكم المذكور وحركتكم المسطورة على انكم ما صرفتم الذهن والذكاء الى هذه الدقائق ولم تدخل في اذنكـم اصلا تلك الوصايا والنصائح التي كنت اسديتها اليكم بمصر . فيا ولدي ونور عيني ان من الواضح الجلي ان الاناني في هذا العالم يبقى بعيدا عن رضاء الحق سبحانه ، والمغرور يكون مهجورا في نظر الكبار فانصحك نصح الوالد ان لا تكون من هؤلاء الانانيين والمغرورين لان المصلحة التي انتدبتم لها مصلحة عظيمة ، والممالك التي تقصدها ممالك جسيمة ولا يتغلب المرء على مثل هذه المصلحة العظيمة الا بالعدالة ، ولا يملك مثل تلك الممالك الا بمراعاة الرجال المجربين المعتبرين الذيـن قاموا باعمـال وانتجـوا امورا وبالاستشارة والمذاكرة معهم في كل الشؤون . فلذلك يا ولدي ان كنت تحبني وتطلب رضاي فاجتذب من ان تكون اانيا او مغرورا . وبادر الى تنظيم الامور وتمشيتها بالاستشارة في المصالح المتعلقة بالامور الحربيـة والمواد النظامية مع قوجة أحمد أغا وعبدي كاشف ، وفي الشؤون الاخرى مع كاتب ديوانكم واحمد افندي الترجمـان والمعلم حنا الطويـل فأقصى مطلوبنا ان تسعوا بكل غيرة في تحصيل وسائل توحيـد الكلمـة واتفاق القلوب في كل الاحوال وان تهتموا بمطالعة نصيحتي المبينة لهذه المفاهيم المرسلة سابقا وهذه النصيحة مطالعة جيدة وان تبادروا الى العمل بموجبها

ومقتضاها ، وان تتيقنوا اني استاء منكم جدا اذا لم تقوموا بالعمل بنصائحي هذه » .

الزحف جنوبا

جمعت الجمال لعبور الصحراء والوصول الى ضفة النيل الغربية بالقرب من بربر ، وعلقت المدافع على اعمدة من الخشب حملت بين كل جملين واقتحموا الصحراء يقودهم الادلاء الذين عرفوا مسالكها ودروبها ومياهها وحطوا الرحال على النيل عند الباقير ومنها ساروا جنوبا محاذين للنيل فاذا ما كانوا قبالة بربر سلم لهم البلاد صديقهم الملك نصر الدين ووافاهم هناك ايضا ابو حجل ملك الرباطاب مطيعا مواليا وكذلك فعل شيخ عربان الحسانية .

احتلال شندى

قامت الحملة من قبالة بربر بالغرب واجتازت ارض الجعليين وبعث نمر بابنه نائبا عنه ومظهرا للطاعة والانقياد ولكن الوشايات على ما يظهر بدأت تعمل عملها فبلغ الباشا ان نمرا لم يكن طائعا من قلبه ، وانه ما امتنع او تجنب الحضور بنفسه الا لأمر في نفسه فألح الباشا على حضور عاهل الجعليين شخصيا ، فركب في جماعة من حرسه واتباعه يلبس الطاقية ذات القرنين علامة الملك ويحمل له احد عبيده شمسية كبيرة تقيه حر الهاجرة وتلقاه حرس من جند الباشا ودخل معسكر اسماعيل بهذه الهيئة وحلف نمر يمين الولاء والطاعة لسلطان تركيا وخلع عليه غير أنه لم يعط سيفا كذلك أرقو ونصر الدين وشيخ العبابدة وكانت هذه علامة الحلف والاطمئنان والثقة وفي هذا دلالة واضحة على أن اسماعيلا لم يكن يطمئن الى عاهل دار جعل .

غل الجيش في دار الجعليين مدة للاستجمام والراحة أولا ولجمع الجمال اللازمة ثانيا والظاهر أن عين محمد علي الساهرة والتي ترقب حركات الجيش باهتمام زائد رأته يبطىء في الاستعداد ويضيع الوقت ويهيء الفرص للعدو ويتجمع ويكمل استعداده فخاطب ابنه بأن الابطاء لا مبرر له حيث أن البلاد التي حط رحاله عليها ذات شهرة توفرت خيراتها وظن انه ركن الى الراحة فليمحصه النصح مرة أخرى في عنف وشدة « ومع [1] ذلك لم تنجز مصلحة لحد الآن وهذا انما ينشأ من عدم امكان قيامك بأي عمل . واني كنت قلت لك مرات أنك ما دمت تحب نفسك فوق حبك للرجال فاني لا أحبك وكنت آمل أنك عملت بتلك النصائح وعدلت من تلك الاخلاق فاذا انك لا تزال على تلك الاخلاق كما كنت فهلا تتخلى من هذه الخلال الرديئة ، وقد اتضح أنك المتسبب لهذه الامور من عدم تحمل جسمك . اقلع عن هذا الخيال واستخدم من يصلح للاعمال من الرجال في مختلف الاعمال على قدر الامكان فها اني أسديت اليك بهذه النصيحة لهذه المرة فاذ قلت في هذه المرّة ايضا اني لا أقبل نصيحة الوالد فوالله العظيم اني لأستجلبنك مع بعض رجال من رجالك واضعك في بيت صغير لأن العار شيء لا يقبل الاولاد والنفس ، فيلزم أن تعلم ذلك عنه تعالى وتسير على وفق ذلك السلام » .

في الجزيرة

لا بد من تأسيس حكومة تدير البلاد التي خضعت للآن قبل أن تصل الحلة الى آخر مراحلها . فسمح لعبدي بالرجوع لمقر حكومته في دنقلا وعين محو بك لحكومة بربر وبلاد الجعليين وقام اسماعيل بجيشه مواصلا زحفه حتى حلّ بعقر ام درمان الحالية وهناك وافاه مانجل العبدلاب وسلم له ، وظل اربعة ايام يتمم ما نقص من جماله وتعبر جنـوده الى مقر الخرطـوم

---

(1) دفتر رقم ٧ معية تركى ترجمة مكاتبه تركية رقم ١٩٩ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٣٦ .

الحالية ، وعندما تكامل الجيش بمعداته اتجه في سهل الجزيرة جنوبا وهذه المرحلة يقصها علينا الشيخ احمد كاتب الشونة في مخطوطته ، وكان اذ ذاك بالمسلمية « ففي اول رمضان سنة ١٢٣٦ نزل المومى اليه (اسماعيل) بأم درمان بالجانب الغربي مقابل الخرطوم فهرب منه بعض الناس وقابله البعض، فأعطاهم الامان لانفسهم وكساهم وتكامل بالخرطوم فأخذ منهم قدر العليق وارتحل ولم تتبين لي محطاته ففي ستة ايام من رمضان نزل بحلة وحيدة قبالي المسلمية فاجتمع ما هناك من الحكام والمراتب وغيرهم وقابلوه بتلك المحطة وطلبوا منه الامان والاقرار على ما في ايديهم في الاحكام السالفة ، ومظالمهم الآنفة واتوه بالضيافة من خرفان وسمن فلم يقبل منهم شيء الا بالثمن ومعه حينئذ ملوك جعل الاثنين المقدم ذكرهما (نمر والمساعد) والامين ولد الشيخ ناصر (مانجل العبدلاب) واخذ عليق المواشي وارتحل ليلا فلحقاه رجب ولد عدلان ودفع الله ولد احمد بالطريق فأعطاهم الامان وكساهم وقلدهم السيوف مثل من قبلهم وسافر حتى نزل بعنى او غيرها فقابله باقي الهمج والحراب فأمنهم ايضا وكساهم فرجعوا واتوه بملك الفونج على عادتهم وزخرفتهم فأمنه وكساه بما يناسب مقامه وذلك آخر دولتهم واظهار عظمتهم فدخل سنار في ثاني عشر ليلة من رمضان المذكور فقابله من فيها واكرم كلا منهم بحسب قانونه وحظه السابق » .

فشل المقاومة في اللحظة الاخيرة

كيف تسنى لاسماعيل باشا ان يدخل سنار بهذه السهولة دون مقاومة ما وما الذي اصاب جسم الدولة السنارية بما لها من شهرة طبقت الآفاق حتى تفتح ابوابها للفاتح ويقابل الملك الجيش المغير خارج عاصمته بالولاء والتسليم ؟ لم يكن للملك اقل نفوذ كما ذكرنا من قبل وانما له من ادوات الملك المظهر والاسم فقط وكان آخر مشايخ الهمج وصاحب الكلمة النافذة

والرأي المسموع محمد ود عدلان وكان رجلا سمح النفس عفيفا يشعر بمسؤوليته الجسيمة فاتصل عندما ترامت اليه أخبار الجيش بملوك الجعليين ومانجل العبدلاب والمقدوم مسلم في كردفان وأخذ يستعد لملاقاة الباشا واتفق مع خلفائه بالتجمع في الخرطوم وارسل ابنه عدلان في الطليعة وبينما هو في استعداده ارتكب غلطة قادت الى مقتله والى انهيار المقاومة .

ما كان له وهو في حاجة الى كل رجل في مثل ذلك الظرف الدقيق ان يخضع لدسائس وزيره الارباب دفع الله ود احمد ويكتب للشيخ احمد الريح خليفة العركيين بالراحة من الخلافة لخصومة الخليفة المخلوع والوزير . فاضمر الشيخ احمد الريح السوء لشيخ الهمج وتآمر منافس ولد عدلان حسن ود رجب وأتياه ليلا في قرية منى وهو في قلة من جنده واغتالاه . ولمّ شعث جيش المقاومة بعد مقتله أخوه رجب ولد عدلان وبدلا من ان يحمل علم المدافعة عن البلاد اتجه نحو قاتلي اخيه للاخذ بالثأر فلم يفلح واصبح لا هو بالذي قضى على قتلة اخيه ولا هو بالمدافع عن ملكه . وأثناء ذلك الاضطراب والبلبلة دخل اسماعيل الجزيرة فسلم دفع الله ود احمد مثير الفتنة بين العركيين وهرب حسن ود رجب قاتل ولد عدلان ولم يجد بادي صاحب المظهر والاسم بدا من الاذعان والطاعة . وزال بهذا ملك دام اكثر من ثلاثة قرون حفظ للاسلام والعروبة اسمهما وتقاليدهما في حوض النيل الاعلى وروافده وقال صاحب المخطوطة المشار اليها فيهم :

تأبين مملكة سنار

« فهذا ما جرى من سيرتهم وانتهاء ملكهم في العام المذكور فرحم الله الاموات منهم وعظم الاجور فقد كانوا لأهل الخير قادة ولبيوت الفضل سادة فكم أووا غريبا وكم رحموا مسكينا فجعلوه قريبا وقال في حقهم من

نعاهم لما رأى داعي المنون ناداهم وتجرع الصبر عند فقدهم وبلواهم ورثاهم بهذه الابيات :

اري لدهري اقبالا وادبارا ... فكل حين يرى للمرء اخبارا
يوما يريد من الافراح اكملها ... يوما يريه من الاحزان أكدارا
وكل شيء اذا ما تم غايته ... ابصرت نقصا به في الحال اجهارا
فلا يغر بصفو العيش مرتشد ... لأن احسانه ما زال غرارا
فأين عاد وشدّاد وما ملكوا ... وأين فرعون والنمرود اذ جارا
وأين كسرى وأين الوالي قيصرهم ... وأين جمعهم قد صار اخبارا
فأين ملكهم العالي وما ملكوا ... كما حكى عن خيال الطيف اذ زارا
لكن من مات بالايمان معتصما ... طوبى له على ما حاز او طارا
والدهر هذا فلا تبقي محاسنه ... فيبدل المرء احسانا واضرارا
آه على بلدة الخيرات منشؤنا ... أعني بذلك دار الفنج سنارا
آه عليها وآه من مصيبتها ... لم نسلها أين ما حللنا أقطارا
فأوحشت بعد ذلك الأنس وارتحلت ... عنها الأماثل بدوانا وحضارا
وصار عمرانها المحسون مندرسا ... يصيح بوم به في الليل صرارا
أضحت تعاينها من بعد بهجتها ... كأنها لم تذق للخير آثارا

ومنها يمدح الهمج :

بالمجد كانوا كرام الناس منقبة ... بسيرة كاملين الفضل احرارا
وكم لهم جاء ذا المسكين مغتربا ... أووا لغربته أنسوه أفكارا
كانوا كراما باحسان ومرحمة ... كانوا ملوكا وأشياخا وأوزارا
كانوا ليوثا وأبطالا مجرّبة ... كانوا بحورا وأشماسا وأقمارا
فلو رأيت بهم ما حل من ضرر ... اجريت دمعك اعلانا واسرارا
تبكي مساجد اهل العلم خامدة ... ترمى عليهم دموع الحزن اقطارا
فأبشروا بفضل الله سادتنا ... فقد حظيتم بخير النزل أجهارا

تبكى مدارسهم تبكــى مواطنهم   تبكى القبائــل بدوانا وحضارا
على كرام يزيــن الدهر مجدهــم   على ديار عليها الدهر قــد جارا
فكل شخص وان طال الزمان له   فقد يكونوا على الأجداث زوارا

تجريدة كردفان

هذا ما كان من أمر الحملة القوية التي اتخذت طريقها الى مملكة سنار وهذا هو النجاح الذي انتهت اليه . اما كردفان فكان يقوم على امرهــا المقدوم مسلم ويدين بالولاء والطاعة لملوك دار فور وكان ان اختمرت فكرة تسيير الحملة على كردفان في نفس الوقت الذي اصبح امر حملة سنار امرا لازما وكردفان لها شهرتها بوفرة الخيرات . فما ان فرغت المراكب من نقل جنود اسماعيل وما ان بارحوا دنقلة متجهين نحو بربر وبلاد الجعليين الا وبدأت حملة كردفان تتحرك وشغلت مواصلات دنقلا بترحيلها وقادها محمد بك الدفتردار صهر محمد علي . وتجمعت الجيوش في الدبة وبمعونة الشيخ سالم شيخ قبيلة الكبابيش ذات العزة والمنعة عبر الدفتر دار الصحراء التي تفصل ما بين النيل في دنقلا وما بين الابيض وباره في كردفــان وترامت اخبارها الى المقدوم وعقد العزم على مقاومتها بكل وسعه ومعه خيالــة كردفان ومشاة دار فور واتصلت الرسائل ما بين الدفتر دار والمقدوم يطالب الاول بالتسليم صلحا ويصر الثاني على المقاومة وفيما يلي مقتطفات من خطاب المقدوم للدفتر دار فيه الاصرار على الحرب وفيه منطقه وحجته وفيه نموذج للغة الرسائل في الجهات الغربية من السودان آنذاك .

خطاب المقدوم مسلم

« الى [1] حضرة دفتر دار تابع باشى محمد علي . مني اليك جزيل

(1) محفظة ١٩ وثيقة ١٦ .

السلام ومزيد التحية والاكرام . اما بعد فخطابك الذي ارسلته الينا فهمناه وما فيه من جهة السيال [1] والطمأ [2] وغير ذلك فهمناه طيب ان كان نحن في بلدنا مسلمين وتابعين كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بالأمر والنهي في زمان السلاطين المتقدمين انتم اهل بحر ونحن اهل بر وكل سلطان يحكم اهل بلده بما قال الله ولا نحن تحت ملككم من زمان السابق : كل سلطان يحكم رعيته بما قال الله وهو المسؤول . اما انتم فغير مسؤولين عن حكم ديار الغير » .

ومنه « ولا ظهر في زمن السلاطين المتقدمين من العثماني من خاطبنا بهذا الخطاب ولا من يرسل التجريدة على بلاد الاسلام الا انتم في زمن محمد علي باشا غزيتم ديار المسلمين » .

ومنه « وانتم مسلمين تحت سلطان آل عثمان خليفة رسول الله لكن نحن خارجين في حكمه ولا هو مسؤول بنا يوم القيامة كل راع مسؤول عن رعيته يوم القيامة » .

ومنه « نحن ما خالفنا كتاب الله وسنة رسوله ولا عهد الله لكم بقدوم بلادنا . انتم غاصبين وظالمين وسايلين كما قال الشيخ فجاز دفع سايل . ان جيت بلادنا انت سايل وظالم ونحن مظلومين ان متنا في دارنا متنا مظلومين وشهداء بين يدي الله » .

وهذا الرد الصريح افهم الدفتردار الا مهادنة ولا صلح ولا تسليم فخرج المقدوم بجيوشه من عاصمته الابيض والتقى بالجيوش المغيرة حوالي بارة وكما حدث مع الشايقية من قبل عندما تلتقي الاسلحة النارية مع السيوف والحراب انهزمت جنود المقدوم ولم تغن عنهم بسالتهم وصدقهم القتال وانتهت امارة كردفان كما اندكت مملكة سنار قبلها .

---

(1) لعلها الصيال وهو الاعتداء .

(2) لعلها الطمع .

الحكومة الجديدة

السرايا في سنار

كانت الأوامر تتلاحق من القاهرة الى اسماعيل وهو في الطريق صوب سنار بما يجب ان يقوم به عند دخوله تلك العاصمة وفي مجموعها تشير الى ان يقيم اسماعيل في سنار نفسها ويرسل معاونيه للغزوات في الجبال والبادية . وتنفيذاً لهذه الاوامر بعث الباشا من مركزه الجديد بكاتب ديوانه محمد سعيد افندي على رأس ثلثمائة فارس الى جهات الدندر ليطارد حسن ود رجب قاتل ابن عمه محمد عدلان المار ذكره فانهزم ووقع اسيراً هو وكبار اعوانه ونفذ امر الاعدام في اثنين مما قيل انهما رأس تلك الفتنة اخذاً بثأر ولد عدنان كطلب ابنائه وزج حسن في السجن واعفى من القتل لشفاعة كبار وعلماء سنار في امره ولانه قد سهل نوعا ما مهمته فتح سنار للباشا حيث ازال ركن حركة المقاومة محمد عدلان .

وبعثت سرية قوية بقيادة قوجة احمد أغا الى جبل تابي ورجعت بألف وتسعمائة من الزنوج وهي في طريقها غزت عربان رفاعة وغنمت منهم الفي جمل والف بقرة والف وستمائة ونيف من الغنم . وفي الحال بعث بكل الزنوج والجمال والبقر لمصر كأول ارسالية لوالده ، وصدر الأمر للبك الكتخدا في القاهرة من محمد علي بان يفرز من الزنوج الصالحين للخدمة العسكرية بمعرفة محمد بك لاظوغلى ويبقون في اسنا للتدريب واذا وجد ما يمكن عمله بالصبية والنساء فيستخدمون والا فيباعون للنخاسين في اسنا وأصوان او في وكالة النخاسين بالقاهرة وامر ايضا ببيع الجمال والبقر .

ابراهيم باشا في السودان

تمت عملية الفتح ووصلت اخبار الغنائم الاولى من منطقة سنار فليذهب ابراهيم باشا بما عرف عنه من اسالة في الرأي وتجربة في الحكم الى السودان وبالاتفاق مع اخيه تنظم الادارة وتوجه الغزوات بما يوافق اغراض الفتح ، سافر ابراهيم ونزل في ضواحي سنار وظل الاخـوان يجتمعان ويتشاوران واخيرا قر رأيهما على القيام بحملتين قويتين . الاولى يقودها ابراهيم الى الدنكة على البحر الابيض والثانية يقودها اسماعيل الى جبال الصعيد لأن والدهما يلح في طلب الزنوج للجندية ويقول في خطاب لابراهيم باشا : « وجلب السودانيين هو غاية المراد ونتيجة المقصود مهما كانت الصورة التي يجلبون بها من مواطنهم » .

الغزوات لاجل الصالحين للجندية

ففي ربيع الاول سنة ١٢٣٧ اي بعد مضي اربعة اشهر على دخول اسماعيل سنار قام الاخوان صوب ماموريتهما وكانت الخطة المرسومة الا يغار على القرى والجبال القريبة من سنار بل تغزى اراضي الدنكة وجبال الصعيد . فاذا ما تجمع عدد كبير من الاسرى الزنوج فرز عشرة آلاف من الصالحين للجندية يرسلون على جناح السرعة . فاذا ما تم ارسالهم يبعث ما بقي من نسائهم واولادهم وهكذا الى ان يتم نحو الاربعين الفا من المرد الصالحين للخدمة . على ان ابراهيم كان مصابا بعلة الباسور قبل وصول سنار ولقي من طبيب انجليزي كان في سنار ما امكن المعالجة وغادرها وهو بهذه الحالة . فما وصل جبال القربين في وسط الجزيرة وهو في طريقه لأراضي الدنكة حتى اشتدت العلة عليه لدرجة لم يطق صبرا عليها فترك الجنـد لطوسن بك وقفل راجعا لسنار ومنها للقاهرة ونجا الدنكة من شر الغارات

وظلوا مطمئنين في ديارهم عشرات السنين حتى جاء خطر الغزو والاصطياد في اواخر عهد عباس الاول .

ولتقدير ما يمكن جمعه من الضرائب ولتنظيم الادارة رأى ابراهيم باشا ان يجري احصاء تقريبيا لعدد القرى في الاقاليم السودانية من افواه الذين يوثق بكلامهم فكانت النتيجة ان قرى سنار والحلفاية تبلغ ٣٠٠٠ وفازوغلى ١٠٠٠ وكردفان ١٥٠٠ ، ولم ترد في الوثائق احصائية بربر والجعليين ودنقلة . ويرى ابراهيم ايضا ان يعين قائمقاما مع عشرة من الفرسان وعشرة من المغاربة على كل من ١٣ الى ١٧ قرية ويقدّر ابراهيم انه يمكن الحصول على الف او الفين من الريالات من كل قرية .

محمد علي يهتم بالسود للجندية

شغل محمد علي مسألة السود وادخالهم سلك الجندية فأنشئت المعسكرات لهم في اسنا واصوان وامر ان يرتب مماليكه الشبان ضباطا على هؤلاء السود وارسلت الاوامر لمدير دنقلة بان يقطع الاخشاب من مديريته ويرسلها مع تيار النيل الى الصعيد لتبنى منها ثكنات الجنود وبعث بموظف خاص من قبل مدير جرجا ليقوم بنفس المهمة في مديرية بربر . وعندما علم ان عددا من الزنوج يهلكون في الطريق امر بعمل نوع مخصوص من المراكب يسمى « نقورات » لترحيلهم . واذا لم تجد هذه الطريقة اشار على مدير بربر باستخدام البشارين يحملونهم عبر الصحراء ، وعين الائمة من علماء الفلاحين يؤمون الجنود السود . واذا ما طلب ابناه مدداً من الجند رد لهما بان النجدات موقوفة امرها على ارسالهما السود فمن كل ثلاثة آلاف من الزنوج يبعث لهما بألف من الجند واستعجلهما في هذا الامر لان الدولة تحتاج الى معاونته لرد عادية ولي عهد ايران الذي اغار على الحدود العثمانية وصدرت الاوامر بتحريم تعاطي تجارة الرقيق بواسطة الجلابة للخارج ،

ومن فعل منهم يبيع سلعته للحكومة حتى يتمكن مـن الهيمنة على هـذا المصدر لسدّ مطالب الجندية . ولم يكتف محمد علي بما يجلبه من رقيق في الاقاليم التي تم فتحها بل تخاطب مع سلطان دارفور للاتفـاق على جلب الرقيق من ذلك الاقليم ، وكذلك امر بان تجبى الضرائب لو امكن رقيقا من الذكور الصالحين للخدمة العسكرية .

سياسة محمد علي في توزيع الجند

رجع ابراهيم من السودان وقدم تقريره وملاحظاته عـن الحالة في السودان لوالده فوصف له رداءة الطقس وعدم ملاءمته للجندي التركي فرتب الباشا سياسته الجندية على ما بينه في الخطاب الآتي الذي بعث به الى متصرف جرجا « وبديهي [1] اننا قد ارسلنا العساكر الجرارة في معية اولادنا وما زلنا نرسلهم بغية ان يجلب الينا من ولايات السودان رجال سود نستخدمهم في اعمال الحجاز وما يماثلها من الخدمات واذ ان حضرة صاحب العطوفة ولدنا الباشا والي جدة قد اتى في هذه الايام من السودان فقد سألناه عن احواله فأخبرنا انه قطر وخيم الهواء لا يصلح لاقامة الجندي التركي . ولما كان الجنود الاتراك هم بني جنسنا وكان مـن الواجب ان يكونوا بحسب الحال والوقت بجانبنا على الدوام وان يحموا ويصانوا من ارسالهم الى الميادين البعيدة ذات الحرارة الشديدة فقد اوجبت الحال ان يجمع من اقاليم الصعيد مقدار من العساكر ليرسلـوا الى تلك البقـاع فاستصوبنا ان نجندوا نحو اربعة آلاف جندي بحيث يكون هؤلاء الجنود قسمين : احدهما يجند في القرى الواقعة فيما بين منفلوط وقنا ويجمع من فرشوط ويقوم بأمر تعليمه وتدريبه ابراهيم اغا ناظر المهمات » .

---

(١) دفتر ١٠ معية تركي ، مكاتبة رقم ١٤٥ بتاريخ ٢٥ جماد الاول سنة ١٢٣٧ .

محمد علي يلح في ارسال السود

رجع اسماعيل من غزوته في الجبال الجنوبية ولم يك ناجحا فيها اذ انه لم يأت بأكثر من ٤٧٧ رجل يصلح للجندية وما بقي من النساء والاطفال وقدمنا ان ابراهيم اضطره المرض لأن يرجع دون ان يصيب مغنما . فلم ير محمد علي بعينه قوافل السود تتوارد على مصر كما كان يريد ولم تمتلىء معسكرات اسنا واصوان بأبناء افريقيـة ذوي البأس والقوة والـولاء لسادتهم ، ولكنه ظل يخاطب ابنه سر عسكر السودان بقولـه « وان [1] المقصود الاصلي من هذه التكلفات الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا اليكم ذات مرة بعد اخرى بل الحصول على عدد كبير من العبيد الذين يصلحون لاعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا » .

وفي نفس الشهر يخاطبه مرة اخرى بقوله « ان الغرض من اقتدابكم الى تلك الديار باختيار هذه المتاعب الشديدة ومن تعزيزكم بسواد عظيم من الجنود والمهمات واللوازم المديدة هو عبارة عن الحصول على العبيد اللازم وابتغاؤهم وفق المطلوب وايصالهم الى ثكنات اصوان غير معرضين للضياع والتلف وليس في نيتنا ولا في نظرنا غاية اعز من هذا الأمل كما هو ظاهر وان قيمة العبيد الصالحين للعمل عندنا بمثابة قيمة الجواهر نظرا لمقتضى الوقت والحال بل هو اعز من ذلك واجل كما هو بديهي وأظهر » .

وهكذا نرى انه قد مضت ثلاثة عشر شهراً منذ ان دخل اسماعيل سنار عاصمة الفونج ولم يتم لمحمد علي ما اراد من فائدة عاجلة بفتحـه السودان فالعدد المقتض نتيجة الغزوات قليل ومسألة ترحيلهم وايصالهم الى مصر لم تكن بالهينة كما يبدو وفوق ذلك ظل الموت يقلل من عددهم سواء في الطريق او بعد وصولهم لمعسكرات مصر .

---

(١) دفتر معية تركي ، مكاتبه رقم ٢٢٥ بتاريخ غرة القعدة سنة ١٢٣٧ .

فرض الضرائب

اثناء غياب اسماعيل في غزوته لجبال الصعيد اتفق مع سعيد افندي وكيله والمباشر حنا الطويل على فرض الضرائب فسجلوا القرى ووضعوا ضرائب باهظة لم يألفها الناس من قبل فقد رؤي ان يدفع صاحب الحمار خمسة ريالات وكذلك صاحب الشاة . وما كان لوكيل مثل محمد افندي سعيد يريد ان يرتفع في عين رئيسه او لمباشر كحنا الطويل يريد ان تتضخم الجزية التي يحرسها ان يفعلا غير ذلك وربما كانا يقيسان الحالة بمصر وهما يجهلان مبادىء الاقتصاد ويجهلان ان السلع تختلف قيمها باختلاف البلاد . وهذه المقارنة قادتهما الى ارتكاب ذلك الخطأ الفاضح . فأهل السودان آنذاك اغلبيتهم تتعامل بالذرة والدمور كنقد والريالات المتداولة بين الناس قليلة . والسوداني الذي يريد ان يقوم بتأدية هذه الضريبة الباهظة قد يعوزه السوق الذي يبيع فيه ماشيته .

الثورة على الضرائب

ازاء ذلك الموقف الشاذ الذي لم يألفه السكان من قبل فر فريق منهم ملتجئا بالحبشة وفريق آخر بدأ يفكر بالثورة والانتقاض على الحكومة الجديدة وقد اشاعوا فيما بينهم ان الباشا قد قتل في الجبال ، فنال بعض الجند من جراء ذلك اذى وشعر المعلم حنا بما يضمره السكان بين جوانحهم ؛ فسافر الى شندى مدعيا المرض وقد ارسلت الدفاتر المربوطة فيها هذه الاموال لمصر لاعتمادها ، وحينما رجع اسماعيل لدى سماعه هذه الاخبار بدأ في استمالة الاهالي حتى يعودوا الى سابق اطمئنانهم ووعدهم خيرا فيما يتعلق بالضريبة وبعث بهجان ليلحق بالدفاتر ويرجعها ، ولكنه لم يدركها

فحذف اسماعيل جزءاً كبيرا منها بأن انزل الخمسة ريالات الى ريالين وأمر الجباة باستعمال الرفق واللين في تحصيلهما .

الانتقال الى واد مدني

لم يطلب المقام للجند في سنار لوخيم مناخها ، وقد عرفت منذ العهد الفونجي بذلك حتى ان ملوك سنار كانوا يبعثون بخيلهم في زمن الامطار الى عبود في وسط الجزيرة خوفا عليها من الموت . رحل اسماعيل الى ود مدني وبنيت الثكنات ومكاتب الحكومة ورتب حكومة للقرى قوامها قائمقامات لكل عدد منها ويساعد القائمقام مشايخ للاخطاط .

اسماعيل يغادر العاصمة

مضت الآن سنتان منذ ان غادر اسماعيل الديار المصرية لفتح السودان وقضاهما في قتال وغزوات ، وفي بلاد لم يألف غذاءها وطقسها . فالآن وقد هدأت الاحوال وعادت المياه الى مجاريها بعد تهدئة الفتنة التي قامت في سنار فليرجع الى مصر يتمتع بالشهرة التي نالها بهذا الفتح ولعل القاهرة قد جهزت له استقبالا رائعا كالذي قابلت به ابراهيم باشا حين عاد من فتوحاته في الحجاز ، فترك محمد سعيد افندي وكيلا عنه في ود مدني وسار شمالا بحرس يتكون من مائتين وخمسين خيالا وقدر له الا يغادر البلاد التي تم فتحها على يديه بل ليلقى حتفه وتفيض روحه فوق ارضها .

مطالب اسماعيل من نمر ومساعد

ترك الباشا خيالته في مكان يبعد نحو عشرين ميلا جنوبي شندى واسرع مع نفر من مماليكه الخواص وطبيبه وخازنداره الى شندى . وما

ان دخلها حتى استدعى الملكين نمر والمساعد وطلب منهما ان يحضرا من النقود والماشية والجمال ما يقدر بنحو العشرين الف جنيه على حسب بعض الروايات ، او على وجه العموم مبلغا تقصر مواردهم المحدودة عن ادائه .

وكان اسماعيل يرهب والده ويخافه ، وقد عرف من الخطابات التي بعث بها اليه ان ما وصل مصر لم يكن بالشيء المنتظر من بلاد عرفت بخيراتها الوفيرة . فهو يريد ان يقدم لوالده هدايا قيمة من اقليمه الذي فتحه وان ينال الرضا والتقدير . وهو لم يسر من الملك نمر والمساعد منذ ان قابلهما لاول مرة ولم يرض الا بتسليم الملك نمر نفسه حين بعث هذا بابنه ، ثم انه لم ينعم عليه بسيفه علامة الحلف والمعاونة ولم يأنس لهما حين غادر شندي جنوبا بل اخذهما في ركابه تحت المراقبة وأوكل بحراستهما الملك شاويش وخيالته .

محادثة شديدة اللهجة

ودهش نمر لهذه المطالب وابدى اعتراضه في لغة وقوة لم يرض عنهما الباشا وما كان لنمر ان يخاطب بغير هذه اللغة لانه نشأ على ان يأمر وتعود الخضوع والطاعة مع التقدير من شعبه وما كان لملك وملك الجعليين خاصة ان يراوغ في كلامه او ان يتحدث باللغة الدبلوماسية . وكانت لحظة حاسمة . هذا اسماعيل يبلغ السبعة والعشرين عاما في عنفوان شبابه وابن عزيز مصر وفاتح مملكة سنار والقاضي على حكمها ، وهذا نمر عاهل اولاد جعل اعز القبائل في السودان والمتحدرة من سلالة العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا مجال للتحقيق في صحة نسبتهم او شعورهم بالتسامي والتفوق لانهم نشأوا على هذه العقيدة ويستجيبون للمؤثرات ويتفاعلون مع الحوادث على هذه الافكار والآراء . واذا اضطرت الاقدار القاسية نمرا لان يجلس امام الباشا في ذل وانكسار فان لهجة الامر التي كان اسماعيل

يخاطبه بها وثقل المطالب زادت نار الثورة المخبوءة بين الجوانح تأججا واشتعالا . وما رد الباشا على اعتراض نمر بكلمة قد تحتمل مهما كان وضعها ، ولكنه صفع الملك على وجهه بغليونه الطويل . طبيعي لمثل نمر وهو كما وصفنا عزه وقبيلته ان يرد الاساءة التي لحقته في الحال . وفعلا كما روى قد هم بسحب سيفه غير ان المساعد قد غمزه بيده في رواية ، وتحدث معه بلغة البشارين في رواية اخرى بان يرجيء الانتقام لفرصة اخرى . ولو عرف اسماعيل طباع الشعب الذي اخضعه لم يرتكب هذه الغلطة ولكان مد في عمره اياما اخرى وانقذ البلاد مما اعقب مقتله من خراب ودمار . ولكن هكذا ارادت مشيئة الخالق .

المؤامرات والاغتيال والفوضى

دبرت المؤامرة منذ تلك اللحظة بأن تغيرت سحنة نمر واظهر القبول وتسليم المطلوب غداً ، وجهزت الدلوكة لتضرب احتفاء بالباشا واسكر القوم حتى ناموا ، واثناء السرور والانشراح وضع القصب الجاف حول مقام الباشا واشعلت النار في بهيم الليل ووقف الجعليون بسيوفهم يقضون على من يخترق النيران ويخرج الى الفضاء ويقال ان المماليك اظهروا اخلاصا لسيدهم بان تراموا عليه ومات بالاختناق لا بالاحتراق في ليلة ١٧ صفر سنة ١٢٣٩ . هكذا تروى القصة بتفاصيلها وقد تختلف في بعض اجزائها من رواة آخرين ولكنها في جوهرها تقول بان الاسباب هي مطالب باهظة مصحوبة باهانة بالغة ، وان الرد كان اغتيالا دبر واحكم تدبيره . والوثائق الرسمية لا تنير الطريق في هذه المسألة ، فهي تتركنا واسماعيل قد غادر ود مدني الى الشمال وتنتقل بنا فجأة الى حملات الدفتر دار الانتقامية .

سمع محو بك مدير بربر وبعث رسولا خاصا لمصر وسمع الدفتر دار في كردفان فنهض لتوه وساعته وجرد حملته الانتقامية . وسمع محمد سعيد

افندي الوكيل في ود مدني وارسل ثلثمائة من الخيالـة يستطلعون الخبر فوصلوا ملتقى النيلين وتأكد لهم فرجعوا الى ود مدني . واثناء ذلك تكونت حركة مقاومة في عبود في الجزيرة بالقرب من ودمدني عمادها الارباب دفع الله ود احمد وظلوا يراسلون قرى الجزيرة بالتجمع عليهم وموافاتهم هناك . وهم في استعدادهم هذا دهمتهم تجريدة الوكيل عند الفجر فشتتت شملهم وفر من استطاع الى الصعيد وتجمعوا مرة ثانية في أبي شوكة ، ولحق بهم هذه المرة حسن ود رجب ، وللمرة الثانية لاحقهم جيش الحكومة وقضى على مقاومتهم قضاء نهائيا وبعدها هدأت الاحوال في الجزيرة بكاملها .

المرحلة الاولى لحملة الدفتردار الانتقامية

تحرك الدفتر دار بمعظم جيشه نحو النيل الابيض فذعـر منه عرب الحسانية واحتموا بالجزر التي على النيل ، ولكنه وصل اليهم على الارماث واوقع بهم مجزرة هائلة واتجه الى البر الغربي للنيل وشياطين الخراب والدمار تسير في ركابه حتى حل بالمتمة واوقع بها حتى اربى عدد القتلى على الالفين ووقع في اسره ما يربو على الثلاثة آلاف ، وهؤلاء قتلوا عن آخرهم ايضا لان بعضهم حاول تسديد ضربة من حربته نحو الدفتر دار . وبعد ان ترك المتمة خرابا يبابا اتجه الى الشمال لملاقاة زعيمي الثورة نمر والمساعد حيث رحلا لمحاصرة بربر منذ ان قتل الباشا وحدث اللقاء معهما وهما في عدة آلاف من قومهما واستمر قتال دارت دائرته على الجعليين بعد ان تركوا في ميدان المعركة نحو الألف قتيل وبعد ان اغرق الكثير في النهر ، وبهـذا انهارت تلك المقاومة الاولى وانفك الحصار عن بربر ، وتسنى لمحو بك ان يتقابل مع الدفتر دار في الدامر . وبعد الاجتماع والتشاور ورسم الخطط عاد محو بك الى مركز حكومته واتجه الدفتر دار ليعمل السيف في بلاد الجعليين وعندما كان قبالة توتي عبر اليها وقتل ونشر الذعر والرعب ثم

واصل سيره جنوبا والخلائق تفر من وجهه ومن ادركه منهم قضي عليه حتى وصل ود مدني . وبذا انتهت المرحلة الانتقامية الاولى حيث رجع الى كردفان تاركا الثوار ملتجئين بالبطانة بعد ان التحموا في معركة اخرى مع محو بك .

اقتراح اقطاع كردفان

تبين الموقف في السودان لمحمد علي ورأى ان يشير على السر عسكر باعطاء كردفان لاحد السلاطين او الملوك على سبيل الاقطاع لتتفرغ الادارة والجنود لحكومة اقليم سنار . ورأى محمد علي هذا الرأي لانه لم تمض سنتان تقريبا على الفتح حتى حدثت ثورات الضريبة في سنار واغتيال ابنه وما اعقبه من حركات التمرد والعصيان ، ولكن الدفتر دار لم يوافق على هذا الرأي بحجة ان ملوك كنجاره الذين يستطيعون حكم كردفان زال أثرهم ولم يبق غيرهم يتمتع بنفوذ يخضع له الاقليم المذكور ، فصرف النظر عن هذه الخطة وترك بالابيض حامية لحفظ الامن وقفل راجعا لاقليم سنار حيث يقضي على الثوار .

المرحلة الثانية لحملة الدفتردار

سمع الجعليون بقدوم السر عسكر فلجأوا الى البطانة بالقرب من ابي دليق ووصل هو الى بلاد الجعليين وجهز جيشا يلحق بالثوار وحرض القبائل الاخرى لتمديد المساعدة والعون للحكومة والتقى بهم بمكان يدعى النصوب انهزم بعدها نمر بعد ان قتل عدد كبير من اهله وعشيرته ، واتجه مع نفر قليل من اصحابه حين انجلت المعركة شرقا واستقر بالحبشة . وعندما جمع الدفتر دار الاسرى وجدهم ينوفون على الاربعة آلاف فيهم عدد من نساء نمر

وبناته وخالاته وعماته ، وسيق الكل الى النيــل ارسلوا بعدها الى مصر ليباعوا في سوق الرقيق ، لولا ان تدخل قناصل الدول الاجنبية في الامر . وكانت موقعة النصوب في شوال سنة ١٢٣٨ .

موقعة الدندر

تلاشت قوة نمر الآن بقتل من قتل واسر البقية وفرار نمر نفسه من قلة اصحابه . اما المساعد فقد تراجع نحو الصعيد الى مكان بين نهري الدندر والرهد. وبعد فترةاستجمام لا بد منها سار الدفتردار على شرقي النيل الازرق حتى أدرك الثوار والتقى بهم قبل ان يلحقوا بالحبشة ، فقتل الكثير وأسر نحو السبعة آلاف سيقوا كلهم الى ابي حراز ولكن الضعيف منهم مات في الطريق نتيجة العطش والتعب ، وجهز منهم خمسة آلاف يرسلون من اقليم سنار في قوافل تشمل كل واحدة منها الألف الى مدير دنقلة ليرسلهم بدوره الى المحروسة كأسرى النصوب . واستراح الدفتر دار قليلا على النيل ثم نهض شرقا مطاردا لنمر وللقبائل العاصية ، ووصل الى شرقي كسلا فقتل وسبي ، ثم رجع الى مكان اقامته بالنيل وبهذا ختمت صحيفة دموية لــم يشهد السودان مثلها في تايخه .

تعيين عثمان بك

صدرت الاوامر للسر عسكر بأن يجهز نفسه لمغادرة السودان هو وجنده وجند جنتمكان [1] اسماعيل باشا وعــين من مصر عثمان بك امــير الألآي الاول لادارة الاقليم . فتحرك عثمان بجنود الجهادية التي تدربت على النظام الجديد ، وأثناء مروره بالصعيد اوكلت اليه مهمة القضاء على حركة شخص ادعى المهدية في إسنا ، وأثناء استئناف سيره جنوبا تمرد بعض الجنود

(١) ساكن الجنان .

فكاتبه محمد علي موبخا ومؤنبا ومذكرا اياه بأن يتودد الى رجاله ويتواضع معهم بقوله : « الا فليكن في علمك ان الرجل المتكبر الاناني المعجب بنفسه لا يسود في هذه الدنيا ولا ينجح » .

وصل عثمان بك الى ملتقى النيلين واعجب بهذا الموقع فلم يواصل سيره الى ود مدني العاصمة وفضل ان يبني الثكنات والقلاع في المكان الجديد ورسم خطته لوضع الضرائب الجديدة بعد حقبة الاضطراب والفوضى وكان فظا غليظ القلب فنكل بالناس أثناء زياراته في الجزيرة واقليم القضارف واتسم عهده بالظلم والقسوة التي عرف بها عهد الدفتر دار في حملاته الانتقامية وقبل ان تتم له اقامة ثمانية اشهر في اقليمه الجديد اصيب بداء السل وقضى نحبه وكان اول دفين من الحكام في العاصمة التي أسسها .

محو بك يخلف عثمان بك

طير خبر موت عثمان بك الى محو بك في بربر فخف في الحال للخرطوم واستلم الحكومة الى ان ورد له الامر بتعيينه على سنار خلفا لعثمان بك ورجع لبربر واقام بها مدة ثم قفل راجعا الى الخرطوم ليقيم فيها نهائيا . وقد خفف محو بك كثيرا من الآثار السيئة التي تركتها سياسة الدم والنار من حملات الدفتردار وادارة عثمان بك الغاشمة . فأغرى الاهالي بالرجوع لاوطانهم والاطمئنان لجانب الحكومة ، ومنع عساكر الجهادية من التعدي على الاهالي . وقد حالفته الطبيعة في عنه بأن هطل الغيث وفاض النهر ودر الضرع وعم الرخاء بعد ايام عثمان بك بقحطها وجدبها وامراضها .

آثار سيئة

تركت هذه الحوادث المتعاقبة أثرا سيئا في نفوس اهل السودان ونظراتهم نحو الاتراك . وبالرغم من ان اسلام السودان يصل الى درجة

التعصب وبالرغم من ان الاتراك كانوا حماة الاسلام آنذاك وان السلطان العثماني هو خليفة المسلمين قاطبة ، فان السوداني في قريته الوادعة المطمئنة اشرب بغض التركي وكره منظر الجندي التركي بطربوشه وسوطه ، اذ ظهوره في القرية لاول وهلة يشيع فيها الخراب والاضطراب .

تقضت الآن ست سنوات معظمها غزوات لأسر سكان الجبال وارسالهم لمصر للانتظام في سلك جندية الباشا على النظام الجديد ، وحملات انتقامية قام بها الدفتر دار ان هي اعفت الاطفال والنساء من القتل فلأجل ان يرسلوا لمصر ، وسياسة الارهاب والعسف التي اشاعها عثمان بك ، ثم قبل ذلك كله الضريبة التي ما الفها السكان ولم يستسيغوا فداحتها او الطريقة التي تجبى بها . فلا غرابة اذا ما اقترن اسم الاتراك في نفوس السودانيين بكل ما هو جائر وظالم لانها هي الناحية التي تكشفت لهم من الصورة ، وانصافا لاسماعيل باشا نرى انه لم يستبح ممتلكات الاهالي او اعراضهم ، وانه كان يدفع اجرة الجمال للحملة واثمان الغلال والمواشي للمؤن ، وانه ابدى عطفا واوصى بالرفق واللين حين علم فداحة ما وضعه وكيله ومباشرة من ضرائب. غير ان نزعات الشباب وغروره والشعور بالتسامي والعظمة قد اودت بحياته وقضت على السمعة الحسنة نسبيا التي ارتبطت بفتحه الاول ولم يبق غير حملات الانتقام بعد ذلك ومظاهر الجور والظلم والارهاق .

استقرار الادارة والأخذ بأسباب العمران

تعيين خورشد آغا حاكما لاقليم سنار

بعد هذه الاحوال المضطربة عين خورشد أغاليكون حاكما على اقليم سنار وهو السودان ما عدا كردفان ودنقلة . وكان على الحاكم الجديد ان يرجع ما فقدته النفوس من ثقة في الحكومة ، وكان عليه ان يرجع من فرّ ملتجئا بالتخوم الحبشية وعددهم يربو على الاثني عشر الفا ونجح اخيرا في ادراك الغايتين فهو يجامل ويلاطف وينصف حتى اطمأن الناس على انه لم يكن على غرار من سبقه واغرى اللاجئين باعفائهم من ضرائب السنة التي فيها يرجعون ، وقاد حملات الى الشرق لا ليدمر ويخرب بل ليحمل على بعض الزعماء هناك الذين يمانعون في رجوع الهاربين ، وهو في هذه المهمة قد استعان بذوي النفوذ والكلمة من السودانيين كالشيخ احمد الريح والشيخ عبد القادر ود الزين .

سياسة عمرانية

وجه خورشد عنايته لعمران العاصمة فبعد ان كانت معظم بيوتها من الشكاب وجلود البقر ما عدا القليل من بيوت قبيلة البداناب [1] شيد الجامع

---

(1) فرع من قبيلة المحس .

بالطوب الاحمر وكذلك مباني الحكومة وثكنات الجند وشجع الاهالي على البناء والتعمير بأن يفرق عليهم الاخشاب من جانب الحكومة .

كان محمد علي يشرف بنفسه على ما يجـري في السودان في عهـده الجديد ، وخاصة بعد تلك المعارك الدموية التي اعقبت مقتل ابنه ورأى ان لا سبيل الى توطيد مركزه وتثبيت دعائم ملكه في تلك البـلاد الثائرة الا بالعمل على رفاهية السكان والسهر على ما فيه راحتهم وما يجلب طمأنينتهم وثقتهم . وتنفيذا لذلك رأى ألا سبيل الى زيادة انتاج البلد واستغلال ثروتها الطبيعية من زراعية وحيوانية الا بتحسين المزروعـات ونسل الحيوانـات وادخال الطرق الحديثة في كليهما وارسال الخبراء المختصين من أجل ذلك الغرض . فأمر ان يرسل مع خورشيد آغا ما ينوف على المائة من الفلاحين والخولية وزعوا على الاخطاط المختلفـة يعلمون الاهالي بالطريـق العملي أحدث وأنفع طرق الزراعة ورأى خورشيد بعد ان وصل مقر حكومته ان يرجع من اوفدوا للسودان قبلا لاشياء ثبتت بالتجربة أنها لم تكن بذات جدوى كخبراء زراعة الافيون والدباغة وعمال الجيش والجـير ورأى ان يستعيض عنهم بسودانيين يرسلون لمصر لتعلم بعض الصناعات والحرف ثم يعودون لبلادهم يمارسونها فيها .

وضح لخورشيد ان الانتاج الزراعي يجب ان يبنى على الري المستديم لا على الامطار ، وطلب عمالا من مصر يجيدون صناعـة السواقي المصرية لتروي اراضي بلاد الجعليين ، وطلب آخرين يحفرون الترع حيث تستغل مياه الفيضان وفي الجزيرة أغرى السكان الذين يقطنون بعيدا عن النيل بان يبنوا بيوتهم عليه وينشئوا السواقي هناك، وقد استحضرت اغراس الاشجار المثمرة من مصر لتزرع في السودان وشجعت بعض المزروعات كالنيلة وقصب السكر . ولتحسين نسل الضأن الموجود بالسودان جلبت اكباش ممتازة من مصر لتحقيق هذا الغرض . وبوجه عام امتازت الادارة الجديدة بعد هدوء

الاحوال واستقرار الامن بنهوض عام هدفه زيادة الانتاج واستغلال الثروة الزراعية والحيوانية .

عين محمد علي الساهرة

لم يدخل محمد علي في مغامرته السورية ومناوأته للسلطان في السنين الاولى من حكم خورشيد ولذا نراه يشرف على دقائق الادارة في السودان. فالذي يطلب اعفاء ارضه من الضرائب لانها وقف على مدرسة او جامع يرد عليه الباشا نفسه بان يطلب من الحاكم المختص التأكد من ان المدرسة قامت فعلا او الجامع قد بني ، وحين طلب خورشيد ان يزاد مرتبه الـذي كان يخصم من ماهيته شهريا لعائلته زيادة ملحوظة يرد الباشا بان هذه الزيادة في المرتب لها دلالتها المؤدية الى عدم نزاهة خورشيد وانه يعيش في السودان بطرق اخرى ولا يطمئن الباشا الا بتفسير خورشيد بان ما يخصم يذهب لعائلات بعض الموظفين معه وانه يتناوله منهم . واذا ابدى خورشيد بعض الحجج على صعوبة بناء المركب في اقليم سنار ردّ محمـد علي بنفسه مفندا حججه الواحدة تلو الاخرى . واذا طلب ان تبني وتجدد الحكومة منزله في القاهرة نظير مبلغ معين من مرتبه شهريا رد له بانه لا يصح للحكومـة ان تترك اعمالها الرسمية وتشغل بتجديد منزله .

وبالرغم من ملاحظات محمد علي الدقيقة وعينه الساهرة على ما يجري في ممتلكاته الجنوبية فان الرشوة والاختلاس قد بديء بالأخذ بهما ، وهناك اكثر من حادثة رشوة واختلاس في بربر ودنقلا عوقب المجرمون بما يستحقوا سواء كان الرفت او السجن او مصادرة الاموال . وبـلاد واسعـة كهذه ومواصلاتها غير منتظمة وصعبة لا بد وان يشتغل فيها الحكام والكشاف باثراء انفسهم .

لم ينس محمد علي تزويد جيشه بالسود من السودانيين ، ولم يفقـد

الامل من الجنود السود ايضا رغما عما كان يموت منهم بكثرة في مصر والحجاز ، فكان يأمر بتحسين غذائهم ومسكنهم وكان يقترح على حاكم سنار الا يبعث بهم الى مصر رأسا عقب الغزوات بل يتركهم في السودان الاوسط ليتعودوا على الطقس والحياة قبل ارسالهم لمصر او الحجاز . واستطاع خورشيد ورفيقه حاكم كردفان بعد ان اطمأن السكان ان يصدرا عددا كبيرا من الماشية للانتفاع بها في صعيد مصر للسواقي والجمال لترسل للحجاز من اجل ترحيل مؤونتهم وذخائرهم وكذلك جلود البقر .

ترقية خورشد

رقي خورشيد أغا الى رتبة امير اللواء وسمي مدير الاقاليم السودانية واصبح يعرف بخورشيد بك في سنة ١٢٤٩ هـ . وفي سنة ١٢٥١ هـ . رقي الى رتبة الميرميران الرفيعة وعرف بعدها بخورشيد باشا ومنح لقب الحكمدار ، وجاء في فرمان تعيينه ما يلي « [١] وستسن كافة الاهالي بسياسة طيبة واجعل الاهتمام ببسط العمران والرفاهية في هذه الاقاليم المصرية نصب عينيك كما هو المنتظر منك .

ملاحظات على الرق

كثر تردد السائحين الاوروبيين منذ ان تم الفتح ولاحظ بعض الانجليز الذين حضروا هنا ان بعض الجند والضباط يعطون رواتبهم رقيقا لا نقدا ونقلوا هذه الظاهرة التي شاهدوها الى قنصل انجلترا العام المستر كامبل وكان يتمتع بثقة محمد علي وتقديره ، بل بلغ درجة الصداقة من نفسه فأسرها لمحمد علي في احدى محادثاته ، فتأثر الجناب العالي وكتب الى الحكمدار

(١) دفتر ٦٦ معية تركي امر كريم رقم ٦٧ بتاريخ ٢٨ ربيع الاول سنة ١٢٥١ .

يأمره بابطال هذه العادة بقوله « ولما كان من واضحات الامور مبلـغ استهجان هذا النظام لدى الدولة المشار اليها وقد وجب الفاؤه مراعاة لما استحكم بيننا وبين هذه الدولة من روابط الصداقة المتينة وعليه فيجب ان تكفوا فيما بعد من اعطاء العبيد والجواري بدلا من العلوفة واما ان قلتم ان الاخذ بهذا النظام يعود على الميرى بفائدة فأقول لكـم دعوا الفائدة في جانب فأنا مستعد لقبول الضرر والخسارة في هذا السبيل ولذلـك اطلب اليكم بصورة قطعية ان تلغوا النظام المذكور » .

وعندما استلم الحكمدار هذا الأمر رأى للاخذ به ان يجمع مجلسا كبيرا ينظر فيه وفي امور اخرى تتعلق بالامن العام والمالية . فتوافد المديرون على الخرطوم ومعهم ٢٧ من مشايخ الاخطاط والاقسام وعلى رأسهم شيخ مشايخ جزيرة سنار الشيخ عبد القادر الزين وقرروا العمل بالأمر الكريم وتوزيع هذا الرقيق على الجهات ليباع واثمانه تدفع مرتبات وكان هذا اول مجلس كبير عقد في الحكمدارية للنظر في الشؤون العامة . ولم يكن هـذا الاجراء الغاء للرق اذ بيع ودفعت اثمانه ماهيات .

الذهب

شغل محمد علي بمسألة استخراج الذهب من معادن بني شنقول منذ ان استلم الجوربين الذين بعث بهما ابنه اسماعيل حينما غزا تلك الجهات وبعث بالاسطوات (المهندسين) الافرنج لذلك الغرض والظاهر ان الروايات التي سمعها عن كثرة الذهب كان مبالغا فيها جدا والابحاث الاولى لم تسفر عن نتيجة تبشر بالنجاح ومع ذلك طلب ان يقدم تقريرا بآراء المعدنين وامين المعدن مصطفى بك ، وقد اختلفت آراؤهم وتباينت وانتقل هذا الاهتمام بشأن المعدن الى الحكمدار حيث رأى ان يقوم برحلة خاصة من اجله غير

ان بلغته اخبار مؤامرات في الشرق استلزمت الانتباه لها وصرف النظر عن المعدن في ذاك الوقت .

حوادث الحدود مع الحبشة

لم تحدد التخوم ما بين بلاد السودان والحبشة ، وما كان في الامكان تحديدها ورجال العصابات يسيطرون عليها ، وكانت الجبال الحبشية ملجأ للفارين سواء من الضريبة او من تجريدات الانتقام . وقد حدثت بعض مناوشات بين الرؤوس الحبشية وجيش الحكومة اسر في بعضها الضباط . وطارت الاشاعات بعد تلك الاشتباكات الصغيرة على ان الاحباش على اتفاق مع بعض القبائل السودانية المتاخمة وبعض الفارين الذين لم يعودوا الى بلادهم بعد . والاشاعة تقول ان المتآمرين ينوون النزول من الجبال بعد اوان الخريف مباشرة ، وان رجال القبائل اذا ما طلب اليهم من الحكومة بالمقاومة فليتظاهروا بذلك وبعدها ينقلبون على جيش الحكومة واذا ما تم النصر ترجع البلاد في الجزيرة واقليم سنار الى حكم اهلها الذين كانوا يحكمونها قبل الترك .

نجدة احمد باشا

بلغت هذه الاشاعات حدا من الذيوع قلق له الحكمدار وبالرغم من انه سمح له بالنزول لمصر للمعالجة من داء الناسور لم يسعه الا البقاء وبعث برسالة مستعجلة لمصر يصور فيها ما ترامى اليه من اخبار وطلب النجدات القوية السريعة . واهتم محمد علي بالأمر وبعث بقوة عظيمة على رأسها قائد برتبة ميرميران وهو احمد باشا الذي سمي بابي ودان او ابواضان . والقوة في طريقها للسودان جمع الحكمدار ما لديه من جند وخف الى الشرق لملاقاة

العدو الذي ربما تحدثه نفسه بتنفيذ المؤامرة ، ولحسن الحظ لم تنزل المكادة من جبالها ولم تعلن القبائل عصيانها ، وكأنما كانت الاشاعة مبالغا فيها او ان القبائل ذعرت وخافت من قوات الحكومة . رجع الحكمدار بجيوشه وتقابل مع قائد النجدات في ود مدني ورجع الجميع للعاصمة وسافر خورشيد باشا للمعالجة من دائه .

مغادرة خورشيد باشا

وكان وداعه رهيبا وحزن على فراقه كل الاهالي اذ عرفوا فيه الحاكم المقتدر العادل الذي ساسهم نحو الاثنتي عشر سنة انساهم خلالها ما لحقهم من جور وظلم اثناء سنين الدفتر دار الدموية ووصف رحيله الشيخ احمد كاتب الشونة بقوله « وتجهز بكامل ما لديه ونزل بالمراكب فصعب ذلك على الاهالي جميعا وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع حتى قيل ان الشيخ عبد القادر هجر نفسه من الاكل والشرب يومين حزنا على فراقه » .

احمد باشا ابو ودان

عين احمد ابو ودان مأمورا على الاقاليم السودانية لا حكمدارا ليقوم مقام خورشيد باشا اثناء غيابه ، ولكن بعد اشهر من ذلك بقي خورشيد في مصر وصدر الامر بتعيين احمد باشا حكمدارا وهو من مماليك محمد علي الشراكسة حارب في سوريا في جيش ابراهيم باشا وحمل نبأ سقوط عكا لمحمد علي في زمن قصير جدا وارتقى في جيش الباشا حتى وصل رتبة الميرميران . وكان عهده استمرارا لعهد الحكم القوي الموطد الاركان والدعائم الذي بدأه خورشيد وعرف بأنه مثال الحاكم العادل وقال عنه الشيخ احمد المذكور « وضبط الحكومة اشد الضبط من غير اهمال ولا

تفريط وابطل كل ما كان من تعدي العساكر على الفلاحين من تسخيرهم في الاشغال وتسخير بهايمهم فانزجروا جميعا ورفعوا ايديهم كلية خوفا من سطوته وبذلك ارتاحت الاهـالي وزادت العمارة وكثر الخير وخصبت الاراضي ورخصت الاسعار وحتى صار اردب الذرة بخمسة قروش وصارت ايامه احسن من ايام سلفه وان كانت ايام سلفه ايضا حسنة في نفسها » .

عرف احمد باشا بكثرة الصمت وقلة الكلام وبذا عظمت هيبته في النفوس واصبح يخافه ويخشى بأسه الجند والحكام مهما بعدت اقاليمهم وكان لادارته ، اثرها الحسن في تأمين الطرق وانهماك السكان في مزارعهم وتربية مواشيهم .

ضيق المالية

عين احمد باشا حكمدارا ومحمد علي تحتل جيوشه سوريا منذ ثمان سنوات وتضخمت المصروفات دون ان توازن بما يعادلها من ايرادات ولذا نراه يلح على احمد باشا في ارسال الصمغ ليفرج بعض الشيء الضائقة المالية واذ طلب احمد باشا ربط مرتبات لمشايخ القبائل والقرى يبدي الجناب العالي اعتراضه على ذلك دون ان يمنعه منعا بتاتا . واخيرا فكر في الاهتمام بأمر المعدن ورأى ان يقوم برحلة لفازوغلي خصيصا لهذا الغرض . وطلب اولا ان يذهب لمصر مصطفى بك الذي كان مشرفا على شؤون المعدن وسافر فعلا بمعية خورشيد باشا .

محمد علي السودان

بحثت كل الاستعدادات التي يجب القيام بها من تعيين العمال وجمع العدد والآلات وغيرها وجهزت لوازم سفر الجناب العالي من ذهبيات لسفره

وخيل يمتطيها في السودان وحاشية كاملة لم تفقـد حتى عامـل الشيشة ، والقهوجي باشا ، ونقود تصرف على اعمال المعدن وخلع وكساوي تعطـى للمشايخ والاعيان . وعندما تمت الاستعدادات ترك عباس باشا ابن طوسن قائمقاما بدله وغادر مصر لزيارة اراضيه الجنوبية . لم يقم كثيرا في الخرطوم بل غادرها ليصل الروصيرص ويظل هناك خمسة عشر يوما لتكامل المعدات واللوازم وعندما تكاملت قام الى فازوغلي وحط رحاله بها ، وفي الحـال بنيت مساكن العمال وشيدت المستشفيات وثكنات الجند وقصر لمحمد علي وبرزت الى الوجود قرية عظيمة في فازوغلي . وبعد ان شاهد العمليـات الاولى لتصفية وصهر المعدن قفل راجعا من فازوغلي .

ولو ان مهمته الرئيسية كانت تنحصر في شؤون المعدن الا انه لاحظ ما ينقص ادارته في السودان وكتب وهو هنا على جناح السرعة الى عباس باشا بأن يرسل عددا من الكتاب الاكفاء قابلوه عند رجوعه لمصر في اسوان ولم يكتف بذلك بل أمر بابعاث غيرهم ووصف الحالـة من حيث الادارة بقوله [1] « عندما طفنا ارجاء السودان وتفقدنا احوال العباد والبلاد الفينا ان الاقسام والمناطق قد ترك امرها لجاعة من الكشاف وان البلاد ينقصها الكثير من الكتاب الاكفاء الذين في مقدورهم مواجهة الامور والاحوال الطارئة ومعالجتها وقد عرض علينا احمد باشا حكمـدار السودان حاجـة السودان الى الكتاب الاكفاء فكتبنا من الخرطوم الى ديوان معاونتنا في هذا الشأن ولما بلغنا اسوان في طريق عودتنا الى مصر وجدنا هناك اكثر من ٤٠ كاتبا قد اوفدوا من مصر للخدمة في السودان غير اننا لا نـزال نرى ان الحاجة ماسة الى بعض الاكفاء لاستخدامهم في مركز الحكومة والمصالح العامة ليتسنى بذلك ترقية البلاد واصلاح حال العباد ولا اهمية للمال اذا ما صرف في هذا السبيل » .

---

(1) دفتر ٢٨٠ شورى المعاونة ملكية وثيقة رقم ٢١ بتاريخ ١١ محرم سنة ١٢٥٥ .

فتح التاكة

فكر احمد باشا في توسيع رقعة حكمداريته بأن يفتح بلاد التاكة فهي غنية بمواردها الزراعية كما سمع عنها . فتجهز بجيشه وسار الى شندي ، ومنها اتجه شرقا حتى وصل قوز رجب التي تقع على ضفة نهر عطبرة اليسرى ، وشرقي ذلك النهر مفازات قليلة المياه فأخذوا ما يكفيهم من المياه ودخلوا تلك الاراضي المجهولة لديهم واتصلوا باطراف ما يروي القاش من اراض وسلمت لهم بعض القرى في الاطراف دون مقاومة . غير انهم بدخولهم في اراض مشجرة وعرة قابلهم الهدندوة بالمقاومة ، فبينما هم في وسط الاشجار في هيئة مربع هجم عليهم العربان ليلا فانطلق الرصاص من فوهات البنادق عليهم وابلا مدرارا فارتدوا على اعقابهم وزحف الجيش بعد هذا الانتصار حتى أتوا مجموعة من الآبار ردمها العرب وفروا ، فأصلح الجند من شأنها واستقوا منها وبدأوا يقطعون الاشجار ويشقون الطريق للتوغل في الغابات واخضاع السكان .

فلما رأى العرب تصميم الجيش على الاحتلال بسلاحه الرهيب طلبوا الصلح والمفاوضة وتم ذلك واقام الحكمدار معسكره في المكان الذي عرف فيما بعد بمدينة كسلا ، وانشئت الاستحكامات وشيدت مبان لمقر الحكومة . وما ان انقضى الخريف حتى سمعوا بتمرد من بعض العربان في نواحي كسلا فقاموا لاخضاعهم وكالعادة دخل العرب الغابات فقطعت الاشجار وتوغل الجيش فيها وتلقى هجمات قوية باسلة ردتها النيران ، وفر العرب بعد ان تركوا نحو المائة قتيل في ميدان المعركة وانقضى بذلك عنصر المقاومة الاخيرة.

وقد دهش احمد باشا لخصب الارض التي يرويها القاش ، وبنى سدا يحوّل المياه نحو اراض جديدة حتى تجف الغابات التي كان يرويها ويزيلها نهائيا حيث لا تعود كينا للعربان مرة اخرى ووجد الاهالي قبله يستخدمون انواعا من السدود ويزرعون القطن والذرة واللوبيا . ومن الاقاليم الواسعة

التي بسط سيطرته عليها رتب مديرية جعلت كسلا عاصمتها وبعد ان اقام شهرا ترك بها مديرا وحامية عسكرية وقفل راجعا للخرطوم .

مطامع احمد باشا ووفاته

بدأت الاشاعات تحوم حول نيات احمد باشا عند رجوعه من كسلا وقيل انه يريد ان يفصل السودان من حكومة محمد علي ويضعها تحت سلطة تركيا ويعين هو واليا كمحمد علي نفسه في مصر وقد تحدث Werne الالماني الذي كان معه في كسلا بأن الباشا كان يسهر ليالي بأكلها يفكر في هــذا الأمر ويتناول القهوة باستمرار . واذ بلغت الاشاعات حداً من الذيوع حتى اتصلت بمحمد علي استدعى الحكمدار لمصر والظاهر ان احمد باشا تباطأ حتى قلق محمد علي وبدأ يرسل الخطابات تارة لمدير جرجا وتارة لمدير دنقلا او بربر يطلب منهم موافاته بما علموه عن احمد باشا ويسألهم هل وصلهم او سمعوا انه غادر الخرطوم .

واخيرا توفي أحمد باشا تحت هذه الظروف . وكما شاعت اخبار نياته نحو فصل السودان شاع ايضا انه قتل مسموما بايعاز من محمد علي اشاعة جعلت محمد علي يقول لمدير الوجه القبلي وهو ممن لهم علاقة بالمتوفي مــا نصه « والله العظيم وبالله الكريم انني لا احمل في نفسي للباشا المرحوم شيء من السخط ولا اشك في اخلاصه واني لاقدر مبلغ جهوده وقيمة خدماته واعرف ما كان يكنه لي من المودة والولاء وانا واثق من ذلك » .

اللامركزية

وبموت احمد باشا انقضى عهد الحكمداريين العظام ولم يشأ محمد علي ان يعين مكانه حاكما قد تحدثه نفسه بمثل ما حدثت احمد باشا ، او ان يشاع

عنه بمثل ما اشيع عـن الباشا المتوفي وهو حريص على ان تبقى ممتلكاتـه الجنوبية في يده حرصه على مصر نفسها . والآن وقد مضت عليه اربـع وعشرون سنة كان فيها السودان جزءا متمما لمصر لا يريد ان يبتر هذا الجزء بعمل طابع في الحكم . دارت هذه الافكار في رأس العزيز عندما بلغه نبأ وفاة الحكمدار ، ورأى ان يرتب الادارة في ذلك القطر المترامي الاطراف على اساس يبعد احتمال تحقيق اي غرض من شأنه ان يطوي سلطته ونفوذه في السودان ، ولذا وصل الى النتيجة الطبيعية التي يصل اليها من كان في مثل هواجسه ومخاوفه آنذاك وهي لغو ذلك المنصب العظيـم الذي ربما يكون شاغله من ذوي المطامع والاستماضة عن النظام القديم بتقسيم البلاد الى مديريات ترجع في امورها رأسا الى مصر ويتماون المديرون فيما بينهم لانجاز المصالح المشتركة . وتحقيقا لهذا التغيير الاداري رأى ان يبعث بمن يثق به لتركيب الآلة الادارية الجديدة وتشغيلها . فعهد بذلك الى احمد باشا المنكلي وعينه منظما لا حكمدارا يمكث ريثما يتم الوضع الجديد ويقفـل راجعا لمصر .

تقسيم المديريات

صدر الامر الكريم بتعيين اللواء حسن باشا لمديرية دنقلا التي وسعت حدودها حتى المتمة وشندى . وامين باشا للجهات العليا وهي تبدأ من المتمة وشندى وتشمل الخرطوم والنيل الابيض والجزيرة حتى ود مدني والاقسام الشرقية للنيل الازرق ، وسليمان باشا لمديرية سنار وهي ما يلي ود مدنـي جنوبا من الجزيرة حتى حـدود فزوغلي وشرق النيـل الازرق كأقسام القضارف وراشد وأرض العطيش والقلابات ، وسليم باشا لمديرية فزوغلي وهي اعالي النيل الازرق ، وفرهاد باشا لمديرية التاكـة ، ومصطفى باشا لمديرية كردفان .

والامر الذي بيد المنظم يطلب اليـه ان يـوزع العساكر على هذه المديريات بقدر ما تحتاجه كل منها حسب حالة الامن واحتمال وقوع الثورات والاضطرابات ، وكذلك توزيع الكتاب والموظفين ، واذا كانت البلوكات ناقصة يعهد الى كل مدير اتمامها بمعرفته وان يطلب الى المديريـن التعاون والمؤازرة وفيما اذا طلب أحدهم مددا وعونا من اخيه فعليه اجابة مطلوبه . فاذا ما أنجز الباشا هذه المأمورية رحل بمن بقي من الجند الى جبال المنجم في فازوغلي ويخصص وقتـه وجهـده لاستخراج الـذهب ويبعـث بآرائه واقتراحاته في هذا الصدد ويبقى هناك الى ان تصدر له ارادة اخرى بما يجب عمله . وكان محمد علي يستبشر خيرا بالنظام الجديد ويقر بأن من كانوا يحكمون البلاد قبل هذا وخاصة في المديريات لم يكونوا من ذوي الكفاءة والمقدرة ، ويقول للمنظم في احد مكاتباته (١) « ان بـلاد السودان مـن البلدان التي تدر الكثير من الخيرات غير ان الذين عينوا لادارة مختلف جهاتها حتى الآن لم يكونوا من طراز اللواءات الذين اختيروا اخيرا لتولي شؤونها ، ولذا لم تتقدم البلاد السودانيـة وظلت في حاجـة الى الادارة الرشيدة الحازمة » .

صعوبات المنكلي

لم تكن مهمة المنكلي بالهينة كما يبدو فقد بادره المديرون بعدم الطاعة والانقياد لاوامره لعلمهم انه ليس بحكمدار وانه اتى لغرض خاص ، ولكنهم مستقلون في ادارتهم استقلالا كاملا ويرجعون فيما يبرمون من امر الى مصر رأسا ، وبلغ من حمزة باشا مدير الخرطوم ان اعلن للاهالي انه ليس المطاع والحاكم المتصرف ولا رئيس فوقه فاذا ما قدم الاهالي عرائض شكواهم للمنكلي وحولها هذا بدوره للمدير نكل بهم المدير ولم يسمع لشكاواهم

(١) دفتر ٣٦٩ معية تركي وثيقة رقم ٣٥٢٧ بتاريخ ٢٤ القعدة ١٢٥٩ .

الا اذا قدمت له بالمباشرة لا بالواسطة والاهالي معذورون في ذلك لأنهم لم يألفوا شخصا يقيم في الحكمدارية لا تصرف له ولا نفوذ . فشكى المنظم هذه الحالة في مكاتبة طويلة عدد فيها ما يلاقيه من مشاكسة وعدم انصياع من المدير المذكور . والظاهر ان محمد علي ادرك انه لا تصلح الاحوال الا برجوع الحكمدارية ولكن من ينتخب يجب الا يكون في مثل قوة ومطامع احمد باشا المتوفي . فرجع المنكلي بعد ان قضى ما يزيد على السنتين .

الحوادث في زمن المنكلي

بالرغم من ان احمد باشا لم يتمتع بسلطة الحكمدار رسميا الا انه في الواقع ونفس الامر كان عليه ان يلعب هذا الدور . فهو الذي قاد الجيش واخضع قبائل التاكا عندما ثارت ، وهو الذي يبلغ الاوامر الخاصة بتجارة الرقيق للمديرين ويراقب تنفيذها ، وهو الذي عهد اليه بأن يمنع التجار من ممارسة تجارة الصمغ لانه ملك الدولة وليس لاحد غيرها ان يربح منه حيث انه نبت الارض بالطبيعة دون ان تعمل يد الانسان عملا يذكر فيه ، وهو الذي اقترح لمحمد علي تخفيض مربوط الضرائب على المديريات السودانية وكان رد الجناب العالي في لغة التأكيد رفض الاقتراح « يا احمد [1] هل مرادك ان التخلي عن بلاد السودان باستئذانك مني بالتجاوز عن تلك المقادير من النقود من المديريات المذكورة من غير موازنة بداعي ان الوارد لا يقوم بالمنصرف ام تريد ان تتظاهر بأنك مخلص في عبوديتك ؟.. اجمع الباشوات المديرين واعمل معهم مقايسة بين كل مديرية مصرفا وواردا بعد تنزيل ما اردت تنزيله فان كان الوارد يغطي المنصرف فيكون ذلك التنزيل في محله واما اذا كان الوارد اقل فانظر في صورة حسنة توجدها للموافقة بين المنصرف والوارد واخبرني بها » .

---

(1) دفتر رقم ٣٧٦ صادر عن ديوان المعية وثيقة رقم ٢٨٧٧ بتاريخ ٢٧ جمادي الاخرة سنة ١٢٦٠ .

امتازت الحقبة التي مكثها المنكلي في السودان بالاهتمام الزائد في ترحيل المواشي من كردفان والبحر الابيض لمصر ، وكانت ترد المكاتبات من مصر ملحة في ضرورة ارسالها وجهزت لها محطات على النيل مبتدئة من الترعة الخضراء على النيل الابيض ومنتهية باسوان وعددها خمس وتسعون محطة . وفي عهده نشطت حركة التجارة في النيل الابيض بالمراكب وطلب الاجانب الدخول في الجنوب لجلب سن الفيل والريش وهذه التجارة بدأها المرحوم احمد باشا بالاتفاق مع مدير الخرطوم : ورأى المنكلي ان تحتكرها الحكومة غير ان محمد علي ادرك ما يجره هذا المنع للاجانب حيث انه قد يفسر تعديا على الامتيازات التي يتمتع بها الاجانب في الممتلكات العثمانية .

الدول الاجنبية ومسألة الرقيق

وفي عهد المنكلي زاد ضغط الحكومة الانجليزية على محمد علي في التشديد بمنع الغزوات لجلب الرقيق وكان يرد بأنه اصدر اوامره في هذا الصدد ، ولكن قد يحدث عصيان من بعض القبائل الزنجية او تعد من قبيلة على الاخرى وتزحف الجنود بالضرورة ومن اسر من الصبيان والنسوة يرد لاهله ومن كان في سن الجندية يدخل في سلكها ولا يعامل معاملة الرق [1] بل يتمتعون بكامل حريتهم ولا يمنعون التزوج مثل الجنود المجندة من الاهلين حسب اللزوم لسد النقص الموجود في الجنود كما هو الجاري في كل بلد ويستحقون الرتب حسب النظام العسكري ، فيقطعون مراحل التربية والتمدن الانسانية قطعا متواصلا ، الامر الذي يؤدي الى ارتياح الاهلين المتمدنين . فأقصى اماني مولاي المشار اليه عدم حدوث تلك المعاملة غير اللائقة ومشاهدة تلك الاقطار تنتشر فيها التربية والتمدن باستمرار حتى ينال سموه عطف الامم المتمدنة وحكومة انجلترا الفخيمة خاصة ، واذا كانت

---

(1) من خطاب خسروا باشا لقنصل الانجليز من الدفتر رقم ١٠ عابدين ص ١٧ بتاريخ ٢٥ محرم سنة ١٢٦٠ .

الحقيقة كما وصفت فيظن ان الانباء المترامية المفيدة بوقوع الغزو ناشئة عن عدم اطلاع بعض السياح على حقيقة الحالة .

ونرى الطلبات ترد الى المنظم بارسال بذرة القطن المزروع في السودان لمصر . وتبرهن ادارة كردفان على انها تهتم برفاهية الاهالي وحمايتهم من الآفات الزراعية حيث انها جندت العساكر والاهلين لمقاومة خطر الجراد وابادته واتلاف بيضه ، وعلى العموم فالادارة كانت رشيدة لا بأس بها بالقياس لذلك الزمن سوى ما ظهر من اختلافات ومشاكسات بين الحكام انفسهم .

خالد باشا

غادر احمد باشا المنكلي البلاد يرافقه عبد القادر ود الزين شيخ مشايخ جزيرة سنار والارباب محمد دفع الله احد مشايخها ، فأكرم الجناب العالي وفادتهما حين وصولهما وسر من ولائهما واخلاصهما نيابة عن السودان سرا مما لقياه من كرم الضيافة وحسن اللقاء . وعين خالد باشا خلفا للمنكلي ولكنه اصبح حكمدارا لا منظما واكد الجناب العالي ذلك في فرمان تعيينه الذي بعث به الى المديرين والقضاة والعلماء والنظار والمشايخ ، وكان الحكمدار الجديد ورعا تقيا هادىء النفس وليس على غرار احمد باشا وخورشيد باشا من حيث القوة والكفاءة ، ولعل محمد علي اراده ، كذلك والاشاعات التي رويت عن مطامع احمد باشا لا تزال ماثلة في ذهنه .

والظاهر ان محمد علي في هذه المرة بث عيونه وارصاده ليرى مسلك الحكمدار الجديد ولتحمل اليه انباء كل ما يجري في السودان . فكانت النغمة الغالبة في الارادات والمكاتبات الموجهة الى الحكمدار هي بلغنا واتصل بنا وليست ردودا في غالبها على مقترحات خالد باشا فمرة يذكر له ان القوارب

التي تصعد في النيل الابيض لاجل التجارة تؤذي قبيلة الشلك ويأمره ان تكف هذه القوارب من الأذى ، ومرة اخرى يخبره بانشغال الجنود والضباط بالتجارة ويذكره بمخالفة هذه للاصول الحكومية .

مصوع وسواكن

منذ ان تأسست مديرية التاكا كان عربانها يفرون ويلتجئون بمنطقتي نفوذ سواكن ومصوع هربا من الضرائب والتكاليف الحكومية الاخرى ، فرأى محمد علي ان يطلب من الباب العالي ضمهما للسودان نظير نسبة تدفع من جماركها لخزينة جدة ، ووافقت حكومة الاستانة على هذا الطلب وبذلك قلت الصعوبات الادارية التي كان يواجهها التاكا وحكمدار السودان .

الذهب مرة اخرى

تجدد الاهتمام بالذهب واتصل بالحكومة ان شيبون في جبال النوبة بها من الذهب مقادير عظيمة ويزيد في جودته على ذهب فازوغلي وجهزت الحملات العسكرية لتوسيع ممتلكات الحكومة في المناطق التي يظن وجود الذهب بها في فازوغلي ، وارسل عدد كبير من العمال والاسطوات وآلات استخراج الذهب وتصفيته وسبكه مع المهندسين والاطباء والكتاب والحاسبين لابداء مجهود جبار للحصول على هذا المعدن النفيس قبل اليأس منه نهائيا .

توتر العلاقات مع الحبشة

وقد توترت العلاقات وقتا ما بين حكومة السودان والرأس كاسا المتاخم للسودان الشرقي بمطالبة الاخير من القبائل السودانية القريبة من

الحدود بضريبة تدفع له رغم انهم يدفعون لحكومة السودان ، ولم يتنازل الرأس الا تحت ضغط التهديد بتسيير الجيوش عليه .

فرار اهل الشمال من الضريبة

وهناك ظاهرة ايدتها لنا الارقام بدأت منذ الفتح وهي هجرة سكان الشمال وخاصة دنقلة وفرارهم الى كردفان او اقليم سنار هربا من الضرائب الباهظة . فقد ادعى احد مديري دنقلة السابقين في سنة ١٢٥٦ ان زمام المديرية كان ٥٩٠٠ ساقية خربت منها ٥٥١ ساقية خرابا كاملا ، وفر رجال الفين واحدى عشر ساقية وبقي في بعضها رجل واحد وثور واحد وفي البعض الآخر رجلان وثوران . فكما رأت القبائل البدوية في اقليم سنار الفرار الى حدود الحبشة والدخول فيها احيانا خوفا من فداحة الضرائب كذلك بدأ رجال دنقلة في الهجرة جنوبا اتقاء لضريبة لم يألفوها من قبل وهذا يفسر لنا وجود جاليات كبيرة من سكان دنقلة منبثة في مديريات كردفان والخرطوم والنيل الازرق ومع ان دنقلة قد فقدتهم الا انهم نقلوا نشاطهم وخبرتهم بفلاحة الارض الى الاقاليم التي استوطنوها فزادوا في انتاجها .

ادارة محمد علي

توفي محمد علي في ١٣ من سنة ١٢٦٥ بعد ان حكم السودان تسعا وعشرين عاما تقضت الست الاولى منها في الفتح والاضطراب واستقرت ادارته المركزية الممعنة فيها والتي تدار على نظام اوتوقراطي صارم عماده الجند ومطلبه من السكان الطاعة والانقياد . وادارته التي اقامها في السودان هي على نمط ما كان يدير به مصر آنذاك والكل مقتبس من النظام التركي الذي كان ينتظم اجزاء الدولة العثمانية .

محاسنها

ومن محاسن ادارته انه ازال الفوارق التي كانت قائمة بين المملكات الصغيرة في السودان والغارات والحروب التي ظلت سائدة بين كل قبيلة واخرى وتأمين المواصلات بين اجزاء القطر بأكمله وقد كانت مضطربة . والادارة الموحدة التي اعطاها محمد علي للسودان قللت نوعا من العصبية القبلية وهذا التحاجز وانفصالية الديار التي كانت متحكمة في عهود الفونج وان لم تقض عليها تماما . فالمجموعة المترحلة والمسافر المنفرد كلهم يشعرون بانهم في ظل الحكومة التي تهيمن على البلاد باجمعها لا في ظل ملك دار او شيخ قبيلة . وفتح السودان اتاح له الاتصال بالعالم الخارجي وتأثر بالمدنية القائمة آنذاك وقد هرع السائحون له بمعرفة وتقصي احواله . وفوق هذا اتبع سياسة عمرانية رشيدة تهدف الى تحسين الزراعة وطرق الري وزيادة الانتاج الحيواني بجلب العمال المهرة وحفر الترع والسواقي الجديدة وسلالات الحيوانات والاشجار المثمرة وتقاوي المزروعات الجديدة .

مساوئها

ولكن لهذه المزايا مقابل من المساوىء ليست بالجديدة على اجزاء المملكة العثمانية ولكنها جديدة على السودان . فجشع الحكام والعمل لاثراء انفسهم اشاع الرشوة والاختلاس وترك مثلا سيئا للسكان يقتدون به . والضرائب التي مهما خفت اعباؤها فهي ثقيلة على كاهل السودان ولم يألف ما يماثلها من قبل وخاصة سكان البادية الذين لا يقتنعون حتى الآن لماذا يدفعونها وطريقة جبايتها بواسطة الجند يزيد في سيئاتها .

وبالرغم من ان محمد علي كان يسعى لاصلاح شؤون البلاد التي يحكمها ويتمنى تقدمها ورفاهيتها لكن ادارته المالية كانت على اساس

تجاري بحت فهو يريد استغلال موارد البلاد الزراعية والتجاريــة لجانب الميري وهو لا يحتمل مهما كانت الظروف ان تزيد مصروفاتها على ايراداتها . وقد اشتهرت السنين الاولى لحكمه في السـودان بغزوات الجبــال لانزال السود من معتصماتهم وتسييرهم اما لأسواق الرقيق او لمعسكرات الجندية وزامل ذلك قسوة احيانا اثارت ثائرة الامم الاوروبية وخاصــة انجلترا وانصافا له تقول انه اصدر الأوامر المشددة لعماله وموظفيه في السودان لابطال تلك العادة وغيرها عندما تبين له خطؤها وخلا عهده الاخير مــن اعمال القسوة والعنف اللذين اتصل بهما عهده الاول . وفارق الحياة ولم يحقق مطالبه الرئيسية التي من اجلها فتح السودان غير انه جعل لاول مرة في التاريخ حوض النيل الى فشودة وحدة ادارية .

ادارة عباس الأول ومحمد سعيد

تربع عباس الاول بن طوسون بن محمد علي على الاريكة الخديوية في سنة ١٨٤٨ بعد وفاة عمه ابراهيم وجده الهرم لا يزال على قيد الحياة . وكان خالد باشا لا يزال الحكمدار في السودان . والظاهر ان خالدا والحكام في المديريات انتهزوا فرصة شيخوخة محمد علي وعدم انتظار الامور وتهاونوا في الادارة بل اشتغلوا بما يملأ جيوبهم ولا نرى نشاطا لخالد باشا الا في مسألة الذهب لا رغبة في زيادة ايراد الحكومة بل لينتفع به هو شخصيا ولذا تبين لعباس ولمجلسه ان الامور ليست سائرة على ما يرام في السودان وانه يجب ان تغير الاداة الادارية . ونلاحظ ان عباسا استخدم المجالس في ادارته . فما من قـرار الا ويصدر في معظـم الاحيـان في المجلس المخصوص او العمومي .

تعيين عبد اللطيف باشا

عين عبد اللطيف باشا وغادر مصر للسودان فكان من الاعمال الاولى التي قام بها انه اثبت على خالد باشا اختلاس بعض مال الحكومة فاستصفى منه الف كيس [1] وردها للخزينة العمومية ورفعت رتب المديرين في الاقاليم من القائمقام الى الميرالاي وقرر مجلس العموم لائحة يسير العمل بمقتضاها

(١) الكيس يساوي ٥٠٠ قرش .

في السـودان وهي ان من يخدم في دنقلة يبقى هناك ثماني سنوات وفي الخرطوم ست سنوات وفي كل من سنار وكردفان وفازوغلي والتاكة اربع سنوات ولا يصح لاي موظف ان يغادر مقر خدمته الا اذا حضر من يحل محله ولا يسمح له بالذهاب لمصر اثناء تلك المدة الا بشهادة طبية تمتحن صحتها في المحروسة ويعاقب الطبيب والموظف اذا ثبتت اللياقة الطبية . واذ الف الموظف الاقامة في مركز خدمته وطلب البقاء وكانت الشهادة عن عمله مرضية فله ان يبقى مدة اخرى .

وقد اجرى عبد اللطيف باشا بعض التعديلات في المديريات فأدمجت فازوغلي في سنار وفصلت دنقلة من بربر وجعلت كل منهما مديرية قائمة بذاتها مع اضافة بلاد الجعليين الى الاخيرة . ودعمت الاداة الحكومية بعدد من الكتاب والمحاسبين والاطباء والاجزاجية . واهتم لطيف باشا ايضـا بعمارة الخرطوم فانشأ من المباني الحكومية ديـوان الحكمدارية وديـوان المديرية والمطبعة ومحكمة العموم والاجزخانة وقشلاقات الطبجية وكلهـا بالطوب الاحمر .

وفي هذا العهد توالى دخول الرهبان والمبشرين في السودان وانشئت القنصليات بالخرطوم وكانت اولها القنصلية النمساوية وقـد طلب لطيف باشا من مصر ابعاث مترجم يكون واسطـة للمخاطبات بين الحكومـة والقناصل ورد الجناب العالي صريحا بأن المكاتبات تحرر باللغة العربية كما في مصر آنذاك . وشاهدت حكمدارية لطيف باشا ايضا نشاطا مـن جانب التجار الاوربيين في انحاء السودان وخاصة بعد انشاء القنصليات وزادت الحركة التجارية في البحر الابيض زيادة ملحوظة .

الحكمدار يشدد على الاجانب

ولما رأى الحكمدار تكالب الاوربيين على التجارة في السـودان وارباحها

المضاعفة شكى امرهم الى الجناب العالي واتهمهم بشراء الرقيق وانهم يحملون الاسلحة ويحملها من يؤجرونهم وبذلك يظهرون بمظهر الحكومة ويقترح ان يمنع هؤلاء من الاتجار وتحتكر الحكومة السن ويشتريها التجار فيما بعد بالمزاد ورأى ان يجعل تجارة الصمغ صعبة المنال للاوربيين فاصدر التنبيهات المشددة للمديرين وخاصة في كردفان بأن يحدد سعر قنطار الصمغ بستين قرشا وان الحكومة تقبله بذلك الثمن مقابل الضرائب المطلوبة وامر بالا يسمح للاهالي ببيع صمغهم باقل من ذلك الثمن واذا خولفت هذه الاوامر فالعقاب يحل بالبائع والمشتري . فالبائع يعاقب بضرب السياط اذا ما باع بأقل من السعر المحدد وكذلك شيخ بلدته وكذلك التاجر والمشتري وقد روى القنصل الانجليزي ان مدير كردفان ضرب احد التجار الانجليز بيده تنفيذا للامر .

الاجانب يشكون الحكمدار

قدم القناصل في الخرطوم شكاوى شديدة اللهجة ضد لطيف باشا معتمدين على وجوب حرية التجارة وما للاجانب خاصة من امتيازات في الممتلكات العثمانية وزادوا على ان الحكمدار اساء الى رهبان الكاثوليك في الخرطوم وظلمهم بالرغم من وجود فرمانات من ساكن الجنان محمد علي بحسن معاملتهم وختموا العريضة المشتركة بقولهم « لطيف باشا لا يليق ان يبقى قابضا على زمام الحكم في تلك البلاد السعيدة المدة الطويلة بل الخير للحكومة ان تختار بدلا منه رجلا مجربا خبيرا معلوم الاطوار » . ومن غرائب المفارقات ان يقوى نفوذ الاجانب في السودان في اول عهد عباس بالرغم من كرهه الشديد لهم بخلاف سياسة جده معهم . فتجارتهم وقنصلياتهم انشئت ورهبانهم بدأوا تبشيرهم وتعليمهم في عهده . وفوق ذلك فقد اشتد ضغطهم عليه حتى انه اصدر قرارا في نفس الشهر الذي

وصلته فيه العرائض باستدعاء لطيف باشا وتعيين رستم باشا مكانه وهذا لم يبق كثيرا حيث عاجلته المنية وتوفي بالخرطوم .

مدرسة الخرطوم

ومما عرف عن عباس في مصر انه اقفل بعض المدارس التي فتحت في عهد جده وقد بدأها محمد علي نفسه بعد اخلائه لسوريا وانكماش جهازه الحربي ولكنه في السودان امر بفتح مدرسة كبيرة وعين لها رفاعة رافع الطهطاوي ناظرا وبيومي افندي مدرسا اول وضابطا وارسلت المعدات لها من المحروسة ولكنها لم تبق الا عهد عباس حيث اقفلت في اول عهد سعيد . ولم يصدر عباس في سياسته هذه عن رغبة خالصة لنشر العلم والتعليم في السودان ولكنه كان مدفوعا في الدرجة الاولى بالاساءة الى رفاعة بك وغيره من رجال العلم بابعادهم عن مصر الى السودان . ولم يتبين لنا الأثر الذي تركته هذه المدرسة ولكن مما لا شك فيه ان وجود امثال رفاعة وبيومي وغيرهما في الخرطوم كان له بعض الاثر في الطبقة المتعلمة في السودان آنذاك وقد ذكروا بالخير وحزنت الخرطوم على وفاة بيومي افندي فيها .

وشاهد العصر العباسي وقف العمل في معدن الذهب لانه كان يعود على الحكومة بالخسارة وكذلك لغو مصلحة المواشي السودانية في اسوان لان ما يصل سالما منها الى مصر كان قليلا نسبيا . وتعاقب على السودان في وقت قصير عدد كبير من الحكمداريين فبعد وفاة رستم باشا عين اسماعيل باشا ابو جبل فطرد من الحكومة بعد مدة واستردت براءة اللواء منه لارتكابه بعض المخالفات في السودان وترك خلفه سليم باشا صائب الخدمة بقرار طبي وكان الحكمدار علي باشا سري حين مات عباس وجلس على الاريكة الخديوية محمد سعيد باشا . وبالرغم مما يقال عن عباس ورجعيته

فانه كان مغرما بالتنظيم في الادارة وكان يطالب بمستوى عال فيهما في السودان .

ود الباب العالي ان لو استعاد سلطته كاملة على ولاية مصر بعد وفاة محمد علي وفي السودان خاصة استرد مينائي مصوع وسواكن وقدم احد الموظفين الكبار عريضة الى الاستانة يتظلم فيها من ارغامه على الخدمة في السودان وقد رد له الباب العالي باعفائه منها فأثار هذا احتجاج عباس وطلب من رجال الاستانة الا يفعلوا مثل هذا لانها سابقة خطرة على مركزه وهيبته كحاكم على السودان .

ادارة محمد سعيد باشا

اعتلى محمد سعيد باشا الاريكة الخديوية في ١٨٥٤ بعد ان نال قسطا وافرا من التعليم والتدريب الغربي فأفاد افقا واسعا ونظرة انسانية عالية واهتماما برعاياه في مصر والسودان ومنذ البدء كان يعجب بالشعب السوداني ويحدب عليه واصدر اوامره بتأليف بلك او اورطة سودانية خاصة تجمع انفارها من الاورط المختلفة واستصحبها كحرس خاص له في رحلة له في الصعيد لتأديب عربان الوجه القبلي وهو الذي رقى الجنود السودانيين الى مراتب الضباط وكتب الى الحكمدار بانتخاب الف ومايتين جندي من الالايات السودانية في سن الشباب وقوة الجسم وجمال المظهر يرسلون لمصر ليكون منهم حرسا خاصا على ما يظهر .

ابطال تجارة الرقيق

وعمل سعيد ما كان يجب ان يعمل من قبل في بلدين يستظلان براية واحدة وحكم واحد فقد الغى الجمارك التي كانت قائمة بين مصر والسودان

وهو الذي اصدر امرا صريحا بابطال غزوات صيد السود فقط بل المنـــع الصريح للاتجار بالرقيق فقد اصدر ارادة كريمة الى حكمدار السودان هذا نصها : « صورة [1] ارادة كريمة الى حكمدار السودان ان مبيــع وشراء الجواري السود والعبيد الذين صاير جلبهم من السودان ودارفور صار منعه من طرفنا كليا وقد صدر امر من طرفنا في هذا التاريخ الى المالية لاجل التحرير الى كمرك اسوان والى مدير جرجا واسيوط في خصوص عدم اعطاء الرخصة للجلابين المارين عليهم بالاسرى الى مصر فحين تصير هذه الممنوعية معلومكم يلزم الدقة والاعتناء التام في منع بيع وشرى الجواري والعبيد ببــلاد السودان سرا وجهرا واذا وجد جلابـين بيدهــم اسرى وقاصديــن الجلب الى مصر يصــير حصرهــم وارجاعهــم الى محلهــم فتستمر هذه الممنوعية على الدوام بحيث لا يرد اسرى الى مصر ذكورا او اناثا من بعد هذا كليا فيلزم الحذر والمجازية من وقوع ما يخالف هذه الارادة في حكمداريتكم » وكان البحارة الذين يعملون مع التجار الاوربيين فــي النيل الابيض يحضرون معهم بعض الرقيق فأمر بضبط هؤلاء وعتق الرقيق المجلوب .

علي باشا سري مثال الرشوة والاختلاس

كان الحكمدار حينما ولي العرش علي باشا سري ولم تر السودان قبله ولا بعده حاكما انغمس في الرشوة والاختلاس مثله ولم تشهد العاصمة تركا ــ وقد رأت منهم الكثير ــ يفخر ويجهر بما قبضه من طلاب الحاجات والمطامع فسقطت هيبته في النفوس حتى ان بعض الضباط عندما يأمرهم بالنقل الى جهة اخرى في الحكمدارية يرفضون ذلك وحتى شكاه اعضاء

---

(1) دفتر ٧٢١ قيد الاوامر وللوالع بديوان خديوي مكاتبة رقم ١٠ صفحة ١٣ بتاريخ ١٤ ربيع الاول سنة ١٢٨١ .

المجلس (١) في الخرطوم بعريضة مسهبة ابانوا فيها سوء تصرفاته وارتكابه للمخالفات التي لا تليق بحاكم مثله واراد علي باشا هذا ان يترك اثرا طيبا في نفس الخديوي الجديد فبعث اليه بألف وستمائة وخمس وعشرين قطعة من الذهب السناري المتجمع في خزينة الخرطوم ولكن لم تلهه هذه عن تصرفات الحكمدار فأصدر امره بتخليته عن الحكم بل طلب الى الحكمدار الجديد تحقيق ما نسب الى الحاكم المخلوع من قضايا فحصر منها كشفا طويلا اقر فيه من دفعوا له مبلغا على سبيل الرشوة ولاقى عذابا واهانة وذلا من خلفه اثناء التحقيق حتى قدم عريضة الى الجناب العالي بما لاقاه من تعذيب فكان الرد ان ترسل التحقيقات والباشا المخلوع الى مصر .

تعيين الامير عبد الحليم باشا حكمدارا

ولفرط اهتمام سعيد بالسودان اجاب الطلب الذي طلبه عبد الحليم باشا اخوه بأن يعين حكمدارا للسودان فصدر الفرمان بتعيين الامير حاكما للاقاليم السودانية وقد ورد في الفرمان مخاطبا سكان السودان (٢) تحيطون علما وتدركون معرفة وفهما انه لما كان من اقصى آمالنا ادخال جميعكم في سلك العمار والرفاهية .. وقد كثرت الى الحكمدارية السلف اوامرنا العديدة واستمرت اليهم التنبيهات الاكيدة باقامة شعائر العدل ونشر الوية اليمن والامان وهم عجزوا عن القيام بالوفى وكان من اللازم ان اجري ذلك بتعيين من نثق به الاهتمام بأجرى هذه الامور وبذل كمال الاعتنى .. اقتضت ارادتنا بذل كمال المنة اليكم بأن عينا جليل المقام كبير الكبراء الفخام ذو المجد العزيز عبد الحليم باشا حكمدارا عليكم » ولكن الامير ما لبث ان اقام قليلا في الخرطوم حتى سافر في البحر الابيض وظهر وباء فتاك

---

(١) كانت القضايا الهامة ترسل لمجلس الاحكام في مصر للتايد والمراجعة ان كان بها نقص ولكن لصعوبة المواصلات رؤي ان يؤلف مجلس في الخرطوم لهذا الفرض وحضر اعضاؤه من مصر برئاسة محمد مهري بك .

(٢) دفتر ١٨٨٢ صادر الاوامر نمرة ٤ ص ٢ بتاريخ ١٢ ربيع الاول سنة ١٢٧٢ .

تفشى في البلاد . ولذلك نصح الاطباء له بمغادرة الخرطوم لشندى ومنها الى مصر ولم يرجع لمقر حكمداريته .

زيارة محمد سعيد باشا للسودان

وسواء كان سعيد اراد السفر للسودان لوضع نظام وحكومة رشيدة او لتفقد احوال رعاياه او تخلصا من هموم القنال كما اقترح عليه صديقه دلسبس فانه قد صحت عزيمته وتجهز للسفر الى السودان واستصحب معه اورطة سودانية وجهزت له نحو الف وخمسمائة جمل لنقله وجنده وحاشيته عبر الصحراء وقد وضح الغرض من رحلته هذه في امر اصدره الى ناظر الجهادية ورد فيه [1] « ان عدم دخول بلاد السودان التي هي من اجزاء ممتلكاتنا تحت الاتقان والنظام حتى الآن مع ان مقصدنا ومطلوبنا تقدمها وعمرانها لامر موجب للأسف جدا ، والحق يقال وليس بقاؤها على ما هي عليه من الامور التي يجوز تحملها . وبما انني صممت العزيمة منذ مدة على ان ارى تلك البلاد واتبين احوالها واوضاعها واقف على ما يجري فيها اولا بقصد السياحة وثانيا تحت حاجة النزهة فعزمت على ان اذهب اليها بذاتي لكي نضع لها فيما بعد النظم التي تكفل عمران تلك البلاد والحوالي وتكون بها الرفاهية للرعايا والاهالي » .

اللامركزية

وسبقت قدومه اوامر عديدة للحكمدار يخبره بأن يجمع العساكر في الخرطوم حين قدومه وان يشتري ما يلزم لهم من الذرة بدفع الاثمان المعقولة بغير جبر او عنف . وما ان وصل الى بربر بعد ذلك حتى انهالت عليه

(1) محفظة رقم ٦ اوامر لديوان الجهادية وثيقة رقم ٥٠ بتاريخ ١١ ربيع الاول ١٢٧٣ .

العرائض من كثير من السكان يتظلمون فيها من حكامهم ومشايخهم واقاربهم فراعته تلك الحالة ورأى بعينه حالة البؤس التي كانت بادية على الاهلين واستنتج ان هذه الحالة تردت فيها البلاد من ظلم الحكام . وتخمرت فكرة اللامركزية وتنظيف البلاد من الجيش الجرار من حكام وعساكر غير نظامية ، ورأى ان يناط جمع الضرائب بالأهلين انفسهم وان يؤلف مجالس وجمعيات دورية منهم تنظر في الشؤون العامة مع المديرين . بدأ بتنفيذ هذا وهو في طريقه من بربر الى الخرطوم وهنا اصدر الامر بلغوا الحكمدارية وجعل المديريات تتصل في حساباتها رأسا بمصر . وقد شرح سعيد سياسته الجديدة للاهلين في مقدمة الاوامر التي اصدرها للمشايخ .

سياسته الجديدة

« [1] انه بناء على ما جبلت عليه همتنا وسبقت اليه عزيمتنا في النظر في احوال الاهالي والرعية واجراء ما فيه المنافع العمومية وعمار البلاد ورفاهية العباد وقد تحرك ركبنا للقدوم الى الاقاليم السودانية لنطلع على احوال من فيهما ومعاملتهم بالرفق والرحمة ولما حلت ركائبنا بها شاهدنا ما عليه اهاليها من الضنك والمضايقة بسبب كثرة المطاليب المربوطة على السواقي والاطيان فضلا عما كان يؤخذ خلاف ذلك ... اقتضت ارادتنا ترك ذلك جميعه وترتيب مال مربوط على قدر طاقة الاهالي حتى يسكن روعهم ويعمروا اوطانهم» .

وفي طريقه من بربر الى الخرطوم أجتمع ببعض المشايخ وتفاوض معهم فيما يريح الاهالي من الضرائب فاقترح المشايخ ان تربط على الساقية مائتان وخمسون قرشا فخفضه الى مائتين ويؤخذ على اطيان الجزائر خمسة وعشرون قرشا للفدان وعشرون قرشا عن فدان الحروف .

---

(1) دفتر ١٨٨٦ اوامر عربي مكاتبة رقم ٣٥ ص ٣٣ بتاريخ ٢٧ جمادى الاولى ١٢٧٣ .

طريقة الجباية

وطريقة الجباية هي ان ينتخب اهالي كل قرية شيخا من بينهم يجمع ما ربط عليهم من مال ويؤديه الى ملك او شيخ كبير من الوطنيين يتبعه وان لم يرضوا التبعية له فيؤدون المال للمديرية رأسا ، وطلب الى المشايخ احصاء السواقي والاطيان وتثبت هذه بعد ان تراجع من المديرية ، واوصاهم بالرفق واللين وان يراعوا الجباية في اوان الحصاد ومواعيد الرواج ويقدم للشيخ نظير خدماته مكافأة مال ساقية عن كل خمس وعشرين منها . ويجري ربط الاموال سنويا في جمعية بدار المديرية تتكون من اثني عشر شيخا الى اربعة وعشرين فتبحث الطرق التي بها تدفع وطريقة تقسيطها كما لهم ان ينظروا فيما يؤدي الى زيادة العمران والرفاهية للمديرية باكلها .

الامن العام

وحفظا للامن واخماد الثورات وحوادث التمرد والعصيان رؤي ان تبقى الاورط في السودان ولكن لا تسلط على الاهالي والا يوكل اليها جمع الضرائب كما كانت الحالة قبلا وزيادة على هذا الجيش المرابط رتب لكل مديرية بعض الجنود برئاسة يوزباشي للمحافظة على الخزينة في المديرية وما عاثلها من الاشغال وقد طلب الى مشايخ القبائل في كردفان ارسال خيالة ليكونوا تحت تصرف قومندان الجنود وأمر الملك ود محمود الشايقي بأن يجهز خمسمائة من الشايقية تحت امر القومندان ايضا .

اصلاحات اخرى

وفوق هذا ما كان لسعيد ان يرجع دون ان يترك تعليمات مفصلة لتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السكان لعمل الحدائق في منازلهم . وامر ان لا

تربط اموال على الاطيان التي تغرس بالاشجار المثمرة . وترغيبـا لسكان الجبال امر ان تربط الضرائب على ثلث المحصول فقط وان يفهموا انهم احرارا وليسوا بعبيد ، وترك ايضا نظاما يكفل اتصال المديريات مع بعضها البعض ومع مصر بالبريد بانشاء محطات خاصة لتغيير الجمال وتأسيس قسم من الهجانة يقوم بهذه المهمة . وما ان رجع سعيد الى المحروسة حتى بدأ يستعد لرحلة الى السودان في السنة القادمة ، فلمديري دنقلة وكردفان والخرطوم وبربر ان يجمعوا الجمال في حدود مديرياتهم لانتقاله ولقسم التعيينات في الجيش ان يحضر ما يلزم من المؤونة ولكنه لم يقم بهذه الرحلة كما كـان ينوي ويرغب .

فشل اللامركزية

نظام جميل وعاطفة نبيلة على رعاياه ، ولكن الاداة الحكومية الجديدة بدأ يظهر فيها الخلل ، فقد ابدى بعض المشايخ الكبار العصيان والتمرد على المديرين لزوال هيبة الحكمدارية ، وبدأ بعض المشايخ يتـلاعب بالاموال ويظلم السكان ، وفي كردفان خاصة كان مبلغ العشرة قروش المربوط على فدان الاراضي المطرية مرهقا في السنين العجاف ، وشكى بعض الاهالي بعرائض قدموها للقاهرة اما لعدم نهو قضاياهم او تظلما من بعض المشايخ او من زيادة الربط على اطيانهم او يريدون الانتقال من شيخ لآخر ، وانهالت سيول الشكاوى والطلبات على القاهرة انهيالا جعل تغيير سياسة سعيـد اللامركزية امرا لازما بالضرورة وشاهد آخر عهده وهو على فراش المرض نهاية نظامه وارجاع الحكمدارية الى ما كانت عليه سابقا . وبذلك انتهت حقبة سعيد بتغيير سياسته التي لم تفلح بالرغم من اهتمامه ونواياه الحسنة نحو السودان .

ادارة اسماعيـــل

رجوع المركزية

فشلت سياسة اللامركزية في السودان كما تقدم واصدر اسماعيل باشا بصفته قائم مقام عمه الذي كان مريضا امر بتعيين موسى باشا حمدي حكمدارا للاقاليم السودانية ، وانتهى بذلك عصر اللامركزية وبعثت الحكمدارية من جديد والحكمدار الجديد قضى وقتا طويلا في الخدمة بالسودان وخاصة في كردفان وكان معاونا بالحكمدارية ، وبالرغم مما عــرف عنه مــن القسوة والجبروت فتعيينه قوبل برنة فرح وسرور عند الاهالي بالسودان لكفاءته ومقدرته لضبط الاحوال التي وصلت درجة عظيمة من الفوضى والانحلال ، ووصف الشيخ الزبير ود ضوة قدومه بقوله « الى ان وردت البشائر بترتيب سعادة موسى باشا حمدي حكمدارا بالسودان فاستبشرت بذلك الرعيــة وايقنوا بحصول الراحة والأمنية وكان قدوم سعادته ابقاه الله في رابع صفر الخير من شهور سنة تسع وسبعين فانشرحت بقدوم سعادته الصدور وطابت النفوس وعاد الى الحكمدارية رونقها » .

عقد اجتماع عظيم في الخرطوم وتلي فيه فرمان التولية واول ما قام به من اعمال في مركز حكومته هو انه دعا المديرين بمشايخهم الى مجلس يعقد في الخرطوم لاستشارتهم وابلاغهم ما يريد ان يختطه من سياسة ودل بذلك على ان العهد الجديد ليس بخطوة الي الوراء بل هو من حيث اشتراك السودانيين في الحكم استمرارا لسياسة سعيد ولكنهــا رتبت على اساس المــركزية .

وانفرط عقد المجلس بعد ان نظمت الضرائب على اسس ثابتة وقسطت على ثلاثة اقساط وجهزت اوراق تعرف بالسراكي تكون بيد كل من يدفع ضريبة يبين ما دفع وما بقي منها والجهة التي ورد بها المبلغ . ويستمر الشيخ الزبير بقوله « وجعل من الاهالي نظارا لاجل ان يتمدنوا ويدخلوا في الانسانية وامرهم ان يلبسوا الهيئة التركية » وكان الزبير نفسه هو احد المشايخ الكبار الذين عهد اليهم الاشراف على الجباية .

اول سوداني يعين مديرا

ظهرت بوادر سياسة اسماعيل الجديدة بادخال العنصر الوطني في الادارة والحكم في مصر والسودان في السنة الاولى من حكمه وكما بدأ تعيين المصريين الاصليين مديرين للاقاليم وافق هنا على تعيين الشيخ احمد ابو سن كبير مشايخ قبيلة الشكرية مديرا للخرطوم وسنار ، وكان احمد بك خير مثال يحتذى ، فبقاؤه في وظيفته مدى عشر سنوات الى ان وافته المنية بمصر وعدم الاضطراب في منطقة نفوذه طول سني حكمه كلها امور برهنت على كفاءة السوداني ومقدرته الادارية . وكان على احمد بك تسكين الخلافات في داخل قبيلته من البدنات المختلفة ، وكان عليه ايضا التوفيق بين القبائل التي تساكن الشكرية في المرعى وموارد المياه وهم معروفون بعداواتهم التقليدية ، وكان عليه ان ينهج نهجا في حكمه يغتصب الخضوع والتقدير من المشايخ الذين كانوا يساوونه في درجته قبل ان يصبح مديرا ، وتدخل مديريته قبائل وثنية في الجنوب عرفت بشدة مراسها واستهانتها بسلطة الحكومة ، وكان عليه حفظ الحدود بين السودان والحبشة وفوق هذا فادارة الخرطوم نفسها تلك المدينة التي يسكنها مختلف الجنسيات والاديان تستلزم من اللباقة والكياسة ما كان من خصال احمد بك البارزة . كل ذلك في نزاهة وامانة لم يلامس فيها الدنس ثوبه او يده ، ومات في مصر حين

استدعي للتفاوض معه في امر شراء جمال وعليه ديون باهظة لم يقم بسدادها ما خلفه من ممتلكات . امام تلك التيـارات المختلفة وجه سفينة الحكـم في مديريته المترامية الاطراف وهو جالس بعين اليقظة والاهتمام يدير الدفة مدة عشر سنوات دون ان ترتطم بصخرة الى ان اختطفته المنية من قيادتها .

حملة موسى باشا الى الشرق

ربط الحكمدار الاموال واصدر التعليمات لمن نيط بهـم جميعا وتجهز بحملة قوية قادها بنفسه الى الحدود الشرقية ليظهر قوة الحكومة وسطوتها التي تضعضعت ووهنت في زمن اللامركزية فرجع الكثير من العربان الهاربين وعلى رأسهم الشيخ احمد ابو جن شيـخ عربان رفاعة الشـرق وثبت في وظيفته كشيخ لقبيلته وبظهور الجيش على تخوم الحبشة رجع الشيخ ميري وساعده في ارجاع الفارين وذهب الحكمدار في طريقه الى التاركة وارجع الطمأنينة والامان الى النفوس ثم قفل راجعا الى الخرطوم .

سياسة اسماعيل في السودان

وقد بسط اسماعيل سياسته نحو ممتلكاته الجنوبية في خطاب وجهه للحكمدارية الجديدة بقوله « [1] وخلاصة القول ان هذا القطر الجسيم الحق بالمملكة من قديم العهد واصبح حقا مكتسبا لها فالواجب يقضي بعدم اضاعة شبر من حدوده المعينة وبما ان تعمير واصلاح الاقليم المذكور وادخاله في عداد المديريات المصرية التي هي اكثر عمرانا وازدهارا وكذا توسيع نطاق تجارته من اقصى آمالي وافكاري بناء عليه يلزم ان تعاملوا سكانه وقاطنيه بالعدل والحقانية وان تبذلوا اقصى جهدكم في تزييد عمرانية وتوسع نطاق تجارته وايصاله الى غاية الكمال من جهة الامن والانضباط العام » .

---

(١) دفتر المعية السنية رقم ٥٢٦ صحيفة ٥٨ بتاريخ ٦ شوال سنة ١٢٧٩ .

موسى باشا ينظم الجيش

والتفت موسى باشا بعد رجوعه من الشرق الى تنظيم الجيش وتقويته وزيادة العنصر السوداني بين صفوفه فبينما كانت الاورط السودانية ثمانية طلب اضافة اورطتين وان ترسل الجنود النظامية السودانية الموجودة بالمحروسة ورأى ان لا بد من الاستغناء عن الطاعنين في السن وذوي العاهات واستبدالهم بشباب من السود واتفق الحكمدار مع مشايخ قبائل الشلك والدنكة وقبائل فازوغلي على ان يوردوا له العدد المطلوب نظير خمسمائة قرش تدفع عن كل رجل فوافق افندينا على هذه السياسة ولكنه لاحظ على طريقة التجنيد بقوله « وحيث انه لا يجوز قبول الانفار اللازمة للاورط الموجودة هناك بصفة ارقاء نظير الاموال فانه اذا رتبتم عددا مناسبا من الرجال الصالحين للخدمة العسكرية على كل شيخ من مشايخ جبال فازوغلي وفونج ومشايخ قبيلة شلك ودنكة وخلافهم وان هؤلاء المشايخ اذا تمكنوا من احضارهم فعملهم هذا سيكون بمثابة خدمة حسنة للحكومة فبناء عليه ومكافأة لخدمتهم المشكورة هذه يجب التنازل عن الاموال المقررة عليهم بمقدار خمسمائة قرش نظير كل نفر يتمكنون من تقديمه على ان يجري تفهيمهم بأن الانفار الذين يقدمونهم بهذه الصورة سيكونون احرارا مثل سائر العساكر » .

تعديل اداري لم ينفذ

توفي موسى حمدي باشا بعد حكم دام ثلاث سنوات في السودان نجح في توطيد سلطة الحكومة التي ضعفت في عهد سعيد ولكنه ارجع ما كان يشكو منه الاهالي سابقا وهو الضرائب الفادحة وصدر الامر لجعفر باشا صادق بتعيينه حكمدارا ولكن بعد صدور الارادة رأى اسماعيل ان يجري

تعديلا في الادارة نظرا لانضمام سواكن ومصوع وملحقاتها للسودان ونظرا للتنظيم الذي ينويه ونظرا لاتساع ممتلكاته في النيل الابيض . والتعديل الجديد يقضي بتقسيم السودان الى ثلاث مناطق يحكم كلا منها حكمدارا مستقل يتعاونون فيا بينهم على المصالح المشتركة : فالتاكة ومصوع وسواكن وملحقاتها قسم اول وجزيرة الخرطوم كاملة مع جهات البحر الابيض الواقعة شرق النيل الابيض قسم ثان وكردفان ودنقلة وبربر مع جهات البحر الابيض الواقعة غربيه قسم ثالث وعيّن للاول جعفر باشا صادق وللثاني سليم باشا الجزائرلي وللثالث جعفر باشا مظهر . غير ان سليم باشا امتنع عن الذهاب معتذرا بمرضه فأرسل له اسماعيل خطابا شديد اللهجة يخبره فيه بوصول اعتذاره عن الوظيفة وقرر فيه فصله من الخدمة وامره بالرحيل خارج البلد للمعالجة في اقرب وقت وحذّره عن التأخير ورجع مرة ثانية الى النظام الاول وثبت جعفر باشا صادق حكمدارا عاما وجعفر باشا مظهر وكيلا للحكمدار.

الحاق مصوع وسواكن بالسودان

وكان اسماعيل منذ ان ولي الحكم في مصر يصبو الى الحاق ثغري مصوع وسواكن نهائيا بالسودان بصفة دائمة لا بصفة مؤقتة كما كانا في عهد جده محمد علي فكتب للباب العالي بضرورة هذه المسألة لاتصال العربان في اقليم التاكة بهما وباتصالهما تجاريا ببقية انحاء السودان ثم هو لا يستطيع السيطرة التامة على منع تجارة الرقيق الا بالهيمنة الادارية على هذين المينائين وعضد مسعاه الرسمي بمساعي خصوصية بواسطة من بيدهم الحل والعقد في الاستانة وصرف فيه مبلغا من الذهب واخيرا كلل مسعاه بالنجاح .

ثورة الجهادية السود في كسلا

قبل ان يغادر الحكمدار الجديد القاهرة لمقر حكومته وصلت الانباء

بثورة الجهادية السود في كسلا وكان الوكيل في الحكمدارية هو عمر فخري بكفسيق الجند لاخمادها واخمدتاخيرا بعد ان لعب فيها السيد الحسن المرغني الوسيط لنفوذه الديني بين الجند وابدى السر جشمه عبدالله باشا وآدم بك العريفي بسالة وحكمة في اخمادها وامر اسماعيل وكيل الحكمدار الجديد ان يغادر مصر في الحال مع ما امكن جمعه من الجند بطريق سواكن لمعالجة الحالة حربيا واداريا ولكنه عندما وصل وجد الثورة قد انتهى امرها وتقضي الاسباب والبواعث التي قادت اليها وقدمها في تقرير مطول الى الخديوي يتلخص في عدم التدريب العسكري اللازم وفي افتراق الجند من ضباطهم الاشهر العديدة لاعمال جباية الضرائب وفي ما تفوّه به قوادهم من الفاظ مسيئة .

وتتيجة لهذه الثورة امر اسماعيل باشا بالغاء الآلاليات السودانية وابقاء اورطة واحدة منها مكوّنة من ثمانية بلوكات وتسريح العجزة من الآلاليات الملغاة وارسال الباقي لمصر لتوزيعهم على الاورط المختلفة وحتى هذه الاورطة الباقية يجب ان لا تضم احدا من قبيلة الدنكا او الذين كانوا بالمدفعية وهذه الاورطة ايضا تحرم من المدافع ويشدّد على افرادها في اتباع القانون والخضوع للنظام العسكري بصرامة لا هوادة فيها .

ايفاد شاهين باشا السودان

وقد وصلت للجناب العالي التقارير والمعلومات عن الحكام والضباط العظام الذين كانوا بالسودان يشرحون فيها الفتنة حسب ما سمعوا عنها ويتصدون لشرح الاحوال عامة وقد صوّروا الحالة بصورة قاتمة اللون وافاضوا في اضطراب الاحوال في مركز الحكمدارية نفسها ومسلك الموظفين في الاقاليم فأمر الخديوي بأن يحضر جعفر مظهر من كسلا للخرطوم ويسافر شاهين باشا ناظر الجهادية ويتعاون الاثنان مع الحكمدار جعفر باشا صادق

على تحقيق الاحوال العامة وتبيان عوامل الخلل الذي اصاب الاداة الحكومية وما يرونه من اصلاح ويحمل هذا الوكيل الى مصر لبسطه لاسماعيل .

تعيين جعفر باشا حكمدارا

عدل اسماعيل بعض الشيء في اوامره هذه فأصدر امره لجعفر باشا صادق بتخليه عن الحكمدارية وبتعيين جعفر باشا مظهر لها ولكن انتداب شاهين باشا للسفر ظل نافذا . وحضر شاهين وتفاوض مع الحكمدار الجديد في اصلاح حال الجندية واتباع القوانين العسكرية . وباخماد الفتنة وباجراء الاصلاحات العسكرية للجنود السودانيين . وبترحيل بقيتهم لمصر هدأت الاحوال وظل جعفر باشا حاكما رشيدا مدة ست سنوات لم تقم فيها ثورات ولكن حدثت تطورات ادارية وعمران في الخرطوم وتشجيع للحركة الفكرية والادبية وبدأ التوسع جنوبا في بحر الغزال وخط الاستواء .

اقتراح بنقل العاصمة الى توتي

والاهتمام باصلاح العاصمة جعل ولاة الامور يفكرون في نقلها لجزيرة توتي لصلاحيتها من حيث الصحة اكثر من الخرطوم فقد ورد في مكاتبة من الخديوي للحكمدار بتاريخ ٢٣ جمادي الاول سنة ١٢٨٣ ما نصه « ولقد وصل الى سمعنا انه نظرا لانخفاض موقع الخرطوم وكثرة الرطوبة في جوها يظل مناخها رديئا جدا . اما الجزيرة التي تجاهها فهي على الروايات الصحيحة معتدلة الهواء للغاية ومن حيث الموقع اصلح من الخرطوم لجعلها مركزا وقد فهمنا من افادتكم الآنفة الذكر وعما وصل الينا من الاخبار انه لا يوجد ببندر الخرطوم ما يستحق ان يسمى بناء وان اكثر منازله من الطوب النيء او الطين والبعض منها من القش وما اليه فقد لاحظنا انه من الهين نقل البلدة تدريجيا

من موقعها الحالي الى الجزيرة المقابلة وان في ذلك فوائد جمة فاذا كانـت الجزيرة المذكورة تصلح اكثر من الخرطوم لاتخاذها مركزا او كان في الامكان نقل الخرطوم اليها فاننا نحيل على رأيكم وهمتكم أمر القيام بهذه العملية» .

انشاء ضبطيات قضائية

ولكن جعفر باشا صرف النظر عن هذه الفكرة ونفّذ مشروعاته فيما يختص بعمران وتجديد الخرطوم . ولزيادة السكان وازدياد حركة التجارة فيها نتيجة لنموها في البحر الابيض رأى ادخال نظام اداري لا بد مـن وجوده في المدن الكبيرة وهو انشاء ضبطية لحفظ الامن وتعيين مأمور لها وقوة من القواصة مهمتهم تشبه مهمة البوليس في وقتنا هذا وطبّـق هذا النظام على المدن الهامة الاخرى كدنقلة وبربر والابيض وكسلا وسواكن ومصـوع .

عمران الخرطوم

وابدى اسماعيل ملاحظاته على القواعد العامة التي يجب ان تطبق في عمران البلد « اما المستشفى فيجب ان يشاد في مكان طلق الهواء فسيح الجنبات وان يكون له حديقة وكذلك القشلاق يجب انشاؤه في موقع مناسب بعيد عن البلدة واعملوا على ان تكون الشوارع متسعة منظمة وان تنشأ المباني بطريقة تتفق مع قواعد الصحة وفن الهندسة ولا تدعوا مياه السيول التي تنزل الى البلدة من جراء شدة الامطار متراكة فيها بل اجعلوا لهـا مصارف تسيل فيها الى البحر وقوا البلدة شرها » . وترغيبا للنـاس في العمارة والبناء جعلت الحكومة سياستها ان تبيع الطوب والحجارة والجير والبلاط والخشب للاهالي بالثمن الاساسي دون ربح .

علمه وأدبه وسياسته المالية

عرف جعفر باشا مظهر بتضلعه بالعلوم الدينية والادبية وكان يجتمع به العلماء والادباء للمجادلة والمناقشة وسرت روح حبه للعلم والادب الى الاوساط الاخرى فنرى في عصره قصائد الشعر من شعراء السودان تنشر في الوقائع المصرية وابنه محمد سعيد بك كان اديبا شاعرا غير ان سياسته المالية قادت الى هروب الناس من مديريتي دنقلا وبربر فقد قيل انه وضع ضريبة باهظة على الساقية بلغت ستة جنيهات وكان يرمي هو الى التثبت من اقصى ما يستطيع ان يدفعه الفلاح لا الى استلام الستة جنيهات بأكلها فذعر المزارعون وصاروا ينزحون تاركين سواقيهم معطلـة الى الجنوب واشتركوا في تجارة النيل الابيض وبحر الغزال وصار الرجل من الجعليين والدناقلة لا يشاد بذكره الا اذا ترك فلاحة الارض والتحق بكبانيات بحر الغزال واقتنى المال والرقيق وغامر وخاطر من اجلهما .

فصل السودان الشرقي

وتراءت لاسماعيل صعوبة ادارة السودان تحت حكومة مركزية مقرها الخرطوم وخاصة بعد اضافة مرافيء وسواحل البحر الاحمر وما سوف يقوم بفتحه السير صموئيل بيكر فقرر فصل السودان الشرقـي وهو يشمـل محافظتي مصوع وسواكن ومديرية التاكة وعين ممتاز باشا محافظا عليها وورد في الامر الذي اجرى التعديل بمقتضاه « انه بالنظر لما هو معلوم من اتساع جهات الاقاليم السودانية وتباعدها عن بعضها بعض بمسافات جسيمة بمـا يشق على الحكمدارية استدراك استكشافاتها واختيار احوال سكانها في زمن مستقرب . هذا مع ضرورة الاقتصاد ولاجراء الاسباب الموصلة لتقدم الاهالي وعماريتها وملاحظة ترغيبهم وتشويقهم الى الزراعة واكتساب منافعها

التي هي الاساس الاكبر لسعة الثروة والعمارية ونمو التجارة ونحو ذلك فلهذه المناسبات اقتضت ارادتنا نزع محافظات سواكن ومصوع والتاكة وباقي سواحل البحر الاحمر لحد بربرة التي هي آخر حدود الحكومة واجعالهم ادارة مخصوصة بمحافظة مستقلة تسمى محافظة سواحل البحر الاحمر وعيّنا ممتاز باشا محافظا عليها » .

سياسة ممتاز باشا الزراعية

وانهمك ممتاز في مهمته بتحسين مرفأ سواكن وعمرانها وكذلك في النهوض بالزراعة وخاصة القطن فنشطت زراعته في طوكر وكسلا وطلب المحالج والآلات اللازمة لتجهيزه للتصدير وابدى مجهودا جبارا في نقل الآلات الضخمة من سواكن لطوكر . ولو انه لم يجد كل ما كان يطمح اليه ولو ان الثمرة التي جنتها البلاد من مجهوداته لم تكن كبيرة نظراً لصعوبة المواصلات الا انه يمثل طبقة جديدة من الحكام رأوا اول مهامهم عمران البلاد وزيادة ثروتها الزراعية .

بربر تتبع المعية السنية

ولم تقف حركة التقسيم عند فصل محافظات البحر الاحمر بل ادخلت تجربة ادارية جديدة وهي فرز مديرية بربر من الحكمدارية وجعلها مديرية قائمة بذاتها وتتبع في ادارتها للمعية السنية لا للحكومة المصرية وقلدت ادارتها لحسين بك خليفة كبير عربان العبابدة ومتعهد سكة العتمور وفصلت حسابات المديرية من ميزانية الحكمدارية وحرر الامر لحسين بك خليفة بما يأتي « بناء على ما علمناه فيكم من الاهلية واللياقة والاستعداد قد رقيناكم الى الرتبة الثانية واوليناكم مدير بربر وجعلنا هذه المديرية قائمة بذاتها

مفروزة من حكمدارية السودان غير تابعة الحكمدارية ولا يكن لديوان المالية عليها مراجعة ولا ملاحظة بل تكون تبعيتها لميتنا وفقط المكاتبات والمخابرات العادية يكتب عنها الى نظارة الداخلية واما باقي اشغالها وحساباتها ومصالحها يكتب عنها لمعيتنا بدون واسطة » وبدأ حسين بك يولي الزراعة الشطر الاكبر من اهتمامه وادخل طريقة ري الحياض بالترع والسيالات كما هي الحالة في مصر وادخل زراعة القطن من مديريته وكذلك نرى مكاتبات عدة بين المدير الجديد والمعية السنية بشأن شراء المواشي وارسالها لمصر على حساب المعية .

لا مركزية اخرى

ثم تطور التعديل الاداري الى لغو الحكمدارية ونزول جعفر باشا مظهر وتقسيم السودان الى ادارات مستقلة فقبلي السودان ويشمل مديريات الخرطوم وسنار وفازوغلي والبحر الابيض فكردفان فالتاكة فبحري السودان ويشمل مديريتي دنقلة وبربر وبذلك رجعت مديرية بربر لسلطة الحكومة وانفصلت من المعية وثبت حسين بك خليفة لبحري السودان ونقل ممتاز باشا مديرا عاما لقبلي السودان .

نهضة ممتاز الزراعية

نقل ممتاز اهتمامه وحماسته للزراعة وللقطن خاصة الى ادارته الجديدة وظل يواصل طلباته من مصر فيما يتعلق بالمحالج والعدد الاخرى وطاف بنفسه على المزارعين حاثا لهم على زراعة القطن وطلب كميات كبيرة من بذرته بلغت في احدى طلباته ثلاثة آلاف اردب توزع مجانا على المزارعين على ان تقسم الارباح مع الحكومة وعكف ممتاز على دراسة السودان جميعه

من حيث الاراضي الصالحة للزراعة وخاصة القطن وقدر ما يمكن زرعه في مديريات السودان المختلفة ما عدا مصوع بما يربو على المليون من الافدنة وبين الطرق التي يمكن بها ترحيل محصول القطن ورأى أن أنجع وسيلة هي على النيلين الازرق والابيض الى الخرطوم ومنها شمالا الى مصر والاقطان التي تزرع في اقليم القضارف وعلى ضفاف نهر عطبرة تنقل في زمن الفيضان الى النيل الكبير ومن ثم ترحل شمالا . وزيادة على اهتمامه الزائد بالقطن رأى تحسين نسل الضأن والبقر باحضار الكباش والجاموس من مصر .

سياسة حسين بك العمرانية

أما زميله حسين بك خليفة مدير السودان البحري فلم يقل عنه اهتماما بالزراعة . ومشكلته هي الري فواصل حفر الترع حتى تزرع أكبر مساحة ممكنة زمن الفيضان وشجع تعمير السواقي ورأى ان يرد الذين فرّوا زمن جعفر باشا مظهر الى مديريات الخرطوم وسنار وكانوا يسمّون بالمسيحيين فاهتم حسين بك بأمرهم وبعث يرغّبهم في العودة الى اوطانهم ووعدهم بكل مساعدة ولكن المشايخ الذين نزلوا في حماهم في مديريتي سنار والخرطوم مانعوا في عودتهم لان ايراداتهم من الضرائب ستقل واتصل حسين بك بمدير قبلي السودان ولما ان يئس من معاونته رفع الامر الى الخديوي فأصدر أمرا كريما الى ممتاز باشا يأمره بأن يسمح لهؤلاء بالرجوع الى بلادهم لعمارتها وزيادة رفاهيتها والا يتعرض لهم المشايخ وقدّر عدد من تسحب منهم بهذه الطريقة بنحو خمسة آلاف شخص وبالرغم من هذا الامر تعرقلت مساعي حسين بك ولم يرجع الكل .

نتائج ادارتي ممتاز وحسين

ولو ان الثمرة التي جنتها البلاد لم تكن لتعادل المجهودات التي أبداها

الحاكان لكنها على وجه العموم كانت حقبة عمرانية لم يعرف لها السودان مثيلا في كل عهد التركية السابقة من حيث الزراعة . وقد لاحظ ذلك السير صموئيل بيكر حين رجع بعد انتهاء مأموريته في خط الاستواء فوجد آثار العمران بادية على مديريتي الخرطوم وبربر وخاصة الاخيرة وأطرى ادارة حسين بك خليفة اطراء عظيما ورأى فيه الشخص الذي اطمأن الناس اليه لأنه منهم واليهم .

وختمت حياة الاثنين بتهمة كل منهما بعدم النزاهة في الحكم وحضر قومسيون تحقيق تحت رئاسة خالد باشا وأساء معاملة حسين بك في بربر وشكى المدير المخلوع من الاجراءات التحكمية التي كان يتبعها خالد باشا في تحقيقاته وانحرافه عن العدل واخيرا لم تثبت تهمة واضحة عليه بل تركزت في تحكم أقاربه في السكان واجترائهم على حقوقهم ورؤي ان يغادر حسين بك بربر ويقيم في اطيانه بصعيد مصر وختمت بعدته حقبة الاصلاح والعمران في بربر ودنقلة ولكنه سيرجع مرة أخرى مديرا على بربر . وزميله ممتاز اتهم ايضا بالرشوة والاختلاس وخاصة في نصيب الحكومة من اموال القطن فعزل وأودع السجن في الخرطوم وعيّن مكانه اسماعيل باشا ايوب وعندما حضر قومسيون التحقيق توفي ممتاز في سجنه وخلد ذكره بنهوض الزراعة وادخال القطن .

تعيين اسماعيل مديرا لقبلي السودان ثم حكمدارا

وتعين اسماعيل ايوب مديرا لقبلي السودان وهو من الذين خبروا البلاد مدة طويلة اذ أنه كان ضابطا في ألايات السودان ثم شغل منصب معاون الحكمدارية فرئيس مجلس السودان . وكانت اولى مهامه القضاء على الرشوة والاختلاس وتطهير الادارة مما علق بها من أدران وبعد خمسة

عشر شهرا في هذا المنصب عادت آلادارة الى مركزيتها ورجعت الحكمدارية بتعيينه حكمدارا على الاقاليم السودانية وثبت فشل اللامركزية وتجزئة السودان الى ادارات مستقلة حيث تكوينه الجغرافي لا يدع مجالا لمديريات منفصلة ولا بد من ان تحتك اجزاء الاداة الحكومية . فقد كان يشكو المسيطر على مديرية الخرطوم من مدير التاكة لالتجاء القبائل بمديريته هربا من الضرائب وقد شكا حسين بك خليفة الى الجناب العالي من معاكسة مديرية قبلي السودان للفارين من مديرته ومنعهم من الرجوع الى اوطانهم وبتعيين اسماعيل باشا ايوب ندخل في حقبة التوسع والفتح وتشغل الادارة بامتداد سلطان الحكومة الى أقاليم خط الاستواء ويفتح دارفور وتنظيم ادارتها وقبل ان ندخل في حوادث تلك الحقبة يجدر بنا ان نقف قليلا ونعالج ما افادته البلاد من اصلاحات في المواصلات والتعليم في عهد اسماعيل .

انشاء خمس مدارس

أنشأ اسماعيل في زمن حكمدارية موسى باشا حمدي خمس مدارس في عواصم المديريات وهي بربر والخرطوم ودنقلة والابيض وكسلا على غرار المدارس التي كانت بمصر آنذاك وكل منها تسع نحو المائة تلميذ وقد ورد في الامر الصادر بانشائها « وحيث ان تأسيس خمس مدارس في المديريات المذكورة لنشر وتعميم العلوم والمعارف والحضارة على الوجه المشروح موافق لنفس المصلحة بناء عليه بادروا الى اجراء ايجابه واسعوا في تعليم سكان الجهات المذكورة وتقدمهم باحسن وجه » .

احسانات اسماعيل للمساجد ومدارس القرآن

وبذل اسماعيل الاعانات والاحسانات من المعية الى عدد كبير من المساجد التي تدرس القرآن والعلوم الشرعية فينال عدد منها ماهيات شهرية

للفقهاء والمعلمين تصل الى اربعمائة قرش شهريا وراتب ذرة لغذاء الطلاب يصل احيانا الى خمسة ارادب شهريا وبعض المساجد تداعت ابنيتها فرممت بالطوب احمر على حساب الاحسانات الخديوية ايضا وكذ انرى العرائض تقدم باستمرار للذات الخديوية اما لربط ماهيات واغذية او لترميم مساجد وكلها تجاب طلباتها حتى وقعت الارتباكات المالية المعروفة في مصر وجذب اهتمام الفتح والتوسع والانظار وهنا تنقطع العرائض والاعانات كما انقطع الاهتمام بالزراعة .

وقد ادت هذه المدارس النظامية خدمات لا مثيل لها للادارة السودانية بأن مدتها بالكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف واحدثت نهوضا في الثقافة والادب في ربوع السودان بينما كان العلم قبلها مقصورا على خلاوي القرآن ومجالس العلوم الشرعية . ورأى ممتاز تتميا لسياسته القطنية ان يبعث بعدد من الشبان السودانيين لمصر لتعلم الصناعات الميكانيكية حتى يكون باستطاعتهم بعد رجوعهم ادارة العدد والماكينات التي لا بد منها لحلج وكبس الاقطان واقتراح ايفاد بعض خريجي هذه المدارس الحكومية الى مصر لتعلم الطب والصيدلة ولكن الاقتراح لم يلق قبولا للمؤهلات العلمية العالية التي يحتاج اليها الطالب قبل الالتحاق بتينك المدرستين .

مد الخطوط التلغرافية

شغل اسماعيل منذ الشهور الاولى من حكمه بربط السودان ومصر بخطوط تلغرافية فطلب الاعمدة من غابات السودان وعندما ثبت عدم صلاحيتها في بعض المناطق التي تكثر فيها « الارضة » استعيض عنها باعمدة حديدية طلبت من انجلترا . ومد خط الى اسوان ثم واصل المهندسون عملهم الى ان كان شوال سنة ١٢٨٦ حيث اتصلت الخرطوم بالقاهرة مدة جعفر مظهر باشا واستمرت عملية مد الخطوط في بقية انحاء السودان حتى تم

الاتصال اخيرا بدارفور عند نقطة الفوجة واتصل السودان الشرقي كالقضارف وكسلا الى سواكن ومصوع واتصلت الجزيرة جنوبي الخرطوم حتىفازوغلي وكان لهذا الاتصال اثره الفعال في فتوحات دارفور خاصة اذ ان طلب النجدات وموقف جيش الحكومة والنظام الاداري الذي اقترح تأسيسه في دارفور يصل الخديوي بسرعة نسبية ويرد عليه بالموافقة او الرفض او التعديل .

السكة الحديد

ولكن أبعد الاصلاحات اثراً فيما لو قيض له ان ينفذ هو مشروع ربط مصر بالسودان بالسكة الحديدية فنرى اسماعيل منذ سنة ١٢٨١ يرسل مهندسين انجليزيين ليقوما بمعاينة أقرب طريق لما سمي بخط السودان وعهد الى الشيخ حسين خليفة متعهد سكة العتمور ليكون دليلها وخبيرها في تلك الصحراء المقفرة وعندما كانت احتمالات خط الشمال — اذا اردنا تسميته بذلك — لا تزال في طور البحث لم يغفل اسماعيل عن احتمالات خط الشرق الذي يربط النيل بالبحر الاحمر ولكنه ابدى صعوبات التنفيذ كما ابدى نياته نحو اراضيه الجنوبية فقد بعث بارادة مؤرخة في ٢٨ صفر سنة ١٢٨٣ الى حكمدار السودان يقول فيها : « وبما ان سواكن هي ميناء عمومية للاقاليم السودانية والمنفذ التجاري لها فان اهم ما نفكر فيه ونسعى اليه هو العمران وترقية الزراعة والتجارة في تلك الجهة ونرى فيما نراه من الوسائل المؤدية لذلك انه لو انشئت في السودان السكك الحديدية التي اصبحت الاساس الاعظم للتقدم والعمران لافادت البلاد الفوائد الجمة في قليل من الوقت . والله يعلم ان هذه الفكرة لم تبرح مخيلتنا لحظة واحدة ولو كان في الامكان لامرنا بمباشرة العمل في هذا المشروع منذ الآن ولكن ما الحيلة وانشاء السكك الحديدية في تلك الجهة يصطدم بصعوبات كثيرة ويحتاج الى نفقات

طائلة والحالة تقضي بارجاء تحقيق مثل هذه المشروعات العظيمة التي تتطلب هذه النفقات الى ما بعد مدة ريثما تتخلص المالية من بعض الضيق الذي تعانيه في الوقت الحاضر كما ان هنالك مع الأسف الشديد مواقع اخرى تحول دون ذلك كالمال المخصص سنويا من المالية لنفقات السودان وما اليه من الموانع .

فاذا كان تنفيذ خط الشرق ارجىء الى ان تزول العقبات التي تحدث عنها اسماعيل فتحضيره ووضع تصميماته لامر لازم فعهد الى اسماعيل بك الفلكي ليوازن بين الطريقين المحتمل مد الخط عليهما وهما طريق سواكن — بربر او سواكن — شندى وقدم اسماعيل بك تقريره المستفيض مفضلا طريق شندي على طريق بربر لان الاخير تعترضه جبال مرتفعة واودية منخفضة وكان هذا آخر العهد بذلك المشروع الى ان تجدد الاهتمام به في حروب المهـدية .

خط الشمال

اما خط الشمال فاستمر البحث في احتمال مده وكان شغل النظار الشاغل وقد عكفوا على دراسة الخرائط التي قدمها المهندسان الانجليزيان على خريطة رسمها حسن افندي الدمياطي المتوفى وابنه الذي كان آنذاك موظفاً بالاشغال العمومية عندما كانا في السودان وتام المشروع حقبة تقرب من الاربع سنوات تجدد النظر والبحث فيه بعدها بايفاد مهندسين انجليز لمراجعة ما رسم من خرائط واقتراح ما يعن لهم من آراء جديدة ، فقاموا بطريق العتمور برئاسة يعقوب جراهام الذي عين باشمفتشاً لسكة حديد السودان فوصل الباشمهندس وصحبه الخرطوم ومنها جنوباً الى ابي حراز ووزع بعض معاونيه على الطريق ما بين شندى ووادي حلفا لدراسة ومساحة الطريق تفصيلياً ونوه المستر جراهام بالمساعدات والتسهيلات القيمة التي بذلها حسين بك خليفة مدير بربر ودنقلة آنذاك وأثناء وجود جراهـام

بالخرطوم بحث مع مدير قبلي السودان ما يمكن ترحيله من حاصلات على هذا الخط . وبعد اتمام بحث ومعاينة طريق العتمور قفل جراهام راجعاً بطريق الصحراء الغربية ما بين ام درمان وامباكول في دنقلة وقدم تقريره عن الطريقين الى مستر فاولر الذي قرر افضلية الطريق الثاني .

رأى اسماعيل قبل ان يغامر بمشروع ضخم كهذا اذ يستعين بخبرة وآراء المهندسين المصريين وخاصة عندما علم ان طريق النيل والصحراء الغربية فيه من المشاق والمتاعب ما لا يتعادل مع الفوائد التي يمكن جنيها منه ورأى بعد الاستئناس بآراء مستشاريه ان يبحث احتمال طريق العتمور ثانيا وان يبحث بالذات مشكلة المياه التي هي اكبر العقبات في سبيله فعهد الى حسين بك خليفة بفتح الآبار القديمة المنتشرة في الصحراء ما بين كرسكو وابي حمد التي يقال انها كانت موجودة منذ زمن قدماء المصريين وبعد ان اجرى حسين بك البحث والتنقيب وطهر كل بئر في تلك الصحراء عهد اسماعيل الى عبد القادر بك وحسن افندي من المهندسين الحربيين بكشف الطريق واحتمال مد السكة عليه وامر الشيخ محمد حسين خليفة متعهد العتمور بتسهيل مأمورية المهندسين مخاطبا له بقوله « وحيث كما تعلمون ان تمديد السكة المذكورة وتوصيلها الى السودان يترتب عليها منافع كثيرة من عمارية الجهات التي تمر عليها وباقي جهات السودان وتسهيل وتوسيع دائرة التجارة التي تعود فيها الثمرات والفوائد على اهالي تلك الجهات فينبغي انكم انتم ومن يكن عندكم من اهل الخبرة والدراية بحقائق الطريق المذكورة ان تتحدوا مع اولئك المأمورين وتوروهم وترشدوهم على الطرق والمسالك التي تكون مستقربة ومستسهلة لامتداد السكة الحديد » .

رجع المهندسان المصريان ومعهما زميل امريكي وقدما تقريرهما لناظر الجهادية وفيه عقدوا مقارنة بين هذا الطريق وطريق المستر فاولر الذي يحاذي النيل ثم يعبر الصحراء من امبكول في دنقلة الى ام درمان او الى المتمة وعلق الناظر على ذلك مؤيدا بقوله « ويفهم من التقرير المقدم منهم

ان هذه الطريق اكتشفوها في عودتهم وانها خالية من العقبات سهلة وملائمة لان تمد عليها السكة الحديدية لانها تمتد الى مسافة ٤٨٥ ميلا تقريبا بين ادفو وبربر وانه اذا كان الماء في هذا الطريق قليلا فالمأمول ان يوفر فيها الماء بعد ان ينظروا في امر توفيره ابان فصل الشتاء وان هذا الخط لا يحتاج لغير قنطرة واحدة تشاد فوق النيل وعليه فان الطريق الذي اكتشفه ووضع تصميمه المهندس فاولر وهو من وادي حلفا الى المتمة وقد اشر اليه باللون الاحمر طوله ٥٥٠ ميلا ومع ذلك فهو لا يمتد حتى ادفو فالطريق الذي اكتشفه عبد القادر بك وزملاؤه اقل طولاً » . وهذا هو الطريق الذي اختاره كتشنر لفتح بقية السودان اخيرا .

ومع ذلك فقد استقر الرأي اخيرا على تنفيذ طريق فاولر سنة ١٢٩١ هـ وقد عين شاهين باشا للاشراف على خط السودان في نفس الوقت الذي كان اسماعيل باشا ايوب الحكمدار في دارفور لاتمام فتحها وتنظيم ادارتها . واكبر عقبة صادفت شاهين باشا هي عدم وجود العمال بالقدر الذي يكفي لمشروع ضخم كهذا وكادت تحدث ازمة ويساق الباشبوزق الى اهالي مديرية دنقلة للعمل قسرا في الخط ولكن الاهالي انفسهم تشاوروا فيما بينهم وقدموا اقتراحا حل المشكلة وهو ان يناط لاهالي كل خط العمل في السكة حتى تخرج من خطهم ويتناوله اهل الخط الذي يليهم . وبذا تسنى لشاهين باشا الشروع في العمل وخصصت ايرادات مديريتي دنقلة وكردفان لكل ما يتعلق بالسكة الحديد السودانية واصيب شاهين باشا بمرض استلزم عودته لمصر وعين مكانه مصطفى فهمي باشا واستمر العمل حتى بدأت ارتباكات اسماعيل المالية ولزم الامر ان يوازن غوردون الحكمدار الذي خلف اسماعيل ايوب مالية السودان وان يوقف العمل في السكة الحديدية السودانية .

فتوحات اسماعيل في السودان [1]

(بحر الغزال ودارفور)

الرق في السودان

عرف الرق في السودان قبل فتح محمد علي وعرف السودان تصدير الرقيق الى مصر والى بلاد العرب قرونا قبل أن يدخل اسماعيل باشا بجيوشه مملكة سنار وكان العمل في الحقول ورعاية الماشية من عمل العبيد وليس من اعمال السادة العرب وعموما فقد كان الرق ناحية اجتماعية انغرست جذورها في الماضي والفها الناس ازمانا . واندفع محمد علي كما قدمنا لفتح الاقاليم الجنوبية لاسباب ومن اهمها الحصول على عدد من العبيد يدخلون في سلك جنديته ودبرت الغزوات لاستجلاب العدد الضخم الذي كان يصبو اليه محمد علي واستخدمت الحكومة الجديدة السلاح الناري ضد هؤلاء السود وكان اثره اشد بكثير مما الفوه من النهاضة وصيادي الرقيق من العرب فاستفاد الصيادون بالاسلحة الجديدة واستخدموها في غزواتهم — ومع ان الحكومة اوقفت الغزوات كما قدمنا الا ان الصيادين ظلوا يوالون غزواتهم الموفقة بسلاح فتاك ليس في الاستطاعة مقاومته وقد كانوا يقاومون بعض الشيء عندما كان صيادوهم يستخدمون الحراب والسيوف . كل ذلك كان يحدث على اطراف البلاد الزنجية وعلى جبال النوبة .

---

(1) تنحصر هذه في التوسع في بحر الغزال ودارفور وخط الاستواء ولا تشمل السودان الشرقي .

نشاط التجارة في البحر الابيض

تعقمت رحلات سليم قبطان في النيل الابيض وتلتها رحلات تجارية بالمراكب وكان احمد باشا ابو ودان نفسه يمتلك مراكب في النيل الابيض للتجارة وخاصة العاج واقترح احمد باشا المنكلي المنظم احتكار تجارة النيل الابيض بواسطة الحكومة ولكن محمد علي لم يوافق منعا لاحتجاجات الافرنج الذين بدأوا يمارسون هذه التجارة . وعندما انشئت القنصليات في عهد عباس الاول تعمق التجار الافرنج صاعدين في النيل الابيض وظل عددهم يتزايد ونشاطهم يشتد حتى ان محطاتهم التجارية امتدت الى نهر السوباط وبحر الغزال وغندكر وفي عهد سعيد دخل في خدمتهم من اهالي السودان عدد كبير فرارا من الضرائب الباهظة وخاصة سكان دنقلة ولم يتوان التجار من مصريين وسودانيين من الاستفادة من المورد الجديد فبدأوا هم ايضا ينشئون الزرائب ويجندون الاهالي والعرب لحماية متاجرهم .

كل هؤلاء التجار سواء منهم الافرنج او الوطنيين بدؤا محطاتهم التجارية لغرض التجارة ولكنهم بالتدرج ادركوا ان اقتناص الزنوج وسوقهم وبيعهم في اسواق الشمال او تصديرهم للخارج وخاصة لبلاد العرب اجدى وانفع من التجارة المصرحة وطفق اصحاب الزرائب يديرون الغزوات من قواعدهم المستندة على الزرائب كحصون لهم ويستعينون احيانا بقبائل موالية للغارة على قبائل اخرى معادية وظلت المراكب ترحل بدلا من العاج الابيض عاجا اسود . ومر الرحالون والمكتشفون على هذه الاقاليم وهي بهذه الحالة من الخراب والتجار قد وصلوا القمة من حيث الجشع والطمع ووصف الرحالون هذه الحالة في كتاباتهم وبعضهم قدم التقارير لحكوماتهم .

اسماعيل يتخذ الاجرآت

تنبه اسماعيل ونبه بواسطة الدول الاوروبية للحالة وابتدأ باتخاذ الطرق المؤدية لمحو الرق او لتخفيف اضراره ولا غرابة ان ينحو اسماعيل هذا المنحى الانساني . فهو يريد للبلاد التي يحكمها حياة مدنية ورفاهية وقد تجلت نظرته نحو هذا الوباء من خطاب طويل بعث به للحكمدار يعلق فيه على مسلك مدير ، وتهاونه عندما علم غارات بعض النهاضة على الدنكة والشلك فيقول فيه [1] :

« ان اهم ما نفكر فيه ونسعى الى تحقيقه هو ادخال السودان بما فيه جهات البحر الابيض في دائرة المدنية والعمران كما هـي الحالة في اقاليـم الحكومة الاخرى ومع ان السودان لا ايراد له في الوقت الحاضر فاننا لمجرد ادخاله في هذه الطريق ورغبة في اسعاد اهاليه قد انشأنا مديرية البحـر الابيض التي كلفنا انشاؤها الكثير من النفقات . وبينما نحن نعمل علـى انشاء مديريات اخرى في الجهات العليا ونسعى لعمران تلك الارجاء آملين انضواء الاهالي تحت لواء الحكومة اذا بالحوادث تقع على عكس ما نرغب ونأمل وهذا ما يدعو الى الاسف الشديد الذي لا يمكننا ان نعبر عن مداه .

ان مدير البحر الابيض لم ينظر الى ان اهم واجباته هي حفظ الامن في تلك الجهة وقطع دابر الاشقياء والاشرار والسعـي الدائم لعمـران مديريته واسعادها جاعلا ذلك نصب عينيه عاملا على تحقيقه ولم ينظر الى ان واجب العمل يقتضي على امثاله المواطنين بأن يسعوا بكل الطرق الممكنة لاجتذاب قلوب الاهالي نحو الحكومة وجعلهم مطمئنين اليها ... فبينمـا الحكومة قد الغت بيع الرقيق الذي استرد من الاشقياء اذ هو يعيد بيعه لحسابه ، وفي ذلك ما فيه من الاستهتار باوامر الحكومة ، ومن اجل ذلك

---

(١) دفتر ٥٥٨ معية تركي وثيقة تربية رقم ٢٣ بتاريخ ٩ ربيع الثاني ١١٨٣ .

يجب ان لا يكتفي بعزله وانما يجب ان يرسل ايضا الى فازوغلي ليعتقل هناك ويستخدم بالاشغال الخسيسة ليكون عبرة للآخرين . اما الرقيق الذي باعه فيجب استرداده واعادته الى اوطانه بالراحة واسكانه فيها واطلب على ان تعملوا على عدم وقوع مثل هذه الحوادث المؤلمة مرة اخرى وان تحولوا دون تعدي الاشقياء والاشرار على الجهات التابعة لهذه المديرية وهذا مع التوسل بالاسباب المؤدية الى تمدين البلاد وعمرانها » . هذه الوثيقة لا تترك مجالا للشك في نيات اسماعيل نحو ابطال هذه العادة والاوامر التي اعطيت للحكمدار تتحدث في صراحة عن الاهمية التي يضعها اسماعيل على هذه المسألة ومعاقبة الموظفين الذين يتوانون او يتهاونون في تنفيذ هذه الاوامر .

الويركو والحراسة

واتخذ موسى حمدي باشا اول حكمدار في عهد اسماعيل ما رآه من الطرق لتنفيذ ارادة الجناب العالي فوضع ضريبة سميت بالويركو على كل بحار او عامل يعمل في المراكب التي تصعد على النيل الابيض وشدد الرقابة بالبابورات الحكومية على النهر المذكور حتى لا تفلت المراكب المهربة ، وتأسست فشودة كعاصمة لمديرية البحر الابيض وبفضل موقعها تستطيع ان تهيمن على المراكب النازلة من بحر الغزال وبحر الجبل ونهر سوباط . كل هذه اجراءات من شأنها عدم تشجيع التجارة في البحر الابيض ومراقبة الرقيق حتى لا يتخذ طريقه نحو الشمال او نحو سواحل البحر الاحمر . ولكن لا زال التجار يسيطرون على المنبع الذي تصدر منه البضائع ولا اثر لسلطة الحكومة في تلك البقاع . وحتى بعد الدوريات النهرية وحراسة الطرق والدروب عرف التجار كيف يراوغون مراكب الحراسة وينزلون رقيقهم في اماكن بعيدة عن نقط المراقبة ويسوقون سلعتهم بعدها عبر الجزيرة الى الشرق . وتمكن اسماعيل في باديء الامر من ضبط الارساليات

الكبيرة التي كانت تصدر من ميناثي سواكن ومصوع حين الحقتا بادارة السودان غير ان المهربين لجأوا الى المرافىء الصغيرة .

شراء الزرائب بواسطة الحكومة

وضعت ايضا التحجيرات اللازمة لتوريد الاسلحة والذخائر حتى لا يقوى اصحاب الزرائب وكذلك طلب من القناصل الا يدخلوا تحت حمايتهم من يسيء استعمالها ومما وضع العراقيل امام التجار الضرائب التي اجبروا على دفعها عن زرائبهم وكذلك تقوية حامية فشودة . ازاء ذلك بدأ التجار الافرنج يبيعون متاجرهم وما اكتسبوه من حق في زرائبهم للحكومة . ووافق اسماعيل بل شجع سياسة شراء الزرائب من التجار وبلغ ما دفعته الحكومة في ذلك زمن جعفر باشا مظهر ما يربو على المائة الف جنيه ، ولكن الحكومة اجرت هذه المشاريع للعقاد وغطاس سنويا لان ادارتها بواسطة الحكومة كانت تبدو صعبة .

ونتيجة لهذه الأجراءات اصبح التجار يتعمقون في مجاهل افريقيا نحو بحر سوباط وبحر الغزال وغندوكرو واصبحوا يتخذون كل وسيلة لتهريب رقيقهم ، وكان للرشوة نصيب كبير في تسهيل مهمتهم وقد يبدو غريبا ان تستمر تجارة الرقيق مع نيات اسماعيل الحسنة واوامره المشددة للحكمداريين والمديرين والطرق المختلفة التي اتخذت لعرقلتها ولغوها ، ولكن السودان باراضيه الشاسعة ومواصلاته الصعبة وفوق كل ذلك صنف الموظفين الذين كانوا بالضرورة محافظين ولم تدخل في عقيدتهم هذه النزعة الانسانية التي ترمي الى ابطال عادة الفوها والفتهم قرونا عديدة ، وهم قبل غيرهم يرون اثرها على حياتهم . ومع ان بعضهم يتقبل الرشوة للتغاضي عن المهربين لكن حتى اولئك الذين يتعففون عنها لم يجدوا في

اتسهم الحماس الكافي للضرب على ايدي التجار والمهربين لانهم ليسوا مؤمنين بهذه النزعة الانسانية .

فكرة ضم بحر الغزال

بذل اسماعيل كل ما امكن بذله من مجهود ليضع حداً لهذه التجارة البغيضة ولكن الاخبار ترد اليه على انها لا تزال قائمة والدول الاوربية تنقل اليه ما شاهده الرحالون والمكتشفون من مساوئها فرأى الا مناص من ضم الاراضي التي يتلاعب فيها هؤلاء التجار الى ممتلكاته ضما نهائيا ، ووضع حاميات فيها واظهار سطوة ونفوذ الحكومة . فعهد اسماعيل الى الحكمدار جعفر مظهر باشا بأن يضم جهات بحر الغزال عما يراه ، وشغل اسماعيل نفسه بجهات خط الاستواء وسنفصل ما اتخذه بصددها فيما بعد . اما ضم بحر الغزال فاتصلت حوادثه بشخصية الزبير الذي روى عن نفسه ان الظروف هي التي قادته الى بحر الغزال . فبعد ان تعلم في مدرسة الخرطوم ما كان يريد او يرغب ان يذهب لبحارة كما كانوا يسمون الاقاليم الجنوبية ، ولكن لحق بابن عم له غادر الخرطوم متجها لبحارة ، وعندما ادركه في الطريق غير بعيد من العاصمة حدثه عن الرجوع وحاول اقناعه بكل ما يمكن من حجة وبرهان ليثنيه عن عزمه ، ولكن ما زال مصمما ، وهنا رأى الزبير ان الطريقة الوحيدة التي يتخذها السوداني لوضع حد للمسألة هي ان يحلف له بالطلاق ان لم يرجع سافر معه فلم تؤثر هذه في ابن العم . فاضطر الزبير لمرافقته الى بحر الغزال .

الزبير ضد البلالي

بدأ الزبير حياته كتسبب بسيط ، ولكن ذكاؤه وصفات الزعامة والقيادة التي امتاز بها على من هم حوله جعلته يتقدم خطوات في التجارة

من ناحية ونحو الملك والسلطان من ناحية اخرى فاتسعت متاجره ، وكان يحالف بعض الملوك ليقاتل بهم غيرهم حتى اصبح بالتدريج له شأن يختلف عما كان عليه اقرانه من التجار ، وصارت جهات بحر الغزال الغربية تحت نفوذه التجاري والاداري وعقد له التجار لواء الزعامة التي وصل اليها باجتهاده وصفاته .

وهو في هذه الحالة اذ وضع الحكمدار الخطة لضم اقليم بحر الغزال لنفوذه وسيطرة الحكومة وعين احد اهالي الغرب المدعو الشيخ محمد البلالي ناظرا لقسم بحر الغزال ليكون تابعا لمديرية فشودة وعين له معاونين وكتبة وجنودا بمرتبات ورتب حكومة وعين كجوك على سر بيادة القسم المذكور . وسر اسماعيل من اجراءات التنفيذ غير انه حذر حكمداره من التساهل في قوة هذه الحملة وبيّن له ضرورة الانتباه لعددها وعدتها حتى تستطيع رد اي هجوم ربما يقوم به سلطان دارفور .

قام الشيخ محمد البلالي متجها صوب مأموريته وقبل ان يلاقي حلف التجار توفي كجوك علي ، وكان الشيخ محمد يستند على قوة الحكومة وسيطرتها ولعله كان يجهل او تجاهل ما وصل اليه من التجار من نفوذ في تلك الاصقاع وخاصة الزبير ، وكان ان سمعوا بمسير البلالي ورأوا فيه دخيلا يريد اغتصاب ما بنوه من ملك ونفوذ بسواعدهم وادمغتهم فاتفقت كلمتهم وعقدوا للزبير لواء القيادة وصمموا على مقاومة الشيخ محمد والتقوا به في معركة لم تكن بالحاسمة سقط فيها قتلى من الفريقين ودخلوا في جولة ثانية كان النصر فيها حليف التجار وقتل فيها الشيخ محمد البلالي . وعندما وصلت انباء مقاومة التجار والموقعة الاولى الى الحكمدار خف الى مكان الحادث معاون من الحكمدارية ومعه بلوك من العساكر لاجراء التحقيق في امر ذلك العصيان . وعندما وصل بحر الغزال وكان التجار سادة الموقف فقام بما ندب من اجله من تحقيق وارسل تحرياته للخرطوم ، وكذلك بعث الزبير شارحا اسباب المقاومة مبينا تعدي الشيخ محمد ومبادأته بالعدوان .

الزبير بين موقفي العدو والصديق

وصلت هذه التحقيقات للخرطوم عندما كان آدم باشا العريفي يقوم مقام مدير عموم قبلي السودان بدلا من ممتاز باشا الذي عزل رهن التحقيق وقبل ان يصل اسماعيل باشا ايوب المدير العام الجديد ورأى آدم باشا ان يناط بمدير كردفان ضبط الزبير وارساله للتحقيق معه فيما نسب اليه لان المسافة من الخرطوم بعيدة . غير ان الزبير قد عرف بفطنته وذكائه انه اذا ما سارت الامور على طريقها الرسمي فسوف تعده الحكومـــة ثائرا ولا تستطيع ان تدرك الظروف التي تحت ضغطها دافع عن نفسه وامواله ورأى ان يوسط حسين بك خليفة مدير بربر ودنقلة آنذاك ، وشرح له الحالــة شرحا وافيا واظهر الخضوع والامتثال لسلطان الحكومة وما كان يريد ان يعرف عنه او تنسب اليه الثورة ونتيجة لذلك رأى الخديوي ان يعفو عنه واصدر اوامره لمدير قبلي السودان باعطاء الزبــير الامان اذا مـــا حضر للخرطوم ولا داعي لحضوره للمحروسة كما ابدى الزبير نفسه في طلبــه بواسطة حسين بك خليفة .

الزبير يعين مديرا لبحر الغزال

ولم يكتف الخديوي بالعفو عنه بل رأى فيه من القوة وشدة البأس ومعرفة احوال بحر الغزال ما سوف يستعين به على توطيد سلطان الحكومة في تلك الاراضي واصدرت الاوامر لاسماعيل ايوب الذي ارتفع الى رتبة الحكمدار بتشكيل مديرية لبحر الغزال وتعيين الزبير مـــديرا عليها وامر الحكمدار ايضا بأن يبحث مع الزبير حين قدومه الى الخرطوم امر المديرية الجديدة وما يجب لها من المستخدمين والجنود . كل هذه التعليمات ارسلت من الخرطوم مع رسول خاص بطريق كردفان ودارفور ولكن الرسول تأخر

في طريقه لان عربان الرزيقات قطعوا الطريق . اما الزبير فقد صمم على القيام الى الخرطوم يعرض ولاءه واخلاصه حسب ما وعد به من قبل وسيّر بعض مراكبه امامه تحمل السن والريش وغيرها ريثما يتم استعداداته . وقبل ان يغادر مقره عرف ان عربان الرزيقات وغيرهم اغاروا على حدود منطقة نفوذه وقطعوا الطريق بينه وبين دارفور ورأى ان يقوم بتأديبهم اولا وبعد ذلك يواصل سيره شمالا الى كردفان ثم الى الخرطوم ، وسارت الامور سيرا لم تدعه ينفذ عزمه بل قادته الى فتح دارفور فلنترك الزبير يجمع جنوده البازنقر والبحارة ليزحف بهم على الرزيقات ونضع امام القارىء المامة بسيطة عن تاريخ دارفور قبل حروبها مع الزبير .

نبذة عن تاريخ دارفور

تأسست دارفور مملكة مستقلة في نفس الوقت الذي نشأت فيه مملكة الفونج وملوكها يرجعون بنسبهم الى العباس عم النبي (صلىّ الله عليه وسلم) وفي ادارتها ونظمها لا تختلف كثيرا عن المملكة الفونجية وظلت ثلاثة قرون يتوارثها سلاطينها صاغرا عن كابر ، وكان السلطان محمد الفضل يعاصر محمد علي ، وعندما فتحت جيوش الدفتردار كردفان كان المتوقع متابعة الفتح حتى دارفور غير ان حوادث الملك نمر وما اعقبها من اضطرابات اخذت كل وقت ومجهود الدفتردار ، ولم تتمكن جيوش محمد علي من فتحها ، وكذلك مناوشات الحدود الحبشية التي ظلت تتجدد كلما هدأت الاحوال وبدىء بالتفكير في فتح دارفور .

محاولة الاتفاق مع ابي مدين

وفي سنة ١٢٥٢ هجرية وفي عهد خورشد باشا وصل الخرطوم ابو مدين اخو محمد الفضل سلطان دارفور يلتمس الاذن بالسفر الى مصر لمقابلة

الجناب العالي ثم ليذهب الى الحج ، وقد استفهم خورشد باشا منه عن قوة دارفور واتفق معه على ان تفتح الحكومة الاقاليم وينصّب هو (ابو مدين) سلطانا عليها خاضعا للحكومة ويؤدي خراجا سنويا يشمل خمسة آلاف من الرقيق وخمسة آلاف رأس من احسن الابل القوية ، والفا وخمسمائة قنطار من العاج وثلاثمائة قنطار من الخرتيت ، وسبعمائة وخمسين قنطارا من النحاس الخام ، والفا وخمسمائة من التمر هندي وكل ذلك يسلم في مدينة اسيوط ، واستكتب خورشيد ابا مدين عهدا بذلك وبعث به الى محمد علي . غير ان خورشيد رأى بعد هذا ان يرجأ الفتح الى ما بعد سنتين او ثلاث يستطلع اخبارها ، ولكن حوادث الشرق واشاعة غزوة المكادة المزعومة والتي استلزمت حضور الميرميران احمد باشا لنجدة الحكمدار أخرت التفكير في فتح دارفور ونام المشرع الى ان قدر لدارفور ان تفتح بطريق غير ما قرر لها وعلى يد رجل لم ينتدب لهذه المهمة الا وهو الزبير . وقد تركناه ينوي مهاجمة الرزيقات وتأديبهم ، ثم يحضر للخرطوم للاتفاق مع الحكمدارية بشأن المديرية الجديدة التي وكلت ادارتها اليه .

الزبير يقاتل الرزيقات

جهز الزبير ما يزيد عن الاربعة آلاف جندي من جنده وتقدم شمالا قاصدا شكا مقر الرزيقات ، وكان مقدرا ان يقطع المسافة في خمسة عشر يوما ، ولكنهم قاموا في زمن هطول الامطار وقضوا لذلك اكثر من اربعين يوما حتى وصلوا جنوبي شكا ، وقد نفذت اقواتهم وصاروا يقتاتون اياما بالحشائش وعروق الاشجار ومات منهم ما يزيد على الستمائة . وعندما اقترب من الرزيقات شنوا هجوما عليه بقوات كبيرة غير ان جنوده كسبوا المعركة وزحفوا بعدها حتى دخلوا شكا في غرة رجب سنة ١٢٩٠ .

وبعد الموقعة وبعد احتلاله لشكا فرّ مشايخ الرزيقات وعلى رأسهم

منزل وعليان ملتجئين بالسلطان ابراهيم سلطان دارفور ، وهو شاب ارتقى عرش آبائه حديثا ، ولا شك ان له من المطامع والعزة ما يوازي دماء الشباب الحارة التي تجري في عروقه وبث له الشيخان شكواهما من الزبير وجنده وعاهداه على الخضوع والامتثال بعد ان اعلن الرزيقات استقلالهم منـذ ثلاثين سنة تقريبا . وطبيعي ان يرحب السلطان الشاب بهذه الفكرة التي ردت الى مملكته ما فقدته منذ مدة وطبيعي ايضا ان يحمي جارا التجأ اليه واحتمى بـه .

الزبير يزحف على دارفور

بدأ الزبير يخاطب السلطان ابراهيم بشأن الشيخين وقد سرد له ما اتصل من وداد وعلاقات حسنة بين والده والدولة المصرية ونصح له الا يهتم بما يقوله الشيخان والا يدعي انهم رعيته حيث كانوا ينعمون باستقلالهم لمدة ثلاثين سنة وسرد له كيف عاثوا وافسدوا وقطعوا الطريق الذي يصل بحر الغزال ببقية السودان عن طريق دارفور وختم خطابه بانهما فتنة ولا يليق به ان يستمع لهما . وظل الزبير يراسل السلطان ، وهذا يمتنع عن تسليمهما وعندها صمم الزبير على محاربة السلطان وصمـم السلطان على مقاومـة الزبـير .

بدأت الحروب بتجريدة بعث بها السلطان لملاقاة الزبير في شكا فدارت عليه الدائرة ، ومن ثم واصل زحفه شمالا وفي الوقت نفسه بعث بالرسائل المستعجلة للحكمدار يطلب منه المدد والعون حيث يتوقع مقاومة عنيفة من السلطان ، وظل الزبير يزحف وتقابله التجريدة تلو الاخـرى وهو ينتصر عليها حتى دخل دارة ، وظل يوالي ارسال خطاباته المحذرة المنذرة للسلطان والسلطان يرد بارسال الجيوش يذود عن مملكته ، وما كان للسلطان الشاب ولم يمض عليه طويل وقت على عرش اجداده ان يخضع وان يمتثل ولكنه

جهز سرية وفيها عدد من امراء البيت المالك وزحفوا على دارة مقر الزبير واشتبكوا يوما كاملا حصد الموت من الفريقين عددا كبيرا انجلت المعركة بعدها بهزيمة جيش دارفور ، ولكن لم تكن بالحاسمة وما تقهقر الفور بعدها، بل ظلوا معسكرين حول المدينة وخاطبوا الزبير واسمعوه شتما ورد لهم بما يعادل لغتهم والفاظهم وخرج لهم هذه المرة وباكرهم بحرب استمرت ساعتين فرت بعدها فلول الجيوش الفوارية وكتب الزبير بهذا النصر مستعجلا المدد من الحكمدار .

مقتل السلطان

وبعد ان بعث تجريدة قوية هذه المرة بقيادة عمه وبعد ان حلت بها الهزيمة قام السلطان على رأس حملة اخيرة بنفسه وفصل عن الفاشر عاصمة ملكه ينوي مباغتة الزبير في داره غير ان الزبير قد تحصن بها وجعلها حصنا قويا امتنع على السلطان وتكبد من الخسائر افدحها حين محاولته الاقتحام ورأى ان يتراجع . غير ان الزبير خرج وراءه مقتفيا آثاره حتى ادركه في بلدة منواشى ، وهناك دارت المعركة الاخيرة مع السلطان حيث ابلى بلاء حسنا في ساحة القتال وخر قتيلا واندك بموته عرش دام اكثر من ثلاثة قرون كانت فيها المملكة الدارفورية أداة للمدنية الاسلامية بين تخوم الصحراء الكبرى ومستنقعات خط الاستواء . وبعد ان استراح الزبير نحو خمسة ايام بالبلدة قام نحو العاصمة الفاشر ودخلها في ٢٢ رمضان سنة ١٢٩٢ . "

هذه قصة الزبير منذ ان غادر مقره في بحر الغزال لتأديب الرزيقات وفتح الطريق بين مديريته وكردفان ليحضر بعدها الى الخرطوم حيث يتفق مع الحكمدار على ادارة مديريته الجديدة ، ولكن الظروف ساقته من حرب مع العربان الى حرب مع مملكة دارفور انتهت بانتصاره . والآن لننظر ما حدث في الخرطوم لنتحسس استجابة الحكومة المصرية والحكمدارية لمغامرات

الزبير وقد تركنا آخر مرة الحكمدار يراسل الزبير بالارادة السنية التي تنص على تعيينه مديرا على بحر الغزال بشروط يتفق عليها في الخرطوم ورد الزبير بأنه سيغادر بحر الغزال بطريق كردفان بعد ان بعث بعض المراكب نازلة في النيل الابيض مشحونة ببعض بضائعه . وقد وافق الحكمدار على هذه الاجراءات ورأى في ذلك فرصة تجعل بحر الغزال متصلة ببقية اجزاء السودان من جهتين الاولى عن طريق النيل الابيض والثانية عن طريق كردفان .

الحوادث في الخرطوم والقاهرة

اتصل بمدير كردفان بعد ذلك ان سلطان دارفور اعتراه القلق من حركات الزبير وحشد جنوده لمقاومته او مهاجمته وانه سد الطريق بينه وبين كردفان فأبرق المدير بالخبر للحكمدار ورأى الاخير ان يبعث بنجدات للزبير على سبيل الاحتياط ، وعندما بدأت الوقائع بين الزبير وعساكر السلطان وعلم الحكمدار بها بعث يطلب الامدادات من مصر فوردت له البرقية الآتية من المهردار خيري باشا « بما ان امير دارفور قد اعتدى على الحكومة المصرية اعتداء موجها ضد مشروع منع والغاء تجارة الرقيق فقد اطلعت على برقيتكم الخاصة بطلب ارسال حملة من مصر قوامها ثلاث اورط من النظامية واربعمائة نفر من العساكر الغير نظامية ورئيس فرسان كامل العدد والعدد مع عشرين الف قنطار من البقسمات وخمسة آلاف قربة سفرى والفي قربة ري مجوز وارسال اورطة سودانية من مديرية السودان الشرقي عدا ما ذكر وتأليف اورطتين سودانيتين من جديد من قبلكم وذلك ليهاجم بهذه القوة على بلاد دارفور من جهتين احداهما من جهة كردفان والاخرى من جهة شكـا » .

وارسلت ارادة سنية الى الزبير بترقيته الى الرتبة الثانية ويهنئه فيها

هو وجنوده بما احرزوه من نصر على عساكر السلطان ولم ينس الديوان الخديوي ان يصدر الخطاب بجملة يفهم منها ان نقطة الخلاف بينه وبين دارفور هي تجارة الرقيق كما في البرقية السابقة ولعل ذلك تقوية للحركات الحربية التي قام بها الزبير وتقوم بها الحكومة امام الرأي العام الدولي « بناء على ما شوهد فيكم من حسن الغيرة والاجتهاد في ضبط وربط امور الحكومة التي تحت ادارتكم مما هو حاصل منكم من الدقة في منع تداول واستعمال التجارة في صنف الرقيق بالتطبيق لاوامرنا العمومية التي صدرت في هذا الخصوص » .

اسماعيل ايوب يقوم بنفسه للغرب

اتفقت القاهرة والخرطوم على ارسال امدادات للزبير ولكن اسماعيل ايوب رأى صعوبة في تنفيذ هذا الامر حيث ان الطريق بين كردفان وشكا غير مأمون ورأى ان يقوم بنفسه الى كردفان لكي يباشر ما يرسل من قوة ويجمع من تلك المديرية ما يمكن الاستغناء عنه وما ان وصل الابيض حتى رأى ان يقوم هو على رأس تلك القوة المتجمعة [1] واسير بهم شخصيا لنجدة زبير بك حتى اطلع على حقيقة الحالة هناك وادخل في قلوب العدو الرعب والدهشة ما يتناسب واهمية الوظيفة التي اتشرف بها واقوى العساكر الخديوية تقوية شديدة والمأمول ان فتح دارفور يكون ميسرا في هذه المرة بفضل الله تعالى ويمن طالع ولي النعم » .

محاولة السلطان الاتصال باستامبول

اما السلطان ابراهيم فقد علم ان الزبير والحكومة المصرية يعملان كيد

(1) دفتر ٢٥ عابدين وارد تلغرافات . شفرة رقم ٤٢٥ ص ٥٦ بتاريخ ٢٤ جمادي الاخرة سنة ١٢٩١ .

واحدة للقضاء على مملكته وكان يظن من قبل ان حركات الزبير هي من تلقاء نفسه ولا تجد تأييدا من الخديوي وعند ذلك قام بآخر محاولة دبلوماسية لدى حكومة الاستانة فوردت الاخبار للحكمدار بأن السلطان ارسل سفارة برئاسة الحاج ادريس ومعهم من المال ما يبلغ مائتي الف ريال نصفها لشريف مكة لكي يتوسط لـدى الباب العالي ونصفهـا الآخر للاستانة فابـرق الحكمدار بالخبر للمحروسة حتى يضبط السفراء قبل او حين وصولهـم لاسيوط ولم يتبين لنا من الوثائق ما حدث في شأنهم .

قوة اسماعيل ايوب

قام الحكمدار من الابيض مستصحبـا اورطة جهادية مستكملـة واربعمائة خيالة وهجانة وثلاثة مدافع ومائتين من الباشبوزق الشايقية واتجه بهم رأسا للدخول في دارفور من جهة الشرق ومر في طريقه على منطقة المياه القليلة والتي يخزن مياههـا في جذوع اشـجار التبلدي المحفورة الوسط ولو كان السلطان تنبه لهم وارسل من اخلى تلك الاشجار مما بها من المياه لاضطرت تلك الفرقة الى الرجوع او موت الكثير منها عطشا .
وقبل ان يصلوا ام شنقة عارضهم الشيخ احمد المليح بعربان حمر ولكنهم لم يثبتوا لطلقات المدافع فدخل الباشا على رأس قوته ام شنقة دون مقاومة .
وهنا تطايرت الاشاعات بان الفرقة الاولى بقيادة الزبير قد اندحرت وأن قائدها قد قتل وهذا ما دعا اسماعيل ايوب ان يبقى بأم سنقة ويحصنها حتى تصله الاخبار الاكيدة عن مصير الزبير وفرقته وتحقق كذب الاشاعة اخيرا حين اتصل الزبير بالحكمدار بالرسائل مخبرا اياه بقتل السلطان وتقدمه نحو الفاشر وعند ذلك تحرك الحكمدار صوب العاصمة ودخلها خمسة ايام بعد وصول الزبير اليها وحملت أسلاك البرق بشرى الفتح للجناب العالي ورد جنابه بترقية اسماعيل ايوب الى رتبة فريق والزبير الى رتبة لواء .

الحكمدار يرتب في دارفور الادارة

شغل الحكمدار في الايام الاولى بتأمين الاهالي وانزال الجنود في مباني السلطان بالفاشر ولكن حسب الله عم السلطان فرّ مع بعض الجند الفوراوي ملتجئا بجبال مرة الحصينة فارسلت فرقة حكومية لتتعقبه وبعد ذلك تفرغ اسماعيل ايوب لوضع نظام اداري جديد يكفل الراحة والامن للبلاد المفتتحة وطبيعي ان يعتمد هيكل الحكومة الجديدة على الجند النظامي وتوزيع البلاد الى مديريات واقسام واخطاط .

وتبين للخديوي مما قرأه من رسائل الحكمدار ومما سمعه من افواه العارفين بدارفور ان هناك حاجة لفتح الطريق بين دارفور وكردفان بفتح الآبار وتوفير المياه ، واستدعى ذلك تعيين فرقتين من الضباط المهندسين للقيام بتلك المهمة تحت رئاسة ضابطين اوربيين يعملان في الجيش المصري حتى تكون الاراضي المفتتحة متصلة ببقية منطقة نفوذ الخديوي اتصالا حقيقيا وقد تقوم الفرقتان بابحاث علمية عن معادن ونباتات واجناس الاهالي في كردفان ودارفور .

وكانت النية متجهة في اول الامر الى تعيين الموظفين كلهم من مصر من اداريين وكتبة ومحاسبين ونظار اقسام ولكن لما تتكلفه هذه الادارة الجديدة من اعباء مالية باهظة ونفور الناس في مصر من السفر لجهات نائية وغير صحية جعلت ولاة الامور يعدلون نوعا ما في خطتهم بأن يستخدم ما امكن اهل البلاد انفسهم في بعض الوظائف .

مطامع اسماعيل في برقو

وامتدت مطامع اسماعيل في هذه الآونة الى ما وراء حدود دارفور واصدر امره فعلا الى الحكمدار ان يتوجه الزبير بفرقته الى برقو بعد

القضاء على فلول جيش دارفور المحتمي بجبل مرة عن معه ومن يبعث من الفاشر لتقويته ومن يلحق به من جنود البحارة الدناقلة من بحر الغزال ويرى اسماعيل بذلك ان يصطاد عصفورين بحجر واحد . الاول فتح بلاد برقو والثاني التخلص من البحارة الذين قوي نفوذهم واستفحل امرهم ، فاذا ما نجح الزبير في هذه المهمة عين مديرا لبرقو . هذا ما تراءى لاسماعيل من آراء ولكنه لم يقيد الحكمدار بها بل ترك له التصرف عما يراه حيث انه ادرى عما يكتنف الموقف من ظروف واحتمالات .

الزبير اصبح مشكلة

بعد سفر الزبير متعقبا أثر حسب الله الثائر اقترح الحكمدار ان يعين مدير عام على الاربع مديريات في دارفور من رتبة اللواء ثم يقص ويسرد الاسباب التي يرى منها عدم صلاحية الزبير لمثل هذا المنصب زيادة على اشرافه على بحر الغزال وشكا . ويبيّن الحكمدار انه خلع الزبير من تلقاء نفسه لقب مأمور ادارة دارفور تطمينا له حيث ان قوته تزيد على الستة آلاف كلها مزودة بالاسلحة النارية ونصفهم من عبيده الخصوصيين . وقد علم الزبير فعلا انه سوف يعين على دارفور وشكا وبحر الغزال بادارة سنية سوف ترد من المحروسة . ويظهر ان تلغرافات الحكمدار ان ما دعاه الـى انتهاج هذه الخطة هو قوة زبير ورأى مداراته الى حين . ويقترح الحكمدار ان ترد الارادة بفصل ادارة دارفور من شكا وبحر الغزال ويعين مدير عام من رتبة اللواء اما بترقية حسن بك حلمي الموجود بالفاشر آنذاك او اي لواء غيره . وبذلك تحال شكا وبحر الغزال الى عهدة الزبير كما كان قبلا . ويرى اسماعيل ايوب ان ذلك هو الطريق الوحيد لادارة دارفور ادارة رشيدة حيث الاهالي هناك كما يقول الحكمدار ينفرون من حكم الزبير وادارته وان كل تلك الاقاليم الشاسعة فوق مقدرته الادارية .

بعد خمسة ايام من هذه البرقية يرى الحكمدار انه بعد ذهاب الزبير الى شكا وبحر الغزال لا تفي القوة النظامية الباقية لحفظ الامن ويرى ان يبقى الزبير حينا من الزمن مشرفا على ادارة دارفور ويبقى معه حسن حلمي بك كقائد للعساكر الجهادية حتى يتكامل ورود العساكر والموظفين من مصر وتستطيع القوة المصرية حفظ النظام والدفاع عن دارفور وعندها ينفذ مشروع رجوع الزبير الى مقر وظيفته الاولى . ويتردد الحكمدار مرة اخرى في خطته ويبرق مقترحا تأسيس مديرية عامة تشمل دارفور وبحر الغزال وشكا تحت رئاسة خالد باشا قائمقام الحكمدار في الخرطوم بعنوان مدير عموم غرب السودان . ومن كل هذا يتضح لنا ان مسلك الحكمدار نحو الزبير ينطبق عليه بالمثل العامي « لا بريدك ولا بحمل بلاك » .

اثناء ما كانت افكار الحكمدارية متضاربة من حيث مكان الزبير في الادارة الجديدة نظرا في اقتراح الخديوي بفتح برقو ورأى ان الزبير ربما لا يقبل ان يوجه جهده مرة اخرى نحو فتح جديد حيث انه كان يقاتل ويجاهد ما يقارب السنة ونصف في بحر الغزال وشكا ودارفور وانه جهز وصرف على ما يزيد على الستة آلاف من خاصة عبيده واقاربه واتباعه ولم يكلف الحكومة اي مصروفات ، وكل هذا من ايرادات مشارعه الخاصة ببحر الغزال وبهذا تم له فتح دارفور وينتظر بالطبع ان تبقى مديرية بحر الغزال في عهدته لانها مقر مشارعه ومتاجره وكذلك شكا ودارفور اللتان فتحهما . فشخص هذا ما قام به من جهد وهذا ما ينتظر لا يرجى منه ان يقوم بحملة جديدة نحو بلاد البرقو دون ان ينال جنده ما يتطلبونه من الراحة ودون ان يجني ثمرات ما افتتح على يديه . وبهذا المنطق وتلك الحجج تحطم مشروع فتح بلاد برقو على يد اسماعيل ايوب باشا .

وعندما نظر اسماعيل ايوب الى الموقف بصفة عامة رأى ان هناك وجهين للنظر في هذه المسألة : الاول ان يعهد الى الزبير بحكم دارفو وشكا وبحر الغزال وفتح برقو ويعين بهذا مديرا على كل الجهات الغربية ولكن

يظل هذا الجزء منفصلا عن حكمدارية السودان مثل شرق السودان والا تتحمل الحكومة اي مصروفات عليه والوجه الثاني هو ان يبقى الزبير في الوقت الحاضر في دارفور الى ان يتم اخضاع كل الجهات فيها وترد القوة الكافية واثناء ذلك تحتاج دارفور الى مصروفات تبلغ سبعة او ثمانية آلاف تتحملها الحكومة وبعدها تتحرك فرقتان احداهما من دارفور والثانية من بحر الغزال وتتجهان غربا لفتح برقو .

لم يكتف الحكمدار بهذا السيل من الاقتراحات بل ابرق يعدل في اقتراحاته بأن تضاف كردفان الى الجهات الغربية وكلها تتبع خالد باشا وحينئذ لا بأس من تعيين الزبير على دارفور هذا اذا صادق الجناب العالي على تعيين خالد باشا . كل هذه الاتصالات البرقية تتبادل حاملة هذا السيل من الاقتراحات والزبير يتعقب حسب الله ويشدد عليه الحصار واخيرا تمكن بالقوة والسياسة معا من احضاره اسيرا الى الفاشر حيث جهز هو واقاربه وبعث بهم الى مصر .

وكانت النقطتان اللتان ترتكز عليهما اعتراضات الحكومة على الزبير هما انه قد يكون طامعا ويستقل بما تحت عهدته من بلاد وثانيهما ان يعمل في التجارة فوق عمله كدير ، وترى انه لا يصح الجمع بين التجارة والادارة وانها مستعدة لاستلام متاجره ومشارعه باثمان مناسبة كما فعلت مع بعض التجار الاوروبيين من قبل ، وزيادة على الاعتراضين السابقين كان جنود البحارة ينفرون من اتباع نظام خاص واستمرارهم في خدمة الحكومة يتوقف على خضوعهم للنظام وتناول مرتبات كبقية الجنود الآخرين .

والظاهر ان الجنود الجهادية تكامل منهم عدد كبير بدارفور وافصح الحكمدار عما يساوره من شكوك في مقدرة الزبير ويرى انه ليس بكفء لادارة اراض شاسعة كهذه وانه يصعب عليه التعاون مع مرؤوسيه من اصحاب الرتب النظامية من الجهادية والموظفين الملكيين الآخرين الذين

يحضرون من مصر وانه لا يريد ان يتخلى عن البحارة . ويروي الحكمدار فوق هذا ان الزبير نفسه راغب عن ادارة دارفور وانه يكتفي ببحر الغزال ولهذا اعلن تعيين حسن بك حلمي مديرا على الفاشر ومديريتين اخريتين بصفة مؤقتة . اما دارة التي تقع في قبلي دارفور فقد حوّل ادارتها مؤقتا على الزبير والظاهر ان الحكمدار يريد رفع الزبير عن ادارة دارفور وفي نفس الوقت يبقى في داره حيث يستعين به على اخماد ما قد يحدث من الفتن حيث لا تزال الحاميات الحكومية قليلة العدد نسبيا . والحل الاخير لمشكلة الزبير كما يعتقد الحكمدار هو انه عندما يرجع الى بحر الغزال يوكل اليه في الحال فتح برقو ويعين مديرا على ما يفتتحه من اراضي وتنزع بحر الغزال منه وبذا تتخلص الحكومة من ادارته لدارفور وتتخلص ايضا من مشارعه ومتاجره وبحارته في بحر الغزال .

لم عانع الزبير في رفعه من ادارة دارفور ولم عانع في امتلاك الحكومة لمشارعه ومتاجره في بحر الغزال ولكنه يطلب ان تبقى له ٦٠٠ قنطار من السن موجودة لديه هناك واتفق ان يورد للحكومة من السن والسود الصالحين للجندية ما قيمته خمسة آلاف كيس باعتبار قنطار السن ٢٥ جنيه ومكافأة الجندي ٥٠٠ قرش وما يزيد عن ذلك يرسل له ما يقابله في الثمن من البارود واللوازم الحربية الاخرى ولم عانع ايضا في تحويل عبيده والبحارة الذين يصحبونه الى عساكر حكوميات عاهيات .

صدق ظن الحكمدار في ان اهالي دارفور لا بد وانهم يعاودون العصيان وان الزبير لا بد من وجوده بدارفور لدحرهم وفعلا رفعت راية العصيان في جبل مرة وامر الزبير بالتوجه اليهم ، كما قام حسن بك حلمي من الفاشر لنفس المهمة وتمكنا من اخضاع المتمردين . وبعد ذلك مباشرة تنصب بوش سلطانا في كبكابية واعلن تمرده وعصيانه فسار نحو الزبير وقتله وشتت جنده وسلم المديرية لمدير جديد عينه الحكمدار وقفل راجعا الى فاشر . عندئذ نفذ الحكمدار الحلقة الاخيرة من سلسلة اجراءاته فها هو

الزبير يسلم مديرية داره وقد هدأت الاحوال في دارفور بعد اخماد الفتن والثورات حيث تهيأ للرحيل لشكا وبحر الغزال ولا حاجة تبرر وجوده في دارفور .

الزبير يحل مشكلته بنفسه

استشعر الزبير منذ اليوم الذي اجتمع فيه مع الحكمدار بالفاشر ان هناك بعض الانقباض والنفور ولعل ذلك مرده الى شعوره بأن فخر الفتح يرجع الى الزبير ثم توالت على الزبير الوعود التي تلغى بعد مدة ثم اضطراب اجراءات اسماعيل ايوب من حيث ادارة دارفور وفتح برقو وعلم الزبير رغبة الحكومة في تسريح جنوده واستلام مشارعه ببحر الغزال . كل ذلك جعل الزبير يظن ان الحكمدار ما قصد الا حرمانه من ثمار انتصاراته ومعاكسته وظن ان الجناب العالي لا يتفق معه في تلك السياسة وان الاوفق الذهاب بنفسه الى المحروسة وعرض الامر على الاعتاب السنية وما كان يدري ان تلغرافات الشفرة المتبادلة بين الحكمدار والمهردار هي التي تملي هذه السياسة وان الحكمدار يقترح والخديوي يوافق ان اقتنع بصحة الاقتراح . والزبير بحكم تربيته ووسطه ما كان يدرك ان هناك باطنا من الامر وظاهرا وان السياسة مداجاة وحيل ، وما كان له ان يدرك طريقة الدسائس التركية ، فالاقوال اللينة التي يبديها له الحكمدار يأخذها على ظاهرها ولم يستشعر ان هناك تخوفا من جهته من نحو عصيان او تمرد او استقلال وهو بطبيعته البسيطة وسليقته العربية الواضحة ما كان مخادعا في ولائه للحكومة الخديوية ، وظل ثابتا على اخلاصه منذ ان قطع عهدا على نفسه بالولاء لهذه الحكومة عندما تغلب على قوات البلالي ونفى عن نفسه تهمة التمرد والثورة. غير ان العنصر التركي الحاكم آنذاك ما كان يصدق ان رجلا عصاميا كالزبير بنى لنفسه مجدا في مجاهل افريقية والتف حوله اتباع واهل وعبيد

مخلصون له كل الاخـلاص وفتح بقواته تلك بـلاد دارفور من موارده الخاصة ــ ما كانوا يصدقون ان رجلا كهذا يكون خلوا من المطامع وما كانوا بحكم تربيتهم وتقاليدهم التركية ان يطمئنوا الى مثل هذا الرجل ، فقد تحمل اقواله الظاهرة معنى عكسيا مما يبطنه في ضميره ، ولذلك كان موقف الحكمدار معه منذ البداية موقف الحذر والاحتراس .

وانقذ الزبير العنصر الحاكم من حيرته وحل مشكلته بنفسه بأن طلب ان يحظى بالمثول بين يدي الجناب العالي بنفسه وسرعان ما جاء الرد بالموافقة وسرعان ما نفذ الحكمدار سياسة اخلاء دارفور بأكلها من نفوذ الزبير ونفوذ بحارتهم فأعطاهم الاوامر بتنفيذ سياسة الاخلاء ولم يرض الزبير عن هذه الاجراءات وقدم قبل قيامه عريضة للخديوي يشكو فيها من استعجـال الحكمدار لبحارته بالرجوع الى بحر الغزال وفصل مديرية دارة عنه وهو يرى ان اختلاط السكان في المديريتين (دارة وبحر الغزال) يجعل انفصالها اداريا امرا صعبا . فجاءه الرد بأن اوامر الحكمدار لا بد من تنفيذها في الوقت الحاضر وانه بعد حضوره للمحروسة سينظر في تشكيل حمكدارية يكون هو على رأسها تشمل بحر الغزال وربما جزءا من دارفور ــ وقبل قيام الزبير من شكا اوجس الحكمدار خيفة وبعث بجنود كافية لدارة حتى اذا بدت حركة من الزبير انقض عليه الجهادية ، ورأى ان البارود الذي طلبه الزبير لبحر الغزال مبالغ في كيته ، وهكذا لآخر لحظة كان الحكمدار يشك في ولاء واخلاص الزبير .

الزبير في طريقه الى مصر

قام الزبير من شكا قاصدا كردفان ومعه رؤساء البازنقر بعد ان قلقت القاهرة والخرطوم من التأخير وبدأ الحكمدار ينثر الاشواك في طريقـه . فبعد ان اتفق معه في الفاشر على توريد اقمشة وعبيد بلغ ثمنها نحو السبعة

آلاف جنيه يصرفها من خزينة الحكمدارية بالخرطوم ارسل تلغـرافا لمصر يسحب اتفاقه هذا لان اهالي دارة كما يقول قدموا عرائض بأن الرقيـق والدمور الذي ورد كان ملكهم واغتصبه منهم الزبير ، ولذا ينصح بأن يماطل الزبير في الدفع بحجة عدم وجـود النقـدية ، وفعـلا اخبر قائمقـام الحكمدارية سرا بذلك الامر . وصودرت ايضا مائة قنطار من السن في منزل الياس باشا امبرير بالابيض بحجة انها من سن كردفان وليست من سن بحر الغزال ومشارعه .

فوجيء الزبير بامر الحجز على السن في الابيـض ، وفي الحال قـدم شكوى حارة بالتلغراف كان الرد عليها التصريح له بأخذها معه وتوبيخ المدير على عمله هذا بالتعرض لموظف كبير من موظفي الحكومة الخديوية . لكنه فوجيء مرة ثانية عندما وصل الخرطوم وطلب صرف مبلغ ما ورده للميري بالفاشر وماطله القائمقام كما امر ، وبعد التلغرافات العديدة صرف له نصف المبلغ وفي بربر ايضا طلب مبلغا آخر وبعد التلغرافات صرف له بعض الشيء ايضا وقام من بربر مخترقا صحراء العتمور الى كرسكور ومنها الى مصر .

ودليل ثابت على تخوف الحكومة من الزبير هو ان الحكمدار امر ان يبقى بدارفور حتى يغادر الزبير الخرطوم وينتظر بالخرطوم حتى يتيقن من وصول الزبير الى كرسكو وتحت ستار التفتيش على الشمال يسافر الى مصر حسب ما طلب منذ مدة . وظل الزبير بالقاهرة ولم يقدر له ان يرجع الـى مركز مديريته ببحر الغزال كما كان ينتظر ، فلنتركه هناك ولنرجـع الى ما حدث في مديرية خط الاستواء من توسع ومجهود لمنع تجارة الرقيق .

الضجة حول خط الاستواء

تمت عملية الفتح والضم في بحر الغزال بطريقة لم تكلف الحكومة مالا او خسارة في الارواح اللهم الا جنود البلالي وما صرف عليهم وهذا قليل بالنسبة لاراض شاسعة كهذه وبرهن الزبير على ولائه واخلاصه للحكومة بأنه قبل ان يكون حاكما من قبل الحكومة بل قفز منها نحو دارفور وضمها للاملاك الخديوية ، الامر الذي نوت الحكومة منذ فتح السودان اتمامه . اما خط الاستواء فقصتها تختلف عن بحر الغزال ، والشخصيات التي وكل اليها مراقبة التجارة وفتح الاراضي في خط الاستواء وللاعلان الذي نالته المديرية اختل توازن اهمية تاريخ المديريتين ، وكتبت المجلدات والكتب الضخمة عن خط الاستواء ، ومضت بحر الغزال منزوية في التاريخ لانها لم تقم حولها ضجـــة .

تعيين صموئيل بيكر

فخط الاستواء ارتبط مصيرها بشخصين انجليزيين ، الاول مكتشف ممتاز والثاني ضابط شاب قدر له ان يلعب دورا هاما في تاريخ هذه البلاد وقدر له ان يلقى حتفه في تربها وتخلد اسمه الى وقت قريب اكبر مؤسسة علمية في البلاد وهي كلية غوردون . وقد حضر صموئيل بيكر في اوائل

سنة ١٨٦٩ الى مصر بعية ولي عهد المملكة الانجليزية وكان اسمه اشتهر بكتشف بحيرة البرت . فبعد محادثات بينه وبين نوبار باشا وقع اختيار الخديوي عليه للقيام بحملة الى خط الاستواء وضمها لاملاكه ورضي بيكر عا طلب اليه وهو عقد لمدة اربع سنوات براتب سنوي يبلغ العشرة آلاف جنيه .

وهنا يصدر اسماعيل امرا لبيكر يحدد فيه مأموريته ويصدر اوامر اخرى الى ناظر الداخلية وحكمدار السودان ، فقد ورد في امر بيكر « نظراً للحالة الهمجية السائدة بين القبائل القاطنة في حوض نهر النيل ونظرا لان النواحي المذكورة ليس بها حكومة ولا قوانين ولا امن ولان شرائع الانسانية تفرض منع النخاسة والقضاء على القائمين بها المنتشرين بكثرة في تلك النواحي ـ ولان تأسيس تجارة شرعية في النواحي المشار اليها يعتبر خطوة واسعة في سبيل نشر المدنية ويفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى الواقعة في خط الاستواء بواسطة المراكب التجارية ويساعد على اقامة حكومة ثابتة ... » وفي امره للحكمدار ورد « بما اننا ارسلنا سعادة الفريق خسروا باشا الى السودان ليقوم بتنظيم الجنود الذين سيكونون بمعية صاحب العزة صموئيل بيكر بك المعين مأمورا لتوسيع الاقطار السودانية في جهات النيل الابيض ... » وتضمن امر ناظر الداخلية ما يأتي « نظراً لوجوب الحاق اعالي النيل الابيض الذي يعد القسم الاكبر من النيل المبارك بالاقطار السودانية ولوجوب مناسبة بينهما فان الحكومة المصرية من القديم اتخذت لنفسها طريق التقدم الى الجهات العليا وعلى ذلك تقرر تعيين صموئيل بك الموظف بالحكومة الذي سبق له اكتشاف منبع النيل ولديه المعلومات الكافية عن تلك الجهات مأمورا لالحاق اعالي النيل الابيض بالممالك المصرية » .

تضمنت كل الاوامر اذاً توسيع الممتلكات المصرية في اعالي النيل الابيض الى منابعه ولم يرد ذكر القضاء على النخاسة الا في امر بيكر نفسه

وهذا يدل على ان الغرض الرئيسي من الحملة هو ضم حوض النيل باكله للسودان وتوحيد الاراضي الذي ينساب فيها هذا النهر المبارك تحت ادارة واحدة . واختيار بيكر بالذات لادارة هذه المأمورية فيه دلالة اخرى على ان دافع الوحدة اقوى لان بيكر سبق له التجول في البقاع ولانه اكتشف احد منابع النيل فهو قد الف الجو وخبر السكان والاراضي .

الاستعدادات

بدأت الحكومة في مصر والحكمدارية في السودان تعملان استعدادا للحملة فقد احصيت البواخر النيلية الموجودة في مصر والسودان ، وجهز عدد عظيم منها للحملة واشترى بعضها من الشركة العزيزية ، وقامت نظارة الجهادية باعداد الجند والضباط ومتاعهم ومؤنهم وذخائرهم ، وامر الحكمدار بتجهيز مراكب شراعية تقوية لاسطول بيكر البحري . وذهب بيكر بنفسه لانجلترا وطلب من بناة السفن تجهيز سفن خاصة تصلح للملاحة في تلك البقاع واشترى من المهمات المختلفة من المصانع الانجليزية ما هو في حاجة اليه ولم يهمل حتى الامتعة الصغيرة . وتجواله في اواسط افريقيا اكسبه خبرة بما يحتاج اليه المسافر فيها ، وفتحت الحكومة المصرية خزينتها له بسخاء لاستيراد ما يراه ضروريا لتجهيز تلك الحملة .

السير جنوبا

وصل بيكر للخرطوم ومعه من استخدمه من اعوان اوروبيين ، ولكنه لم يجد الاستعدادات قد تمت كما يرجو ، وكانت هذه اول عقبة سجلها في يومياته ، وبعد اشهر تمكن من ان تقلع بواخره ومراكبه الشراعية صاعدة في النيل الابيض ، وارادت عقليته الاستكشافية السير من طريق بحر الزراف

لانه مختصر وجديد في آن واحد ، ولكنه ما سار فيه اياما حتى اعترضته السدود واضطر ان يقفل راجعا ؛ما تمكن من السير في الفرع الاصلي للنيل الابيض لان هبوط منسوب المياه اضطره لتأجيل اختراق منطقة السدود للسنة القادمة . وصمم بيكر ان يقيم وجنوده الاشهر القادمة في حدود مديرية النيل الابيض ولم يرض الرجوع الى الخرطوم ففتكت الاوبئة والامراض ببعض جنوده وقللت من حيوية البعض الآخر . واثناء اقامة قواته في المحطة الجديدة التي سماها التوفيقية رجع بيكر الى الخرطوم ليشرف بنفسه على تجهيز بقية الحملة وحين فاض النيل واصل سيره جنوبا حتى وصل غندوكرو مقر رئاسته في ١٥ ابريل سنة ١٨٧١ وفي ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ غادرها معتزلا الخدمة لان عقده قد انتهى . وقد مكث في خط الاستواء ما يزيد على السنتين يقوم بمهمة الفتح وضم الاراضي .

مقاومة ابو السعود والاهالي

الا انه منذ البداية لقي من التجار مقاومة افسدت عليه ما كان ينتظره من توسع ، ووجد بنوع خاص من ابي السعود وكيل شركة العقاد خصما عنيدا يتقد ذكاء ، وله المام تام بالبلاد وساكنيها ، ولا شك انه كممثل لطبقة التجار وارباب المشارع لا يريد ان يرى سلطة فوق سلطتهم ويرغب في استمرار احتكارهم للتجارة وسيطرتهم على الاهالي دون منازع ، وقد نجح في اثارة القبائل ضد الحلة والقى في روعهم ان الحملة اذا ما قاطعها الاهالي بعدم تقديم الطعام لها ستضطر الى الرجوع . وعلى هذا امتنع الاهالي عن بيع اي شيء من الذرة او البقر للحملة وظهروا بمظهر عدائي حتى ان الجند ما كانوا يبتعدون عن محطتهم ، واضطر بيكر ازاء هذا العداء وازاء امتناعهم عن بيع الاطعمة الى ان يغتصب منهم البقر والذرة لتموين جنده . وبعد ان رفع العلم المصري في غندوكرو وأعلن رسميا

ضمها الى الاملاك الخديوية تقدم ببعض من جنوده جنوبا لتأسيس نقاط حربية ولاكتشاف منابع النيل وضمها لمصر .

تأسيس المحطات ومعاكسة كباريجا

أسس نقطة في فاتيكو ووصل الى الفرع الذي يحمل مياه بحيرة فكتوريا للنيل الكبير في فويرا وواصل سيره في بلاد انيورو التي يعرفها حق المعرفة حتى وصل عاصمتها مازندى على ضفاف بحيرة البرت ووجد حفاوة وحسن لقيا اول الامر من كباريجا ملك أنيورو ، وتحت تأثير هذا رفع العلم المصري واعلن ضمها الى مصر بالحفلات المعتادة بحضور كباريجا وعدد كبير من الاهالي . ولكن سرعان ما تبدلت الحفاوة الى عداوة ، وسرعان ما بدأ الاهالي يهاجمون حصن بيكر ثم قطعوا الزاد والمؤن عنه ، كل ذلك وكباريجا يراوغ ويدعي انه ليست له يد في الامر .

التراجع من انيورو

وعندما تكررت الاعتداءات ورأى بيكر انه يبعد كثيرا عن قاعدته وان ما معه من الجنود شرذمة قليلة لا تستطيع الاحتفاظ بتلك المحطة صمم على التراجع من انيورو . ولانقطاع امله من وجود الحمالين جمع الاحمال الثقيلة ووضعها كومة اشعلت فيها النيران ، وكان منظرا مؤلما على نفس بيكر ولكنه اجراء لا بد منه . وبدأ ذلك التراجع الذي قاسوا فيه اشد ما يقاسيه انسان من وعورة في الطريق واعتداءات من الاهالي لا تنقطع ليلا ولا نهارا قتل اثناءها بعض الجنود وجرح البعض الآخر الى ان وصلوا نقطة فاتيكو ثم واصلوا سيرهم الى غندوكرو .

بيكر يعتزل الخدمة

وبعد قليل انهى عقد بيكر وغادر مركز مديريته الى الخرطوم ، وقبل ان يصلها بعث امامه بتلغراف يبرق الى القاهرة حيث يلقى بموجبه القبض على ابي السعود وتقديمه للمحاكمة لانه كما يرى بيكر السبب في كل هذه العراقيل والاعتداءات المتكررة من الاهالي ، بل يتهمه بيكر بأن جماعتــه اغاروا مرة على المحطة الحكومية وأطلقوا عليها النيران . وبعد اقامة ايام قليلة بالخرطوم سافر لمصر فأنعم عليه الخديــوي بالنياشين وشكــره على خدماته . وقد بلغت جملة مصروقات الحملة نحو الثمانمائة الف من الجنيهات بما في ذلك ما ترك من وابورات ولم تتم عملية الفتح والضم كما كان مقدرا لها ، وكل الارباح التي جنتها الحكومة هــي تأسيس ثلاث محطــات في غندوكرو وفاتيكو وفويرا احتفظ بها محمد رءوف بك الذي تركه بيكــر هناك حتى تعيين غوردون كما سيجيء فيما بعد .

نتائج حملة بيكر

انتهى عقد بيكر بعد ان لاقى ما لاقى في تنفيذ مأموريتي الفتح والغاء الرق ، وقد ترك نتيجة لمجهوداته ثلاث محطات عسكريــة كماقدمنا يرفرف عليها العلم المصري ، ولكن نفوذ الحكومة لم يكن يتعدى اميالا بسيطة من تلك المحطات ، ولم تستطع فل شوكة تجار الرقيق لان كبيرهم ابا السعود بلغ به الاستهتار بسلطة الحكومة ان اطلقت جماعته النيران على الجنــود الخديوية وقد القى في روع الاهالي ان وجود تلك المحطات مؤقت ولا بد ان يغادروا البلاد عندما تتراكم عليهم العقبات والمتاعب . وبالرغم من ان بيكر اتهم ابا السعود بالخيانة العظمى وعرقلة مساعي الحكومة في تلــك الاصقاع ، وبالرغم من ان الحكومة قدمته للمحاكمة الا انه افلت منهــا باستخدام غوردون له كما سيجيء .

تعيين غوردون

كان اسماعيل شديد الرغبة في مواصلة الاعمال التي بدأها بيكر من ناحيتي التوسع وابطال الرق ، وتمكن وزيره نوبار ان يقابل بوجه الصدفة ضابطا انجليزيا في السفارة الانجليزية بالاستانة ، واذ كانت افكار الحكومة المصرية متجهة نحو ايجاد خلف لبيكر عرض الوزير المصري الفكرة على الضابط الانجليزي ليدله على انجليزي يقبل الخدمة في خط الاستواء خلفا لبيكر فوعده الضابط ان يقابله بعد ايام . وما كان هذا الضابط غير غوردون الذي خدم في حروب القرم وفي الصين والآن اتى في مهمة مندوب انجليزي في لجنة دولية تشرف على الملاحة في نهر الدانوب . وبعد ايام كتب غوردون لنوبار بأنه يقبل الخدمة بدلا من بيكر اذا وافقت حكومته . فسعت الحكومة المصرية لدى حكومة هوايت هول وتم الامر ودخل غوردون في عقد مع حكومة الجناب العالي ، وادهش الجميع عندما رفض مرتب العشرةآلاف جنيه كماهية سنوية كما كان بيكر يتناولها من قبل ورضي بألفين فقط . ولعل هذا الاستهلال الذي بدأ به غوردون كان له اكبر الاثر في نفس اسماعيل اذ كان يقدر موظفه الجديد اكبر تقدير ، وكان غوردون يسره ان يخدم اسماعيل حتى اذا ما زايل اسماعيل الاريكة الخديوية.لم يطب لغوردونالمقام وترك الخدمة في الحكومة المصرية . دخل غوردون في الخدمة بسلطات اوسع اذا اطلقت يده في مديرية خط الاستواء يفصلها عن الحكمدارية فصلا نهائيا وعلاقته معها علاقة تعاون ومساعدة اذ تمده الحكمدارية بما يحتاج اليه وتجري خصم ما يسلم له على المالية .

مذكرة خديوية عن سياسة الجنوب

ومن الدروس التي تركتها حملة بيكر ومن تقاريره وتوصياته حررت الحكومة المصرية مذكرة وافية شاملة نرى ان نثبتها بنصها لانها تشمل ما

يجب على الحاكم الجديد القيام به من اعمال :

«ان المديرية التي شرع الاميرلاي غوردون في مباشرة تنظيمها وحكمها لا يعرف عن امرها سوى الشيء القليل . ولغاية هذه السنوات الاخيرة كانت واقعة بين مخالب قوم من الافاقين همهم فقط الحصول على الارباح غير المشروعة فكانوا يتجرون بالعاج والرقيق معا وذلك بأن ينشئوا متاجر يديرونها بواسطة رجال مسلحين وكان يضطر رجال القبائل المجاورة ـ سواء أكان ذلك بطيبة خاطر ام باكراه ـ ان يشتركوا معهم في تلك التجارة ، وكانت الحكومة المصرية قد استولت على مكاتب اولئك التجار بعد ان دفعت تعويضات لاربابها مؤملة ان تتوصل من وراء ذلك الى وضع حل لهذه التجارة الممقوتة المنافية لشروط الانسانية .

وكان قد ابيح للبعض من هؤلاء ان يستمر في تجارته في المراكز بعد ان قطع هذا البعض على نفسه عهودا بأن لا يتجر في الرقيق ووضع بعد ذلك تحت مراقبة حكمدار السودان غير ان سلطة الحكمدار لم تكن قد تمكنت الا قليلا من جعل الناس تشعر بها في تلك الاقطار النائية القصية . لذلك قرر الخديوي ان يؤلف من هذه الارجاء حكومة منفصلة وان يجعل التجارة مع الخارج كاحتكار من حق الحكومة وما كانت توجد وسيلة اخرى لوضع حد لتجارة الرقيق التي ما زالت ترتكز الى الآن على قوة السلاح دون سواها متحدية الشرائع والقوانين .

فمتى انقطعت اللصوصية واضحت في سير الغابرين وانفتحت ثغرة في عوايد هؤلاء الاقوام تلك العوايد المجحفة التي تأصلت في نفوسهم مع كر السنين ، فعندئذ يؤذن بحرية التجارة للجميع . وكان على الاميرالاي غوردون اذا رأى الفرق التي كانت مأجورة لاولئك الافاقين مستعدة لخدمة الحكومة ان يجتني كل فائدة يمكن جنيها منهم . واذا رآهم يتوخون سلوك سيرتهم الاولى كان عليه ان يشعرهم بكل ما في الاحكام العسكرية من بطش وشدة .

وقد وقع آخرون في خطأ وخيم العاقبة كان يجب ان يتجنب . ذلك ان من الواجب اطعام الجيش اطعاما جيدا فلا يكن هناك حاجة للاستيلاء كما كان حاصلا في الزمن الماضي على مستودعات حبوب القبائل ، اذ ان مثل هذا العمل يدعو تلك القبائل الى سوء الظن بالحكومة فضلا عن انه مناف لارادة الخديوي الذي يود كسب ثقة الاهالي وحسن ظنهم . فيجب ان تزرع الجنود الارض وان تزداد المحصولات .

واذا وجد بين الاهالي الذين يعتقون من ايدي النخاسين اناس لا يمكن الاهتداء الى عشيرتهم نظرا للاماكن القصية التي نقلوا منها وتعذر ردهم الى اوطانهم فهؤلاء يستحسن تشغيلهم في استغلال الارض بجوار البلاد التي بها محطات . ويجب على الحكمدار الجديد ان يجعل نصب عينيه اقامة خط للنقط العسكرية خلال المديريات التابعة له بربطها مع بعضها من طرف الى آخر بحيث تستطيع جميعها ان تراسل الخرطوم مباشرة ، ويجب ان يتتبع هذا الخط ضفة النيل ويتمشى معها الى اقصى حد ممكن وبما ان في غير الامكان الملاحة في النيل في مسافة طولها ٧٠ ميلا بسبب الشلالات فعلى الحكمدار ان يلتمس وسيلة يستطاع معها التغلب على هذه العقبة ويرفع تقريرا بذلك للخديوي .

وعلى الحكمدار قبل كل شيء فيما يختص بعلاقاته مع القبائل الضاربة على سواحل البحيرات ان يحاول اكتساب مودتهم وان يجعل نفسه موضعا لثقتهم وان يحافظ على ممتلكاتهم وان يستجلب رضاهم بواسطة الهدايا . وعليه ايضا مهما كان نفوذه عندهم ان يجتهد في حملهم على الاقتناع بالكف عن الحروب التي يضرمون نارها بغية الحصول على العبيد .

واذا رأى الحكمدار ضرورة لفرض رقابة حقيقية على قبيلة ما من تلك القبائل فيكون الافضل ان يترك للرؤساء الحكم المباشر وعليه ان يتحقق من خضوعهم وطاعتهم مع جعلهم يخشون سيطرته » .

استقبال غوردون في الخرطوم

تزود غوردون بهذه التعليمات التي ترسم الخطوط الرئيسية لسياسته وطلب تعيين الاوروبيين معه فأجيب الى طلبه ، وطلب تعيين ابي السعود وكيلا ومساعدا له . وكانت هذه مفاجأة للحكومة في القاهرة والخرطوم لان سلفه بيكر رأى محاكمه لمرقلته مساعي الحكومة ، فطلب غوردون لرجل رهن المحاكمة امر غريب وشاذ ولكن الحكومة رغما عن ذلك اجابته لما يطلب وما كانت تريد ان ترد له طلبا . وغادر القاهرة يحمل برنامجا مفصلا لتأدية مأموريته وتنفيذ الاوامر الخديوية وترك صديقه ومعاونه جسى في القاهرة لتسهيل مهماته . وعندما اهل غوردون على الخرطوم استقبله الحكمدار اسماعيل ايوب باشا استقبالا رائعا لم يألفه قبل ذلك ووصف روعته في خطاب بعث به لاخته في انجلترا وفوق سروره من الاستقبال سر بفتح طريق السدود حيث رجع الحكمدار ومعه اورطة سودانية كاملة قامت بقطع الاعشاب التي تعترض مجرى النيل واقتلعت المياه جزرا عديدة من تلك النباتات المتشابكة بما كان عليها من تماسيح وافراس البحر وهي تعوي وتصيح . وكان على غوردون ان يبرق للجناب العالي بوصوله سالما الى الخرطوم وبما لقيه من حسن الاستقبال وكرم الضيافة من الحكمدار ومحافظ سواكن ومدير بربر وفوق كل هذا اظهر سروره الزائد بالمهمة التي قام بها الحكمدار حيث فتح طريق النهر في منطقة السدود .

مسيره من الخرطوم

قام من فوره في وابور خاص ليلقي اول نظرة على مأموريته الجديدة بعد ان اصدر اول امر له في الخرطوم تبعا للتعليمات التي تلقاها باحتكار تجارة السن لجانب الحكومة وبمعيته شبلولونج الضابط الامريكاني الذي

كان في خدمة الجيش المصري والآن عين لمرافقه غوردون . وبعد تسعة ايام وصل فشودة وهناك تحول في وابور بوردين (الذي لا يزال موجودا كأثر من الآثار في ترسانة الخرطوم بحري) وظل صاعدا في النيل الابيض دون توقف الى ان وصل غندوكرو مقر حكمه في ٢٢ مارس سنة ١٨٧٤ . وهناك قوبل بكل ترحاب من جنود الحامية وعلى رأسها رءوف بك الذي ظل مشرفا على ادارة المديرية بعد مغادرة بيكر لغندوكرو وجد بعثة من امتيسة ملك اوغندة بهدايا للجناب العالي ورأى غوردون ان الفرصة سانحة لتوثيق العلاقات بين الحكومة المصرية والعاهل الافريقي العظيم وفي الحال امر بتأليف سفارة ترد هذه الزيارة وتحمل بعض الهدايا لامتيسة برئاسة لونج .

غوردون يرجع للخرطوم .

اما غوردون فبعد ان اقام في غندوكرو خمسة ايام قفل راجعا للخرطوم على ظهر باخرته بوردين وكان منظرها وهي تدنو من مراسيها في الخرطوم وعلى ظهرها مأمور الاقاليم الاستوائية موقع دهشة واستغراب ولكنه ازال ما كان يخامرهم من شك بأن اعلن انه رجع للاشراف على تسهيل امتعته ومؤنه وذخائره . وعندما سمع انها وصلت بربر خف بنفسه واشرف على وسقها في المراكب وقابل معاونيه الذين خلفهم وراءه في القاهرة واقلعت المراكب وهي تحمل كثيرا من عتاده الحربي ومؤنه ووصل معها الخرطوم .

اقتراحات لغوردون

وفي تلك الزيارة الخاطفة لمديريته كون فكرة عنها واتى بمقترحات عرضها على الحكمدار وأهمها ان يضم الى مديريته نهر سوباط ونهر الجور اي ان يضم جزء من مديرية فشودة وكذلك قسم كبير من بحر الغزال فلم

يقبل له الحكمدار وابرق للخديوي بالامر موصيا الا ترضخ الحكومة لهذا الطلب . فورد الأمر لغوردون بأن ما وضع تحت امرته اقاليم شاسعة هي وحدها في حاجة الى مجهود جبار لادارتها واحلال الامن في ربوعها ولا يوافق على هذا الطلب . فرضي غوردون بهذا الرد وكان يود السيطرة على كل اوكار تجارة الرقيق حتى يتمكن من ابادتها حسب ما يعتقد . ومـا غادر الخرطوم جنوبا ببواخره ومراكبه الموسوقة الا بعد ان شكى من تعطيل الحكمدار لأشغاله وبعد ان ابرق بهذه الشكوى للخديوي وهذا في ايام تبدل ما اعلنه من شكر لخدمات الحكمدار وما لقيه من حسن استقبال وكرم ضيافة الى شكوى وتذمر .

محطة على نهر سوباط

وما ان وصل الى مصب نهر سوباط في النيل الابيض الا وامر باقامة محطة هناك تكون الحلقة الشمالية من سلسلة محطاته على النيل ورأى ملاءمة تلك النقطة لان ما ينحدر في نهري سوباط وبحر الغزال من مراكب يمر بها قبل ان يدخل في النيل الابيض وتتمكن النقطة من ضبط محمولها من الرقيق . واقام فيها وبعث بأمتعته ومعاونيه جنوبا الى غندوكرو وظل هو في تلك المحطة ليقطف اول ثمرة لتأسيسها . فانتظر كثيرا حتى رجعت بواخره من غندوكرو ليصعد في النيل الى مركز رئاسته وقبل ان يغادر محطته ضبط مركبين تحملان عاجا فوق السطح وتخبئان رقيقـا في الداخل فحررهـم واسكنهم في مستعمرة بالقرب من المحطة لفلاحة الارض . وهو في طريقه اسس محطة في شامبي .

الملاريا تفتك برجاله

بدأ مناخ غندوكرو الوخيم يؤثر في صحة من بمعية غوردون مـن

الاوربيين ولم يكتف المرض بالايام الطويلة التي اقضاها معظمهم يتقلب على الفراش من اثر الملاريا . ولكن قضى البعض نحبهم وخسر غوردون حسب ما روي بموتهم خسارة لا تعوض في تلك الاصقاع النائية . اما هو فقد بقي سليما معافى يسهر على راحة المرضى من اعوانه . وفي الشهور الاولى اظهر ابو السعود اخلاصا وولاء وساعد في نقل قطع الوابورات الى ما فوق الشلالات حتى تجمع وتربط هنالك ولكن ما اصاب الاوروبيين من مرض او موت وما لقيه من حسن تقدير من غوردون جعله يتنمر ويرفع رأسه ويرجع لطرقه القديمة ولكن عين غوردون ساهرة واقفة له بالمرصاد فأقيل من منصبه ووضع تحت الحراسة ريثما يرسل للخرطوم معزولا .

نقل العاصمة الى اللادو

رأى غوردون ان ينقل عاصمته من محيط غندوكرو الوخيم المحاط بالبرك والمستنقعات وبؤر الناموس والحشرات الى منطقة عالية خالية نوعا ما منها فاختار الرجاف اول مرة ولكنه عدل عنها ونقل الى جبل اللادو . وهناك بدأ بتنفيذ اهم الاغراض التي تعاقد من اجلها مع الحكومة والتي تحويلها التعليمات الخديوية وهي فتح الطريق الى البحيرات وتأسيس محطات عسكرية قريبة من بعضها لتكون خطا متصلا من المواصلات وكان في ذلك الوقت صديقه ومعاونه جسي يقيم في الخرطوم وكيلا عنه واسماعيل ايوب باشا شغل بحملة دارفور وغادر مقر الحكمدارية الى الجهات الغربية .

تأسيس المحطات العسكرية

وقد نجح في تأسيس محطات عسكرية عديدة تصل الى قرب البحيرات ونجح في أمر له اهميته وخطورته وهو جذب قلوب الاهلين حتى انهم بدأوا

يتعاملون ويتعاونون مع الحكومة بدلا من مواقفهم العدائية زمن بيكر ونجح غوردون لدرجة ما بأن علم الاهالي استعمال النقود وبوجه الاجمال كانت خطته حسب التعليمات التي تلقاها خطة مسالمة وتأمين لا خطة فتح وقهر الا ان العوارض الطبيعية وقفت امام طريقه ولم تتركه يحقق كل الاهداف التي من اجلها عين فهذه الامراض قد اعترت اعوانه وهذه الشلالات جعلت بواخره لا تتعداها الا بنقل الأجزاء وربطها مرة اخرى فوقها ثم عداوة قبائل انيورو وملكها كباريجا وأخيرا تمرد امتيسة وقبائل اوغندة جعلت ضم البحيرات بصفة نهائية امرا صعب المنال بالرغم من تأسيس الحاميات لوقت ما في منطقتها واذا هو لم يحالفه النجاح في ضم اونيورو واوغندا نهائيا الا انه تمكن من استكشافات البحيرات وفي النهر الذي يصل البحيرتين ورسم خريطة لها اضبط مما قبلها من الخرائط .

اقتراح طريق الساحل

ولعل اهم مسألة كانت تتوج نجاحه لو تمت هي علاقته بأوغنده واقتراحه لايجاد طريق يمتد من البحيرات شرقا الى الساحل . فبعد ان اقام غوردون بضعة اشهر في مديريته ورأى بعد الشقة بينه وبين الخرطوم ثم الصعوبات الطبيعية بينه وبين البحيرات من شلالات واعشاب ومستنقعات وقبائل متوحشة قد تقطع الطريق في اي لحظة . ثم ان مؤنه وذخائره وعتاده الحربي لا تصل الى الخرطوم الا بعد ان تجوب طرق النقل المختلفة من سكك حديدية وبواخر نيلية في مصر الى قوافل صحراوية بالجمال الى بربر وبالنيل ثانيا الى الخرطوم . كل ذلك جعله يتجه بأفكاره نحو فتح طريق الساحل الشرقي لافريقيا .

وعندما اختمرت الفكرة في رأسه ابرق للخديوي بها وتتلخص في ان يرسل الخديوي حملة من مصر الى خليج ممباسة وتأخذ الحملة طريقها من

الساحل غربا ويأخذ هو طريقه من البحيرات شرقا حتى يلتقيا ويتم فتح طريق هو المنفذ الطبيعي كما يرى للعالم المتمدن لا طريق النيل . وقد رحب الخديوي بالفكرة وفي الحال بعث بقوة على رأسها ماكلوب باشا ورست في خليج ممباسا .

علاقات امتيسة الاولى

مما جعل انتهاج تلك الخطة امرا في حيز الامكان ما ابداه امتيسة ملك اوغنده من رغبته في الاتصال بمصر فهو قد ارسل سفراءه كما قدمنا ليقابلوا بيكر ولكنهم وجدوا غوردون وقدموا هداياهم كما امر بل طلب امتيسة من الجناب العالي ان يبعث له بعالمين يهتدي عن طريقهما الى الدين الاسلامي ولم يكن احسن وقعا على اسماعيل من هذا الطلب وسرعان ما بعث الى الحكمدارية بتنفيذه ونفذ على وجه السرعة . وها هو لونج يغادر غندكرو اول ما وصل غوردون اليها في سفارة لامتيسة ردا لزيارة سفرائه ويحسن الملك وفادة السفير ويتخلص السفير اخيرا لأن الملك يرغب في بقائه معه مدة اطول ورجع بعد ان توثقت العلاقات ويقدر لامتيسة ان يدخل الدين الاسلامي ولكن الظروف السياسية والدينية تغير الامور الى مجرى آخر .

وقد تركنا حملة ماكلوب تلقي احمالها في خليج ممباسا وهنا شعرت انجلترا برغبة الخديوي في التوسع وفي الحال اوعزت لسلطان زنجبار ان يحتج لهذا الاعتداء وهي من جانبها قد ضغطت على اسماعيل بان يسحب جنوده وقد فعل . وقد تركنا امتيسة يتلقى تعاليم الاسلام فاراد غوردون ان يجعل حبل الود متصلا بينه وبين امتيسة فارسل سفارة ثانية على رأسها ارنست دي بلفون ابن لينان باشا ومعه ثلاثون جنديا وقوبل ايضا بحفاوة وترحاب مثل ما قوبل بهما لونج قبله .

ستانلي في بلاط امتيسة

ولكن هذه المرة حل ستانلي ببلاط امتيسة ولم يكن الاخير يطمئن لدين واحد ودفعته غريزة حب الاستطلاع ان يسأل ويستفهم عن الدين الثاني الذي يمثله ستانلي وتمكن هذا بلباقته وقوة تأثيره ان يجعل الملك المتقلب الاهواء يقبل دين النصرانية ووسع معلوماته عن المسيحية من المسيحي الجديد وهو ارنست واستمر هذا حقبة مع الملك تارة يعلمه الجغرافيا والفلك وطورا يرد على اسئلته المتعددة المتكررة عن الممالك الاوربية وقوتها وطورا آخر يسأله عن معلومات دينية مسيحية واخيرا طلب الملك من السفير ان يحالفه في حرب ضد خصمه كباريجا ملك اونيور ولكن السفير رفض لانه لا يقبل على خطة كهذه الا بامر من رئيسه غوردون .

رجوع ارنست

واخيرا غادر ارنست بلاط الملك دون ان يعينه على خصمه وكذلك لم يرض عنه ورجع بجنوده الى محطات مديرية خط الاستواء بعد ان صادف في طريقه الكثير من العقبات الطبيعية والانسانية وقدر لهذا الفرنسي الشاب ان يفجع فيه والده كما فجع في اخيه الذي مات في ايام غوردون الاولى في غندوكرو اذ قتل في حرب ضد قبائل معادية وهو قريب من مكان غوردون. وعندما جهز ارنست للدفن . وجد غوردون في جيبه خطابا من ستانلي الى انجلترا يهيب فيه بالرأي العام الانجليزي ان يرسل بعثات تبشيرية لاواسط افريقيا ويرى انها فرصة ذهبية لفتح تلك المجاهل المسيحية . فبعث غوردون بالخطاب للخرطوم ليرسل منها الى مصر فانجلترا وقد استجاب الرأي العام الانجليزي استجابة سريعة وتدفقت بعثات ارساليات الكنيسة الانجليزية على اواسط افريقيا .

احتلال لوفندة والانسحاب منها

حدّت مطامع الخديوي في شرق افريقيا تحت ضغط انجلترا وقدر لمصر ان تنكب مرة اخرى في مركزها في البحيرات الاستوائية فقد تقدم ان امتيسا ظل صديقا للحكومة المصرية وطلب من غوردون ان يجعل في مقره روباقا نقطة عسكرية كان مقررا لها ان تبقى في اوردجاني شمال روباقا واجابة لطلبه اسست الحامية المصرية وعددها ١٦٠ جنديا في عاصمة امتيسا ورفرف العلم المصري فوق ساريته وقائد الحامية النور افندي محمد . وبعث غوردون بهذا الخبر للجناب العالي كدلالة على ان امتيسة قبل الحماية المصرية . غير ان اهواء امتيسة المتقلبة جعلته يقلب ظهر المجن للحامية المصرية وقطع عنها الامدادات وتركها في هيئة حصار حتى ان النور افندي قوى حصنه وخف بنفسه لمقابلة غوردون ووجد آنذاك في فويرا يعمل في مساحة نهر فكتوريا فعرض عليه الامر وقد فكر غوردون ان يذهب بنفسه لامتيسة بمن معه من الجنود ولكنه رأى ان من معه من الجند قليل اذا اراد لامتيسة التراجع عن موقفه بالقوة ثم انه لم يخطر بباله ان مهمته هي الفتح عنوة ورأى لذلك ان يكتب خطابا للدكتور امين الذي كان في بلاط امتيسة آنذاك موفدا من غوردون وقد كان شاهد عيان لحصر الجنود المصرية يطلب منه التوسط لدى الملك بفك الحصار عن الحامية ليباشر بعدها النور افندي سحب جنوده ومعداتهم . وتم سحب الحامية من عاصمة امتيسة وطوت علمها .

وكان لغوردون ان يبرق للجناب العالي بما جد من موقف امتيسة وبقراره لسحب الحامية فورد له تلغراف من الخديوي تنم لهجته عن الغضب وعدم الموافقة لهذه الخطوة اذ يقول فيه (١) قد علم من تلغرافكم ان السلطان امتيسة متظاهر لكم عدم صداقته وفرغت امنيتكم منه وارادتكم

(١) دفتر ٣١ عابدين صادر تلغرافات شفرة نمرة ٣٢١ ص ٧ .

ترجيع عساكرنا من طرفه وحيث انه بناء على التلغراف السابق وروده من طرفكم المتضمن قبوله تبعية الحكومة ورغبة اقامة عساكرنا بطرفه ومـا اوريتموه من المدح في حقه صار اعلان ذلك لسائر القناصل رسميا مع اعلانه بالجرانيل فلهذا اذا كان يصير ارجاع العساكر من طرفه الآن وترك امتيسة يكون ذلك امر بارد في حق الحكومة فلذلك صار استمرار اقامة عساكرنا في كرسي بلاد امتيسة من الضروري وبحسب المعلوم فيكم من حسن الادارة مأمول النهو لا يستصعب عليكم اجراء الطرق والوسائط لجذب قلبه وميله وتأليفه لجهة الحكومة واذا كان سبق ارجاع للعساكر الذيـن كانوا بطرفه لتعملوا كل الجهد في ارجاعهم كما كانوا على كل حال فان جل المقصود استمرار تبعية امتيسة المذكور واثباته تحت طاعة الحكومة » .
فقد يكون امتيسة راغبا في مساعدة اولئك الجند له في قتال اعدائه كما طلب من ارنست قبل ذلك ولم يجد منهم ما يطلبه وقد يكون غير رأيه في احتمائه بالحكومة المصرية بعد ان علم ان هناك حكومات اقوى واكبر منها حسب ما استقاه من معلومات وقد تكون الدسائس السياسية غيرته مثلما غيرته الدسائس التبشيرية .

غوردون يبرر موقفه

ولم يغفل غوردون الرد على تلغراف الخديوي بل برر موقفه وشرح الاسباب بقوله « [1] اخبرت الحضرة الخديوية فيما سبق عن ترجيع العساكر بالثاني الذين كانوا بروباقا وكان ذلك ضروري لان امتيسة تركهم بدون مؤونة وابتدأ يضرب السلاح ليلا كي يرعبهم واراد ان يغريهم بكثـرة الرشوة لاجل ان يقيموا بطرفه واتفـق بالسر مـع كباريجا ضدنا وضد العسكر » وبعد ذلك وصل غوردون الى مصر وقابل اسماعيل وهو مصمم

(1) دفتر ٤٢ عابدين وارد تلغرافات ص ٢٠٥ شفرة نمرة ١٢١ .

الا رجعة للسودان غير انه تحت تأثير الخديوي وسحر كلامه وعد بأنه سوف يرجع مرة ثانية وابحر لانجلترا بعد ان قام برسم خرائط واقامة عشر محطات يرفرف فوقها العلم المصري في مديرية خط الاستواء .

امبراطورية اسماعيل وحكمدارها غوردون

اتساع الامبراطورية

بعد ان تم فتح دارفور وبعد ان اسس غوردون محطاته العسكرية صاعدة في النيل الى قرب البحيرات ـ بل بقيت نقطة النور افندي في روباقا على شاطىء فكتوريا مدة من الزمن ـ وبعد ان اتسعت الفتوحات في شرق السودان وضمت اراضي ارتريا الحالية وجزء من السومال وهرر في الحبشة وصلت امبراطورية اسماعيل الى قمتها واصبحت املاكه تبدأ من ساحل البحر الابيض المتوسط الى خط الاستواء ومن سواحل البحر الاحمر الى شرق بحيرة شاذ .

غوردون ينوي قطع صلته بالسودان

تركنا غوردون في الفصل السابق ينعم باجازته في انجلترا بعد ان اعطى وعـدا بالرجوع لاواسط افريقيا ولكن في الاسابيع الثلاثة الاولى مـن اقامته بعد ان وصل في عيد الميلاد ظل يفكر في مستقبله ، وقد ظن ان وزارة الخارجية ربما تعرض عليه منصباً يغنيه من الرجوع الى السودان ، واقترحت جريدة التايمز للحكومة ان تستغل مواهب غوردون وخبرته في بلغاريا حيث توترت علاقاتها مع تركيا . وفعلا اخذت الوزارة بالرأي ودعا اللورد دربي غوردون للاجتماع به ، خرج بعدها وقد كتب الى فيفان قنصل انجلترا العام

في مصر بأن يخبر الخديوي انه لا يستطيع الرجوع الى مصر غير ان اقتراح بعثته لبلغاريا لم ينفذ لعقبات سياسية اعترضت طريقه . وهنا بعد ان فشل الاقتراح وبعد ان كتب للحكومة المصرية بقطع علاقاته معها بدأ فكره يتجه الى تنفيذ خطته التي لم يكتب لها الخروج الى حيز التنفيذ اثناء حكمه لخط الاستواء وهي فتح طريق من الساحل في شرق افريقيا الى منطقة البحيرات بتجهيز حملة الى زنزبار والحصول على امتياز سلطانها وقيادة تلك الحملة مع صديقه جسى الى الداخل وكل ذلك بمعاونة مستر وليم ساكنون الذي اصبح من ضمن المؤسسين بعد ذلك لشركة شرق افريقيا الانجليزية .

غوردون يرجع الى السودان

وقد اجبرت الاقدار غوردون ان يرجع للسودان لان اسماعيل رأى خطابه الى فيفان وسطّر في الحال خطاباً له مبدياً استغرابه لرفض غوردون بعد ان اعطى كلمة شرف بالرجوع ، وكان ظنه في صديقه الا يخلف ما وعد به . وقد فعلت هذه الكلمات السحرية فعلتها في نفس غوردون ، وترك مشروعه جانباً وعزم على السفر الى مصر . وفي اليوم المقرر لابحاره قابله صديقان وتحدثا معه وتحدث معهما في امر الرجوع ونصحاه بأن يطلب من الخديوي ادارة السودان باكمله لا خط الاستواء وحدها حتى يتمكن تمكناً فعليا من ابطال تجارة الرقيق ، وراقت الفكرة لغوردون ولكنه ظن ان طلبه هذا سيقابل بالرفض وكتب لاخته قبل ان يغادر الاراضي الانجليزية بأنه سيطلب من الخديوي كل السودان ويرجح ان طلبه سيكون نصيبه الرفض وعليه سيقفل راجعاً ويراها في ظرف ستة اسابيع .

غوردون يعطي السودان

قابل الخديوي في ١٣ فبراير سنة ١٨٧٧ وبحضور شريف باشا اجابه لما

طلبه بل عينه حكمداراً على عموم الاقاليم السودانية بسلطات لم تعط لحكمدار قبله ، ولفت نظره لامرين هامين وهما الغاء الرق وتحسين المواصلات . وعندما وقع اسماعيل على فرمان التولية كتب غوردون ما نصه :
« وقع سموه اليوم على الفرمان ولقد اندهشت للسلطة الهائلة التي وضعها في يدي . وبعد هذا سيقع اللوم على عاتقي اذا لم تبطل تجارة الرقيق وتتصل اصقاع السودان مع الخارج ».

غوردون في شرق السودان

لم يبق في مصر الا ريثما يتم استعداده ووضع برنامجاً بمقتضاه يزور كل شبر من حكمداريته الواسعة وأبحر في باخرة على البحر الاحمر ويمم وجهه شطر مصوع ليبدأ رحلة تفقده لرعاياه وليحاول حل مسائل الحدود المعلقة مع الحبشة ان امكن كما امره الجناب العالي . وعندما حل بمصوع تهافتت عليه البرقيات من الفاشر تنبئه بهجوم قبائل زغاوه وميدوب على حاميات الحكومة وتعلن له ثورة هارون احد امراء دارفور المالك ، وقد نجح في ثورته حتى انه عزل الحاميات من بعضها البعض وبذا انقطعت مواصلاتها وتجمل له الحالة بصفة عامة على ان ما بدارفور من جند لا يكفي لرد عادية حوادث العصيان والتمرد هذه وترد له التلغرافات ايضاً من الجناب العالي يقترح عليه اصدار الاوامر لجماعة الزبير في شكا وبحر الغزال وقبائل حمر والكبابيش في كردفان عد يد المعونة لاخماد تلك الثورات .

كان رد الفعل الذي ابداه غوردون هو ان حالة الخطر مبالغ فيها وان حاميات دارفور بها ثمان اورط بيادة وتسعة ارادي باشبوزق ترك ومولدين ومغاربة وسبعة سواري شايقية وعشرين مدفعاً ولا يدخل في روعه ان تلك القوة في حاجة لمدد بل العجز في قيادة حسن باشا حلمي ، وكان الاجدر به ان يخصص فرقتين سيارتين وان يترك قوات بمراكز الحكومة للدفاع . وعملا

بالارادة السنية بعث لعوض افندي مأمور ادارة بحر الغزال وسليمان الزبير والنور عنقره وادريس ابتر ، كل منهم يرسل قوة تتراوح ما بين الف والف وخمسمائة لجهات دارفور .

اهتمام الخديوي بخط الاستواء

وقبل ان يغادر غوردون مصوع الى الخرطوم ابدى الخديوي اهتماماً عظيماً بخط الاستواء بالمحافظة على ما تم فتحه وبالتوسع فيما وراء ذلك واقترح على غوردون ان يعين حاكماً لتلك الاصقاع يثق به حتى يسبق الشركة الانجليزية التي اسست حديثاً لارتياد شرق افريقية وهذا هو نص المكاتبة : «[1] بالامس صار اخطار جنابكم عما اقتضى عن تعيين مأمور من ذوي الدراية الموثوق بحسن ادارتهم وارساله لجهة خط الاستواء للقيام باكمال حسن سيرها وانتظامها وحيث انكم لما كنتم بهذا الطرف بعد حضوركم من لوندره خبرتونا عن وجود قومبانية مشكلة على نية التوجه من جهة زنجبار الى جهة اللاك Lake وانه يقتضي المبادرة والمسارعة ما امكن لضبط هذه الجهة قبل وصول تلك القومبانية اليها فينبغي ان تتذكروا هذه المادة وما يجب اجراؤه فيها والمأمور الذي تعينوه يكون فيه الكفاية لها ولخلافها من الامور المهمة بتلك الجهات يكون معلوم » .

اما غوردون فلم ير شخصاً يعول عليه في تلك المهمة ورد بأنه سوف ينهض بنفسه لتلك الجهات بعد ان يعود من دارفور غير انه بعد وصوله الخرطوم بعد ذلك طلب تعيين برواتي بك، وغادر مصوعا بعد ان اقترح تعيين عثمان رفقي[2] باشا فريقاً على جميع العساكر بعموم الاقاليم السودانية وكان

---

(1) دفتر رقم ٢٢ عابدين صادر تلغرافات . تلغراف عربي رقم ٢٨٥ ص ٥٦ بتاريخ ٢١ ربيع الاول سنة ١٢٩٠ .

(2) هو نفس عثمان رفقي ناظر الجربية الذي ثار ضد عرابي وصحبه .

اذ ذاك بمصوع وطلب ايضاً ارجاع المرتبات التي كانت تعطى للعلماء والفقهاء من احسانات ولي النعم ولكنها قطعت مدة ممتاز واسماعيل ايوب . وقد طلب وهو في طريقه رتباً لمحمود ود زائد ناظر الضبانية وللشيخ عوض الكريم ابو سن ناظر الشكرية .

اقتراحاته لابطال الرق

ظل شهرين في الطريق من مصوع حتى وصل الخرطوم في ٤ مايو سنة ١٨٧٧ وهناك قوبل بحفل رسمي واطلقت احدى وعشرين قذيفة مدفع تكريما لحلول ركابه العاصمة . وفي الحال امر بعمل صندوق يوضع خارج الحكمدارية لتلقي فيه عرائض التظلم والشكوى ونظر في الامور المستعجلة ، ثم وضع مشروعا اوليا بالغاء الرق وضعه في تسع بنود ابرق فيها للخديوي للموافقة ويتلخص المشروع في اعتراف الحكومة بتملك الرقيق الحالي لمالكيه ولكنها تمنح المملوك ورقة العتق اذا ما ثبتت سوء معاملته وتسهيلا لذلك يطلب من المالكين تسجيل رقيقهم في مديرياتهم المختلفة بموجب تذكرة يحملونها باسم المملوك واوصافه . وحددت مدة ينتهي فيها تسجيل التملك ويستمر الملك لمدة اثني عشرة سنة في السودان ليصبح المملوك بعدها حرا . غير ان هذه المقترحات لم تنفذ في الحال ولكنها ضمنت في مشروع كبير انتهى بمعاهدة بين مصر وانجلترا بشأن الرقيق .

غوردون يسافر لدارفور

مكث اسبوعين فقط في العاصمة وغادرها في ١٩ مايو وبرفقته ثلاثمائة من جند واتباع لدارفور التي ازعجته اخبارها منذ ان حل بمصوع . وقد بدأ يوجس خيفة من سليمان الزبير بما نقله اليه بعض الوشاة فكتب للمهردار

بخبر تباطؤ سليمان رغما عن اصدار الاوامر له بنجدة حاميات دارفور . فقد اشتم غوردون من تلغراف بعث به سليمان يعتذر عن التأخير ويطلب ردا لذلك احضار سليمان محبوسا من تلك الجهة وترقية كل من ادريس ابتر والنور عنقرة لاستلام جنود سليمان ولكن الجناب العالي لم يوافق على هذه الخطة بقوله « [1] واما من جهة طلب ابن الزبير باشا بهذه الصورة هذا يلزم ابتداء دقة التأمل والتبصر في عواقبه واتخاذ الاحتياطات الكافية من انه ربما يكون له هناك عزوة ويتعضد بشخصيات ويترتب على ذلك نوع عصيان واخلال راحة تلك الجهة فينبغي انه بعد امعان نظر التدقيق في ذلك يفاد عن افكاركم في هذا الخصوص » .

مخاوفه من سليمان الزبير

يرجع غوردون عن رأيه ويوافق ان يحكم في امر كهذا بعد ان يذهب لدارفور ويرى بنفسه فيما اذا كان ابن الزبير حقيقة ينوي الغدر او هي مجرد تهمة الصقت به من الوشاة وعندما وصل الابيض ترامى اليه ان سليمان اختلف مع العوض افندي وادريس ابتر وتفاءل غوردون من هذا الاختلاف لانه اضعاف لقوة ابن الزبير واقترح من جديد ان يرسل الزبير لهؤلاء بتلغراف يطلب اليهم مساعدة الحكومة والخديوي لا يرى ذلك . وقبل ان يغادر الابيض حرضه الوشاة كما يظهر ، وكتب عن سليمان قبل مقابلته ما يلي « [2] ثم اعرض ان سليمان افندي ابن الزبير باشا هو ولد صغير وليس معتقل واشغاله جميعها هي اشغال مجانين ويستصوب ان يعين الياس بك الحائز للرتبة الثانية مديرا على جهة شكا ويلتمس الاحسان عليه برتبة اللواء وهو صهر الزبير ونافذ الكلمة ، وتعيين ابن الياس محمد افندي وكيلا لابيه بجهة شكا ومحمد احمد امبرير ابن اخي الياس يكون مأمور ادارة بندر الابيض » ، ولم يتم تعيين الياس باشا لشكا بل تم لكردفان .

(١) دفتر ٣٢ عابدين صادر تلغرافات .
(٢) دفتر ٤٩ وارد تلغرافات .

آراؤه لسياسة دارفور

غادر غوردون الابيض متجها صوب دارفور يحمل فكرتين اساسيتين اولهما ان ابن الزبير صغير السن وغير موال للحكومة والثانية ان عصيان اهالي دارفور مرده لثقل الضرائب وسوء معاملة الاهلين فعلاجا للحالة الاولى رأى ان يرفع من شأن خصوم الزبير وابنه وهما العوض افندي وادريس ابتر ، وللحالة الثانية رأى تخفيف الضرائب وتطمين الاهالي واعطاء الرتب والنياشين للبعض وتعيين البعض الآخر من البارزين في وظائف الحكومة وتعيين الياس ام برير كان الخطوة الاولى نحو هذا الاتجاه . ويرى كسياسة عامة ايضا تجنيد العساكر في السودان من السودانيين والاستغناء عن الجنود المصريين ، لانه كما يرى يجب على الآخرين التفرغ للزراعة والفلاحة في بلادهم .

تحامله على سليمان الزبير

كان تحامله على سليمان ظاهرا اذ انه حكم عليه بالمماطلة من اختلاف التاريخ في خطابين ، وصرح بأنه ينوي اضعاف قوة الزبير من التلغراف الشفرة الآتي الى الخديوي [1] وبوصولنا دارة وجدنا جوابين واردين من سليمان بن الزبير باشا احدهم لمدير دائرة مؤرخ في عشرين جماد آخر يذكره فيه انه سيحضر بنفسه بعساكر الامداد لدارفور في ٢ رجب ومعه حامد مزمل وموسى ولد الجاز اللذين هما من روس البازنقر ، والجواب الثاني بالتاريخ المذكور الى حسن حلمي باشا ففتحناه ووجدنا انه مذكور لنا فيه بأنه سيحضر بالامدادية لدارفور في اثني عشر رجب ومن الاختلاف الحاصل في قوله بجوابين علم لنا انه مماطل ويريد امتداد الوقت بدون ثمرة

(1) دفتر ٧، عابدين وارد تلغرافات .

وعلى هذا حررنا له بالاستغناء عن حضوره في الامدادية لدارفور وانــه يفضل في محله . فقط حررنا للنور عنقرة ان يحضر الدارفور بقدر الــف وخمسمائة نفر بازنقر ويستصوب تعيين النور عنقرة مديرا لدارة لجذب جزء من البازنقر اليه شيء فشيء وتضعف قوة جماعة الزبير باشا » ، وقد استلم سليمان هذا الامر المنوه عنه في تلغراف غوردون السابق ، وكان يتقدم فعلا لنجدة دارفور في طريقه ما بين شكا ودارة ولكنه بقي هناك لان الامر يمنعه من التقدم .

خطة اذلال سليمان

وصل غوردون دارة وبقي فيها حينا وغارقها شمالا غير ان الاخبار ترامت اليه بان سليمان ينوي الهجوم على دارة واعلان عصيانه . ففــي الحال رجع الى المحطة وذهب بحرس قليل لمعسكر سليمان جنوبي دارة وبعد مناقشات طويلة قبل سليمان الذهب باهله واكابر اتباعه الى دارة للتفاوض معه ، وقد انفصل النور عنقرة بعدد من البازنقر وانضم نهائيا الى الحكومة وبعد المفاوضة رجع سليمان الى شكا . ولم يكتف غوردون بذلك بــل لحق بسلبمان في عرينه واصدر امره له بالذهاب الى بحر الغزال وامره ان يخدم تحت امرة ادريس ابتر الذي عين مديرا قبل ذلك . نزل هذا الامر نزول الصاعقة على سليمان الشاب وما كان يخطر بباله ان ترغمه الظروف حتى يخضع لسلطة ادريس الذي كان الى وقت قريب يأتمر بأمره وبقدر ما حاول سليمان ان يثني غوردون عن عزمه وان يعطيه الرئاسة والقيادة لم يتزحزح غوردون عن موقفه وافهمه ان الرئاسة والقيادة لا تسلم له الا بعد ان يبرهن كفائته واخلاصه في منصب المرءوس .

تعيينات ورتب ونياشين

وتنفيذا لرغبة غوردون في تطمين الاهالي واسناد بعض الوظائف للسودان فانه عين محمد بك الخبير وكيلا لمديرية دارة ، ثم قرر تعيينه مديرا لدارفور عندما لحمد نورة هرون وعدل هذا ايضا باسناد دارفور الغربية اليه وعين اخاه حمزه امام مديرا للفاشر ومحمد خالد زقل وكيلا لمديرية دارة والطيب العريق معاونا لعموم دارفور ، واغدق على كثيرين الرتب والنياشين من زعماء القبائل ومشايخها وكبار التجار فلم يترك شيخا او تاجرا كبيرا الا وطلب له رتبة او نيشانا او الاثنين معا فأسماء مادبو وعجيل ومنزل واحمد هرون وعبد الرحيم ابو دقل واحمد خواف وغيرهم من الزعماء ظهرت في الانعامات . وبعد ان هدأت الاحوال في دارفور نوعا ما ــ غير انه لم يقض على حركة هرون بل حصرها في نطاق ضيق ــ امتطى هجينه راجعا للخرطوم وهنا صرف الاموال التي كانت تنتظره ووصلته ايضا المعاهدة الانجليزية المصرية بشأن ابطال الرق والتي تشمل في اساسها مقترحاته الاولى ورأى ان لا بد من اذاعتها على الاهلين فاذاعها .

رحلته الى دنقلا

ثم ذهب شمالا في باخرة نيلية لزيارة الجزء الشمالي من حكمداريته فوصل بربر ومنها عبر النيل غربا وامتطى الابل مخترقا الصحراء حتى التقى بالنيل مرة اخرى في مروى ودخل في مركب شراعي مع التيار وقد ازدحم الناس على الشاطئين يتظلمون من الانسان والطبيعة على السواء لان النيل لم يغمر اراضيهم كالمعتاد ونقصت اغذيتهم نتيجة لذلك ولم يشاهد الاهلون في دنقلا حكمدارهم سنين عديدة ولذلك كانوا يرجون ان يزيل ما حل بهم من ضائقة . وعندما وصل دنقلة وتهيأ لمواصلة السير شمالا ليتفقد

السكة الحديد وصلته الانباء بحدوث اضطرابات خطيرة في الحدود الحبشية فرجع ربقي في الخرطوم اربعة ايام ركب بعدها الجمل الى الشرق .

في السودان الشرقي ثانيا

وصل غوردون الى كرن وعلم بوجود ولد ميخائيل في معسكره في الجبال المشرفة على المدينة من الشمال وبعث اليه بالنزول الى كرن لمقابلته . غير ان ولد ميخائيل اعتذر بالمرض وعندئذ قام غوردون بعشرة اشخاص فقط رغم معارضة من معه وصعد للمعسكر وكانت مقابلة ودية في ظاهرها وبعد حين كان هو وصحبه في شبه سجن بضعة ايام رجع الراس بعدها الى صوابه ودخل في شبه اتفاق معه . استمر غوردون في طريقه الى مصوع ثم منها الى سواكن وطلب هناك الانعام على عدد من مشايخ شرقي السودان . ومن سواكن امتطى الابل الى بربر ومنها للخرطوم .

حالة الزبير في القاهرة

تركنا الزبير بصل القاهرة بما معه من هدايا عديدة للخديوي وفي الحال احيط بجو من الكتمان والدسائس التركية لم يألفها ، واتصل به اسماعيل صديق المفتش واستصفى لنفسه ما شاء من هدايا الزبير وامتعته وكانت مقابلته مع الخديوي وديـة الا ان محاولته للرجـوع كلها ترد بطريقـة دبلوماسية . وعندما قامت الحرب بين روسيا وتركيا ذهب في معية حسن باشا قائد النجدة المصرية للسلطان ورجع الزبير من تلك المهمة مريضا فأبرق الخديوي لغوردون يستفهم عما اذا كان يوافق على رجوع الزبير للسودان نظرا لمرضه .

غوردون يرفض

رد غوردون بان الزبير كان متهما بالاستقلال عن الحكومة ولا يخشى منه ضرر طالما انه (غوردون) يأخذ بزمام الامور بالسودان اما اذا ترك البلاد فقد تحدث الزبير نفسه بشيء ولا يجد في البلاد من يضمن حسن سلوكه ثم ان جميع الحكام ابناء العرب حسب رأي غوردون عائمـون في رجوعه ابرق بهذا الرد وهو في مأمورية في الخارج وعندما وصل الخرطوم استشار البعض واجمع المستشارون على ان وجود الزبـير في دارفور او كردوفان او شكا او بحر الغزال غير مرغوب فيه ورد بصفة قاطعة على ان لا يداعب الامل مرة ثانية الزبير في الرجوع واختفى اسم الزبير حتى يلمع ويظهر مرة اخرى اثناء ثورة ابنه وبعد سياسة اخـلاء السودان وبعثـه غوردون .

اسماعيل يطلب غوردون للمشاكل المالية

ما ان استقر غوردون في الخرطوم حتى استلم تلغرافا يستدعيه فيه الخديوي الى القاهرة ليكون عونا له ضد ذوي المطامع من دائنيه حيث يكون رئيسا على لجنة تبحث في ايرادات الحكومة المصرية . وخف غوردون لتلبية الطلب ولو انه لم يكن في صيغة امر ، بل في قالب رجاء . وعندما حل بالقاهرة وجد ان المسألة تعقدت ودخلت فيها السياسة الدولية وتشابكت الدروب والمسالك فرأى ورأى اسماعيل معه ان يتنحى عن تلك المهمـة واخضعت السياسة الدولية اسماعيل لما كانت تريد منه ومن مصر وهـذه المسألة تبين بجلاء ثقة اسماعيل في غوردون على انه الرجل الشريف الوحيد من الاوروبيين الذي يلتجىء اليه عند الضرورات .

الاقتصاد في النفقات

غادر مصر بطريق البحر الاحمر لزيارة اقليم الصومال ومنها اخترق الجزء الشرقي من حكمداريته حتى وصل الخرطوم وبقي فيها هذه المرة اطول مدة اقامها في مركز حكمداريته اذ انه ظل تسعة اشهر لم يبرحها . وشغل في تلك الفترة بمالية حكومة السودان اذ نبهته زيارته لمصر بصدد الارتباكات المالية الى ضرورة فصل مالية السودان عن مصر حتى لا تمتد ايدي الدائنين الى الخرطوم وقد نجح في ذلك ورأى اداريا ان يفصل الصومال عن الحكمدارية لانه عبء مالي عليها ورأى ايضا ان يوقف التوسع في الجنوب لان ذلك يتطلب مصاريف باهظة فجعل نقطة مرولى التي تبعد عن بحيرة فكتوريا مائة ميل شمالا آخر محطة للحكومة المصرية وبالرغم من انه اوكل للدكتور امين امر الاتصال الودي مع كباريجا وامتيسة في اول الامر تمهيدا لبسط السيادة المصرية على منطقة البحيرات الا انه ثناه عن هذه الخطة اخيرا .

ورأى ايضا توفيرا للنفقات ان يقف العمل في مد السكة الحديد بعد ان امتدت خمسين ميلا جنوبي وادي حلفا لان مالية السودان لا تسمح باستمرارها ولأن الخزينة المصرية التي يسيطر عليها الدائنون لا تمده بعون ما . وكان غوردون في كل اجراءاته المالية يرمي الى استقلال المالية السودانية عن مصر وهذا ما دعاه الى وقف التوسع والاصلاحات واتجهت نيته حينا ان يعطي دارفور لاحد ابناء السلاطين حتى تتخلص المالية من مصروفاتها . وشغل ايضا في تلك الفترة بالضرب على تجارة الرقيق ونجح الى حد ما في وقفها حتى انه تمكن من ضبط اثنتي عشرة قافلة من الرقيق في ظرف شهرين وبقدر ما كانت سياسته ترمي في اوائل عهده بالحكمدارية الى تعيين السودانيين بقدر الامكان في الوظائف انصرف الآن عن تعيين ابناء العرب عموما مصريين وسودانيين ، وظل يطالب بتعيين اوربيين وخاصة في الاصقاع

النائية كدارفور وبحر الغزال لانه اعتمد عدم اخلاص ابناء العرب في تنفيذ اجراءات تجارة الرقيق .

اختلافه مع وكلائه

واختلف مع خالد باشا الذي قـام بأعمال الحكمدارية مدة غيـاب اسماعيل ايوب في دارفور ثم عين وكيلا رسميا لغوردون واخيرا استدعى لمصر ، وقد ذكرنا قبلا انه عين عثمان رفقي قومندانا للعساكر في السودان فعندما خلت وظيفة وكيل الحكمدارية عينه فيها زيادة على قيادته للجند واثناء غيبة غوردون في مصر لمأمورية اسماعيل المالية ، استبد عثمان رفقي بالامر وارتكب من الاعمال ما اثار عليه ثائرة سكان الخرطوم ومد يده للرشوة فاكتنز رقما لا بأس به من الريالات وخالف اوامر غوردون لـه بالذهاب لدارفور لانهاء مسألة هرون الثائر غير ان رفقي باشا اعتذر متعللا بالمرض وبلغ التوتر بين الحكمدار ووكيله حدا جعل غوردون يقترح رد النياشين منه وانتهى الامر باستدعاء عثمان رفقي الى مصر ليجد طريقه في المناصب الحكومية العليا حتى يصبح ناظرا للحربية وبـدأت في نظارتـه الحوادث العرابية .

حركة سليمان الزبير

تركنا سليمان آخر مرة يؤمر بالذهاب الى بحر الغزال رغم انفه ويقبل رئاسة ادريس ابتر على مضض منه ، لا لان ادريسا كان تابعا لوالده وله بل لأنه اول الداسين في الزبير وابنه وتخاطب سليمان مع والده بذلك وكان الوالد يأمر ابنه بالطاعة للحكومة والامتثال لاوامرها وفي نفس الوقت يحرضه على ادريس وعلى القضاء عليه ، ولكن ادريس هو المدير الرسمي

المعين من قبل الحكومة فهناك تعارض نوعا ما بين تأدية الطاعة والـولاء للحكومة ومحاربة ادريس ابتر . غير ان الزبير من تجاربه الشخصية لا يرى تعارضا حيث انه حارب البلالي وقتله بالرغم من انـه مندوب الحكومـة الرسمي ومع ذلك اظهر الخضوع والولاء لحكومة الجناب العالي ونال الرتب والنياشين منها . وقد ضبط خطاب وارد من الزبير لابنه بهذا المعنى وكان هو المستند الذي اعتمد عليه غوردون فيما اتخذه من اجراءات ضد الزبير كما سنبينها .

لم يحتمل سليمان الحالة التي وضعه غوردون فيها وخاصة رئاسـة ادريس أبتر وصبر على ضيمه مدة من الزمن ولكن الكيل قد طفح واخيرا انجرف في التيار الوحيد الذي يسلكه شاب في حـرارة سليمان واعتزازه بقوته وشن هجوما على زرائب ادريس ابتر بينما كان صاحبها بعيدا عنها وأظهر عداءه للمدير . ووصلت الاخبار الى مديرية خط الاستواء وبعثها مديرها بدوره الى الخرطوم وكذلك تأكد الخبر من السعيد بك حسين مدير شكا ووصفها هذا بأنها حركة ما بين سليمان وادريس أبتر مدير بحـر الغـزال .

اجراءات غوردون

نقل غوردون الخبر وما ينوي اتخاذه من اجراءات الى مصر بما يلي :
« [١] يوم تاريخه وردت لنا مكاتبة من خط الاستواء تفيد تأكيد ما بلغنا من ان ابن الزبير باشا تحارب مع مديرية بحر الغزال وأنه هجم على المركز وبارز بالعصيان ومستعد للمحاربة وقتل من قتله وأخذ ما اخذه من امتعته وأسلحة الميري ، وحيث الآن تأكد عصيان ابن الزبير باشا فاذا وافق يؤمر بقبض والده ووضعه بالحديد وضبط جميع نقوده وأمتعته الموجودة معه

(١) دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات بتاريخ ٧ يوليو سنة ١٨٧٨

كون بلغنا انه يوجد معه زيادة عن خمسة آلاف جنيه مع الترخيص لنا ببيع جميع امتعته الموجودة بالسودان وتوريدها للميري وضبط أقاربه وفامليته وسجنهم والا فالأمر مفوض » . ووصل الرد له بأن يعمل ما يراه للصالح العام اذ انه الحكمدار المفوض .

اصدر امره في الحال بضبط منازل الزبير بالخرطوم والجيلي والقبض على اخوانه واخواته وكل اقاربه اينما وجدوا ووضع الجميع في السجن . اما المنازل وما وجد فيها من اثاث بيع بالمزاد العلني وورّدت الأثمان للخزينة العامة وبعث غوردون بأن تضبط مراكب الزبير التي تعمل بين أصوان والمحروسة ، ولكن الزبير احتج على هذا الامر وبرهن للحكومة وأقنعها في مصر بأنه لا يعلم من امر ثورة ابنه شيئا وهو على استعداد على ان يحاكم اذا ما ثبت عليه شيء من هذا ولا يرى غضاضة في اي اجراءات تتخذ ضد ابنه اذا ما ادين بتهمة الخيانة والثورة . وورد للزبير من السودان خطاب طويل من احد اقاربه يشرح له ما حدث لأمواله وبيوته وأهله حتى النساء والاطفال من ضبط وسجن ، وكان للزبير ان يتأثر لا على الاموال ولا على الرجال ولكن على النساء والاطفال فأرفق القصة كما وردت في الخطاب بعريضة مؤثرة ورفعها للجناب العالي فتأثر الخديوي وأبرق لغوردون في الحال بألا يؤخذ الأب بجناية ابنه « وحيث كما لا يخفى على سعادتكم ان الزبير باشا المومى اليه بعد ان ادى خدمات مهمة جهة دارفورد قد حضر لهذا الطرف بالطوع والاختيار حتى انه في آخر الامر لما لم يساعد في العودة لأوطانه امتثل وأقام هنا بدون ان يبدي تردد ولا توقيف ، وفي هذه الحالة اذا نظر في تحقيق هذه القضية بالمجلس الخصوصي ضروري المجلس يحكم بما تقتضيه القوانين في عدم مؤاخذة الأب بجناية الابن الذي لا يكون له علم بها » .

اسماعيل يتدخل في الاجراءات

اما غوردون فلم يسلم بانقطاع الصلة بين الوالدوالولد في هذا الامر « والمومى منه بعدم العلم لا يلتفت اليه لان ولده لا يمكن اجرى اقل شيء الا بادنه » وعلى كل اذا رأى الجناب العالي ان يطلق ما ضبط من املاكه وما سجن من اقاربه فهو طائع للأمر ولكنه لا يكون مسؤولا اذا استمر تعدي ابنه على بقية الجهات . وأمر اسماعيل بالافراج عن الجميع واذا كان لدى غوردون مستندات تثبت علاقة بين الزبير وابنه فيما يتعلق بالثورة يبديها عند التحقيق .

منطق غوردون

اما غوردون فلم يقتنع بهذا المنطق وكتب بأن سجن اقاربه كان مجرد تهديد لابنه حتى يثوب الى رشده عندما يسمع بسجنهم ، وكتب يؤيد نظرية اشتراك الزبير في الثورة بقوله « [1] من خصوص الدلايل والمكاتبات المطلوب ابرازها منا للاستدلال بها على كونه متداخل مع ابنه فان عداوة المومى اليه مع الحكومة لم تحتاج لها طلب دلايل منا بل معلوم للخاص والعام وبسببه فضل بمصر واسماعيل باشا ايوب على حقيقته اكثر منا وضبط موجوداته وامواله هذا هو نظير حقوق الميري التي اخذها ولده والارواح التي قتلها من عسكر وغيرهم . كما لا يخفى ان الذي يتجارى على العصيان ويتعدى على حقوق الحكومة ويوجد له اقارب او اهل لا بد من ضبطهم رهينة وذلك سيما وان الزبير باشا جمع الاموال التي حصلها من شكا اكتسبها بنفسه ولم اعطي الميري منها شيء وانا متأسف على كونه يفضل لغاية الآن بدون سجن مع ما حصل من ولده وما هو مصمم على حصوله زيادة عن

(1) دفتر عابدين وارد تلغرافات بتاريخ ٢٤ اغسطس سنة ١٨٧٨ .

ما سبق » ومما اشيع ووصل اسماع غوردون عن الاسباب الدافعة لحركة سليمان ما نقله غوردون نفسه بتلغراف للمحروسة « [1] وقد بلغنا ان ابن الزبير باشا قال انه لا يحارب الميري وانه ما يخلصه ان احد الدناقلة يتعين مدير عليه والحقيقة لم تعلم وللاحاطة بما ذكر لزم العرض افندي » . وحتى بعدما سمعه من ان سليمان لا يحارب الحكومة وانه لا يرضى رئاسة ادريس أبتر فقط ، بعد هذا كله لا زال غوردون ملحا ومصمما على سجن الزبير بمصر او ارساله الى سواكن للحجز هناك تحت المراقبة .

غوردون يرضخ لقول الوشاة

ولعل اكثر دليل على ان غوردون خضع لقـول الوشاة واتخذ مـا اتخذ من اجراءات نزولاً على ارادتهم ما بعث به في الوثيقة التالية « [2] ان الزبير باشا عند قيامه للتوجه الى مصر اوصى ابنه واقاربه تحت شجرة بانه عند وصوله المحروسة ان لم يترخص بالعودة فسيخبرهم بالعصيان والمحاربة باشارة اجروا مقتضى وصية الشجرة ، وبعد اجـري ذلك يلتمس مـن الحضرة الخديوية تعيينه والياً على جهات دارفور وبحر الغزال وان لم يجد اجابة فيمكنه التوجه الى الاستانة العلية ويستحصل على المرغوب من حضرة مولانا السلطان لأن افندينا الكبير جنتمكان محمد علي باشا صار له امر من السلطنة العلية احدهم بالتفويض في توارث خديوية مصر والثاني بالتفويض له في امر جهات السودان مؤقت وحيث ان الموصـى اليه كان توجـه الى اسلامبول في وقت المحاربة وعاد سريعا ولم مدروك عندنا ان كان توجهه من تلقاء نفسه او امر به كما ولا نعلم مقابلته مع حليم باشا وعدمها وسبب شروع نوبار باشا في ارساله للسودان والحالة هذه صار ضبط الجواب المحرر منه لولده بأجرى وصية الشجرة فالأمل عرض ما ذكر على المسامع الزكية

---

(1) دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات بتاريخ ٢٥ اغسطس سنة ١٨٧٨ .
(2) دفتر ٥٣ عابدين وارد تلغرافات .

ومع الموافقة يرسل الزبير باشا لسواكن وبعرفتنا يجري التحقيق اللازم معه اولى من ابقاه بمصر » .

الزبير يحاكم غيابيا في الخرطوم

حاول غوردون في الوثيقة المتقدمة ان يجعل من امر الزبير سلسلة من المؤامرات وتهم بعضها تحاك في مستنقعات بحر الغزال وجنوب دارفـور والبعض الآخر في بلاط الاستانة وأدخل فيها شخصيتي حليم باشا ونور باشا وكلها تخيلات لم يكن لها اساس من الحقيقة املاها من لهم غرض في القضاء على الزبير وشهرته . واخيرا شكل مجلس في الخرطوم بأمر غوردون برئاسة حسن حلمي باشا وعرض عليهم الخطاب الذي ضبط وهو في طريقه من الزبير لابنه والذي يحضه فيه على طاعة الحكومة وعدم الخضوع والانقياد لادريس أبتر ووصل المجلس الى قرار بادانة الزبير والحكم عليه بالاعدام كما اعدم ولده وارسال الاوراق لمصر للتنفيذ ولكن مجلس الاحكام في مصر لم ير هذه الادانة .

الحرب ضد سليمان

تركنا سليمانا يهاجم زريبة ادريس واخبار هذا الهجوم تصل الى الحكومة واستطردنا في ذكر الاجراءات التي اتخذها غوردون ضد الزبير سواء في السودان او في مصر والآن نقص ما حدث من حملات عسكرية ضد سليمان نفسه . عرف جسي بأنه القائد الذي جرد الحملة على سليمان وهو ايطالي صادق وغوردون منذ ان كانا في حرب القرم سوا ، وقد عرف بانه من ضمن متطوعي غاربالدي وتقابل غوردون مع صديقه مرة ثانية عندما كان العضو البريطاني في لجنة الدانوب الدولية . وما ان قبل منصب مأمور

الاقاليم الاستوائية حتى بعث الى صديقه يستدعيه للعمل معه فلبى الطلب وقام بمهمة تجهيز المؤن والذخائر في القاهرة ، ثم اصبح وكيلا لغوردون في الخرطوم للترحيل .

غادر غوردون السودان عند انهاء عقده في خط الاستواء على الا يعود مرة ثانية وانفصل جسي من خدمة الحكومة المصرية ايضا . وعندما تبين لغوردون ثورة سليمان كان جسي في الخرطوم يدبر له صديقه محاولة استكشافية في غرب الحبشة مخترقا لها حتى يصل الى الساحل الشرقي لافريقيا وبينما الاستعدادات قائمة على قدم وساق اذا باخبار الثورة تصل الى الخرطوم واذا بغوردون لا يجد مناصا من ان يعهد الى صديقه بقيادة الحملة طالما لا يستطيع ان ينهض بنفسه . وبعد معارضة من جسي قبل اخيرا وأبحرت البواخر من الخرطوم في ١٥ يوليو سنة ١٨٧٨ حاملة عددا قليلا من الجند وكمية من الذخائر وعليه ان يعزز قوته من حاميات النيل الابيض وهو في طريقه عليها .

تجمعت القوة وسارت حتى القت السفن مراسيها في شمبي ومن ثم اتجهت غربا لتجد سليمان بقواته على بعد ٤٠٠ ميل غربي النيل يحتل زريبتين الاولى تدعى باسمه والثانية باسم ادريس . وكانت خطة جسي ان يحتل احدى الموقعين وخدمته الظروف بأن قبض على جاسوس من قبل سليمان وتحت الضغط والتهديد بالقتل أملاه خطابا يكتبه بيده يبين فيه ان جسي ينوي الهجوم على زريبة سليمان وبعث به مع خادم كان بمعية الجاسوس . وكان من الطبيعي ان يجمع سليمان كل قواته في زريبته ليرد الهجوم وتمكن جسي بذلك من التسلل الى زريبة ادريس واحتلها دون ان يفقد طلقة واحدة .

كانت الايام الاولى من الحرب عبارة عن سلسلة من الهجمات يقوم بها سليمان على مواقع جسي منيت كلها بالفشل بالرغم من حالة جسي الحرجة من قلة في عدده وذخائره . واخيرا شاءت الاقدار ان تتعاون عوامل

الطبيعة مع جسي على سليمان فاندلعت النيران في زريبة سليمان الجأته للقيام بهجوم نهائي على جسي ولما لم ينل منه شيئا انسحب شمالا وخف جسي وراءه متعقبا .

وصلت الاخبار اثناء المناوشات في بحر الغزال الى الخرطوم بأن سليمان اتصل بالجلابة في جنوب دارفور بل بهرون الذي لا يزال يرفع راية العصيان معتصما بالجبال يستحث الاهالي على الثورة . فخاف غوردون من اتصال قوتي هرون وسليمان وخف من فوره بعدد قليل من جنده الى جنوب دارفور وهو في طريقه في كردفان قابل قوافل عديدة من الرقيق ما دعاه ان يبطش بالجلابة أنى وجدهم بل حرض عليهم العرب حتى يقضي قضاء مبرما عليهم .

تقابل الحكمدار مع جسي في الطويشة وبحثا الحالة واتفقا على معاجلة سليمان حتى لا يتصل بهرون وقام جسي بزحفه واتصل بالموطن الذي يقيم فيه سليمان في فرقة من جيشه وباغتهم عند الفجر واحتاط بالقرية التي يقيمون فيها دون حراسة . وفي عماية الفجر بعث برسالة الى ابن الزبير يطلب منه التسليم في ظرف خمس دقائق والا اطلق النيران لان قوة عظيمة تحتاط بالقرية من كل الجهات . سلم سليمان للأقدار وأتى بكبار قواده ليجردوا من سلاحهم ويكونوا تحت الحراسة . وما ان اشيع انهم ينوون الهرب حتى نفذ جسي فيهم حكم الاعدام جميعا وقفل راجعا ليحمل الى رئيسه النبأ السار . وبذا ختمت صفحة الشاب الذي ذهب ضحية للدسائس .

تعيين اوروبيين في الادارة

قدمنا ان غوردون قطع الأمل من الاستفادة بالوطنيين في ادارة البلاد كما يئس من المصريين قبلهم فاتجه نحو استخدام الانجليز بصفة خاصة

والاوروبيين بصفة عامة وظل يطلب الاذن باستخدامهم وظهرت سياسته هذه في وثيقة يقول فيها « [1] والحال افندم الاشخاص الدناقلة والبحارة الموجودين في جهات بحر الغزال والرول ودارفور من الضروري ازالتهم من تلك الجهات بالكلية لأنهم حرامية وهم الجارين نزول الرقيق من هناك وغير جارين دفع طلبات للميري واغلبيتهم لم ممتثلين للحكومة ولا يمكن الحصول على ازالتهم بتعيين المأمورية او ابناء عرب ولذا قصدنا ان الدكتور امين افندي يكون بخط الاستواء وكيــلا عليه ومسيو جسي يتوجه الى جهة بحر الغزال ومسيو فردريك روسية بيتوجه الى دارفــور » . وفي اليوم التالي لهذا الاقتراح بعث ببرقية يلح فيها على الاذن له بتعيين الاوربيين ويهدد بالاستقالة اذا لم يجد طلبه السبيل الى الاجابة وقــد تم له الاذن فبعث اولا للسير ريتشارد بيرتون وللسير صموئيل بيكر ولكنهما لم يقبلا وطلب الى مارنو النمساوي ومساليه الايطالي وسلاتين النمساوي ولبتن الانجليزي وأملياني النمساوي وغيرهم من رعايا الامم الاوروبية وأوكل اليهم الادارة في مديريات دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وتعين جقلر بك وكيلا للحكمدارية بعد ان انعم عليه برتبة اللواء .

غوردون يفكر في الاستقالة

رجع غوردون من دارفور وقبل ان يصل الى الخرطوم سمع بمفارقة اسماعيل لخديوية مصر وقد ابدى في اكثر من مناسبة عزمه على اعتزال العمل في السودان اذا ما زايل اسماعيل الاريكة . وفي الواقع ما كــان لغوردون ان يتمتع بما تمتع به من سلطة ونفوذ وما كانت طلباته وقد تظهر شاذة بعض الاحيان لتجاب لولا ما يضمره له اسماعيل من تقدير . وبالمثل رضي غوردون عن اسماعيل وعن سياسته وتصرفاته وكان يرى ان الدائنين

(1) دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات .

الاوربيين تسندهم حكوماتهم يتعاونون ويتآمرون على اسماعيل وسلطته .

وبتبوء توفيق اريكة الخديوية انتقل النفوذ الى مجلس النظار وطبيعي ان يحاول النظار اخضاع الموظفين الكبار لمشيئتهم وطبيعي ان يطالب غوردون بتوضيح كل ما يطلب منه ولينفذ كل ما يؤمر به . وغوردون الذي تعود على حرية التصرف في اقاليم السودان الشاسعة وغوردون الذي عرف باستبداد الرأي والعناد فيما يراه صالحا لا ينتظر منه ان يكيف نفسه للظروف الجديدة بل ان الحكومة الجديدة اخذت على غوردون تهاونه في جمع الضرائب ولم يرض عنه الدائنون الاوربيون لانه نادى وعمل باستقلال المالية السودانية وأنهم يريدونها ان تعاون المالية المصرية في دفع الكبونات .

نظرة عامة لغوردون

سافر غوردون الى مصر وهناك قدم استقالته وقبلت بعد ان يقوم بسفارة الى الملك يوحنا امبراطور الحبشة . وبعد ثلاثة اشهر قضاها في تلك المهمة ، رجع ولم يصل الى اتفاق مع الملك المذكور بل تعرضت حياته للخطر . ولم يعرف السودان حكمدارا جاب اصقاعه وتحمل سفرات طويلة مضنية على ظهور الابل مثل ما فعل غوردون . ولم يعرف السكان موظفاً عظيما اخلص في عمله وتفانى فيه مثل ما فعل غوردون. وما شك احد في نزاهته وامانته لانه كان نظيف الثوب بل لا يأبه للامور المادية وراحة البدن . كل ذلك نتيجة شعور ديني هيمن على كل تصرفاته وتغلغل في قرارة نفسه . وكان نسيج وحده في عمق انسانيته واحساسه.بعذاب البشرية سواء في الرق او فقر الاهالي وهذا ما جعل منه رجلا مثاليا في النبل والتفاني في خلاص البشر في عذابه .

الا انه مع سموه في الاخلاق والنزاهة والاخلاص كان عصبي المزاج متقلب الاهواء فهو يمحو ما اثبته بالامس وهو يضع ثقته في شخص ويطلب

له الرتبة والنيشان ليكتب بايقافها قبل ان تصل . وقـد نصحه طبيب في الاسكندرية بعد ان قدم استقالته باراحة اعصابه وعدم التفكير في السياسة . سريع التصديق لما يسمعه من وشاية في شأن الآخرين . فتصرفاته مـع الزبير وابنه سليمان ومع من يعزلهم من الحكام والمديرين هي في الدرجة الاولى نتيجة تأثره بمن حوله من مستشاريه .

وبالرغم من مثاليته في الاخلاص للعمل ونظافة الثـوب في الادارة وبالرغم من ان عهده بوجه عام عهد استقرار وادارة رشيدة الا انه نظرا لاتساع رقعة الارض التي يحكمها والثورات التي كـان له ان يخمدهـا والسفارات السياسية التي اريد له القيام بها لم يستطع القضاء النهائي على الرق وسوء الادارة ومساويء الرشوة . ولا ننس انه خلف وراءه عددا من الناس حانقين عليه . فمنهم من يتعاملون بالرقيق ومنهم اقارب والمنتفعين بسليمان الزبير ومنهم الموظفون الذين أنزلهم من مناصبهم التي كانوا يتولونها ومنهم العنصر الحاكم في مصر لانه لم يخضع للاوامر وانه عين عـددا من الاوربيين دلالة على طعنة في الموظفين أبناء العرب كما ذكر ذلك صريحا ومنهم الاوربيون المتصلون بديون مصر لم يرضهم من غوردون فصل ميزانيـة السودان عن مصر حتى لا تساهم في عبء الديون وكبوناتها ولم يرضهم تعضيده لاسماعيل ضدهم وتقديره . وهناك من حقد عليه من المصريين المهتمين بالمسائل القومية الكبرى لانه أضاع عليهم ملكا وامبراطورية في اواسط أفريقية عندما كان مأمورا لخط الاستواء بل يذهب البعض الى اتهامه بأنه قصد ألا يصل الحكم المصري الى البحيرات ولا يعدمون أدلة تؤيدهم من مذكراته ومن منطق الحوادث بعد ذلك .

السودان بعد غوردون

التمست الحكومة المصرية اسماعيل ايوب باشا لان يرجع حكمدارا للسودان كما كان ، وقد انفصل عنها لا لذنب جناه بل عرف عنه الحاكـم

الذي أضيفت دارفور في عهده ولكن غوردون طالب باسناد الحكمدارية الى نفسه ورضي الخديوي بذلك لثقته فيه . وقد ذكرت محاضر مجلس النظار ان اسماعيل ايوب قدم شروطا بمقتضاها يقبل منصب الحكمدارية ولم ير المجلس قبولها ولذا صرف النظر عنه وعين محمد رؤوف باشا الذي عرفناه قائدا لجنود خط الاستواء في عهد بيكر بل تركه الاخير في المديرية حينما زايل خدمة الحكومة المصرية ووجده غوردون هناك حينما حل محل بيكر وقدر لرؤوف باشا ان يكون آخر الحكمداريين في العهد التركي قبل شبوب الثورة المهدية .

وصدرت التعليمات للحكمدار الجديد تبسط سياسة الحكومة المصرية فيما يتعلق بسلطته وفيما يتعلق بادارته للبلاد ، فقد حددت سلطته من التصرف المطلق الذي منح لغوردون وطلب اليه ان يرجع في الامور الهامة الى النظارات المختصة وتتلخص السياسة الحربية في الدفاع عن الاراضي السودانية دون الدخول في فتوحات جديدة والسياسة المالية في عمل ميزانية سنوية ترسل الى مصر وتقرير ربعي عن حالة المصروفات والايرادات واشير الى ان الضرائب يجب ان توضع بطريقة لا هي بالمرهقة على الاهالي ولا هي بالمفرطة في حق الحكومة وما لدينا من الوثائق لا يظهر اي موضوع هام تم في زمنه قبل المهدية وما حدث في أخريات ايامه في الحكمدارية بعد اندلاع نيران الثورة هو من ضمن تاريخ المهدية .

صـــورة عامـــة

حسن نية الخديويين والضريبة

والآن وقد تابعنا تطور الادارة والحكم في السودان حتى وقفنا عند أبواب الثورة المهدية يجدر بنا ان نقف وقفتنا الاخيرة نشيع العهد ونلقي نظرة تتبين لنا منها المعالم الرئيسية دون التفاصيل ونلم بالنظم الادارية والقضائية والمالية التي تركزت فيها الادارة السودانية . والعهد بأكله كمعظم العهود فيه فترات من الطمأنينة والاستقرار تعلي من شأنه وتشيد بذكره وفيه من فترات الفوضى والظلم ما ينزل به الى الحضيض من حيث العدالة والنظام ، ويختلف الرجال الذين تولوا شؤون البلاد من حكمداريين ومديرين وكشاف وغيرهم من ارباب النفوذ والسلطة من حيث مقدرتهم في الادارة وانسجامهم وتجاوبهم مع السكان ومن حيث نظافة ثوبهم وعفة أنفسهم مما يجعل الحكم على العهد بأكله امرا عسيرا فاما ان نسمه بالظلم والقهر واما ان نتسامح فيه ونجعل منه عهدا ذهبيا . وأجزاء الصورة التي تبرز لنا وتجذب انظارنا اكثر من غيرها اثنتان وهما حسن نية من جلسوا على الاريكة الخديوية ورغبتهم السامية في تقدم البلاد وعمرانها والثاني الضرائب الباهظة المرهقة وسوء الطريقة التي تجبى بها .

التفاتات الولاة في مصر

وتلمس التفاتات ولاة مصر الى رعاياهم في الجنوب من أوامرهم المشددة

على الحكام ومن ولوا الامر في السودان بالرأفة والرفق ورفاهية البلاد . تبدت السياسة اول ما تبدت في عهد محمد علي فتشجيع الزراعة وزيادة الانتاج واستغلال الثروة الطبيعية وانزال العقاب الصارم بمن ثبتت عليهم تهمة الارتشاء او الاختلاس وملاحظاته الدقيقة على مسلك وكلائه في البلاد ـ كلها تدل على انه كان يجري على سياسة الاستفادة من البلاد وافادة اهلها . ولولا السنين الاولى من حكمه التي اتسمت بالحملات الانتقامية وصيد السكان وانزالهم من معتصماتهم بالجبال ليجدوا طريقهم ، امّا الى معسكرات التجنيد او الى وكالات النخاسين . لولا تلك اللطخات السوداء في صحيفته لما لاحظنا عليه ما يهبط بمستوى ادارته السودانية ويشين سمعتها وخاصة انه اول من فتح البلاد للعالم والحضارة وجعل منها وحدة ادارية متماسكة الاجزاء بعد ان كانت مفككة العرى والاوصال .

وبالرغم مما عرف الناس عن عباس الاول ورجعيته وانه رجع بعصر القهقرى من حيث التعليم الا اننا نلمس ناحية حبه للتنظيم في قوانينه ولوائحه التي سنها للخدمة في السودان وكذلك صرامته مع الذين يميلون الى الكسل في اعمالهم ومدرسته التي أسسها في الخرطوم وكانت بذلك النواة الاولى للتعليم المدني الحديث . اما سعيد فتحمس للسودان واهله منذ اللحظة التي جلس فيها على الاريكة الخديوية فهو اول من اشاد ببسالة الجندي السوداني وفتح باب الترقي لهم في الجيش الى مرتبة الضباط ودلل على اهتمامه العظيم بالبلاد ان عين اخاه الامير عبد الحليم حكمدارا عليها ثم كانت زيارته المشهورة وسياسته اللامركزية والحكم الذاتي وسماعه لشكوى المتظلمين وضراعة المقهورين وتأثره بما آلت اليه الاداة الحكومية من سوء. واسماعيل الذي وسع رقعة البلاد بالفتوحات لم ينس العمل على رفاهيتها وعمرانها . فمدارسه ومواصلاته واحساناته لبيوت العلم والدين ومحاولاته للقضاء على عادة الرق الوحشية وتعيينه للسودانيين في المناصب الكبيرة كلها آثار ناطقة بحسن التفاته .

النية الحسنة والرغبة في الاصلاح وحدهما لا تكفيان لاشاعة النظام والعدل وتيسير سبل الرفاهية والعمران فالامر في حاجة الى الايدي المتعددة والادارة التركية آنذاك خلو منها والواقع ان نظريات سعيد واسماعيـــل الحديثة والمباديء التي اعتنقاها لم يشاركهما فيها معاونوهم في السودان لانهم ما زالوا من انصار المدرسة التركية القديمة . واتساع المسافات وبعدها من السلطة المركزية جعل امر الرقابة عسيرا ان لم نقل مستحيلا وهذا يفسر لنا الاختلاف بين النظرية والتطبيق .

الاداة الادارية

اعترت الادارة الادارية تغييرات جمة . فمرة تنعزل المديريات عن بعضها البعض ، واخرى تندمج اثنتان او ثلاث في مديريات عموم وثالثة تجزيء المديرية الى قسمين وتعدل الحدود . ولكن بوجه عـــام كانت البلاد تدار وتحكم من الخرطوم قصبة الاقاليم السودانية ، بواسطة الحكمدار وينوب عنه مديرون في الاقاليم والمدير يشرف على نظار الاقسام وهؤلاء بدورهم على مشايخ الاخطاط . اما القبائل الرحل فيختفي عندهم ما يلي المديرية من اقسام فالوحدة الادارية هي القبيلة بكاملها ولها شيخها الذي يتصل بالمديرية رأسا واحيانا تسهيلا للادارة ومراعاة لمقتضيات الظروف تكون المأموريات لا هي صغيرة ولا هي كبيرة كالمديرية ولكل مجموع منها تقع تحت ادارة مدير ادارة عموم كما حدث في دارفور وفي القضارف ووحدة الادارة في الجنوب هي القبيلة كما هي الحالة بين العرب الرحل .

وتنهض الادارة بحفظ الامن وجمع الضرائب وانيط جمعها الى جماعة من الجند الغير نظامي سمي بالباشبوزق فهم زيادة على جهلهم بالامور العسكرية لا يعرفون أبجديات مبادىء الاقتصاد وطرق الجباية . والضريبة عند اهل البادية تقدر بحسب ثروة القبيلة وعدد ماشيتها وانعامها وتفقد الارقام التي

تدلنا على فداحتها عندهم ، ولكن بوجه عام فالشكوى دائمة منها . امـا الضرائب الزراعية فارقامها تنطق بعبء ثقيـل على كاهل كليل فالساقيـة تتراوح ضريبتها ما بين ثلاثة وخمسة جنيهات والمترة (ما يسقى بساقية على بئر) ما بين ١٧٥ و ٣٥٠ قرشا والشادوف ما بين ٢٥٠ و ٣٥٠ قرشا وفدان الجزائر ما بين ٥٢ و ٦٠ قرشا وفدان الجروف بين ٢٢ و ٤٥ قرشا . هذه الارقام اوردها على سبيل المثال لا الحصر . فهناك ضرائب الاراضي المطرية والمنازل والمراكب وغيرها مما يلاحق المواطـن في حله وترحالـه وينتشر الباشبوزق في البوادي والقرى يحملون السياط مذكرين الاهالي بسلطة الميري ونفوذ الحكومة بطريقة الجلد والرشوة والتخويف . فلا غرابة ان ضج الاهالي وجأروا بالشكوى حتى ضربوا المثل الشهير الذي يقول « زولين في تربة ولا ريال في طلبه » .

والقضاء في الاحوال الشخصيـة يمارس بمقتضى الشريعة الاسلامية ويقوم عليه قضاة ومفتيون في عواصم المديريات ونواب شرع في المـدن الصغيرة . والقانون الهمايوني اساس المحاكمات في القضايا المدنية والجنائية وفي كل مدينة مجلس محلي من التجار والاعيـان ينظر في القضايا الصغيرة واعضاء المجلس لا يتعاطون اجرا على ذلك اللهم الا بعض رؤساء المجالس في المدن الكبيرة وابتدأت العضوية تشمل الضباط والموظفين الذين هم في حالة المعاش وفوق الكل مجلس أعلى للاستئناف ومقـره الخرطوم . واما القضايا الكبيرة فينظر فيها المديرون بأنفسهم وبعضها تحال للقاهرة للبت فيها هناك . ولكل من المدن الكبيرة ضبطيـة قضائية بقواصيهـا تباشر التحقيق في الجرائم وتقديمها للمحاكمة والجيش الذي عليه حفظ الحدود واطفاء الثورات الداخلية يتكون من مصريين وسودانيين والعنصر الاخير اصبح يتزايد بمرور الزمن وخاصة عندما اصبحت الحاجة ماسة للجنود لاتساع رقعة الامبراطورية ولصعوبة التجنيد في مصر والترحيل الى السودان .

التجارة

وتجارة السودان كانت مزدهرة ومتصلة بمصر ويمكننا ان نقسم البلاد الى ثلاثة اقسام من حيث الطرق واتصالها تجاريا بمصر والبحر احمر • فالاول حوض النيلين الازرق والابيض وروافدهما بما في ذلك كردفان الشرقية • وتتدفق المتاجر في هذا الاقليم بالنيلين الى الخرطوم ومنها شمالا الى بربر ومن ثم اما الى الشرق لسواكن او شمالا عبر الصحراء الى كرسكو • وتحمل القوافل من البضائع العاج وريش النعام والتمر هندي والسنامكي والجلود وقرون الخرتيت والنيلة والمسك والزيت والشحم والعسل والشمع والذرة والملح . أما الطريق الثاني فهو طريق الاربعين الشهير فيبدأ من كوبي بدارفور وينتهي في أسيوط وينقل حاصلات كردفان الغربية ودارفور وبعض الاقاليم التي تخرج عن ادارة السودان كود"اي وباقرمي وبورنو وما والاها من الاقطار غربا وقد قلت التجارة على هذا الطريق بعد فتح دارفور نظرا للرقابة الصارمة على تجارة الرقيق اولا ولخوف سلاطين الاقاليم الغربية من الفتوحات المصرية ثانيا ، فتحولت متاجرهم الى الطريق الممتد من بحيرة شاد الى مرزوق وطرابلس • الصمغ والريش والعاج والابنوس والجلود كانت البضائع التي تحمل الى مصر على هذا الطريق ، الطريق الثالث تخرج متاجره من الحبشة مثل البن والشمع والعسل وتنتهي عند مصوع على البحر الاحمر. ومثلها فتوحات دارفور والرقابة التي ضربت على تجارة الرقيق أضرت بطريق الاربعين كذلك تناقصت المتاجر التي كان مصدرها خط الاستواء وبحر الغزال لمنع التجار من تعاطيها في تلك الاقاليم كوسيلة لتشديد الرقابة على الرقيق . وما يرد الى السودان من السلع في مبادلة ما يصدره ، يتكون معظمه من المنسوجات القطنية والآلات الحديدية القاطعة وغيرها .

والصورة العامة التي تخلص لنا من العهد بكامله هي ان السودان فتح لتأثير المدنية التي تعمل فيه عن طريق مصر وتوحدت اجزاؤه المختلفة تحت

اداره واحده ممعنة في المركزية وكانت التفاتات تحمل النوايا الحسنة من الجالسين على الاريكة الخديوية غير ان داء الادارة التركية المتفشي في كل اجزاء الامبراطورية العثمانية وجد طريقه الى السودان حيث شاعت حوادث الرشوة والاختلاس وزاد عبء الضرائب زيادة لم يعد يحتمله كاهل الاهالي واستخدمت احيانا طرق تدل على الظلم والجور مما لطخ سمعة الادارة من هذه الناحية ، واخيرا جاء اسماعيل باصلاحاته الانسانية من حيث العمل على ابطال الرق والعمرانية من حيث ربط أجزاء السودان بشبكة من الاسلاك التلغرافية والبدء في مد خط السكة الحديدية السودانية والثقافية من حيث انشاء المدارس المدنية والصرف على مساجد العلم والقرآن من احساناته الخاصة .

حكام السودان الى قيام الثورة المهدية

الاسم	تاريخ التعيين	ملاحظات
١ عثمان بك	جمادي الاخرة ١٢٣٩ – فبراير ١٨٢٣	
٢ محو بك	شوال ١٢٤٠ – مايو ١٨٢٥	
٣ علي خورشيد باشا	جمادي الاخرة ١٢٤١ – يناير ١٨٢٦	اول من تلقب بحكمدار
٤ احمد باشا ابو ودان	صفر ١٢٥٤ – ابريل ١٨٣٨	
٥ احمد باشا المنكلي	شوال ١٢٥٦ – اكتوبر ١٨٤٣	منظم
٦ خالد باشا	الحجة ١٢٦١ – ديسمبر ١٨٤٥	
٧ عبد اللطيف باشا	الحجة ١٢٦٥ – اكتوبر ١٨٤٩	
٨ رستم باشا	ربيع الاول ١٢٦٨ – ديسمبر ١٨٥١	
٩ اسماعيل باشا حقي ابو جبل	رمضان ١٢٦٨ – يونيه ١٧٥٢	
١٠ سليم باشا صائب	رجب ١٢٦٩ – ابريل ١٨٥٣	
١١ علي باشا سري	جمادي الاخرة ١٢٧٠ – مارس ١٨٥٤	
١٢ علي باشا جركس	ربيع الاخر ١٢٧١ – ديسمبر ١٨٥٤	
١٣ الامير محمد عبد الحليم	ربيع الاول ١٢٧٢ – نوفمبر ١٨٥٥	
١٤ اراكيل بك	جمادي الاولى ١٢٧٣ – يناير ١٨٥٧	مديرون للخرطوم حقبة لامركزية
١٥ حسن بك سلامة	رجب ١٢٧٥ – فبراير ١٨٥٩	
١٦ محمد بك راسخ	الحجة ١٢٧٧ – يونيه ١٨٦١	سعيد
١٧ موسى باشا حمدي	القعدة ١٢٧٨ – مايو ١٨٦٢	
١٨ جعفر باشا صادق	محرم ١٢٨٢ – مايو ١٨٦٥	
١٩ جعفر باشا مظهر	شعبان ١٢٨٢ – ديسمبر ١٨٦٥	
٢٠ ممتاز باشا	رجب ١٢٧٨ – سبتمبر ١٨٧١	مدير عموم قبلي السودان
٢١ اسماعيل باشا ايوب	شوال ١٢٩٠ – نوفمبر ١٨٧٣	مدير عموم ثم صار حكمدارا
٢٢ غوردون باشا	صفر ١٢٩٤ – فبراير ١٨٧٧	
٢٣ محمد رؤوف باشا	١٢٩٧ – يناير ١٨٨٠	

الثورة المهديـــة

اصل محمد احمد وحياته الاولى

ولد للسيد عبد الله في جزيرة لبب بالقرب من دنقلا العرضي حوالي سنة ١٢٦٠ هجرية ولد سماه محمد احمد . وكان الوالد يحترف صنعة المراكب ، ولأمر ما ترك دنقلا وصعد في النيل مثل ما فعل اجداده في هجرتهم من قبل ونزل بشندي اولا ثم واصل السير جنوبا حتى حط الرحال بكري شمالي ام درمان بقليل ، ولم يمكث الوالد الا قليلا في موطنه الجديد اذ توفي الى رحمة مولاه . وما كان لأخوة محمد احمد غير اقتفاء اثر الوالد في الصنعة.غير ان محمد احمد لم يجد في نفسه الميل لمثل ما يعملون ، بل مال بفطرته نحــو الدين ، وكان من الطبيعي ان يدخل مدرسة القرآن او الخلوة في القرية التي يقيمون فيها ، ولكنها لم تطفيء ظمأه نحو العلم والقرآن بل رحل لغيرها في الخرطوم ولثالثة في كترانج وحفظ القرآن وفي الاخيرة بدأ يدخل في درس العلوم الفقهية .

في مدرسة محمد الخير

ما عارض اخوته في ميل اخيهم ونزعته نحو الدين والقرآن ، وكيف لهم ان يعترضوا من خصه الله وهداه نحو الطريق القويم . وقد ترامى الى سمعه شهرة الشيخ محمد الخير وحلقات درسه الدينية ، وترامى اليه كثرة

الطلاب وشهرة النبش في عالم الدرس والتحصيل والصلاح ، فهاجر الى الشمال وهناك نهل ما استطاع ان ينهله من علوم النحو والتوحيد والفقه والتصوف وهناك كان يمارس الزهد والتقشف والتعبد . فحلقات الدرس والمناقشة بالنهار والتجهد بالليل . ولم يك كغيره من الطلاب الذين ينامون ملء جفونهم ويتناولون ما يقدمه لهم شيخهم من طعام او ما يتفضل بل اهل الاحسان . وقد آلى على نفسه منذ البدء ان ينقي النفس والبدن معا من الادران او ما يشتبه فيه . فشيخه يتناول مرتبا حكوميا من الذرة والمال ، ومثل هذا الرزق لا يضمن خلوه من الظلم والمحرمات فهو لا يبني خلايا جسمه بالمشتبه فيه وما عليه الا ان يذهب في بهيم الليل للصيد الحلال على شاطيء النهر لاصطياد السمك ، ويلقي في سبيل ذلك من النصب ما يلاقي قبل ان يقع السمك في سنارته .

في مسجد ولد نور الدايم

وبديهي ان يتناقل الطلاب اخبار ذلك الشاب الزاهد المتقشف الذي لا يعيش مثلما يعيشون ، وطبيعي ان تصل اخباره الى شيخه الذي يعجب به ويقربه ويشركه في طعامه من محصول سواقيه وجزائره لا من هبات الحكومة . فاذا ما وثق الطالب مما يقوله شيخه اطمأن الى طعامه ووجد فسحة من الوقت يقضيها في العبادة بدلا من انتظار رزق من السمك يسوقه له الله . أروى محمد احمد غليله من العلوم الشرعية وعرف شيئا من التصوف بالقراءة والممارسة معا ، وكالغزالي قبله رأى ان الحقيقة الكاملة لا تنقلها الكتب وحدها فلا بد من التصوف ولا بد من ان يأخذ طريقا على شيخ شهير . وما كان في المنطقة التي تجاور الخرطوم من هو اعلى كعبا وأبعد صيتا من الشيخ الطيب « راجل ام مرحي » الذي اخذ الطريقة السمانية من المدينة المنورة ونشرها في اقاليم السودان وها هو حفيده

الشيخ محمد شريف ولد نور الدايم يقتفي اثر الجد المؤسس للطريقة في هذه البـــلاد .

دخل محمد احمد في عداد المريدين وهنا وجد متسعا من الوقت للعبادة والتأمل وهنا استمر يحتطب ويجهز طعامه بنفسه واذا ما تفقد الشيخ تلاميذه ومريديه بالليل لم يجد محمد احمد كغيره من « الجيران » نائما بل يجده في يقظة يتعبد ويتهجد فلفت نظره ذلك الشاب الذي لم يجد له نظيرا من بين مريديه ورفعه مكانا عاليا وسمح له بأن يسلك الطريق نيابة عنه . كل ذلك واخوة محمد احمد يقيمون في الخرطوم بعد ان مات الوالد ودفنوه في كرري وبعد ان رأوا ان مهنتهم تتطلب التواجد في الموردة الكبيرة بالخرطوم .

في سبيل الرزق

وما عرف العلم والتعبد بطريقة يعيش منها الأنسان فطبيعي بعد ان اذن له شيخه في تسليك الطريق ان يمارس مهنة يعيش منها ، وهو لا يريد ان يبقى عالة على اخوته فاحترف اول مرة بيع خشب الحريق في ســوق الخرطوم ، وعلم ذات مرة من امرأة تساومه فيه انها تريده « للسورج » الذي يحوّل الى خمر فيما بعد فأنفق ما عنده منه للناس وترك بيعه نهائيا . واشترك مع غيره في تجارة الذرة وصعدا في النيل الابيض فما ابتعدا كثيرا من الخرطوم حتى نادى محمد شريكه بالوقوف وشراء ما يريدانه من تلك الجهة . فخالفه الشريك معترضا بأن وافر الربح في الابتعاد فأجاب محمد احمد « ما تقول لربنا اذا ما خاطبنا بأن الدنيا عدوة واننا سافرنا نطلبها ؟ » فنزل الشريك على ما اراده محمد احمد ، ولكنهما اختلفا مرة اخرى حيث يريد محمد احمد بيع الذرة في الحال والشريك يريد التريث فاقتسما السلعة وباع محمد احمد نصيبه بالثمن الحالي ونفض يده من تلك التجارة ايضا .

العزلة في الجزيرة أبا

وما كان لرجل هذا رأيه ان يطمئن الى محيط الخرطوم بضجيجه ، هو يريده الخلوة والتأمل فصعد في النيل الابيض حتى حط رحاله بجزيرة ابا ذات الغابات المتشابكة ، وكان يسكنها عدد قليل من العرب الرحل وانفار قلائل من الشلك وهم سكانها الاصليون ؛ وهنا وجد متسعا من الوقت وهنا سلك الطريق عليه سكان الجهة واصبح له اتباع ومريدون وسرعان ما جذب اخوته اليه في الجزيرة حيث تصلح لصناعة المراكب بما فيها من اشجار ضخمة وسرعان ما ذاع صيت الشيخ محمد كرجل اصلاح وتقوى . فاذا صلى بكى واستبكى وأطال الوقوف والركوع والسجود واذا وعظ اثر في النفس وهو فوق ذلك لا ينام من الليل الا اقله قائما متعبدا وعيشه عيش من زهدوا زخرف الدنيا واتجهوا بأنفسهم الى الاخرى .

علاقته بشيخه محمد شريف

اتصل حبل المودّة بين الشيخ وتلميذه . ففي المواسم والاعياد يذهب محمد احمد لتقديم فروض الولاء لأستاذه في مقرّه ، وقد وصف له جهات الكوّة وحببها اليه فكان الشيخ يقيم بعض الوقت في مكان بين الكوة والجزيرة أبا . كل ذلك والتلميذ يرتفع في سلم الشهرة ارتفاعا محسوسا حتى اصبح ذكره على الافواه والبواخر والمراكب بين فشوده والخرطوم تلقي مراسيها في جزيرة الشيخ محمد احمد ليمدها بالبركات وتترك بعض الهدايا عنده لينفقها على الخلوات والجيران الذين كثر عددهم . ويظهر ان لمعان اسم محمد احمد في سماء الشهرة اوجد شيئا من المنافسة بين التلميذ واستاذه فتوترت العلاقات ووقع خلاف وانشقاق يقال انه نتيجة استياء محمد احمد مما حدث في حفلات ختان ابناء استاذه من لهو لم تستسغه طبيعة التلميذ .

اتصاله بالشيخ القرشي

ولكن كيف له الاطمئنان الى حياة الصوفية والطريقة السمانية بصفة خاصة بدون شيخ فهو مخلص لها واطمأن الى الحياة الروحية في ظلها . وبعد فترة روحية فيها بعض القلق رأى في الشيخ القرشي في الحلاويين بأرض الجزيرة ما يعوضه عن استاذه الاول . فهو من تلاميذ الشيخ الطيب نفسه وهو قائم بشروط الطريقة عسلك لا شبهة فيه ، فجدد العهد على يديه والواقع ان شهرته ما كانت في حاجة الى شيخ غير انه رأى من مستلزمات الطريق وهو لا يزال شابا دون الاربعين ان يعتمد على شيخ له قدم راسخ في الحياة الصوفية وابدى بالرغم من ذيوع صيته من الخضوع والانكسار لشيخه الجديد مثلما كان يبديه لاستاذه الاول وشاءت الاقدار ان ينتقل الشيخ القرشي الى الدار الآخرة وان يشرف تلميذه على بناء قبة فـوق قبره .

الدعوة سرا

بدأ المكاتبة لرجال الدين من مشايخ الطرق وعلماء الشريعة سرا وكانت كتاباته في بادىء الامر تلميحا لا تصريحا ، فبعضهم آمن واستعد الى حين صدور الامر وبعضهم كفر بالدعوى ولم يعرها اهتماما . وقام قبل ذلك بطوافه في مديرية كردفان وجبال النوبة يسر بالدعوة الى من يثق بـه وبتأييده وقد عاهده البعض وخاصة الملك آدم ام دبالو ملك جبال تقلي . وعندما اشرف على بناء قبة على ضريح استاذه القرشي ووافاه عبد الله التعايش فيها وآمن عهديته رجع الى ابا .

اظهار الدعوة

رجع وبدأ في التو والحال بتحرير الخطابات الصريحة هذه المرة الى رجال الدين يدعوهم لنصرة الدين والقيام لتأييد المهدية الكبرى التي خصه الله تعالى بها وعلى نصرة الكتاب والسنة واخبرهم انه امر باعلانها وسيمشي النصر بين يديه . وبديهي ان تقع احدى تلك الخطابات في يد الحكومة ولم يعرها محمد رؤوف باشا اهتماما لانه لم يتعود ولا من كانوا قبله من الحكام ان يقوم درويش فقير ضعيف القوة والعون بمناصبة الحكومة العداء بنفوذها وسيطرتها او لعل هذا الشيخ ان صح ما نسب اليه كتب ما كتب وادعى ما ادعى في حالة جذب قد تعتري مثله من الدراويش احيانا . ولكن الاخبار تواترت والمنشورات اعلن امرها وانتشر فلا اقل من ان يتبين الحكمدار جلية الامر ولكنه الى الآن ليس بشيء كبير يجذب اهتمام الحكومة في مصر حتى يعلنها به ولا يستدعي الحال ان يخبر حتى ولا مدير المديرية التي تتبعها ابا وهي فشودة .

سفارة محمد بك ابو السعود

وكان محمد بك ابو السعود معاونا للحكمدارية آنذاك وهو قد سافر كثيرا في النيل الابيض وله معرفة شخصية باخوة الشيخ محمد احمد بل ربما يكون آمن بصلاح محمد احمد واستقامة سيره ، ولكنه لا يصل لدرجة الايمان بمهديته . فقام في وابور مع بعض الاعيان من اقارب المهدي في الخرطوم واخذ في طريقه بعضهم من الفشاشوية . كل ذلك لعلمه بل يقينه انها قد تكون شطحة من شطحات الدراويش تنتهي بمراجعته وعندما القت الوابورات مراسيها على الجزيرة اظهر المهدي استمداده لمقابلتهم ولكن بعد حين وفي فترة الانتظار شرح ابو السعود مهمته لاقارب المهدي قائلا :

« رأيت ان نراجع الشيخ محمد احمد عما نسب اليه من دعوي واحضرت معي الكبراء والاعيان من الخرطوم والفشاشوية من اهله لتتحد الجميع معكم في ارجاع الشيخ عما ادعاه واني كصديق لكم ارجو ان اوفق في مأموريتي » فأجاب الكل بأنهم لم يعهدوا في محمد احمد كذبا والافضـــل الانتظار كيما يسمع منه بنفسه .

لم يجد ابو السعود من محمد احمد الا كل اصرار حين قابله ومهما يتوعد ويهدد او يحسن القول فالاستجابة واحدة . وذكر ابو السعود فيما ذكر الآية «يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم» ، فاجاب المهدي « انا ولي الامر في هذا الاوان فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » فقطع المندوب الرجاء وقفل راجعا في وابوره ليخبر الحكمدار بما رأى وما سمع وابرق له بالنتيجة من الكوة .

الخديوي يعلم الامر

عند ذلك احس الحكمدار ان الامر يستدعي بعض الاهتمام فجهز بلوكين من الجنود لانه علم من ابي السعود ان من مع المهدي لا يجـاوز المائتين وعهد الى ابي السعود بمرافقة الحملة كخبير ورأى بعد ان ابحر الوابور ان يبرق للجناب العالي بمصر بما يأتي : « [1] في ابتداء شهر رمضان اشيع بأنه موجود بجزيرة أبا التابعة مديرية فشودة بعيدا عن الكوة بمسافة ثمانية ساعات شخص يسمى الشيخ محمد احمد من اهالي دنقلا من مشايخ الطرق مدعي انه المهدي المنتظر وبوقته عينا قاضي الكوة واثنين من العلماء لينظروا الخبر فتوجهوا اليه وتحقق امر ذلك الشخص واستحصلوا على مخاطباته المحررة الى ناسات بخطه وختمه يدعوهم انه هو المهدي المنتظر وارسلوا تلك المخاطبات لنا بالبوستة فبوصولهم لطرفنا قد عينا واحد وابور وارسلنا من

(١) دفتر ٤ وارد تلغرافات من سنة ١٨٨١ بتاريخ ١٤ اغسطس سنة ١٨٨١ .

طرفنا مندوبين وحررنا له جواب بالنصيحة وان يقوم يحضر لطرفنا وعند وصول المندوبين سلموه المخاطبات فحرر لنا ردهم بأنه هو المهدي المنتظر ومن لم يصدقه فالسيف ولكون اوروا بأنه موجود بعد نحو مائتان نفر قد عينا وابور وبلوكين عساكر جهادية وواحد مدفع تحت قومندانية صاغقول اغاسي الطوبجية واعطيناهم التعليمات اللازمة وفهمناهم بأنهم يجروا كل الطرق المستحسنة لحضور محمد احمد بدون زعزعة وان تراءى لهمْ عدم امكان حضوره واشهروا عليهم السلاح يجري ضربهم واحضاره بالقوة الجبرية وافادتنا عن كل ما يجروه اول بأول وفي يوم الاربعاء الماضي صار قيامهم من الخرطوم الى تلك الجهة ولزم عرضه بالاختصار افندم » .

المهدي يستعد للملاقاة

ولنترك الوابور تحمل البلوكين في طريقها الى الجزيرة ولننظر ما فعل المهدي بعد ذهاب ابي السعود وتيقنه بأن الحكومة لا بد ان تبعث بجندها لحربه . ارسل المهدي لدغيم والعمارنة بالحضور فكاشف الجميع بالحرب واخبرهم ان من يريد القتال جهادا في سبيل الله فليبق ومن لم يرد فهو حر ان يذهب انى شاء فرضي الكل بالجهاد وبايعوه على الانفس والمال والولد وبعدها كانوا يتدربون على الحرب الدفاعية والهجومية ويستعرضهم المهدي ويعظهم مدة ثلاثة ايام قبل ملاقاة الجند الحكومي .

ليلة المعركة

وصل الوابور الى الفشاشوية ، وكان يقيم هناك بعض الدناقلة الموالين للمهدي يعملون في المراكب فخف بعضهم واتى على جناح السرعة لابلاغ المهدي خبرها فوجدوه في صلاة التراويح وبعد قضاء الصلاة بدأ

المهدي وصحبه في الاستعداد لملاقاة العدو فأحضرت الرايات وكانت خمسا ومكتوب على كل منها لا اله الا الله محمد رسول الله وعلى احداها اضيف الجيلاني ولي الله والثانية احمد الرفاعي ولي الله والثالثة ابراهيم الدسوقي ولي الله والرابعة احمد البدوي ولي الله والخامسة خالية فأمر المهدي بفرع من الاراك ودق طرفه حتى اصبح كالفرشاة فكتب به على كل الرايات محمد المهدي خليفة رسول الله . فكانت تلك اللحظة الفارق بين الطريقة والمهدية وما بين المسالمة والجهاد وقد اصبح اسمه بعدها محمد المهدي بدلا من الشيخ محمد احمد ثم عين النقباء لاصحابه الذين لا يزيدون على المائتين كثيرا .

المعركة

اتى الخبر الى المهدي بوصول الوابور ونزول الجند قبل الفجر فأمر فقلعت الرايات ومشى خلفها الانصار حتى غرزوها امام القرية وجلسوا وراءها متوارين عن الانظار . سار الجند من الشاطىء نحو القرية ، وقد ظنوا انهم يفاجئون الشيخ وصحبه ويلقون القبض عليهم دون كبير عناء فظلوا سائرين حتى وجدوا انفسهم امام الرايات ومن خلفها الانصار وجها لوجه . وهنا اشار المهدي بأن تقلع الرايات ويتحرك الانصار وراءها واشتبكوا مع الجند في موقعة حامية في ارض موحلة ومنخفض منها وما مكن العساكر من تنفيذ امر الضرب مرتكزا حيث دخلتهم الانصار واعملت السيوف والحراب والعصي فيهم ما لم تعمله الاسلحة النارية فمات معظمهم وقليل من فر ووجد طريقه راجعا الى الوابور . تلك قصة الواقعة الاولى بين المهدي وجيش الحكومة والتي لا اختلاف بين الرواة في ان المهدي خرج بالنصر والحكومة بالهزيمة اذا ما اختلفت التفاصيل .

القصة الرسمية الواقعة

وهاك القصة من التلغراف الرسمي الذي بعث به الحكمدار الى مصر بعد ان وصلته الاخبار المشئومة من ابي السعود بالتلغراف من الكوة [1] « ورد تلغراف من معاون الحكمدارية بالكوة يفيد انه لما توجهت العساكر الى جزيرة ابا بالبحر الابيض محل اقامة الشقي محمد احمد المدعي انه المهدي السابق العرض عنه فبوصولهم هناك القوا الامر الذي بيدهم ولم ارسلوا قاضي جهة الكوة الذي امرناهم بارساله الى الشقي لأجل يدعوه للحضور وان لم يمتثل واشهر عليهم السلاح بعامل بالقوة الجبرية بل اخرجوا العساكر ليلا الساعة التاسعة [2] وقصدوا محل اقامته لضبطه فوجدوا بعض اشخاص بهيئة دراويش ينفون عن المائتين نفر مجتمعين وشاهرين بوارقهم فعند ذلك امرهم الريس بضربهم بالرصاص فلم يمتثلوا لأمره وقالوا له هؤلاء دراويش فقراء لا يصح ضربهم ولما قربوا منهم فهسوا عليهم الدراويش وتمكنوا منهم وقتلوا مائة وعشرين عسكري وستة ضباط وهذا نشأ من عدم الانقياد للرئيس المعين معهم وما تبقى من العساكر رجعوا التجأوا بالبحر بجوار الوابور » .

خطة الحكمدار

انجلت الموقعة الاولى باندحار قوة الحكومة وكان عليها ان تدبر ما يقضي على المهدي حيث ان انتصاره هذا ما كان عن ضعف في قوة الحكومة او قوة خارقة للمهدي بل من غلطات حربية ارتكبت . وقد وصلت الانباء ان المهدي ينوي مغادرة الجزيرة والتوجه الى جبال تقلى فاهتم الحكمدار

---

(1) دفتر قيد التلغرافات الشفرة الواردة ابتداء من ٢٧ يونيه سنة ١٧٨٩ بتاريخ ١٥ سنة ١٨٨١ .

(2) هذا يوافق الرواية القائلة بأن المعركة حدثت عند الفجر حسب الساعة العربيه .

يجمع قوة عسكرية كافية في الكوة تتكون من اربعة بلوكات ترسل من الخرطوم وأربعة بلوكات جهادية ومائتين من الباشبوزق الخيالة من الأبيض وثلاثة بلوكات من فشودة وأمر مدير كردفان ان يسد الطرق المؤدية الى جبال تقلي . هذا ما اتخذه رءوف باشا من اجراءات وهذه هي خطته لمقابلة عدوان المهدي فماذا فعله المهدي ازاء ذلك

خطة المهدي

تيقن المهدي ان لا بد من تجهيز حملة كبيرة ضده ورأى ان الجزيرة أبا وتلك الجهات التي حولها لا تصلح لملاقاة قوات كبيرة وقرّ رأيه على الهجرة الى جبال النوبة حيث يكون هناك بعيدا عن متناول يد الحكومة واذا ما قصدته اية قوة تلاقي نصبا في الوصول اليه . والهجرة الى مكان يكون فيه قوام الدين ورد في كل خطاباته سواء منها الاولى بالتلميح او الصريحة باعلان مهديته . فقام بأنصاره وعبر النيل الى الغرب وهناك تكامل عليه بعض قبائل دغيم وكنانة والحسنات وساروا متجهين الى الغرب . وقد ابدى عساكر ابو كلام شيخ الجمع استعداده في عدم اعتراض طريق المهدي اذا مر في غير داره لأنه موظف من قبل الحكومة وسوف تنزل به العقاب اذا علمت بأن المهدي مر في داره . وكانت خطة المهدي منذ البداية المرور على دار الأحامدة لا على دار الجمع غير انه طلب من الناظر الا يمنع الانصار الذين يمرون بداره فرادى يريدون اللحاق بالمهدي في دار الهجرة فوعده بذلــك .

في الطريق الى قدير

قوبل المهدي وصحبه بالاكرام من ناظر الأحامــدة ورجالها وكــان سيرهم بطيئا نظرا لهطول الامطار وعندما شارفوا حدود تقلي اذن الملك

آدم ام دبالو للمهدي بدخول داره حسب ما وعد به من قبل . واول منهل نزلوه في تقلى هو الزمزمية وامدهم ارباب جهة ام ملحة بما هم في حاجة اليه من ذرة وبقر . وبقي المهدي بذلك المنهل عدة ايام لتوالى نزول الامطار وهناك بدأ سكان بعض الجبال والعربان النازلين في الاودية بالانضمام الى راية المهدي . وكانت جواسيس الملك آدم تتسنم الاخبار من جهة الحكومة فعلمت بقيام محمد سعيد باشا مدير كردفان من الابيض على رأس قوة كبيرة مقتفيا اثر المهدي وأشار الملك على المهدي بالارتحال الى مكان حصين يدعى « بطن امك » وهو ما يحتمي به اهل تقلى اذا ما اعلنوا عصيانهم على الحكومة فلا تنالهم جيوشها مهما حاولت .

محمد سعيد يرتد عن الجبال

ارتحل المهدي الى « بطن امك » ووجده مخضرا مرعا غزير المياه وبعد اقامتهم في ذلك الموطن ثلاثة ايام وصل محمد سعيد باشا الى حدود تقلى وتبين له ان الملك لا يسمح له بدخول داره ووصل آنذاك الى المنهل الذي تركه المهدي وهو الزمزمية . وعلم ان سكان الجهة ان الملك لم يسمح للباشا بدخول تقلى ، فدبروا خطة لارهابه بالليل حيث صعد جماعة منهم وبأيديهم السلاح الناري على رءوس الجبال المحيطة بالمنهل ليلا وأطلقوا بنادقهم وكان لها دوي مروّع تجاوبت اصداؤه بالجبال فاستفهم محمد سعيد فقيل انه المهدي وصحبه ولكنه لا ينالك بشر وانت داخل دارنا . فطلب من ارباب [1] الجهة ان يخرجه وجيشه من اقرب طريق فخرج بعد ان دفع الفي ريال بصفة « ادبه » للملك آدم لانه دخل داره دون اذنه .

---

(1) مندوب الملك في الجهات .

بيان رسمي عن مهمة محمد سعيد باشا

وقد نقل الحكمدار بالبرق اخبار حوادث محمد سعيد باشا ودخوله جبال تقلى ورجوعه منها بتلغراف تاريخه ٨ اوكتوبر يقول فيه : « ان محمد سعيد باشا مدير كردفان بتاريخ ٦ شوال سنة ١٢٩٨ قام بألف عسكر جهادية ومائتين وخمسين باشبوزق ومائتين خيالة من العربان ورجع بتاريخ ٢٣ منه وقدم تقريرا عن انه اقتفى اثره لغاية جبال طلحة احدى جبال تقلى ولما تراءى له ان اهالي الجبال مزعزعين وملك تقلى قبل الشقي بطرفه وجد القوة لا تناسب . وضرب جبال تقلى يلزمها ٦ اورط بيادة وستة ارادي شايقية لان ملك تقلى منذ فتوح دارفور تقوى بجلابة بحر الغزال وجلابة شكا وكثير من اهل كردفان تهربوا للتخلص من دفع الماليـة وحررت خصوصي الى ملك تقلى وارسلت ابن الياس باشالكي ينصحه ويرسل هذا الشقي » .

تأجيل الخطة

اجل الحكمدار تنفيذ الخطة التي نوى اتباعها لتقرير محمد سعيد باشا عن تقلى وما يلزم لها من قوة وكذلك موسم الامطار لا يناسب تحركات قوة عسكرية كبيرة . وفي فترة الانتظار هذه وصلته انباء تقلل من اهمية المهدي وتقول بأن الكثير من اتباعه صدوا عنه ولم يبق معه الا القليل من البقارة والدناقلة . والعداوة المتأصلة بين البقارة وغيرهم وبين بدنات البقارة انفسهم لا تجعل لحركة المهدي شأنا كبيرا . فالحكمدار قد اطمئن بعض الشيء ولا يرى خطورة كبيرة للموقف وذكر في بعض رسائله ان « الحامل لهذا الشقي على هذه التسببات هم بعض الدناقلة اقاربه الذين كانوا متخذين جلب الرقيق حرفة » فليست الحركة اذا في اساسها ترتكز على عقيدة دينية عميقة حسب رأيه .

المهدي يستقر في قدير

تركنا المهدي في « بطن امك » وقد لحقت بعض جيوشه بمؤخرة محمد سعيد باشا وغنمت منها بعض الشيء وسار الى جبال النقارة واقام به شهرا كاملا لتوالي هطول الامطار وبعدها جاوز حدود تقلى متجها الى جبال قدير فنزل اولا في جبال كرن ثم الودي وفي جبل الجرادة بعد ذلك قاتلهم الفكي المختار الكناني بعد ان عاهدهم بالموادعة فانتصر المهدي . ووصل الى قدير وقابله الملك ناصر بالحفاوة والاكرام . وكان المهدي وهو في طريقه متجها للغرب منذ ان غادر ابا يلتحق به الانصار من الجزيرة وجهات النيل الابيض وكردفان والجبال وفي قدير اتاه سكان الجبال المجاورة وبايعوه غير انهم لم يكونوا على ايمان قوي ولم يركن المهدي اليهم . وبعد ان اقاموا بقية شهر القعدة والحجة اتاهم خبر راشد بك ايمن بوقت قصير قبل وصوله .

حملة راشد

سمع حاكم المديرية التي تتبعها الجزيرة ابا وهو راشد ايمن بك بأمر المهدي فخاطب الحكمدار بأنه سيقضي على حركته بما معه من القوة في فشودة ولم يتلق الاذن من الحكمدار ، فقام من فشودة ومعه ٣٥٠ جندي نظامي و٧٠ من الخطرية وقوة تبلغ الالف من الشلك وعلى رأسهم الملك نفسه . والتزم خطة كتمان خبر التجريدة منذ البدء وسير الجند بسرعة حتى يضمن عنصر المفاجأة ووصل جبل فنقر ووافقهم الملك تيفرا على كتمان الخبر بعد ان عاهد المهدي قبل ذلك بالمساعدة ولكن امرأة كنانية تدعى رابحة اسرعت سائرة النهار باكمله وثلثي الليل حتى بلغت خبر راشد الى المهدي .

تجمع الانصار استعدادا لملاقاة العدو . وهم في تلك الحالة وصلهم

رسول من قبل الملك ناصر يخبرهم بأن البارحة وصلتهم « نضيرة » وهي عادة اتخذها سكان الجبال منذ القدم تنبيء بقدوم جيش محارب وهي عبارة عن علم في رأسه نار يرفعه اصحاب الجبل الذين حل الجيش بهم ليلا وما ان يراه اهل الجبل المجاور الا ويرفعون علما ايضا وهكذا الى ان تصل مقر الملك ويتهيأ ويستعد لملاقاة الجيش وايدت هذه « النضيرة » ما نقلته رابحة الكنانية .

وبعد ان استكشفت طلائع المهدي جيش راشد وقف انصار المهدي المشاة في القلب والخيالة في الجناحين ووصلت الجنود منهوكة القوى من اثر السير السريع المتواصل وكانوا يظنون ان عامل المفاجأة عوضهم عن قواهم المتضعضعة ، ولكنهم وصلوا في حالة اعياء وتعب وامامهم صف المشاة الانصار في الجيش كأنهم يتهيئون للصلاة وفي الجناحين خيالتهم . فدخل المشاة الانصار في الجيش اولا وعندما انفرط نظام عساكر راشد وبدأ بعض الجند يفر تناولتهم الخيول من الجانبين وانتهت بنصر حاسم للمهدي وقتلت اغلبية الجيش بما فيهم راشد وكيكون ملك الشلك ، ومن نجا رجع لفاشودة ليقص الخبر واتصلت الانباء بالحكمدار الذي لم يكن مسؤولا حيث خالف راشد الاوامر مخالفة صريحة . وعند ذلك ادرك رءوف باشا ان الحالة خطرة وطلب قوات من المحروسة وختمت سنة ١٨٨١ بهذه الموقعة وطار صيت المهدي بعد ان ربح الجولة الثانية ضد قوات الحكومة ، وظلت الدروب المؤدية الى قدير مقر المهدي المنتظر تصب مددا جديدا ان لم يكن كثيرا فانه لدليل على تغلغل العقيدة في النفوس .

حوادث الثورة في كردفان والجزيرة

حقبة تردد

طلب رءوف باشا الامدادات من مصر بعد هزيمة راشد وظل كل يناير وفبراير وجزءا من مارس سنة ١٨٨٢ لا يدري ما يفعل ، وكان العرابيون آنذاك قد سيطروا على الحكومة في مصر وهـم يخافون توزيع الجنـد ويريدون الجيش يقيم بمصر لان قوتهم مستمدة منه واعتمادهم عليه ٠ وما كانوا فوق ذلك يصدقون ان الحاميات الكثيرة المنبثة في السودان تعجز عن اخماد فتنة كهذه يقودها شخص ينتمي الى طبقة الدراويش وانصاره ليس لهم سابق خبرة بالتدريب على القتال وليس لهم من الاسلحة النارية ما يصبح خطرا على اسلحة الحكومة ، ورأوا ان ما احرزه من انتصار مرده الى عدم كفاية الحكمدار وعجزه فاذا ما استبدل برجل مدبر حازم لاستطاع ان يرد الامور الى نصابها ويشيع الثقة والطمأنينة في نفس الناس بعد ان بدأت تتزعزع ٠

عبد القادر باشا الى السودان

اختار العرابيون عبد القادر باشا حلمي لهذه المهمة وهو قد تلقى تعليمه في اوروبا وله من مقدرته وكفاءته ما يجعل منه رجل الساعة في السودان . وما كانت الوزارة لتجد رجل اجدر بمثل تلك المهمة وما كان كغيره مـن

الحكمداريين السابقين بل اختير لملء منصب جديد في الوزارة وهو وزارة السودان وغادر عبد القادر باشا مصر ناظرا لوزارة السودان وحكمدارا له في آن واحد . ووصل الخرطوم في اوائل مايو سنة ١٨٨٢ ووجد الهلع والخوف يسودان الاوساط العسكرية والمدنية وقل اليهم ما عازجه من اعتداد بالنفس وثقة تامة بنجاح مهمته . واذا كان على يقين ان الفن الحربي الحديث وحده هو الذي يستطيع اخماد الفتنة ، بدأ بتحصين الخرطوم واشرف بنفسه على التدريب العسكري وفقا لاحدث الاساليب والف كراسة طبعت فيها التدريبات الحربية ووزعها على الضباط يهتدون بهديها . واذا ما صار تجهيز حملة لاطفاء ثورة محلية في الجزيرة اعطى ضباطها درسا مقتضبا عما يجب عمله من حيث الهجوم او الدفاع والتحصين وغيرها زيادة على ما يجب استيعابه من الكراسة المطبوعة . وعلى وجه العموم اصبح حركة مستمرة اعادت الى النفوس ما فقدته من ثقة وظن ان الامر سوف يحسم والمياه تعود الى مجاريها بفضل الحكمدار الجديد .

كانت النغمة السائدة في مكتبات عبد القادر باشا لمصر هي الثقة التامة بانتهاء الامر بفضل ما قام به من اجراء واصلاح فهو يقول تعليقا على تجريدة يوسف باشا الشلالي التي كانت في طريقها الى قدير « ومأمول ان شاء الله الحصول على الغرض المقصود وبعد زمن قريب منظور حضور البوستة بالاخبار المبشرة بالظفر والنجاح» . وفي نفس الرسالة يقول «وقد زال عن خواطر العامة بل والعساكر ما كانوا يتوهمونه من الخرافات التي القيت اليهم بواسطة المفسدين وحصل من الاهالي الاذعان للطاعة وطلب الامان ومن العساكر البسالة والاقدام وبعنه تعالى ونفوس الحضرة الخديوية قريبا يصير ازالة ومحو اثر ما هو من المفسدين وتقرير الامن والراحة بين كافة اهالي هذه الجهات ويعودوا للتوطن والعمارية والله ولي التوفيق افندم » .

تجريدة ود الشلالي

وقبل ان يصل عبد القادر وبعد مغادرة رءوف باشا كان القائم بأعمال الحكمدار جقلر باشا ، فرأى ان يحاول القضاء على قوة المهدي في عرينه بقدير ، فحشد جيشا مؤلفا من ثلاثة عشر بلوك من الجند النظامي والفي وخمسمائة من الخطرية وعقد لواء الحملة ليوسف باشا الشلالي . وهو من الكنوز الذين ولدوا في السودان . عمل في التجارة في الجنوب وكانت تجارة « بحارة » مدرسة لبث روح المغامرة والبطولة وخلق الرجولة فنال منها يوسف الشلالي نصيبا وافرا وباضافة ذلك الى ما منحه الله من ذكاء وصفات نادرة دخل خدمة الحكومة وارتقى فيها من حاكم في اقليم الرول (رومبيك) الى مساعد جسي الاول في تجريدته على سليمان الزبير الى مدير سنار . فتوسم فيه جقلر الكفاءة والمقدرة لقيادة الحملة واستدعاه من سنار لذلك الغرض . وكان يوسف مؤمنا بنجاح مهمته واثقا من انه سيفوز فيما فشل فيه راشد وأخذ مع جيشه من المؤن والذخائر ما يكفيه للقضاء على المهدي وما هو لازم لتموين الجند بعد ذلك . وكان في نيته ان يؤسس مديرية في جبال النوبة عاصمتها جبل الجرادة وأخذا ما يلزم من تقاوي لزراعة الخضروات والمحاصيل الاخرى .

مسير الحملة

سار من الكوة الى فشودة ومنها اتجه غربا ورئيس الخطرية معه طه ابو صدر الشايقي وأتته نجدات من كردفان على رأسها عبد الله دفع الله اخو احمد بك دفع الله وعبد الهادي صبر . وقد علم المهدي بتكوين الحملة من انصاره الذين لحقوا به حديثا من نواحي الخرطوم والجزيرة والنيل الابيض ، ونظم طلائعه وعيونه ليلم بحركات التجريدة حتى لا تداهمه مثل

ما اوشك راشد ان يفعل لولا رابحة الكنانية ونضيرة الملك ناصر . فبعث بجواسيسه الى جبل فنقر للاقامة مع تيفرا وقد عاهده هذه المرة بعد ان اضل به قبل ذلك وبعث بغيرهم للاقامة مع الملك آدم ملك تقلى يتنسطون اخبار الحكومة في الابيض بالرغم من ان الملك آدم القى في روع رجال الحكومة انه معهم وانه يمنع المهدي اذا حاول اختراق حدود بلاده وانه على استعداد لتجهيز حملة ضده فيما لو طلب اليه ذلك . وكانت الايام آخر فصل الجفاف فشحت المياه ولذا اقام الشلالي في فنقر مدة اطول مما قدر له ان يسقي جيشه وبهائم الحملة من آبار حفروها لهذا الغرض ولم يرض عبد القادر باشا عن هذا التأخير عندما حضر الى الخرطوم ورأى ان هذا يساعد المهدي بتجمع الناس حوله .

قتل الجواسيس

خان تيفر العهد للمرة الثانية وسلم جواسيس المهدي الا من فر الى رئيس الخطرية طه ابو صدر وكان اول طليعة وصلت من جيش الشلالي الى فنقر . وحكم الشلالي عندما حل بالجبل علـى الجواسيس بالاعـدام بطريقة بتر الاعضاء واحدا واحدا امام انظار الجند . كل ذلك لشدتهم في مخاطبة الباشا ولم يقره القاضي الذي كان في رفقته ولا كبار رجاله على هذه الطريقة الوحشية في اعدام الجواسيس وهي فوق وحشيتها قد تقود الى هبوط الروح المعنوية في نفوس الجند ، لان رجلا هذا مبلغ تأثيره في نفوس انصاره الى درجة تحملهم على مقابلة الموت بثبات كما فعلوا لا بد وان يكون على شيء من الحق في دعواه .

مخاطبات بين الشلالي

كان الشلالي كغيره من رجال الحكومة المسلمين يرون في دعوى المهدي

خروجا على المألوف لديهم وفي تصرفاته ما ينافي ما ادعاه وانه لا يصح لمسلم مهما بلغ من الصلاح والتقوى ان يرفع السيف في وجه جنود تدين بالولاء والطاعة لخليفة المسلمين العثماني . ثم ان المهدي في نظره فوق ذلك يبالغ ويتهم بالكفر من شك في مهديته ولم يجد ولا غيره من المسلمين في الكتب ولم يسمعوا من علمائهم الذين استشاروهم ان انكار المهدية يقود المسلم الى الكفر . كل ذلك ظهر لهم مبالغة واغراقاً او قل شطحات نادى بها درويش وهو في شبه غيبوبة . هذا او قريباً من هذا كان يراه المسلمون الموالون للحكومة في المهدي ، وعليه رأى الشلالي مراجعته بالمنطق ولم يقطع الامل في رده الى صوابه .

بعث الشلالي وهو مقيم في فنقر الى المهدي رسالة طويلة لم نهتد الى نصها ولكن نقاطها البارزة حفظها لنا المهدي في رده عليها وقد استعان الباشا بالطبع بالعالم الذي يرافقه وربما بالعلماء الآخرين قبل قيام الحملة . فهو يعترض على المهدي بأنه قتل الجند غدراً وهم قدموا للمراجعة لا للحرب في ابا ورد المهدي بان من يريد المراجعة والمناقشة يرسل «الصلحاء والعلماء اهل المذاكرة والدراية بهذا الشأن ولم يرسل العساكر الاغبياء ويعطيهم الاسلحة» .
ولاحظ الشلالي انه قتل ظلماً وعدواناً ورد المهدي « انا ما قتلنا الا اهل الجرادة بعد ان كذبونا وحاربونا وخبرنا النبي (صلعم) واخبر جميع اهل الكشف بأن من شك في مهديتنا وانكر وخالف فهو كافر ودمه هدر وماله غنيمة فحاربناهم لاجل ذلك وقتلناهم» . ويستمر المهدي في خطابه عن الترك ويقول «على ان النبي (صلعم) امرنا صريحاً بقتال الترك واخبرنا بأنهم كفار لمخالفتهم لامر الرسول باتباعنا وارادتهم لاطفاء نور الله تعالى الذي اراد به اظهار عدله فكيف نسأل عنهم بعد هذا» ورد المهدي على استخدام الطلائع ومناصرة ضعفاء الاعراب له بأن النبي (صلعم) استخدم الطلائع وكذلك صد عنه وجهاء القوم وناصره الضعاف في اول الامر .

المرحلة الاخيرة

وبعد ان هطلت الامطار ووفرت المياه تحرك الجيش ونزل بجبل الجرادة وهناك تحصن داخل زريبة من الشوك ظل الجند طول الليل يقيمونها وناموا في الجزء الاخير من الليل مما لاقوه من السهر والتعب . وتحرك المهدي بكل جيشه ونزل ليلا حول الزريبة ولكنه لم يقترب منها . فبات ليلته وعند فجر ١٧ يونيو سنة ١٨٨٢ صلى بهم ووقف فيهم خطيباً وحرضهم على الجهاد في سبيل الله وأوصاهم بان يؤدي كل دينه وان يودع الصديق صديقه وكلهم منصتون ، وبعد ذلك اخذ يلقي الاوامر على رؤساء الرايات وظل كل امير يقلع رايته ويذهب الى الجانب الذي امر باحتلاله لمواجهة الزريبة . وبعد ان انتظموا في شبه حلقة حولها امر انصاره ان يحمل كل منهم سبع حبات من الحصى ويرميها على الزريبة وهو يقول «اللهم انت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك تقتلهم انت ثم تكبروا وتدخلوا الزريبة» .

المعركة

اشتبك الفريقان في موقعة لم تكن بالسهلة الهينة وقد كانت من أشد المعارك التي دارت بين الفريقين في حروب المهدية ، وتمكن الانصار من اجلاء الجند من الزريبة ومتابعتهم بعيداً عنها . وقتل في الهجوم الاول طه ابوصدر فضربت زوجته النحاس وظلت تنادي بجنده للتجمع والثبات وابدت بسالة لم تعهد في امرأة مثلها . واتخذ عبدالله دفع‌الله خدعة جازت على الانصار بأن امر جنوده بالقاء انفسهم على الارض حتى يظن بانهم ماتوا وبعد ان تركت الراية الزرقاء (راية الخليفة عبدالله) الزريبة متعقبة اثر الجند الذين خرجوا منها قام واصلح الزريبة واصلى الراية الزرقاء ناراحامية كانت شديدة الوطأة عليهم ، وما تمكنوا منه الا بعد ان احاطوا بالزريبة مرة ثانية وتغلبوا عليه

بتفوق المدد ، وانجلت المعركة بانقراض جيش الشلالي الا القليل الذي فر لينقل الخبر .

اثر الانتصار

لم يبق شك في اذهان الشعب بعد ان تغلب المهدي في الجولة الثالثة ، فازدحمت الدروب الى قدير من كل فج وبعث من هناك بالرسل والامراء الى نواحي كردفان ودارفور والجزيرة لاشعال النيران ضد حاميات الحكومة ، وتواترت الاخبار والشائعات عن المهدي وكرامته فمنها ان النار تشتعل في اجسام جند الحكومة وان اسمه وجد منقوشاً على ورق الشجر وبيض الدجاج .

الدافع الاول

وهنا يجدر بي ان الاحظ ما كتبه المؤرخون في الاسباب التي ادت الى الثورة المهدية ويجمعون على ان الاسباب الرئيسية هي فداحة الضرائب وتفشي الرشوة والعنت والظلم والمناداة بابطال الرق . وقد تكون بعض هذه الاسباب او كلها مجتمعة السبب في انضمام البعض الى راية المهدي وقد يكون المهدي استعان بالبارزين ممن كانوا فريسة لواحد او لأكثر من تلك الاسباب لكن الناحية التي يهملونها والتي في نظري المحرك الاول للثورة هي المعتقد الديني وشخصية المهدي .

فالشعب السوداني يدين معظمه آنذاك بالعقيدة الاسلامية بواسطة الطرق واتباع المشايخ . ويعطي وزنا كبيرا للكرامة وخوارق العادات ودخل في روعه مخالفة الولي او الصالح لا تضره في آخرته فحسب بل قد يرى اثرها الضار في الدنيا نفسه او ولده او ماله . وعندهم من الامثلة لذلك

شواهد يرونها . ومشايخهم كغيرهم من المسلمين ينحون باللائمة على الحالة التي تردى فيها الاسلام وكيف انه اصبح غريبا كما كان اولا . وهم يأملون ان يجدد الاسلام على رجل من آل بيت النبي يملأ الارض عدلاً كما ملئت جوراً وظلما وهم قد قرأوا في كتبهم التي درسوها اوصاف الرجل وما يستطيع عمله . وهم يؤمنون بفكرة المهدي ولا ينكرونهـا كبعض العلماء يشكون فيها وانهم ان اعتقدوها لا يرون في نظرهم اوصافها منطبقة على الشيخ محمد احمد . ولكن فئة العلماء قليلة في السودان آنذاك وجل رجال الدين ، الذين يؤثرون على الجهور الاسلامي هم ارباب الطرق من الصوفية يفخرون بأنه قام بهذا الامر رجل منهم ، وحانت الفرصة للقيام لنصرة الدين فبثوا الفكرة في تلاميذهم واتباعهم وضربوا لهم مثلا باتباع المصلح الجديد فتابعهم العامة اما اقتداء بمشايخهم او خوفا من غضب ذلك الولي الصالح الذي سمعوا بزهده وتقشفه وكراماته او ارضاء لغريزة القتال التي تمكنت منهم او عند البعض حبا للمغانم والنهب . ولا شك ان بعضهم انضم الى المهدي بعد واقعة الشلالي وبعد الوقائع الاخرى وخاصة بعد هكس لانقطاع املهم مـن الحكومة وبعـد ان وضح ان المستقبل للمهدي . ومـن هذه الطائفة بعض العلماء والتجار الذين وان علت مناصبهم في المهدية الا انهم في الواقع ما رسخت عقيدتهم في المهدية يوما من الايام .

فوق ما ناله المهدي من تأييد وسمو الروح المعنوية بين انصاره وفوق ما تدفق عليه من سيل الاتباع والمريدين ، فانه كسب مغانم عظيمة في الزاد والعتاد بسحقه قوات الشلالي ولنتركه الآن يجمع المغانم ويضعها في بيت ماله تحت امرة صديقه احمد ود سليمان ويتلقى افواج المبايعين ويرسل السرايا والرسل الى الغرب والجزيرة ، ويخاطب بيوت الدين بمهديته ويقدم لهم الآن الدلائل والبراهين بانتصاراته الساحقة على قوات الحكومة التي كانت هيبتها وسطوتها تملأ النفوس ولنرَ ما فعله الحكمدار وما شب مـن ثورات في الجزيرة .

كانت الجزيرة ملأى بزعماء الدين « مشايخ الطرق » وكانت سيطرتهم تامة على سكانها . وهم وسكانها قد عرفوا محمد احمد منذ ان كان شيخا يتجول بدراويشه وهم قد عرفوا ما كان من امره مع استاذه الشيخ محمد شريف وانضمامه الى الشيخ القرشي الذي وصل درجة عظيمة آنذاك من الصلاح ورأوا في محمد احمد باشا شابا بلغ به الزهد والورع والتقشف مبلغا لم يعهدوه في مثل سنه او حتى في من يكبره من المشايخ . والآن وقد سمعوا بانتصاره في ابا ثم على مدير فشوده هاجر بعضهم اليه لانهم لم يستطيعوا المجاهرة بالعصيان لقرب قوات الحكومة منهم وبعد المهدي عنهم .

حركات عامر المكاشفي

كان الشيخ احمد المكاشفي احد الذين هاجروا لقدير وكانت اوامر الحكومة تأمر بتنكيل اقارب المهاجرين فألقت القبض على اخيه عامر واذاقته من صنوف العذاب الوانا في سنار ، فافتدى نفسه بما معه من مال وخرج حانقا غاضبا على الحكومة وبالرغم من وجود المهدي بقدير وبالرغم من ان قوات الحكومة ترابط في انحاء مختلفة في الجزيرة اتى الى عربان رفاعة الهوى جنوبي سنار « وعرض مهدية » اي نادى بالثورة ، فتجمعوا عليه للتخلص مما ترهقهم به الحكومة من ضرائب وسار بهم الى سنار وتمكن من اقتحامها ، ولكنه جرح فخرج منها ليرجع اليها المدير وجنده ، فامتنعت عليه هذه المرة غير انه حاصرها وقطع خط التلغراف الذي يصلها بالخرطوم . وقد علمت الحكمدارية بأمر سنار قبل القطع فأمر جقلر صالحاً ود الملك ان يتقدم من الكوة لفك الحصار فنجح في مهمته وتراجع عامر الى بركة تيقو ليستأنف هجومه مرة ثانية كما سيجيء .

الشريف احمد طه ومحمد زين

ثار الشريف احمد ود طه شرقي النيل الازرق بين رفاعة وابي حراز وقد تحمس للمهدي والمهدية رغم انقطاع الصلة بين مقره ومركز الدعوة في كردفان ووجد من شايعه ، فانتصر على عدد الباشبوزق الذين بعث بهم جقلر وكذلك على نجدة من القلابات ولكنه اندحر اخيرا وقتـل حين قاد جقلر نفسه قوة من الجنود النظامية تحمي ظهورهم فرقة من الشكرية . ثم واصل جقلر سيره جنوبا لينتصر على محمد زين التكروري في ابي شوكة وعاد الى الخرطوم ليجد عبد القادر بها بعد ان قضى على تلـك الحركات الاولى في الجزيرة ما عدا حركة عامر المكاشفي، وعندما استلم عبد القادر مقاليد الامور بعث بصالح ود الملك لمطاردة عامر وتغلبت باشبوزق صالح على اعراب عامر لانهم لم يتعوّدوا القتال ضد الاسلحة النارية ولانهم لم يروا المهدي حتى يؤمنوا به ايمان عقيدة وحتى يبيعوا الارواح كما فعـل الانصار ذوو العقائد الراسخة . وانتهت حرب العصابات الاولى في الجزيـرة وفرّ عامر نفسه الى قدير لمبايعة المهدي وسرت موجة فرح وسرور في الدوائر الحكومية وتيمنوا بقدوم عبد القادر الا انهم تلقوا الاخبار المنبئة بانقراض حملة ود الشلالي كما ذكرنا .

موجة ثانية في الجزيرة

اندلعت النيران في الجزيرة مرة ثانية برجال بايعوا المهدي واتوا لتنفير القوم ضد الحكومة فمنهم ود الصلحابي الذي ثار في الجبلين وانتصر على جند الحكومة بقيادة السعيد بك الجميعابي ورجع الاخير بفلول جيشه ليتحصن بالدويم . واتى من قدير الداعية الاكبر احمد المكاشفي وبدأ يقتل حامية شات الى الجنوب الغربي من الدويم وزحف على الدويم الا انها امتنعـت

عليه . وسار في طريقه لمهمته في سنار ، ولكن ساء العربان الدويم ان يندحروا فتجمعوا على عبد الباسط الجري وحصروها الى ان يرفع الحصار على يد جقلر موفدا من عبد القادر باشا .

وشبت نار في غربي الجزيرة ايضا اشعلها فضل الله ود كريف من مشايخ الطريقة السمانية وقطع خط التلغراف بين الكوة والمسلمية وهزم ما ارسل اليه من جند حكومي في ام سنيطة . وانتهت سنة ١٨٨٢ ولا تزال المقاومة تتركز في فضل الله في غرب الجزيرة واحمد المكاشفي بقوات كبيرة في مشروع الداعي على بعد عشرين ميلا شمالي سنار وهو انما اختار ذلك المكان بعد ان تحسس حصون سنار وامتنعت عليه ورأى ان يمنع وصول المدد اليها من الخرطوم بعد قطعه خط التلغراف مرة ثانية .

عبد القادر ينهض للجزيرة

رأى عبد القادر باشا ان الامر في الجزيرة يستدعي قيامه بنفسه فغادر الخرطوم في ٢ يناير سنة ١٨٨٣ الى المسلمية ومنها الى عبود وهناك اخذ ما بها من حامية وذهب بها الى غرب الجزيرة ليقاتل ود كريف ، وبعد ان تم انتصاره عليه في قرية معتوق اراد القضاء على مركز المقاومة في شرق الجزيرة في مشرع الداعي ، فجاء بقوات من الكوة وامرهم بالمسير الى ود مدني لانتظار اوامره هناك ، ورجع هو الى الخرطوم ومنها نزل في البواخر وزحف على رأس قوة على ود المكاشفي فأوقع به ودحره الى سقدي مويه غربي سنار ودخل المدينة ظافرا . وأرسل صالحا ود الملك على رأس قوة تطارد ود المكاشفي وتمكن فعلاً من زحزحته من سقدي موليه حيث رحل بفلّه ليتصل بود برجوب الثائر بنواحي الجبلين . وواصل عبد القادر سيره جنوبا ليطارد الحاج احمد عبد الغفار حيث اراد اسقاط حامية كركوج فالتقى به في التبنة قرب الروصيرص وشتت جموعه ورجع الى الخرطوم منتصرا ، وبدأت الثقة تعاود النفوس بعد ان فقدت بهزيمة ود الشلالي .

هذه اجراءات عبد القادر الحربية وقد تمت كلها بنجاح ولكنه عرف ان سلاح الدعاية الذي يقوم به المهدي قوي لا بد من مقاومتها ، فخطابات المهدي ومنشوراته تثير في النفوس الحماس وتلهب المشاعر ، واذا تركت دون رد ربما يظن الناس ان الحكومة ومن شايعها من العلماء يعجزون عن مقارعة المهدي بالحجة والبرهان ، فوجه عبد القادر همته لهـذا الامـر . ولو ان السلطان عبد الحميد اصدر منشورا رسميا للعالم الاسلامي بتكذيب الدعوى وكذلك علماء الازهر افتوا ببطلانها ونشروا فتواهم هـذه ، الا انه رأى الحاجة ماسة لرسائل ومنشورات وفتاوى تصـدر من الخرطوم وتوزع في السودان ليقارنها الناس مع خطابات المهدي لعلهم يؤمنون ويقتنعون بدعاية الحكومـة .

اكد المهدي في منشوراته وخطاباته « تغير الزمن وترك السنن ولا يرضى بذلك ذو الايمان والفطن بل احق ان يترك لذلك الاوطار والوطن لاقامة الدين والسنن » . ثم انه وضح ان الناس قد تنكبوا الطريق المستقيم وانجرفوا في سبل الضلالة فهو قد اتى لتطهير الفساد واقامة العدل والدين بدلا من الظلم والضلال وبيّن انه مأمور من الله واخـبره سيـد الوجود بالخلافة الكبرى والمهدية العظمى وان من خالفه فقد كفر وذكر مسندا عن الشيخ « محي الدين بن العربي في تفسيره على القرآن العظيم علم المهدي كعلم الساعة والساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة الا الله » وروى عن الشيخ احمد بن ادريس انه قال « كذبت في المهدي اربـع عشرة نسخة من نسخ اهل الله ثم قال يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها » ثم مضى يقول « وهذا لا يخفى عليكم ان التأليفات الواردة في المهدي ومنهـا الآثار وكشف الاولياء وغير ذلك فيختلف كل منها كما علمت من انه الله ما يشاء الآية وفيها الاحاديث فمنها الضعيف والمقطوع والمنسوخ والموضوع

بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح والصحيح ينسخ بعضه بعضا كما ان الآيات تنسخها الآيات وحقيقة ذلك على ما هي عليه لا يعرفها الا اهـل المشاهد والبصائر » .

هذه بعض من اقوال المهدي سواء في منشوراته او خطاباته او احاديثه مع اصحابه ومنها يتبين لنا ان دعوته في اساسها ترتكز على التغير الذي حدث في الدين وعلى انتشار المفاسد وعلى الحاجة الى تطهير الدين مما علق به من ادران ، ويحتاط لمن يتصدى لتكذيبه بأن البلد التي يخرج منها المهدي والسنة التي يظهر فيها ، والهيئة التي بها يعرف كلها امور لا يعلمها الا الله، فإن وردت احاديث عن شأن المهدي وظهورهلا تنطبق على مهديته فالاحاديث منها الضعيـف والموضوع والمنسوخ ويضرب على نغمة ضرورة التسليم بالمهدية لان من خالفه فقد كفر . والناس عندما يقرؤون منشوراته وخطاباته ويقرؤون بين سطورها الثقة برسالته والايمان بعقيدته يخافون من وعيـد المخالفة ، وهم يرون بأعينهم تبدل الحال وان المسلمين على غير ما يريدون لانفسهم وهم اذ يسألون عن نشأة محمد احمد وعن مسلكه يتعرفون الى زهده وتصوفه وابتعاده عن الشبهات واعتماده على الخالق لا على المخلوق .

درءاً لتلك الدعاية كلف عبد القادر باشا المفتي شاكر الغزي ومحمد خوجلي قاضي عموم السودان والسيد احمد الازهري ان يؤلف كل منهم رسالة في تكذيب دعوى المهدي ، فركزوا منطقهم في ضرورة طاعة ولـي الامر وبالآيات والاحاديث ووردوا كل الاحاديث التي استطاعوا جمعهـا من كتب السنة وبينوا ان كل الاوصاف التي وردت في شأن المهدي مـن حيث الزمن والمكان وهيئة المهدي تخالف حالات الشيخ محمد احمد . ووضحوا ان لا ضرورة لظهور المهدي لان الارض لم تملأ جورا وظلمـا وان الجميع يرتعون في بحبوحة الامن والسلم تحت رعاية افنـديتا الخديـوي والناظر والحكمدار عبـد القادر باشـا وان الجميـع يدينون بالولاء والطاعـة لسلطان المسلمين الذي يخطب باسمه في المساجد . وحذروا المسلمين مـن

الضلالة بعد المهدى وحرضوهم على شد ازر الحكومة ومعاونتها في القضاء على تلك الحركة . وزاد المفتي ان امر المهدية نفسه يقول به بعض العلماء ولا يقول به البعض الآخر . وقد طبع الباشا هذه الرسائل ووزعها على الناس لمقاومة منشورات ورسائل المهدي وفكر ايضا في اعمال الاغتيال بواسطة مأجورين وفي ارسال احدى الظروف التي تحوى ديناميتا يتفجر بمجرد ان يفتحه المهدي وحاول بواسطة احد الدراويش ان يبعث بعجوةمسمومة كهدية للمهدي . ولم يتبين لنا من الوثائق فيما اذ نفذت مسألة العجـوة والظرف والاغتيال ولكنها ذكرت كوسائل ينوي الحكمدار تجربتها .

وقد تحدث الناس عن محاولة الاغتيال بواسطة عبدالله ود ابراهيم حيث صوّب مسدسه على المهدي ولكنه لم ينطلق رصاصة في رواية وعلم المهدي بالمؤامرة قبل ان تنفذ في رواية اخرى ويتحدثون عن تسليم عبد الله هذا بأمر المهدية وتحمسه واخلاصه لها فيما بعد .

وقد الف الشيخ محمد شريف ايضا قصيدة في ذم المهدي بأيعاز من عبد القادر باشا قال فيها :

لقد جاءني في عام « زع » لموضع	على جبل السلطان فيشاطيء البحر
يروم الصراط المستقيم على يدي	فبايعته عهداً على النهي والامر
فقام على نهج الهدايـة مخلصا	وقد لازم الاذكار فيالسر والجهر
وافرغ في نهـج المحامـد جهده	فرقيتـه جهـلا بعاقبـة الامـر
اقام لدينـا خادمـا كل خدمـة	تعز على اهل التواضع في السير
كطحن وعوس واحتطاب وغـيره	ويعطى عطا من لا يخاف من الفقر
وكم صام كم صلّى وكمقام كم تلا	من الله لا زالت مدامعه تجـري
وكم بوضوء الليل كبّـر للضحى	وكم ختم القرآن في سنـة الوتر
لذلك اسقى من منهل القوم شربة	بها كان محبوبا لدى الناس في البر
وكـان لدينـا عيشه صدقاتنـا	وخادمنا عشرين عاما مـن العمر

الى الخمس والتسعين ادركه القضا　　على ما مضى من سابق العلم بالشر
بصحبة شيطان مـن الجن آيس　　وشيطان انس وافقـاه على الضر

المسير الى الابيض

تركنا المهدي منتصرا في قدير على ود الشلالي في مايو سنة ١٨٨٢ واستطردنا في حوادث الجزيرة من الشهور الاولى من سنة ١٨٨٢ الى الشهور الاولى من سنة ١٨٨٣ حيث خف الحكمـدار بنفسه واعـاد الهـدوء الى ارجائها ، والآن سنسرد ما حدث للمهدي بعد انتصاره العظيم . بث دعاته لمضايقة حاميات كاردفان ودارفور او استلامها لو انسوا فيها ضعفا ، فذهب مادبو الى دارفور وسقطت الحاميات في كردفان الواحدة تلو الاخرى ما عدا بارة والابيض وقد شاهدت التيارة مجزرة بشرية هائلة من قبل الفلكي المنا اسماعيل وخربت قرية اسحف خرابا تاما وبعد شهرين من واقعة الشلالي تحرك الجيش من قدير قاصدا الابيض وقيل ان الياس باشا امبرير في الابيض تواطىء معه واستدعاه لفتحها . وكانت الامطار تنزل مدرارا فاضطر للبقاء نحو الشهر في جبال الكواليب . وعندما غادرها ترك الاسلحة النارية التي غنمها من الوقائع الثلاث ، لان الانصار يعولون على الرمح والسيف ، وقد تمت انتصاراتهم الى الآن بها ونزل عنهل كابا على بعـد ستة اميال الـى الجنوب الغربي من الابيض وبعث برسولين لحامية الابيض واعيانها وتجارها يطلب اليهم التسليم فرفضوا بل حكموا على الرسولين بالاعدام لاستخفافها بالحكومـة .

خرج من والي المهدي سرا الى معسكر كابا وعلى رأسهم الياس باشا امبرير وحاج خالد العرابي ومحمد باشا امام وجورج اصطمبولية وكثيرون غيرهم . ومن البارزين الذين أخلصوا للحكومة وظلوا على ولائهم لها الى آخر نسمة من حياتهم احمد بك دفع الله منافس الياس باشا وخصمه . وقد

صممت الابيض على المقاومة فحفر خندق خارجي على كل المدينة وعزز بخندق داخلي يلتجيء اليه الجند اذا ما صعب عليهم الاحتفاظ بالخارجي . وعدد الجند الستة آلاف من نظامية وباشابوزق ، وقائد الحامية محمد سعيد باشا حكمدار غرب السودان يعاونه علي بك شريف مدير كردفان واسكندر بك قائمقام العساكر .

الهجمة الاولى

عيل صبر اصحاب المهدي وألحوا عليه بأن يأذن لهم في الهجوم فهم ان لم يظفروا بالنصر ظفروا بالشهادة في سبيل الله ، وهم ايضا تخوفوا من ان تدخل جنود الفكي المنا المرابطة في الشمال وتفوز بالنصر والغنائم قبلهم. ويقال انه لم يأذن لهم ومع ذلك اتجهت جموعهم تظللهم سحب التراب الذي أثارته حوافر خيولهم ويسمع لصوت ارجلهم وارجل خيلهم دوي كأمواج البحر الذي حركته ريح هوجاء . ودخلوا الاستحكام الخارجي واصطف الجند داخل الخندق الداخلي وفتحوا على الانصار نيران المدافع والبنادق كالمطر وكل ما سقط فريق اقتحم فريق آخر غير مبالين بالموت ، بل أمنيتهم الفوز بالشهادة ، ومن الغريب ان ترى الانصار يحمل على المدافع او على افواه البنادق وهو لا يحمل غير عصي هي سلاحه الوحيد .

استمر الانصار يقذفون بانفسهم منذ طلوع فجر ٨ سبتمبر ١٨٨٢ حتى بعد الظهر ، ويبلغ عددهم نحو الخمسين الفا على جنود الحامية وراء الخنادق والمتاريس وكان كلما دخل بعض الانصار الاستحكام اجلتهم العساكر ، واذا ما رأى الجند ان الارض لا تصلح ميدانا لنيرانهم لاختلاطهم بالانصار رقوا الى سطوح المنازل وظلوا يرمون من فوقها ، يقابله عناد مثله من الانصار اذ كانوا يجعلون من انفسهم سلالم يرقى عليها بعضهم لاجلاء عدوهم من مراكزه . وانجلت المعركة بتقهقر الانصار الى منهلهم

بعد ان تركوا ما يقارب العشرة آلاف قتيل من ضمنهم اخو المهدي محمد وعبد الله بعد ان استشهد اخوه حامد في قدير في موقعة الشلالي ، وكذلك استشهد قاضيه احمد ود جباره . وقد ابدت حامية الابيض ثباتا وشدة مراس دل على ما تستطيع شرذمة قليلة نسبيا اداءه اذا ما صدقت القتال وضحت وهي تلك الفئة من الجهادية السود الذين حينما سلم من بقي منهم بعد ذلك كانوا اداة فعالة في القضاء على حملة هكس كما سنبينه في حينه . قرر المهدي بعد ان ردته الحامية ان يحاصرها وكذلك امر انصاره بحصار حامية بارة ، وبعث يجلب الاسلحة النارية من الكواليب وقد رأى فتكها وفعلها . واذا كان انتصار الانصار على الاسلحة النارية في مكان خال من الحصون فان فوهة البندقية وراء متراس او حصن لا تقاوم .

عرابي يعارض ارسال الجند الى السودان

ذكرنا قبلا ان العرابيين استولوا على الحكومة المصرية وتألفت اخيرا نظارة برئاسة محمود سامي البارودي ، وعرابي نفسه كان ناظر الجهادية فيها ، وذكرنا انهم عانعون في ارسال الجيش الى السودان خوفا على مراكزهم التي يسندها الجيش ، فقد طلب عبد القادر باشا امدادية للسودان بعد واقعة الشلالي وان لم يتيسر ارسال الجند طلب خمسة آلاف بندقية رمنتون لعلمه ان النظارة قد لا توافق على بعث الجند ، ورداً على ذلك الطلب ارسل عرابي بصفته ناظر الجهادية والبحرية الوثيقة التالية الى المعية « وحيث ان الوقت لا يساعد على ارسال عساكر من مصر للاقاليم السودانية بسبب ان الموجود والحالة هذه هو على قدر الضروري لتوطيد الامن الداخلي خصوصا ان حكمدار السودان رأى انه اذا كان غير متيسر ارسال عساكر الآن فيرسل اليه خمسة آلاف بندقية بالجبخانات الذاكر عنها فأفكاري في ذلك صرف النظر عن ارسال عساكر ويكتفي بارسال الاسلحة

والجبخانة المطلوبة ، وها هو جاري اللازم في تجهيز وارسال الاسلحة والجبخانة المذكورة فنؤمل عرض ما ذكر على الحضرة الفخمية الخديوية » .

ساعد انتصار حامية الابيض على تهدئة الاحوال وأزال القلق الذي احدثته ابادة تجريدة الشلالي نوعا ما وخرج عبد القادر بنفسه الى الجزيرة واعاد هدوءها كما قدمنا واتجهت الأنظار الى المشاكل الداخلية في مصر وما جرته من ازمات دولية والكل يثق بحكمة ومقدرة عبد القادر باشا لمعالجة ما قد ينشأ من تطورات وازمات في الموقف السوداني .

الصورة تعود قاتمة

وبالرغم من الانتصار الذي نالته حامية الابيض فان الصورة سرعان ما عادت قاتمة عندما تشدد الحصار وابيدت معظم الامدادية التي ارسلت لنجدة حاميتي الابيض وبارة بقيادة علي بك لطفي وفيها قتل السيد احمد الازهري وقد عين قاضيا لغرب السودان . وشرح عبد باشا الموقف للحكومة ونوه لهم ان الثقة في الحكومة قد تزعزعت وان الجنود النظامية يحرسون المحطات العسكرية المختلفة في انحاء السودان معظمهم من السودانيين وهم لا يعتمد عليهم في قتال زعيم ديني منهم ، والعساكر غير النظامية ضعيفة في مقدرتها الحربية « وبناء عليه تراءى انه بدون حضور قوة عسكرية كافية من المحروسة بأي طريقة كانت لا يمكن الحصول على اعادة هذه الجهات الى السكون بل يزداد التلف فالأمل الاسعاف بارسال قوة أقله عشرة آلاف نفر لانه ان تأخر حضورهم الآن منظورة ان الفتنة تعم كافة الجهات السودانية وفيما بعد يتعسر اطفاؤها باضعاف اضعاف هذا المقدار ولو كان تيسر وصول هذه النجدة كان مأمول ازالة المصاعب في اقرب وقت ، لكن لسوء الحظ لم يتم المقصود فالرجا العرض على الاعتاب الكريمة » .

تحرج الحالة في الابيض

وفي ديسمبر سنة ١٨٨٢ تمكن محمد سعيد باشا من مخاطبة عبد القادر وصوّر له جموع المهدي التي بلغت المائة الف نفس وما معها من الاسلحة النارية التي غنمها ، وبين له صعوبة المقاومة ولاسيما ان العساكر قد اشتدت مضايقتهم من ناحية الاغذية فلم يتركوا حيوانا او حبة من الغلال الا استهلكوه واستهلكوه ، وشاركوا النمل في مخازنه الارضية وسطوا عليها ، ولاحقوا الفيران في اجحارها وقبضوا عليها وما تركوا جلدا او عرقالنبات ومع ذلك فقد ظن عبد القادر ان محمد سعيد يبالغ حيث قال « وهذا وأنه وان كان المتراءى ان ما رواه هذا الحكمدار فيه مبالغة لكنه على اي حال نرجو الاسعاف بسرعة ارسال المدد » . ومن هذا يتضح ان الحكمدار يرى في وصف قائد حامية الابيض للحالة وتحرجها مبالغة ، وكذلك ترى الحكومة في مصر ان الحكمدار يبالغ في سوء الحال عموما وان ما يطلبه من مدد لا يرون ان الحالة العسكرية تستدعيه ، وهذه الظاهرة ساهمت في خذلان جنود الحكومة وانتصار المهدي بنصيب كبير .

عبد القادر يطلب النزول

وصل عبد القادر في أواخر سنة ١٨٨٢ الى درجة اليأس فكتب في ١٤ ديسمبر يطلب ان يعفى من الخدمة في السودان ويقول « المنظور ان تكامل حضور العساكر اللازمة سيأخذ وقت طويل وبهذا السبب ستتسع الحركات الحاصلة بهذه الجهات وعا ان تلك الحركات لا يمكن اطفائها الا بوجود العساكر الكفاية وفضلا عن ذلك فان اهوية هذه الجهات قد أضرت بصحتنا فلهذا نسترحم من تعطفات الحضرة الفخيمة الخديوية تعيين من يقوم مقامنا والتصريح لنا بالتوجه للمحروسة فالمرجو عرضه على الاعتاب الكريمة

افندم » . ولكن الجناب العالي لم يوافق على اعفائه ويرد عليه « ونود ان يكون هذا الانتصار العظيم على يدكم لتحوزوا بذلك الفخر وتحظوا من لدينا بمزيد الالتفات والرعاية فالمأمول منكم الاستمرار في مباشرة هـذه الاشغال ومن هنا جاري الاهتمام الزائد في تسهيل وابعاث العساكر اول بأول » .

الانجليز يحتلون مصر

ومنذ يوليو سنة ١٨٨٢ كما تعلم قد احتلت الجنود الانجليزية مصر بعد ان انتصرت على قوات عرابي ودخلت المسألة السودانية في طور جديد . ولو ان الحكومة الانجليزية اظهرت عدم تدخلها فيما يجري في السودان ورأت فيها ثورة محلية لحكومة الخديوي ان تعالجها بما تراه ، الا انه من وجهة عسكرية ترى الحكومة الانجليزية الا بد من معرفة كنه الحركة ومدى تطورها واحتمالاتها وهل وصلت الى درجة ان تكون خطرا على مصر نفسها ؟ وهنا لا يهملها الانجليز لانهم لا بد وان يدافعوا عن مصر .

بعثة ستيورات الى السودان

ولجأت السياسة الانجليزية كما تفعل في مثل هذه الحالات الى بحث الحالة بواسطة لجنة او مندوب خاص وتقديم تقرير عنها ، فانتدبت الكولونيل ستيوارت للذهاب الى السودان وبحث حالته هناك . وعندما نزل بسواكن سأل عن القوات المعسكرة في موانىء البحر الاحمر وأجناسها وعن عدد الاسلحة وأنواعها ونصح بأن يبعث الجنود السودانيين للخرطوم وان يحل محلهم مصريون من المحروسة ، وفي بربر طلب من المدير بيانا بالقبائـل وعددها واسماء مشايخها ومقدار الاموال المربوطة عليهم وعدد السواقي

وغير ذلك من شؤون المديرية . وابرق حكمدار شرقي السودان وكذلك مدير بربر الى عبد القادر باشا بما طلبه ستيوارت وكان حضوره واسئلته موضع دهشتهما . فبعث الحكمدار يستفهم عنه للمعية وما يجب ان يتخذه ازاءه من موقف .

ورد الرد للحكمدار بأن المعلوم لدى الحكومـــة المصرية هو ان ستيوارت وبصحبته مساديله كان مديرا لدارفور سابقا ذهب للوقوف على حالة المهدي وانها لم تعرف الغرض من اسئلة الكولونيل الا انها ترى ان يمد الحكمدار ستيوارت بالمعلومات التي يطلبها ولا يأذن لغيره ان يتصل بالكولونيل ، وعلى الحكمدار ان يضع الضابط الانجليزي تحت المراقبة بحيث لا يشعر بها وكذلك مرافقه مساديليه ويبعث بملاحظاته عنه سرا دون ان يلم بها اي مخلوق كان .

وابرق عبد القادر بأولى رسائله عن حركات ستيوارت وقال « انه يريد الوقوف على جميع احوال هذه الجهات سواء اكانت ادارية او عسكرية او مالية او جغرافية او سياسية » ولم يقف ستيوارت عند ذلك الحد بل نصح بطلب الاورط السودانية الموجودة في سواحل البحر الابيض واحلال جنود المحروسة محلهم . واستمر عبد القادر في ملاحظاته بقوله « ومـــن اختبار احوال المومى اليه تبين لنا انه يريد اظهار سطوتهم بهذه الجهات وبناء عليه قد نصحناه بالمحسوس بتعريفه ان الحركات الحاصلة هي حركات دينية وان ذلك يفتح للشقي بابا لتأييد ما يوهم به على العربان ويوجههم للثبات على تصديقه واتباعه ولذلك عدل عن تلك الطريقة وأخذ يظهـــر اتفاق حكومته مع الحكومة الخديوية على اطفاء هذه الحركات وقد ابدى لنا غاية الممنونية مما رآه من الاهتمام يومي بتعليم العساكر والضباط » .

واقترح ستيوارت حضور ضباط من الاوروبيين لهم معرفة باللغة العربية وسمى له بعضهم فبعث الحكمدار في طلبهم وقص الباشا ايضا ما

وقع من خلاف بين جقلر وستيوارت كاد يؤدي الى الضرب بسبب ما لاحظه الاخير على جقلر من نقص في خطتي الحربية التي قام بها اخيرا في النيل الابيض .

والظاهر ان تخوف الحكومة المصرية من مأمورية ستيوارت قد زال اذ وردت برقية للحكمدار تقول « انه من التحريات التي جرت علم لدينا ان الكولونيل ستيوارت مأموريته هي التجسس فقط عن مسألة المهدي وأحوال السودان فقط ولا شيء خلاف ذلك كما ان مساديله بك انما هو رفيق سفرية فقط مع الكولونيل المومى اليه وليس له مأموريته مطلقا فلا يكن لكم فكرة من امرهما وأنما كلما طلبه الكولونيل من الايضاحات يعطى له ويقتضي ان تجروا حرق التلغراف الذي ارسلناه لكم قبل هذا بخصوص من تقدم ذكرهم » .

وفي نفس الوقت الذي كان فيه ستيوارت يقترح تعيين ضباط اوروبيين في الخرطوم تقرر في القاهرة ان يعين رئيس اركان حرب الانجليز لجيش السودان وهو في طريقه الى مصر وهو الذي يأخذ معه من الزملاء الانجليز من يرى اخذهم معه .

استدعاء عبد القادر

وهنا تعترض مسألة في غاية الغموض وهي استدعاء عبد القادر باشا . ومما يزيدها غموضا طريقة السرية التي اتبعت في استدعائه فقد تركناه في ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ يكتب بالسماح له بالنزول الى المحروسة ويأتيه الرد من الجناب العالي بالبقاء ليتم النصر على يديه ومن ١٥ ديسمبر الى ٢٣ منه تتصل مكاتباته بمصر بشأن بعثة ستيوارت وفي ٢١ ديسمبر ايضا يبرق للحكمدار بتعيين رئيس اركان الحرب الانجليزي وهو في طريقه من انجلترا . وتحفظ لنا المحفوظات في سراي عابدين أوراقا تتعلق بمأمورية

احمد حمدي بك ياور جناب الخديوي لجهة الاقاليم السودانية وتنص التعليمات على انه يغادر القاهرة في ٢٤ ديسمبر بطريق السويس وعندما يصل سواكن يسلم الامر بتعيين علاء الدين باشا حكمدارا على السودان سرا ولا يذيعه وعند وصوله الخرطوم يسلم الامر العالي الى عبد القادر باشا بالغاء نظارة السودان وانفصاله عن حكمداريتها . فما الذي حدث ما بين ١٤ ديسمبر و٢٤ منه حتى تتغير الاتجاهات لدرجة ان الجناب العالي يرفض طلب عبد القادر باشا بالنزول الى المحروسة ويريده ان يتم النصر على يديه ليصدر اوامر سرية بعد عشرة ايام فقط بل اقل بانفصاله عن الحكمدارية ؟ ستيوارت نفسه في تقاريره ينحي باللائمة على الحكومة المصرية ويرى في سحب عبد القادر باشا بعد انتصاراته في الجزيرة سياسة خاطئة .

تجري هذه الاحداث في السر والخفاء ، وعبد القادر لا يعلم عنها شيئا ، بل آخر اتصال رسمي من الخديوي يؤكد بقاءه في منصبه ، وقام على هذا الاساس بنفسه لاخماد الفتن التي نشبت في الجزيرة وظل يخمدها الواحدة تلو الاخرى والاوامر تأتيه من مصر ألا يشتت القوة التي بدأت تتجمع وتتوارد من المحروسة والاجدر به ان يجمعها لتسييرها على كردفان لفك حصار الابيض اولا وللقاء قوات المهدي الرئيسية ثانيا وبينما هو ينتقل من ظفر لآخر اذا بالأبيض تسلم بعد ان اضناها الحصار وسلمت الحاميات جوعا . ويكتم خبر فصل عبد القادر حتى بعد وصول حمدي بك وعلاء الدين باشا الى الخرطوم لان عبد القادر كان في حملاته الموفقة في الصعيد والى ان عرفوا انه في طريقه الى الخرطوم وانه على بعد قريب منها اعلنت الاوامر الخديوية بتعيين علاء الدين باشا ، وقد تمت التعيينات الجديدة الاخرى وهي تقضي بأن يكون سليمان نيازي باشا قومندانا للعساكر بالسودان ، وان يكون الضابط الانجليزي هكس باشا رئيسا لاركان حرب الجنود هناك .

وكانت آخر وثائق تبودلت بين عبد القادر باشا والجناب العالي هي

ما كتبه الخديوي لعبد القادر حين وصوله الخرطوم واعلامه بالاستدعاء « عرض لسامعنا اخبارية وصولكم الى الخرطوم بالسلامة فحصل لدينا الممنونية من ذلك واعلموا اننا متشكرون لاجراءتكم والاعمال التي حصلت في مقابلة الاشقياء وكبحهم بواسطة حسن همتكم وتدبيراتكم وقد صدر امرنا في تاريخه الى علاء الدين باشا بما لزم عن تجهيز ما يلزم لترحيلكم بالوجه اللائق » .

فرد عبد القادر باشا « تشرفنا بورود الارادة الصادرة لنا في تاريخه وما اولاني اياه جناب ولي نعمتي ادام الله وجوده من الرضا على ما قمت به من بعض فروض الخدمة لجنابه العالي لا اراه الا من فيض مراحمه السنية وشعوري بحسن التوجيهات العلية واني افتخر بذلك بين الاقران وأرفع لله أكف الابتهال بدوام سموه محفوظا بالنصر والاقبال ممتعا بكرام الانجال افندم » .

وختمت مرحلة من مراحل الثورة المهدية بسقوط بارة والابيض اولا وبنزول عبد القادر باشا ثانيا وافتتحت مرحلة جديدة تعاونت فيها انكلترا مع الحكومة المصرية ان لم يكن بجنودها فببعضهم وبسياستهم وفوق ذلك فان مصر بعد الاحتلال الانجليزي اصبحت حكومة بلا جيش وما بقي من فلول الجيش العرابي بعث به للسودان ليتجمع هناك ويبدأ مرحلة النضال الجديدة مع المهدي .

حمـــلة هكس

انتصارات حكومية في الجزيرة

تركنا في الخرطوم علاء الدين باشا حكمدارا على السودان وسليمان نيازي باشا قومندانا للعساكر وهكس باشا رئيسا لأركان الحرب وقـد صدرت التعليمات لسليمان نيازي ان يعمل برأي هكس في المسائل الفنية البحتة ولو انه القائد . ورأى الجميع في الخرطوم القضاء على الانصار المتجمعين على ود برجوب قرب الجبلين قبل التقدم للمهدي في كردفـان وفيهم من زعماء الحركة احمد المكاشفي وعامر المكاشفي وود الصليحابي . وذهبت قوة كبيرة وقابلت ود برجوب وبعد ان ابلى الانصار بلاء حسنا امتنع عليهم اختراق مربع الجيش وفاز الكثير منهم بالشهادة ومن بينهم احمد المكاشفي وانتصر الجيش انتصارا ظن انه فأل حسن لما هو مقدم عليه في كردفان .

اشاعات تقلل من اهمية المهدي

وبالرغم من ان المهدي غنم كثيرا باستسلام الابيـض وبارة الا ان الاشاعات انتشرت بانفضاض الناس من حوله وهبوط الروح المعنوية من بين انصاره وكان الاثر العام لهذه الاشاعات هو التقليل من اهميته عندما تنقل بالتلغراف لمصر وكان لا بد وان تجعل الحكومة المصرية متفائلة بأن القوة التي ارسلتها سوف تقضي القضاء النهائي على جيوش المهدية .

هكس يختلف مع نيازي

لم يستطع سليمان نيازي العمل باستشارة هكس او لعله لم يدرك الوضع الجديد في مصر بعد الاحتلال وهو ان المستشار الانجليزي تجب طاعته فيما يشير به ، وسليمان من رجال المدرسة القديمة حيث تعود ان القائد هو الذي يأمر وكل من يليه من الضباط انما هم ادوات تنفيذية . شكا هكس من عدم المعاونة التي يلقاها من القائد وهـدد بالاستقالة ، فنقلت الحكومة المصرية ـ او لعلها امرت بذلك ـ سليمان الى حكمدارية سواحل البحر الاحمر وكان المظنون ان تعهد القيادة لعلاء الدين على ان ينصاع اكثر مما كان يفعل سليمان ، لان الحكومة المصرية لا تزال علـى نظرية ان الحركة دينية ووجود مسيحي على رأس الحملة مما يقوّي عزائم الانصار وينشر دعاية المهدي . الا ان عدم المعاونة التي ابداها سليمان قد يبديها علاء الدين وانه فيما اذا اختلف الاثنان وترك هكس الجيش لعلاء الدين فلا يستطيع هذا قيادته لانه ترك الخدمة العسكرية منذ امد بعيد . ورؤي ايضا ان الامور السياسية والادارية وحدها قد تستنفذ وقت علاء الدين كله ولذا وصلت الحكومة المصرية الى نتائج منطقها المحتومة وهي ترك القيادة العسكرية لهكس باشا .

هكس لا يقر الذهاب الى كردفان

كان على علاء الدين تجهيز المؤن ودواب النقل وكان المصدر الكبير لجمال الحملة قبيلة الكبابيش ولكنهم الآن في منطقة نفوذ المهدي ، فخف علاء الدين بنفسه للشرق لجمع الجمال من قبيلة الشكرية ، وبعث بمندوبين آخريـن لجمعها من بربر ودنقلا وسنار ، وتجمع بذلك ما ينوف على الخمسة آلاف بعير . وقبل علاء الدين بمأمورية جمع الجمال بالشرق حدثت مناقشة بينه

وبين هكس اظهر فيها هكس مخاوفه بأن القوة التي لديه ليست بالكافية للقضاء على المهدي وانه خابر لورد دوفرين بأن يمده بقوة اخرى غير ان اللورد رأى التريث حتى ينصح للحكومة المصرية بترك كردفان ودارفور والمحافظة على الجزيره وبذلك لا تحتاج القوة الموجودة الى ترحيل بالجمال ، واذا لا ضرورة لمأمورية الحكمدار في الشرق . غير ان علاء الدين رد بأنه يعمل على حسب التعليمات التي صدرت قبلا وتقضي بمهاجمة المهدي في كردفان . ثم لاحظ هكس ان المالية المصرية قد لا تستطيع الصرف على حملات كهذه كما عرف من السر اوكلندا كلفن . ورغب هكس ان يذهب لمصر للمفاوضة بشأن الامدادات والتقوية ، ولكن علاء الدين عارضه بأن ذلك يخلق مجالا للشائعات ويقوي دعاية المهدي . واخيرا رضي هكس بأن يترك الحكمدار يمضي في مأموريته ورضي هو بالبقاء في الخرطوم .

هذا الملخص للمناقشة التي جرت بين من عهد اليهم امر الحملة تظهر ان السياسة الانجليزية والمصرية لم تكونا على وفاق في امرها ، وان قائدها يرى ان قوته ليست بالكافية للغرض الذي ندبت من اجله ، وهذه عناصر ضعف في الحملة قبل ان تتحرك . وبعد جلسات بين القواد اتفق رأيهم على ان تبدأ الحملة سيرها من الدويم وان ترابط قوات في الخرطوم وسنار وعلى النيل الابيض لكبح جماح من تحدثه نفسه بالثورة ، وكذلك تأسيس نقاط عسكرية الى الغرب من الدويم كلما توغلت الحملة في كردفان حتى تحمي ظهورها وتتراجع اليها اذا ما احست بضغط يلزمها التقهقر ، ولتحفظ اتصالها بالخرطوم وتحركت على هذه الخطة قوات هكس الى الدويم نقطة التجمع الرئيسية .

مسير الحملة من الدويم

رافق علاء الدين الحملة للشؤون السياسية والادارية وكان من بديهات الامور لديهم ان الاهالي في الطريق يهرعون الى الجيش ويقدمون

له المساعدة الكافية ولاسيما انه جيش ينوف على العشرة آلاف وان قوته كفيلة بان ترد طمأنينة الاهالي وتجعلهم يتعاونون مع النقاط العسكرية التي تؤسس في الطريق ويمدونها بما هي في حاجة اليه من اغذية ، ولكنهم ما تقدموا مرحلة واحدة حتى تلاشت آمالهم ، فالسكان هجروا قراهم وتركوها خالية ، وما اقبل عليهم ولا شيخ واحد ليدلهم او يعاونهم ، واختل نظام السير في جيش عظيم كهذا مع عدد كبير من الحيوانات ، وكان هذا الاختلال مدعاة للاحتكاك ما بين هكس ومعاونيه الكبار في الجيش المصري كحسين مظهر باشا ، وسرت روح تواكل في الجيش اوقعت الارتباك في صفوفه حتى لقي حتفه .

اتخذوا في سيرهم الطريق الجنوبي الطويل لانه وان كان اطول الا انه يمر على مناهل المياه التي تكفيها ، وخاصة الخور الكبير المسمى بالنيل . ومن الدويم قبل المسير كتب هكس وعلاء الدين الى العربان في الطريق والى الملك آدم ملك جبال تقلى والى الياس باشا امبرير . وهذا يدل على ان الحقائق كانت محجوبة عنهم فالملك آدم هو الذي سهل للمهدي المرور بداره الى قدير وكان يخبره عما يسمعه من جهة الحكومة ، والياس باشا هو الذي نشر الدعاية له في حامية الابيض ، وكان على رأس من خرجوا منها الى المهدي في كابا .

تقدموا ثلاث مراحل ولم تقابلهم الا قرى مهجورة وكلما سمع السكان بمسيرهم ارتحلوا يمينا او شمالا عن طريق الجيش . فعقد القائد مجلسا عسكرية للنظر في مسألة المحطات العسكرية التي كان مقررا اقامتها في الطريق . ولو ان الظروف الحربية تحتم انشاء مثل هذه الحاميات الصغيرة في طريق المواصلات او نقط ارتكاز عند التقهقر ، الا ان عدم معاونة السكان ومظهرهم العدائي وهجران القرى جعلهم يعدلون في خططهم بأن يتقدم الجيش بكامله ، والا يترك حاميات في الطريق ، لانها مهما قوت فالانتصار لا بد ان يتفوق عدديا ، وفوق ذلك فالجند الذين يحمون تلك

الاماكن المنعزلة يضعفون قوة الجيش الرئيسي وبعد ان انعقد المجلس العسكري بحضور هكس وعلاء الدين وكل الضباط العظام من رتب القائمقام والامير الاي واللواء اقتنعت اغلبيتهم بسير الجيش دون ان يترك محطات عسكرية في الطريق .

عوامل معاكسة

تعمق هذا الجيش وعدده بالاتباع يزيد على الاثني عشر الفا في تلال كردفان وانقطعت صلته بالنيل ودخل في مغامرة حربية عرف التاريخ القليل من امثالها . جيش يكون من فلول جنود وصموا بالثورة وزعماؤهم في سجون القاهرة رهن المحاكمة ، ينقلون بحالة سيئة الى السويس ثم يلقون في البواخر وبعضهم مقيدة ارجلهم ، وعلى رأسهم جندي غريب عنهم يجهل طباعهم واخلاقهم ، وفوق ذلك يخالفهم في الدين والعقيدة ، ومهمته القضاء على ثورة تمتد جذورها في ارض الدين لا السياسة ، والامة التي تهيمن على مصير الامة المصرية والتي فتحت البلاد بعد ان اخمدت الثوره تتنصل من المسؤولية وتصرح بلسان المسؤولين من ساستها ان ذلك القائد قبل قيادة الحملة على مسؤوليته ، وان سياستها عدم التدخل بين الحاكم وشعبه الذي جاهر بالثورة والعصيان ، والجميع يدخلون في اقليم لم يألفوا طقسه ومياهه ولم يتدربوا على القتال ضد طبيعته ومحاربيه ، هذا الجيش كما وصفناه في عدته ومعنوياته توغل في ارض عدوه منذ ان فارق النيل .

اختلافات بين القواد

دبّ الخلاف بين الرؤوس منذ البداية ، فتارة على وقت المسير وارتياد المناهل وطورا على الطريق وطول المرحلة وطورا على من المسؤول عن

تحركات الجيش واعطاء الاوامر ، اهو الجنرال هكس ؟ ام الضابط السياسي علاء الدين باشا ؟ ام اكبر الضباط الوطنيين حسين مظهر باشا ؟ ام رئيس اركان الحرب فركار ؟ ومشاكل المياه تتجدد يوميا . هل الآبار تكفي لسقاية الجيش ام لا بد من البرك ، وهل يتحرك الجيش بكامله ام لا بد من فرقة استكشافية ؟ كل ذلك والانصار يظهرون افرادا وجماعات يطلقون بعض الاعيرة النارية ثم يختفون، والسكان يتنحون عن الطريق ويحملون ما امكنهم حمله من القرية وما بقي يتركونه اكواما من الرماد ، ولم يلقهم ولا وطني واحد يحمل رسالة للخرطوم او يرضى ان يكون حلقة اتصال بين مواطنهم والنيل ولو رضي واحد بذلك ربما يتجه للمهدي بالرسالة بدلا من الخرطوم ، وقد هرب جندي ادعى انه كان في معسكر المهدي اسيرا في المراحل الاولى من الحملة بعد ان تسلح ببندقية وامتطى جملا سريعا ولحق بالمهدي ، وبالطبع نقل اليه ما عرف وما خبر عن احوال الحملة . كلما ازدادوا ايغالا الى الغرب زادت المشاكل وتفاقمت الخلافات وانحطت الروح المعنوية وازدادت شدة المقاومة ، فبعد ان كان الانصار يظهرون في جماعات صغيرة حضرت الآن قوات من قبل المهدي تحت قيادة الاميرين الياس عمر باشا والحاج محمد ابو قرجة وكانت مهمتهما تنحصر في الازعاج والمناوشة لا الملاقات والمقاومة .

خطابات للزعماء

وعندما وصلوا مناهل المياه الغزيرة الواقعة على خور النيل حررت الخطابات الى زعماء القبائل منبئة اياهم بوصول التجريدة لخلاصهم ، ومهرت من علاء الدين وهكس . ومنذ ان فارق الرجال الذين يحملونها المعسكر لم يعرف مدى تأثيرها بل هناك شك في وصولها الى من كتبت اليهم ، وحتى لو استلموها فقد مضى أوانها ، وها هو مهدي الله قد ظهرت آياته وسمت مكانته الى درجة ما تركت وطنيا في سهول كردفان يقبل على جيش يقوده نصراني ويترك نور الهداية المنبعث من جبين المهدي .

دعاية المنشورات

وما كان للمهدي ان ينازل خصمه في حلبة الوغى قبل ان يوجه اليه الانذار الاخير ، وهذا يجب ان يصل الى كل جندي في التجريدة لا ان يصل الى القادة الذين لا بد وان يحاولوا اخفاءه حتى لا ينحل الجيش وتخور قواه ، فأملى على الكاتبين المنشور التالي [1] « من الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدي بن السيد عبد الله الى من يسمع من اهل الجردة ممن له عقل . فانه لا يخفى على كل ذي عقل ان الامر بيد الله ولا يشركه في ذلك بنادق ولا مدافع ولا صواريخ ولا عصمة لاحد الا لمن عصمه الله فاذا فهمتم ذلك فاعلموا ان الله واحد ولا تغترون بأسلحتكم ولا بجموعكم التي تريدون ان تقاتلوا بها جنود الله فانه لا قوة لشيء دون الله . وان قلتم ان مهديتنا مكذوبة فاعلموا ان التكذيب انما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف من المخلوق ويستعجز قدرة الله . فاذا فهمتم ذلك فلا يغرنكم اقوال علمائكم فان الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عز وجل وقالوا يا الهنا ومولانا المهدي قتلنا من غير انذار فأقول انذرتهم يا رب وحضر على ذلك شاهد سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقال لهم الامام انذركم فلم تسمعوا له وسمعتم اقوال علمائكم فذنبكم عليكم ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين فان كان لكم نور تؤمنون بالله ورسوله وتصدقون بمهديتنا وتخرجون الينا مسلمين ومن سلم يسلم وان ابيتم الا الجحود والاعتداد بالمدافع والبارود فانكم مقتلون كما اخبر سيد الوجود وأسوتكم ما سبقكم من الجنود والسلام » . كتبت نحو السبعة آلاف نسخة من ذلك الانذار حسب رواية احد الذين كانوا يكتبونها وحملها الخيالة ووضعوها في طريق التجريدة على

---

(1) دفتر نمرة ٦ وارد للمرافقات سنة ١٨٨٤ عابدين .

فروع الاشجار ، وقد نجح بعض الجند في التقاطها ومـا ان علم هكس واركان حربه حتى جمعوها فحرقت.

المرحلة الاخيرة

اقترب الجيش من نهايته المحتومة بعد سريان الملل والسأم في نفوس الجند واعتراهم يأس غريب قبل الالتحام في المعركة الفاصلة ، ونفـوس القواد لا زالت متنافرة ، وأخبار المهدي وعدده في طي الغيب ، ثم انهـم تشككوا في نيات الادلاء وقسوا في معاملتهم معهم حتى ان بعضهم وضع في الحديد ، وكذلك حامت الشكوك حول عبد الرحمن بك بانقا المرافق للحملة ، وهذا ما دعى احد الادلاء الى الهرب والالتجاء بالمهدي . وكانـت الخطة المرسومة ان يصلوا الى كازقيل ثم منها المرحلة الاخيرة الى الابيض .

المعركة الفاصلة

تركنا المهدي في الابيض يبعث ببعض انصاره عندما سمع بتحرك الجيش من الدويم للمناوشة واصبحت اخباره تصل الى الابيض يومياً عن عدد الجيش والحيوانات وهجر القرى وابتعاد السكان عن الطريق . ثم كان ما كان من إنذاره النهائي الذي وجهه للجنود ، واخيراً صمم على ملاقاته خارج الابيض فأمر بالرحيل وخرج الانصار مشاتهم وخيالتهم، فمنهم الجهادية الذين يحذقون استعمال الاسلحة النارية ، ومنهم فرسان اهل الغرب دربوا على اعمال الفروسية وامتطاء صهوات الجياد واستخدام الرماح ، ومنهم حملة السيوف ، ومنهم من لم يركب مهراً او يحمل بندقية او سيفاً بل العصا او الفأس ولكنه يريد ان يشارك اخوانه الانصار في الزود عن حياض الدين والقتال في سبيل الله ، ويربط الجميع ايمان عميق بما يعتقدون وان فاتتهم نشوة الظفر بعد المعركة فلن تفوتهم الشهادة في سبيل الله .

خرج الجيش يتعثر في مسيره في وسط ارض مشجرة يقصد كازقيل . فبعث المهدي بالجهادية تحت قيادة حمدان ابي عنجة ، وقد اردفهم الفرسان على خيلهم وانزلوهم وسط الاشجار على جانبي الطريق الذي يسير فيه الجيش . وهم في مخبأهم وسط الاشجار ظلوا يصوّبون نيرانهم على الجيش يوما وليلة ، فاختل نظامه وارتبك وصار الرصاص يردي الضباط والجنود والحيوانات على السواء ، ولا سبيل الى رد عادية نيران الانصار الا بالرصاص والمدافع ، ولكنها قليلة الاصابة اذ الجهادية يتخذون من جذوع الاشجار وظلمة الغابة ساتراً يقيهم رصاص الجيش . بعد ان نال اصحاب الاسلحة النارية من التجريدة ما نالوا من الانفس واختلال النظام ، صدرت الاشارة من المهدي بالهجوم العام . وهنا قام الفرسان والمشاة ويبلغون الآلاف العديدة واخترقوا المربع وابادوه عن بكرة ابيه ، غير ان مئات من الجرحى والاسرى الذين اختبأوا وسط الجثث . وانتهت تجريدة هكس التي حوت آخر عدد عظيم من جيش نظامي ، وبذا كانت موقعة حاسمة بين قوة الخديوي وقوة المهدية .

سياسة الاخـــلاء والانسحاب

حالة المهدي المعنوية بعد الانتصار

ابيد الجيش في غابة شيكان يوم ٤ او ٥ نوفمبر ١٨٨٣ ورجع انصار المهدي بأسلاب وغنائم اعظم قوة من حيث العدد والعدة قاتلتهم الى الآن . ولنترك المهدي وانصاره في الابيض يستقبلون الوفود الجديدة التي آمنت بعد ان كانت في شك وقد خلصت كردفان بأكلها للمهدي واقطعت حاميات دارفور عن اي مدد يصلها الخرطوم ، وازدحمت الطرق المؤدية الى الابيض بمن يريدون البيعة والانتساب لسلك المهدية . وكان المهـدي وانتصاراتـه المتوالية على كل لسان ، وتغنت النسوة وهن في عملهن من طحن وعوس واحتطاب بمناقب المهدي وذهب القواد العظام لاشعال النيران في الاماكن التي ما سرت فيها روح المهدية بعد . ولم تصل الاخبار في حينها الى مقر الحكمدارية في الخرطوم ، وان هي وصلت فمتناقضة فبعضها يتبىء بابادة التجريدة وبعضها يتحدث عن تصادم كان النصر فيه حليف هكس .

اقتراحات الخرطوم

واول خبر يوثق به اتى الى الحكمدارية من الدويم وتاريخه ١٩ نوفمبر وابرق به وكيل الحكمدارية في ٢٠ منه وختم الوكيل برقيته بما يأتي « وحيث انه بهذه الحالة قد صارت الخرطوم وخلافها في حالة خطر كلي لعدم وجود

عساكر كفاية حتى للمحافظة كما سبق العرض عنه ذلك فلزم عرضه للاسعاف بصدور الامر بما يوافق افندم » .

وفي ٢١ نوفمبر ابرق حسين سرى باشا وكيل الحكمدارية ايضا بتفاصيل الخبر من اسير فرّ بصفة انصاري بعد ان حضر المعركة واشار بالاتفاق مع ابراهيم حيدر باشا قومندان ٣ جي لواء والكولونيل كوتلجن ان الاوفق هو انسحاب العساكر من نقاط النيل الابيض كشات والدويم والكوة وولد الزاكي وجمعها في الخرطوم حتى تأتي النجدات من المحروسة واذا لم يتم حضور النجدة تنسحب حامية الخرطوم الى بربر .

وتلقى ردا على برقيته بيوم ٢٢ نوفمبر بما يلي : « عرض لسامعنا ما في التلغراف المؤرخ ٢١ نوفمبر سنة ١٨٨٣ المختص بما ترآى بموافقته من جهة العساكر الموجودة في النقط ربما يرى الحاضر ما لا يرى الغائب وجل المقصود دائما التحفظ بالطرق والتدابير التي يرى ضرورة لزوم اتخاذها وقد تورّى بأنه باتحادكم في المذاكرة في هذا الشأن ما وجدت طريقة اوفق من انسحاب عساكر نقطة شات والدويم والكوة وولد الزاكي وحضورهم والحالة هذه الى الخرطوم واتخاذ طريقة لتحفظ فعلي حسبما رأيتموه يصير الاجراء . اما ما يلزم اجراءه بعد تاريخه فهذه يلزم العرض عنه لطرفنا اوّل بأوّل » .

فالحالة اذا دخلت في طور من الخطر بابادة حملة هكس لم تدخل في حسبان ولاة الامر وقد انتشر الذعر والرعب في الخرطوم الى درجة ان حسين سرى باشا وكيل الحكمدارية وابراهيم حيدر باشا قومندان الآلاي الثالث كلاهما طلب النزول الى مصر متعللين بالمرض .

---

(١) صادر تلغرافات ٣ صحيفة ١٠٤ عابدين .

هوايت هول وقصر الدوبارة

والآن لننتقل من الابيض والخرطـوم والقاهـرة الى هوايت هول وداونتج ستريت وقصر الدوبارة ونرى كيف كانت استجابـة السياسـة الانجليزية لهذا الانحدار . وهي باحتلالها لمصر اصبحت مسؤولة نوعا ما عما يجري مهما تنصلت ومهما ادعت انها ثورات داخلية . واذا لم تهتم بالحالة بالسودان قبل شيكان فقد اصبح الخطر يقترب من مصر نفسها الآن . واذا هي احتلت مصر لتعيد الامن الى ربوعه ولتثبيت سلطة الخديوي فاحر بها ان تتخذ من الاجراءات ما يمكنها من الدفاع عـن مصر اذ امتدت نـيران الثورة اليها او اقترب الانصار من الحدود .

تصريحات لندن بعدم التدخل

التصريحات التي فاه بها الساسة الانجليز عندما يتحدثون عن ثورة السـودان قبل شيكان تؤيد كلها عدم التدخل وتدعي انها من شؤون مصر الداخلية ، ولكنهم لا يخفون آراءهم بصدد مقـدرة مصر على اخمادهـا ويشيرون الى اخلاء بعض اجزاء السـودان حتى تتفرغ القوة المصرية للدفاع عن جزء محدود تستطيع الاحتفاظ به والدفاع عنه دون مساعـدة خارجية فاللورد دوفرن اشار باخلاء دارفور وجزء من كردفان واللفتننت كولونيل ستيوارت نصح في تقريره بالانسحاب من السـودان الغربي . وهذا يتسق مع منطق حكومة جلادستون التي رأت انها ارغمت على احتلال مصر وانها تفكر في الانسحاب عندما تعود المياه الى مجاريها . فبديهي الا تفكر حكومة هذه سياستها التي صرحت بها ان تضيف على اعبائها عبئا جديدا هو اخماد ثورة السودان . ولكن مثلما كذبت الظروف التي تلت الاحتلال تصريحات جلادستون كذلك ألجأتـه وحكومتـه الى التدخـل في شؤون السودان بالتـدرج .

اول التدخل البريطاني

بدأت الرجل البريطانية تتزحلق نحو مشكلة السودان في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٨٣ عندما ابرق السر إفلن بيرنج لحكومة جلالة الملكة ووصف لها بلبلة الافكار واضطراب الاحوال عن حملة هكس ، لانه لم تصل اخبار اكيدة عنها منذ خمسة اسابيع ، ويرى انها اذا ابيدت سوف تفقد مصر السودان واذا تركت وشأنها دون مساعدة خارجية ، ويرى ايضا ألا يستخدم الجيش المصري الجديد في اخماد الثورة في السودان بل يترك للدفاع عن مصر . ازاء هذه الحالة يطلب بيرنج ما يشير به الى الحكومة المصرية ان هي طلبت مساعدة الجنود البريطانية او الهندية او التركية وختم برقيته بانه يرى ان تمد انجلترا مصر بضباط في التقاعد ووصل الرد في اليوم التالي بما يلي « لا نستطيع المعونة بجنود انجليزية او هندية . لا تشجع تطوع الضباط الانجليز، ليس من مصلحة مصر طلب المعونة بواسطةجنود تركية في السودان. اذا طلب منك ان تبدي رأيك اشر باخلاء السودان الى حدود معلومة » .

هجرت السياسة الانجليزية نظرية عدم التدخل وبدأت تكوّن رأيا ان لم يكن واضحا فهو يدل على اتجاهها على الاقل . وفي يوم ٢٢ نوفمبر نقل بيرنج لحكومته انباء ابادة حملة هكس ونوه على ان مصر قد تطلب معونة الدولة ذات السيادة وهي تركيا ويرى ان يعضد هذا الطلب . وفي الحال ردّت وزارة الخارجية بأن لا مانع ان يستخدم الخديوي جنودا تركية في السودان ، ويستفهمون عما اذا كانت مصر نفسها تتعرض للخطر ، واذا كان الامر كذلك فما هي الاجراءات التي يجب اتخاذها ؟ وقد كانت النتيجة الحتمية للخطر الذي تتعرض له مصر فيما اذا سقطت الخرطوم مدعاة لان تبقي الجنود الانجليزية في القاهرة ، بعد ان كانت مفاوضات ترحيلها الى الاسكندرية قد قطعت شوطا كبيرا . واشار بيرنج والخبراء الانجليز العسكريون في مصر الى ان مصر بمفردها ليس في مكنتها الاحتفاظ بالسودان

ويرون الثبات في الخرطوم حتى تتراجع الحاميات التي تقع جنوبها وبعدئذ يتم التراجع التدريجي حتى حدود مصر .

كيف اختير غوردون للسودان

عندما كانت الاقتراحات والآراء تنقلها اسلاك البرق في المحيط الرسمي بدأت تطورات في الرأي العام الانجليزي قادت في نهايتها الى اختيار غوردون للقيام بمهمة الاخلاء . ففي اليوم الذي ظهرت فيه اخبار هكس وابادة حملته كتب ضابط من سلاح المهندسين الملكي في لندن الى رئيسه يقترح فيه ابعاث غوردون لاخماد ثورة المهدي اذ علم فيه الجريء الذي يرتفع في مثل هذه المناسبات وربما ينجح في تلك المهمة مثلما نجح في الصين . فبعث الرئيس بهذا الاقتراح الى صديق له في وزارة جلادستون هو وزير العدلية ونقله هذا بدوره الى اللورد جرانفيل وزير الخارجية .

استشار الوزير جلادستون ووافق هذا الاخير وعندئذ طيرت البرقية الآتية الى قصر الدوباره في ١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ « اذا وافق الجنرال غوردون على الذهاب الى مصر فهل في امكانه تقديم خدمة لك او للحكومة المصرية ، واذ كان ذلك في الامكان فما نوع العمل الذي يقوم به ؟ » .

لم تسجل حوادث السودان برقية اشد غموضا من هذه . فاساس الاقتراح ان يذهب غوردون ليقاتل المهدي ، ويرى صاحب الاقتراح ان غوردون هو الرجل الذي يستطيع اخماد ثورة كهذه . وجرانفيل مع علمه ان الحكومة الانجليزية نصحت بالانسحاب من السودان الى حدود معلومة يطلب من بيرنج ببرقية مهمة كهذه ان يقطع برأي في نوع الخدمة التي يقوم بها غوردون . وفوق ذلك فغوردون وبيرنج يختلفان في المزاج والسياسة ، وقد يجزم من خبر الرجلين ان الانسجام المطلوب في القيام بامر خطير وغامض

كهذا لا يوجد بينهما ولكنها سياسة جلادستون المضطربة واوامر ونصائح جرانفيل الغامضة .

الحكومة المصرية لا تريد خدمات غوردون

لم يكن بيرنج بحاجة الى معونة غوردون كان عليه ان يعرض خدماته على شريف باشا رئيس مجلس النظار المصري . وعقب المقابلة ابرق بالرد التالي في ٢ ديسمبر « لا ترغب الحكومة المصرية في استخدام غوردون لسبب واحد رئيسي وهو ان الحركة القائمة في السودان دينيـــة وتخشى ان هـــي اقدمت على تعيين مسيحي في مركز كبير قد تباعد ما بينها وبين القبائل التي لا تزال على ولائها . وارى من الحكمة ان تترك مسألة السودان بأكلها لهم وألا تضغط عليهم في هذا الموضوع » .

ويتبين من هذا ان بيرنج حتى ذلك الوقت ينصح ويعتقد في سياسة عدم التدخل وتأييدا لرأيه كتب رسالة طويلةفي اليوم التالي اكد فيها وجوب استمساك حكومة الملكية بسياسة الامتناع عن التدخل في شؤن السودان. وحتى اليوم التاسع من ديسمبر كان بيرنج ما يزال مصرا على هذا الرأي ، وهذا بصدد تعيين الزبير لقيادة حملة مكونة من ستة آلاف من السود الى السودان الشرقي . فعندما خاضت الجرائد الانجليزية في موضوع قيادة الزبير للحملة وايدت اعتراضها على هذا التعيين كتب بيرنـــج يقول « اذا كانت حكومة جلالة الملكة ألقت عبء المسؤولية على الحكومة المصرية فليس من العدل ان تعترض » .

بيرنج يقف صريحا في جانب التدخل

ظل بيرنج ينادي بعدم التدخل الى اليوم التاسع من ديسمبر ولكنا نراه انقلب فجأة في اليوم العاشر وبعث برقية هذا نصها « لقد وضح لي

الان ضرورة تعليمات واضحة في اقرب فرصة عما يجب ان ننصح به للحكومة المصرية . وهم الآن ينقادون للتيارات والحوادث دون خطة معينة وسيظلون كذلك الى ان يوجهوا نحو هدف معين » وهذا التغيير فيما بين ليلة وضحاها يدعونا للتساؤل عن منشئه ، وقد تكون نشر اخبار الكارثة التي اصابت الجنود المصرية في تلال البحر الاحمر وهددت سلامة ميناء سواكن السبب المباشر الذي حدا بالمعتمد البريطاني التقذف بسياسة الامتناع جانبا وطلب التعليمات الصريحة الواضحة التي تجعل لانجلترا الكلمة الاولى في الامر . وهكذا انحاز بيرنج لسياسة الواقع بعد ان اقتنعت بها الحكومة البريطانية قبله . ومنذ ذلك اليوم خلت المسألة السودانية في طور جدّي بعد فترة التأرجح والغموض .

الحكومة المصرية تقترح طلب المعونة التركية

وبعد يومين (١٢ ديسمبر) اجتمع شريف باشا بالمعتمد وقص عليه ما وصل اليه الاجتماع الخطير لمجلس النظار الذي عقد برئاسة الخديوي . ويتلخص في ان الحكومة المصرية اقرّت بعجزها عن معالجة المسألة بنفسها وانها لا ترى من الحكمة استخدام جنود انجليزية او هندية وربما تساعد كوسيلة للدعاية في صالح المهدي لحركة دينية كهذه ، والافضل الالتجاء لتركيا ويطلبون من انجلترا الاتفاق مع الباب العالي على نوع ومدى المعونة التي تقدمها » وبالاختصار فقد تركت مقابلة شريف باشا في ذهن بيرنج ان الحكومة المصرية وضعت نفسها تحت تصرف حكومة جلالة الملكة فيما يختص بتنظيم معونة تركيا .

وبالرغم من اشتغال الوزارة الانجليزية بموضوعات داخلية تعرضت فيها لأزمات وزارية وصل الرد منها في اليوم التالي (١٣ ديسمبر) يؤكد ان

حكومة جلالة الملكة لا ترغب في استخدام جنود انجليزيـة او هندية في السودان ولا مانع لديها ان تستخدم الجنود التركية بشرط ان تقع اعباؤها المالية على كاهل خزينة الدولة العثمانية ، وان تجعل سواكن مركز حركاتها الحربية ، ولا توافق حكومة جلالة الملكة مطلقا على تجريدة تثقل كاهل الميزانية المصرية الكليل ، وفي النهاية ينصحون بأن تنسحب الحاميات المصرية الى اسوان او الى حلفا على الاقل . فتلك الاشتراطات التي رأت فرضها انجلترا تجعل معونة تركيا امرا غير متوقع الحصول ولذا نصحت بالانسحاب .

زال الغموض وأبدت السياسة الانجليزية نصيحتها في لهجة تنم على الامر لا اسداء النصح فقط ، ولكن فاتت الناصحين العقبات التي يصادفها تنفيذ هذه السياسة ، وهذه وضحها بيرنج في مذكرة تفصيلية وصلت عن طريق البريد بعد ان تناقلت اسلاك البرق السياسة الجديدة . وما ان تلقى المعتمد الرسالة البرقية حتى نقلها الى شريف باشا ورأى هذا ان يرد عليها بمذكرة وافية وقد فعل ذلك في يوم ٢٢ ديسمبر .

شريف يصر على الاحتفاظ بالسودان

تناولت مذكرة شريف حق التنازل القانوني وقال بأنه ليس من حق الخديوي ان يتخلى عن جزء من ممتلكاته بموجب فرمان تعيينه ، ورأى ان اخلاء شرق السودان ودنقلا يجعل مهمة الدفاع عن السودان شاقة ، وفي نظره انه بمعونة عشرة آلاف جندي تركي في الاستطاعة فتح الطريق ما بين سواكن وبربر ، ولا يظن ان تركيا ترفض هذه المساعدة لأن مصر عاونتها قبل ذلك بثلاثين الفا في حربها على روسيا ، وختم مذكرته بان حكومته لا ترغب في مهاجمة كردفان بل تود الاحتفاظ بالخرطوم وشرق السودان وحوض النيل .

وكتب بيرنج معلقا على هذه المذكرة بان اية مفاوضات مع تركيـا

سوف يكون نصيبها الفشل ، وانه على حسب ما ورد من الاخبار فالخرطوم حالتها ليست بالحرجة كما يبدو ، وقد تستطيع مصر الاحتفاظ بشمال الخرطوم لمدة من الزمن ، وفقدان ذلك الجزء من السودان الذي يقع ما بين حلفا والخرطوم بعد ضربة شديدة على نفوذ الخديوي وبالتالي يجعل امر الدفاع عن مصر شاقا صعبا وبوجه عام فقرار الحكومة المصرية يبدو احسن الحلول لمثل هذا الامر المعقد . فاذا ما اخذت الحكومة بد فلا بد له من بقاء الجيوش الانجليزية لمدة تتراوح بين خمس وعشر سنين في مصر لتمكن الحكومة المصرية من بناء قوة دفاعية لا بد ان تستنزف شيئا من الميزانية المصرية ، ولكنها قليلة بالنسبة لما يتطلبه الاحتفاظ بالسودان جميعه وختم قائلا « ليست هناك وسيلة للاغراء تجعل الوزارة الحالية تقبل سياسة الاخلاء والطريقة الفعالة لتنفيذها هي مصارحة الخديوي بلزومها ، واذا اعترض عليها الوزراء الحاليون فلا بد له من تعيين آخرين في استطاعتهم تنفيذها ، والملاذ الاخير فيما اذا تعقدت الامور هو تعيين وزراء انجليز بصفة وقتية ، ولا بد في النهاية من ابعاث ضابط انجليزي برتبة كبيرة يمنح سلطات فوق العادة لسحب الحاميات في السودان وتأسيس نظام حكومي يلائم الحالة هناك » .

بيرنج يوافق على اخلاء جزئي

مرت ايام ولم يتلق ردا على مذكرة شريف باشا وتعليقه وفي هذه الاثناء توالى ورود الاخبار بتطور الموقف في الخرطوم الى درجة مزعجة ، حيث ان قلوب الموالين للحكومة اعتراها الرعب وظنوا ان حكومة مصر تركتهم للاقدار تلعب بهم كما تشاء والا لسمعوا عن النجدات وسرعة ارسالها ، وأخيرا بعث بيرنج باستعجال وصف فيه صورة للحالة كما تبدو ، وتتركز في عدم مقدرة الحكومة المصرية على عمل شيء ما اذا ما تركت

وشأنها ، ولا بد للحكومة الانجليزية والحالة هذه من اتخاذ سياسة ايجابية فعالة في اداره مصر فيما اذا الحت وصممت على نظرية الاخلاء ، وفي الثاني من يناير من السنة الجديدة (١٨٨٤) ابرق بيرنج الى لندن باقتراح جديد قدمه شريف باشا يتركز في ارجاع السودان الشرقي وشواطىء البحر الاحمر الى تركيا اذا ما رفض السلطان المعونة العسكرية وبذا يتسنى لمصر بما لها من جند الاحتفاظ بوادي النيل والخرطوم .

استقالة شريف

تحركت حكومة جلالة الملكة اخيرا للعمل وعقد مجلس الوزراء جلستين في يومي ثلاثة واربعة يناير وفي اليوم الاخير وصلت الحكومة الى قرار نهائي قدمته لجلالة الملكة فوافقت عليه وابرق لبيرنج في نفس اليوم بأن الحكومة لا تزال مصرّة على اخلاء السودان بأكمله ، ولا مانع لديهم من ارسال جنود عثمانية بشرط ان تقوم تركيا بنفقاتها ، ويوافقون ايضا على ارجاع شواطىء البحر الاحمر للدولة العثمانية . غير ان ما ختموا به البرقية هو السياسة المقررة اذ لا يعتقدون في مقدرة مصر بالدفاع عن الخرطوم . ولو انهم يؤمنون بتجمع القوات المصرية الا انه لا بد من انسحابها من الخرطوم وبقية السودان . وفي خطاب خاص لبيرنج صرّح اللورد جرانفيل ان الوزير المصري الذي لا يستطيع المعاونة مع الحكومة الانجليزية في الامور السياسية الهامة طالما ان جنود جلالة الملكة تحتل مصر عليه ان يستقيل . وبذا اصبحت الحكومة الانجليزية مسؤولة عن الاخلاء وتنفيذه والوزير المصري الذي لا يتعاون معها في ذلك لا يحتفظ بكرسيه وما كان لشريف وهو يؤمن ببقاء السودان وبالاحتفاظ بوادي النيل على الاقل ان يقبل هذا الوضع فرفع استقالته في ٧ يناير للجناب العالي وكان حتما ان تقبل .

تنفيذ سياسة الاخلاء وبعثة غوردون

حديث غوردون مع محرر جريدة
« بول مول »

في صباح يوم ٨ يناير كان غوردون جالسا مع صديق له في منزل اخته بضواحي ثاوثمبتون ، فلا يشعران الا برجل قصير ذي لحية يطلب مقابلة غوردون وكان ذلك الرجل هو و. ت. ستيد محرر جريدة بول مول جازيت لاخذ حديث منه عن حوادث السودان لانه خبرها وعرف مشاكلها . وما كان غوردون في حالة تسمح له باعطاء حديث لمحرر جريدة عن السودان لانه رجع من بروكسل بعد ان اتفق مع ملك البلجيك الخدمة في الكنغو . واقتضته الظروف ان يقدم استقالته من جيش جلالة الملكة لان السلطات لم تسمح له بالجمع بين وظيفته في الجيش والخدمة تحت ملك البلجيك . وما اتى لانجلترا الا لتلقي رد حكومته بصدد استقالته ثم يعود توا لبلجيكا ويحزم حقائبه ويسافر الى مجاهل افريقيا . وكان من الطبيعي ان يعتذر غوردون عن اعطاء حديث وابداء آراء قد تتعارض مع سياسة الحكومة . ولكن تحت الحاح المحرر بألا يحرم الرأي العام من تجاريبه وخبرته الطويلة بشؤون السودان . خضع وادلى بحديث طويل ضمنه آراءه عن حركة الثورة المهدية وعن سياسة الاخلاء ولم يكن على علم بأن الحكومة ابانت ما تراه فيها .

حديث غوردون

طفق غوردون يتدفق في الحديث ما يقرب من الساعتين للمحرر . وبدأه بضرورة الاحتفاظ بالاقاليم التي تقع شرقي النيل الابيض ، ويوافق على اخلاء كردفان ودارفور ، ويرى في الثورة انها سوف تنتشر بسرعة البرق فيما لو اخلي السودان ، وسوف تتطاير منها شرارات عبر البحر الاحمر لتشتعل في الجزيرة العربية ، وشمالا في صعيد مصر ، وأنه ليس باستطاعة النقط الحربية ان تحبس تيارها المندفع .

ثم أبان صعوبة تنفيذ الاخلاء ، وأشار بأن عدد الجند الذين يراد ترحيلهم من حاميات السودان يزيد على الاربعة وعشرين الفا . واذا كان في حيز الامكان والاستطاعة ترحيل حاميات الخرطوم وشمالي السودان فماذا يحدث للجند المرابطين في دارفور وغندوكرو ؟ أيضحي بهم لانهم اخلصوا الطاعة واظهروا الولاء ؟ وكيف يمكن الحصول على عدد من الجمال لترحيل العدد الضخم من الملكيين والعسكريين ؟ وهل نخلق مواقع تحمي ظهورهم ؟ وهل في الامكان حماية النساء والاطفال من النهب والقتل وهم يقطعون المئات من الاميال قبل ان يصلوا الى مكان امين يطمئنون فيه الى سلامة انفسهم ؟ هناك طريقان عمليان اما التسليم في التو والساعة للمهدي واما الدفاع عن الخرطوم وهذا الاخير ما يجب اتباعه .

ويرى غوردون ان الوزير المصري الوحيد الذي يستطيع مواجهة ذلك الموقف الحرج هو نوبار باشا . فاذا ما لقي التعضيد والمعونة الكافيين من حكومة جلالة الملكة استطاع بحكمته وكفايته تدارك الامر . وربما ارسل نوبار حاكما عاما قويا عليوتين من الجنيهات الى الخرطوم ، وليس هناك من يصلح لمثل هذه الوظيفة في مثل ذلك الموقف الشاذ الا السير صمويل بيكر . فاذا ما وقفت الحكومة المصرية موقف الحزم ، واذا ما اعانتها وساندتها الحكومة الانجليزية ، واذا ما ارسل حاكم عام مقتدر بمبلغ من

المال ومنح سلطات استثنائية ، فربما تذوب الثورة من نفسها كما يذوب الثلج. وربما يدب الخلاف بين القبائل وتفتر حماستهم للمهدي ، وعند ذاك يرفرف علم الامن والطمأنينة مرة ثانية على ربوع السودان ، وبعدها يعلن للسودانيين بشكل واضح قاطع انهم سيمنحون دستورا ولا يسمح بعد اليوم للترك والشراكسة باثراء انفسهم بل يقصون اقصاء تاما من الادارة ، وان تحرير الرق سوف لا يكون امرا مستعجلا .

راي غوردون في الثورة

والحركة كما يظنها غوردون لم تكن بدينية بل هي في اساسها ثورة على النظام التركي الشركسي وان الدين ما هو الا غشاء خارجي لها ، والقائم بأمر الدعوة يظنه غوردون آلة مسخرة في يد الياس باشا امبريرو ملاك الرقيق في الابيض . ويرى انه (غوردون) صاحب الاثر الاول في هذه الثورة ، فادارته مدة الثلاث سنوات للسودان علمت السودانيين معنى الحياة وثاروا عندما فاروق البلاد ورجع العنصر التركي–الشركسي للحكم بعده ، ويتحسر على المصير الذي صار اليه السودان ، وانه احب البلاد واهلها ولو كان في استطاعته انتشالهم مما ترددوا فيه من هوّة وخراب لفعل . ومن غرائب المصادفات ان نوبار باشا قبل الوزارة في نفس اليوم الذي كان محرر البول مول جازيت يأخذ حديثه من غوردون ، وقبلها على اساس المعاونة مع السياسة البريطانية في نظرية الاخلاء .

الجريدة تقترح ايفاد غوردون

وفي اليوم التالي للحديث عقد المحرر فصلا افتتاحيا بعنوان « غوردون الصيني للسودان » اشار فيه الى صعوبة الاخلاء وانتقد سياسة الحكومة التي تقود اليه ، واقترح اخيرا ارسال غوردون بكارت بلانش الى السودان

ليفعل ما يراه مناسبا ، ويجب ان لا تتوانى الحكومة في ذلك لانه بعد ايام سوف يعود الى بلجيكا ليسافر للكونغو . وضربت كل الجرائد الانجليزية على هذه النغمة في الايام التالية واجمع للرأي العام الانجليزي على وجوب ابعاث غوردون ، وهذا يتسق مع رأي بيرنج في تنفيذ سياسة الاخلاء لانه اقترح ارسال ضابط انجليزي عظيم بسلطـات استثنائية الى الخرطـوم والحكومة الانجليزية حينما ردت على رسائل بيرنج لم تقطع في هـذه النقطة بالذات برأي ما .

ازاء هذه الحركة التي اثارتها الجرائد كتبت الملكة فكتوريا في العاشر من يناير الى اللورد جرانفيل ما يلي « تأسف الملكة على عدم الاهتمام الذي ابدته الحكومة بشأن استخدام الضباط الانجليز حسب طلب سير افلن بيرنج » وفي اليوم الذي استلم جرانفيل هذه الملاحظة من الملكة وصله خطاب من زميله وزير الحربية ينبئه انه لم يبت في استقالة غوردون اذ ربما يستطيع الوزير الجديد نوبار قبول غوردون اكثر من شريف . وتحت ضغط هذه الظروف من الرأي العام ومن الملكة ومن زميله وزير الحربية ابرق جرانفيل في مساء نفس اليوم (١٠ يناير) الى بيرنج بما يلي « هل هناك من حاجـة لمعونة غوردون او السير شارلس ولسن على ضوء التطورات الجديدة ؟ » .

وظهرت جرائد الصباح في لندن وكلها اجمعت على صعوبة الاخلاء وخاصة مقال السير صموئيل بيكر الذي ابان بوضوح عقبات التراجع وصوّر جيشا من النساء والاطفال والمدنيين يتراجعون يحرسهم عدد من الجند انحطت روحهم المعنوية وكلها اجمعت ايضا على ضرورة ايفاد غوردون . وفي المساء ورد الرد من بيرنج بما نصه « استشرت نوبار ولست ارى ضرورة لاستخدام غوردون والسير شارلس ولسن في الظروف الحاضرة » . وفوق ما كانت تنادي به الجرائد الانجليزية فان اصدقاء غوردون كانوا يلحون عليه في قبول الخدمة في السودان ولكنه يصر على عدم القبول لكتابته

استقالته من الجيش اولا ولأنه وعد ملك البلجيك ثانيا ولانه لا يستطيع خدمة توفيق ثالثا .

مقابلته للادجوتانت جنرال

بعث اللورد ولسلي الادجوتانت جنرال الى غوردون لمقابلته في وزارة الحربية بعد ان عرف اصرار غوردون على عدم الخدمة في السودان . فلما قابله في عصاري يوم ١٥ يناير ابلغه ان الحكومة سحبت اعتراضها على خدمته في الكونغو وانه يستطيع الخدمة لصالح دولة اخرى مع الاحتفاظ برتبته في الجيش ولكن حكومته تريده لان يؤدي لها خدمة هي في امس الحاجة لها وانها تريد منه تأجيل وعده لملك البلجيك الى ان يقضي المهمة التي تناط به من حكومته . والمهمة التي عرضها ولسلي هي ذهابه الى سواكن وتحقيق حالة السودان عن كثب . فاجاب غوردون بألا مانع لديه من ذلك فيما اذا طلبته الحكومة وانه لا يدلي باقتراحاته الا بعد درس الاحوال والتحقيق وقد يسفر تحقيقه عن تعيينه حاكما عاما وقد يسفر ايضا عن الانسحاب التام .

مهمته في السودان

وقد ناوله ولسلي ورقة ليكتب عليها ما يراه من تعليمات لمأموريته واجراءات لتنفيذها فحددها بتقرير يرفعه واثناء ذلك يكون بيرنج حلقة الاتصال ويطلب ان يقابله ابراهيم بك فوزي في السويس ليرافقه لسواكن . وبينما غوردون وولسلي يتفقان على تحديد المهمة يخاطب جرانفيل جلادستون ويحصل على موافقته بأن يستخدم غوردون نفوذه في القبائل الضاربة بين سواكن وبربر ويجعلها تعاون في سحب الحاميات والمدنيين

بطريق سواكن . ومن هنا يتضح الخلاف الجوهري بين ما وافق عليه جلادستون وبين ما تم على يد غوردون ، نفسه ، ولم يلاحظ الموظفون في وزارة الخارجية الخلاف الظاهر ؛ وفي خطاب خصوصي من جرانفيل الى بيرنج اشير الى طلب الرأي العام لاستخدام غوردون وطلب من بيرنج ان يقول رأيه في صراحة وهذه هي المرة الثالثة التي تعرض فيها الحكومة الانجليزية خدمات غوردون في السودان .

أما جلادستون فعلى ما يظهر نسي انه وافق على استغلال نفوذ غوردون في قبائل شرق السودان وابدى تحفظات على المهمة بأن جعلها استشارية بحتة وان ما يوصي به غوردون من اجراءات لا تلزم الحكومة البريطانية باتباعها . وبالاختصار يريد جلادستون اتقاء العاصفة باخفاء رأسه فقط . وتدل الحوادث انه انساق نحو سياسة لا يريد ان يصل معها الى نتيجتها الطبيعية وهي ان الحكومة الانجليزية بالزام مصر اتباع سياسة الاخلاء الى درجة ان الوزير الذي لم يرض بها اجبر على الاستقالة قد اخذت على نفسها مسؤولية ادبية بتنفيذها . وقد مضى الزمن الذي كانت انجلترا تدعي عدم التدخل او ان ما يجري في السودان من الامور الداخلية البحتة .

آراء عبد القادر باشا

هذا ما كان يجري في هوايت هول في لندن اما في لاظوغلي في مصر فقد كان عبد القادر حلمي باشا ناظرا للحربية في نظارة نوبار باشا ، ولسابق خبرته ومعرفته باحوال السودان طلب اليه ان يبحث بالارقام وبالطرق العملية مسألة الاخلاء . وبعد ان استعرض عدد الحاميات وما يرابط فيها من جنود وعدد المدنيين الذين يودون مغادرة السودان وصعوبة النقل عبر الصحراء وصل الى ان الاخلاء ربما يتم فيما بين سبعة اشهر وسنة ، وكاد الاتفاق يتم بين النظارة وبيرنج على ان يذهب عبد القادر نفسه لتنفيذ

الاخلاء ، ولكنه اختلف مع بيرنج في التصريح في السودان بالاخلاء من عدمه . فالاخير يرى وجوب اعلانه وعبد القادر يرى ان الاعلان يقود الى ارتباك الامر وعرقلة الانسحاب وفساد الخطط وبذا اصبح في حكم المقرر عدم سفر عبد القادر .

بيرنج يقبل خدمة غوردون

اصبح بيرنج في مركز حرج ، فالوزير المصري الذي يستطيع الاضطلاع بالمهمة رفض لخلاف في الرأي ، والاخلاء اصبح سياسة مقررة لا بد منها وهو معتمد دولته لتنفيذها ، وقبل ان يصله عرض جرانفيل لخدمات غوردون طلب من حكومته ابعاث ضابط انجليزي ليقوم بما رفضه عبد القادر باشا وعندما وصلته برقية جرانفيل بعرض خدمات غوردون للمرة الثالثة رد بأن لا مانع لديه من قبول خدماته على ان يفهم غوردون ان مهمته تنحصر في الاخلاء وأن اوامره يتلقاها من المعتمد البريطاني في مصر . وهكذا حولت مأمورية غوردون من صفة استشارية للتقرير والتوصيات الى وظيفة تنفيذية وانتقلنا الى المرحلة الثانية من الغموض الذي احاط بمهمة غوردون . ففي رأي جلادستون ان يستخدم غوردون نفوذه في قبائل الشرق بسحب الحاميات عن طريقها وفي رأي جرانفيل ان يقدم تقريرا عما يجب عمله واخيرا يطلب بيرنج منه القيام بعملية الانسحاب والاخلاء .

غادر غوردون ووجهته بروكسل قبل ان يرد بيرنج برأي حاسم ليغادرها الى الكونغو اذا ما توانى المعتمد في القاهرة او رد كما سبق له ان رد بالاستغناء عن خدماته . وهو في الاستعداد لرحلة الكونغو ابرق اليه ولسلي بالحضور حالا الى لندن . فما وسع غوردون الا ان يصارح ملك البلجيك بأن حكومته تطلب منه العمل في السودان وليس له الا ان يمتثل بالطاعة والاذعان . وكانت الوزارة الانجليزية في مركز حرج ، فالرأي

العام يطالبها بارسال غوردون والملكة تلح في ابعاث الضابط الذي يطلبه بيرنج وها هو غوردون على وشك الرحيل الى الكونغو في خدمة جلالة ملك البلجيك . كل ذلك دعا الوزراء يجتمعون في لندن بالرغم من غياب بعضهم بما فيهم جلادستون نفسه حالما وردت برقية بيرنج بالقبول ، وسرعان ما اجتمع بهم غوردون وخرج بعد اجتماع قصير آخذاً على عاتقه مهمة الاخلاء حسب ما دونها هو ، وأصدر جرانفيل تعليمات مضمونها ذهاب الجنرال الى سواكن ليبحث ويضع تقريرا عن الحالة وما يجب ان يتخذ من خطى لسلامة الحاميات والجاليات الاوروبية هناك ، وعليه النظر في أنجع الوسائل لاخلاء داخلية السودان وتوطيد دعائم الادارة المصرية في موانيء وسواحل البحر الاحمر ، وعليه ايضا التخفيف ما امكن عن نتائج الثورة القائمة على انتعاش تجارة الرقيق ، وعلى غوردون ان يكون تحت امرة المعتمد البريطاني في مصر ، وان يتصل بالحكومة البريطانية عن طريقه ، وعليه اخيرا ان يؤدي اي خدمات تطلبها منه الحكومة المصرية بواسطة بيرنج .

ويتضح من تلك التعليمات الغامضة والتي اشتهر جرانفيل باصدارها ان الحكومة الانجليزية لا تزال مصرة على عدم حمل عبء المسؤولية وانها لا تزال ترى في مهمة غوردون استشارية لا تتعدى التقرير وتقديم التوصيات ، ولكنها اخيرا رأت انه قد يطلب من غوردون عمل تنفيذي لو ارادت الحكومة المصرية ذلك عن طريق بيرنج . والظاهر ان جرانفيل تحاشى عن قصد كل بيان صريح يجعل لمهمة الجنرال عملا تنفيذيا من قبل الحكومة الانجليزية ولا شك انه بذلك انما يتأثر برأي رئيسه جلادستون . ولكنهم في لندن يعلمون تمام العلم ان ما يطلبه بيرنج هو ضابط يمنح سلطات مدنية وعسكرية للقيام بعملية الاخلاء التي رفضها عبد القادر باشا .

ما فهمه غوردون من مهمته

ازاء هذا التناقض والبلبلــة الفكرية في صفــوف اعضاء الوزارة الانجليزية ومعتمدها في مصر يجدر بنا ان نرى ما فهمه غوردون نفسه من مهمته . ويتضح ذلك جليا من مذكرة بعث بها الى حكومته وهو في طريقه في البحر الابيض المتوسط . فقد فهم حسب ما دوّن ان الحكومة الانجليزية قررت منح السودانيين استقلالهم وقررت الا تجعل للحكومة المصرية مجالا للتدخل في شؤونها بعد ذلك وتنفيذا لذلك فقد ارسلت لسحب القوات المصرية والمدنيين من اجانب ومصرّيين .

وسط هذا الاضطراب والفهم المختلف لمهمته غادر غوردون العاصمة الانجليزية في نفس اليوم الذي تلقى فيه تعليماته من الوزارة وبصحبته الكولونيل ستيوارت وبدأ العمل منذ اللحظة التــي غادر القطار فيهــا المحطة . وفي الطريق حتى وصوله الى محطة ليون الفرنسية ، رمى في هذه المذكرات والاقتراحات جانبا بعهمة التقرير واتكأ على ما سوف تطلبه منه الحكومة المصرية ، ورأى ان القيــام بسحب القوات المصريــة وتأسيس حكومات سودانية يقضي ان يصدر امر من الخديوي بتعيينه حاكما عاما كما كان قبلا ، وان يصدر منشور من الخديوي ينادي فيه بأنه تعطف ومنح الاستقلال لسلاطين السودان وان غوردون يمثله ويمثل الحكومة البريطانية في هذا الصدد ، وانه سوف يخلي البلاد من الجنود ، وأنه عين حاكما عاما ليضطلع بهذه الاعباء . واقترح ان يصدر غوردون نفسه بيانا يناشد فيه السودانيين بأنهم وقد منحوا الاستقلال ألا يتعرضوا للحاميات المنسحبة وبيان خاص الى القبائل الشرقية يناشدها تسهيل انسحاب اخوانهــم في الدين الى مرفأ سواكن . وحيث انه يجب عليه الخضوع لأوامر بيرنــج ارسلها من محطة ليون للوزارة الانجليزية للحصول على تصديقها اقتصادا للزمن ، فالغالب ان يستأنس بيرنج برأي حكومته قبل الموافقة عليها .

حكومة انجلترا توافق على المقترحات

وصلت مقترحات غوردون واجتمعت الوزارة لبحثها والجرائد الانجليزية تهلل وتكبر بابعاث غوردون وترى في ذلك قرارا من الحكومة حكيما اذ في نظرها ان غوردون هو الرجل الوحيد الذي يستطيع انقاذ الموقف في السودان . فبديهي ازاء ذلك الحماس البالغ الحد من الرأي العام ان توافق على المقترحات . وقد لاحظ جلادستون الفرق الظاهر بين ما رآه ووافق عليه ، وبين المقترحات التي تجعل من غوردون اداة تنفيذية لسياسة الاخلاء ، ولكنه رضي عندما علم ان التعيين والاوامر والبيانات تصدر من الحكومة المصرية وعليه تخلي حكومة جلالة الملكة من كل مسؤولية . وهكذا ينساق جلادستون في منطق خاطىء كهذا .

وعندما نزل غوردون في الباخرة في البحر الابيض المتوسط فصل ما اجمله من مقترحات ، فالسودان سوف يفصل عن مصر ويعاد سلالة الملوك والسلاطين الى عروش آبائهم وأجدادهم ويتحسس رغبات الاهلين في المدن الكبيرة التي نشأت بعد فتح محمد علي كالخرطوم وبربر وكسلا ويقر معهم نوع الحكومة التي يرفضونها ، ويسحب الحاميات تدريجيا . وسوف لا يتعرض لها اهل السودان طالما ضمنوا استقلالهم . وفي رأيه ان المهدي سوف لا يتعرض للحاميات المنسحبة طالما انها لا تقاتل . واذا تعرض وهذا في نظره بعيد الاحتمال فسوف يلجأ لحكومة جلالة الملكة .

فهم غوردون خاطىء

بنيت هذه المقترحات على اساسين . وهما ثقة غوردون في نفسه وتقدير السودان له وأن نفوذه ومركزه بين السكان يضمن تنفيذ ما يراه من خطط ، والثاني فهمه للثورة على انها في اساسها رد فعل لمظالم الحكم ،

وانه بزوال الحكومة الظالمة يزول السبب ويرضى المهدي بحل الاستقلال ويوافق بل يساعد على سحب القوات من السودان . وعلى هذه الاسس الواهية بني غوردون صرح خططه وعلى هذا التقدير الخاطيء لأسباب الثورة بني مقترحاته . وما كان يدور بخلد غوردون وهو الذي خبر السودان وجاب اصقاعه وتعمق في فهم مسائله ان يتصور درويشا يثير حماسا دينيا يشتعل كالنار تأتي على الاخضر واليابس . وهو قد عرف في تلك الطبقة من الناس الانزواء عن المجتمع والتظاهر بالمسكنة والانكسار ، وعرف ان جل همهم دخول الخلوات وتدريس الأتباع المريدين وتلقي الهبات والعطايا من الحكومة والمثرين ، وما كان يظن طبقة كهذه تستطيع التأثير على الاذهان والقيام بثورة ضد قوات الحكومة الرهيبة وسطوتها المخيفة ونفوذها الفعال ، وأكبر ظنه ان اليد الخفية التي تحرك الثورة من وراء الستار تحت القناع الديني هم كبار ملاك الرقيق يعاونهم من اكتووا بنيران الضرائب الفادحة ومن رزحوا دهرا تحت نير المظالم القاسية ، والمهدي زعيم الحركة وحامل لوائها قد يكتفي بملك بسيط في غرب السودان اذا ما زال السبب الذي من اجله التف الناس حوله وعقدوا له من اجله لواء الزعامة .

وغوردون مهما سلمنا بخبرته وتجاريبه في الحكم والادارة للسودان عامة وللمسلمين بصفة خاصة لا يستطيع ادراك الحماس الديني او تلهف المسلمين قاطبة لهذا اليوم الذي يظهر فيه رجل يعيد للدين عزه ومجده بعد ان خبا نوره ، ولم يدرك وما كان له ان يدرك ما تفعله مثل هذه الدعوة من رجل عرفوا زهده وتقشفه وخبروا تدينه وايمانه ، وبعد ذلك رأوا وسمعوا عن انتصاراته المتوالية . فهل يتقاعس المسلم بعد ان وضح النور وانجاب الظلام ؟ وهل يقعد به الخوف واليأس بعد ان دقت الساعة التي ظل العالم الاسلامي يترقبها ؟ هذه هي الناحية التي لم يلمسها او يتحسس عليها غوردون عندما كان صاحب الكلمة في هذه البلاد ، وهذا هو الاساس

الرملي الذي انهار فوقه ما شيده من آمال . واذا اشتهر غوردون بتدينه فكذلك كانت نهايته وخيبة آماله عدم ادراكه ما يفعله الدين في النفوس .

غوردون في القاهرة

وصلت اقتراحات غوردون عن طريق البرق لبيرنج ووافق عليها بحماس بالغ ، ولكنه رأى ان يعرج غوردون على القاهرة في طريقه الى الخرطوم للتشاور معه ومع الحكومة المصرية . وعندما ألقت الباخرة مراسيها في بور سعيد وجد غوردون برقية من جرانفيل ينبئه بضرورة النزول ومقابلة بيرنج ووجد في استقباله السير ايفلن وود سردار الجيش المصري ورسالة رقيقة من بيرنج يقنعه فيها بالتعريج على القاهرة قبل قيامه للسودان ، فلم يجد الجنرال مناصا من الاذعان والانصياع فأقله القطار للقاهرة وهناك حدثت المقابلات مع الخديوي اولا ثم مع بيرنج ونوبار ثانيا واتفق الثلاثة على سحب القوات واقامة حكومة اتحادية (Confederation) من الملوك والسلاطين في السودان .

غوردون يقترح استخدام الزبير

قابل غوردون بوجه الصدفة الزبير باشا في منزل أحد روساء الوزراء السابقين وكان قبل ان يبحر من انجلترا أبرق لبيرنج بتشديد الرقابة على الزبير ويستحسن نفيه لقبرص لأنه لا يزال على رأيه في ان الزبير عنصر خطر على الثورة في السودان ، فقد نزيد في اذكائها وقد يهب ليتعاون مع المهدي ولكنه عندما قابل الزبير وجهاً لوجه خطرت له فكرة قلبت الوضع ، ورأى في الزبير شخصية سودانية قوية تستطيع معاونته فيما هو مقبل عليه من مهام، ورأى الاستعانة بالزبير بدل ان كان يلمح فيه الخطر والمقاومة ، وليست

الخاطرات السريعة والحكم على امر بعكس ما ابرمه بالامس بغريبة على غوردون ، فتاريخه في السودان مليء بها . وفي الحال دبرت مقابلة بين الرجلين في منزل بيرنج فلم ينس الزبير موقف غوردون من ابنه سليمان وخطة الاذلال التي اتخذها حياله وأخيراً اتهمه بالثورة على الحكومة وانتهت باعدامه ، ثم هو ابس بناس طلبه الملح بسجنه هو ومصادرة املاكه ، وسجن اقاربه ، واخيرا المطالبة بمحاكمته على انه الموعز لابنه بالثورة ، ولولا معارضة الخديوي آنذاك لاعدم غوردون الزبير . فعل غوردون ذلك وهو يعتقد ان ابن الزبير فتى طائش انساق الى الثورة بتحريض والده وكلاهما خرجا على الحكومة ، وكلاهما يستحق الاعدام ، وجرت معاتبات بين الاثنين أصر فيها غوردون على موقفه ، وما اقتنع فيها الزبير بحججه ، وبالرغم من ذلك يصر غوردون في مرافقة الزبير له وبالرغم من اخطائه وعدم خضوعه توسم فيه السوداني الوحيد الذي يساعد في حل الموقف في السودان .

لاحظ الحاضرون كبيرنج ونوبار ان الهوة سحيقة بين الرجلين وانهم ان سمحوا للزبير بمرافقة غوردون فربما يحدث منه ما يعرقل خطط غوردون بدل معونته ، واحتياطا لهذا الاحتمال رفض بيرنج ما يطلبه غوردون ، وهكذا رأى نفسه يتلقى الرفض في اولى مطالبه وقد قيل انه سيلقى التعضيد والمعونة الكافيين من بيرنج والحكومة المصرية . وعندما كانوا يودعونه في محطة القاهرة حاول بيرنج تخفيف ما لاقاه غوردون من صدمة بان وعده بالنظر في ذلك الامر مرة ثانية فيما لو اصر على الزبير حين وصوله الخرطوم ورأى لزوم ارساله . وعلى هذه الحالة النفسية قام القطار به في رحلته النهائية يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ التي ما عاد بعدها بل كانت آخر سفراته ، ومن غرائب المصادفات أنه لقي حتفه في فجر ٢٦ يناير من السنة المقبلة (١٨٨٥) .

ولنترك غوردون في طريقه الى الخرطوم يرسم خططه لبرنامجه الشامل من حيث ترحيل الحاميات والمدنيين ومن حيث اقامة الحكومات السودانية

ولندّون هنا وثيقة تظهر بجلاء استحالة الاخلاء والانسحاب من رجل هو في الدرجة الاولى من حيث الخبرة بالسودان والاوجه العملية للترحيل وهو حسين باشا خليفة مدير عموم دنقلا وبربر وقد عين مرة ثانية لهذا المركز ، فكتب بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٨٨٤ ما يلي :

« نعرض للأعتاب الخديوية انه في هذا اليوم ورد لنا تلغراف من سعادة وكيل الحكمدارية يرغب فيه ارسال جميع المراكب الموجودين هنا وكرشهم للخرطوم وبالاستفهام منه عن السبب ورد لنا تلغراف يخبرنا أنه صدر اليه أمر عطوفتلو رئيس [١] مجلس النظار عن مخابراتنا باستحضار الجهال اللازمة لسفرية كل من يرغب التوجه لبحري من اهالي الخرطوم وخلافهم والفقراء منهم يترحلوا على طرف الميري ولا نعلم لهذا موجب الا أن يكون من تصور من هم مستولين الادارة بالخرطوم وما عندنا من الافكار نصدق به ولي نعمتنا وهـو أن الخرطوم في غاية الاستحكام والعساكر الموجودين به كفاية للمحاماة عن البندر وخلافه وفقط محتاج لمن يكون فيه الكفاية مـن رجال الحكومة المعوّل عليهم في الادارة والسياسة والثبات كسعادة القادر باشا حلمي وما عاثله اذ أن المتمهدي بجيوشه الآن بكردفان ولم نسمع احوال زيادة عـن حركة الحلاوين [٢] ولـو صار ارسال قوة عسكرية للجهة المذكورة بطريق البحر وضربها والاستغناء عنها بالكلية كما خابرنا وكيل الحكمدارية بالمشافهة التلغرافية لسكن هيجان الآخرين واطمأن الاهالي والسكان بمحلهم . أما القول بترحيل أهالي الخرطوم لبحري وترك تلك المدينة الحصينة يترتب منه خراب السودان باكله فضلاً عن عدم تمكن أحد من العساكر والاهالي من الوصول الى بحري لاوجه ، الاول أنه بمجرد قيامهم من الخرطوم تهيج الاهالي والعربان معاً ويكونوا يد واحدة ويمسكوا المواشي والطرق ومحلات الشلالات ويمنعوا مرور المراكب بالبحر والوصول

---

(١) نوبار باشا .
(٢) في الجزيرة جنوب الخرطوم .

الى بربر والثاني لو فرض وامكنهم الوصول فلا توجد جمال للترحيل من طريق ابو حمد بما ان الجمال هي مـن العربان والحالة هذه جميعهم بالعتامير وجارين اللازم لدخولهم تحت الطاعة وعندما يبلغهم قيام الاهالي وخلافهم ، من الخرطوم يزدادوا نفور وهيجان ولا يوجد جمل واحـد للترحيل وربما يقطعوا طريق ابو حمد . ومع تراكم أهالي ومستخدمين الخرطوم ببربر مع الموجودين بها فلا يجدوا شيء للقوت الضروري وتهلك الرعية وعلى كل فقيام أهالي الخرطوم غير صائب وما عندنا مـن النصيحة بحسب الصدق والامانة اوضحناه » .

وقبل وصول غوردون ايضاً كتب الشيخ العبيد محمد بدر المقيم بأم ضبّان جنوبي الخرطوم شرقي النيل الازرق خطاباً الى علماء الخرطوم وهو رجل مشهود له بالصلاح والنظر الثاقب لعواقب الامور يطلب منهم ايقافاً لسفك الدماء بين المسلمين التسليم للمهدي ، وهذا مـا نقله البرق مـن الحكمدارية الى المعية بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٨٨٤ .

« يوم تاريخه حضر جواب من الشيخ العبيد المقيم بجهة العيلفون الى العلماء بالخرطوم والفقيه عبد القادر قاضي الكلاكلة والفقيه موسى مفتي المجلس المحلي تاريخه ٢٤ ربيع اول يفيد انه كان متصبر للان انتظار تسليم الخرطوم للمهدي من دون سفك دماء وانه يجب لهم التسليم كما احب لنفسه لأن في ذلك الراحة الكاملة التي تحقن دماء المسلمين واموالهم وان جميع البلاد حصلت بها الحركات ويطلب منهم الاجابة بالقبول بعد الاتفاق معنا او رفض طلبه وحيث ان ذلك مما يقتضي العرض عنه للاعتاب السنية فبناء عليه لزم العرض للاحاطة » .

وجاء الرد من القاهرة في نفس اليوم برفض طلب الشيخ العبيد .

غوردون في الخرطوم

غوردون يعين المهدي ملكا لكردفان

حمل غوردون معه فرمانين ممهورين بامضاء وختم الخديوي احدهما يعين غوردونا حاكماً عاماً للسودان لاعادة الامن الى ربوعه والثاني يعلن فيه انه موفد لمهمة اخلاء السودان وانشاء حكومة منتظمة فيه وقد ترك لغوردون استخدام أيهما في الظروف الملائمة . وظل هـو في الطريق يضع المذكرة تلو الاخرى بما سوف يفعله ولكنها في مجموعها تتركز في نقطتي سحب الحاميات وانشاء حكومات سودانية هذا بالرغم مما فاه به في حديثه لمحرر بول مول جازيت من صعوبة الاخلاء ولكنه غوردون الذي يرى ان مجرد ظهوره في السودان يعيد الطمأنينة للنفوس وان اوامره وتعليماته ستنفذ حسب الخطة المرسومة ٥ وفوق ذلك يجهل الناحية الدينية للثورة . وبمجرد وصوله لبربر بعث بكسوة شرف للمهدي معلناً اياه بانه اصبح ملكا لكردفان ويرجوه توطيد العلاقات بينه وبين الحكومات الاخرى في السودان وبذا تنتهي الحرب القائمة . ولاعتقاده الجازم عـلى موافقة المهدي لهذا العرض السخي في نظره اعلن للاهالي في بربر عزم الحكومة على الاخلاء وتعيين سلالة السلاطين والملوك الاقدمين على ما كانوا يحكمرنه من اقاليم وشعوب وغادرها في طريقه للخرطوم مطمئن البال مستريح النفس على نجاح خطته .

اقتراح للحكم في دارفور وبحر الغزال

اجتازت اقتراحاته العملية لنوع الحكومة التي يريد انشاءها في بقية اجزاء السودان تطورا كلما اجتاز بعض الاميال في طريقه نحو العاصمة السودانية . فقبل ان يغادر القاهرة استصحب معه الامير عبد الشكور من سلالة سلاطين دارفور لتنصيبه سلطانا على اقليم آبائه واجداده ولكن ما وصلت الباخرة الى اسوان حتى رده غوردون للقاهرة لما تبين له من عدم كفايته ولانهماكه في الشرب وهو في الباخرة شغل باقتراح لادارة بحر الغزال والاقاليم الاستوائية ويتلخص بان تعطي بحر الغزال لملك البلجيك يحكمها على غرار الكونغو حيث توجه ضربة قاضية على تجارة الرقيق في منابعها ويقوم هو بتنفيذ تلك السياسة عندما ينفض يده من اعمال السودان الاخرى ويقيم الحكومات المقترحة في ربوعه ، وكتب بذلك خطابا لملك البلجيك عن طريق حكومته واودعه مكتب البريد في كرسكو ، ولكن برنج وحكومة جلالة الملكة رأوا ألا تصل مهمة غوردون الى تلك الاقاليم ، وهكذا فشلت اولى محاولاته لتنظيم الحكم الجديد .

حكم ذاتي في السودان تحت سيادة مصرية

اما نظامه لبقية انحاء السودان فاول اقتراح له عند وصوله ابي حمد بعث به الى بيرنج وفيه فرض سيادة مصرية على الحكم الذاتي في السودان تنحصر في تعيين الحكام ومحكمة عليا للاستئناف . ولكنه ما ان مر على القرى واتصل بالسكان فيما بين ابى حمد والخرطوم حتى تراجع عن الخطة التي اعتزم تنفيذها ورأى الانفصال التام بين البلدين والدولة التي تفرض سيادتها على الحكم الذاتي هي دولة اخرى غير مصر .

حكم ذاتي تحت اشراف بريطاني

وصلت الباخرة الى الخرطوم تجاه سراي الحكمدارية صباح يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ وخرجت الخرطوم عن بكرة أبيها ترحب برجل عرفته وعرفها ، واستقبل في السراي كبار الموظفين والضباط والعلماء والوجهاء ، وممثلي الجاليات الاجنبية ، وبعد ان انقضت زحمة الاستقبالات لجأ غوردون الى مكتبه بالسراي مساء ذلك اليوم وبدأ يدون الافكار التي ظلت تتلاعب في رأسه طول الطريق بين بربر والخرطوم ، وقد تبين اه ان الحكومة المصرية اضعف من ان تكون لها سيادة ولو اسمية ولقد اقتنع بان الاستقلال الكامل للملوك والسلاطين معناه الفوضى الكاملة وأخيراً رأى الا مفر من سيادة اجنبية تدخل عنصراً مـن الاستقرار والثبـات للأداة الحكومية المزمع تأسيسها ولا بد ان ينحصر الاختيار بين تركيا وانجلترا والأخيرة في نظره ترجح كفتها على تركيا .

والاشراف من قبل انجلترا يكون على غرار إشرافها على الافغان آنذاك أي تعضيد ادبي للأداة الحكومية وإعانة مالية تسد عجز الميزانية ، وإذا كان لا بد من رجل مقتدر ليصبح رأساً للحكومة الجديدة فمن يصلح لذلك ؟ ما شك غوردون لحظة واحدة في الرجل وهو الزبير وربما قارن بينه وبين حسين باشا خليفة في بعض الأحيان ، فالأخير ذو خبرة وكفاية وله نفوذ في بربر ودنقلا غير ان اسم الزبير يفوق لمعانه أي شخصية اخرى في السودان . فلا بد اذاً من ارساله ولا بد من مقاومة كل الاعتراضات اذا اريد للسياسة الجديدة الاستقرار ، واذا اريد للسودان انتشاله من الفوضى والاضطراب وقد برّ بيرنج بوعده وعضد مشروع غوردون عندما بعث به الى لندن من حيث ارسال الزبير .

بداية تنفيذ الاخلاء

تركزت مقترحاته لاقامة الحكم الجديد بعد ان تتم عملية الانسحاب ويغادر هو البلاد واقترح الشخص الذي يخلفه في مركزه والحكومة التي تساعده أدبياً ومالياً . فليصرف الجهد بعد ذلك في الغرض الثاني من بعثته وهو اخلاء البلاد فأصدر اوامره بأيقاف العمليات الحربية ضد قوات المهدي او اعوانه وكتب لود البصير في الجزيرة يطلب منه وقف الاعتداء ، وامر بفتح ابواب الاستحكامات للداخل والخارج ، وبدأ يفرز الجنود المصريين من السودانيين توطئــة لترحيلهم بالتدريج ، وبعث ليبرنج ان يستقبل اول ارسالية من النساء والاطفال والموظفين والجنود مكونة من الف وثمانمائة في كرسكو . كل ذلك وغوردون لا يزال في جهله ببواعث الحركة وما ادراك ما قوتها ومدى اعتناق الناس لمبادئها وفوق كل هذا محفزها الديني ، ولكن الضباط العظام والعلماء والوجهاء في الخرطوم عرفوا عن الثورة وقوتها ما لم يعرفه غوردون ونصحوا له بالتريث في تنفيذ الاخلاء ، تارة بالمقابلة وتارة بالكتابة ولكنه ردهم بألا سبيل الى التراجع وألا مجال للنصح .

الثورة في السودان الشرقي

ولنترك الآن غوردون في الخرطوم يعد نفسه لتنفيذ الاخلاء بعد ان طلب تعيين الزبير حاكماً للسودان ولننظر حوادث السودان الشرقي وما حدث فيها من تناقض لسياسة الانسحاب . بعد سقوط الابيض واثناء ما كانت الحكومة المصرية تفاضل بين علاء الدين وهكس لقيادة حملة كردفان ، واثناء ما كانت الاستعدادات على قدم وساق لتسيير تلك الحملة والآمال الجسام التي انيطت بها أبرق الحكمدار بالرسالة التالية لمصر في ٣ اغسطس سنة ١٨٨٣ « علم من التلغراف الوارد من محافظة سواكن رقم ٣ اغسطس

سنة ١٨٨٣ بأنه بلغه مؤكد ان شخصين احدهما يدعى عثمان هذا من عائلة دقنه بسواكن والآخر جعلى لم يعلم اسمه حضروا من طرف المتمهدي وقاموا من بربر وتوجهوا لعربان البشارية وحرضوهم على التمرض ضد الحكومة ثم حضروا لعربان الامارار وحرضوهم ايضاً وان احدهما توجه لعتبلي وقيل انه بها للان والآخر توجه اول امس من كوكريب قاصداً سنكات ليهيج عربانها ولذلك صار قيام المحافظ ومعه محمود علي شيخ الفاضلاب لاعمال الطريقة المودية لضبط عثمان المذكور » .

اما الجعلى الذي لم يعلم اسمه فهو الشيخ الطاهر المجذوب من سلالة المجاذيب بالدوامر اهل علم وتصوّف من زمن بعيد ومدارس قرآنهم بعيدة الصيت والشهرة وأنجبت العائلة عدداً من الصالحين المتقدين ومنهم الشيخ الطاهر الذي اصبح له نفوذ وتلاميذ وأتباع في الجبال الشرقية . واما عثمان فهو ينتمي الى عائلات سواكن الشهيرة وصاحب اسفار لغرض التجارة في داخلية البلاد وخارجها وعرف بشدة مراسه وعمق عقيدته وثباتها . ومنذ ان سمع بالمهدي هاجر اليه وعقد معه بيعة ظل وفياً لها بعد زوال المهدية الى ان وافاه أجله المحتوم وما عرف من امراء المهدية الكبار من كان في مثل وفائه واخلاصه للثورة وتفانيه في سبيل امامها وخليفته من بعده وما كان لرجل غير عثمان يتزعم قبائل الجبال الشرقية وهم اصعب مراساً واشكس قيادة من كل القبائل السودانية ولولا قوة عثمان وايمانه العميق برسالة المهدي لما تمكن من تزعمهم وكانوا له طوع بنانه ورهن اشارته . وبدأت النار التي اشعلها دقنه تعمل عملها . فأصحاب الجمال امتنعوا عن استخدام جمالهم في طريق سواكن ــ بربر والذين كانوا في القوافل هربوا اثناء الطريق .

اعمال دقنه الحربية

وكان بدء حركاته الحربية الهجوم على سنكات في نفر قليل من اصحابه المخلصين ولكنهم ردوا على اعقابهم وجرح عثمان في المعركة وتنفست الحاميات

الصعداء وظنوا انها حركة ضعيفة قضي عليها باول انهزام أوقع بها . ولكن سرعان ما استرد عثمان عافيته وكثرت حركة التجمع حوله والتف عليه سكان الجبال وبدأ مناوشته التي ظلت شوكة في جنب القوات الحكومية ، وعطل الطريق إلى البحر الاحمر حتى انحصرت المواصلات في طريق النيل وتوجت اعماله باحتلال سنكات بعد أن ابلى قائد الحامية توفيق بك بلاء حسناً ومعه جنـد قليل أخلصوا الولاء وسقطوا شـهداء ولانهم عنـد خروجهم من الاستحكام قاصدين الوصول الى سـواكن اذ نفقت أقواتهم وانقطعت مواصلاتهم وظل دقنه مستولياً على آبار التيب وطماي يشن الغارة تلو الغارة على طوكر وسواكن .

هزيمة بيكر

واخيراً رمت الحكومة بآخر سهم في كنانتها للميدان الشرقي مثلما رمت بحملة هكس في الميدان الغربي . ومثلما عقدت اللواء لضابط انجليزي في شخص هكس قاد فلنتين بيكر جيشاً من الجندرمة من أخلاط الناس غير المدربين وعدته ستة آلاف ، وليس هذا بالعدد القليل لو أحسن تدريبه وسمت روحه ، ولكنهم ما كادوا يرون رايات الأنصار تخفق على الآبار حتى هلعت نفوسهم واستطار لبهم ورموا بأسلحتهم على الارض متضرعين الى الله ان يحميهم من عدوهم الرهيب . فاختلط الانصار بهم بعد اختراق المربع وأبادوا من ثبت الا من ولى الادبار ودخل في الوابورات والسفن الراسية في مرفأ ترنكتات ومن بينهم قائدهم بيكر وقفلوا راجعين . ولـم تشهد حروب المهدية قوة تفقد الصلاحية للقتال وتفقد الروح المعنوية مثل الخليط الذي قاده بيكر ولا تتسامح بتسميته جيشاً .

وقد نشرت الجرائد الانجليزية بحروف ظاهرة خبر انهزام بيكر المريع ووصلت الاخبار للحكومة الانجليزية على أن الثورة لم تكن بما عرفوا عنها

عندما عقدوا مجلسهم مع غوردون ، وقد ابرقوا لغوردون وهو في طريقه على الهجن يعبر الصحراء النوبية بمخاوفهم من الحالة واستفهموا عما اذا كانت هذه الهزائم تؤثر على مهمته في الخرطوم ، فاستلمها وهو في بربر ورد على انه مهما كان حرج الحالة فرجوعه بعد ان وصل ورأى الناس سوف يكون لطخة في سمعة بريطانيا . واستجابة لما أثارته الجرائد عن الحالة في الشرق رأت السلطات الحربية الانجليزية ان تبعث بجنود انجليزية لميناء سواكن لتحمي المدينة وتمد يد العون وتسهل مهمة الانسحاب لبقية الحاميات . وعندما خوطب غوردون في هذا الشأن أبدى اعتراضه ورأى ان مهمته سلمية ولا يصح التدخل المسلّح .

حملة جراهام

وصلت اخبار تحرّج الحالة في الشرق وارتفاع نجم عثمان دقنه وابادة الحامية في سنكات بعد بسالتها وفتحت المناقشة في البرلمـان حول سياسة الحكومة في مصر ، وربما تنتهي بطرح الثقة . وتحت هذه الظروف قررت الحكومة القيام بعمل حاسم يرضي الرأي العام بالرغم من اعتراض غوردون بحملة حربية والوزير الوحيد الذي ما زال في اصراره على الاعمال السلمية هو جلادستون . وفي تلك الليلة صدرت الاوامر بارسال أربعة آلاف جندي انكليزي بقيادة الجنرال جراهام لفك الحصار المضروب حول حامية طوكر ولحماية مرفأ سواكن . وبينما كانت السفن تمخر في البحر الاحمر تقل الأورط الانجليزية للقيام بأعمال عدائية كان غوردون ينشر الدعاية لمهمته السلمية ، وهكذا انجرفت السياسة الانجليزية في تناقض مضحك ، فالاخلاء واقامة حكومات مستقلة في النيل وعلى بعد ٢٥٠ ميلا الـى الشرق تهبط الجنود متجهزة للحرب . واشتبكت الجنود الجديدة في حروب مستمرة مع الانصار في النيل وطهاي واحرزوا انتصارات بعد تحمل الضحايا ولكنها حروب أثيرت

دون ما غرض واضح بل كانت الحملة نتيجة لموقف حرج أمام الرأي العام وجدت الوزارة الانجليزية نفسها فيه ، ورأت ان هذا العمل ينجيها من الورطة . فاذا كان الغرض فتح الطريق لبربر لتسهيل عملية الانسحاب فان قوة الحملة لا تسمح لتأدية ذلك الغرض . فبعد ان أبدوا حنكتهم وتدريبهم العسكري رجعوا ليعسكروا في سواكن منتظرين تعليمات أخرى . وبينما كان غوردون يقوم بتنفيذ سياسته السلمية سمع الناس في الخرطوم عن ابحار القوة الانجليزية ثم عن نزولها في سواكن لتبدأ اعمالها الحربية فلا غرو اذا اعترتهم الدهشة ولم يفهموا ما بدا لهم من تناقض .

غوردون يتنكر لسياسة الاخلاء

واذا كان غوردون ظل واضحاً في سياسة الاخلاء واقامة حكومة سودانية الى يوم ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ الا ان سلسلة من الغموض وسوء الفهم بدأت لمدة ستة عشر يوماً حتى ١٢ مارس حيث قطع الثوار خط التلغراف . وقد ربط غوردون منذ البداية اخلاء السودان واقامة الحكومة السودانية مع بعضها البعض ، واختار وأصرّ على اختياره للزبير باشا رأساً للحكومة المقترحة . وبعد مكثه في الخرطوم أياماً أدرك كنه الحركة وهنا وضحت الحقيقة أمام عينه وهنا أدرك أن حركته السلمية بنيت على أسس واهية . ومن يوم ٢٦ فبراير بدأت رسائله تظهر فيها أمثال تلك العبارات « إرسال التجريدة » و « سحق المهدي » ، ولو أنه في الجانب الآخر يلمح القارىء منها تمسكه بسحب الحاميات . وهــذا الجديد في الرسائل أدهش بيرنج كما أنه أدهش الحكومة البريطانية ، ولم يبعث بيرنج بنصوص الرسائل البرقية التي ظلت تتوارد عليه دون انقطاع في هذه الحقبة من الخرطوم بل يبعث بملخصاتها .

فترة تردد

فهمت الحكومة الانجليزية أن غوردون رمى بتعليماته جانباً واتخذ خطة الهجوم لأن ورود مثل هذه العبارات في رسائله إنما تبين بوضوح الموقف العدائي الذي سوف يقفه من المهدي . وفهم المدافعون عن غوردون أن عمله هذا لا يعني القذف بسياسة الاخلاء بل إن هذه السياسة تستدعي استعمال القوة أو التظاهر بالقوة حتى تمهد الطريق لسحب الحاميات والمدنيين، واستدلوا بذلك أنه في الايام التي بعث فيهـا بتلك الرسائل حاملة طابع الهجوم والعداء كانت السفن والقوارب تحمل بعضاً من المرضى والعجزة الجنود لبربر ، ومنها عبر الصحراء لكروسكو . وفي هذه الفترة كان مجلس الوزراء البريطاني ينعقد ليبت في مسألة تتعلق بالسودان ويصدر قراراً ، وبعد ساعات ترد رسالة من بيرنج تحمل اقتراحاً جديداً من غوردون ربما يؤثر في القرار فيما لو وصل قبل الانعقاد . وغوردون بدوره يبدي رأياً ويبعث به ثم يصله قرار يجعل رأيه الجديد عديم الاهمية . وبيرنج من القاهرة يبعث بلخص لمجموعة من التلغرافات الواردة من الخرطوم أو أجزاء منها وقد تحمل صورة غير صادقة لما يريده غوردون ولا سيما أن غوردون عرف بعدم عنايته بتحديد المعنى وإيراد اللفظ الذي يؤديه ، ومن الجانب الآخر عرف بعض اعضاء الوزارة البريطانية بعنايتهم الفائقة بالمعاني والالفاظ التي تدل عليها مثل Dike .

مسألة الزبير

ومسألة آخرى أثارت كثيراً من الغبار وهي مسألة تعيين الزبير ليرأس الادارة السودانية الجديدة . وقد تبين لنا أن بيرنج اعترض أولاً خوفاً على غوردون من وجود الزبير معه ، وأخيراً انحاز لرأي غوردون ووقف الاثنان

صفاً يطلبان بإلحاح بل هما على اقتناع بأن الاخلاء لا يتم دون إقامة حكومة قوية وأن الرجل الوحيد الذي يستطيع تسيير الدفة هو الزبير والزبير وحده. ولكن الحكومة الانجليزية التي كانت تحت رحمة الرأي العام آنذاك ما كان لها أن توافق على رأي كهذا . فهي إن وافقت أصبحت ملزمة بالاشراف على النظام الجديد وهذا معناه تحمل مسؤولية الحكم في السودان وفوق هذا ربما اتهمها الرأي العام بالتفريط في التقاليد الانجليزية وتقاليد الحرية والقضاء على الرق . وما عرف الرأي العام البريطاني عن الزبير سوى أنه أكبر نخاس أنجبته إفريقيا . وأخيراً خضعت الوزارة لرأي عام سممته الجرائد ضد الزبير بل إن احد نواب المعارضة ووزير سابق ألقى في المجلس خطبة فياضة تحدث فيها بإسهاب عن السمعة التي تصيب بريطانيا في الصميم فيما لو اقدمت على إرسال الزبير وتعضيده . وأخيراً حمل البرق رسالة صريحة لبيرنج تنبئه عن رفض الحكومة لابعاث الزبير وأنها سوف لا توافق على استخدام قوة في بربر ، وهذه الاخيرة رأى غوردون ان لا بد منها لفتح الطريق لسواكن . غير ان الرسالة ما وصلت لمن يهمه امرها ، فـفي اليوم التالي لارسالها تم تطويق الخرطوم وانقطع الخط التلغرافي حوالي ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ وقبع غوردون ينتظر فتح طريق بربر سواكن وإبعاث الزبير .

بدء الحديث عن الانقاذ

اتصلت الرسائل بين القاهرة ولنـدن بشأن استخدام الجنود لفتح الطريق وبعث غوردون باقتراح له يتلخص في انـه يستقيل من وظيفته في الجيش ويسافر جنوباً للخدمة في الكونغو وتنسحب حامية الخرطوم إلى بربر برئاسة ستيوارت إلى ان يتم لها الانقاذ . كل ذلك إذا أصرت الحكومة على موقفها تجاه الزبير . وبدأت الافكار تساور بيرنج منذ انقطاع الاتصال التلغرافي وتحرج موقف غوردون وسرت نغمة الانقاذ في رسائله . ولمح إلى

أن الظروف ربما تقضي بانقاذ حملة تنقذه ومعاونيه ويتفق مع غوردون في سياسة الاتصال بين بربر وسواكن . غير ان السلطات الحربية الانجليزية في مصر رأت استحالة ارسال طابور من جنود جراهام عبر التلال الشرقية للمخاطر التي يتعرض لها الجند أولا وللحر الذي سوف لا تحتمله اجسامهم ثانياً . واتباعاً لنصيحة الحربيين لم تر حكومة جلالة الملكة التزحزح عن سياستها ، بالرغم من ان الملكة فكتوريا نفسها اهتمت بانقاذ ذلك الجندي الباسل من رعاياها وأشارت باستخدام الجنود الهندية اذا استحال قيام الانجليز بالمهمة ، ولكن الحكومة التي انجرفت رغم إرادتها في التدخل في مشاكل السودان وتحت ضغط الرأي العام ما كان لها أن تتحرك وتتخذ سياسة هجومية بـدل الاخلاء والانسحاب . وقـد ايدتها نصيحة الخبراء العسكريين . كل تلك الاقتراحات ورفضها لا تصل أنباؤها لغردون وهو من جانبه يحاول الاتصال ما أمكنه بالخطابات بشتى الطرق وكلها تشير الى حرج الموقف وفتح الطريق ما بين بربر وسواكن .

مناوشات اولى مع حامية الخرطوم

تركنا المهدى يرجع الى الابيض بعد إبادة حملة هكس وتركناه ينعم بشهرة عمت أرجاء السودان وقد أعطى لنفسه وأنصاره راحة بعد نضالهم المتواصل واكتفى بارسال السرايا للجهات البعيدة ، فرد البصير عليه إثارة أهل الجزيرة والشيخ العبيد عليه الذهاب الى الخرطوم ومناوشتها . وفي منتصف مارس سنة ١٨٨٤ تم للشيخ العبيد وود البصير سد الطرق المؤدية للخرطوم اللهم إلا عن طريق النهر وحتى هذا تلقى الوابورات عنتاً قبل ان تخترق نطاق الحصار المضروب . وصار الانصار يصوبون رصاصهم من شرقي النيل الازرق على السراي نفسها وقد قتل احد الكتبة نتيجة لذلك . وخرجت فرقة من جند الحكومة من الخرطوم في أحـد الايام تحت قيادة

السعيد باشا الجيعابي وحسن باشا الشلالي لطرد الانصار من الشرق حتى يتسنى لحامية الشايقية التي تعسكر في الحلفاية من الانضمام لحامية الخرطوم ولكن الفرقة باءت بالفشل وقال الناس إن القائدين تآمرا مع الانصار ومنعا العساكر من الهجوم وعند تشكيل مجلس عسكري عالي حكم عليهما بالاعدام.

رد المهدي لغوردون

في صباح ٢٢ مارس ظهر على ابواب السراي ثلاثة من الانصار في كامل أهبتهم وسلاحهم يحملون خطاباً وربطة بها ملابس وقدموا ما معهم إلى الحكمدار دون ان يلقوا بسلاحهم وعلى أعينهم سيما الشعور بالعظمة والاعتداد بالنفس . كان الخطاب يحوي رد المهدي على خطاب غوردون الذي بعث به من بربر وملخصه انه ما اراد ملكاً او سلطاناً وما طلب من مخلوق منّة او مكرمة ، وإنما بعث برسالة المهدية الكبرى لهداية الخلق . واذا كان غوردون يريد بالمسلمين خيراً كما يزعم فأولى له ان يستضيء قلبه اولاً بنور الاسلام وعند ذاك ينال خير الدارين . ومع الخطاب جبة الانصار لغوردون يلبسها فيما لو هداه الله وقبل الدخول في الملة المحمدية .

هنا ادرك غوردون إدراكاً لمسه باليد كنه رسالة المهدية ومدى اساسها الديني ، وبعد ان كان يظن في المهدي آلة مسخرة في ايدي اصحاب الرقيق او طامعاً يريد ملكاً ونفوذاً ادرك انه رجل يعتقد برسالته عميق الايمان بها. وهنا اصابته نوبة من الغضب عندما علم ان هذا الرجل يطلب منه تغيير دينه والخضوع لاوامره ونواهيه ، وهنا صمم على تجربة قوته معه . فاذا كان المهدي متديناً في إسلامه فهو مؤمن بمسيحيته ، واذا كان المهدي يعتز بقوته وكفايته في النضال فهو ليس بأقل منه صلابة وشدة مراس . واخذها غوردون منذ تلك اللحظة على انها نضال شخصي ومبارزة القى له فيها

القفاز فيلتقطه . ومن ذاك التاريخ نستطيع ان نجزم بان غوردون رمى بسياسة الجلاء جانباً وصمم على محاربة المهدي حتى النهاية .

السودان في مجلس العموم البريطاني

ولننتقل الآن من مسرح الحودث في الخرطوم الى دار مجلس العموم في لندن وهــو منعقد في ٣ ابريل لترد الحكومة عــلى اسئلة بصدد « مهمة غوردون » عقب ظهور رسالة التيمس من مكاتبها في الخرطوم فرنك يورز وفيها يناشد الأمة البريطانية الا تتركهم وشأنهم يحاصرون في الخرطوم . دخل المجلس المستر جلادستون بعد غيبة طويلة ظل فيها ملازماً لفراش المرض وارتفعت عاصفة من البشرى والترحيب للسياسي العظيم . وكان عليه ان يرد على سؤال تقدم به زعيم المعارضة عن مسألة السودان .

جرد الرئيس لساناً ذرياً لمعارضيه وارتفع في ذلك اليوم في مناقشته وتأثيره على السامعين الى درجة ان اقطاب المعارضة مــا حاولوا رداً او احراجاً للوزارة بالرغم من انهم كانوا على استعداد لها بمستنداتهم وبياناتهم وجه في اول الامر هجومه على المعارضة بأنهــم يعرقلون أعمال الدولة ويشغلون وقت الحكومة والمجلس بالتوافه من الامور وانهم في ظرف شهرين شلوا حركة الادارة بسبع عشر مناقشة في موضوع السودان ومصر . ثم بان لهم مهمة غوردون حيث تفهمها الحكومة . فهي ما بعثته الا ليقدم تقريراً عن انجع الطرق للانسحاب وعلى هذا فمهمته استشارية بحتة واناطت به الحكومة المصرية مهمة تنفيذية بان عينته حاكما عاما بسلطات استثنائية لاخلاء السودان . فاذا اعترضته عقبات وهو يؤدي المهمة التنفيذية فالمسؤولية لا تقع على عاتق حكومة جلالة الملكة .

جلس الرئيس تاركاً الجانب الحربي من المسألة لزميله وزير الحربية اللورد هارتنجتون فوضح للمجلس المخاطر الحربية التي يتعرض لها المجلس

ان حاول القيام بحركة زحف من سواكن الى بربر وكذلك عدم ملاءمة هذا الفصل بالذات في أرض يشتد حرها كالسودان . وهكذا كان موقف حكومة جلادستون في اول ابريل من انقاذ غوردون . وحتى عندما توالت حملات الجرائد تطالب بانقاذ غوردون ما كان للحكومة الا ان تبعث لبيرنج في ٢٣ ابريل برسالة موجهة لغوردون يوقفهم فيها على الحالة ودرجة الخطر وما مقدار القوة وما الطريق الذي تتخذه للوصول اليه وتأدية مهمة الانقاذ . وقد أشاروا صريحاً على أنه مهما كانت الظروف فأي حملة تذهب تنحصر في انقاذه ومن معه ولا يراد لها القيام بعمليات حربية وهذه الرسالة وصلت الى غوردون بعد ثلاثة أشهر .

فترة ركود

تلت ذلك فترة تقارب الثلاثة أشهر غاب فيها بيرنج عن القاهرة ليكون بجانب الحكومة في نظر شؤون مالية تتعلق بمصر وحل مكانه المستر إجرتن وما زالت مسألة انقاذ غوردون تعرض من وقت لآخر في الجرائد وفي مجلس العموم . والحكومة لا تزال في انتظار ردّ البيانات والتفصيلات حتى تقرر في أمر حملة الانقاذ . وفي تلك الحقبة بالذات شغلت الحكومة بقانون الاصلاح الدستوري ، واذا ما تعرض احد الوزراء لمسألة غوردون في مجلس الوزراء ارجأها جلادستون لتصريف الشؤون العاجلة . واثناء المحادثات والمناقشات ظهر ان فريقا من الوزراء ينادي بإرسال الحملة في الحال وفريق يرى ان غوردون خالف تعلياته ولا يصح ان يضحي بعدد من الجنود لاجله . وهم وسط تلك الافكار المتبلبلة والحكومة الانجليزية تكسب الوقت وتسوّف اذ سقطت بربر .

الشيخ محمد الخير وسقوط بربر

كان الشيخ محمد الخير استاذا للمهدي كما قدمنا وظل بعيدا في المراحل الاولى لسريان روح المهدية يرقب نجم تلميذه الساطع باهتمام ولكنه تريث قبل ان يعتنق مذهبه . وعندما التقى المهدي مع هكس في الموقعة الحاسمة ثم اعلنت سياسة الاخلاء بعد ذلك شد الاستاذ الرحال وذهب الى الابيض . وكان عناق وحسن لقاء بين استاذ سره ما وصل اليه تلميذه من مجد وتلميذ يعترف بما اسداه اليه استاذه من جميل وما قبس منه من علم . ثم أناط به المهدي مهمة قطع الاتصال بين مصر والخرطوم وعزل كل الحاميات في داخلية السودان . وقد تم قبل ذلك قطع المواصلة بين سواكن والنيل بفضل القائد الجريء عثمان دقنه . وقفل محمد الخير راجعاً الى النيل يحمل قبسا من شعلة المهدي وسرعان ما انضمت اليه القبائل شمال الخرطوم وما زالوا يتجمعون ويتحمسون حتى أحاطوا ببربر ، وبعد حصار طويل وعناد من الحامية اقتحمها الانصار وأسر مديرها حسين باشا خليفة وكبار موظفيها . وبذا تم انعزال الخرطوم وصار ما يصل لغوردون من اخبار ومكاتبات وما يحاول ارساله هو بواسطة وكلاء تدفع لهم اجور عالية . فبعضها يصل في وقت لا بأس به وبعضها يظل شهوراً قبل ان يستلمه من أريد ارساله لهم وبعضها يضيع في الطريق .

الخرطوم بين الانقاذ والسقوط

قطع غوردون الامل من معونة انجلترا وصمم على الثبات وعدم التسليم وانصرفت جهوده الى اقتراح يرمي الى تسليم السودان لتركيا . فكتب للسلطان يحثه بأن يبعث بجنوده الشاهانية لترد الى حظيرة الاسلام اقليماً تمرّد وابدى العصيان وعندما تسربت مثل هذه الاقتراحات الى انجلترا دعمت رأي جلادستون ومن ينحون نحوه في غوردون وتصرفاته . ولكن الاقتراح كمثل اقتراحه لتعيين الزبير ذهب مع الريح وبقي عليه ان يتوكل على الله ويقوّي الحصون التي اقامها عبد القادر باشا وهي عبارة عن خندق يحمي الخرطوم من ناحية الجزيرة ويصل ما بين النيلين وجسر مرتفع من تراب الخندق وطوابي على مسافات متقاربة عليها المدافع . وكان على غوردون ان يزيد عدد جنده من المتطوعين بعد تدريبهم وان يبعث ببواخر عندما ارتفع النيل لتجمع ما تستطيع جمعه من ذرة ومواد غذائية اخرى .

حصار الخرطوم

اما المهدي فامر ود البصير والشيخ العبيد بضرب نطاق على الخرطوم وقد نجحا نوعا ما في مهمتهما ولكن ما ابدته حامية الخرطوم من نشاط ورحلات البواخر المتكررة جعلت المهدي يبعث بقوات متزايدة ليحكم النطاق . فسمى الحاج محمد أبو قرجة أميرا للبرين والبحرين . ومع تيقظ الانصار جاوبتهم الحامية بجرأة وامتاز فيها امثال محمد علي باشا وساتي بك

ونجحت في رفع الحصار حوالي اواخر يوليو سنة ١٨٨٤ ونتيجة للنجاح الذي لاقته الحامية بعث غوردون بمحمد علي باشا يتعقب قوات الشيخ العبيد فاتصل بهم في العيلفون شرقي النيل الازرق وتغلب عليهم . وفي نشوة من الظفر رأى ان يتابعهم الى قرية أم دبّان وتقع بعيدة من النيل ، فزحف ووجهته مقر الشيخ العبيد وما ان دخل في ارض مشجرة الا واطبق عليه الانصار من كين في الغابة ، وكانت موقعة هكس المصغرة .

بعثة ستيوارت

وعقب رفع الحصار رأى غوردون ان يبعث بوكيله ستيوارت لاحتلال بربر والثبات فيها حتى تتصل بهم حملة الانقاذ ان كانت في الطريق وان لم تتصل به يحرق المدينة ويرجع الى الخرطوم . ولكنه عدّل في هذا الاقتراح بعد ما مُني به من فشل في موقعة ام دبان وقرر ايفاد ستيوارت معه آخرون بالباخرة عباس علّه يصل مصر . وهناك ينقل الى الحكومة البريطانية الحالة وما تردت اليه من حرج . وما قدر لستيوارت ان يصل بسلام الى مصر حيث ارتطمت الباخرة في صخرة في ارض المناصير بين أبي احمد ومروي ولقي ركابها حتفهم على ايدي شيخ المناصير ورجال قبيلته .

ود النجومي يزحف على الخرطوم

فهذا قائده (محمد علي باشا) الذي اطراه اكثر من مرة راح ضحية مغامرته وهذا وكيله ستيوارت يقضي عليه المناصير ـ ولو انه عرف هذه الحقيقة اخيرا ـ وها هو المهدي وهو بالرهد يبعث بأمير امرائه عبد الرحمن النجومي ومعه مدافع الحصار ودم جديد من الانصار لاحكام نطاق من الحصار لا تفلت الخرطوم منه ولا تصلها بالعالم الخارجي صلة . وكما فعل

ابو قرجة قبله وجه النجومي انذارا لغوردون بالتسليم دون اراقة الدماء ، وكالعادة كان رد غوردون عدم الاذعان والرفض البات . ودخلت الخرطوم في حقبة حصارها الاخير والذي كان محكما هذه المرة الى درجة انقطاعها تماما عن بقية السودان .

موضوع الانقاذ ايضا

تركنا الحكومة الانجليزية بعد ابريل تتعرض لموضوع الحملة من الوقت لآخر ولا تصل الى رأي ، ومما يبين نفوذ جلادستون واصراره على عدم ابعاث حملة ما ان مجلس الوزراء بحث هذه المسألة في يوم ٢٥ يوليو وافق تسعة من الوزراء واعترض ثلاثة وفيهم جلادستون ، ومع هذه الاغلبية الساحقة سقط القرار لان الرئيس يصر على اعتراضه . وبعد اربعة ايام من ذلك وزع اللورد هارتنجتون وزير الحربية مذكرة لزملائه يعرض فيها المسألة باسهاب ولوح بالاستقالة اذا لم تقرر الحكومة على الفور ارسال الحملة . وعندئذ لان جلادستون وخضع ووافق على طلب التصديق من البرلمان بثلاثمائة الف جنيه كاعتماد اضافي يصرف لتجهيز الحملة .

حرب الطريق

وما ان قررت الحكومة ارسال الحملة وما ان حصلت على تصديق البرلمان بالمبلغ المطلوب حتى بدأت « حرب الطريق » هل تتخذ طريق النيل ام طريق بربر ــ سواكن ؟ ودخل الخبراء الحربيون في جدل امتد اياما وكان اول عوامل التأخير . واخيرا نجحت فكرة طريق النيل وعقد لواء القيادة للورد ولسلي نفسه اكبر مؤيدي ذلك الطريق . وكان كتشنر آنذاك في دنقلا كضابط للمخابرات يستطلع الاحوال ويتصل بغوردون اذا مكنته الظروف

فنقل خبر الحملة اليه ووصل ذلك في الخرطوم في ٢١ سبتمبر ، فكان يوم افراح وزينات ، حيث قصفت المدافع معلنة البشرى والفرح وانتشر الخبر في المدينة بسرعة البرق . وظن الناس انه بعد ايام قليلة تأتي الجيوش الانجليزية بمددها وعددها ، وسارع غوردون بتأجير المنازل التي تقع على الشاطيء لتكون مأوى للضباط الانجليز .

تجمع القوة في مصر

تجمعت قوة الامبراطورية البريطانية في أصوان وحلفا تضم خيرة جندها المدربين وعلى رأسها جنرال خبر الحروب وخبرته ، وعرف بالروية والاتزان ، وعرف انه لا يتحرك الا بعد اخذ كامل الاهبة والاستعداد ، وعرف باتنباهه للتفاصيل ، فالقوارب التي تتخذ على النيل من كندا لصلاحيتها . وخط السكة الحديد الحرب يجب ان يمد جنوبا بقدر ما تسمح الظروف ، والجمال الكافية تجمع في الدبة ، والمؤن والذخائر تصحب الجيش لحرب قد تكون طويلة الامد وعموما لم يترك الجنرال امرا للصدفة او الظروف .

جيوش المهدية تتحرك

وفي الطرف الآخر احتشدت جموع الانصار في الرهد وصدرت الاشارة من المهدي بالزحف على الخرطوم متحدية الامبراطورية البريطانية كما تحدت الحكومة المصرية قبل ذلك في ميادين الحرب والدولة العثمانية في مجال الدعاية الدينية واصبحت الخرطوم آنذاك على كل لسان واتجهت نحوها الانظار . فهذا ولسلي يطمع في ان يصلها وينقذ غوردون والحامية قبل وصول المهدي ، والاخير يريد استلامها والدخول فيها قبل طلائع التجريدة

الانجليزية . ولسلي يثق بقوته وبجنده ويحسب لـكل الظروف حسابها ، والمهدي يعتمد على قوة الله ويثق في رسالته ويؤمن بها وأن الله لا بد مظهره على خصمه . فلنترك ولسلي في استعداده ولنرافق المهدي من الرهد حتى ديم ابي سعد غرب النيل الابيض جنوبي ام درمان بقليل .

تحرك المهدي من الابيض للرهد لوفرة مياهها وكثرة عشبها للحيوانات وليتكامل الانصار والمبايعون من شتى الجهات ـ فكنت ترى كل يوم وفودا جديدة تعتنق المهدية وتنضوي تحت لوائها ، فوفود الجزيرة وسنار وكسلا والجعليين وما بقي من قبائل الغرب ـ كلها اتخذت طريقها نحـو الرهد تبايع الامام على النفس والولد والمال . وفي ابان موسم الامطار حين امتلأت البرك والمناهل بالمياه ، وحين نبت العشب استعرض المهدي انصاره عرضا عسكريا عظيما ، وتحرك الجمع وأكثرهم بنسائهم واولادهم ومعهم ما يمتلكونه من متاع الدنيا وضروريات الحياة ، ومشوا ببـطء في ارض رحبت بهم ، فالطبيعة مزدهرة والمياه والعشب متوافرة والناس يتلقونهم بكل اجلال وترحيب ، وليس لهم مشاكل نقل او مؤن او ذخائر ، فأغلبيتهم الساحقة تحمل السيوف والحراب وهي اسلحة على استعداد دائم للعمل ، ومن كان يحمل الاسلحة النارية توافرت ذخائرها مما غنموه من الوقائـع السابقة ، وأقواتهم مما يحملونه من ذرة وما يذبحونه من ماشية وأغنام ، وحالتهم المعنوية في القمـة من حيث السمو ، فوراءهـم تاريخ حافـل بالانتصارات المتوالية ، وها هم استضاءوا بنور الدين بعد ان كانوا في ظلمة الالحاد والبدع والضلالات ، وها هم يتشوقون ويتلهفون لليوم الذي يدخلون فيه الخرطوم ، فمن مات فقد فاز بالشهادة ولقي ربه ، ومن كتبت له الحياة نعمت نفسه بمساهمته في القضاء على عهد الظلمة والجهالة الدينية ، وشاعر المهدي الشيخ محمد عمر البناء ينشده قصيدته التي مطلعها :

الحرب صبر واللقاء ثبات　　　والموت في شأن الاله حياة

وفي منهل شات أمر بحط الرحال والراحة حتى يتكامل الجمع قبل استئناف

الزحف شمالا على ضفة النيل الابيض وهناك وافاه استاذه — الشيخ محمد شريف ود نور الدين الدايم . وما كان ما كان بينهما من خلاف قبل المهدية . وأدرك الاستاذ ان الظروف تقضي بالاذعان لتلميذه وقد علا نجمه وغابت شمس الحكومة المصرية ، وها هي بربر قد سقطت وانسد طريق الانسحاب لمصر ، فأحسن التلميذ لقاء استاذه رغم ما كان بينهما من تدابر وتنافر وما نسي فضل الاستاذ عليه عملا بالحديث « من علمني حرفا صرت له عبدا » ، وما كان المهدي ليأبه او يعترف عما ارتكب من اخطاء قبل المهدية . فهي قد محت ما قبلها وخطت صحيفة جديدة وتمسح الخطيئات عندما يضع المجاهد يده في يد المهدي ويبايعه . وزيادة في الاكرام وابتهاجا بهذا الحدث ـ حدث طاعة الاستاذ وولائه ـ نحرت النوق احتفاء بالاستاذ وقام الجمع حتى نزلوا عند الدويم ، ومن ثم تحركوا شمالا وأدركهم عيد الاضحية في الترعة الخضراء . في كل يوم جديد يتلقى الامام الوفود ويبايعونه ويلتمسون العفو والمعذرة لتواكلهم وتباطئهم الى هذا الحد . وأخيرا وصل الانصار وعددهم ينيف على الستين الفا وحطوا في ديم ابي سعد مسافة ساعة واحدة جنوبي طابية ام درمان في يوم ٢٣ اكتوبر سنة ١٨٨٤ .

خطاب النجومي لغوردون

سمت نفوس المحاصرين المعنوية وزادت جرأتهم حتى كانوا يقتربون من الخندق ويطلقون النيران ، وبعكس ذلك هلعت القلوب في الخرطوم وبدأت تسري روح القلق والتمرد بين السكان وازاء ذلك ما وسع غوردون الا ان يكتب المنشور الآتي تقوية للعزائم « ان الجيش الانجليزي القادم لنجدتنا تبلغ عدته خمسين الفا وقد انقسم الى قسمين قسم بطريق ابي حمد وقسم بطريق ودفمر وقد وصلت اول فرقة منه بكورتي وعن قريب تصل

بربر وربما وصلت الخرطوم قبل وصول محمد احمد الى ام درمان فتشددوا واعلموا ان الله ناصركم والسلام » .

ووفاقا لسياسة الانذار كتب الامير عبد الرحمن النجومي هذا الخطاب عندما سمع بتحرك المهدي من الرهد « ان الامام المنتظر قد تحركت ركابه الشريفة من الرهد غازيا الخرطوم بجيوش لا عدد لها فانصحك ان تقابله مع من تختار من الاعيان طائعا طالبا الامان وهو لا شك يؤمنك على نفسك ومالك ومن معك وذلك اولى من سفك الدماء . وأما ما ينقله اليك الجواسيس من ان الانجليز قد ارسلوا جيشا لانقاذك فكله كذب . وهم انما ينقلونه اليك لتبذل لهم العطاء كما هي عادتك . وأنا بعون الله قادر على فتح الخرطوم وأخذها منك عنوة ولكن سيدنا الامام المهدي امرني بنصحك والرفق بك حقنا للدماء والسلام على من اتبع الهدى » .

وما كان لغوردون ان يقبل تحديا كهذا فأجاب « من غوردون باشا والي السودان الى ود النجومي بالكلا كله اعلم اني لست عبال بك ولا بسيدك المهدي ولا بما معكما من الجيوش . وأما خبر قدوم الجيش الانجليزي فليس هو من اختلاق الجواسيس بل قد جاءتني به اخبار رسمية من قبل الحكومة الخديوية والدولة البريطانية العظمى . وسترى عن قريب ما يحل بك من الدمار وتقول يا ليتني مت قبل هذا . ولا تعد الى مخاطبتي بعد الآن فهذا آخر العهد بيننا والسلام » .

اعدام احمد العوام

كان لوصول المهدي اثر عظيم في السكان داخل الخرطوم فقد اثار احمد العوام الناس . وهو احد المنفيين من الثورة العرابية واتهم بأنه حاول احراق مستودع الجبخانة فحكم عليه بالاعدام . واتفق بعض الاعيان وخاطبوا المهدي بأنهم معه قلبا وقالبا وسوف يقومون بدورهم في اضعاف

الحكومة وسوف يلحقون به عند سنوح الفرصة الملائمة وضبط غوردون ايضا هذه الرسالة . فحبس بعضهم في ثكنات العساكر وبعضهم في منازلهم تحت الرقابة المشددة .

خطابات المهدي لغوردون

ولم يسارع المهدي في فتح الخرطوم بل أصر على حصارها حتى تسلم كما سلمت حامية الابيض دون اراقة الدماء . واستراح في دعه كل شهر محرم وفي نهايته جدد الانذار فكتب بعد البسملة لغوردون ما يلي : « وبعد فمن العبد المفتقر الى الله الواثق بما عند مولاه محمد المهدي ابن عبد الله الى غوردون باشا : اعلم اني حضرت بالقرب من ام درمان بجيوشي المنصورة وأصحابي وأحبابي في الله المؤيدين بالنصر من عند الله . وكن على يقين اني على علم من حضور عساكر الانجليز بجهة دنقلا ولكني لست مباليا بهم ولا بغيرهم بفضل الله . وسيكون لهم اسوة بجيوش هكس والشلالي . ولا تغرك نصرتك المتوالية فكل من استشهد بها فهو عن امري رأفة بهم لينالوا درجة الصالحين تصديقا لقوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما اتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ان لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، ولولا مراعاة حسم دماء المسلمين لضربت صفحا عن مخاطبتك وبادرتك بالهجومات التي لا اشك في نجاحها . فسلم تسلم انت ومن معك وقد نصحتك وأنصحك والا فالحرب بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى » .

فرد غوردون « لست ابالي بك ولا بجيوشك وليست العساكر الانجليزية بجهة دنقلا كما تزعم تضليلا لعقول انصارك واغرائهم بطلب المستحيل بل هم بجهة بربر والمتمه . وسترى ما يحل بك وبجيوشك عند

بجيشهم من النكال بل اذا لم يأتوا ففي الكفاءة لان اعرفك قدرك ولا تغرنك كثرة انصارك فالبغي له مصرع والسلام » .

قوة الرجلين

هكذا وقف الرجلان وجها لوجه . غوردون يفاخر بقوة الامبراطورية ، التي لا تغرب الشمس فيها ووراءه تاريخ انتصاراتها السياسية والحربية معتدا بكفاءة الجندي البريطاني وسمو روحه ، وها هي حكومة جلالة الملكة قررت الانقاذ وكانت التجريدة التي سوف ينتهي بها الامر الى الغلبة والفوز ، ولم يعد كما كان وحيدا منبوذا ، وها هو الرأي العام البريطاني والملكة نفسها يتجهون بانظارهم نحو الخرطوم ويتابعون بلهفة واهتمام مسير الحملة في انتظار اتصالها بالجندي المحاصر . وهم اذ يطمئنون للنتيجة يعتقدون في غوردون وحسن تصرفاته ونفوذه العظيم على السودانيين عموما والجند منهم خاصة . فاذا ابطأت الحملة نوعا ما فذلك لتأمن المفاجآت وتضمن الفوز النهائي فغوردون فيه من المقدرة والكفاية ما يجعل الحامية تحتمل الضيق وتقف في وجه العدو حتى تصلها طلائع الحملة . والمهدي في اوج مجده وقد دانت له البلاد بأكملها ما عدا بعض الحاميات وهذه تحت نطاق الحصار لا تفلت منه ، وانصاره بلغ بهم الاعتقاد برسالته والايمان بما جاء به ما جعلهم يتسابقون الى الموت نصرا للدين وجهادا في سبيل الله وهو يشع عليهم من روحه وايمانه بصدق رسالته .

حالة السكان في الخرطوم

وقد صاحب هذه الحالة النفسية السيئة في سكان الخرطوم حالة اخرى من الجوع والضيق حتى بدأوا يموتون بحالة اقلقت غوردون ورأى

ان ما لديه من اقوات لا تقوم بتموين كل الناس ، فبعث بالرقيق والمساكين العجزة من النساء والرجال الى المهدي بكتاب مفاده « اعلم ان الجنس للجنس رحمة وهؤلاء المساكين يشتركون معك في الجنسية وقد قضت الحال باخراجهم من الحامية بعد ان عاشوا فيها سنة على نفقة الحكومة فصار عليك الآن ان تتولى امر معيشتهم فافعل بهم ما انت اهله » وفي طابية ام درمان آلت الاقوات الى النفاد وبقي ما يكفيهم اياما معدودات ولا سبيل الى تموينهم حيث رابطت جهادية ابي عنجة على الشاطىء وعزلتهم عزلا تاما من اي اتصال بالخرطوم .

الحامية تحاول الخروج مرتين

وبزغت شمس سنة ١٨٨٥ بخروج بعض جنود حامية الخرطوم من استحكاماتها لمنازلة الانصار في الخارج فأصابوا منهم وأصيبوا هم ايضا ورجعوا الى داخل الاستحكام . وبعد يومين امرت الحامية بالخروج مرة ثانية علها تزحزح الانصار وتفتح ثغرة في صفوفهم وتنال بعض القوت ، فرجعت دون ان تنال شيئا . وبعد ذلك بيومين سلمت طابية ام درمان بعد نفاذ القوت وفشل محاولة الجلاء للخرطوم ، فأكرمهم المهدي وادخلهم في عداد جهاديته وسمي فرج الله باشا قائد الطابية اميرا عليهم .

المهدي يوصي انصاره باللاجئين

وكان لتسليم حامية ام درمان اثر بالغ في نفوس اهالي الخرطوم الذين ظلوا يعانون آلام الحصار لاشهر عديدة ، فأخذوا يتسللون خلسة للتسليم . فنشر المهدي كتابا لانصاره يوصيهم بالرفق بهم وحسن معاملتهم « وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي الى احبابه وأصفيائه انصار الدين

بالهوى [1] والشرق والغرب وخصوصا العلماء والرءوس . وبعد فاذا فهمتم هذا احبابي فألفوا عباد الله الذين يخرجون مسلمين ومنقادين بانواع التأليف وتلقوهم بالاكرام والتشريف ولا تنظروا لمن استشهدوا من الانصار فتحنقوا بسبب ذلك على من كان مع الكفار . فان قيامنا هذا لله ومن استشهد من الانصار فقد نال عظم المقدار فيما فعله لوجه الله ، فأكرموا الذين يأتون مسلمين وخصوصا العلماء ومن كانوا اهل وظائف كبار وبالاخص نحو الامين الضرير فقد قال صلى الله عليه وسلم « اكرموا عزيز قوم ذل وغنيا افتقر ، والسلام » ١٩ ربيع اول سنة ١٣٠٢ هـ ٦ يناير سنة ١٨٨٥ .

المهدي يخاطب اهل الخرطوم

وبعد ان اشار لأصحابه بما يجب ان يعامل به الذين استسلموا ومن يستسلم بعد ذلك مبعدا بهذا الظنة بأنه يتوق لسفك الدماء ومرغبا لاهالي الخرطوم في الخضوع والانقياد ومظهرا لهم بالطريق العملي انهم في امن وسلام اذا ما اذعنوا عندئذ كتب لهم يدعوهم للتسليم بما يلي : — « وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى كافة اهالي الخرطوم هداهم الله الى الصواب .

وقد طالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده وحذرتكم من وعيده فالى متى الغفلة والتسويف والى متى مبارزة مولاكم بالعداوة ؟ أترغبون النجدة والفرج عند الانجليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الذي بيده اموركم وقوامكم ؟ وهو القوي العزيز ؟ فما الانجليز وغيرهم اضعافا مضاعفة بشيء في جنب قدرة الله التي يعجز عن وصف كنهها كل لبيب ونجيب وما الغوث الا من عند الله القريب المجيب . وحيث فهمهم ما ذكر

---

(1) غرب النيل الازرق .

فاني لا آؤاخذكم بما فات منكم ولا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين . فأنيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون ، عليكم امان الله ورسوله وامان العبد الله وليس عليكم حرج فيما مضى ، وغايته ان من سلم سلم ومن خالف عطب وندم فيها هيا ثم هيا الى طريق الفلاح والنجاح قبل قص الجناح ولا تخشوا من شيء يحصل عليكم فانا مناظرون فيكم آية قوله تعالى « اذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فأنه غفور رحيم والسلام .

مخاطبة غوردون مرة ثانية

سلمت حامية ام درمان واشتد الضيق على اهل الخرطوم وتسلل بعضهم وانحطت الروح المعنوية لمن بقي منهم ، وقوة الانصار تضرب نطاقها على المدينة تتفوق في العدد والعدة والروح ، ومع ذلك ما كان المهدي يريد اقتحامها وأخذها عنوة وما كان يريد للدماء الاراقة وللمدينة الخراب . فحذر اصحابه من معاملة المستسلمين بقسوة بل امرهم بحسن وفادتهم ورغب اهل الخرطوم في التسليم لامر الله وان لا تثريب عليهم في عنادهم السابق ، وبقي عليه الآن ان يخاطب غوردون بكلام صريح ولكنه لا يجرح فيه كبرياءه ويخبره ان العون سوف لا يصله من التجريدة الانجليزية فبعث اليه برسالة هي :

« وبعد فمن العبد المفتقر الى الله المعتصم به محمد المهدي بن عبد الله الى غوردون باشا فسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين وان اعرضت كان عليك اثمك واثم من معك فقد اتاني الخبر من الرسول ان الجردة الآتية لو كان معي ستة انفار تموت خمسة تموت أو واحد تموت او وحدي كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر . وقد اتاني خبرها انها

تموت ايسر من موت جردة ود الشلالي وهكس والمديريات الغربية كلها والبحر الابيض . وكذلك موعود بجميع البلاد فالامر لله وما دام ان الله القادر ايدني بالكرامات وبالنصر فلا يضرني انكار منكر وانما يضر نفسه فقط ، والامر الذي وعدت به من رسول الله صلى الله عليه وسلم . صار . على ان الجردة التي يعتمدونها ما لها وجه بوصولها لكم من سد الانصار الطرق فأن اسلمت وسلمت فقد عفونا عنك واكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وان ابيت فلا قدرة لك على نقض ما اراده الله والسلام » .

« تحشية : وان طلبت زيادة بعد وصول جوابي هذا فتخبرك المرأة الواصلة اليك وان رأيت التمكين واليقين ان اردت التسليم اكثر من هذا الجواب سنرسل لك عبد القادر ولد ام مريوم لزيادة الطمأنينة في الامان فلا مانع وبذا لزمت التحشية » .

كتاب آخر

واردفه بكتاب آخر هذا نصه : ــ « وبعد فان الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت في اماننا وضماننا فهو المطلوب وان اردت ان تجتمع على الانجليز الذين اخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاككم فنوصلك اليهم فالى متى تكذيبنا وقد رأيت ما رأيت وقد اخبرنا رسول الله (صلعم) بهلاك من في الخرطوم قريبا الا من آمن وسلم ينجيه الله ، ولذلك احببت الله الا تهلك مع الهالكين لاننا قد سمعنا مرارا فيك الخير ، ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما اجبتنا بكلام يؤدي الى خيرك وسعادتك وفيما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى ان ييسر الله هدايتك بها اذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة الى الله ولذلك طالما كاتبناك لترجع الى وطنك وتحوز فضالتك الكبرى ولئلا تيأس من الفضل الكبير اقول لك قال الله تعالى « ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان

بكم رحيما » والسلام . وقد بلغني في جوابك الذي ارسلته الينا انك قلت انالانجليز يريدون ان يفدوك وحدك بعشرين الف جنيه ، ونحن نعلم ان الناس يتقولون من البطال كلاما كثيرا ليس فينا وذلك لصدود من اراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه الا من اجتمع بنا وأنت ان قبلت نصحنا فيهـا ونعمت والا ان اردت ان تجتمع على الانجليز فيدون خمسة فضة نرسلك اليهم والسلام » .

موقعة ابو طليح تؤثر في موقف المهدي

هكذا كان الموقف الى ٢٠ يناير بعد انقطاع الخطابات وبعد ان بعث المهدي الى غوردون بخطابه الثالث . فالمهدي لا يزال على رأيه من اخذ الخرطوم بالرضا والتسليم كما فعلت الابيض . ولا يزال غوردون ينتظر العون من تجريدة الصحراء التي سنتعرض لها فيما بعد ، وما زال يطمئن الجند والمدنيين ويبشرهم بقرب الفرج وظهور جنود جلالة الملكة . وفي ٢٠ يناير وصلت الاخبار الى معسكر المهدي بموقعة ابي طليح بين الانصار وفرقة الصحراء فسمع عويل وبكاء في معسكر الانصار من النساء على من فقدن من بعولتهن واخوانهن في الموقعة . وعلى ذلك ايقن المهدي ورجال حاشيته بوصول طلائع الحلة الانجليزية بالقرب من المتمة وانه وان قاومهم الانصار ما وسعتهم المقاومة وأبلوا بلاء حسناً حتى كثر قتلاهم الا ان اغلبية الحلة وصلت الى النهر ولا بد ان تداوم سيرها صوب الخرطوم . فاذا صمدت الحامية كل هذه المدة ورفضت الاذعان والتسليم بالرغم من قلة عددها وبالرغم مما اصابهم من ضيق وجوع والحطاط في الروح المعنوية فانهم وقد علموا وصول الطلائع الى المتمة فاملهم سوف يتجدد ، ويظلون في عنادهم. فلا بد والحالة هذه من اخذ المدينة عنوة ان لم تنجح السياسة السلمية ، ولا بد من القضاء عليها وهي في وهنها وضعفها قبل وصول النجدات القوية الجديدة .

المهدي يقرر الهجوم

عقد المهدي مجلسه للبت في الشأن الخطير من خلفائه وكبار امرائه في مركز قيادة ود النجومي في شجرة محوبض وتداولوا في الامر وقلبوا كل الظروف والاحتمالات واخيراً قرّ الرأي على مهاجمة الخرطوم واخذها عنوة ورجع المهدى الى معسكره في الغرب مع خلفائه تاركاً تنفيذ الامر لود النجومي وابي قرجة . وبينما يستعد الانصار للهجوم المنتظر متلهفين للقاء ربهم او المساهمة في تقوية الدين بظهوره على جيوش الكفر والالحاد ، يبتهج غوردون ويزفّ البشرى لكل من الخرطوم بقرب الفرج بعد الشدة وبالطوابير الانجليزية الزاحفة نحوهم . واخذ منظاره في الخمسة ايام الاخيرة من حياته مقضياً معظم وقته على السراي يمسح الأفق به نحو الشمال عله يرى دخان البواخر على النيل ، او غبار البيادة على الارض ، وانتعشت روح الحامية وتحملوا تلك الأيام بصبر وجلد وسمو روح ما كانوا يقوون على احتمالها لولا املهم المرجو في جنود جلالة الملكة . وهكذا كانت حملة ولسلي سبباً في الشهور الطويلة المضنية التي مرت على الخرطوم جنوداً وسكاناً ، وهي اخيراً التي جعلتهم يسترسلون في عنادهم واصرارهم ، وهي التي زادت غوردون تشدداً في الاستمساك بموقفه وقدر للحامية ان تباد وتفنى دون ان تنقذهم حملتهم المنتظرة ، والتي تمشي مشي السلحفاة . وقدر لأهل الخرطوم ان تروي دماؤهم شوارع مدينتهم لغير سبب وذلك انتظارا للفرج على يد حملة الانقاذ .

الموقعة

ركز المهاجمون في فجر يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ هجومهم على الثغرة التي تقع في طرف الاستحكامات من جهة النيل الأبيض والتي لم تتم تقويتها

عندما نزل النهر بعد الفيضان ، والتي يقـال أن السنجق عمر إبراهيم من ضباط الحامية أفشى سرها للأنصار بعد فراره والتجائه إليهم . وقبل الهجوم قضى الأنصار ليلهم بين ركوع وسجود وتهليل وتكبير فما أن صدر الأمر حتى فتحت نيران شديدة من المدافع والبنادق على الاستحكامات على طول الخط ، وتحت هذا الساتر من النيران تسلل عدد منهم إلى الثغرة وباغتوا ما خلفها من العساكر ملتفين حولهم إلى الجنود الذين يحمون الاستحكامات ، وتسلق بعضهم في أجسام بعض حتى علوا على الاستحكامات وهبطوا من ناحيتها الأخرى منقضين على جنود الحامية انقضاض النسور من شاهق . وسرعان ما أختلط المهاجم والمدافع ، وسرعان ما نشب قتال اليد باليد الذي يجيده الأنصار . وذهب بعضهم إلى أبواب الاستحكامات ففتحها وتدفق سيل الأنصار . وعندما احتدمت المعركة رجع بعض الجند إلى المدينة ملتجئين بدورها ، وخرج بعضهم إلى خارج الاستحكام يلقون السلاح مستسلمين ، وذهب فريق من الأنصار تواً الى السراي يقتلون من أشهر السلاح امامهم ، ويصمدون السلم فيقابلهم غوردون وجهاً لوجه . وهنا تختلف الروايات فتقول بعضها انه سألهم عن محمد أحمد فأجابوه بالطعن . ولو صحت الروايه فإن في تسميته بمحمد أحمد اعتراف صريح بعدم مهديته لانه أصبح منذ ليلة أبا محمد المهدي : وهذا ما يجعل الانصاري المتحمس يرد عليه بالرمح لا بالاجابة على سؤاله . وبعضها تقول إنه كان يطلق النيران كقواصته فما كان من الانصار الا توجيه الرماح نحوه . ولكنه قتل على كل حال سواء أكان يقاتلهم أم كان يسائلهم فأخذوا رأسه وحملوه إلى المهدى .

المهدي يغضب لقتلى غوردون

من الموكد أن المهدى ما كان ليرغب في أن يقتل غوردون وهذا يتضح من خطاباته الاخيرة التي وجهها إليه . فإذا كان يريد له ان يلتحق بالانكليز

وإذا كان يقول إنه سمع عنه كل خير وثناء ، فإنه لا شك يريد استبقاءه ولا يريد له الموت والرواية التي تقول ان المهدي كان يرغب في مبادلته بعرابي كما أوردها سلاطين وغيره وكما أشيعت في حينها لا يؤيدها أي أنصاري من أصحاب المهدى : ومن الأدلة أيضاً على رغبة المهدى في استبقاء غوردون أن قاتله ما ظهر بين الانصار . وفي رواية أن الفريق الذي اقتحم السراي دافع عن قتله لغوردون بأن الاخير كان يطلق النار هو وقواصته . كل هذه الروايات تفتقر إلى التأييد لانها أخبار جمعت من مصادر كثيرة جلها سماعية. ومهما كان من أمر ففي زحمة الحماس الديني ونشوة الظفر والنصر قد تخالف الاوامر وترتكب الاخطاء التي كان القائد يحذّر منها .

المهدي وولسلي بعد سقوط الخرطوم

حملة ولسلي في دنقلا

تركنا الحكومة الانجليزية تقرر إيفاد الحملة لانقاذ غوردون والحامية ، وتركنا اللورد ولسلي قائدها يجمع قواتها في مصر ويعني بالـدقائق من تفاصيلها . وها هو بعد ذلك كله يصعد بقواته في النيل مستخدماً ما تبقى من سكة حديد حلفا ، مجتازاً الشلال الثاني وما فوقه من شلالات أخرى ، وأخيراً جعل كورتي مقر قيادته ليبعث منها بالطوابير الى الخرطوم . واذا كان الغرض الرئيسي لحملته هو انقاذ غوردون ومن معه داخل نطاق الحصار في الخرطوم ، فالسرعة عنصر رئيسي . وكان غوردون في رسائله العديدة والتي وصل بعضها الى مصر ، يكرر ضرورة ظهور الطلائع من تلك الحملة في الخرطوم بلباسهم الاحمر وهذا وحده يكفي في نظره لأن يعيد الى النفوس طمأنينتها وان يلقي الرعب في قلوب الانصار .

طابور الصحراء

أخذاً بهـذه النظرية رأى ولسلي ايفاد طابور سريع عبر الصحراء للمتمة ، ومنها بوابور أو وابورين سريعين يقلان عـدداً مـن لابسي الجاكتات الحمراء ويعقبهم بقية الطابور . ويتحرك بقية الجيش أو الجزء الأكبر منه بطريق النيل الى أبي حمد فبربر فالمتمة . وكان لا بد انسياقا لعامل السرعة

ان يغادر طابور الصحراء ويقرب من الألفين عا في ذلك الأتباع في ركب واحد دون تخلف . وكان لا بـد لذلك مـن عدد ضخم من الجمال لحمل الاغذية والذخيرة والجند معاً . وكان لا بد من استيراد الجمال من مصر والاعتماد على القبائل الموالية في السودان وخاصة الكبابيش .

فالكبابيش قد وقعوا تحت نفوذ المهدي، وقد قتل شيخهم لاتهامه بعدم الاذعان والطاعة . وهم الآن لا يستطيعون تزويد الحملة بالجمال والانصار كلهم عيون وأرصاد . وقبائل دنقلا القى في روعها أن الجناب العالي لا يريد هذه الحملة وأنها آتية بالرغم عنه وهم موالون مخلصون في ولائهم للخديوي . ولذلك امتنعوا عن تزويد الحملة بالجمال بل أرادوا عرقلة مساعيها في هذا الصدد كما يتضح من البرقية التالية التي بعث بها الخديوي الى مدير دنقلة بتاريخ ٤ يناير سنة ١٨٨٥ « بلغنا أن قبائل السواراب والهواوير الذين أوعدوا بتوريد جمال للانجليز عند وصول الجنرال اللورد ولسلي الى كورتي قد تمنعوا الآن عن توريدها زعماً منهم بأننا لسنا محبين للانجليز وأننا نود إعاقة حركاتهم فنوصيكم ان تزيلوا هذه الأفكار الـتي لا أصل لها وأن تفهموهم بكافة ما يكون في امكانكم من الوسائل بأن مصلحتنا ومصلحة مصر ومصلحتهم متوقفة على سرعة إسعاف وانقاذ الخرطوم ، وتفهموهم على الخصوص ان الانجليز لم يتوجهوا للسودان بقصد امتلاكها والبقاء فيها ، بل انهم توجهوا اليها خدمة لمصر ولنا . وبقصد انقاذ الخرطوم وغوردون باشا . فاذا لم يحصل انقاذ الخرطوم يكون ذلك اكبر المصاب على مصر وعلينا . فنحن معتمدون عليكم وعلى صداقتكم في تفهيم جميع ما بتلغرافنا هذا الى مشايخ القبائل لكي يساعدوا الانجليز .. » .

الطابور يتحرك

تكامل الجيش بكامل معداته في كورتي ووصل اللورد ولسلي وأركان

حربه اليها في ١٦ ديسمبر سنة ١٨٨٤ . وفي آخر الشهر بدأت حملة الصحراء تغادر كورتي الى النقطة التالية وهي آبار جكدول . واستخدمت الجمال القليلة اكثر من مرة لنقل المعدات والجند . وفي ٨ يناير غادر قائد طابور الصحراء الجنرال ستيوارت كورتي . والاوامر التي تلقاها من القائد الأعلى تتلخص في أن تلك الحملة تسرع وتحتل المتمة . ومنها تنزل فصيلة في الوابورات برئاسة السر شارلس ولسون للاتصال بغوردون وتأكيد حضور الحملة لانقاذه . ويعتقد اللورد ولسلي في تعليماته ان المهدي ربما رفع الحصار وتقهقر إذا علم بقدوم الحملة . واذا كانت صعوبات النقل بالجمال اخرت طابور الصحراء أياماً فان ستيوارت عندما تعمق فيها ادرك صعوبة المياه وفساد الاطعمة والتعب والضنى الذي اصاب جماله ورجاله . ولنتركهم يغادرون الجكدول صوب آبار أبي طليح آخر مرحلة قبل المتمة ، ولنرجع الى معسكر المهدي ونرى ماذا فعل لملاقاة العدو المهاجم .

موقعة ابي طليح

كانت عيون محمد الخير وجواسيسه وهو في بربر تتلقى أنباء الحملة وتحركاتها وكان يرسلها على الهجن السريعة تباعاً للمهدي في معسكره بأبي سعد . فلما ان علم ان حملة الصحراء فصلت عن كورتي وعلم انها إنما تتجه نحو المتمة . بعث المهدي سرية بقيادة الأمير موسى ود حلو وبعث الحاج علي ود سعد لاستنفار الجعليين لملاقاة الانجليز وأردفهما بجيش ثالث يقوده النور عنقره ورابع يقوده الفكي مصطفى ود الامين . ولكن اسرع الجيوش للاصطدام بالعدو كان جيش الامير موسى إذ احتل آبار ابي طليح مانعاً إياهم من الاستقاء بها . ولكن جيشاً يرى المياه امامه ليس من السهل منعه منها اللهم إلا بقوة في الاسلحة تحصده قبل ورودها . اما وجيش الصحراء يمتلك احدث الاسلحة وأقواها ويضم فريقاً مختاراً من احسن الجنود

الانجليزية فقد شق طريقه اليها واجلى الانصار وسقط عدد من الانجليز ، وكان للحماس البالغ الذي بدأ علــى الانصار لملاقــاة الكفار اثر بالغ في اشتداد المعركة .

ولسون الى الخرطوم

استقى الجيش وبنى زريبة ترك فيها الجرحى تحت حراسة فصيلة من الجند ، واستطرد سيره نحو النهر ولكن الانصار يعترضون طريقه من وقت لآخر ويدور قتال يسقط فيه عدد من الجانبين واخيراً بعد ان جرح قائد الحلة الجنرال ستيورات جرحاً بليغاً وصلوا النهر واستقوا ، بعد ان عانوا ما عانوا من قسوة الصحراء وملاقاة الانصار . وتحصن السر شارلس ولسن الذي اصبح قائد الطابور بعد اصابة ستيوارت في موضعين احداهما على النهر والآخر في قرية القبة التي تقابل الموضع النهري . وكان السر شارلس ينوي مهاجمة المتمة وبدأ يباشر تلك المهمة فعلا ، لولا ان لاحت في الافق الوابورات التي بعث بها غوردون منذ اشهر لترابط في مياه شندي والمتمة ، تتلقى الطلائع الأولى من حملة الانقاذ . فعدل عــن مهاجمة المتمة ونزل في وابوري بوردين وتلحوين بما يقارب مائتين واربعين جندياً سودانياً وخمسة وعشرين من الانجليز وبعد ان استكشف الى جهات شندي اتجه نحو الخرطوم في الساعة الثامنة صباحاً من يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ وفي معيته خشم الموس بك ، وقاسوا وقاسى الوابوران عناء في الطريق وخاصة في شلال السلوقة . وفي صباح يوم ٢٨ يناير حين اقتربوا من الخرطوم وحينما كانوا بين ام درمان وجزيرة توتي كانوا هدفاً لنيران من الجهتين ، ومع ذلك ما كانوا يتأكدون من سقوط الخرطوم بالرغم من صياح الاهالي لهم من الشاطيء اكثر من مرة بالخبر .

اخذ السر شارلس ولسن منظاره فبانت له ان الخرطوم في حالة من

التخريب وان الانصار احتشد بعضهم على الشاطىء ولكن منظاره كان يتجه نحو سراي الحكمدارية فلم يرَ أثراً للعلم المصري . وهنا أيقن بصحة الخبر ، وهنا علم ان لا قبل له بمقاومة كل قوة المهدية التي احتلت الخرطوم ، فاصدر الأمر بـان يعكس الوابوران اتجاههما إذ سقط او أسر الرجل الذي اتوا لانقاذه وسقطت المدينة التي أمروا برفع الحصار عنها .

أما الانصار فهم على اطمئنان من ان ما اتى في الوابورات قوة ضئيلة لا يُعبأ بها وإن جيشهم الذي يوالونه بالامداد كفيل بصد الجنود الذين وصلوا النهر عند المتمة ولم يفعل المهدي عندما نُقل اليه خبر الوابورات اكثر من ان رفع يديه الى السماء يدعو بقوله « اللهم يا قوي يا عزيز انصرنا على الترك واعوانهم الشايقية والانجليز » .

رجع السير شارلس ولسن والرصاص ينهمر عليه كالمطر من توتي وام درمان وظل يتعثر في سيره في مياه معادية ، وفشا روح التمرد والعصيان بين الجند السودانيين ، وساهمت جنادل النهر وجزره الرملية في اعاقة السير واخيراً بعد ان تعطل وابور وانعطب آخر انقذه جنود القبة بعد ان تعرض إلى اخطار محققة .

ولسلي يستفهم

طبيعي أن تُبعث الرسائل المستعجلة لنقل الخبر الى القائد العام في كورتي وسرعان ما ابرق إلى حكومته يتلقى تعليماتها الجديدة طالما أن مهمة الانقاذ قد فشلت . فاجابت الحكومة بتعليمات غامضة تتلخص في التأكد من سلامة غوردون أو موته والثبات في الاراضي التي لم تقع تحت قبضـة المهدي . ولكن ولسلي ردّ بانه يريد تعليمات صريحة بعيدة عـن اللبس والابهام ، ويستفهم فيما إذا كانت مهمته الجديدة هي سحق المهدي ام لا ؟ وعلى كل لا يمكنه القيام بعمل سريع في الوقت الحاضر للزحف على الخرطوم

بل يكتفي باحتلال بربر وفتح طريق بربر -- سواكن ثم يبدأ عملياته الحربية للقضاء على المهدي في الخريف القادم فأتاه الرد بأن الحكومة عاقدة العزم على سحق المهدي وانها تترك له التصرف التام في تنفيذ المهمة الجديدة .

حالة طابور الصحراء السيئة

هذا ما كان من موقف ولسلي في ٦ فبراير سنة ١٨٨٥ ، ومن الجانب الآخر ما ان علم المهدي بوجود الانجليز في القبة حتى بعث بقائده المظفر عبد الرحمن النجومي للقضاء على طابور الصحراء . وما ان شعر بولر قائد حملة الصحراء الجديد بحرج موقفه وحالة جنده السيئة وصعوبة الترحيل ، حتى أزمع الرحيل عن القبة متراجعا الـى ابي طليـح وجكدول ثم الى كورتي .. ويجهل ولسلي الموقف وحرجه ويبعث الى بولر بعزم الحكومة الانجليزية عـلى سحق المهدي ويأمره ان يحتل المتمة ويتقدم شمالا ليلتقي بالحملة النيلية في بربر .

بعث بولر للقائد العام بما يلقاه من قسوة الطبيعة من عنت ، فالجمال نفوت بالمئات والجند قد هلكت احذيتهم ، وصاروا يتحسسون طريقهم في الصحراء على ارجل عاريه ، لفت عليها الخرق البالية . وفوق ذلك فهم شرذمة ضئيلة نسبياء امام جحافل الانصار عقب انتصارهم المظيم في الخرطوم . واستمر في تراجعه يترك النيران موقدة في باليل ويرتحل اوله موهما للأنصار بانه وجنده في معسكرهم ويحس الانصار بالخديعة في أول النهار وتلحق فئة من الفرسان تناوش المؤخرة وتزيد في ازعاجهم حتى وصلو كورتي ، بعد ان دفنوا قائدهم الاول السر هربرت ستيوارت في ابار الجكدول متأثرا بجراحه.

الحملة النيلية

اقتنع ولـسلي بما بسطه بولر مـن صعوبات واتته الاخبار ايضاء عن

عوائق الحملة النيلية في المؤن ومناوشات الانصار بالرغم من انتصارهم على جيش يقوده عبد الماجد ابو لكيلاك مـن الميرقاب وموسى ابو حجل من الرباطات وسليمان ودقمر من المناصير . ولكنهم فقدوا قائدهم الجنرال ايرل وقاد الجيش بعده ابهرال براكنبري . وفوق ما يلاقيه الجيش من صعاب ادرك ولسلي ان انتصار المهدى الحاسم ربما يؤثر على القبائل الضاربة في الصحراء حيث تتخذ موقفا معاديا نحو الجنود الانجليزية . وهكذا عزم على استدعاء الحملة النيلية وطابور الصحراء يتعثر في مشيته في طريقه متراجعا نحو كورتي . وهكذا تجمعت القوة المتراجعة كلها على النيل في ١٦ مارس . وفي آخر الشهر غادر ولسلي مقر قيادته الـى القاهرة ليشرف بنفسه عـلى الاستعدادات لاستئناف الزحف في الخريف .

سكة حديد سواكن

كانت خطة ولسلي عندما تلقى اوامر حكومته بسحق المهدي هي ان تمسد تجريدة انجليزية من سواكن تقضي على قوة عثمان دقنة اولا ، وتحتل الجبال الشرقية لتمهد لمد خط حديدي بين سواكن لبربر وتعاقدت الحكومة فعلا مع شركة انجليزية وبدأت عملها . وكان المحتمل وصول الخط الى نحو مائة ميل قبل إستئناف العمليات الحربية . فذهب الجنرال جراهام الى سواكن مرة ثانية ونزلت قواته تباشر عملياتها . وكالعادة نجحت في زحزحة الانصار عـن النطاق الذي ضربوه حـول سواكن ولكنهم ابناء الصحراء والجبال تقهقروا في اوديتها وشعابها ولم تنجح الحملة في ابادتهم كما كان ينتظر منها . وبدأت الشركة تباشر عملها في السكة وتراكمت موادها من قضبان وقاطرات وعربات .

الحكومة الانجليزية تعلن الجلاء

وبينما كان ولسلي ينظم خطته واستعداداته للعمليات المقبلة في مركز قيادته في القاهرة اخبرته حكومته في ٣ ابريل باحتمال اخلاء السودان وصرف النظر عن القيام بعمليات حربية . وفي ٢١ منه اعلنت الحكومة عزمها فى البرلمان على الجلاء . والدافع الاول لذلك هو النزاع بين روسيا وبريطانيا في الافغان ، فرأت الحكومة ان تتفرغ لمعالجة الموقف الافغاني وتترك مسألة السودان بالرغم من احتجاج ولسلي بان مصر سوف تتعرض لخطر داهم ينبعث اليها من الجنوب ونزولا لاوامر الحكومة اصدر امره في ١١ مايو بالجلاء وبدأت الجنود الانجليزية تغادر دنقلا متعرضة لتوبيخ الاهالي .

امل جديد

اثناء تراجعهم سقطت وزارة جلادستون وتألفت وزارة من المحافظين ظن ولسلي انها ربما لا توافق على الجلاء فأمر جنوده بالوقوف في أماكنهم ريثما يتصل بالحكومة . ولكن بولر ابرق له بان الجلاء قد كاد يتم فعلا والرجوع يعني ايفاد حملة جديدة وهذا ما دعا الحكومة الجديدة تظهر رغبتها في استمرار سياسة الجلاء وصدر هذا في اول يوليو سنة ١٨٨٥ ، وغادر ولسلي القاهرة بعد ان قدم تقريرا طويلا عن اعمال الحملة وبسط ما قاسته من شدائد واطرى روح الجيش المعنوية واخيراً قدم عدداً من الضباط والجنود مقترحاً ترقيتهم او اعطائهم أنواط الجدارة والاستحقاق .

خيبة الامل

وهكذا ختمت اعمال تجريدة عظيمة كلفت الخزانة البريطانية المال واشترك فيها اعظم الضباط وامهر القواد الانجليز واحسن الفرق الانجليزية

وظلت تشايعهم الحكومة والرأي العام الانجليزي وحتى صاحبة التاج ، وظل الجميع يتلهفون لتلقي أخبارها ويتابعون جندها في حملتي الصحراء والنيل على الخريطة ، وكلما دنت خطوة من الخرطوم استعد لتلقي الانباء السارة بانقاذ بطل الامبراطورية آنذاك . وما ان علموا سقوط الخرطوم وسقوط البطل بين جدرانها وفشل هذه الحلة العظيمة حتى عرت الرأي العام موجة من الحزن والاسى . ومثلما كان تجهيز الحلة نتيجة اثارة الرأي العام أصبح الشعب الانجليزي ينحي باللائمة على الحكومة وعلى القائد . فالحكومة في نظره تباطأت وعرضت سمعة بريطانيا ، وضحت برجل من خيرة ابطالها وفقدت الثقة في حكومته وخذلها في الانتخابات . وولسلي اتخذ طريقة السلحفاة في زحفه وولسن وصل الخرطوم بعد يومين من سقوط المدينة لغير ما سبب ظاهر .

الانصار يحتلون دنقلا

تركنا النجومي يواصل زحفه للقبة ولكنه رجع عندما رآهم يخلونها ويتراجعون نحو دنقلا فاسند المهدي امر تعقبهم في دنقلا لعامل بربر الاستاذ محمد الخير . ولكن الانجليز كفوا الانصار مؤونة الملاقاة والحرب حيث أخلوا دنقلا . فبعث محمد الخير بابن أخيه عبد الماجد محمد خوجلي لاحتلالها ريثما يلحق به وفعلا تم له ذلك وأعلن ضم دنقلا الى الاراضي المهدية وحل بها صيف سنة ١٨٨٥ والانجليز يتراجعون شمالا بينما انتقل الى الدار الآخرة الامام المهدي بعد ان تم له احتلال كل السودان غير حاميات هي في طريقها الى التسليم وغادرت القوة الانجليزية البلاد .

المهدي يؤسس ام درمان

ترجع الآن الى معسكر المهدي في أبي سعد بعد سقوط الخرطوم وبعد

رجوع ولسن بخفي حنين . والأنصار يستبشرون بنصرهم العظيم والجيش يجمع الغنائم ويودعها بيت المال . فأقام في معسكره الى ان اشرق يوم الجمعة ٣٠ يناير حيث تحرك من الديم وركب وابور الزبير التي سميت الطاهرة وصلى الجمعة في مسجد الخرطوم وظل يتردد عليهـا أيامـا حتى عزم على الانتقال من معسكره الى مقر أم درمان الحالية في اواخر فبراير ، وبنى جامع صغير بالزنك وبنيت البيوت من الطين والحجر وأكثرها بالقش والبروش . وامتد المعسكر في مساحة كبيرة بالأنصار الذين انتقلوا من ديم أبي سعد وبالوافدين من مختلف البقاع لمبايعة المهدي والتمتع برؤياه وقد وضح لهم ما كان غامضا فلا تردد ولا شك بعد اليوم وقد تجمع في « البقعة » آنذاك على حسب الروايات ما يبلغ المليون نسمة .

ما بعد الخرطوم

وجه المهدي همه بعد إقامته في أم درمان الى اخضاع الحاميات التي لم تخضع بعد . فالسيد محمد الكريم الى سنار والأمناء الى كسلا حسب ما طلب أهلها وأبو عنجة الى جبال النوبة لاخضاع أهل الجبال وقد عاثوا فسادا وقطعوا الطريق بعد ارتحال المهدي من كردفان . وها هو النجومي الى الشمال للانجليز وبعده محمد الخير لمتابعتهم في دنقلا .

نية غزو مصر

واتجهت أنظاره بعد ذلك خارج حدود السودان والهدف الأول يجب ان يكون مصر فهذا حسين باشا خليفة مدير بربر السابق وصاحب النفوذ الواسع في قبيلته العبابدة ومن الاهم من أبناء الصحراء وصعيد مصر قد شيعه بمنشور يقول له فيه : — « ولما كان موضوع أمرنا القيام بأمر الدين

وجهاد أعداء الله الكافرين وقد انتهى أمرهم بالسودان وعزمنا بارادة الله على التفرغ لغيرها من البلدان فقد اخترنا الله تعالى ووجهناك أمامنا عاملا عموماً على كافة قبائل جماعتك العبايدة الــذين بالجهات البحرية عشاباب وشناتير وفقرا وعلى كافة من يرغب الانضمام عليك من القبائل الأخرى بطوعه واختياره لتبليغهم دعوتنا وتعطيهم بيعتنا وتستنفرهم لاحياء الدين » فخرج حسين باشا في آخر مايو ونجا بنفسه .

خطاب لتوفيق باشا

واذا كانت مصر الهدف الاول وكان على أريكتها آنذاك الخديوي توفيق فلتوجه اليه الدعوة أولاً منذرة ومبشرة في خطاب طويل يذكر له فيه اندراس معالم الدين بما أدخله فيه أهل الكفر من البدع والضلالات وتعطيل أحكام الكتاب والسنة وأنه بعث لاحياء السنة وقلد بالمهدية الكبرى وان من شك فيها فهو كافر . وما ان ترحف جيوشه حتى يسير النصر معها ثم بسطله تاريخ حملاته وانتصاراته على الجيوش الخديوية وأخيراً على الحملة الانجليزية إذ ولت هاربة لا تلوي على شيء ، ثم بين له الآيات من الكتاب الكريم التي تحذر المسلمين من موالاة اليهود والنصارى وأعداء الدين وختم الرسالة بقوله :

« وقد حررت اليك هذا الكتاب وأنا بالخرطوم شفقة عليك وحرصاً على هدايتك فأرجو الله ان يشرح صدرك بقبوله ويدلك على صلاحك ورشادك في الدارين . وها أنا قادم على جهتك بجنود الله وعن قريب ان شاء الله تعالى ، فان أمر السودان قد انتهى فان بادرتني بالتسليم لأمر المهدية والانابة الى الله رب البرية فقد حزت السعادة الأبدية وامنت على نفسك ومالك وعرضك انت وكافة من يجيب دعوتنا معك وان ابيت بعد هذا إلا الاعراض عن طريق الفلاح والرشاد فانما عليك إثمك وإثم من معك ولا بد من

وقوعك في قبضتنا ولو كنت في بروج مشيدة . وهذا إنذار مني اليك وفيه الكفاية لمن أدركته العناية والسلام على مـن اتبع الهدى » . وكان أحد الأسرى من أهل الشام في معسكر المهدي فبعثه عاملا على الشام وكذلك اتصل به بعض أهل مراكش المستوطنين في مصر ان يسمى أحدهم أميراً على مراكش لنشر الدعوة هناك والقيام بنصرة الدين .

الادارة الداخلية

وبعد ان وجه الجيوش لاخضاع الحاميات التي ما زالت على إصرارها وعنادها ، وبعد ان سير الجيش يتعقب الانجليز المنسحبين ، وبعد ان بعث بالكتب والرسائل والدعاة للبلاد الاسلامية ، وجه همه للتأسيس الداخلي وإقامة صرح الدولة الجديدة المستقلة . فضربت النقود مما غنموه من الذهب والفضة وأقام النظام المالي على أسس الشريعة الغراء حيث أمر بجمع الزكاة من المسلمين حسب الأصول الشرعية وتوريدها لبيت مال المسلمين . وكوّن مجلساً من الأمناء للنظر في الشؤون الادارية تحت رئاسة الخليفة عبدالله فهم بمثابة وزارة رئيسها الخليفة . فالرسائل والقرارات بعد موافقة أعضاء المجلس عليها تختم بختم المهدي وترسل الى جهاتها المختصة . أما في الأقاليم فما زال الامير في كل جهة عاملا إدارياً وهو ينوب عن المهدي ولا يرجع الى السلطة المركزية طالما انه يقضي بالاحوال الشرعية وينفذ ما يصدر اليه من العاصمة. هذا في المال والادارة ، أما القضاء فالقضاة في أم درمان وفي الاقاليم هم الذين يمارسون القضاء في كل القضايا ، وبوجه عام فالاداة الادارية أقيمت على غرار الحكومات الاسلامية الاولى .

المهدي يخلو بنفسه

حل رمضان سنة ١٣٠٢ هجرية واشتاق المهدي الـى الخلوة لربـه

والانصراف عن شؤون الدنيا والناس ولا سيما أنه لم يمارسها في السنين السابقة لانها كانت للجهاد والحرب والآن وقد تم له ما أراد من فتح فليقبل على ربه وليقطع صلته بالدنيا حيناً من الدهر فكتب المنشور الآتي لأنصاره « وبعد فيقول العبد لله محمد المهدي ان هذا الذي اقبل هو شهر رمضان زمن الاقبال على الرحمن وميدان الاشتياق الى عظيم الشأن فانزعوا أيها الأحباب فيه للديان ووطنوا قلوبكم على الشدائد والرضا بالبلايا والامتحان حيث أوعد بذلك الرحمن لتبيين حال أهل الصفوة والرسخان وبشر الصابرين بعظمة الشأن وحسن العواقب وتولية الديان فتوكلوا على الله وفوضوا له في كل ما يفعل لحسن الظن به اذ هو حقيق بالاحسان وهو العالم بما لا يعلمه الأبوان .. فتحققوا ذلك أيها الأحباب وانصبوا أنفسكم لله وارفعوا حوائجكم فكلنا عبيد الله والأمور بيده فلا تشغلوني بقضايا ولا بحوائج في هذا الشهر وخلونا المذكر والتذكار والصلوات والدعوات فان فقد العبد نور الصبر والرضى والتفويض وأراد ان يرفع حاجته الى العبيد فها هم الخلفاء نيابة عني والامناء المنيبين والقاضي . فمن شغلني بشيء في رمضان بعد هذا فلا يلم إلا نفسه والسلام ، غاية شعبان سنة ١٣٠٢ .

وفاته

وكأنما كان المهدي يودع الدنيا ومن عليها وكأنما أحس دنو الاجل فأراد ان يترك الناس بعد ان نظم لهم حياتهم ويستعد لملاقاة ربه . ففي اليوم الرابع من رمضان أصابته حمى وعندما كان ضحى يوم ٩ (٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥) ارتفعت روحه الى الرفيق الاعلى وفارق الدنيا مطمئناً ان وفقه الله لتوحيد الكلمة وضم الصفوف وجعل ممن يقطنون في السودان أخواناً في الله وساوى فيما بينهم . فلا فضل لقبيلة على أخرى ولا لرجل على آخر إلا بسابق خدمته في المهدية ، والاخلاص لها . فزعامته المرتكزة على

القوات المزودة بأقوى الأسلحة وأحدث النظم . كل ذلك لأنه آمن في جرأة الدين وخصائص الشعب الممتازة جعلتهم يقومون بالمعجزات ويقفون في وجه وصراحة برسالته وتابعوا هم في عقيدة واقتناع بقيادته فكان لهم نعم القائد يواسي مصابهم ، ويعطف على فقيرهم ولا يأمرهم بأمر هو بمنجاة عنه ، ولا يطلب منهم نهجاً إلا وكان اول من يسلكه . فبكوه بدموعهم ومهجهم وأشعارهم ودفنوه في جوانحهم قبل ان يلحدوه في الثرى ، ولا سيما أنه قضى ولم يجاوز الاربعين إلا بعامين ولم يواصل فتوحاته التي كانوا على استعداد لمصاحبته فيها يبذلون أرواحهم في سبيلها مثلما فعلوا من قبل ولكنها إرادة الله قضت ولن تجد لها تبديلا .

أخلاقه وصفاته

قد وصف اسماعيل عبد القادر الكردفاني الامام المهدي وصفاً آثرنا ان نورده بنصه : — « أنه كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا فحاش ولا عياب ولا مداح . ترك نفسه من المراء وما لا يعنيه وترك الناس من ثلاث لا يذم أحداً ولا يعيبه ولا يطلب عورته ولا يواجه أحداً بما يكره ... يتفقد أصحابه ويسأل عنهم فمن كان غائباً دعا له ومن كان حاضراً زاره ومن كان مريضاً عاده وأفضل الناس عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ولا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر .. يعطى كل واحد من جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه ان أحداً أكرم عليه وما جالسه أحد إلا صابره حتى يكون هو المنصرف عنه وقد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء . أوسع الناس صدراً وأصدقهم لهجة وألينهم خلقاً وأكرمهم عشرة لا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفوا ويصفح متخلقاً بالقرآن المجيد عاملاً بما فيه من الاجتهاد في طاعة الله والخضوع له والانقياد لامره والشدة على أعدائه

والتواضع ولين الجانب والرحمة لاوليائه ومواساة عباده وارادة الخير لهم والحرص على كمالهم والاحتمال لاذاهم والقيام بمصالحهم وإرشادهم الى ما يجمع لهم خيري الدنيا والاخرة . ذا حلم وعلم وصبر وشكر وعدل وزهد وتواضع وعفو وعفة وتقوى وحياء ومروءة وجود وسماحة وشجاعة وصمت إلا عن ذكر الله ووقار ورحمة بالمؤمنين وما وضع أحد فمه في اذن له الا استمر مصغياء اليه حتى يفرغ من حديثه . أكثر الناس شفقة على خلق الله وأرأفهم بهم يركب الحمار ويردف خلفه ويجلس على الأرض ويأكل مع الخادم ويحمل حوائجه بنفسه من السوق . ويحب الطيب ويستعمله ويحب من الثياب ما خشن ومن الطعام ما خشن . واشتهر من أول نشأته بحب الخلوة والانفراد عن الناس والتمسك بالدين كما بينا قبل » .

تعاليم المهدي الدينية

الانتصارات تطغى على التعاليم

طغت الانتصارات الحربية على الناحية الدينية من رسالة المهدي وهو نفسه لم يتفرغ لوضعها وشرحها ، وكان ينوي ذلك بعد سقوط الخرطوم لولا ان عاجلته المنية قبل ان يقطع شوطاً في ذلك . واذا كان خلفائه وانصاره قاموا بأعباء الرسالة من وجهتها الحربية فان الناحية الدينية لم تجد من يخصص جهوده ووقته لها . فالعلماء ظاهرت اغلبيتهم المهديــة خوفاً على ارواحهم وارزاقهم والمؤمنون بها لم يكونوا بأهل علم ومعرفة وفوق ذلك فرجل الدولة الاول وخليفته من بعده كان على غرار المهدي من حيث العلم والمعرفة والتعمق في الشؤن الدينية وما كان له والحالة هذه ان يوطيء اكنافه لمن يتصدى لفلسفة الرسالة المهدية وهو رجل ايمان بالرسالة دون جدل وهو لى استعداد لقبول ما أثر عن المهدي على ظاهره ولا حاجة له لان يغوص الى اعماق تعاليم إمامه وفي نظره زيادة على ذلك ان الحقبة التي قدر له ان يحياها بعد الامام كانت استمرارا للجهاد وليست للنظريات الدينية .

مقارنتها مع الوهابية

وعلى هذا انقضى عصر المهدية ولم يخلف لنا من الناحية الدينية الا بعض رسائل صغيرة دونها من عكفوا على ذلك من احاديث واقوال سمعوها

عن المهدي وحفظ اغلبها في صدور الرجال ودفنت معهم وقد يستطيع الباحث استخلاص اليسير من منشورات المهدي . واختلفت دعوة المهدي من هذه الوجهة عن دعوة محمد بن عبد الوهاب بان الثانية اسسها رجل علم ودين وناصرها واعتنقها امير حمل راية جهادها وقدّر لابن عبد الوهاب ان يتوالى علماء من المذهب يتوافرون على شرحه وتفسيره وتأليف الكتب عنه.

اسس تعاليمه

وما غفل المهدي من بناء تعاليمه على اسس منطقية فلسفية ، وما كان يصدر في مذهبه الذي يبشر به ويدعو له عن وحي الساعة بل هي آراء كوّنها عن الاسلام والمسلمين اثناء تجواله واثناء اطلاعه واثناء مخالطته للعلماء والصالحين وركز فكرته الدينية على دعامتين دعا لهما وقام بتنفيذ . اولاهما هي ان تعدد المذاهب واختلاف الملل والنحل الدينية وتلك الاكداس من الكتب تشرح وتصحح وتحشى ، والصفحات تلو الصفحات في مسائل فرعية لا قيمة لها من حيث الدعائم والاركان التي تقوم عليها العقيدة الاسلامية . وذلك الخضم من وجهات النظر المختلفة بين العلماء في تفاصيل ليست من اصل الدين والتي يغرق المسلم العادي في لججها المتلاطمة ـ كل ذلك حجب نور الحق والدين وكل ذلك باعد ما بين المسلم وبين مصدري الضياء وهما القرآن والسنة واصبحت في نظره المسائل الدينية لا يتحدث فيها ويتفهمها الا العلماء الاخصاء ، من حذقوا فنون الجدل والمناقشة ومن اطلعوا على كل الخلافات ووجهات النظر . وما كان الاسلام في نظره عسرا يصعب فهمه على المسالم العادي وما كان يظن انه اصبح دين خاصة . وفي اعتقاده انه دين الفطرة الانسانية تتلقى النفس البشرية فيوضاته والهامه دون كبير عناء او مشقة .

الصوفية

وفي الناحية الصوفية تعددت الطرق واختلفت وحتى ظن ان كل شيخ يقوم بتأسيس دين جديد وان غيره من زعماء الطرق خارج عن الدين وحتى ضل القوم ضلالا مبينا واصبحوا يوجهون انظارهم لمشائخهم بدلا من ينبوع الدين والعرفان الاصيل القرآن الكريم والسنة المطهرة . كل ذلك خبره المهدي وعرفه ، فما من عالم الا وجلس في حلقته وما من ولي معتقد وصالح نابه الذكر الا واتصل به ، وسمع ووعى ما يعتقده الناس وما تتناقله الالسن .

ومثلما حجبت الكتب والشروح والخلافات المذهبية نور اليقين المتجلي في القرآن والسنة اضل ارباب الطرق عامة المسلمين وتنكبوا بهم محجة الصواب .

العمل بالدين

والدعامة الثانية هي العمل بالدين والخضوع لنواهيه واوامره والقيام بفروضه وواجباته فقد طغت على القوم موجة من الاستهتار والانصراف عن الدين وانحدر الكل نحو هاوية سحيقة قرارها . واصبح الدين اسماء لا عمل به ورأى بعينه ما وصلت اليه الحالة في السودان وسمع الكثير عن حالة البلاد الاسلامية الاخرى ورأى انه مهما سمت المبادىء ومهما صحت الاصول فالعمل بها ضرورة لازمة . وما ظهر الاسلام لتنبذ مبادئه ويعمل على خلافها فالشريعة الاسلامية معطلة والحكومة والقضاء يقوماذ على العرف والعادة والقوانين الوضيعة ، والحكام يتساهلون مع الشعب في اتباع الفروض الاسلامية والعمل بها ، والبدع والضلالات تفعل في جسم الامة مثلما ينخر السوس في الاخشاب . وها قد سمع وهو في الابيض بزواج

رجل لرجل وتذكر وهو يرى ما يرى ويسمع ما يسمع الحديث القائل : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك هو اضعف الايمان » وما كان للمهدي ان يكون سلاحــــه اضعف الايمان بل السيف والسيف اولا .

حرق الكتب وبطلان العمل بالمذاهب

وتنفيذا لهذين المبدأين قام باعمال انكرها عليه العلماء اذ أمر باحراق الكتب الا الاصول منها كالقرآن والصحيحين واحياء علوم الدين للغزالي وغيرها سماها لانصاره ، وتلك الكتب التي امر باحراقها في نظره حجبت النور المنبعث من القرآن والسنة . فليهدم هذا الحائــط وليسرّح المسلم بنظره حتى يرى بعينه نور الحق واليقين . والمذاهب الاربعة يبطل العمل بها لانها المسؤولة عن اقامة السد في وجه منبع العرفان . والمهدي يشكرهم على اجتهادهم وانهم قادوا المسلمين الى ان اوصلوهم لزمان المهدي المنتظر . واذ كان عهدهم قريبا نوعا ما بزمان النبوة الا ان من اخذ عنهم بالتوالي بعد بهم الزمن واصبح الذين في حاجة الى تجديد لا يستطيع ان يقوم به المقلدون والمهدي في هذا متأثر بما اورده الشيخ محي الدين ابن عربي عن الامام المهدي يرفع المذاهب ويعيد الى الدين ما كان عليه ايام النبي صلى الله عليه وسلم . وفيما يلي بعض اقوال المهدي تبين تعاليمه حسب ما رواها ثقات سمعوا عنه ، ارويها بلغتها التي دونت بها .

بعض اقوال المهدي

روي عن عبد الصمد حاج صرفي انه قال : « الحاج مرزوق رجــل شايقي عالم كان قابل المهدي في قدير وسأله مرة قائلا : معلوم ان المذاهب

هي اربعة الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي . فما هو مذهب المهدي ؟ فقال له هؤلاء الأئمة جزاهم الله فقــد درجوا الناس ووصلوهم الينا كثل الراوية وصلت الماء من منهل الى منهل حتى وصلت صاحبها للبحر فجزاهم الله خيرا . فهم رجال ونحن رجال ولو أدركونا لاتبعونا . وأن مذهبنا هو الكتاب والسنة والتوكــل على الله وقد طرحنــا العمــل بالمذاهب ورأي المشايــخ » .

ما رواه ود البدري في احد مجالس المهدي . قال المهدي عليه السلام : « أيها الفقراء والمهاجرين والانصار ان كلا من كان عنده مذهب او نص او شيخ يترك مذهبه ونصه وشيخه لان هذا أخذ من هذا فقد أبعدوا من نور النبي صلى الله عليه وسلم ونحن جئنا نحيي نور النبي صلى الله عليه وسلم وروي عنه أنه : « اتركوا الكتب لكتاب الله فأنها حاجبة عن فهم معناه » .

مرتبة انصاره

وقد أخذ على المهدي انه قال : « إن أقل أنصاره مرتبة يتفوق على الشيخ عبد القادر الجيلاني » وعندما سئل عن منطقه في هذا قال : « إن مناقب الشيخ عبد القادر كثيرة وهي أكثر من ان تحصر ولكن الشيخ عبد القادر لم يزل المنكر من غيره ولكن ادنى اصحابنا اذا رأى منكرا يزيله حالا بسيفه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم . « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبقلبه وذلك هو أضعف الايمان » .

وقال الفكي جلال الدين للمهدي : « يا سيدي العلماء يسألون عن طريقنا وعن مذهبنا فما نقول لهم ؟ » قال : « قل لهم طريقنا لا إله إلا الله محمد رسول الله ومذهبنا السنة والكتاب . ما جاء من عند الله على رؤوسنا دما جاء من النبي صلى الله عليه وسلم على رقابنا وما جاء من الصحابة إن شئنا عملنا به وإن لم نشأ تركناه . »

وكان الفكي احمد ولد حمدان العركي عرض كشف كتب للمهدي ويرغب الاذن من المهدي يقرأهم ويقرئهم فاجابه المهدي بأن يترك جميع ما ذكره من الكتب التي بالكشف ويستعمل تفسير القرآن والحديث والسير الصحيحة المسنودة وأما كشف الغمة الشيخ عبد الوهاب الشعراني فهـو مقبـول .

ومن مذكرات عبد الحق الامين قوله : « وحيث أن بعـض الكتب أدخلت فيها بعض الحيل الشرعية والاحاديث الضعيفة التي أدخلها بعض الملحدين لاغراض شخصية أو سياسية فقد أمر المهدي بحرق أغلب الكتب والروايات والقصص التي لا صحة لها وقد أبقى الكتب المشهورة النافعة التي اتفق العلماء على صحتها مثل مسلم والبخاري وإحياء علـوم الدين وكتب الشعراني والسيرة الحلبية وكتب التفاسير مثل روح البيان والبيضاوي والجلال السيوطي وغيرها وقد امر بتدريس القرآن أمرا عاديا اجباريا » .

وروي ان المهدي رد للذين ارادوا معرفة السبب الذي من اجله ابطل الطرق بقوله : « لو فرضنا ان قبيلة حفرت تمدة [1] لتشرب منها واعتادت ان تشرب منها زمنا طويلا فجاء البحر وغطاها كلها فماذا يفعلون به هل يكتفون بأن يشربوا من البحر او ان يبحثوا وراء تمدهم ليشربوا منها ؟ » فأجابوه « إذا بحثوا على التمد فلا يجدونه لانه عمه النيل وصار جزءا منه » فقال لهم « هكذا الحال الآن » .

طريقة تعليمه

كان المهدي في نشر مبادئه يخاطب الناس بقدر عقولهم ويضرب لهم الامثلة بما ألفوه في حياتهم العادية ولا يتخذ طريقة الكتب الغامضة المعقدة والغرض الذي يهدف له هو تيسير تفهم الدين وازالة ما علق به من غموض

(١) ينبوع مياه مثل البئر يحفر (بطن مجرى مياه بعد جفافه .

وإبهام . فالعبادات تقليد لما يقوم به من صلاة وصيام والاحكام الشرعية يشرحها في منشورات في متناول الفهم العادي وهو اثناء تبشيره يرمي الى غرس روح الزهد والتقشف في نفوس انصاره ، وان ناحية الدين الروحية هي ممارسة وعمل لا علم ودرس وما من مجلس من مجالسه الا وينثر الحكمة تلو الحكمة والموعظة تلو الاخرى وكلها تشير الى ضرورة ترك الدنيا والعمل لخير الدار الباقية وهناك بعضا من مواعظه وحكمه المختارة :

مختارات من مواعظه

ان العبد اذا لم يجتمع مع ربه في الصلاة لم يذق لها لذة . عند دخول الوقت عجلوا الى لقاء ربكم . الجنة محفوفة بالشهوات ، قاسوا الشدائد ووطنوا نفوسكم عليها لان النعيم في طي النقم والمزايا في طي البلايا ، فمن لم يصبر على النقمة لم يجد عند الله نعمة ، ومن لم يصبر على البلية لم يجد عنـــد الله مزية . الرزق مقسوم والحريص محروم والنعمة لا تدوم والاجل محتوم والحق معلوم والحياة لا تدوم وخير الغنى القناعة .

اذا طلبت بنت ملك للزواج واعطوك اياها فلما بقيت على زواجها تركتها وتزوجت بخادمتها ورجعت الى زواجها ثانيا ، فهل تقبلك أم لا ؟ كذلك الدنيا خادم الآخرة فمن أخذ الخادم فلا يطمع في الست . فمن اراد الآخرة فليترك الدار الآخرة ونحن جئنا لخراب الدنيا وعمارة الآخرة . من نازعك في دينك فنازعه ومن نازعك في دنياك فألقها له في نحره . الاستعانة بغـــير الله محل الخذلان . ادعاء الايمان بلا تصديق من الجنان لا ينفع .

نموذج من دروسه

وهاك درسا القاه في الصلاة وكيف تؤدي « اذا دخلتم في الصلاة

فادخلوها بالحضور والخشوع والخضوع والتواضع والتذلل والابتهال والانكسار وانسكاب الدموع ان استطعتم مع توجيه القلب الى الله ، وتقول اللهم لا عائش الا في دارك ولا نعيم الا في لقائك ولا خير في غيرك بك الحياة وبك الممات وبك التقلبات واليك المصير ، ثم تكبر وتضع يدك اليسرى على صدرك واليمنى فوقها اشارة لحفظ القلب من الجولان في غير الله ومن الوسواس وتبدأ بدعاء الافتتاح قبل قراءة الفاتحة اللهم أنت الملك لا إله الا انت ، انت ربي وانا عبدك عملت سوءا وظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي كلها فانه لا يغفر الذنوب الا انت واهدني لاحسن الاخلاق فانه لا يهدي لأحسنها الا انت واصرف عني سيئها فانه لا يصرف عني سيئها الا انت لبيك ربي وسعديك . والخير كله بيديك والشر ليس اليك . انا بك واليك استغفرك واتوب اليك . ثم تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وتقرأ البسملة وسورة الفاتحة اشارة لقوله تعالى واذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، فان من تعوذ بالله من الشيطان قد احتمى في الله فلا يقربه الشيطان » .

وهكذا يشرح المهدي ما يقوم به المصلي في الركعة الاولى وفي السجود والركوع والقيام وما يقرؤه في كل منها . فعند الرفع من الركوع يقول «لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وفي السجود « سبحان ربي الاعلى وبحمده . وان شئت تقول اللهم اني اعبدك وابن عبدك وابن امتك انت خلقتني وانت رزقتني وانت تميتني وانت تحييني . اللهم ان كنت محسنا فزدني احساني وان كنت مسيئا فتجاوز عن سيئاتي ووفقني لما يقربني اليك ولا تحرمني اكتساب نفسي لما يقربني اليك » .

وصف لصلاة المهدي

وقد روى ود البدري وصفا لصلاة المهدي بما يلي : « ورأيته في حالة

الركوع يمكن يديه من ركبتيه ويساوي ظهره وعنقه استواء بحيث أنه لو وضع على ظهره شيء لم يمل ، ويباعد في الركوع يديه من جسده ولم يضمهما ، ورأيته عند الرفع من الركوم يعتدل قائما يتمهل الى ان تركز أعضاؤه ثم يهوي ساجدا . وعند سجوده يقعد على أقدامه ثم يسجد وظهره عديل ولو وضع عليه شيء لم يمل ، ويضع يديه في حالة السجود قدام ركبتيه ولا يضمهما الى جسده ، وعند قيامه من الجلوس الوسطي والسجود يقعد على اقدامه ثم ينهض قائما . ورأيته عليه السلام يسجد على جبهته الشريفة وعلى كفيه وركبتيه ، ورأيته عليه السلام عند السلام يشير به قبالة وجهه ثم يتيامن قليلا ويقبل على أصحابه على جهة عينية واثر الدموع على خديه الشريفة ، ورأيته عليه السلام يصبر متفكرا قليلا ثم يشرع في الباقيات الصالحات . وبعد تمامها يقول وأشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمداً عبده ورسوله ، ثم يرفع يديه بالفاتحة متضرعا الى ربه بخشوع ودمعتاه سائلتان تقطران على خديه » .

درسه في الوضوء

وفي درسه عن الوضوء يقول « ان الانسان اولا يكب الماء على يديه فان لم يجد فيه تغيير يبدو فيه يغسل يديه ويتمضمض ، فان كان فيه طعم تغيير فانه يبين عند المضمضة ويستنشق منه فان لم يجد فيه رائحة فيكمل وضوءه منه فانه طهور . ولا يتيمم منكم احد بغير عذر بيّن » .

تعاليم اخرى

ابطل العمل بجميع الاوراد وألف لانصاره راتبا يقرأونه يوميا وهو مجموعة من الآيات والاحاديث والادعية . وساوى بين الناس فليس هناك من

فقير او غني ، وعمم لبس الجبة المرقعة من الخلفاء الى المجاهد العادي ، ومنع النساء من لبس الحلى الفضية والذهبية وصرح لهن بالزينة فيما عدا ذلك ، ولكن داخل بيوتهن ، ويسر الزواج بتخفيف المهور وبساطة الولائم والمآدب وتحريم الرقص والغناء وضرب الدفوف ، وابطل بدعة البكاء والنواح على الميت والمبالغة في الحزن . ثم انه صبّ لعناته على اعمال السحر وكتابة الاحجبة وما شابهها من اعمال الشعوذة ، واقام حدود الشريعة في اتباع المحرمات كالخمر والزنا وفي البدع كالتنباك والسجائر ، واتباعا لسياسة التيسير والتبسيط بدأ في تأليف كتاب يضمنه العبادات والاحكام الشرعية والمعاملات يكون مرجعا لانصاره في كل امورهم في بساطة يسهل فهمها على المسلم العادي ، ولكن المنية اختطفته قبل ان يودع ذلك السفر تعاليمه ومبادئه .

اخلاقه

اما اخلاقه فهي التي اوردناها في تاريخ نشأته قبل القيام برسالة المهدية وقد ظل حتى يوم وفاته زاهدا في الدنيا متقشفا مؤمنا بما عند الله ومتجافيا ما عند الناس ، ويضرب به المثل في التواضع والرأفة والمؤاساة . وقد ذكر القس اوهر الدر قصة تمثل لنا عطفه الانساني حتى ولو كان على من يخالفه في الملة والدين . فقد روي انهم عندما سيقوا من محطتهم التبشيرية في الدلنج الى الابيض ادخل القس على المهدي وهو جالس على فروة على الارض وامامه اناء مملوء بشراب القمر الدين ، فما كان من المهدي بعد ان رأى ما على القس من الاعياء والتعب الا ان ناوله ذلك الاناء ليروي ظمأه منه . وما كان يحلوا للمهدي وهو صاحب الانتصارات وزعيم الغزوات الموفقة الا ان يحمل طعامه بيده بالرغم من وجود العبيد والاتباع والمريدين الذين يتحرقون شوقا للقيام بخدمة الامام ويخرج الى انصاره يشاكونه فيه .

وما عرف عن المهدي ايثاره لذوي قرباه بل من ظهر منهم في المهدية انما برز لسابق اخلاصه وولائه للمهدية وما عرف عنه انه قرب قبيلة بذاتها ، فالكل عنده سواء ، يمتازون بايمانهم برسالته وصدق خدمتهم لها ، فمن لازموه قبل الرسالة فهؤلاء هم اصحاب المرتبة الاولى ويقال لهم أبكار المهدي ويليهم في المرتبة والمقام انصار ابا فقدير الابيض وهكذا . وما كانت الرتب والامارات لتنال بالوراثة او الغنى والقبيلة ولكنها بالاخلاص وسابق الانضمام لراية المهدية .

ادارة الخليفة عبدالله الداخلية

نشأة الخليفة

ولد عبد الله بن السيد محمد ونشأ في دار التعايشة في دارفور ، وكان والده السيد محمد ممن اشتهروا بالورع والتقوى والصلاح ، وكان صاحب الكلمة النافذة والرأي المطاع في الدين وما يمت الى الدين بصلة ، وكان عليه ان ينشيء اولاده تنشئة دينية . فاستخدم لهم فقيها يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين وكانوا يقبلون على العلم والدين كما عرف بذلك والدهم من قبل إلا عبدالله فانه كان ينصرف عن حلقات الدرس الى الخلاء متأملا مفكرا تارة ومختلطا بالمجتمع ودراسة مشاكله تارة اخرى . وكأنما قدر للثورة المهدية أن يقودها المهدي بعلمه وتصوفه وتفقهه في الدين حتى يكون روحها ومحركها، ولكن ادارتها والقيام بشؤونها ستكون من نصيب عبدالله وهو رجل الدنيا الذي عرف خصائص الطبيعة الانسانية ودرس المجتمع السوداني دراسة عمل لا بالدرس والتحصيل . وكان منذ البدء لا يرغم السيد محمد ابنه على الدراسة فقد لمح في مخيلته مستقبلا باهرا وقيل أخبره يوما بانه سوف يصبح خليفة للمهدي المنتظر . ومنذ ذلك الحين يستعد عبدالله لليوم الموعود وظن في بعض الاحيان ان الزبير ربما كان المهدي حين غزا دارفور منتصرا ولكن أمله قد خاب .

هجرته المهدي

انتقل السيد محمد الى دار الجمع ويقال انــه كان في طريقه الــى الحج في بعض الروايات . فطلب منه ناظر الجمع البقاء في داره حينا . ومات السيد محمد في أبي ركبة ودفن بها وقبره ظاهر يزار الآن . واذا كانت دار الجمع تقرب من الجزيرة أبا واذا انتشر حديث شيخ الجزيرة فيما جاورها من البقاع ساور عبدالله احساس خفي ان ما سمعه عن محمد أحمد وما عرف عن زهده وتقشفه وعلو كعبه في العلم والدين لا بد ان تكون هذه صفات المهدي المنتظر . فامتطى حمارا ضعيفا ينزل عن ظهره احيانا لهزاله واتــى الى المهــدي في الحلاويين (في الجزيرة) وهو يشيد قبة على استاذه الشيخ القرشي ، فآمن برسالته التي لم يذعها المهدي بعد وان كان يسرّها في نفسه .

صاحب المكانة الاولى

ومنذ ذلك الوقت أصبح لعبد الله المكانة الاولى في قلب الشيخ محمد احمد فهو اول من آمن به واول من شد أزره ، فكان مستشاره الاول وظل نفوذه يعلو كلما علا اسم المهدية . وعندما رأى المهدي تعيين الخلفاء لم يتردد في ان يكون خليفته الاول عبد الله واحتل المكان الثاني ودحلو المكان الثالث ظل شاغرا للسنوسي واحتل الرابع محمد شريف من اقاربه . وما ان كثرت الاعمال وتعددت نواحي الادارة وازدادت الجيوش الا وترك المهدي ادارة الشؤون العامة لخليفته الاول وتفرغ هو لاذكاء روح الدين ولكتابة الرسائل والمنشورات . فشؤون بيت المال والاسرى والقيادة العامة لجيش المهدي كلها تركزت في الخليفة عبدالله . ومن ذلك الحين كان المهدي روح الحركة والثورة وعبدالله رجل الادارة والتنفيذ . وقام كل منهما بما جبلت عليه طبيعتــه . فالمهدي رجل الدين والزهد والتصوف فما كان يختلط بالناس الا قليلا في

شؤونهم الدنيوية وما كان يتغلغل في صميم المجتمع ويتحسس نقائصه وعيوبه ولكنه يدرك ما صار اليه الدين من ضعف وما انتشر من بدع وضلالات ، فعكف على الدرس والتحصيل وممارسة التصوف ووصل الى رأي اطمأن اليه وهو نور الايمان المنبعث من اصل الدين والقرآن والسنة حجبته المدارس الدينية والطرق الصوفية ، ثم انحراف الناس والحكام في تيار المدنية جعلهم لا يطيقون احكام الدين والشريعة . اما خليفته عبدالله فهو رجل المجتمع السوداني ورجل النفوس البشرية فهو لم ينل الا قليلا من العلم ولكنه نال كثيرا من معرفة شؤون الناس والدنيا . فاذا كان المهدي رجل النظرية فالخليفة رجل التطبيق .

صعوبات الخليفة بعد المهدي

ترك المهدي للخليفة مسؤولية جسيمة ما كان يقوى على حملها الا الاثنان معا فكثير سلّموا كرها وخوفا على رقابهم . وما كان لهم ان تتشرب روحهم بمباديء المهدية وهي التي أبطلت العمل بالمذاهب وأحرقت الكتب التي أفنوا زهرة عمرهم في متونها وشروحها يقرؤونها ويقرئونها . وهم لا يقبل بعضهم نظرية المهدية ومن قبلها يرى ان الاوصاف التي ترد فيها لا تنطبق من حيث الزمن والمكان والشخصية والحال العامة على ما حدث . وكيف يقبلون مبدأ يرمي الى اغفال المذاهب وترك الكتب والتدريس بها واتباع الطرق التي آمنوا بها واخذوا باورادها وظلت لهم عادة لازمتهم ولازموها . وقد خالفني ثقة في تاريخ المهدية عرضت عليه مخطوطة الكتاب في رأيي عن العلماء وتصديقهم بالمهدية وغيرها من مسائل بمذكرة أثبتها بنصها :

« العلماء غير موظفي الحكومة كلهم سلموا باختيارهم بصحة مباديء المهدية لانها تؤيد علمهم وحكم الشريعة والعمل بالكتاب والسند أمثال

الشيخ محمد الخير والحسين الزهراء والامين الصويلح وود بقادي وما لـم يحصرهم العدد .

اما العلماء الموظفون فانهم اجابوا ما طلبه منهم حكامهم في تكذيب المهدي بالرسائل التي استكتبوهم اياها ولم يرو عنه حديث بان العلماء لم يصدقوا مهديته بل انه قال العالم المصدق في مهديته كالنبي المرسل . وقد ذكر المهدي في حق العالم المصدق بمهديته نص الحديث بان العلماء ورثـة الانبياء لانهم يبلغون الحق للناس ولا يكتمونه : اما ما عداهم من علماء السوء الذين اتخذوا دينهم وسيلة لمعاشهم فقد قال يا علماء السوء تصومون وتزكون وتقولون ما لا تفعلون فيا سوء ما تحكمون الخ .

أما الكتب فان حرقها لم يكن بأمر من المهدي فانه قد كانت له مكتبة تحتوي على كثير من كتب الحديث والتفاسير وقد كان يقرؤها على أصحابه كروح البيان وكثير من التفاسير وكتب الشعراني وابن عطاء الله .

أما الطرق فانه من الطبيعي ان يحاربها المهدي السني الذي لم يفعل الا ما كان يفعله صلّى الله عليه وسلم واذا قلنا ان عناصر الضعف في المهدية كانت مخالفة المسلمين لشريعتهم وسنة نبيهم فانها كانت معكوسة عن أهل الاسلام المتمسكين بالشريعة النيرة المطهرة » .

وهم يرون ان العهد الذي قطعوه لمشايخهم باتباع الطريقة والعمل على نهجها لا يزال في أعناقهم وكما ذكرنا فدنقلا وبربر والجزيرة كلها كانت تعج بأرباب الطرق . وهم قد تابعوه أولاً لأنه لم يعلن عن مناهضته لطرقهم والأغلبية الساحقة من السكان تطرقت . والتجار وأرباب المال دخلوا خوفاً على أموالهم ومراكزهم الاجتماعية وقلوبهم لا تزال معرضة عنها . وأرباب الوظائف في الحكومة لا يريدون من التغيير الا ما يؤدي الى صلاح حالهم . وأجمل المهدي حسب مـا روي عنه من عارضوا المهدية بقوله « ستة لا يرضون بأمرنا وهم العالم والظالم والترك وتربيتهم وأهـل الشأن وأهل

البرهان » . هذه عناصر ضعف في الادارة المهدية منذ ان استقرت في أم درمان وبعض هؤلاء الذين لا يعتقدون في ضمائرهم بالمهدية ومبادئها شغلوا وظائف الحكومة من قضاة وكتبة ومشرفين على شؤون المال والادارة .

راي المهدي في حالة المهدية

وهناك أخبار وردت عن ثقات عن المهدي يرى فيها ان المهدية وردت على نهج يختلف عما كان يرجوه لها . فقد روي عن الشيخ محمد ود البصير أنه قال : « ذات يوم بعد فتوح الخرطوم طلبني المهدي نصف النهار وقال لي ان أمر المهدية كان طويلا ، ولكن الاخوان غيروا وبدلوا ، ونحن اخترنا الآخرة فقلت كيف واناك كنت وعدتني بفتوحات كبيرة . فاجاب بأنها كلها نسخت لأنه لا يخفى ان القرآن ينزل من عند الله بواسطة جبريل للنبي صلّى الله عليه وسلم ويكون فيه الناسخ والمنسوخ » .

وفي رواية أخرى ان أحد الأنصار سأل المهدي « كيف اتبعك هؤلاء الأعراب الأجلاف ؟ » فتبسم المهدي وقال له « يا أخي ان هؤلاء الأعراب الى الآن لم يتبعوني على ما اطلبه من اقامة الدين . وقد حضرت لي جوابات في هذا اليوم من أبا بأن منهم جماعة قتلوا سبعة من المسلمين ظلماً وعدواناً . ولكن يا أخي انا لما ألزمت بأمر المهدية وتحتم علي ولم أجد منه خلاصاً كاتبت أهل المساجد وأهل الدين وطلبت منهم اجابة دعوتي والقيام معي في تأييد الدين لتأتي المهدية على حالة مقبولة عند العقلاء ؛ فمنعهم الجاه من اجابة دعوتي فدعوت هؤلاء الاعراب الأجلاف فأجابوني في الحال وهاجروا معي في الحال ، فلزمني لهم حق الصحبة القديمة وجاءت المهدية على هذه الحالة المشوشة عند العقلاء حسب طباعهم وعلى حسب مراد الله ، فعلى الناس أن يصبروا على جفوتهم حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً » .

اثر وفاة المهدي في الحماس للمهدية

فتلك الطوائف التي دخلت كرهاً في المهدية وقبلت ما نادت به من فكرة واولئك الذين انحازوا للمهدية تحت تأثير شخصية المهدي الجذابة وما كانوا يمنون به انفسهم من فتوحات اعتراهم اليأس حينما توفي المهدي وزال ما كان يمازج انفسهم من بعض فكرة المهدية . وهم انما يطيعون الان خليفته لا عن عقيدة وايمان وانما انقياداً للحكم ، وهم اذ يطرون او ينعون الحكم الجديد فبقــدر ما تحتضنهم الادارة الجديدة وتيسر لهــم اسباب الرزق والسيطرة وبقدر ما تقربهم لوظائفها او تباعدهم عنها والخليفة وقد منحه الله درجة من الذكاء وافاد بصرا باحوال الناس ورزق حاسة الفراسة كان يحاذر ويراقب ويجرد من النفوذ والسلطة اولئك الذين لــم تمازج المهدية دمــاءهم .

اهل الغرب

وهناك فريق كان بعيدا عن العلم ومذاهبه والطرق واختلافاتها وكانوا انما يصدرون في اعمالهم الدينية عن قليل جداً من العلم بثه في نفوسهم فقهاء القرى والبادية في العبادات ولم يتعمقوا معهم في الاختلافات المذهبية او المجادلات الكلامية . واذا اعتنقوا طريقة فمن غير ايغال فيها او تمسك بكل ما تقول به وفوق ذلك فقد كانوا يمجدون اعمال الفروسية والبطولة . فهذا المهدي اروى ظمأهم الطبيعي لحب النضال ، وكان لهم بطلا يمجدون اعماله وكان لهم هاديا إلى دين الفطرة والبساطة . ويخاطبهم بقدر عقولهم ويضرب لهم الامثال بما ألفوه في حياتهم الطبيعية . وبعد ذلك كله قادهم من نصر لنصر ومن فتح لفتح ، وقد كانت قلوبهم خلوا من الطاعة لمبدأ فقهــي او طريقة دينية لحد ما . فما نادى به المهدي حق ، وما قال به امر تجب طاعته ، ولا

يهمهم ان يخرج المهدي من المغرب او المشرق او يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا او ظلماً ، ولا هم بذوي دراية بفروقات المذاهب او اختلافات الطرق . فمبلغ علمهم عنه انه هو المهدي الذي ازال البدع والضلالات ، وقد ازالها منهم والذي تغلبت انصاره على جنود الحكومة ، والذي ارضى غريزتهم لحب القتال والنضال ، والذي علمهم ما كانوا يجهلون ونقى صدورهم مما علق بها من خرافات وسحر واباحية .

هذا الوصف للفريقين اي فريق الذي انحاز تحت تأثير جاذبية المهدي مع ما لهم من ماض في المذاهب والطرق والآن وقد زالت تلك الشخصية عاود بعضهم الحنين لما كانوا عليه قبلا والفريق الذي وجده المهدي خلواً لحد ما من تأثيرات سابقة وطبع على نفوسهم تعاليمه وشخصيته وبقي ذلك الاثر في نفوسهم حتى بعد وفاته وحتى زوال المهدية . اقول هذا الوصف للفريقين ينطبق على الجمهرة الغالبة للفريقين ولا نعدم بعض الأفراد من هنا أو من هناك يشذون عن قاعدة فريقهم .

خلاف ما بين سكان النيل واهل الغرب

واذا كان سكان النيل مـن الفريق الأول فأهل الغرب كانوا الفريق الثاني . وتشاء الظروف أن تكون شبه جفوة بين الفريقين منذ القدم . فأهل النيل بما عُرف عنهم من تقدّم نوعاً مـا في المدينة ودراية بالعلم والدين ومعرفة بفنون التجارة يتعالون على أهل الغرب بجفونهم وجلافتهم . وتشاء الاقدار أيضاً أن يكون الخليفة عبد الله والقائم بالأمر من بعد المهدي من أهل الغرب . فهم أهله وبطانته وهم جنده وانصاره وهم يفخرون الآن ان أصبح الحاكم بأمره مـن البقارة . وتشاء الاقدار أيضاً أن يكون الخليفة شريف من أهل النيل وذي صلة رحم بالمهدي ، والخليفة علي ود حلو بين الاثنين ، ولو أنه أقرب صلة بالخليفة عبد الله ، فعرب النيل الأبيض لهم بعض

خصائص أهل النيل وبعض خصائص البقارة .

كان من الطبيعي أن يرى أهــل النيل في البقارة غاصبين وهم أحق بالحكم والولاية إذ أنهم اهل عــلم ومعرفة أولا وذوي صلة رحم بالمهدي مؤسس الدعوة ثانياً . وكان من الطبيعي تحت هذه الظروف والمؤثرات ان يكون البقارة سدنة العهد الجديد وحماته . فهم ناصروا المهدية فكرة وجهاداً وآمنوا بها . وهم بعد ذلك أهل وبطانة الراعي الجديد . وهو ايضاً على مثل فطرتهم وإيمانهم بالمهدية إذ كان قلبه خالياً عــن طريقة او مذهب خاص في الفقه فأحب المهدي واخلص له من كل قلبه ومنح المهدية عقله وسيفه وروحه. وكان من الطبيعي ان يزور اهل النيل عن الخليفة ويرون في مسلكه انحيازاً لأهله وتعضيداً للبقارة ضدهم وكان من الطبيعي بصفة خاصة ان تجد هذه الجفوة وهذا النفور ارضاً خصبة في نفوس مــن تربطهم بالمهدي وشيجة الرحم والقربى .

الخليفة يعتمد على اخيه يعقوب

كان للخليفة وقد احتل مكان المهدي ان يعين شخصاً يشد أزره ويقوم بتصريف أمور الدولة دونه حتى يتفرّغ رجل المهدية الأول للرقابة العامة وبث الدعوة وكان من الطبيعي ان يلجأ الى اقرب الناس اليه وآثرهم عنده فاصطفى أخاه الامير يعقوب وأصبح له نفس المركز الذي كان يحتله الخليفة من المهدي . ولو أنه في ظاهر الأمر برز الخليفة كصاحب الأمر والنهي والحاكم بأمره الا ان القوة التي وراء العرش كان الامير يعقوب . فهو المشرف على الجيش يعين قواده ويعدّه بالزاد والمعدات الحربية . وهو وزير الداخلية من حيث عمال الأقاليم يوفق بينهم وبين رعاياهم فيما لو اختلفوا وهو يعنى بشؤون ما يسمى بالبوغازات أو محطات الحدود. وهو محافظ أم درمان عاصمة المهدية وهو المشرف على شؤون بيت المال عصب الادارة . فهو على وجه الاجمال

رئيس الوزراء ووزير كل الوزارات ، وكان يتصل بالخليفة يومياً يرفع له الامر ويقترح والخليفة يوافق ويعدل اذا رأى ذلك .

صفات يعقوب

كان يضطلع بكل هذه الاعباء في تؤدة ورزانة . وكان لين العريكة واسع الصدر الى حد بعيد . كريم يبالغ في كرمه لا يرد من يطلب عونه . وعرف الناس له هذه المكانة وهذا المركز الممتاز فكانت الوفود تؤم داره وتبسط شكواها ويخرج الجميع وهم راضون عنه . ومما قربه الي قلوب العامة ما اتصف به من تواضع . فما شمخ بأنفه أو تعالى على الناس لمكانته من الخليفة أو نفوذه الكبير . يقبل عليه المختلفون وهم يتميزون غيظاً من بعضهم البعض فما يزال يطلب منهم الهدوء ، فاذا ما استوعب أقوالهم أخذهم بمنطق وحكمة وضرب الامثال وما هي الا برهة الا وقد هدأ غيظهم عن اقتناع منطقي . ويخرجون وقد هدأت النفوس وزال ما كان يفصلهم من خلاف . هذه كلمة عامة اقتضاها الانصاف لرجل كان رجل الدولة والحكم أهمله المؤرخون للمعان اسم الخليفة .

رحيل اهل الغرب لام درمان

كان للخليفة بعد ان أصطفى أخاه ان يسند مركزه بقبائل البقارة فأمر برحيلهم من ديارهم في أقصى الغرب الى أم درمان، وأنزلهم في مكان يحيطون بمنازله وبنى لهم سوراً عظيماً بمثابة حصن يحميهم ويرد عنهم الهجوم . وقامت أفواجهم من تعائشة ورزيقات وهبانية وحمر ومسيريه وغيرهم ميممة وجهها شطر بقعة المهدي (أم درمان) تلبية لنداء الخليفة بنسائهم وعيالهم وما يمتلكون من متاع وماشية . وكان عليهم وهم في طريقهم صوب العاصمة

ان يتقوتوا بما يقدمه لهم السكان ان لم يكن عن رضى واختيار فبالقوة . وكان هذا مما وسع الشقة بين البقارة وأهل النيل .

وما كان من الطبيعي ان يرحل هذا العدد الضخم من الناس ليتجمع في بقعة واحدة ويعيش على بيت المال الا ان يـكون نذيراً بنفاذ المقادير المخزونة من أقوات . وفوق ذلـك فقـد فقدت البلاد قوتهم الانتاجية . فاستنفذوا غلة الجزيرة وقـد حبست عليهم وتعاونت معهم الطبيعة حيث انحبس المطر . وأهل الجزيرة أنفسهم أمر الخليفة عدداً عظيماً منهم بترحيلهم لام درمان وحدثت بهذا مجاعة سنة ١٣٠٦ هجرية فحصدت من الانفس كما يقال ما لم تحصده حروب المهدية .

بدء الخلاف بين خليفتين

تجمعت أسباب التنافر والخصام بين أهل النيل وأهل الغرب حتى انتهت ببداية حرب أهلية أوشك أن يستعر أوارها لولا ان تداركها الله بلطفه ، فهي ان لم تتلظ بالسيوف والرماح والاسلحة النارية الا انها ظلت تشتعل بين الجوانح وكانت عنصر ضعف في جسم الدولة . وقد لاحظ المهدي في حياته ذلك النفور بين الفريقين ورأى أن اهله الاشراف يطمعون في الملك والسلطان فأمرهم بمعاونة الخليفة عبدالله والخضوع له والطاعة لما يأمر به . واحتياطاً من وقوع جفوة بين الخليفة الاول والخليفة شريف الشاب منع الأخير من الاتصال المباشر بالخليفة عبدالله وليس لـه ان يسدي نصحاً او يرى ملاحظة الا للخليفة علي ود حلو وهذا هو المرخص له بابدائها للخليفة الاول .

الاشراف يظهرون عدم طاعتهم

بدأت النفرة بين ابناء النيل بزعامة الاشراف اقارب المهدي وبين قبائل الغرب بعد فتح الابيض اذ طلب الاشراف من الامام رفع عبدالله من الخلافة

او رفعه عنهم ، فرفض المهدي مطالبهم منذرا اياهم بالطاعة والولاء للخليفة لأنه احق رجال المهدية بها . وهذا ما دعا المهدي لتأكيد خلافة عبدالله في منشوراته وتبرئته من الاشراف اذا هم طلبوا الملك والسلطان . ثم كان ما كان من منعه للخليفة شريف من الاتصال المباشر بالخليفة عبدالله . وبعد أن استقرت الأمور بفتح الخرطوم وسنار وبعد وفاة المهدي أذن الخليفة عبدالله لبعض الأشراف بالسفر بخيولهم الى اقاليم الجزيرة والفونج لعلف دوابهم وخيولهم ، ولكنهم اساءوا معاملة الأهلين . فشكا هؤلاء الى عمال الخليفة فما أذعن الأشراف للعمال بل طردوا بعضهم من مراكزهم . فتطاير الخبر للخليفة وحوله قائد رايتهم الخليفة شريف فبعث اليهم بمن يحضرهم . فعصوا في اول الأمر غير أنهم رضخوا اخيراً واتنهت المسألة بصلح اندمل فيه الجرح ولكنه على صديد . فالاشراف لا زالوا على رأيهم أنهم أحق بالحكم والولاية والبقارة بزعامة يعقوب ترقب الأمر بتدبر وتحصي للأشراف ومن تبعهم من أهل النيل تعاليمهم ونفورهم من أهل الغرب .

الخليفة شريف يحمل على القضاة والامراء

ثم توفي السيد محمود عبد القادر في قتاله ضد النوبة وكان عامل الغرب منذ ان زحف المهدي بجيوشه الى الخرطوم ، فعقد الأشراف مجلساً منهم يريدون تولية احدهم ليملأ مركز عامل الغرب الشاغر . فنقلت اخبار المجلس ومن رشح ليخلفه السيد محمود لأسماع الخليفة فعلم ما يريده الأشراف من إصرار على ملء ذلك المركز وما يدل عليه ذلك من احتفاظ بمراكز مخصوصة. فاحتاط الخليفة للامر وفي الحال عين من يثق به عاملاً للغرب وقال في ذلك يعقوب « إن الأشراف بعملهم هذا أيقظونا من النوم » وهو صاحب رأي ودهاء حتى لقب بجراب الرأي . وبهذا تجمعت الادلة عند يعقوب وظل يعمل بالتدريج وفي صمت لتجريدهم من الاسلحة والنفوذ . فسحبت راياتهم

وأرجئت الغزوة التي كان مزمعاً توجيهها لمصر براية الخليفة شريف وهي تضم أولاد البلد سكان النيل . وقطعت المرتبات التي يتناولها الاشراف من بيت المال حتى ألجأت الحاجة كبار السن منهم والمعوزين الى الوقوف على باب يعقوب يطلبون الاعطيات . فمنعهم الخليفة شريف إذ هو يرى في ذلك تذللا لا يليق بهم . وبواسطة بعضهم ربطت اعطيات خاصة لكبار السن ذوي العوز منهم . وظل كبار الدناقلة وبعض قبائل النيل الاخرى يترددون على الخليفة شريف ويوغرون صدره ضد خليفة المهدي . فما نجحوا في ذلك لأنه لا يزال يكن الاحترام والتقدير ويحمل الطاعة والولاء للخليفة عبدالله ولكنهم نجحوا في حمله على القضاة ومن بيدهم الامر في حكومة المهدية . ورأى فيهم ظلمة عتاة غيروا معالم المهدية وخالفوا الشريعة المحمدية .

اجتماعات الاشراف

ما زال الاشراف وهم إذ يجتمعون يتذمرون مما وصلت اليه حالتهم ومباعدتهم من شؤون الحكم والادارة واستئثار عرب الغرب بالجاه والنفوذ وهم دونهم دراية وكفاية ، وجستابو يعقوب يطلعه على ما يقولون ويعقوب لا زال مستمراً في تطهير اداراته ممن يشك في ولائهم في العاصمة وفي الاقاليم وبعززها بأصحاب الرأي من أهل الغرب في العمالات ، ويحمي دولته بفرسانهم في الثغور والبوغازات ، وفي البقعة (ام درمان) مقر الحكم والسلطان . وكلما امعن يعقوب في مباعدة سكان النيل من الحكم كلما امعنوا في شكواهم من ظلم البقارة وفساد ادارتهم . فكل فريق بمسلكه يعزز النفرة القائمة وهكذا تتباعد الشقة وتكبر الهوة التي تفصل بينهما .

جاسوسية ومؤامرات

ينقل الوشاة للأشراف واولاد البلد (قبائل النيل) اجتماعات الخليفة

السرية التي تهدف الى امتلاك أعنة الحكم في ايديهم واقصاء اولاد البلد ، بل المؤامرات ضد كبارهم لنفيهم وتعذيبهم ، وإلصاق التهم بهم تبيض وتفرخ في تلك الجلسات ويتقلون الى البقارة استهزاء أولاد البلد بهم وأنهم في أتصالات واجتماعات مع بعضهم البعض هنا وفي الاقاليم لقلب نظام الحكم والقبض على السلطان والنفوذ .

الفريقان يحملان السلاح

وفي هذا الجو من التوتر والقلق النفساني طارت إشاعة بان الخليفة ينوي القبض عـلى الخليفة شريف وأولاد المهدي وأكد لهم ذلك اثنان من كتّاب الخليفة الخواص . وكان على الاشراف ومن تبعهم ان يحموا انفسهم وان يدافعوا وهم قبل ذلك قد قطعت مؤامراتهم شوطاً بعيداً . وانضم اليهم عدد من اولاد البلد وكاتبوا من يرون رأيهم من أهل الجزيرة . وكل ذلك كانت تصل اخباره الى يعقوب ، فتقلد الاشراف ومن اتبع نهجهم اسلحتهم واسرعوا لتنفيذ المؤامرة قبل أن يقبض عليهم ، واحتلوا قبة المهدي والبيوت المجاورة . وكان على يعقوب أيضاً وهو المسئول عن حماية الدولة وشخص الخليفة أن يوزع الملازمية على بيوت الخليفة واحتاط بالأشراف وأتباعهم حتى تم ضرب النطاق عليهم .

الوساطة

روّع المخلصون لشأن المهدية مما تردت اليه الحالة وعلى رأسهم الخليفة علي ود حلو ورأى ان لا بد من تدخله مع قادة الرأي المحايدين فاستأذن الخليفة عبدالله ، وما كان له ان يرد طلباً يرمي الى الصلح وتهدئة الحالة دون اراقة الدماء وتم الصلح بعد وقوع بعض المناوشات والاصابات بين الفريقين،

والصلح هذا يقضي بأن يعفو عبدالله عن اخيه محمد شريف واولاد المهدي ورؤساء الفتنة وان يجعل الخليفة شريف من اهل المشورة ، وتربط اعطيات خاصة له ولأبناء ونساء المهدي . فسار الخليفة شريف لمصافحة زميله الاكبر وتعانقا وكان منظراً مؤثرا حتى ترقرقت عيونهما بالدموع .

القاضي احمد يحكم

ولكن القاضي احمد وهو يحمل ضغينة شخصية للخليفة شريف جمع مجلسه وحكم على الأشراف وكل الدناقلة الذين اشتركوا في الفتنة بقطع رؤوس الزعماء والقادة منهم وقطع ارجل وايدي الباقين بالخلاف . فلم يوافق الخليفة على ذلك لأنه عفا وصفح عنهم يوم الصلح ويوم ان وضعوا اسلحتهم نتيجة لذلك . فأجاب القضاة بأنه في حل من عفوه لهم لأنه كان لأطفاء الفتنة والآن قد ثبتت عليهم الفتنة لا يؤمن جانبهم ، والخليفة في حل من وعده لهم طالما ان الشريعة تحكم عليهم . فأعترض السيد المكي وقال « كلنا دناقلة ولا نوافق على هذا الحكم ويمكنكم ان تنفوهم في الخارج طالما ان الغرض الأمان من شرهم » وبذلك حكموا بنفيهم الى بحر الجبل وعقد مجلس القضاة جلسة اخرى وهم في طريقهم الى المنفى وقضى باعدامهم .

الخليفة شريف يبتعد مرة اخرى

بديهي ان الخليفة شريف لم يرض عن اعدامهم وهم انما وضعوا اسلحتهم بعد ان وعدوا بالعفو . واذا صبر على نفيهم فأنما يغالب صبره وتجلده . اما الآن وقد اعدموا فقد طفح الكيل ، ويرى في ذلك نقضاً صريحاً للعهد . ودلالة على غضبه انقطع عن صلاة الجمعة وكان ذلك يعد بمثابة العصيان . وبديهي ان لا يصبر الخليفة عبدالله على عصيان رجل عظيم

وزميل اصغر مثل الخليفة الشريف ولكنه لا يحكم بمفرده فالاوفق ان يجتمع مجلس فوق العادة يتكوّن من كبار رجال الدولة وامنائها .

حكم المجلس

اجتمع ستة واربعون منهم وتداولوا الامر واخيراً اصدروا الحكم التالي بعد ان مهروه بامضاءاتهم واختامهم : « وبعد فان الخليفة محمد شريف حامد قد بارز خليفة المهدي عليه السلام بالعداوة والعصيان والخلاف حتى تظاهر بالحرابة له وشهر السلاح عليه ولم يبال بادخال الخلل في الدين وشق عصا المسلمين فبعد هذا كله اجتمع جماعــة المسلمين واحضروه بين ايديهم وحلفوه على كتاب الله تعالى فحلف وعاهد على ان لا يعود الى مثل ما صدر منه ثم جاء خليفة المهدي علـــيه السلام نادماً على شنيع فعله فقبله مع ما ارتكبه مـــن عظيم الذنب والخطيئة وعفا عنه وقابله بالصفح والاكرام . ثم نقض العهد وعاد الى الخلاف واضمار السوء والاصرار على عدم الامتثال . فضلا عن كونه تاركا الجمعة والجماعة . فعند ذلك اجتمع اصحاب المهدي عليه السلام من قضاة الشرع الشريف وامراء واعيان وسألوه عن ذلك فقابلهم بأقبح المقال وتفوّه بما يؤدي الى سوء الحال حتى قال ان الغوث معه وفي حزبه وان نصرة المهدية تحت قدمه وان الصحابة اعترضوا على النبي صلّى الله عليه وسلم وغير ذلك من سوء المقال وما زالوا يراجعونه بالقول اللين الحسن وتلوا عليه منشور المهدي عليه السلام في خليفته والمنشور الذي وجهه اليه خاصة وأمره فيه باتباع خليفته وعدم خروجه عن اوامره . فعند ذلك اظهر التوبة والندم . فنظراً لما حصل منه مـــن نقض العهد وعدم استمراره على التوبة السابقة ، اقتضى نظر اصحاب المهدي عليه السلام طبق الوجه الشرعي وضعه بالسجن تأديباً له . ولولا اظهار التوبة عما حصل منه لكان جزاؤه اعظم من الســجن ، وقد ثبت جميع ذلك لدى اصحاب المهدي

عليه السلام الآتي ذكر اسمائهم واختامهم فـيه أدناه وجميعهم شهدوا عليه شهادة حق يؤدونها بين يدي أحكم الحاكين والسلام » .

وهكذا ظل الخليفة شريف في السجن إلى أن وردت الأنباء بتحركات الجيش المصري في الحدود فأطلق سراحه ليتحد الجميع أمام الجيش المهاجم .

هيكل الادارة والقضاء

كان هيكل الادارة والقضاء قد شيد عندما انتقل الامام المهدي إلى الدار الآخرة فدستور الحكم والقضاء في الشريعة الاسلامية حسب ما مارسه في حياته ، وحسب ما ورد في منشوراته . ولئلا يترك مجالا للدس في أقواله واعماله نصح لأصحابه بان يعرضوا ما جاءهم منه على الكتاب والسنة فما وافق فهو منه وما خالف فهو ليس منه وأجمل لأصحابه السلطات وتوزيعها من حيث الحكم والتنفيذ على طريقته الخاصة في التبسيط والتيسير في معرض النصح لأهله الاشراف . فقد عقد اجتماعاً من خلفائه وأقاربه الاشراف وحض على اتباع الخليفة عبدالله ومعاونته على الدين واذا حاد عن الحق او تنكب طريق الكتاب والسنة فللخليفة علي ود حلو ان يمحضه النصح وللخليفة شريف إبداء ملاحظته للخليفة علي . ثم وجه الخطاب للخليفة عبدالله قائلا « أنت لك السيف وليعقوب الجيش وللقاضي الكتب . يعني يكتب القاضي ليعقوب ليحضر المجرم بعد الشكوى لينظر دعواه ثم يكتب جزاءه في ورقة ويعلقها في عنقه ثم يرسل الى خليفة المهدي ليجري عليه القصاص ، ففي هذه الجملة أجمل المهدي الاجراءات القانونية التي تتخذ بصدد الجريمة من حيث الضبط والمحاكمة والتنفيذ ووضح فيها فصل السلطات ، فليعقوب السلطة البوليسية وللقاضي الحكم والادانة وللخليفة السلطة التنفيذية . ووضّح في حديث آخر ما يجب ان يتصف به القاضي من نزاهة وعدم محاباة، فالخصوم أمام القضاء سواء لا تعلو مرتبة أحدهما على الآخر فلا يجلس

أحدهما على فراش والآخر على الارض بل يجلسان على مقعد واحد من حيث العلو .

قاضي الاسلام

وكان قاضي الاسلام والمشرف على شؤون القضاء في القطر باكمله القاضي احمد بدين ضخم الجثة اسود اللون مهاب الطلعة ذو شخصية قوية . وما احتل المنصب لانه اكثر علما واوفر محصولا في علوم الشرع ولكن لايمانه بالمهدية ولمعرفته بمنشورات المهدي وقضائه في المناسبات المختلفة . وظل في مركزه يحتل اكبر منصب قضائي في الدولة الشطر الاكبر من حكومة الخليفة الى ان عرفت عنه الرشوة وعرف بمناوأته ليعقوب في آخر الامر فترصد له الاخير حتى اثبت ما كان يشاع عنه من تناول لها وكانت النتيجة المحتومة ان يزج به في السجن حتى مات وولي بعده الشيخ الحسين الزهراء وكان ذا رأي مستقل في تطبيق الشريعة وكان لا يعمل بالمنشورات اذا تعارضت نوعا ما معها كما امر المهدي نفسه بذلك . ولكن اصبحت للمنشورات قداسة في آخر حكم المهدية لا يسلم من يعمل بغيرها وتشدد في موقفه ازاءها حتى سيق الى السجن ومات فيه صبرا . وروي ان الخليفة ندم على موت الشيخ الحسين . وتقلص المنصب بعد موت الشيخ الحسين في السنين الاخيرة واصبح العلماء يهابونه ويتخوفون منه ومن احتله يماري ويداري .

وروي ان الخليفة ندب ستة عشر قاضيا للحكم بين الناس بموجب الكتاب والسنة وما هو مدون في منشورات المهدي وخاطبهم بانهم مسؤولون بين يدي الله عز وجل يوم القيامة عن حقوق الناس فقال احدهم للخليفة « انا يا سيدي لا اعرف العلم » فقال له الخليفة « نحن لا نطالبك بالعلم ولكن المطلوب منكم عندما تقدم قضية او مظلمة ان تتفقوا مع بعضكم وتحكموا فيها بالعدل » .

ظلم وفوضى مردها جهل القائمين بالامر

ومع ما انشيء من محاكم وما عين من قضاة يحكمون بالشريعة المحمدية فان حوادث النهب والسلب والتعدي على الانفس والاموال ترد الى الخليفة دون انقطاع من الاقاليم حيث يعبث بعض الاعراب الاجلاف الجهلة فسادا وهم لا يتصفون بفضيلة ما غير ايمانهم بالمهدية وبيع أرواحهم في سبيلها . وكان الخليفة يزجرهم ويتهددهم ويتوعدهم بشديد العقاب . ويأمرهم بمعاملة الناس بالحسنى والرفق ، ولكن أنى لهم بتبدل نفوسهم وعقلياتهم وقد شبوا على الفوضى والظلم ، وما كان للخليفة ان يجردهم من اسلحتهم وان يستغني عن خدماتهم ، فهم حماة الدولة ضد اعدائها في الخارج وهم بطانته واعوانه على منافسيه في الداخل . فالضرورة تقضي بالحفاظ عليهم ، ولكنهم ظلموا وجاروا ووسموا العهد بطابع الفوضى نتيجة جهلهم وسوء تدبيرهم مع ما ركب في نفوسهم من بغض وكراهية لاولاد البلد .

بيت المال

تتكون مالية الدولة مما يجبى من زكاة وجبايات اخرى على البضائع والمشارع والسواقي والجناين والغنائم الحربية ، ولكن عصب الحياة لجسم المهدية هو الزكاة الشرعية على المحصولات والانعام والماشية والاغنام . وفي كل عمالة بيت للمال وفي ام درمان بيت مال المسلمين العام . بدأ هذا صغيرا في قدير برئاسة صديق المهدي احمد ود سليمان من غنائم الحرب وتضخم مع اتساع الفتوحات من الغنائم وزكاة البلاد المفتوحة حتى اصبح دعامة الادارة المهدية وتعددت اجزاؤه بتعدد أوجه الصرف والدخل . فهناك بيت المال العام ويستمد دخله من اهل ام درمان وما جاورها من قرى وبوادي وفائض بيوت اموال الاقاليم ويصرف منه على موظفي بيت

المال وعلى آل المهدي والخلفاء وعلى اعداد الجيوش للغزوات . وهناك بيت المال الملازمية وخصصت اه اموال الجزيرة ويصرف منه على حرس الخليفة الخاص المسمى بالملازمية . وهناك بيت مال ورشة الحربية وترد اليه اموال سواقي الخرطوم وجنائنها وثمن سن الفيل الوارد من خط الاستواء وبحر الغزال ويصرف منه على صنع الذخائر والاسلحة . وهناك بيت مال الخمس ويستمد دخله من ايرادات المراكب والمشارع وأرباح ريش النعام والسن وثلث ارباح الصمغ وعشور البضائع الواردة من الخارج ويصرف منه على نفقات الخليفة الخصوصية وأخصائه الاقربين .

اعمال اخرى لبيت المال

يعمل في بيت المال عدد من موظفي الحكومة السابقين حسب ما عرفوا وما مارسوا من حسابات ومسك الدفاتر . وبذا كانت حساباته دقيقة وأموال المسلمين في حرز امين . وكانت احدى مهام بيت المال صك النقود وتداولها . وما خلت البلاد من مزورين قلدوها وكذلك كانت تختم البضائع التي استوفت اموال العشر ، فدخل التهريب من ناحية والتزوير في الاختام من ناحية اخرى وما عدا ذلك بالجباية والصرف وحفظ الاموال تسير على نسق يرضي الجميع تحت رعاية يعقوب وعينه الساهرة . ولعمالات الاقاليم بيوت مالها الخاصة ترد اليها الزكاة والاتاوات الاخرى وتصرف منها على شؤون الامن والادارة .

عمال الاقاليم

قسمت البلاد تيسيرا للادارة الى عمالات يقوم على رأس كل منها عامل يهيمن على الجيش والادارة ويكون المرجع الاعلى لكل الشؤون المحلية ، وطريق اتصال بين الاهالي والخليفة . فالاوامر والمنشورات ترد

اليه من العاصمة لتنفيذها والامناء يهبطون عليه بامر الخليفه للتحقيق في المسائل الكبرى وحل ما ينشأ من مشاكل وأزمات . والعمالات الكبرى هي دنقلا وبربر والغرب وكسلا وما بقي من السودان الاوسط كان تحت قابة الخليفة او بالاحرى يعقوب . ولكل عامل عدد من المندوبين يساعدونه في اعماله الادارية . وفي الحدود أمراء يتركز عملهم في حماية ما يسمى بالبوغازات فحامية في صواردة في اقصى الشمال وحامية في القلابات والقضارف وكل امير يرابط في بوغاز يخضع للعامل الذي يليه .

الجيش

تركز الجيش كله تحت امرة يعقوب والعنصر المنظم والذي بيده الاسلحة النارية هم الملازمية منهم الجهادية السود ومنهم اولاد العرب وهم بمثابة الحرس الخاص للخليفة وقائدهم شيخ الدين ابن الخليفة الاكبر . وكانوا يتدربون على الفنون الحربية كما كانت عليه في عهد التركية الا انهم غيروا الالفاظ بغيرها فمثلا كلمة صغدن الى بيمينك وصلدن الى بشمالك وحازدور الى الهم انصر رواح دور الى الهم استر وبرنجي وكنجي الى الاول الثاني ، وظلوا يتدربون على هذا المنوال ، وكلما دخل مجندون جدد خضعوا للنظام والتدريبات الجديدة وهذه الفرق من الملازمية هي التي تسكن داخل السور الكبير في ام درمان . وتكونت من بقايا الترسانة القديمة في الخرطوم ورشة للاسلحة وتصليحها يقوم عليها مهندسون واسطوات من العهد التركي وورثت المهدية ثمان بواخر نيلية هي بوردين والصافية والاسماعيلية والفاشر ومحمد علي والمسلمية والتوفيقية والطاهرة (وكان اسمها الزبير) .

مدينة ام درمان

تحولت ام درمان من معسكر الى مدينة عظيمة ومن خيام وعشش الى بيوت من الطين . وكان المهدي في حياته اقام زريبة كبيرة لتكــون مسجدا جامعا فبنــاه الخليفة بالطوب الاحمر وهــو باق بحالــه الى الآن ولاستحالة سقفه بنيت المظلات في داخله لتقي المصلين حر الهاجرة . وكان على عظيم اتساعه يضيق بالمصلين اذ يتحتم على الانصار حضور الصلوات الخمس في المسجد الجامع ولا مسجد سواه في المدينة . والخليفة نفسه يؤم المصلين في كل الاوقات . واقيمت قبة فخمة على قبر المهدي تفنن في بنائها البناءون واستخدموا فيها من الحديد ومواد البناء الاخرى ما استحضروه من انقاض الخرطوم واقيم حولها سور منيع من الحجارة . وفي يوم وضع الاساس لها مشى الخليفة راجلا ووراءه حشد من الانصار الى شاطــىء النيل والتقط حجرا مما احضرته المراكب خصيصا للبناء ووضعه على كتفه واقتدى به الانصار فحملت كل احجار البناء على اكتاف الانصار اظهارا لعظمة من يثوي في القبر . وقدر سلاطين سكان ام درمان بما يزيد على الاربعمائة الف نسمة في غير المواسم والاعياد وهذا يبلغ اربعة اضعاف سكانها الحاليين تقريبا . وما كادت للسودان خبرة وتقاليد بمثل هذه المدن العظيمة . فالبيوت على غير نظام وحالة الصحة العامة في غاية السوء ، الشوارع ضيقة ما عدا شارع العرضة ، وهذا ما جعل منها احيانا مباءة للامراض والاوبئة .

سياسة الخليفة الخارجية وحروبه

انذار اهل مصر

اتخذ الخليفة منذ البدء سياسة الفتح ونشر الدعوة استمرارا لخطة المهدي ومصر هي الهدف الاول كما كان ينوي المهدي . وقبل ان يسير عليهم الجيش يجب ان ينذرهم . فوجه منشورا الى « أحبابه في الله اهالي الريف والجهات البحرية كافة » يدعوكم الى التسليم للمهدية والائتمار بأوامرها قائلا لهم « واعلموا انه ما حملني على نصحكم ولا دعاني الى بسط العنان في عظتكم الا مزيد الشفقة عليكم والخوف من ان لا تنجح فيكم المواعظ غرورا بالاماني الكاذبة ، وركونا الى راحة الدنيا الفانية الذاهبة ، فتدور عليكم الدوائر كما دارت على من قبلكم في بلاد السودان ، لما اعرضوا عن قبول الحق وجنحوا الى اتباع اقوال علماء السوء ، الذين اضلهم الله على علم واغتروا بأكاذيب حكامهم ، وكثرة عدد جنودهم وعددهم العارية عن معونة الله تعالى . فختم الله على سمعهم وقلبهم وجعل على بصرهم غشاوة وحاق بهم مكرهم هلكوا وحرقت النار اجسامهم وخسروا الدارين والعياذ بالله ولكم فيهم عبر وعندكم من امرهم خبر والسعيد من اتعظ بغيره ونظر في صلاح عاقبته وكشف ضميره » .

انذار توفيق

وكان عليه ايضا ان ينذر توفيقا خديوي مصر بخطاب طويل يقول

فيه « وكيف يليق بمن يؤمن بالله واليوم الآخر حب العلو في الدنيا بعد العلم بقول الله تعالى : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » واعلم ان ما عودناك اليه هو الدين الحق القويم والمنهاج الواضح المستقيم فلا تعرض عنه الى نزعات الباطل فان الحق جدير بالاتباع والباطل حري بالتلاشي والضياع . ولو كـان قصدي من هذا الامر ملك الدنيا الزائل وعزها الفاني الذي ما تحته طائل لكان في السودان وملحقاتها كفاية كما تعلم من اتساعها وتنوع ثمراتها . ولكن ما القصد كما يعلم الله الا احياء السنة المحمدية والطريقة النبوية بين اظهر عامة البرية . ولو نظرت بعين البصيرة والانصاف وتركت التعامي عن الحق والاعتساف لأذعنت لي بذلك وسلكت باتباعي احسن المسالك وتيقنت انك الآن بمعزل عن الهداية حيث اتخذت الكافرين أولياء من دون المؤمنين اهل العناية وركنت الى مؤاخاتهم والانخراط في سلكهم حتى كأنك تريد بهم اطفاء نور الله ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره اعداؤه » .

انذار الملكة فكتوريا

وكتب الى الملكة فكتوريا بقوله « ولما كان المهدي المنتظر عليه السلام هو خليفة نبينا محمد الذي اظهره الله لدعوة الناس كافة الى احياء ديـن الاسلام وجهاد اعدائه الكفرة اللئام ، وانا خليفته القافي اثره في ذلك فاني ادعوك الى الاسلام فان اسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واتبعت المهدي عليه السلام وأذعنت لحكمي ، فاني سأقبلك وأبشرك بالخير والنجاة من عذاب السعير وان كنت تظنين توهما ان جيوش المهدية القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر احمد باشا عرابي الذين ادخلت الغش عليهم بالدنيا حتى افتتنوا بها عن دينهم وتخاذلوا عن نصرته ومكنوك من الاستحصال على البر المصري ، وصاروا أذلة اسرى لا يستطيعـون

المدافعة عن انفسهم ، فهذا توهم فاسد وغرور كاسد . فان رجال المهدية رجال الهيون طبعهم الله على حب الموت ، وجعله أشهى لهم من الماء البارد للظمآن . فلذا صاروا أشداء على الكفاز كأصحاب رسول الله الأبرار لا تأخذهم في الله لومة لائم » .

خطاب للسلطان عبد الحميد

ومن خطاب للسلطان « ومع كونك تدعي انك سلطان الاسلام القائم بتأييد سنة خير الانام فمالك معرضا عن اجابة داعي الله الى هذا الآن ومقرا رعيتك على محاربة حزب الله المؤمنين مع اهل الكفر والعدوان . فهل أمنت مكر الله ام كذبت وعد الله حتى صرفت مجهودك في اعانة اهل الاصنام على هدم اركان الاسلام » .

وخاطب ايضا قبائل نجد والحجاز وملك الحبشة والاستاذ محمد السنوسي وسلطان وداي . وبهذا فرغ من الانذارات وعليه الآن ان يوجه الجيوش للغزوات .

التفكير في غزوة مصر

تقدم ان حملة الانقاذ وهي ترتد شمالا قد سير محمد الخير مقدمة جيوشه في ذيلها ، فالتقت تلك المقدمة وعلى رأسها عبد الماجد ابن اخيه في جنس بالجنود الانجليزية . وكان هذا اتباعا لسياسة الحكومة الانجليزية للدفاع عن مصر فانتصر الجيش الانجليزي وترك الانصار عددا من الشهداء في المعركة . وانسحب الانجليز الى حلفا لتكون نقطة الحدود . وما ان ترامت اخبار المعركة الى الخليفة حتى قرر سياسته في الغزوات فجعل راية الخليفة شريف للشمال لفتح مصر ، وراية الخليفة علي للشرق .

وبدأت مقدمة الخليفة شريف تغادر ام درمـــان تحت امرة ود النجومي ، وتهيأ هو نفسه للرحيل عن ام درمان شمالا ببقية الرايات . الا ان تراجع الانجليز الى الشمال وبداية مناوأة الاشراف حدت بالخليفة ان يغير موقفه نحو الرايات الاخرى فضمها كلها الى يعقوب ووحد رئاسة الجيش وصرف النظر عن قيام الخليفة شريف بنفسه . ولكن راية النجومي تواصل سيرها وتتجمع في دنقلا استعدادا لغزوة مصر .

حوادث الجبال

ولنرجع الآن الى الغرب فانه كان مليئا بالفتن الداخلية المحلية . فقد اخل بالامن واستهان بسلطة المهدية اهل جبال النوبة اولا قبل فتح الخرطوم وكان امر المهدي قد صدر للأمير حمدان ابي عنجة وجهاديته بتأديب العصاة وارجاعهم الى الطاعة والاذعان فتوغل في الجبال ، ولاحقهم في كهوفهـم ومعتصماتهم في قممها ، وأذعن له الجبل تلو الآخر . وكانت اشارة الخليفة بعد وفاة المهدي تقضي بمتابعة جهادية الابيض الذين ناهضوا المهدية ولجأوا الى الجبال الغربية لتعصمهم من الانصار . وكان السيد محمود عبد القادر والي الغرب بعد رحيل المهدي من الابيض في ام درمان فأتى على جناح السرعة لا ليرد الجادية الآبقين ولكن ليحمل نساءه واولاده الى العاصمة معتزلا الخدمة كأمر الخليفة . غير ان السيد محمود رأى حين وصوله الابيض ان يذهب بما تجمع حوله من انصار ليصفي حساباته مع جهاديته الذيـن شقوا عصا الطاعة . فاستشهد في ميدان المعركة وظلوا بعده يرفعون الراية المصرية ويرجعون الى ولائهم لأفندينا لانهم كانوا من جنود الحكومة قبلا .

تجريد السيد محمد خالد زقل

صدرت اشارة الى ابي عنجة بتأجيل القضاء على اولئك العصاة ريثما

يعترض السيد محمد خالد وهو في طريقه من دارفور الى ام درمان بجيوشه وأمواله ، والسيد محمد خالد كان وكيلا لمديرية داره مع سلاطين ، وعندما تفاقم امر المهدية وانعزلت حاميات دارفور ذهب لمقابلة المهدي في الابيض بأتفاق مع سلاطين قبل موقعة هكس ، وكان سلاطين يرمي من وراء ذلك ان يتصل زقل بهكس فيما لو انتصر ، وان يسلم للمهدي فيما لو كان النصر حليف الانصار . ولكن السيد محمد خالد بايع المهدي قبل هكس ، وآمن به وذهب عاملا على دارفورد بعد ابادة الحملة ، وظل يمارس عمله كعامل الى ان تسلم الخليفة مقاليد الامور . فكاتبه ان يشخص الى ام درمان لتجديد البيعة وزيارة قبر سيد الجميع (المهدي) ولكن السيد محمد خالد ابطأ او تباطأ . وكاتبه ثانيا لحضور عيد الاضحى فلم يرحل ايضا . واخيرا ازاء هذا الالحاح لم يسعه الا الرضوخ للأمر . ففصل عن الفاشر بجيوشه يقصد ام درمان . وكان ان أحس الخليفة بمنافسة الاشراف ، وكان ان جردهم من الاسلحة ليأمن شرهم ، وكانت راية السيد محمد خالد من اقوى فرق الخليفة شريف ، فليعزل قائدها قبل ان يصل الى ام درمان . فالتقى الامير ابو عنجة بالسيد محمد خالد في باره واحتاط بجيشه وما وسعه الا النزول على ارادة الخليفة والتسليم .

وقد وجدنا من قائل بأن ما ادى الى تجريد السيد محمد خالد وتكبيله بالحديد وارساله الى ام درمان مسجونا ضبط خطاب منه الى الخليفة شريف حين وفاة المهدي ينصحه فيه الا يتنازل عن اسلحته وقوته وانه (السيد محمد خالد) رهن اشارته ، فان اراده ان يزحف بقواته الى مصر فعل . وقيل ان هذا الخطاب كتب عنوانه الخليفة عبدالله بنوع الغلط ولكنها رواية تفتقر الى تأييد قبل الاطمئنان اليها .

ابو عنجة في الجبال مرة اخرى

قفل ابو عنجة راجعا الى الجبال في اثر الجهادية العاصين ففروا من جبال

النمسا الى الجنوب فظل يطاردهم من سهل لنجد ومن واد لجبل حتى صمدوا له اخيرا فأوقع بهم موقعة انفرط عقدهم بعدها . وتبع شراذمهم يبيدهـــا الواحدة تلو الاخرى حتى قضى عليهم وفصل رؤوس زعمائهم ، وارسلها لأم درمان لتعلق في السوق اياما .

مقابلة ابي عنجة بأم درمان

استدعت الحالة ابا عنجة لحماية الحدود الشرقية فسار بجيوشه المظفرة الى ام درمان . فوجد من الخليفة استقبالا رائعا يليق بمن دوخ الجبال ورد العصاة ولنتركه الآن يغادر ام درمان الى القلابات ليقاتل الاحباش ويحرز انتصارات باهرة ولنسير مع عجلة الزمن في الغرب نسجل حوادث الفتن والثورات وكيف اخمدت .

مقتل مادبو

اول من رفع راية المهدية في دارفور هو مادبو زعيم الرزيقات وناوش ونازل الحاميات الحكومية حتى اقلق راحتها . وعندما تسلم المديرية السيد محمد خالد رجع مادبو الى باديته وداره في جهات جنوب دارفور . وكان الخليفة يزيد تقوية جيوش المهدية وهي تزحف للخرطوم فاستدعى مادبو فيمن استدعى من الرءوس والزعماء . فما لبى النداء وكرر الامر ثانيـــة وثالثة بعد وفاة المهدي فتعلل واعتذر مرة اخرى وأخيرا جاهر بعصيانه للأمر . فما كان من رئيس الدولة والحالة هذه الا ان يهدر دمه ويأمر عامله في شكا محمد كرقساوي بمحاربته ، واخلى كرم الله بر الغزال وتحرك الى شكا ايضا وبمعاونتهما طرداه من داره وفي الشمال قبض عليه الامير يوسف بن السلطان ابراهيم عامل دارفور الذي تركه السيد محمد خالد وأرســـل

مخفورا الى ام درمان . ولكنه لم يصل اليها حيث قتله ابو عنجة في الابيض تتيجة لضغائن بينهما قبل المهدية وبعث برأسه لأم درمان ليعلق ايضا . وقتل الشيخ صالح كبير مشايخ الكبابيش ايضا لاتصاله بالحكومة اولا وطلب معونتهم الحربية بالسلاح والذخيرة ولعدم اذعانه لامر الخليفة للحضور الى ام درمان ثانيا .

مقتل الامير يوسف

وظن الامير يوسف في دارفور ان الفرصة مؤاتية لاستقلاله وتربعه على عرش آبائه واجداده . فطلب من كرم الله الخروج من داره وكاتب الخليفة بذلك . وكانت ردود الخليفة تضرب على نغمة الوفاق واجتماع الكلمة وانهم اخوان في الدين ثم ترامى الى سمع الخليفة اباحته الخمر والمنكرات في الفاشر . فكتب الى الامير يوسف للحضور الى ام درمان لتجديد البيعة كما فعل غيره من الامراء . وظنها يوسف مكيدة لسجنه واقصائه عن عرش آبائه ، فلم يرضخ للأمر ، وكان للخليفة ان يخضعه فولى عامله على كردفان الامير عثمان آدم امر محاربة يوسف . فتحرك الامير من الابيض وضم اليه قوات الانصار هناك ودخلت الانصار الفاشر مظفرة بعد ان قتلت يوسف وفرقت جموعه .

ابو الخيرات وابو جميزه

وما انطفأت نار الا وشبت في جهة اخرى تحت رئاسة زعيم جديد . فالفور امروا ابا الخيرات سلطانا عليهم مكان يوسف المقتول . ونادى في درتامة الفكي ابو جميزة بالعصيان . واجتمعت عليه قبائل غربي دارفور احتجاجا على انسداد طريق الحج في وجوههم وانضم اليه ابو الخيرات عن

تبعه : وادعى ابو جميزة انه يتبع طريق المهدي وانه يحتل منصب عثمان الشاغر وانه سوف يفتح طريق الحج الذي اوصده الخليفة . وتبودلت الخطابات دون جدوى . وكان على عثمان آدم ان يطفيء هذه النار ايضا وأرسل فرقة لملاقاته فارتدت منهزمة للفاشر . وتفاقم امر الثوار وأرسلت النجدات تباعا للفاشر وزحف الثوار الى العاصمة الدارفورية ولكن زعيمهم ابو جميزة مات بالجدري . وحمل لواء الثورة اخوه اساغة وواصل زحفه في جموع سدت الافق حين لاقاهم الانصار وكانت موقعة عظمى انجلت عن ظفر المهدية على الثوار وكانت في فبراير سنة ١٨٨٩ .

عثمان آدم يتوغل في الغرب ووفاته

وحانت الفرصة الآن لعثمان آدم ان يفتح اوكار الفتن وملجأ الثورات في ودّاي ، فمنذ هزيمته للامير يوسف فر بعض اتباعه الى ودّاي . وعندما ثار ابو جميزة تبعه رهط من سكان وادي . وسلطان البلاد محمد يوسف نفسه يراوغ ويظهر الطاعة والولاء في خطاباته وانه يؤمن بالمهدية ولا يأوي اعداءها ولكنه لم يفعل . فقاد عامل الغرب انصاره لفتح البلاد وضمها الى دولة المهدية . وما ان وصل دار المساليت حتى انتشر وباء فتاك قضى على كثرة من جنده فقفل راجعا يحمل هو نفسه جراثيم المرض ، وامتلكه حين دخل الفاشر حيث كان محمولا على عنقريب ومات بعدها بقليل . وفقد الخليفة بموته دعامة قوية من دولته ، وخلفه في العمالة وقيادة الجيوش بن عم الخليفة محمود ود احمد الشاب .

ابو عنجة في الشرق

تركنا في الشرق الامير ابا عنجة يسير بجيوشه للقلابات وكانت قبله حاميتها تناوش الاحباش تحت قيادة محمد ود أرباب . وقتل القائد في احدى

المواقع وخلفه الامير يونس الدكيم . وكانت اولى اعماله انه قبض على التجار الاحباش الذين يترددون على القلابات وارسلهم الى امْ درمان وبعث بخطاب الخليفة الذي كان يحمله معه للملك يوحنا مذكرا اياه بخطاب المهدي قبل ذلك ، وفي الخطابين تبشير بالدعوة للاسلام وانذار من المخالفة . واستجابة يوحنا كانت الصمت وعدم الرد والاستعداد بجيش عرمرم يجلي فيه المهدية عن منطقة القلابات ، واحس يونس هذا الاستعداد بواسطة جواسيسه ونقله للخليفة ، وكان نتيجة ذلك استدعاء الخليفة لحمدان ، وكان ابعاثة لمعالجة الموقف في الشرق . لم يرق ليونس العمل تحت امرة ابي عنجة فغادر القلابات الى ام درمان بأمر الخليفة ليعيَّن عاملا لدنقلا حينما يغادرها النجومي شمالا لغزو مصر .

حرب ابي عنجة مع الاحباش

حمل ابو عنجة معه خطابا ليوحنا منذرا ، ولما لم يتلق ردا خرج بجموعه متوغلا في اراضي التَّقش ، ولنقتطف ما يأتي من خطاب الامير حمدان الى الخليفة يشرح له عملياته الحربية « ولما تم لنا في المسير تسعة ايام وصلنا دمبيا محل الكافر عدو الله التَّقش عدّار . فالتقتنا طلائعه الفرسان في اول البلاد فهزمناهم وقتلنا منهم واستطردنا السير بقية يومنا الى الاصفرار ، فنزلنا قريبا من ديم اعداء الله ولما طلع الفجر العاشر من خروجنا من القلابات توضأنا على حالتنا المعهودة ورتبنا حزب الرحمن من الاسلحة والخيول بحسب ما يسره الله لنا من علمه ، وقمنا بعد صلاة الصبح على بركة الله تعالى قاصدين ملاقاة حزب الشيطان وعلينا من الله السكينة والوقار لا تؤمل الا لقاء الله ونصرة الدين . ولما تراءينا مع اعداء الله الكفرة اذا هم من كثرتهم لا اول لهم يعرف ولا آخر يوصف . فأبتدرونا ضربا بمدافعهم الاربعة بمسافة لا يصلها الرمنتون لزعمهم اننا نقف مكاننا ونناوشهم مناوشة.

وما زالوا كذلك ونحن زاحفون عليهم حتى ١٦ قنبلة ثم شرعوا بضرب السلاح . هذا كله والاخوان زاحفون عليهم يسبق بعضهم بعضا اقداما بلا إحجام طمعا فيما ينالونه من نفحات العزيز العلام . ولم نأذن لهم بالضرب الى ان حققنا بان افواه السلاح امتلأت من اعداء الله . فعند ذلك شرعنا في ضربهم بغاية الحزم وشدة العزم ، مع الزحف عليهم . فما كانت لهم ساعة الا وقد زلزل الله اقدامهم والحق الرعب في قلوبهم وانكشفوا عن وجوهنا مسرعين . وبعد انكشاف الاعداء اقتفينا اثرهم طعنا وضربا وأسراً حتى اضطر الذين أمامنا الى ان رموا بانفسهم في النهر المذكور . هذا ولما خلت الدار من الكفّار وأتننت رائحة الديم من جيف اعداء الله وبرمم بهائمهم انتقلنا على بركة الله تعالى طالبين قندر (غندار) ام مدائنهم يوم السبت في ٧ جمادي الاولى ، وقبل وصولنا اليها قابلنا أهل الديار المذكورة أعلاه راغبين الامان ورافعين الرايات البيض ، وقد ابدى البعض الاغصان الخضراء ثم لما قربنا اليها قابلنا جميع كبرائها من مسلمي الجبرته بالطاعة والاذعان طالبين الامان فأمّناهم ... فدخلنا يوم الاثنين وجلنا فيها يميناً وشمالاً فاعجبنا ما شاهدناه من القصور الشامخات واحرقنا فيها ٤٥ كنيسة ما عدا الكنائس التي أحرقناها بالديار المذكورة عند مرورنا بها وهي تزيد على ٢٠٠ كنيسة » .

سعي النجاشي

هذا هو التقرير الذي يصف اعمال حمدان الحربية في الحبشة حتى غندار ورجع بعد ذلك الى مقر قيادته بالقلابات يحمل أكاليل النصر والظفر، وخرج مرة ثانية بعد اربعة اشهر ولما لم يتعرض له عدو عاد ادراجه . وكان على يوحنا آنذاك ان يرد خطر التليان وهم قد ثبّتوا أقدامهم في مصوع . فليتفرغ للعدو الابيض ويعقد صلحا مع جيرانه الافريقيين ويخاطب حمدان

بقوله « والآن فاذا انا حضرت الى بلادكم واهلكت المساكين ثم جئتم انتم واهلكتم المساكين فما الفائدة في دلك .. والواقع ان الافرنج اعداء لنا ولكم فاذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكـم بل اخربـوا دياركـم ، واذا ضربوكم وكسروكم فعلوا بنا كذلك . فالرأي الصواب ان تتفق عليهم ونحاربهـم ونغلبهم . ويتردد التجار من اهل بلادنا بالمتاجر الى بلادكم وكذلك تجـار بلادكم تتردد الى غندر لاجل المعايش والمكاسب لاهلكم ولاهلنا . فاذا صار كذلك فهو غاية المنفعة لنا ولكم لانكم انتم ونحن في الاصول السابقة اولاد جد واحد . فاذا قاتلنا بعضنا بعضا فماذا نستفيد فالافضل والاصوب لنـا ولكم ان نكون نابتين في المحبة جسدا واحدا ، وشخصا واحدا متفقـين بعضنا مع بعض ومتشاورين بالشورة الواحدة ضد اولئك الذين يحضرون من بلاد الافرنج والترك وغيرهم الذين يريدون ان يحكموا بلادكم وبلادنا مزعجين لكم ولنا ، اولئك اعداؤكم واعداؤنا نحاربهـم ونهينهم ونحرس حدود بلادنا وممالكنا منهم » وبسط يوحنا بهذا سياسة افريقيا للافريقيين ونادى بحلف افريقي من الدولتين المستقلتين استقلالا كاملا في افريقيا لمناوأة الفرنجة . ولكن لا مصالحة او مهادنة في نظر حمدان الا اذا اعتنق يوحنـا الاسلام وحينئذ يظل الكل اخوانا متعاونين مناهضين لاعداء الدين فالمهدية لا ترمي الا الى الجامعة الاسلامية .

وفاة حمدان

وكان هذا الشرط في رأي يوحنا معناه رفض المحالفة ، فحشد جيوشه ليقودها بنفسه على حصون الانصار في القلابات . واثناء ذلك توفي الامير حمدان وبكاه جنوده وفقد الخليفة دعامة ثانية قوية من اركان دولته ، ورثاه محمد المجذوب ابن الشيخ الطاهر بقصيدة منها :

حمدان إنـك طالما سمت العـدى ... ذلا وذكرك في المحافـل يرفـع

ما وُجهت رايــات نصرك وجهه	إلا وبالظفــر المؤكــد ترجــع
فلــك الهنا بلقــاء ربك شاهرا	سيــف الجهــاد وكل قرم تقمع
فسحائب الرضوان تغشى تربــة	ضمتك مــا نجـم يغيب ويطلــع

الزاكي يخلف ابي عنجة

وتسلّم القيادة الزاكي طمل بعد ان نازعه فيها احمد علي غير ان الخليفة بعث بأمنائه لتثبيت الزاكي . فاتم ما بدأه حمدان من استعداد وتحصين ، واقتربت الجموع الحبشية يقودها امبراطورها من القلابات بعدد يفوق حامية الانصار اضعافا . ونشبت معركة من اشد ما لاقى الانصار ولكنهم تذرعوا بالصبر والثبات حتى جرح يوحنا جرحا مميتــا ادى الى اشاعة الفوضى في معسكرهم وانفرط عقد نظام الجيوش الحبشية وارتدت من القلابات ووراءها الانصار يقتلون ويأسرون واستولوا على غنائم واسلاب لا تحصى من نساء وعبيد وخيول واسلحة وتاج الامبراطور نفسه . وكان لهذا النصر العظيم رنة فرح في أم درمان ارتفعت معه روح المهدية الى قمتها .

النجومي في دنقلا

هدأت مناوشات الحدود الشرقية عقب الانتصار العظيم وخمدت ثورات الغرب واتجهت انظار الخليفة نحو الشمال . وقد تركنا النجومي في دنقلا عاملا عليها في انتظار الاشارة من الخليفة بالزحف على مصر . ولم يكن الوئــام يسود رؤوس الانصار في دنقلا اذ كان النجومي ومساعده مساعد قيدوم على خلاف دائم يريد الاول التفرد بالحكم بصفته القائد الاعلى وصاحــب الحل والعقد ، ويريد مساعد الا يقطع الامير برأي دون مشورته وان يشاركه في الادارة مشاركة الند لا التابع معتزا بمكانة قومه من الدولة اذ ينتمي الى

قبائل الغرب . ويتضجر الامير من هذه الحالة ويشكو الامر الى الخليفة ثم يخف بنفسه الى العاصمة يبسط ما يضعه امامه مساعد وغيره من عراقيل . وينصرف الخليفة عن تلك الشكوى لان النجومي الامير العام وعليــه ان يتعاون مع مساعديه وينال ثقتهم واحترامهم بشخصيته . ورجع وفي النفس اشياء غير ان ايمانه بالمهدية كان عميقا فأراد الموت وفي عنقه بيعتها . وصمم على التقدم للغزو مهما كانت العراقيل .

سير النجومي من دنقلا

بعث الخليفة بأمناء الى دنقلا لبحث اسباب النزاع وحكموا بأن يرجع مساعد الى أم درمان ولكن الخليفة عين يونس الدكيم اميرا عاما لدنقلا يقيم فيها بينما يغادرها النجومي غازيا ولم يكن الخــلاف بين الامير الجديــد والنجومي باقل منه مع مساعد . وفي حالة من اليأس تحرك الامير عبد الرحمن من دنقلا في ٣ مايو سنة ١٨٨٩ مع اربعة آلاف مقاتل ومعهم سبعة آلاف من النساء والاولاد بأغذية قليلة ولا سيما وهم سيمرون على اراضي مقفرة قليلة الثمر والانتاج . وعندما سار الانصار نشطت جاسوسية ود هاوس باشا قائد حامية الحدود في حلفا متقصيا احواله وقوتــه . وامر السكــان بالضفة الغربية للنيل اخلاء القرى من انفسهم واغزيتهم وليتركوها للانصار خرابا بلقعا وينتقلون للضفة الشرقية تحت حماية جيش الحدود .

ود هاوس يعترض طريق النجومي

نقل ود هاوس باشا ما يقرب من الالفين من جنوده الى ارجين على الضفة الغربية من النيل قبالة حلفا واستخــدم بيوتها وما بها مــن طوابي استحكامات لجنده وشحنت الوابورات في عرض النهر تمد النقاط الضعيفة

عند اللزوم وتعين الجند بمدافعها ، وكان الانصار لا بد لهم من ورود الماء عند أرجين ، وكان عليهم ان ارادوا التقدم شمالا ان يردوا الماء ويرتووا قبل استئناف سيرهم او النكوص على اعقابهم متجنبين تلك العقبة . وفي مجلس عقد من الامراء تمسك الامير العام باقتحام العقبة مهما كلفه الامر مخاطبا اياهم بقوله « والله لا ارجعن الى الوراء الا محمولا على الاكتاف . فاذا عطشنا او جعنا فانما نحن في جهاد فلنتذرع بالصبر والثبات حتى نفوز بالنصر او بالشهادة » . قال ذلك وهز سيفه فوق رأسه وتابعه امراؤه في تحمسه وهزوا سيوفهم ثم تابعوه في رأيه . وكان ذلك المجلس وذلك القرار بعد ان فقدوا في معركة النزول الى الماء ما يقرب من الالف مجاهد . وصار بعض الانصار ينزل خلسة في بهيم الليل الى النيل ويرون الجيش كله وهو في الصحراء بعيدا من مرمى القنابل .

النجومي يشكو الحال الى الخليفة

وبعد الارتواء وحمل ما يكفي من ماء ضربوا في الصحراء ملتفين حول حصون ارجين وما ان تجاوزوها وحطوا الرحال على بلاّنه حتى كتب النجومي الى الخليفة بقوله : « سيدي وملاذي بعد اهداء مزيد السلام نرفع الى مكارمكم عن احوالنا واحوال الانصار الذين معنا انه قد مسّهم الضرر الشديد الذي ما عليه من مزيد واشتد بهم الحال وضاق الامر جداً فان الجوع الحالّ بهم أضناهم وأذهب قواهم فورّم اجسامهم وغير أحوالهم لانهم قبل دخول بلد العدو كان قوتهم التمر الاخضر المر ونواه وانقطع عنهم من مدة . ولطول الطريق وكثرة المشقة ضعفوا فدخلوا البلد على حالة ضعيفة ولشدة الضرر جلسوا جميعهم على الارض وكثيرون منهم ماتوا جوعا. واما ضعفاء اليقين منهم فلعدم صبرهم على البأساء والضراء رغبوا في الأعداء، والجهادية والعبيد والخدم لحقوا ايضاً بالاعداء وارتدوا عن الدين ، ولم يبق

منهم الا النادر ، ثم ان الجهادية الذين ارسلوا معنا طوبجية للمدافع من طرف سيدي يونس كانوا خمسة وثلاثين الجميع رغبوا في الفكرة وهربوا اليهم ولم يبق معنا منهم الا ثلاثة .

ولولا لطف الله بنا وجميل نظركم لما قدرنا على الوصول الى بلاجة ، والحاصل ان الانصار تعبوا وضاق بهم الحال وعظم الخطب . وطالما صبروا على ذلك لانهم من عهد ما صرفوا بدنقلة لم يجدوا صرفاً اصلاً ... اما اهل الريف من معتوقة الى بلاجة التي وصلنا اليها فكلهم قاموا في عون الكفرة وحزبوهم كل التحزب ومن عهد دخولنا ديارهم الى الآن لم يأتنا منهم وارد ولا معرج ولا راغب في الدين ولا من يريد تجارة ، بل الجميع حملوا الاسلحة النارية وحاربونا أشد المحاربة .

اما بوابير الكفرة فما زالت سائرة معنا بالبحر تبيت معنا حيث بتنا وتقيل حيث قلنا وعساكرهم ماشية بالشرق في خيل وجمال لمنع الانصار ماء البحر . ولم يكن شرب الماء الا بقتال ومضاربة واستشهاد وجراحات . وجزى الله الانصار خيراً وبارك فيهم . فانهم ما زالوا مطمئنين على حالهم . وثابتين على محاربة عدوهم لا ينتظرون الا النصر والظفر بالاعداء او الفوز بالشهادة » .

معركة توشكي

وكان ان حشد جرانفيل باشا سردار الجيش المصري الجند في أصوان وانتقل بنفسه الى معسكر ود هوس وجرت مخاطبات بينه وبين الامير عبد الرحمن طلب فيها اليه التسليم واتقاء الموت والاسر . ورد النجومي بأنه قاصد في طريقه يجاهد في سبيل الله حتى ينصره او يفوز بالشهادة . وكانت موقعة توشكي في ٣ اغسطس سنة ١٨٨٩ ، اذ تمت هزيمة الانصار وما كان لهم ان يحوزوا نصرا وهم بالحالة التي وصفهم بها اميرهم من جوع وتعب ونقص

في الذخيرة ، ولكنهم لا يرضون الا النصر او الفوز بالشهادة وقد فازوا بالثانية . وكانت بداية النهاية لأمر المهدية حيث بدأ الجيش المصري بعدها اتخاذ خطة الهجوم لا الدفاع الى ان تحركت حملة كتشنر في سنة ١٨٩٦ .

السياسة الانجليزية نحو السودان

في عهد الخليفة عبدالله

سياسة انجلترا في مصر والسودان
ما بين ١٨٨٢ و ١٨٨٥ م

عرفنا فيما مضى من فصول ان مصلحة انجلترا عند احتلالها لمصر سنة ١٨٨٢ وقيام الثورة المهدية في السودان قضت عليها بعدم التدخل في مسألة الاصلاحات في الادارة المصرية حتى يكون طريقها لامبراطوريتها عبر قنال السودان نفسها كان لاعادة الهدوء والاستقرار في البلاد وإدخال بعض الاصلاحات في الادارة المصرية حتى يكون طريقهـا لامبراطوريتها عبر قنال السويس في مأمن من الهزات ولأنها ما كانت ترمي لاكثر من هذا طالبت فرنسا بتنفيذ الاتفاق السابق بينهما بالتدخل عندما تصل الامور في مصر حداً يستدعي ذلك وعندما عزفت فرنسا عن المعاونة طلبت من ايطاليا الاشتراك في الحلة على مصر وهذه رفضت ايضاً . والسؤال الذي لا بد ان نجيب عليه هو كيف نفسر هذا العزوف آنذاك مع علمنا انها في سنة ١٨٩٢ جاهرت بالاحتلال الدائم لمصر وفي سنة ١٨٩٦ وجهت حملة كتشنر لاستعـادة السودان ؟. الموقف في الحالتين هو مصلحة انجلترا . ففي الحالة الاولى كانت انجلترا اكبر دولة صناعية تجد منتجاتها سوقا رائجة في كل أرجاء العالم والمواد

الخام العالمية تحت تصرفها ولها من المستعمرات ما يكفيها بل اكثر من ذلك وأسطولها لا زال سيد البحار لحماية تلك المستعمرات وحماية اسطولها التجاري حاملا ما تصدره من منتجات مصانعها وما توورده من مواد خام ، ولم يصل الانتاج الصناعي للدول الاوروبية الاخرى الدرجة التي يستطيع فيها منافستها وبالتالي لم تبـدأ تلك الحمى الاستعمارية التي ظهرت واضحة جلية في التسعينيات من القرن الماضي . وفوق هذا فان مصر كانت على وشك الافلاس نتيجة سياسة اسماعيل الاقتصادية الخرقاء . فمهمتها آنذاك تركزت — والحالة هذه كما وصفنا — في الاصلاحات المالية والادارية فقط . والسودان فرع للمسألة المصرية فلا غرابة اذا ما أصرت على إخلائه حتى لا يسبب انهياراً مالياً واستنزافا للخزينة المصرية اكثر مما أصابها .

محاولة للتعايش السلمي مع الخليفة

عندما خضعت السياسة الانجليزية للأمر الواقع في السودان وركزت جهودها في حماية الاراضي المصرية من تقدم المهدية نحوها رأت ان تفتح طريق التجارة مع السودان لكل السلع ما عدا الاسلحة والذخيرة واثناء المناقشة في مصر في هذا الصدد برزت مسألة الجمارك التي تجبى على البضائع الواردة على السودان وقر الرأي على ألا تجبى ضرائب جمركية عن واردات السودان لمصر اكثر مما يجبى عادة في موانيء مصر عن البضائع الصادرة من مصر نفسها ، وتركز هذا الرأي على ان السودان ولو أنه عملياً انفصل عن الامبراطورية العثمانية فانه قانونياً لا زال جزءاً منها ريثما يتم استرجاعه ، وعندما كان كتشنر حاكما لسواكن اقترح تقييد التجارة مع السودان للحفاظ على ولاء القبائل التي لا زالت تأمل في رجوع الراية المصرية ، عارضه السير افلن بيرنج ووافقته حكومته على حرية التجارة وظلت التجارة مفتوحة بين القطرين ما عدا بعض الفترات التي يأمر بإيقافها الخليفة او الحكومة المصرية لمستلزمات الأمن . وظهرت محاولات من شركة انجليزية تستهدف احتكار

التجارة في جهة سواكن وامتداد نفوذها للداخل غير ان احتجاجات السلطان العثماني والحكومة المصرية ومعارضة بيرنج وكتشنر لهذا الاقتراح أوقف الشركة المذكورة حتى ان السلطان نادى بضم سواكن لتركيا بدلا من تركها لشركة انجليزية تمهد لنفوذ انجليزي مثلما فعلت الشركة الانجليزية قبلها في الهند . غير ان الحكومة الانجليزية ردت بأنه لا أساس من الصحة للتنازل عن سواكن لشركة انجليزية وأن تركيا أضعف من ان تقاوم نشاط عثمان دقنه وان مسؤولية حمايتها واجب على انجلترا ومصر بالتعاون بينهما .

محاولات لرجوع نفوذ مصر

ومن جانب بعض السودانيين وصلت عرائض لمصر تطلب منها استرجاع البلاد وتخليصها من حكم الخليفة . فقد وصلت عريضة في سنة ١٨٨٦ الى مصر ممهورة من بعض وجهاء مديرية كردفان وأغلبهم من التجار . وصالح بك زعيم الكبابيش كتب لجودت بك نائب مدير دنقلا السابق يخبره بأن القبائل على استعداد للمقاومة . والصحافة البريطانية في سنة ١٨٨٨ لحث بضرورة استعادة دنقلا والسير صموئيل بيكر أيد الرأي القائل بالقيام بعمليات حربية في السودان وعند بحث هذه الآراء في مصر من قبل السلطات العسكرية الانجليزية أشارت بأن استرجاع دنقلا لا يكفي ولا بد من التقدم للخرطوم . ورد الفعل من جانب الحكومة المصرية كما كان يمثله رياض باشا رئيس الوزراء آنذاك يؤيد فكرة الاسترجاع ولكنه يدرك تماماً الصعوبات المالية والعسكرية التي تقف في سبيلها . أما بيرنج فيرى ان أية عمليات حربية حتى اذا ما استرجعت الخرطوم فانها لا بد لها ان تتوغل إما ناحية سنار او كردفان لأن حكومة الخليفة اذا ما أخلت ام درمان سوف تنقل نشاطها الى احدى الناحيتين ، والنتيجة من كل ذلك هي نقل الحدود من مكانها الحالي في سواكن وحلفا الى داخل السودان وحماية طريق مواصلاتها ويستلزم هذا

زيادة في النفقات المالية وزيادة قوة الجيش المصري وكلاهما فوق طاقة مصر المالية والحربية آنذاك . ونتيجة لتوصيات بيرنج وافقت الحكومة الانجليزية على الاكتفاء بحماية مصر في جبهتي حلفا وسواكن . ويرى بيرنج ان مشكلات الادارة في السودان حتى لو تم الاسترجاع لا حل لها إذ لا بد من رقابة بريطانية حازمة حتى لا ترجع مساوىء الحكم التركي — المصري ولم يكن عدد الضباط البريطانيين الذين يعملون في الجيش المصري بكاف للاشراف على هذه الادارة وبيرنج يرى أنهم أصلح طبقة للقيام بهذه المهمة .

بعد حملة النجوى

وعندما قامت ثورة أبو جميزة في دارفور وأصبحت خطراً على حكم الخليفة عبدالله اعتقد قلم المخابرات العسكرية في الجيش المصري انها حركة يؤيدها السنوسي في ليبيا وانها تعمل باوامر منه ، وقدم ونجت رئيس هذا القلم اقتراحاً يرمي الى تعزيز اواصر الصداقة مع السنوسي الذي رؤي ان التعاون معه في حيز الامكان وان نفوذه في السودان من صالح مصر أكثر من نفوذ الخليفة عبدالله ، ولكن سرعان ما انهار هذا الامل اذ تأكد انقطاع الصلة بين السنوسي وأبو جميزة وأخمدت ثورته . وحملة النجومي التي انتهت بالهزيمة رفعت من معنويات الجيش المصري الجديد وازالت تلك الهالة من القوة والمنعة التي كانت لجيوش المهدية . وبعدها علموا بروح التذمر والسخط التي سادت بعض الاوساط السودانية من حكم الخليفة وخاصة عند الجعليين حيث اتصل بعضهم بود هاوس باشا قائد حامية حلفا عن اتخاذ الخطوات اللازمة لانهاء حكم الخليفة ولكن الحكومة الانجليزية على رأيها ان الوقت لم يحن بعد لاسترجاع السودان .

مطامع ايطاليا في شرق السودان

ارسل بيرنج برسالة هامة الى حكومته في ١٥ ديسمبر ١٨٨٩ كشفت عن مطامع توسعية في شرق السودان وخاصة في منطقة كسلا . وعالج بيرنج في هذه الرسالة الاخطار التي ربما يتعرض لها وادي النيل اذا ما احتلت دولة أوروبية أي جزء من وادي النيل . فحكومة المهدية ليس لها من الخبرة الفنية الهندسية ما تستطيع به اقامة السدود وخزانات على النيل تؤثر على المياه اللازمة لزراعة مصر ولكن أية دولة اوروبية قد تكون خطرة على مصر من هذه الناحية . ولم يقتنع سالسبري رئيس الحكومة البريطانية ووزير الخارجية بأن احتلال كسلا أو طوكر يؤثر على وادي النيل الا انه اقتنع أخيراً عندما شرح له بيرنج هذه النقطة ، فاحتلال كسلا سيقود الى توسع نحو الغرب بدعوى بسط النفوذ على كل منطقة القبائل وبحكم الاندفاع سوف يصلون الى النيل . ويرى بيرنج ان اخلاء السودان أمر يؤسف له وان من يمتلك مصر لا بد وان يضم اليه السودان يوما ما والى ان يتم ذلك يجب ان تمنع الدول الاوروبية من ان تتجه مطامعها الاقليمية نحو السودان ، وايطاليا بالذات مجالها الحبشة والسودان جزء من مصر تسترجعه في الوقت المناسب وتزول تلك الوصمة التي ما زالت عالقة بانجلترا وهي أن المصريين فقدوا السودان أثناء احتلالها لمصر وبأوامر منها .

استرجاع طوكر ١٨٩١ م

حفزت مطامع ايطاليا في منطقة كسلا بيرنج يؤيده العسكريون لاحتلال طوكر كجزء من الخطة التي ترمي لحماية وادي النيل ولم يقتنع سالسبوري في أول الامر لأنه يخاف الاشكالات التي ربما يقوده اليها العسكريون اذا ما سمح لهم بالقيام بعمليات حربية . فقد يتوغلون اكثر مما يجب لحماية مكاسبهم

ويفسرونها بأنها مستلزمات دفاعية وبذلك يفلت زمام الامور من المسؤولين السياسين ويرى في طوكر والمناطق الشرقية فرعا من المنطقة الهامة وهي وادي النيل الذي يجب البدء به في الوقت المناسب . وعندما رأى اصرار بيرنج على استرجاع طوكر اقترح سالسبري عليه محاولة مفاوضات سلمية مع الايطاليين في روما ولكنها فشلت لان الحكومة الايطالية آنذاك لم تقبل نظرية حق مصر في اراضيها السابقة وازاء هذا الموقف المتشدد من ايطاليا سمحت الحكومة البريطانية لبيرنج وللعسكريين باحتلال طوكر عندما اصروا عليها . وفي فبراير سنة ١٨٩١م تم احتلال طوكر ولكن بتضحيات في الارواح أكثر مما كانوا يتوقعون واعترف بيرنج بأنه لو كان يعلم ان قوات عثمان دقنة بهذه المنعة لما وافق على العمليات الحربية . وفي نفس الشهر الذي تم فيه احتلال طوكر سقطت وزارة Crispi نتيجة سياسة التهور والغلو في التوسع الاستعماري وهي التي كانت مشددة ضد السياسة الانجليزية في نظرية الحق القانوني لمصر في السودان .

احتلال الطليان لكسلا يوليو ١٨٩٤ م

وعندما استلمت زمام الامور في ايطاليا وزارة دي روديني (Di Rudini) اعترفت بسيادة مصر على اراضيها السابقة في السودان ووافقت بريطانيا ان تسمح لايطاليا باحتلال كسلا مؤقتا اذا رأت ضرورة حماية نفسها من الخليفة . وفي سنة ١٨٩٢ تأكد لوزارة الاحرار بزعامة روزبري Rosebery أن الموقف الدولي والسباق الاستعماري في القارة الافريقية يستلزم الاحتفاظ بمصر واحتلالها احتلالا دائما لانهم ان خرجوا منها فستعقبهم دولة اخرى عليها وبالتالي لا بد من حماية مياه النيل في السودان بابعاد الدول الاوربية من وادي النيل . وفي سنة ١٨٩٤ اقترحت ايطاليا على انجلترا التعاون معها بعمليات حربية ضد عثمان دقنه غير ان الانجليز رفضوا الاقتراح وقدموا

اقتراحا آخر يرمي باحتلال ثنائي لكسلا ينسحب التليان بعدها ويتركون حامية مصرية فأجيبوا بأن الحكومة المصرية ليست على استعداد لمغامرة حربية ، ولعل الدرس الذي لقنوه في طوكر كان السبب . وكلما فتح التليان موضوع احتلال كسلا تنفيذا لاتفاقية١٨٩١ عارضهم الانجليز وثبطوا هممهم . غير ان الحاح ايطاليا حمل الانجليز يخضعون في آخر الامر بعد ان حصلوا على تأكيدات بأن تسلم المدينة للجيش المصري عندما يحين الوقت لاسترجاع السودان ، وتم للتليان احتلال كسلا بعد ان تغلبوا على جيش المهدية في يوليو سنة ١٨٩٤ . وفي هذه السنة بعث عبد الله ود سعد مندوبا لمفاوضة كتشنر في خطة تعاونية بين الجيش المصري والجعليين لانهاء حكم الخليفة ولكن لورد كرومر (سير افلن بيرنج سابقا) رفض الاقتراح بحجة ان الخليفة لا زالت له قوة حربية كبيرة بالرغم من ان الكثيرين قد انصرفت قلوبهم عنه .

فرنسا وفشوده

نجحت انجلترا في اتفاقيات مع ايطاليا وبلجيكا والمانيا في تأمين وادي النيل من نفوذ الدول الاوروبية ما عدا فرنسا التي دأبت على مضايقة انجلترا في مصر ورأت ان تدبّر حملة عسكرية تغرس العلم الفرنسي في فشوده تستعمله سلاحا للضغط على انجلترا سياسيا لاجلائهما عن مصر . وشجعهم على ذلك تلك المحاضرة التي القاها مواطنهم مسيو برومت (Prompt) في يناير سنة ١٨٩٣ في قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة عن مسائل تتعلق بمياه النيل وضبطها ، وكان يعمل آنذاك مهندسا في الحكومة المصرية. فبعد ان عالج المسائل الفنية تطرق الى الخطر الذي سوف تتعرض له الزراعة المصرية فيما لو قامت سدود في اعالي النيل حجزت المياه عن مصر عند الحاجة اليها او تركتها تنساب وتغرق الزراعة في وقت ليسوا في حاجة لها . وفي

باريس حضر مسيو برومت هذا اجتماعا ترأسه المسيو كارنـو (Carnot) رئيس الجمهورية وكان زميلا له في المدرسة ومن المجتمعين ايضا مسيو دلكاسيه (Delcassié) المشرف على تنفيذ المشروع ومسيو موتيـل (Montell) الذي سيعهد اليه بقيادة البعثة . وتقرر ان تتجه تلك البعثة من منطقة نفوذ فرنسا في اواسط افريقيا لتغرس العلم الفرنسي في فشوده قبل بلجيكا الذي ظن ان لهم نشاطا هناك ولتستخدم هذا الاحتلال كأداة ضغط سياسي على مركز انجلترا في مصر كهدف اساسي .

بلجيكا تعترض وتتفق مع بريطانيا

وما كان لبلجيكا وهي ترنو بأبصارها نحو بحر الغزال كمجال لتوسعها الاستعماري ان تسمح لحملة فرنسية بعبورها والمفاوضات في هذا الصدد لم تنجح . واثناء ذلك قدم شالي لونج المغامر الامريكي الذي عمل حينا مع غوردون في الاستوائية اقتراحا يرمي الى خطة تشجع امبراطور الحبشة على انهاء حكم الخليفة واعلانه سلطانا على السودان تحت الحماية الفرنسية . ولكن مهما بلغت درجة الحكومة الفرنسية من العلو الاستعماري فانها لا تقبـل مشروعا جنونيا كهذا يخلق إشكالا مع ايطاليا . والانجليـز من جانبهم في يوغندة وضعوا خطة للتقدم شمالا في سباق مع البلجيك . ولتتفرغ انجلترا لمقاومة فرنسا اتفقت مع البلجيك على ان تحتل بلجيكا عن طريق الايجـار الضفة الغربية من النيل من وادلاي الى فشوده . وتجاوزت غضبة فرنسا الحدود لهذا الاجراء الذي سد طريقها لهدفها فشوده واحتجت بان لا شرعية لهذه المساومة حيث تناولت اراضي تخص تركيا ومصر.ولا سيما هذه الشرعية اكدت في فرمان تولية عباس الثاني سنة ١٨٩٢ . واحتجت المانيا ايضا لان العملية تضمنت استيلاء الانجليز لمنطقة مجاورة لنفوذها . وامرت فرنسا ان تسرع حملتها بالتقدم وشق طريقها بالقوة . غير ان هانوتو وزير الخارجية

الفرنسية اقترح على وزارة مستعمراته التأني ومحاولة الحلول السلمية حتى لا يقع تصادم بين فرنسا وانجلترا وقبلت بلجيكا التنازل عن ذلك الجزء الشمالي الذي يقع في طريق حملة فرنسا ومع ذلك رأت وزارة الخارجية الفرنسية المفاوضة السلمية مع انجلترا في كل الشؤون الافريقية المتنازع عليها . وبتلك الطريقة ضغط هانوتو على فرامل عجلة غلاة الاستعماريين حينا من الوقت .

فشل المفاوضات مع انجلترا

بدأت المفاوضات في باريس بين وزارة الخارجية الفرنسية والقائم بالاعمال الانجليزي وتوصل الفريقان على ان تقف تحركات الفريقين مؤقتا . ولكن انجلترا لم ترض ـ هذا الاتفاق المبدئي حيث وضعها في موقف واحد مع فرنسا . وعندما رجع السفير الانجليزي لباريس استأنـف المفاوضات وتمسكت انجلترا بنظرية ابتعاد الدول الاوروبية عن وادي النيل عن طريق الاحتلال الدائم . وفشلت بذلـك مساعي هانوتو السلميـة وترك لغلاة الاستعماريين حرية العمل . واستأنفت الحملة نشاطها لتسبق الانجليز على فشوده من قواعدهم في يوغندة وتأكد في التعليمات الجديدة ان الغرض من الحملة الضغط السياسي على انجلترا بتجديد نشاط الحملة وألقى سير إدوارد جراي وكيل وزارة المستعمرات البرلماني تصريحا شديد اللهجة أكد فيه أن خطة فرنسا عمل غير ودّي . وبالرغم من ان لورد كبرلي وزير الخارجيـة خففه وقع هذا التصريح عند محادثته مع السفير الفرنسي في لندن الا ان الزوبعة التي اثارها زادت من الهوة التي تفصل سياسة البلدين ولم يكن كل اعضاء الوزارة البريطانية راضين عنه . واعترفت فرنسا بان هناك حملة متجهة نحو وادي النيل ولكن وصفتها بأنها غير حربية ولا تعمل تحت إمرة الحكومة الفرنسية بل يقودها فرنسيون لحسابهم الخاص وانه لا يستبعد ان تصل هذه الحملة الى اهدافها دون علم الدولتين .

سباق بين انجلترا وفرنسا

تلكأت حملة ليونارد نوعا ما لان بها نقص في المعدات والمال اللازم وكان قائدها في مهمة أخرى في ساحل العاج وهناك ساعده مرشان وعند اتمام المهمة أعد مشروع جديد اشترك فيه مرشان أيدته الحكومة الفرنسية وعهد الى مرشان بقيادة الحملة في مراحلها الاخيرة وتمت عناصر هذه الخطة الجديدة واكتملت في فبراير سنة ١٨٩٦ . واتفقت بلجيكا مع فرنسا لتحتل منطقة اللاد وحسب اتفاقها مع انجلترا تتعاون مع مرشان لبلوغ هدفه . ولانجلترا خطتها التي تقاوم بها الزحف الفرنسي حيث دب النشاط في مشروع السكة الحديد من يوغندا لساحل المحيط الهندي وتقدم حملة انجليزية شمالا من يوغندا لتمنع فرنسا من احتلال فشوده . وفي ابريل سنة ١٨٩٥ وجّه لورد روزبري الى اللورد كرومر العديد من الاسئلة في خطاب خاص عن احتمالات التقدم نحو السودان من مصر . وأكّد كرومر في رده انزعاج المصريين من التحركات الفرنسية . وأهمية اعالي النيل لحياة مصر وضرورة احتفاظ انجلترا بمركزها في مصر . ومع ذلك فان مصر ليست على استعداد لمغامرة عسكرية تهدف استرجاع السودان .

اقتراحات جنونية لليوبولد ملك بلجيكا

واذا كان لنا ان نضرب مثلا واحدا لتلك الحمى الاستعمارية آنذاك فان ابرزها وضوحا اقتراحات ليوبولد ملك بلجيكا الجنوبية لمسألة السودان . ففي اكتوبر سنة ١٨٩٥ قام برحلة لانجلترا وتحادث مع لورد سلسبري رئيس الوزارة مقترحا ان يتنازل له الخديوي عن كل الاراضي التي تقع جنوب الخرطوم حتى بحيرة نيانزا عن طريق الايجار . ولما لم يجد استجابة مرضية رجع مرة ثانية في ديسمبر من نفس السنة للندن وفي لهجة تهديدية معتمدا

على اتفاقه مع فرنسا اقترح تسوية الخلافات بين انجلترا وفرنسا بأن تعين الاولى تاريخا محددا تجلو فيه عن مصر وان يتنازل الخديوي لليوبولد كما في اقتراحه الاول عن الاراضي الواقعة جنوب الخرطوم وفي مقابل ذلك يكون لانجلترا مطلق الحرية للتوسع في الصين وترجع لمصر في حالة انهيار الدولـة العثمانية . ودهش سالسبوري لهذه الافكار وعلّق بان الملك لا يعني مـا يقول . وفي يناير سنة ١٨٩٦ رجع للمرة الثالثة وأكّد اقتراحه الاول غير انه عدّل فيه بأنه سوف يسلم الاراضي السودانية عند ما يتم اخضاعها لانجلترا لتجند منهم كتائب تحتل بها ارمينيا . وما كان لسلسبري لفرط دهشته الا ان يحوّل المحادثة الى موضوع آخر حتى لا يلجأ الى تعليق يتهم فيه بعـدم اللياقة . وعنـد ما اطلعت الملكـة فكتوريا على المحضر علقت بأن الملك فقـد حواسـه .

موقعة عدوة ١ مارس ١٨٩٦ ونتائجها

سمحت انجلترا لايطاليا ان تحتل اقليم ارتريا وميناء مصوع كما قدمنا وسمحت لها ان تعالج علاقاتها مع الحبشة بطريقتها الخاصة فهي مجـالهـا الحيوي . وعقدت ايطاليا اواصر الود والصداقة مع الملك منيليك وأمدته بالعون الحربي في نضاله مع الامبراطور جون . وعندما مات الامبراطور في ميدان المعركة ضد الانصار قفز منيليك للعرش الامبراطوري وقدر لاصدقائه الايطاليين معروفهم ، وعقد معهم محالفة أعطتهم امتيازات اقليمية وفيها نص يتعلق بالسياسة الخارجية للحبشة . وحدث خلاف في التفسير لهذه الفقرة اذ رأى فيها التليان حماية لهم على البلاد ورآها منيليك أنها لا تعني اكثر من مساعدتهم له في شؤونه الخارجية ان طلبها وكانت فرنسا وراء هذه الفتنة بين الفريقين المتحالفين . ونقض الامبراطور الاتفاقية ودخلت الدولتان في حرب بدأت في سنة ١٨٩٥ حتى اذا ما كان اول مارس سنة ١٨٩٦ خـرج

الاحباش بنصر باهر في موقعة عدوة . واثناء الحرب انتشرت اشاعة تقول باتفاق الخليفة مع منيليك في عمليات حربية ضد التليان وعندما بلغت هذه الاشاعة درجة من الرواج انزعجت انجلترا ودارت رسائل في يناير ١٨٩٦ بين كرومر وسالسبري عن امكانية استعراضات عسكرية من ناحية مصر لتحويل انظار الخليفة عن كسلا ولدرء خطر التضامن بين القوتين الافريقيتين . ورد كرومر بان مصر لا تريد صرف اموالها في استعراضات عسكرية لمساعدة الايطاليين ولا يستطيع ان يدلي برأي الا بعد معرفة اتجاهات السياسة البريطانية نحو المسألة السودانية ، ويختم سلسبري الرسائل بأنه من الافضل التريث حتى تتبين الحكومة تطور الحوادث .

وفي اواخر فبراير تجدد الحديث مرة اخرى عن وضع الايطاليين حيث اوضح السفير الايطالي في لندن لوكيل وزير الخارجية البريطانية تمرد بعض الجنود الوطنيين في ارتريا وان حركتهم اخمدت وربما تتجدد وقد ينسحب التليان من كسلا وهو يود معرفة رأي بريطانيا ، وعندما عرضت الحالة على كرومر رأى باستشارة العسكريين في القاهرة أن اجدى خطة لمساعدة التليان تتركز في احتلال كوكريب في طريق بربر ومنطقة اخرى في خور بركة وان أي تقدم يجب ان لا يعقبه انسحاب . غير ان سالسبري بعد استشارة خبرائه العسكريين في لندن لم يوافق على الخطة لانعزال تلك المناطق وخطر حصارها مما يدعو لارسال قوات كبيرة لانقاذها والطريقة المثلى في رأيه هي التمهل والتريث لان قوة الخليفة في تدهور . ولكن هل تمهله الحوادث ؟ نادى بهذا الرأي في آخر يوم من فبراير وصبيحة اليوم التالي حدثت موقعة عدوة الشهيرة والتي كانت بداية لتطور الحوادث التي ادت لارسال حملة كتشنر لفتح السودان . وفي ٢ مارس كتب كرومر للندن يخبره انه حسب الروايات فان الانصار على ابواب كسلا وان الخليفة أوقف التجارة بين بربر وسواكن وبين بربر ومصر .

حملة كتشنر لاسترجاع السودان

ايطاليا تطلب العون

رأت ايطاليا في موقعة عدوة بداية لرجحان كفة الحبشة في تلك الحرب الدائرة بينهما ورأت انجلترا صديقة تخرجها من هذا المأزق ، وهو كرومر في ٢ مارس ١٨٩٦ نبه حكومته للخطر المحدق بايطاليا في جبهة كسلا من ناحية الانصار بعد اندحارهم في عدوة وفي ١٠ مارس ابرق السفير البريطاني لحكومته ايضا بأن كسلا قد احكم الحصار عليها وانقطعت مواصلاتها مع أسمره وللحامية اغذية وذخيرة تكفيها لثلاثة اشهر ، وفي ١٢ مارس طلبت ايطاليا عن طريق سفيرها في لندن رسميا ان يقوم الجيش المصري بمناورات واستعراضات توجه انظار الخليفة بعيدا عن كسلا حيث تحاصرها جنوده ، وكان رد سلسبري سريعا وحاسما هذه المرة حيث حمّل سفيره في روما رسالة مؤداها ان الاوامر صدرت لكرومر بأن يقوم الجيش المصري بحملة لاسترجاع دنقلا ، وهكذا رأينا الايام لم تمهل سلسبري في اتباع سياسة التأني والتمهل وكل ذلك حدث من خوف اتحاد قوتي الخليفة والنجاشي ضد النفوذ الاوروبي في القارة الافريقية .

اوامر التقدم لدنقلا

وكانت رسالة سلسبري لكرومر تتحدث عن طلب ايطاليا لعون

عسكري يقوم به الجيش المصري وان السلطات العسكرية الانجليزية رأت ان أنجع وسيلة لعون ايطاليا هو التقدم نحو دنقلا ومصر في حالة تسمح لها بالقيام بهذه العمليات الحربية ونتيجتها في صالحها حيث تكون في مأمن من خطر يأتيها من الجنوب لان تغلب دولة افريقية على اوروبية في عدوة رفع الروح المعنوية للافريقيين وفي خطاب خاص لكرومر وضّح سلسبري أن العامل الذي أثار هذه الحملة هو الرغبة في عون الطليان ولتوسيع حدود مصر في وادي النيل وبذا يمكنهم اصابة طيرين بحجر واحد . تجري كل هـذه الاحداث والاتصالات وتؤدي في النهاية الى اوامر للجيش المصري بالقيام بعمليات حربية دون ان يعلم الخديوي وحكومته بالامر . ومع ذلك حينما نقل الخبر للحكومة الفرنسية عن طريق السفير البريطاني في باريس جعلوه طلبا من الحكومة المصرية وليس من الحكومة الايطالية كما هو في الواقع ، كل هذا لئلا يجعلوا لفرنسا سبيلا للاعتراض . واخيرا وبعـد ان صدرت الاوامر بالتقدم علمت الحكومة المصرية بالامر وعلم الخديوي وابدى غضبه لعدم استشارته ولكنه اخيرا خضع للامر الواقع . وفيما يلي سنتابع تطور حملة دنقلا بعد ان نلمّ بطرف من استمداداتها وقائدها .

تجارب حملة الانقاذ

منذ ان تم جلاء حملة الانقاذ من دنقـلا ، طفق ضبـاطها يدوّنون ملاحظاتهم وما قاسوه من شدة وتعب . فهذا خبير البحرية والملاحة يرسم خريطة مستوفاة للشلالات ، مبينا جنادلها وطولها ، وما يجب ان يتخذ من احتياطات حين عبور البواخر لها ، ورسومات ما يلائم الملاحة في البلاد من بواخر . وهذا الخبير البيطري يدوّن ما ارتكب من أغلاط حين استخدام الجمال للحملة ، ويرسم نوعا من السروج يلائم الحيوان والطقس ، يحدد ما يجب ان يحمله ويحدد ساعات السير ، وصفات الجمال المختلفة ، ومثل ذلك في

الخيل والبغال والحمير . وغيرهم انكبوا على مقدرة الجندي في المشي راجلا ، واكثر ساعات اليوم ملاءمة لذلك وامتدت نواحي الدراسة التفصيلية للخيام والمياه وتنقيتها والاغذية وحفظها واللبس ، حتى تجمعت للسردارية في مصر مجلدات من تلك التقارير ، يُعمل على هديها عندما يصدر امر تسيير حملة تستعيد السودان .

استخبارات الجيش المصري

وفي قلم الاستخبارات الحربية جلس ونجت ومعاونوه ومترجموه يستجوبون كل غاد ورائح من السودان عن الحالة اجمالا وتفصيلا، ويدونوها ويبعثون بالجواسيس سواء كانوا من التجار العائدين للسودان ، أو من بعثوا خصيصا لذلك . فهم يتوافدون على أم درمان دون انقطاع ، من الشمال وعن طريق دارفور والحبشة والبحر الاحمر ، يتغلغلون في كل نواحي الادارة والجيش ، في الترسانة وبيت الامانة ، وبيت المال ، ومجالس القضاة، وما يتناقله السمار في احاديثهم من التفاف حول راية المهدية ، او نفورهم منها . ويعاونهم في تجسسهم للحالة عدد ممن يعملون في ام درمان . وبذا تسنى للقيادة في مصر معرفة عدد الانصار ، واسلحتهم وانواعها ، وذخيرتهم وولاء القبائل واستعدادها وفوق ذلك قد تلقى الجيش الجديد اول امتحان له في ملاقاته مع الامير عبد الرحمن النجومي . وعزز الاسرى ما نقلته الاستخبارات من معلومات . واخيرا اصبحت حالة المهدية من جميع نواحيها مكشوفة بعد فرار أوهر الدرو سلاطين .

كتشنر قائد الحملة

صدرت الادارة السنية من الجناب العالي بتسيير الحملة وطلبت الحكومة المصرية نصف مليون من الجنيهات من الاحتياطي العام لهذا الغرض . وكان

عليها ان تطلبه من صندوق الدين ، فوافق الاعضاء ما عدا العضو الفرنسي، والعضو الروسي . وعلى ذلك تسلمت الحكومة المصرية المبلغ ، وبدأت تتصرف فيه ولكن لذلك المبلغ قصة انتهت بعد احتلال دنقلا فنتركها لحينها.
وقد قاد الحملة بحكم منصبه كتشنر باشا سردار الجيش المصري . وهو ضابط انجليزي من سلاح المهندسين ، قادته الظروف المخدمة في الجيش المصري . فقد كان يعمل في مسح اراضي قبرص حين تكاملت العمارة الانجليزية بقيادة الاميرال سيمور . وكان ان التحق بها بدعوى اجازة مرضية . وكان ان استخدم في مقدمة الجيش الزاحف في مصر لمعرفته باللغة العربية . وعندما دعت السياسة البريطانية انشاء جيش جديد يتدرب على يد ضباط انجليز ، كان كتشنر لمعرفته لغة البلاد من اول من التحق به وميزته هذه هي التي ساعدت في اختياره ليكون ضابط استخبارات في دنقلا قبل حملة ولسلي . ثم عين محافظا لسواكن وهي محصورة بقوات عثمان دقنه . وفي تلك الوظائف التي لم تكن ذات صبغة حربية بحتة جذب انظار كرومر ، حتى عينه رئيسا للبوليس المصري بعد ان اوضح له كتشنر ان مطامعه تتركز في السردارية لا في البوليس . وباعتزال السير جرانفيل باشا المخدمة في الجيش المصري سنة ١٨٩٢ حل كتشنر محله ، ولم يكن اذ ذاك اقدم الضباط ولا اعلاهم مرتبة . وظن ان الخلف الطبيعي لجرانفيل هو ود هاوس باشا قائد جيش الحدود في حلفا وقد كسب شهرة حربية في منصبه لم تصل اليها شهرة كتشنر . ولكن المعتمد البريطاني يريد كتشنر لمزايا وصفات عرفها فيه ، ورأى انه خير من يصلح لقيادة الجيش المصري ، اذا اريد له ان يفتح السودان فهو من سلاح المهندسين ، وقد دلت الخبرة ان مشكلة المشاكل في حملات السودان هي النقل ، وقد عرف اللغة العربية وكسب خبرة بعادات السودان، وهو في دنقلا وسواكن ، لا بد منها لمن يقوم بعمل اداري في تلك البلاد ، وقد عرف مؤهلات ونفسية الجندي المصري في الجيش والبوليس .

التحرك من حلفا

تقيم قوة الحدود آنذاك في حلفا ولها نقطة امامية في سرس ، وبين الاثنين بقايا الخط الذي استعمله ولسلي وهو خط اسماعيل القديم . وكان على السردار ان يمد هذا الخط جنوبا . متجنبا جنادل ارض الحجر حيث تعترض حركة النقل النهري . وتمهيدا لذلك يجب ان يحتل عكاشة على بعد ٧٥ ميلا جنوبي حلفا فأمر هنتر باشا قائد الحدود بتنفيذ الامر فاحتلها في ٢٠ مارس . ومن هنا تتبين لنا السرعة التي تطورت بها الحوادث ففي اول مارس انتصر الاحباش على الطليان في عدوة ، وفي ٢٠ منه بدأت العمليات الحربية في السودان تدخل طور التنفيذ . وفي القاهرة استعرض الخديوي جيشه في ١٥ مارس توطئة لارساله للحدود . وفي اخر الاستعراض علم ان مقدمتها ترحل من مساء اليوم الى حلفا . وبديء بمد الخط من سرس جنوبا ، وبدأت القوات ترحل من القاهرة وسواكن وتتجمع في حلفا ، والخط يزداد طولا يوما بعد يوم رغما من قلة الايدي العاملة الخبيرة بمثل هذا العمل . ولكن كل يوم تمتاد الايدي والرؤوس على العمل ، وسجلت الفرقة التي قامت بـه انتصارا ابقى على الدهر وانفع من انتصارات المحاربين وتكوّن خـط مواصلات التموين من القاهرة الى البلينة بالسكة الحديد ومنها لاسـوان بالبواخر النيلية والمراكب الشراعية ثم خط طوله سبعة اميال للشلال ومن هناك تمخر البواخر في النيل حتى حلفا ومن ثم بالخـط الى رأسه وبعـد ذلك بالجمال .

حامية في الحدود

يقيم آنذاك ود بشارة في دنقلا عاملا له الادارة المدنية والعسكرية ، وترابط قوة امامية في فركة تحت قيادة حموده ، لا تزيد على الثلاثة آلاف، معظمهم من قبائل الغرب . فقبعت هذه الحاميـة في اماكنهـا تنتظر الجيش

الزاحف لملاقاته . ولكنها اخطأت حين تركت للجيش الحرية في مد خطوطه دون ازعاج ، وكان في امكانهم ان يقوموا بهجمات خاطفة من الصحراء واتلاف بعض اجزاء الخط ، وهم قد عرفوا بمثل هذه الهجمات حتى على الواحات .

اول اشتباك

ظل المهندسون يعملون في تمديد الخط ، والذخائر والمؤن تتجمع في حلفا ، والجيوش الهندية تحل مكان الجيش المصري في سواكن • تسنى بذلك لكتشنر ان يحشد قوة تبلغ العشرة آلاف على اتم استعداد من حيث التدريب والاسلحة والمؤن . وقد انتقل القائد بنفسه الى حلفا في ابريل ، وفي اول مايو تحرك الى عكاشة ، وفي نفس اليوم الذي دخل السردار فيه عكاشة اشتبكت دورية من الجيش مع قوة كبيرة من الانصار جنوبي عكاشة، استطاعت بعد جهد ان تتملص الدورية من الانصار ، وترجع الى المعسكر بعد اصابات قليلة نسبيا .

موقعة فركة

تحرك كل الجيش من عكاشة متخذا طريقي الصحراء والنهر في يوم ٦ يونيو ليباغت الانصار في فركة ولا يترك لهم مجالا للانسحاب ان ارادوا ذلك . وكانت الانظار متجهة لهذا اللقاء الاول . فهو الامتحان الثاني بعد واقعة توشكي للجيش الجديد . ولكن الظروف كلهـا تدل على ان النصر سيكون في صالح الجيش من حيث العدد والعدة ، فالانصار لا يزيدون على الثلاثة آلاف ، والجيش يبلغ العشرة آلاف ، مع الفارق في الاسلحة ونوعها. ولكنها رهبة الامتحان للطالب مع علمه بأنه على اتم استعداد . وظلوا

يواصلون السير الليل بأكله . وفي فجر يوم ٧ يونيو اقترب الجيش من فركة واشرف عليها وخرج الانصار يؤدون فريضة الصلاة في جماعة . وهم في صلاتهم تبادلت نقاط حراستهم النار مع الجيش الزاحف . فاسرعوا الى خيولهم واسلحتهم ودخل البيادة في خنادقهم . وبدأت اول المعارك في عنف، وحوالي الساعة السابعة انتهى الامر وتغلبت اسلحة الجيش على جند المهدية رغما عن استبسالهم حتى بلغ القتلى منهم نحو الثمانمائة بما فيهم قائدهم حموده وجرح نحو الخمسمائة ، واسر ستمائة ، وتمكن الباقون من الانسحاب جنوبا الى دنقلا . وتنفس كتشنر الصعداء وكذلك معاونوه حيث جازوا الامتحان وكسب الجيش الجديد اولى معاركه .

عوامل معاكسة

كان لزاما قبل ان يستأنفوا السير لفتح دنقلا ان يمّد الخط جنوبا ويستعيضوا عن نقل الجمال البطيء ، وان ينتظروا فيضان النيل حتى تستخدم البواخر للنقل وللحرب معا . وكان عليهم ان يأخذوا فترة راحة واستجمام قبل المرحلة الثانية . ولكن قد هاجمهم عدو آخر خفي اشد فتكا وايذاء من أسنة الانصار ورصاصهم ، وهي الكوليرا . فقد زحفت عليهم جنوبا من مصر . وكانوا يتلقون اخبار زحفها بخوف ووجل ، اشد بكثير من اخبار العدو الآدمي . فها هي في أسوان ، وها هي في حلفا ، وعبرت محطات الخط الجديد ، ثم حلّت بمعسكر الجيش الذي انتقل جنوب فركة . وبدأت تباشر عملها وظهر على الجندي من مختلف اسلحتهم وطوائفهم خوف لم يظهروه في المعارك . وكانت نتيجة معركة المرض ثمانمائة من القتلى من جنود ومدنيين . ثم نازلتهم الطبيعة بما ترسله عليهم من اهوية محملة بالرمل والحصى واخيرا أرسلت السماء عليهم مدرارا من المطر لم تألفه تلك الاصقاع من قبل . فجرفت السيول الخط الحديدي في اماكن عدة ، وختمت سلسلة المآسي بانفجار في باخرة جديدة في يوم الاحتفال بانزالها النهر .

استئناف السير

وحل شهر سبتمبر والنيل قد امتلأ وفاض وتحرك الجيش ومعه بواخره بالنيل ووجهته كرمة ، حيث علم من استخباراته ان ود بشارة ينوي الصمود والمنازلة . ولكنه صمم على العبور الى الضفة الغربية بأنصاره حين اعلمته استخباراته بتفوق عدوه في العدد . واحتل مكانا حصينا نوعا ما في الحفير ، وثبّت الانصار اقدامهم داخل الخنادق ، وصمد بعضهم في النخل ، واقتربت منهم البواخر تطلق عليهم النيران ويصبون عليها وابلا من الرصاص والقنابل معا وتقاعست في اول الامر ورجعت واخيرا قرّ الرأي على ان تتجاوزهم جنوبا ، مهما كلفها ذلك ، وتصل الى دنقلا بعد ان عجزت بمساعدة نيران الجيش من زحزحتهم ، بل ما زالوا صامدين وتأكـد انهم يريـدون نضالا ويبغون معركة .

موقعة الحفير

اجتازت البواخر معاقل الانصار تحت ستار قوي متصل من نـيران الجيش . وكان لافلات الوابورات ومسيرها نحو دنقلا تأثير سريع على الامير . فظن ان كتشنر ينوي الزحف جنوبا بالضفة الشرقية . وتحت حراسة وحماية بواخره يتمكن من العبور واحتلال دنقلا . ففي الحال اخلى الحفير ، وذهب ليرابط في عاصمته . وعندما انقطعت النيران وعندما اكدت لهم منظاراتهم المعظمة انسحاب الانصار ، اعلنت البشرى وعد نصرا بعد موقعة عظيمة . وانهالت تلغرافات التهنئة من مصر وانجلترا معا ، وسجلت في المذكرات بانها موقعة الحفير . والواقع انه لم تلتحم الجيوش في معركة حامية مثل ما خبروا في فركة وما بعدها في ابي حمد وعطبرة وام درمان ولكنهـا بهذا سميـت واحتلت الحفير مكانها الى جانب اختها فركة .

احتلال دنقلا

عبر الجيش بكامله الى البر الغربي وواصل زحفه جنوبا نحو دنقلا ليحاصرها من الجانب الصحراوي وتصلها البواخر من ناحية الماء وقبل ان يطل الجيش الزاحف على دنقلا كان الاسطول الخديوي يطلق قذائفه على انصار المهدي في المنازل وفي المتصمات من الطوابي ، ولم يترك لهم زمناً يتمون حصونهم ، ويحسّون مواقعهم . وهم في معركة متصلة مع الاسطول، واذا بالجيش يظهر في الافق ينتشر حول المدينة محاولاً احتضانها بين فكي كماشة . واتباعاً لخطته في الحرب عندما يتأكد تفوق العدو ، قرر ود بشارة الانسحاب وترك فرقة قليلة العدد من الجهادية تحمي ظهورهم وهم ينسحبون الى الدبة ، ومنها عبر الصحراء الى المتمة ، ووجد الجيش عندما أطل على المدينة ان جنود الاسطول النيلي سبقهم باحتلال الجزء الاكبر منها ، ورفرف العلم المصري على بناية المديرية ، وقد طوي قبل احدى عشرة سنة مضت . وتعقب الجيش الانصار وتمكن من قطع الطريق على بعضهم ، ولكن معظمه بما فيهم الاميران ود بشارة وعثمان ازرق تمكن من الافلات . وتقدمت الفرق الامامية الى جهات دنقلا تحتلها دون مقاومة حتى مروى .

الدفاع عن متابعة الزحف

انتهت مهمة الجيش المصري واسترجع مديرية دنقلا . وقبل ان يبدأ بمباشرة مهمة اخرى تم توزيعه على معسكرات دنقلا للراحة والاستجمام والدفاع عن مواطنه ان هوجم ، وغادر كتشنر دنقلا الى انجلترا ليدافع عن قضية استمرار الزحف ومنازلة المهدية في معقلها الحصين ، ام درمان . والتاكتيك الحربي يقضي بالاستمرار لان الجيش قد ابتعد عن قواعده وسوف تتعرض خطوط مواصلاته لهجمات من الانصار ، ومواقعه نفسها في

دنقلا اصبحت مهددة بالانقضاض الخاطف عليهم من جهات عدة . وقد تأكد ما ترامى الى سمعهم قبل ذلك من نشاط الفرنسيين في افريقيا الاستوائية . فالسرعة امر لا بد منه انقاذاً لموقف الجنود المكشوف ومسابقة للتوسع الفرنسي . ومن جهة اخرى فكاهل المالية المصرية لا يزال كليلاً ، وقوة المهدية لا تزال سليمة ، وعليه فيجب الحذر والاحتراس . وبمزيج من السرعة والحذر بدأ كتشنر حملته وهدفها القضاء على دولة المهدية واستعادة السودان بـــكامله .

قصة النصف مليون

وقبل ان نصاحب الجيش في زحفه على ابي حمد يجدر بنا ان نرجع الى قصة النصف مليون جنيه التي استولت عليها الحكومة المصرية لنفقات حملة دنقلا ، والتي رفع قضية عنها مندوبا فرنسا وروسيا امام المحكمة المختلطة . فقد قضت المحكمة بعدم اختصاص صندوق الدين بها واستؤنف الحكم وايد . وعلى الحكومة رد المبلغ الى خزانة الاحتياطي العام . وكان ان رأى كرومر الاحتياط للامر بأن تمد الحكومة البريطانية حكومة مصر بما يقرب من الثمانماية الف جنيه بطريق الاستدانة بربح طفيف ، وقد طلب وزير المالية من مجلس العموم التصديق على المبلغ بعد ان قدمه بخطبة ضافية .

الحكومة الانجليزية تقدم معونة مالية

ذكر الوزير ان المجلس قد أحيط علما من قبل بضرورة تقدم الجيش حتى الخرطوم وأبان ان لا سلامة لمصر بدون ذلك . وذكر انه اذا كان للشعب الانجليزي ان يهتم بامور الارمن وهم تحت ظل الراية التركية ، فاجدر به ان يضاعف اهتمامه باهالي السودان ، وهو يرى ان للشعب الانجليزي مسؤولية

ادبية نحو السودان لان اخلاءه كان باوامر الحكومة الانجليزية ، ورأى جلادستون آنذاك ان للسودانيين الحق كل الحق التمتع بحريتهم والتخلص من مظالم الحكومة المصرية وعلى هذا المنطق بني أمر الانسحاب . ولكن قد اتضح من الاسرى الذين فروا من سجن الخليفة ، ومن الحالة السيئة التي آلت اليها دنقلا ، ومن حسن اللقاء الذي وجدته القوات المصرية من اهالي دنقلا ؛ من كل ذلك تبين انه ما من شعب يسكن المعمورة يئن من المظالم والسلطة الهمجية مثل ما يئن شعب السودان المسالم . بهذا العرض لقضية الفتح نالت الحكومة الانجليزية تصديق البرلمان لهذا القرض واخيراً قدمته مساهمة منها في الفتح .

خط حلفا ابو حمد

رجع كتشنر ليباشر مهمته الثانية وكالعادة برزت مشكلة النقل عبر الصحراء فاذا ما واصلوا مد خط دنقلا حتى الدبـة وقفت امامهم عقبة الاتصال بالخرطوم ، فاما عن صحراء الجكدول واما عن طريق النيل . اما عن الاولى فالمآسي والمشقات التي قاساها طابور الصحراء في حملة الانقاذ علمتهم درساً قاسياً ، ووضحت لهم خطورة الاعتماد عليه . وبالنيل لا تزال هناك سلسلة من الجنادل والصخور تعترض سبيل النهر في ارض المناصير ، ولا تزال الشقة بين بربر وسواكن تحت سيطرة الانصار .

فما كان لكتشنر أزاء تلك العقبات ، ألا أن يلجأ لمشروع فيه بعض المجازفة وفيه الكثير من الفائدة ، وهو وصل حلفا بابي حمد بطريق حديدي صحراوي .

فالارض مستوية نوعاً ما ولا حاجة لقناطر ، والعدو لا يسيطر عليها بل إن قوات العبابدة المتحالفة بقيادة عبد العظيم بك حسين خليفة استولت على آبار المرات . وعقبة واحدة هي التي رجحت طريق النهر الطويل الشاق

وهي انعدام المياه وإن وجدت فشحيحة ، وهذا ما دعا حكومة الخديوي إسماعيل سابقاً تفضيل مشروع فاولر النيلي على مشروع المهندسين المصريين من كروسكو إلى أبي حمد . ويكاد الخبراء يجمعون على أنها مجازفة كبيرة . ومع ذلك فكتشنر قد هدته سجيته لهذا المشروع ، وفي الحال بدأ نشاط فرقة السكة الحديد يتحول إلى الخط الجديد .

موقعة ابي حمد

وعندما تجاوز الخط نصف الطريق وبدأ يقترب من أبي حمد كان لا بد من الاستيلاء على هذه النقطة لحماية الخط من خطر غارات تدميرية ، يقوم بها الأنصار من قاعدتهم الأمامية . فأوكلت المهمة إلى هنتر باشا القائد العام للمشاة في الجيش المصري ، وزحفه فوق أرض المناصير ووجد في أبي حمد حامية قليلة العدد ولكنها أرادت القتال والثبات في مواقعها تحت قيادة الأمير محمد زين ، فتحصنت بالمنازل وأصرّت على ألا تتنحى عن مراكزها ، ووجدت استبسالا وحماسة مقابلة من عدوها ونشبت معركة كانت نتيجتها المحتومة انتصار قوة هنتر لكثرة عددها وتفوق أسلحتها مع المساواة في روح وصدق القتـــال .

موقف حرج في ابي حمد

وإذا هم قد احتلوا هذه النقطة في ٧ أغسطس سنة ١٨٩٧ فاحتفاظهم بها من الأمور الشاقة . فهم هنا مبتعدون عن قواعدهم في دنقلا ولم يتصلوا بالخط الذي يقترب منهم بالتدريج وعددهم وذخيرتهم ومؤنهم تكفي لمنازعة قوة كالتي أجلوها عن أبي حمد ، ولكن إذا أسرع الأنصار من بربر والمتمة نحو أبي حمد فقد تباد الحامية وظلوا كذلك حقبة من الزمن في حالة نفسية لا

يحسدون عليها حتى تنفسوا الصعداء عندما انجابت تلك السحابة بارتداد الأنصار عن بربر ولحقوهم بإخوانهم في المتمة .

احتلال بربر

وقد قدّر الأنصار أن كتشنر قد يحاول ما حاوله ولسلي من إرسال الجيوش عبر صحراء الجكدول لتحط على النيل في المتمة ، وبذا تنعزل بربر. ورأوا أيضاً شعور عداء ومناوأة من بعض السكان ، وإزاء ذلك قرروا الانسحاب منها . وعندما علمت العربان المتحابة بإخلائها وكانوا يتسقطون أخبارها دخلوها قبل أن يرسل هنتر كتيبة لاحتلالها رسمياً ويرفع فيها العلم المصري كما حدث في دنقلا . وما زالوا يعززونها بل جعلوا منها قاعدة امامية ظلت الوابورات تقوم منها بمناورات استكشافية حتى المتمة . وما ان قويت الحامية في بربر حتى تقلص نفوذ الأنصار في تلال البحر الأحمر وحتى قدمت القبائل هناك ولاءها للجيش الواحدة تلو الاخرى ، وحتى تمكنت فرقة من الجيش المصري من الوصول الى بربر من سواكن دون مقاومة أو ملاقاة .

احتلال كسلا

ولنترك الآن الجيش في بربر والخط يقترب من أبي حمد ولنتابع حوادث الشرق كان الطليان يحتلون كسلا حينما وقعت هزيمة عدوة عليهم وحين نشط الأنصار لطردهم منها . وكانوا ينوون الجلاء عنها لعــدم مقدرتهم على الاحتفاظ بها ، ولكنهم بقوا فيها باتفاق مع كتشنر لتسلّم له عندما تزحف عليها قواته . وتنفيذاً للاتفاق تحرك بارسونز باشا بقوة مصرية من سواكن وفي ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٧ وصلها وأقيمت حفلة عسكرية ، رفع فيها العلمان المصري والايطالي ثم خفض الاخير وترك الاول يرفرف فوق ساريته ، وتم

بصفة رسمية انسحاب الايطاليين واحتلال الجيوش الخديدية للمدينة . وقد انضوى جند العرب الذين خدموا تحت الراية الايطالية تحت راية الخديوية. وزار السردار المدينة ورجع منها ليواجه موقفاً حربياً ظن أنه على درجة عظيمة من الخطورة .

التعزيز بقوات انجليزية

قرر الخليفة حوالي أواخر نوفمبر سنة ١٨٩٧ الزحف شمالاً لملاقاة العدو قبل موسم الفيضان القادم وقبل أن يتم تجمعه في بربر ، وعندئذ استجاب لتوسلات الامير محمود السابقة بالتقدم . وعندئذ لا بد لقوات المهدية الرهيبة المرابطة في أم درمان من الانضمام الى محمود لضمان النصر . وما ان قطعت اشاعة هذا التقدم المزعوم المسافة التي تفصل بين الجيشين واستقرت في مركز القيادة حتى انزعج السردار واتصل بكرومر يطلب نجدات انجليزية . وصدرت الاوامر السريعة للقوات المصرية المنبثة في حاميات دنقلا بالسفر بسكة حديد كرمة الى حلفا ومنها الى دقش جنوبي أبي حمد وتم كل ذلك في أسرع ما يمكن من وقت . وكل ذلك بفضل خط الصحراء أكبر عامل في الانتصارات القادمة كما أصبح شرياناً يصل السودان بقلب المدينة والحضارة بعد ذلك ولبت الحكومة الانجليزية نداء كتشنر وبعثت بفيلق Brigade من جنودها لتبعث بغيرهم بعد ذلك حتى تمت فرقة Division وظلت القطارات تجري بين رأس الخط وحلفا ذاهبة آيبة تحمل الجند والذخيرة والطعام . وتم الحشد تحت ضغط الشعور بالخطر . وبعد ان كانت بربر نقطة امامية تقوم على حراستها حامية قليلة اصبحت تعج بالجنود من سودانيين ومصريين وانجليز .

حوادث المتمة

ولأمر ما بقيت قوة الانصار في ام درمان وامر محمود بالزحف بعد ان انضم اليه عثمان دقنة من ادارامة . وقبل ان نعبر معهم الى شندي يتقدمون شمالاً ، يجدر بنا ان تتابع حملة محمود منذ ان غادرت ام درمان والحوادث المؤدية الى نكبة المتمة فعندما وصلت الحملة المصرية الى دنقلا ظن الخليفة انهم لا بد ان يتخذوا سبيلهم الى النيل عن طريق الصحراء فلا بد ان تكون المتمة في حالة من الاستعداد تصد العدو المهاجم . هو خير سبيل لذلك ان يقوم الجعليون انفسهم بهذا الامر . فعين عبدالله ود سعد من زعمائهم للمحافظة على هذا الرباط فتلقى الامر وذهب ولكنه ترك الحبل على الغارب ولم يبد منه ما يشعر بالاستعداد والصمود للعدو . بل ان التجار من الجعليين صاروا يحملون الاطعمة المختلفة لجيوش العدو في دنقلا يقايضونها بمختلف انواع البضائع وترجع دوابهم محملة منها . وتسربت الاخبار ووصلت لباب الخليفة بل ان الوشاة ذهبوا الى ابعد من هذا واتهموا عبدالله بمساندة الجيش والاتفاق معه وقد انعم عليه بالبكوية .

ازاء هذا الموقف استدعي عبدالله الى العاصمة وسأله الخليفة عن جلية الامر وما كان في مثل مكانة عبدالله من حيث النبل ان يكذب فأقرّ بأن الجعليين يتصلون تجارياً بالجيش وما كان للخليفة الا ان يجازيه على تهاونه ولكن تدخل اهل الشورى في المسألة ورأوا ان يولى عبدالله بالشرق في شندي وان يسند المحافظة على المتمة وما جاورها لمحمود ود احمد . وهذا يستدعي ان يرحل عبدالله واهل المتمة الى الشرق ليحتلها محمود بجموعه العديدة وكان ان رضخ الخليفة للشورى وصدر الامر بالتولية والرحيل للشرق لعبدالله وفصل من ام درمان وفي النفس اشياء واتى قومه وعرض عليهم الامر فأشار بعضهم بالانصياع والرضوخ للأمر . واشار بعضهم باللحوق بالجيش في دنقلا والاحتماء به وتبلبلت الأفكار واختلفوا وما كان

عبدالله يرضى بالرحيل لدنقلا لصعوبة تنفيذه .

واخيراً يئس عبدالله من حياة الاضطراب والبلبلة الفكرية وصمم على المقاومة واقرته أغلبيتهم على ذلك . ومـا كانوا بحالة مـن حيث عددهم واسلحتهم تسمح لهم بملاقاة جيش الخليفة . فاستنجدوا بالجيش في دنقلا ، وفعلا كانت بعض الاسلحة والذخيرة في طريقها اليهم عندما دهمهم محمود بجموعه . هذه قصة جمعتها من روايات عديدة وهناك من يقول بغير ما سردت سواء في الجملة او التفصيل ولكن مما لا مجال للشك فيه ان عبدالله قد ثار على الدولة وللدولة ان تعاقب الثائر .

تحرك محمود من أم درمان بقوة عظيمة يقصد المتمة يرابط فيها في انتظار الجيش الفاتح وملاقاته . ويقال ان خبر عصيان الجعليين ما عُرف الا بعد تحرك محمود ، وسواء كان على علم حين أشرف على المتمة أم لم يكن فالحقيقة بدت له حين عاينها ، وحين رأى الحالة العدائية . ونشبت المعركة التي لم يكن شك في نتيجتها ، وهي نكبة المتمة بأشد ما نكبت به مدينة من القضاء على الرجال وسبي النساء وخراب الديار . وللمرة الثانية في تاريخها تحل بها كارثة والاولى هي حملة الدفتر دار الانتقامية .

مسير محمود شمالا

تكامل جيش محمود بشندي بعد ان تـم عبوره من المتمة والبواخر الخديوية قد كشفت عن خبره فتحرك كتشنر بكل الجيش ورابط في كنور أولا شمالي عطبره ثم سارع مع نهر عطبرة الى رأس الهودي عند ما تيقن حركة الالتفاف التي ينويها محمود . وسار محمود محاذيا النيل يستقي به حتى العالياب ومنها غيروا اتجاههم للالتفاف حول جناح الجيش بعد ان عقدوا مجلساً حربياً وتناقشوا وكان ان تم الاتفاق على فكرة الالتفاف وقد نادى بها عثمان دقنه وهو بطل الحرب الصحراوية ومن انصار الهجوم المفاجيء

غير المنتظر . والخطة تقضي ان يوغلوا في الصحراء عندما يكونون قبالة عطبرة وكنور ثم يهبطون على النيل في بربر ويحولون بذلك بين الجيش وخط رجعته ، ويقطعون مواصلاته .

موقعة عطبرة

ولكن كتشنر تنبه لخطتهم ولذا سار بجيشه وعسكر في رأس الهودي وما ان وصل محمود الى النخيلة حتى تحصن بها وبنى زريبة لظنه انه سيهاجم، ولم ينجح في حركة الالتفاف . ومرّت ايام وايام وكل فريق ينتظر ان يهاجم واخيراً قرر كتشنر الهجوم . فقام بحركات استكشافية ليرى حدود الزريبة ومواقعهم الحصينة . وفي صباح ٦ أبريل سنة ١٨٩٨ اقتحموا الزريبة ونشبت معركة ابدى الفريقان فيها من الاستبسال ما جعلها رهيبة مروّعة وانتصر الفن الحربي والسلاح الحديث ، وترك الانصار عدداً من القتلى والاسرى وفي الاسرى قائدهم الشاب محمود وفرّ الباقون يلحقون بأم درمان وفيهم عثمان دقنه .

استعداد الخليفة

وعند انتهاء العمليات الحربية في النخيلة ذهبت الجنود لتأخذ قسطاً من الراحة ما بين عطبرة والعبيدية ريثما تستعد للتقدم صوب عاصمة المهدية ، اما الخليفة فقد صمم على الدفاع عن ام درمان فبنيت الطوابي على النهر لتعرقل سير الوابورات وثبتت بعض الغام في مياه أم درمان وتدفقت جيوش الاقاليم لتعزيز حامية العاصمة وتجمع للخليفة ما يقرب من الستين الفاً .

كتشنر يستأنف الزحف

وبعد فترة الراحة والاستجمام زحف كتشنر بالوابورات والمراكب وعلى الخيل والهجن وعلى الاقدام ينقلون معسكراتهم من موضع لآخر . وكلما اقتربوا من ام درمان ساروا بحذر وتراصت صفوفهم ونشطت دورياتهم واستكشافاتهم ، والجواسيس ينقلون الخبر تلو الآخر لونجت باشا . فأخبروا بالطوابي وقوتها وبالالغام وبالجيوش التي سوف تقاوم . واشرفوا على المدينة، وبانت لهم قبة المهدي وكشفت لهم نظاراتهم المعظمة منازل ام درمان.

زريبة كرري

واصلت الوابورات سيرها لتدمر المدينة بقنابلها وتبادلت النيران على الطوابي ووجهت قنابلها الى قبة المهدي فدكت أعلاها . وتراءى لهم عن بعد الانصار فرساناً ومشاة وراياتهم الكثيرة المنوّعة الألوان تخفق في الافق. وتلاحقت فرق الجيش وعلى النيل قبالة تلال كرري خططت الزريبة على شكل نصف دائرة يتصل طرفاها بالنيل . واخذت الاورط مواقعها في الاطراف والمؤن والبهائم في الوسط والوابورات بعد ان عادت من مهمتها اصطفت على النيل كوتر لقوس الزريبة . وباتوا ليلتهم وهم على استعداد حتى لا يباغتوا والوابورات ترسل انوارها الكاشفة امام الزريبة ، والعربان المتطوعة تصاحب الجيش في مسيره شرقي النيل منذ ان تحرك من عطبرة .

المعركة

بدأ ضياء يوم ٢ سبتمبر يبدّد الظلام وتنفس كتشنر الصعداء حيث بات ليلته دون ان يهاجم ، وان فعل الانصار ذلك لاحدق الخطر بالجيش

الفاتح النظامي ، ولكن الخليفة امهلهم الى الصباح . وبعد ان صلى الانصار فجراً قاموا بتسوية صفوفهم وتقدموا نحو الزريبة في معركة ان خرجوا منها منصورين فقد خرجت المهدية من ازمتها ، وان دارت عليهم الدائرة ، فهي آخر العهد بدولتهم . والجيش يربض خلف الزريبة ليقوم بعملية حربية حاسمة ، وهم قد ظلوا اكثر من سنتين ونصف ينتقلون من نصر لنصر واجتازوا العقبات الطبيعية باختراق الصحراء المحرقة المعطشة على خطين من حديد ، وتعاونت الدولتان المصرية والانجليزية على سحق المهدية . والناس حكومة وشعباً في القاهرة ولندن على السواء ، يرقبون باهتمام متزايد ما تسفر عنه الملاقاة الحاسمة ، وتدفق سيل الانصار براياتهم لرد الفاتحين عن ام درمان او الفوز بالشهادة ، واختتام اسلوب من الحياة اعتنقوه عن عقيدة وايمان .

بدأت المدافع البعيدة المرمى تصوب قنابلها لتقع وسط حشد منهم فيتركون الشهداء وراءهم ويزحفون نحو غايتهم وتنشط البطاريات وتقذف بحممها بتتابع وتسديد ويقع من كتب له الموت . وكلما تمر دقيقة ينقص عددهم ويقتربون من العدو دون ان تنقص حماستهم او يخالط قلوبهم الرعب والخوف . واخيراً تكدست جثث القتلى ، وقوبلوا بسد من النيران لا يترك من يمشي على رجليه والانصار يتساقطون ويقفز بعضهم فوق جثث اخوانهم لينالوا من العدو ويرمون بحرابهم ، ويطلقون بنادقهم . والخيالة منهم يطلقون العنان لها حتى تصاب من تحتهم او يصابوا هم . كل ذلك وفوهات البنادق والمدافع تواصل شواظها النارية وعند الضحى ارتد من بقي وامتلأ السهل بأشباح بيضاء انبثت امام الزريبة وظن السردار ان الامر قد تم ورأى التقدم نحو ام درمان حتى لا يجد المنهزمون سبيلهم اليها ليتحصنوا ببيوتها .

مباغتة الجيش

وقامت فرقة الفرسان الانجليزية باستطلاع صوب ام درمان ، ولكنها

وقعت في كمين من الانصار في خور أصابها بضحايا عديدين وارتد من بقي منهم . وصدر الامر بالتقدم نحو ام درمان في صف طويل يمتد من الشاطيء الى الصحراء ليحتضن كل المدينة . وكان على فرقة ماكدونالد ان تكون الجناح الصحراوي . وكان عليها ان تتخذ طريقها الى الطرف قبل ان تتجه نحو المدينة . كل ذلك والفرق الاخرى تواصل زحفهـا نحو ام دومان ، وبذلك تكونت فتحة كبيرة ما بينها وبين بقية الجيوش . وعند ذلك خرج اليها فريق من الانصار كان مختبئاً حسب خطة مرسومة خلف التلال وقصد قتالها . وما ان سوّوا صفوفهم وبدأوا يقاومون حتى برز لهم فريق آخر من الخلف ، وظلوا عدداً من الدقائق ، وهم مهددون بالإبادة قبـل ان تخف لنجدتهم بقية الفرق . وأبدت هذه الفرقة من رباطة الجأش والبسالة ما انقذها من خطر محقق . وبعد انتهاء تلك المعركة واصلوا الزحف ودخلوا المدينة من شارعها العام وعسكروا ليلتهم في فضاء وسطها .

تسلل الخليفة الى الغرب واباحة المدينة

اما الخليفة وقد علم ان انصاره قد فقدوا معركة كرري ، فقد رجع لام درمان وتجهز بعائلته وصحبه المخلصين ، وتسلوا من ام درمان الى ارض الغرب ليواصل جهاده من هناك . وما ان علم السردار بذلك حتى بعث وراءه طابوراً سريعاً للحوق به ، لكنه عاد ادراجه ولم يلحقه . وكان ان ابيحت المدينة ثلاثة ايام سادت فيها الفوضى واضطر الاهالي لاخفاء القليل الذي معهم من المال والاغذية ، وكذلك اخفوا النساء . وخرج البعض يقصدون ديارهم التي رحلوا منها بأمر الخليفة لام درمان من قبل

الطمان في الخرطوم

وكان من اللازم لكتشنر زيارة الخرطوم وتأدية فروض الذكرى لغردون

فعقدت صلاة على انقاض السراي لروحه وأقيمت حفلة بسيطة رفع بعدها العلمان المصري والانجليزي حسب التعليمات على السراي الخربة وفقاً لتعليمات تلقاها من كرومر وسرت عاصفة استياء بين الجنود والضباط المصريين لهذا العمل، والمدن التي تم فتحها قبل ذلك مثل دنقلا وكسلا وبربر رفعت عليها الاعلام المصرية فقط . وما ان هدأت الحالة حتى حضر السيد صغير على احدى وابورات المهدية طالباً من الخليفة نجدته حتى يقاوم احتلال البيض الذين رفعوا علما مثلث الالوان على فشوده . وهذه هي فرقة مرشان التي زحف بها من افريقيا الاستوائية الفرنسية شرقاً حتى وصل الي فشوده ورفع العلم الفرنسي على انقاض الطابية القديمة . وقد بعث خليفة بوابورين لطرد المحتلين فامتنعت عليهم الطابية ورجع السيد صغير قائد الانصار بوابور تاركاً الآخر في جهات الرنك ليتلقى نجدات وبدلا من ان يلقى الخليفة وجد العاصمة يحتلها الجيش الفاتح .

حادثة فشوده

اهتم السردار للأمر ونزل بنفسه في الوابورات وبرفقته جنود من الجيش المصري وتقابل مع القائد الفرنسي ورفض الأخير التنازل عن ارض احتلها وابى إنزال علمه من ساريته . ورأى كتشنر درءاً للموقف ان يترك حامية ترابط بالقرب من الفرنسيين ، ورجع ليرفع الامر للحكومة البريطانية. وكان توتر بين الحكومتين كاد يؤدي الى الحرب بينها واخطر الرعايا الانجليز في فرنسا على ان يكونوا على اهبة الرحيل فيما لو تحرج الموقف . ولكن الحكومة الفرنسية خضعت للمنطق اولا وهو ان الجيش الذي فتح السودان يعيد ارضاً كانت من املاك الخديوي ورأى الساسة الفرنسيون ثانياً لبعد نظرهم الا داعي لجلب عداوة انجلترا وهم تحت تهديد قوة المانيا التي تجاورهم . وبدأت منذ حادثة فشودة تلتئم الهوة التي تفصل الدولتين حتى

انتهت بالوفاق الودي في سنة ١٩٠٤ وغير الاسم الذي يشير الى الخلاف باسم غيره وهـو كدوك واختفت فشوده مـن الخريطة واصبحت اسماً تاريخياً فقط .

الخليفة يرحل الى الغرب

كانت ام درمان الموقعة الحاسمة . وبقي على الجيش الفاتح متابعة قوة الخليفة والحيلولة بينه وبين الاتصال بقبائل الغرب . فكوتب مشايخهم في هذا الشأن . وقد واتى الحكومة الجديدة الحظ حيث فرّ علي دينار من سلالة ملوك دارفور الى الغرب لاقامة عرش آبائه واجداده ولم يكن الامير الهارب على وفاق مع المهدية منذ ان انتزعه محمود من ارض الفور ليلازم باب الخليفة كأحد الخدم . وبذلك اسدى علي دينار خدمة للجيش الفاتح اذ سد المسالك دون التجاء الخليفة الى دارفور ، او الايغال غربا فيا وراءها . وكان حتما على الخليفة ان يتنقل فيما بين النيل الابيض وحدود دارفور . واول مقام حل فيه ليستريح ويجمع اليه اتباعه ومريديه هو ابو ركبة حيث يثوي جثمان والده واتصل من هناك بالختيم موسى قائد حامية الابيض ، فرحل اليه بمن معه من الجهادية والانصار . ولم تجد نداءاته الى زعماء النوبة آذاناً صاغية . وهناك في الشرق احمد فضيل من الامراء المخلصين يكاتبه الخليفة بقوله :

« فنعلمك ايها الحبيب انا عنك سائلون ولك بالخير والبركة داعون وما زلت ملحوظاً منا بعين الرضى ومزيد الاكرام لما انت عليه من القيام بأمر الدين وبذل الهمة فيه فجزاك الله عن ذلك خيراً وهداك سيراً وشكر مساك وحفظك وتولاك ثم نعلمك ايها الحبيب اننا بحمد الله تعالى فيمن معنا من الانصار بخير وقد انحزنا عن الاعداء بعد حصول الحرب بيننا وبينهم الى جهة دار الجوامعة بنواحي المحل المسمى بالغبشة فنحن الآن بـه في أمن وأمان ومزيد اطمئنان وليس القصد من حضورنا في هذه الجهة المذكورة الا التحيز

عن الاعداء أخذاً بالحزم وإلا فليس القصد ان شـــاء الله تعالى ويهلك الكافرون » .

احمد فضيل

وبدأت سلسلة المغامرات والانتقالات السريعة التي قام بها أحمد فضيل منذ ان احتلت الجيوش الخديوية دنقلا . فاستدعاه الخليفة من ثغره الذي يرابط به بالقضارف لتعزيز الحامية في العاصمة أو إبعاثه لملاقاة العدو فيها لو رؤي ذلك . ولكن احتلال بارسونز باشـــا لكسلا غير الوضع واستدعت الحالة الجديدة ان يرجع احمد فضيل باغلبية جيشه الى القضارف ليحول دون تقدم جيش مصر . وبعد واقعـــة عطبرة وانكسار الانصار وتحرك الجيش نحو ام درمان وبقاء بارسونز مرابطاً بكسلا صدرت الاشارة لأحمد فضيل بابقاء حامية بالقضارف وحضوره بالبقية من الانصار لتعزيز ام درمان ، ولكنه ما ان وصل الى رفاعة حتى علم بسقوط ام درمان ورحيل الخليفة .

والسردار وهو يتأهب لمغادرة ام درمان الـــى فشوده امر بارسونز بالتقدم صـــوب القضارف وامر بالصعود في الـــبواخر في النيل الازرق والاطباق على احمد فضيل وضغطه بين طرفي تلك الكماشة ، وتأسيس نقاط عسكرية في سنار وكركوج والروصيرص . فالتقت مقدمة وابورات هنتر به في ابي حراز فاطلقت عليه النيران وجعلته يتجه نحو القضارف ، ولا يحاول العبور الى الجزيرة وخاصة عندما علم باحتلالها من قبل بارسونز . وما ان سدد الهجمات العنيفة نحوها وامتنعت عليه حتى جلس في جبل عصار يحاصرها

مطاردة احمد فضيل

رجع السردار من فشوده ووجد ان جيشه قد سيطر على الجزيرة وان حاميتها في القضارف يشدد احمد فضيل الحصار عليها فبعث سرية تنجدها

وما ان تحركت من النيل واقتربت من القضارف حتى ترك احمد فضيل موضعه واتجه الى الجنوب الغربي عله يشق طريقه للاتصال بالخليفة . وقد وافاه الخبر بالخطاب السالف الذكر وظل عدده يتناقص بانفصال بعض الجند منه وحاول العبور عند شلالات الروصيرص . وتمكن بعد جهد عنيف من الافلات من وابورات الحراسة والوصول الى الضفة الغربية من النهر وبقي بعض جنده بالشرق يقاتلون ويرمون بأنفسهم في النيل ويؤسر فريق منهم ، وانتقل احمد عن خلص معه من جنده في سرعة مدهشة عبر الجزيرة والتقى عند النيل الابيض بوابور المتمة وهي آية من فشوده ، فسئم بعض جنده حياة التنقل والجوع والعطش وسلموا انفسهم وافلت احمد فضيل وبعض صحبه المخلصين وعبروا النيل والتقوا بالخليفة .

محاولات فاشلة ضد الخليفة

اقيمت الحاميات على النيل الابيض لتقف سداً حائلا بين الخليفة في كردفان وبين محاولته الدخول في الجزيرة ، وقاد الكولونيل كتشنر اخو السردار حملة لتقضي على الخليفة وهو في موطنه من دار الجوامعة ، وما ان اقتربوا من الانصار وعلموا قوتهم وقاسوا الكثير من التعب في ارض لم يألفوها، رجع الكولونيل بقوته خوفاً من ان يكون له مصير هكس وجيشه فرجع الى النيل وكان ذلك في يناير سنة ١٨٩٩ . ومن دار الجوامعة شق الخليفة طريقه في جبال النوبة ، وناوأه أهل تقلى وهو في طريقه نحو قدير ، واستقر في دار هجرة المهدي ولقي حفاوة وإكراماً من الملك بوش سيد الجبل . وعندما علمت الاستخبارات السرية بوجوده في قدير جهز السردار حملة عظيمة تتكون من ثمانية آلاف جندي حشدهم في كاكا على النيل الابيض وبدأوا بترحيلهم الى جبل فنقر . ولكن الخليفة عقد عزمه لمهاجمة ام درمان ، فغادر الجبال شمالا ، فباءت هذه الحملة ايضاً بالخيبة وسرى يأس بين الجنود والضباط لمحاولاتهم الفاشلة المتكررة .

حملة ونجت وموقعة ام دويكرات

رجعت الجنود بعد رحيل الخليفة وظلوا يرقبون حركات الخليفة حتى علموا اتجاهه . وقاد ونجت باشا الأدجونانت جنرال حملة تلاقيه وتصده عن الزحف صوب ام درمان والتقوا في ام دويكرات قريباً من منهل جديد ، ودارت الموقعة في فجر ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ أبلى الانصار بلاء حسناً . وما ان ايقن الخليفة أنه اشرف على النهاية لم يشأ ان يقع اسيراً ، ويكون هزءاً وسخرية ، فافترش فروته وجلس عليها وحوله كبار المخلصين الذين ظلوا على ولائهم الى آخر لحظة في حياته وحياتهم ، ينتظرون قضاء الله وقدره مستسلمين للقوة الالهية بعد ان جاهدوا وصبروا وصابروا . فكانت اروع خاتمة . وبذا انطوت صفحة من تاريخ السودان احتلت حوادث المهدية فيها المكان الأول ، وبدأت بليلة ١٢ اغسطس سنة ١٨٨١ وختمت بضحى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ . وهكذا مر فصل من تاريخ البلاد فيه النار والنور والدم والحياة . فيه ثورة على النظم والنزوع الى مثل عليا دينية واجتماعية، وفيه من الجانب الآخر ضحايا وآلام تجلت فيها القوة الكامنة في الشعب السوداني ، واندفعت قوية حارة متدفقة كالسيل ، ولكنها حماسة وقتية أتت بالمعجزات والخوارق وما لبثت ان هبطت الحرارة وبرزت عوامل الاختلاف بعد الوحدة والوئام .

كلمة اخيرة عن الخليفة

وعهد الخليفة كمثل كل عهود الثورات على انظمة المجتمع يرافقه العنف ولا يقبل إلا الخضوع والاذعان ولا مكان للمخالفين فيه . فالثورة الفرنسية والأنظمة الفاشستية والشيوعية ما سلمت من ضحايا ، بل أقيمت على دماء المعارضين والمخالفين ، وهي ثورة على ما ألفه الناس من عادات وحرية في

الدين والاجتماع. وكان طبيعياً الا يرضى كثير استبدال هذه الحالة بالشرائع الصارمة . وكان طبيعياً ألا يرضوا بخراب الدنيا وعمار الآخرة وهم الفوا نعيمها ولذّاتها . وكان طبيعياً ألا يذعنوا لسادة يرونهم دون مستواهم في العلم والمدنية .

والخليفة من جانبه ورث عن المهدي مثلاً عليا للحياة الفاضلة ، فبديهي وهو يؤمن ويعتقد برسالة الامام وما جاء به ألا يفرط في قليل منها . فالشريعة الاسلامية تطبق دون تهاون او رخص ، ومنشورات المهدي وأقواله كلها لها من القداسة ما يوقع العقاب الصارم على مخالفيها ، والذي ينكر المهدية او يتقاعس عن الجهاد او يرفض الطاعة او حتى يتردد فهو خارج على الدعوة ، وهو مرتكب للخيانة العظمى للدولة ، فلا بد من حده . فمن آمن عن عقيدة وإيمان خضع للنظام الجديد ، بل وجد فيه لذة روحية لا تعادلها لذة ، ومن لم يؤمن فقد ظل طوال حكم المهدية في خوف وحذر وسجن روحي . وكما ذكرت عند معالجة تعاليم المهدي ان العهد برزت فيه أسماء لامعة في دنيا الحرب والسياسة ولكن في دنيا العقائد والعلم فان المهدية من حيث كونها قوة روحية عظيمة زالت بموت المهدي ولم تجد بعده من ينشر عقائدها بالمنطق والبرهان حتى ينحاز اليها الناس بعد اقناع لا عن كره او ارهاب .

ومهما قيل عن قسوة الخليفة وما عزي من حكم بالحديد والنار فانه كان يطبق مثلا عليا دينية واجتماعية وفقاً لتعاليم المهدية بتنقية النفوس مما علق بها من أدران وبدع وتهيئة الناس ليكونوا في حالة جهاد ، وما ارتكب من مظالم عن جهل وعدم دراية فمرده لأولئك الأتباع . فبعضهم يؤمن بالمهدية إيماناً صادقاً ولكنه جاهل بالدين والسياسة معاً . فيقسو الى درجة تنفير القلوب وكان يجب ان تؤلف . وبعضهم يجد في قلبه ذرة من الايمان بالمهدية وما تنادي به ولكنه يطلب مركزاً وجاهاً في الحكومة الجديدة فيتظاهر بالايمان ويتملق فيجد ما يطلبه من جاه ومن مركز فلا هو بمؤمن حتى يطبق التعاليم والاحكام عن عقيدة ولا هو بذي كفاية فينصف . وظلت

الاداة الحكومية بذلك في يد جاهل لا يدرك كنه التعاليم ولكنه يتعصب لها او في يد امراء لا يعتقد ولا يدرك فهو يسير وفق منفعته الذاتية ورغباته الخاصة . وفوق ذلك فالانقسامات الداخلية التي بدأت تظهر منذ وفاة المهدي ظلت عنصر ضعف في الاداة الادارية الى ان تقلص ظلّ المهدية .

صفات الخليفة

وقد ُعرف الخليفة بالذكاء والفراسة وظل وفياً لمبدئه وإمامه الى آخر نسمة من حياته وما انقطع يوماً واحداً الا لمرض يقعده من حضور الصلوات الخمس في المسجد الجامع إماما لانصار المهدية وفيما يلي صورة قلمية عنه اخذها نعوم بك شقير من الذين لازموه وعرفوه حق المعرفة : —

« ربع القامة أسمر اللون أشيب الشعر عربي الملامح خفيف الشاربين خفيف اللحية مستديرها يهذب لحيته وشاربيه . على وجهه آثار الجدري أقنى الانف حسن الفم قصير الشفتين حتى تكاد اسنانه تظهر من خلالهما . فاذا تكلم برزت لامعة بيضاء كأنه يبتسم . وبالاجمال فانه كان كثير الشبه بالمهدي بالقد والملامح إلا انه أقصر قليلاً من المهدي وأقل سمرة واضيق جبهة واصغر لحية .

ويلبس الجبة المرقعة فوق سراويل من الدمور المعروف بالقنجة والعمة المفلجة فوق المكاويه مدلاة منها عذبة على كتفه اليسرى . ويلقي على كتفه رداء بطرف حرير ازرق ويتمنطق بمرقعة حول خصره وكتفه اليسرى . ويتلثم برداء من الشاش الرفيع فوق العمة بحيث لا يظهر من تحته الا دائرة وجهه . ويلبس في عنقه سبحة كبيرة وفي قدميه الخف الاصفر في الحذاء الاصفر . فاذا جلس خلع الحذاء وابقى الخف وتربع على عنقريب فوقه فروة من جلد الضأن ، وهي التي يصلي عليها . وكان مولعاً بالتطيب والنظافة فكانت رائحة الطيب تفوح من ثيابه على بعد خطوات . واذا مشى حمل بيساره سيفاً

وبيمينه حربة قصيرة هندوية ، ومشى وراءه بعض غلمانه مـــن الاحباش وغيرهم . وهو يعرج في مشيته عرجا خفيفا وسبب عرجه انه وقع عن حصانه بعد فتوح الابيض فكسرت ساقه وكان يركب جملاً او جواداً او حماراً او احدى العربات التي غنمها من الخرطوم .

حياته اليومية

وفيما يلي ايضاً اقدم وصف لحياته اليومية كما استقاها شقير بك من امنائه واخصائه : — « كان يقوم عند طلوع الفجر ويدخل الجامع فيصلي في الناس صلاة الصبح ثم يمكث في مصلاه قليلاً ليسمع شيئاً من الراتب ، ويرجع الى منزله فيخلع الجبة والسراويل ويلبس مشقة كما هي عادة اهل السودان في منالهم ويطلب الطعام ، فيأتونه بشيء من الزبدة البقرية واللبن البقري الحليب . ثم ينام الى الضحى وعند استيقاظه يطلب الطعام ، ويأتونه بعصيدة من الدخن وعليها ملاح التقلية او ام دقوقة وهو ملاح مركب من السمن والشرموط البقري والويكة مع الشطة والملح والبصل . ثم يأتونه باللحم المنصص وهو عضو من خروف الضأن مشوي على النار . ثم يخرج الى مجلسه فيطلب الكتّاب وينظر معهم في تحريراته ومراسلاته الى الضحى الاعلى ، فيصرف الكتاب ويدخل الحريم فيستريح الى الظهر ثم يدخل الجامع وبعد ان يصلي الظهر في محرابه يجلس تحت الرواكب فيجتمع الامراء والاعيان والقضاة حوله حلقة واسعة ، ومن ورائهم الملازمية وكلهم جاثون على ركبهم منكسو الرؤوس وايديهم مقبوضة على صدورهم ، او مبسوطة على ركبهم. فيتفقد الغائب منهم ثم يسرع في اصدار الاحكام التي دبرها ليلاً . قال لي بعض الادباء الذي اوجده سوء الحظ في زمن التعائشي ان تلك الساعة كانت اشد الساعات علينا فأنه فيها كان يكسب جام غضبه على من خرجوا عن حد اشارته او خالفوا رأيه او وشي بهم اليه ، فتراه يوبخ هذا ويأمر بسجن

ذاك ونفي ذلك وقتل الآخر ، ثم يدخل منزله فيطلب الطعام فيحضرون له الكسرة والطبيخ فيدعو اليه بعض التعائشة والقضاة فيأكلون معه وينصرفون الى العصر . فيرجع الى الجامع لصلاة العصر ثم يعود الى منزله .

وكان في غالب الايام يولم وليمة عامة بعد صلاة العصر لجيشه كله فيقدم لهم طعام الكسرة وعليها اللحم المشوي من الضأن او البقر يضعه في قدح كبير يسع اردب غلة وهو قدح ود زايد المشهور الذي غنمه في سنة ١٨٨٦ كما مر . وكان الجيش يأتي الى الطعام افواجاً حتى لقد تدوم الوليمة من صلاة العصر الى ما بعد صلاة الغروب . وبعد صلاة العصر يجلس قليلاً لسماع شيء من الراتب ثم يخرج الى الجامع فيذهب في الغالب الى مكان معد له في شرق القبة ليرى الملازمية وهم يقرأون الراتب وقد ينتظر الى تمام الراتب فيأمرهم بضرب البوري واجراء التمرينات العسكرية الى قبيل المغرب ، فيدخل المنزل ويجدد وضوءه ثم يدخل الجامع فيصلي المغرب ، ويجلس في مصلاه للمذاكرة والامر والنهي كالجلسة التي بعد الظهر ، ويرجع الى منزله فيطلب العشاء فيؤتى بالكسرة والطبيخ كالظهر فيتعشى ويستريح الى وقت العشاء فيصلي العشاء في الجامع ويدخل منزله للنظر في الامور الهامة مع اهل مشورته وكبار دولته كابنه عثمان شيخ الدين واخيه يعقوب وقاضي الاسلام وشيخ السوق وامين بيت المال وامين بيت مال الخمس . فينظر مع كل منهم شؤون مصلحته ويدبر امور المملكة على ما يقتضيه رأيه.

كل ذلك وملازمو الباب جالسون بباب داره او في الجامع منتظرين اشارته ويمكثون كذلك حتى يغلق باب منزله ويتحققوا انصراف مجلسه فينصرفون .

ثم يدعو رئيس خصيانه عبد القيوم وحده او يدعو محمد بشير وكيل الفيء معه فينظر معهما في نفقات منزله » .

نهاية الخليفة شريف وابناء المهدي الكبار

وعوت الخليفة شريف وابناء المهدي من أم درمان مع الخليفة عبد الله بعد الواقعة ولكنهم بقوا في الجزيرة أبا وسلموا لقوات الحكومة في نوفمبر سنة ١٨٩٨ وارسلوا معتقلين الى حلفا ومن هناك أذن لهم بالاقامة في الشكابة بين مدني وسنار على النيل الازرق ، وفي أغسطس سنة ١٨٩٩ ترامى الى الحكومة بواسطة جواسيسها ان الخليفة شريف عاد لقراءة الراتب ، وانه ينوي مغادرة الشكابة والالتحاق بالخليفة عبد الله في الغرب . فقام سمث بك من سنار مع بلوك من العساكر في وابور وباغت القرية في الصباح وأحاط بها ولم يقابلوا بعداء من اهل القرية في اول الامر . ولكن حينما قبض على الخليفة شريف وابني المهدي حاول البعض تخليصهم بالقوة فعد" هذا مظهرا عدائيا ، فاشعل الجند النار في القرية وقتلوا عددا من الرجال وأسروا الباقين، وأعدم الخليفة وابنا المهدي في الحال رميا بالرصاص دون ابعاثهم لسلطات عليـا .

نهاية عثمان دقنه

اما عثمان دقنه رجل المغامرات والعقيدة فانه افلت في واقعة عطبرة . والتحق بالخليفة في أم درمان ، واوقع في واقعة أم درمان خسائر جمة بفرقة الخيالة الانجليز ثم صاحب الخليفة وظل ملازما له حتى موقعة جديد وموت الخليفة ، ومنها وجد طريقه الى تلال البحر الاحمر ينوي الوصول الى الحجاز. وبواسطة احد المشايخ تمكنت الحكومة من القبض عليه وارساله الى سجن رشيد ثم الى حلفا .

حركة علي عبد الكريم

وفي اول سنة ١٩٠٠ ظهر فريق من الانصار في أم درمان كانوا عنصر اقلاق للامن العام . فهم يؤمنون بانه بعد موت الخليفة يحل زمن نبي الله عيسى وهم لا يدرون اين يظهر ومتى وهم على استعداد لتأييده ويعتقدون فوق ذلك بان افعال الانسان كلها صادرة عن ارادة الله . فليس فيها شر وخير وليس فيها مندوب ومكروه . وانهم الآن لا ينوون شرا بالحكومة ، فقد أراد الله ذلك ولكنهم اذا ما دعاهم الوحي للثورة فهم يفعلون . ولهذا الاحتمال رأت الحكومة ان تقبض عليهم وان تجمع مجلسا من العلماء وارباب الطرق ليقضي فيهم . فحكم عليهم بالنفي لان ما جاءوا به بدعة دينية ، ولان احتمال ثورتهم على الحكومة ينذر بخطرهم على الامن العام .

أسس الحكم الجديد

حجة انجلترا لرفع علمها

اتضح لنا فيما مضى من فصول ان النظرية البريطانية التي واجهت بها الدول الاوروبية فيما يختص بالسودان انه جزء من مصر وانه لا اعتراف بانفصاله واثناء حكم الخليفة وعدم استعداد مالية مصر وجيشها للدخول في عمليات حربية لاسترجاعه منعت بريطانيا الدول الاوروبية من احتلال اي جزء من وادي النيل احتلالاً دائما وساءت العلاقات مع فرنسا لان الاخيرة صممت على إرسال حملة لتحتل فشودة ولترفع العلم الفرنسي . والحملة التي قادها كتشنر لاسترجاع السودان كانت باسم الخديوي وعندما تم استرجاع دنقلا وبربر وكسلا رفع العلم التركي كما هي الحالة في مصر نفسها . وعندما انتصر كتشنر على محمود في واقعة النخيلة وبدأ يواصل زحفه نحو أم درمان بعث سلسبري لكرومر في ٣ يونيو سنة ١٨٩٨ برسالة وضعت الاسس القانونية لاشراك بريطانيا في الحكم في السودان .

وصلت رسالة من سلطان تركيا للحكومة البريطانية ظاهرها ودي ولكن بها تلميحات مؤداها انه ربما احرج موقف بريطانيا نسبة لسيادته الشرعية على الخديوي ويرجح ان فرنسا كانت وراء هذا الموقف لانها كما قدمنا لا تعترف بحماية انجلترا لوادي النيل وتفضل عليها سلطة الخديوي الشرعية المستمدة من تركيا . ولذلك يرى سالسبري ان لا يترك العلم التركي بمفرده بل يجب ان يرفع معه العلم الانجليزي عندما يصل كتشنر

للخرطوم ويقضي على قوة المهدية وبذا يكـون لانجلترا الحق القانونـي بالاشتراك في حكم السودان لانها ساهمت بجيشها وماهـا ونتيجة لذلك اعفت مصر من دفع دين يبلغ مقداره ٨٠٠ الف جنيـه واعتبرته مساهمـة بريطانية لتجهيز الحملة . ولم يكن كرومر متحمسا لهذا الرأي في اول الامر ولكنه عاد وأيده تمام التأييد بعد مضي نحو اسبوع .

اعلان حكم ثنائي

أعلن كتشنر اذا وهو يزحف جنوبا ان يرفع العلمين المصري والانجليزي عندما يدخل ام درمان فاتحا ، وفي ذلك علامة ظاهرة على اتجاه الحكم الجديد ومعناه ان السودان ستديره شركة ثنائية ، عضواها الحكومتان المصريـة والانجليزية ، وفي زحمة النصر لم يقابل هذا العمل الا باعتراضات ضئيلـة خافتة الصوت . وعندما رجع كرومر من اجازته وضع بمعاونة المستشار القضائي للحكومة المصرية نص اتفاقية يدار السودان بموجبها وبعث بهـا لحكومته للتصديق عليها . وفي ٤ يناير سنة ١٨٩٩ وهـو يخاطب الجمهور المحتشد من الاعيان والزعماء في أم درمان أراد ان يحضّر الاذهان للاتفاقية التي سوف تذاع عن قريب . وما كان يعني آنذاك ذلك الجمع الذي وقف يستمع اليه ، فهم قد رضوا بحكم القدر ولا يهمهم من يحكمهم . ولكنه يقصد الرأي العام في مصر وانجلترا واوربا فخاطبهم قائلا « ترون امـام اعينكم الآن تينك العلمين يرفرفان من اعلى هذا المنزل وفي ذلك دلالة واضحة على انكم ستكونون تحت حكم جلالة ملكة انجلترا وخديـوي مصر في المستقبـل » .

امضاء الاتفاقية

وما ان عاد كرومر من رحلته هذه في السودان حتى واتاه التصديق

بامضائها وتم التوقيع في يوم ٩ يناير سنة ١٨٩٩ على وثيقة اتفاقية الحكم الثنائي . وحملت توقيع كرومر من الجانب الانجليزي وتوقيع بطرس غالي باشا من الجانب المصري . واذا كان كرومر صاحب الرأي الغالب في هذه الاتفاقية فلنستمع لما يسوقه من منطق بنى عليه هذه الوثيقة الفريدة في نوعها وقد افرد لها فصلا خاصا في المجلد الثاني من كتابه «مصر الحديثة» .

ادارة بريطانية في الحقيقة

رأى ان الادارة الجديدة في السودان يجب ان تسيطر عليها أيـادي بريطانية حتى لا تعود المظالم التي ارتكبت في العهد الماضي ، والتي يرى انها رمت بالبلاد في اتون الثورة المهدية . ويرى ان تنفصم اية صلة بينها وبين السيادة التركية ، ولا يترك سبيلا للامتيازات الاجنبية لتجد طريقها الى السودان ، وقد عانت مصر ما عانت منها . وكان الطريق الواضح لتلبية هذه المطالب هي ضم السودان الى الامبراطورية البريطانية . واذا قيل بأن الجيش المصري والخزانة المصرية تحملنا اعباء اكبر العبء لاستعادة السودان فيرد بأن ما وصله الجيش المصري من كفاءة واستعـداد يعزى للتدريـب والقيادة الانجليزيتين . والخزانة المصرية ما استقرت وبدأت تفيض وارداتها على مصروفاتها الاّ بفضل الادارة الانجليزية الحازمة الرشيدة . وحتى اذا رأت مصر انها ضحت بالرجال والاموال فيكفيها تأمين حدودها الجنوبية ، وقد كانت معرضة لغزوات المهدية الخاطفة ، ويكفيها ايضا وصول الميـاه الكافية في شريان حياتها النيل ، وانه طالما تسيطر على أعلاه وروافده دولة صديقة مأمونة الجانب فالرجال والاموال المضحاة جنيت ثمارها .

لا بد من ارضاء مصر

ولكن من الجانب الآخر تخشى انجلترا معارضة الرأي الدولي ، وخاصة

فرنسا ، وهي تقف لانجلترا بالمرصاد ، وما تركتها تهدأ منذ ان احتلت مصر. وما اصدرت الحكومة الفرنسية الامر لقائدها مرشان بالانسحاب من فشودة الا حين ووجهت بحجة انها كانت من الاملاك الخديوية . وكان كتشنر بعيد النظر في السياسة عندما رفع العلم المصري وحده بالقرب من المعسكر الفرنسي والحلة عندما تحركت وعندما دخلت العربان في خدمتها ومعاوتنها ، كانت باسم الخديوي . وحين دخول الجيش المصري في دنقلا وكسلا وبربر خفق العلم المصري وحده . ومهما كانت الادارة الانجليزية رشيدة ومهما كان فضلها في تدريب الجيش وتحسين المالية فالحقيقة التي لا مراء فيها فهو جيش مصري والاموال مصرية . ازاء هذه الظروف ليس من العدل والانصاف ان ترفع اليد المصرية بالمرة عن ادارة السودان وخاصة ان انجلترا آنذاك ترى في ادارة السودان عبئا ثقيلا وليس ما يعين على نموه وتقدمه الا المعونة المالية المصرية .

وثيقة ترضي سيطرة انجلترا وبعض مطالب مصر

وكان على كرومر والحالة هذه ان يخترع اداة ادارية تكفل السيطرة الانجليزية وتبعد دعوة السيادة التركية وشبح الامتيازات الاجنبية وفوق ذلك ترضي بعض الشيء الاماني المصرية والاحتجاجات الدولية . وكان عليه ان يضع الوثيقة التي ترضي كل هذه الاعتبارات في لغة واضحة نوعاً ما وان يكون اشتراك انجلترا في الحكم مبنياً على اساس قوي لا كثل مركزها الضعيف من الوجهة الشرعية في مصر . واذاً فمقدمة الاتفاقية تبين بوضوح ان انجلترا لها ان تشارك في ادارة السودان بحق الفتح حتى لا تنشأ اشكالات في المستقبل وحتى لا تتلقى في المستقبل الضربات والهجمات على مركزها مثل ما ظلت تعانيه في مصر ، وان السيادة تتركز في انجلترا ومصر وعلى ذلك

فالسيادة التركية قد ازيلت قانونيا بعدما ازيلت في الواقع بواسطة الثورة المهدية . وعندما تأكد كرومر من متانة اسسه وضع الهيكل الذي يضمن تنفيذ المطالب الآنفة الذكر بطريقة عملية .

ملخص الوثيقة

عين خط عرض ٢٢ شمالاً كحد فاصل بين مصر والادارة الجديدة وترك الحد الجنوبي بلا تعيين للاتفاق عليه بين الدول المجاورة وكعلامة ظاهرة للاشتراك في الحكم يرفع العلمان المصري والانجليزي على دور الحكومة وتكون الادارة العسكرية والمدنية العليا بيد موظف ترشحه حكومة جلالة الملكة ويعينه خديوي مصر . ولا يزايل مركزه الا بموافقة حكومة جلالتها ويكون لقب ذلك الموظف « حاكم عموم السودان » ولمنشوراته حكم القانون . ولا يسمح لتمثيل قنصلي في السودان الا بموافقة الحكومة البريطانية ، ولا تمتد سلطة المحاكم المختلطة الى اي جزء من السودان. والنقطة البارزة في هذه الاتفاقية ان تعيين الحاكم العام ترك امر ترشيحه للحكومة الانجليزية واعطي سلطات كبيرة تجعله في حكم المستقل عندما يصدر الامر بتعيينه . فليس له ان يرتبط بتصديق مبدئي حين يشرع وحين يرسم الخطط التي تؤدي الى تقدم البلاد ورفاهيتها . وقد يستعين بأحدى الحكومتين وقد يقتبس من نظمهما ، ولكنه ليس بملزم قانونيا الحصول على موافقتها ، طالما ان الامر يختص بالادارة الداخلية وبالمالية السودانية ، وطالما ان هيكل الاتفاقية ونصوصها سليمة لم تمس وقد ارضى كرومر كل الدول بأن منح حرية التجارة مع السودان وان جميع الاجانب سواء من حيث السكنى وامتلاك الاراضي .

وهاك نص الاتفاقية انقلها من نعوم شقير بك :

وفاق

بين حكومة جلالة ملكة الانجليز وحكومة الجناب العالي خديوي مصر بشأن ادارة السودان في المستقبل

حيث ان بعض اقاليم السودان التي خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية المالية التي تمت بالاتحاد حكومتي جلالـة ملكة الانجليز والجواب العالي الخديوي ، وحيث قد اصبح مـن الضرورة وضع نظام مخصوص لاجل ادارة الاقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه من الجانب العظيم من تلك الاقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال الى الآن ، وما تستلزمه حالة كل جهة من الاحتياطات المتنوعة . وحيث ان من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتب على ما لها من حق الفتح وذلك بأن تشترك في وضع النظام الاداري والقانوني الآنف ذكره وفي اجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه في المستقبل . وحيث انه تراءى من جملة وجوه اصوبية الحـاق وادي حلفا وسواكن اداريا بالاقاليم المفتتحة المجاورة لهما . فلذلك قد صار الاتفاق والاقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتي وهو :

المادة الاولى : تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق على جميع الاراضي الكائنة في جنوب الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي :

اولا : الاراضي التي لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ .

ثانيا : الاراضي التي كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقد منها وقتيا ثم افتتحتها الآن حكومة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد .

ثالثا : الاراضي التي قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعدا .

المادة الثانية : يستعمل العلم البريطاني والعلـم المصري معا في البر والبحر بجميع انحاء السودان ما عدا مدينة سواكن ، فلا يستعمل فيها الا العلم المصري فقط (الحقت سواكن بادارة السودان في اتفاقية خاصة في يوليو سنة ١٨٩٩) .

المادة الثالثة : تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوي بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته الا بأمر عال خديوي يصدر برضاء الحكومة البريطانية .

المادة الرابعة : القوانين وكافة الاوامر واللوائح التي يكون لها قوة القانون المعمول به والتي من شأنها تحسين ادارة حكومة السودان او تقرير حقوق الملكية فيه بجميع انواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها او تحريرها او نسخها من وقت لآخر بمنشور من الحاكم العام وهذه القوانين والاوامر واللوائح يجوز ان يسري مفعولها على جميع انحاء السودان او على جزء معلوم منه ويجوز ان يترتب عليها صراحة او ضمنا تحوير او نسخ اي قانون او اية لائحة من القوانين او اللوائح الموجودة .

وعلى الحاكم العام ان يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل الى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة والى رئيس مجلس نظار الجناب العالي الخديوي .

المادة الخامسة : لا يسري على السودان او جـزء منه شيء ما من القوانين او الاوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعدا الا ما يصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها .

المادة السادسة : المنشور الذي يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للاوروبيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة او السكنى بالسودان او تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا اية دولة او دول .

المادة السابعة : لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الاراضي المصرية حين دخولها الى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع العادية من غير الاراضي المصرية الا انه في حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتية الى السودان عن طريق سواكن أو أية ميناء اخرى من موانيء ساحل البحر الاحمر لا يجوز ان تزيد الرسوم التي تحصل عليها عن القيمة الجاري تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج . ويجوز ان تقرر عوائد على البضائع التي تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت الى آخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن .

المادة الثامنة : فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه (اصبح الحكم نافذا حتى على سواكن بعد اتفاقية يوليو سنة ١٨٩٩) .

المادة التاسعة : يعتبر السودان بأجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الاحكام العرفية ويبقى كذلك الى ان يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام .

المادة العاشرة : لا يجوز تعيين قناصل او وكلاء قناصل او مأموري قنصلاتات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية .

المادة الحادية عشرة : ممنوع منعا مطلقا ادخال الرقيق الى السودان او تصديره منه . وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشــأن .

المادة الثانية عشرة : قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما عل ىتنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة النارية والذخائر الحربية والاشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها .

تحريراً بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الامضاءات كرومر بطرس غالي

الصفة البارزة

والصفة البارزة في الاتفاقية الجديدة كما ذكرنا من حيث الادارة هي أنها وضعت في يد الحاكم العام سلطات واسعة حتى لا يعوق الرجوع الى الحكومتين السائدتين حركة الاصلاح المراد القيام بها ومع ذلك فالمعتمد البريطاني في مصر وخاصة في عهد كرومر يشرف من بعيد على ما يجري في السودان ويشير وينصح عند الضرورة .

كتشنر اول حاكم عام

ورأت الحكومة الانجليزية أنه ما من رجل أقدر على إدارة البلاد تحت النظام الجديد من اللورد كتشنر . فهو قائد الجيش الذي فتح البلاد ولا يزال يطفىء الثورات ويقضي على جيوب المقاومة ، ولا يزال الخليفة تلتف

حوله الجموع ليلاقي الجيش سواء مهاجماً أو مدافعاً . وفوق ذلك فكتشنر عرف البلاد وخبر أحوالها عنـدما كان ضابط اتصال بين غوردون وحملة الانقاذ ، وعندما كان محافظاً لسواكن . وأثناء تجهيز الحملة جمع من البيانات والمعلومات عن السودان ما لا يتأتى لرجل غيره . وتعيينه لا يثير ضجة أو غباراً فهو يحتل مركزاً ممتازاً في الحكومة المصرية كسردار للجيش المصري والآن يضطلع بادارة السودان فوق قيادته للجيش .

تعليمات ونصائح كرومر

مع وثيقة الحكم الثنائي بعث كرومر لكتشنر بخطاب خاص يشير عليه بأن يسمح للموظفين الذين يعملون تحت إمرته التحدث معه بصراحة دون خوف منه وأن يطلعه (كرومر) على كل مشاريعه قبل بداية العمل بها . فالادارة المدنية تختلف عن الادارة العسكرية بضرورة الصراحة والوضوح والمشورة ويتمنى أن ينجح كتشنر في الادارة المدنية مثلما نجح في القيادة العسكرية وأن لا يجعل للتوافه سبيلاً للاستيلاء على تفكيره والمرونة وعدم التعصب لرأي خاص صفتان لازمتان لمثل إدارته . وكرومر من جانبه لا يود تدخلاً في التفاصيل ولكنه يرعى المسائل الهامة مثل مياه النيل وأية امتيازات كبيرة تمنح للأوروبيين أو غيرهم . وفي خطاب خاص للكولونيل جاكسن وكان قائماً بأعمال الحاكم العام بعد مغادرة كتشنر البلاد وقبل تعيين ونجت أشار عليه بأن لا يسمح للمآمير المصريين التأثير في رؤسائهم الانجليز في علاقاتهم مع الاهالي . فجهلهم بلغات وعادات الشرقيين ربمـا يجعلهم يعتمدون على مرؤوسيهم اعتماداً كلياً تحملهم مسؤولية ما يرتكب من أخطاء وتقود في نهايتها لان يكره الاهالي حكم البريطانيين وينفرون منه . ويرى كرومر أن يتصل الحكام من البريطانيين اتصالاً مباشراً بالاهالي ويتعلمون لغتهم ويدرسون عاداتهم .

وتيسيراً للأمر واقتصاداً للنفقات رؤي أن يقوم بحكم المديريات والمراكز ضباط الجيش المصري ايضاً . ومن محاسن الصدف لتنفيذ السياسة الكرومرية دون جلبة أو ضوضاء ان كان معظم الضباط العظام في الجيش المصري مـــن الانجليز . فــهم يحتلون مناصب المديرين والمفتشين ويبقى للمصريين إدارة المراكز والمأموريات . وماهيات الجميع من الخزانة المصرية لانهم ضباط جيشها . ومثل ما كان السردار أجدر من يحكم البلاد في مثل تلك الظروف لما تتطلبه من خشونة وصبر على مغالبة الطبيعة فغيره من الحكام قد صقلتهم حياة الجندية وُمرّنوا على الطقس وتحمل المشقات ، وهم يرابطون في الحدود على أهبة الاستعداد حتى لا يباغتهم الانصار بالهجمات الخاطفة . والقانون العسكري الذي ألفوه وعملوا به في الثكنات سوف يطبق على السكان المدنيين إلى أن تشرع القوانين وتصدر اللوائح المدنيــة .

اصدار جريدة اللواء

كل تلك التطورات تحدث في سنة ١٨٩٩ إلى أن انقضت السنة وتغلب الجيش على الخليفة وصدرت جريدة اللواء لمصطفى كامل في ٢ يناير سنة ١٩٠٠ منطرفة في وطنيتها . وتعالى صوت مصر بعد ان ظل خافتاً نوعاً ما اثناء عقد الاتفاقية وأثناء تنفيذها في السنة الاولى من حياتها . وكانت الحرب دائرة على أشد ما يكون عنفاً وشدة بين الانجليز والبوير . وكان ان لقي البوير انتصارات رائعة على الامبراطورية البريطانية ، واللواء تغمز وتعرض بتقلص النفوذ البريطاني وتنشر بحروف واضحة ما يصل اليها من أنبــاء القتال وانتصار البوير .

مقال لمصطفى كامل

وفي يوم ٢٠ يناير سنة ١٩٠٠ نشر مصطفى كامل مقالا ناريا ً لمناسبة مرور عام على اتفاقية السودان قال فيها « وان اكبر ايام الشقاء في تاريخ مصر وأسوأ تذكار يهيج في نفوس المصريين الاحرار الآلام والأشجان هو يوم ١٩ يناير يوم تذكار اتفاقية السودان ، ذلك اليوم المشؤوم الذي اعلنت فيه الحكومة الخديوية للأمة المصرية وللعالم كله ان السودان صار مستعمرة انجليزية بالفعل وان المشاق الهائلة والاتعاب الجسيمة والأموال الباهظة والدماء الطاهرة التي صرفت في سبيل استرداده قدّمت هدية من مصر للدولة البريطانية . فما أعظمك يا مصر كرما ً واكبرك بلاء وهمًا .

اجل كان الامس تذكار المصيبة الكبرى والداهية الدهماء التي انزلها وزراء مصر وساسة البريطان على امتنا الأسيفة من سماء عدالتهم وانصافهم. فان كان لكم معاشر المصريين شعور وإحساس فتذكروا هذه الحادثة تذكر الاحياء ، واعتقدوا ان حقوقكم في السودان مقدّسة وان كل المعاهدات والاتفاقيات لا تميت هذه الحقوق ابدا ، وعلّموا أبنائكم معنى هذه الحقوق المقدسة ليطالبوا بها كبارا ً ، او يحافظوا عليها ان استرجعتموها انتم .

تذكروا معاشر المصريين ان اخوتكم في الوطن والدين اهرقت دماؤهم العزيزة في سبيل استرداد السودان . تذكروا معاشر المصريين ان ارض السودان رويت بدمائكم وصرفت فيها اموالكم وسلبتكم اشد الرجال واعز الأبناء . تذكروا معاشر المصريين أن مصر لا حياة لها بغير السودان وأن القابض على منابع النيل قابض على أرواحكم . تذكروا معاشر المصريين أن ضياع السودان ضياع لمصر وأنكم بغير السودان فاقدون الحياة . تذكروا معاشر المصريين أن اتفاقية السودان مخالفة لدستور البلاد وفرمانات جلالة السلطان الأعظم ومعاهدات الدول الأوروبية . تذكروا معاشر المصريين أن

فرنسا لم تنس الألزاس واللورين إلى اليوم وقد مضى على انفصالها ثلاثون عاماً وما حاجة فرنسا اليها كحاجة مصر الى السودان .

وما أذكركم بالسودان إلا لتفكروا فيه صباحاً مساء وتعتبروا الاتفاقية المشؤومة اتفاقية باطلة حتى يجيء اليوم الذي تحققون فيه رغائبكم وتكون الحكومة طوع إراداتكم تصير كلمتكم في بلادكم هي الكلمة النافذة كغيركم من الأمم الحرة والشعوب الحية المستقلة » .

وأثارت هذه الافتتاحية حماساً وشعوراً فياضاً بين الطبقات المتعلمة في مصر ونزلت كالثلج على الحكومة المصرية التي وقعت على الاتفاقية .

وفي اليوم التالي كتب ما يلي : — « وقد اعترضنا أحد أنصار الوزارة الفهمية فقال : ما بالكم تحملون على الوزراء في مسألة السودان وأنتم تعلمون أكثر من كل انسان ان الوزارة لا حول لها ولا قوة وأنها مسوقة الى ذلك بقوة بريطانيا وتهديداتها » فأجبناه « ان الأمر بسيط فان الوزارة الفهمية اذا كانت تعمل ما تعمل مضطرة فما عليها إلا ان تبرىء نفسها أمام أميرها وأمام أمتها ووطنها وتستقيل من منصبها قائلة الموت أحب إليّ من القضاء على حقوق مولاي وحقوق أمتي . عندئذ كنا نضرب بوزارتنا الأمثال للناس في الشهامة وعزة النفس والوطنية » .

عصيان بعض الجنود في ام درمان

وهكذا نبتت بذور الاستياء من الاتفاقية عند فريق من المصريين وظلوا يجاهرون ببطلانها قانونياً لانها إرغام من قوي على ضعيف . وسرى الحماس الى صفوف الضباط في الجيش المصري . وشاءت الاقدار ان يسحب عدد من مدافع مكسيم الجيش المصري ليبعث بها الى جنوب افريقيا ، وطارت إشاعة بأن الأورط السودانية في الجيش المصري سترسل الى ميادين القتال . ورافق

ذلك أن ماكسويل باشا بدأ يجمع الذخيرة التي في أيدي الجنود . فوجد من الضباط المتحمسين من حفز الجند للعصيان والامتناع عن تسليم الذخيرة ، وكان ان هجموا عليها لاستردادها بعد ان سلموا جزءاً منها . وامتنعت نهائياً الاورطة الرابعة عشرة السودانية من الرضوخ . وظلت الحالة في ام درمان مقلقة الى ان تعاون الجنود الكبار في الاورطة مع ضباطهم السودانيين بتسليم الذخيرة تدريجياً ، وانشئت محكمة لحقيق لتعاقب المحرضين واتت الرسائل من الخديوي تستنكر هذا العمل ، وتؤيد السردار الجديد السر ريجنلد ونجت باشا وحكم على بعض الضباط بالرفت وبعضهم بالتوبيخ وذهب المحكوم عليهم الى القاهرة مخفورين وانتهى تمرد لو لم يكن محصوراً في اورطة واحدة لادى الى زعزعة اركان الحكم الثنائي ، وهو علامة ظاهرة لروح السخط السارية بين الضباط المصريين من عدم اسناد وظائف كبيرة لهم في الادارة الجديدة ، ومن عدم اجابة بعض مطالبهم فيما يختص بالماهية، وفوق ذلك كانوا يرون في معاملة كتشنر قسوة وشدة .

اعضاء الجمعية التشريعية والسودان

وقد اجاز اعضاء الجمعية التشريعية اعانة السودان لانهم يرون في السودان جزءاً لا يتجزأ من مصر ، وما كان لكرومر ان تفوته الملاحظة والتعليق على مثل هذا الرأي ، فقد بين في تقريره لتلك السنة ان ليس لديه ما يعترض به على هذا الرأي ولكن السودان يدار بموجب اتفاقية ارتضاها الطرفان ورأى في ذلك مناسبة يبين السبب الذي من اجله يحكم السودان بذلك النوع الغريب من الاتفاقية فواضعو المشروع يهدفون الى غايتين . الاولى حكومة رشيدة لاهالي السودان والثانية التخلص من الامتيازات الاجنبية وما تجره من عراقيل . ولم يكن الغرض حسب ما بيّن كرومر هو الحيلولة بين مصر وحقوقها المشروعة . واجابة لما أراده اعضاء الجمعية من بحث تفاصيل الايرادات والمصروفات لحكومة السودان لا يرى مانعاً من ذلك

ما لقيته مصر حسب راي كرومر

وظل كرومر يتحسس ما يوجه من نقد للسياسة الانجليزية في السودان ويرد عليه . وحين علم بأن الرأي السائد في الاوساط المصرية لا يرى مقابلا لما بذلته من تضحيات في الانفس والأموال ، يقول ان مصر جنت فوائد ليس في الاستطاعة تقديرها بالارقام . فقد زال خطر الغزو لمصر من الجنوب نهائياً وبذا تخلصت مصر من نفقات عسكرية باهظة . وكذلك ضمنت موارد مياهها وكان من المحتمل ان تقام مشروعات ري كبرى في السودان تجعل حياة مصر الزراعية في خطر . وكذلك انتعشت التجارة بين القطرين ، وبعد ذلك كله يحق لمصر ان تفخر كما لبريطانيا ايضاً بأن أعادت السودان الى حظيرة المدنية والحضارة .

مسائل الحدود مع ايطاليا

واذا كان للحكم الجديد ان يستقر هيكله الداخلي وتتركز الاتفاقية ، فان مشاكل الحدود لا بد من تسويتها مع ايطاليا والحبشة والكونغو البلجيكي . وكان مسلك الحكومة الايطالية منذ البداية مسلك التعاون والوفاق . فانجلترا لبت نداءها عندما طلبت منها القيام بعمليات حربية في دنقلا او سواكن . وايطاليا احتفظت بكسلا الى ان سلمتها للجيش المصري. وبعد مفاوضات بين انجلترا وايطاليا تقابل كرومر مع وزير الخارجية الايطالية في روما واتفق امرهما على تفويض حاكم السودان العام وزميله حاكم ارتريا لتعيين الحدود وتم ذلك على وفاق وتعاون .

الحدود مع الحبشة

ولو ان منليك رحب بالجيوش الفاتحة كجيران أزالوا الحكومة التي

كانت سبباً في مقتل سلفه ، الا أنه كان أقل تعاوناً من ايطاليا في هذه المسألة . فهو وان كتب خطاباً رقيق العبارة للسردار يهنئه بالفتح وازالة الدولة الاسلامية من السودان ، ويشكره على فك اسارى الاحباش الذين كانوا في سجن ام درمان الا انــه ظل يراوغ ويطاول في المفاوضات حتى جرت بينه وبــين المستر هارنجتون معتمد بريطانيا في أديس أبابا ، وظل رؤوسه يعتدون مــن ناحية جيلة والقلابات وفازوغلى ويرفعون الاعلام الحبشية ، ليضعوا حكومــة السودان أمــام الامر الواقع وقــد تساهل هارنجتون معه في مسألة بني شنقول اذ تركها للحبشة بالرغم من انها كانت جزءاً من السـودان لتشبث منليك بها وهي ذات الشهرة بمعادن الذهب ولما قدمه الامبراطور من مقابل اذ منح المستر لين مندوب شركة انجليزية امتياز استغلال تلك المنطقة .

الحدود مع بلجيكا

وادعت البلجيك الحق في احتلال منطقة من بحر الغزال ومنطقة اللادو والرجاف على النيل . وبعد مفاوضات بين الفريقين تم الاتفاق على ان تظل منطقة بحر الغزال بكاملها جزءاً من السودان وان تؤجر منطقــة اللادو للكونغو لضرورتها كميناء نهري ، ويمتد زمن الايجار إلى حياة الملك فقط ، وبعدها تعود لحكومة السودان وما كان لانجلترا ان تسمح لاي دولــة تعترض طريق مصر — الكاب ولهذا رضيت بالايجار الوقتي ولم ترض بالاحتلال الدائم . وأما الحدود مع أوغندة فقد تمت دون اثارة نزاع .

الشؤون المالية

والشؤون المالية ومــا يتبعها خرجت عــن نطاق الاتفاقية حيث ان السودان سيظل حقبة من الزمن دون ان تقوم إيراداته بسد نفقاته ، وعليه

فلا بد ان تتحمل الخزانة المصرية عبء الفرق بين الايرادات والمصروفات . والحالة تقضي إذاً فرض رقابة مالية من الحكومة المصرية على المالية السودانية . وأثناء زيارة كرومر للسودان في يناير سنة ١٨٩٩ وقبل إعلان الاتفاقية قضى جلسات مع كتشنر وسر ألدون غورست المستشار المالي للحكومة المصرية آنذاك في أم درمان ، يضعون الاسس التي تقوم عليها العلاقة المالية بين القطرين : وفي رأيهم أن لا بد من عرض الميزانية السودانية على مجلس الوزراء المصري ، ولا بد للحاكم العام ومستشاره المالي من التزام الحدود التي يوافق عليها مجلس الوزراء ، ولا سبيل إلى تجاوز الارقام التي عرضت وتم التصديق عليها في باب المصروفات إلا بتصديق إضافي من مجلس الوزراء . وللحاكم العام اذا رأى ذلك أن ينقل مبلغاً من باب الى آخر من أبواب المصروفات طالما أنه يلتزم حدود الميزانية العامة وبهذا وضعت أسس وقواعد بسيطة تضمن للحكومة المصرية الرقابة العامة طالما أنها تسدد العجز ، وفي الوقت نفسه تعطي للحاكم العام مجالاً يتصرف في حدود معلومة .

تعليمات للمديرين

قسمت البلاد الى مديريات ، وهذه الى مأموريات او مراكز اضطلع بأعباء ادارتها ضباط الجيش المصري من الانجليز ومصريين . فالمدير الانجليزي يساعده مفتشان انجليزيان ، وعلى كل مركز يقوم مأمور مصري ومعه معاون أو معاونان . ووضع كتشنر الارشادات اللازمة لمن وكل اليهم أمر الادارة . فمنشور للمديرين يخاطبهم فيه بأن القوانين واللوائح التي يجب العمل بمقتضاها سوف تصدر قريباً . ولكن حسن الادارة وانتزاع الثقة والاحترام من السكان لا يتأتيان باللوائح والقوانين ، بل بالاتصال الشخصي مع ذوي النفوذ من الاهالي ولا بد للمفتش ان يعرف كبار الرجال وذوي

المكانة في مركزه ويجلب ثقتهم ورضاهم بما يبديه من اهتمام بأشخاصهم وأحوالهم ، وبواسطتهم ونفوذهم تتمكن من التأثير على الجمهور .

وأكد كتشنر ترك الناس أحراراً فيما يعبـدون ويعتقدون ، وأمر بتشجيع اشادة المساجد العامة في المدن ولكنه لا يسمح بالمساجد الخاصة والتكايا والزوايا الا بترخيص خاص من السلطة المركزية . فقد تكون هذه بؤراً للشغب والتعصب الديني وما يعقبه من اضطراب في حبل الامن العام. وعلى الحاكم الانصات بصبر الى ما يبدي من آراء مهما كانت مخالفة اذا أبديت بروح الصدق وبطريقة محترمة . وألا يصغي بل عليه الملاحظة على حديث المتملقين والكاذبين ، وليعلم الكل ان الرق غير معترف به من قبل حكومة السودان .

تعليمات المفتشين

وللمفتش وهو اركان حرب المدير في حدود مركزه ان يراقب اعمال المأمورين وأعمال البوليس من حيث التحقيق الجنائي وحفظ الامن العام وتقديم تقرير عن الموظفين الذين يعملون في دائرة مركزه للمدير ، اذا أبدى احدهم عجزاً في العمل او ارتكب مظالم ، او كانت حياته الخاصة مجانبة للأخلاق الفاضلة . وله ان يراقب باهتمام شديد وان يمنع ارتكاب المظالم في التحقيق ، وفي جمع الضرائب وكل ما من شأنه اثارة السخط والاستياء بين طبقات الاهالي . وليس من عمله ان يكون حلقة اتصال بين المدير والمأمور بل للأخير حق الاتصال المباشر بالمدير فيما يتعلق بمأموريته ولذلك ليس له مكتب خاص بعماله وكتبته .

تعليمات المامورين

وأشير للمأمورين في منشورهم بأنهم حجر الزاوية في الصرح الاداري

الجديد وعليهم بمسلكهم ان يبرهنوا بأنهم نواب حكومة رحيمة عادلة حتى تكون استجابة الاهالي الاحترام والتقدير لحكومة هـم رسلها وممثلوها وليتذكر المأمورون انهم ورثوا تركة مثقلة بالآلام والمظالم والخوف من رهبة الحاكم وسطوته ، ومن أولـى واجباتهم ان يجعلوا ادارتهم ظاهرة المزايا راجحة الكفة فيما لو وضعت في ميزان مع الحكومة السابقة . ومع ذلك عليهم ان يضربوا بشدة وحزم على ايدي من تحدثهم أنفسهم باقلاق الامن العام او من يرتكبون اعمالاً تعسفية أتينا لازالتها .

ولا بد ان يحاول البعض تقديم رشوة ينال بها العطف والرضا او امتيازات خاصة . فعلى المأمور استهجان مثل هذا العمل وعقاب من يريد ممارسته ، وان يلقى في روع الـ كان ان النزعة السائدة هي تحقيق العدالة دون انتظار ثمن لها من قبل الاهالي . وعليهم القيام بما يجعل الناس يزيدون من مساحاتهم الزراعية والاتيان بمحاصلاتهم وسلعهم الى اسواق تراقب فيها. الاسعار وعليهم ان يكونوا مثلا أعلى في الاخلاق الخاصة من حيث الامتناع عن هتك الاعراض . وأخيراً ختم المنشور بتهديد الرفت والمحاكمة لكل من يرتكب جريمة الرشوة في أي شكل من أشكالها . والمأمور في مركزه هو رئيس البوليس وقاضي الجنايات الصغيرة ومسجل الاراضي وخبير الاهالي الاقتصادي .

قوانين السودان

وكان على كتشنر ان يصدر اولى لوائحه وقوانينه في حق ملكية الأراضي وخاصة في المدن الكبيرة كالخرطوم وبربر ودنقلا . وأصدر كذلك اللوائح التي تنظم الضرائب . ولا بد ايضاً من وضع القوانين الجنائية والمدنية . فقد تعاون المستر وليم برونيات الموظف بوزارة الحقانية في مصر مع المستر بونهـام كارتر السكرتير القضائي لحكومة السودان في وضع

« قانون عقوبات السودان » و « التحقيق الجنائي » وراعياً فيها البساطة وسهولة الفهم والتطبيق . والأول مقتبس بعد تبسيطه من قانون الجنايات في الهند والذي قد نجح تطبيقه قبل ذلك في زنزبار والاراضي التي تقع تحت الحماية البريطانية في شرق أفريقيا ، والثاني يرتكز في أصوله على قوانين الهند ايضاً ولكن نظراً لان الذين يقومون بتطبيقه هم ضباط الجيش المصري رؤى الاحتفاظ ببعض عناصر القانون العسكري في الجيش المصري لمعرفتهم له وخبرتهم به .

النظام القضائي

والنظام القضائي الذي أقيم يتلخص في ان الجرائم تحاكم غالباً في المديريات التي ارتكبت فيها . فالصغيرة منها أمام قاضي يجلس بمفرده والكبيرة منها امام ثلاثة من القضاة بعد التحقيق الأوّلي من قاض واحد ، وهذه المحكمة تسمى « محكمة مدير » أو « محكمة مركزية صغرى » ويرأسها مدير او موظف آخر كبير له سلطة قاض . وفيما عدا القضايا البسيطة فكلها قد تستأنف الى محاكم أعلى . وللحاكم العام الحق في اعادة النظر في كل قضية . والقضايا المدنية يقضي فيها بموجب لائحة سُنت خصيصاً لذلك . والمحاكم الشرعية في المديريات والمراكز تعالج قضايا الاحوال الشخصية بين المسلمين .

ونجت باشا يخلف كتشنر

وعوت الخليفة وحاجة انجلترا لضباطها في حرب البوير غادر كتشنر وادي النيل الى جنوب افريقيا ليكون اركان حرب للورد روبرتس وحل محله كسردار للجيش المصري وحاكم عام للسودان السر ريجلند ونجت ؛ هو مثل سلفة ليس بغريب على الجيش الذي وكلت قيادته له والبلاد التي

وضعت امورها تحت ادارته . فبرئاسته لقلم استخبارات الجيش المصري إبان المهدية عرف عن السودان وعن احواله الكثير بحكم مركزه معرفة مكنته من استلام زمامه ، وهو خبير به وبرجالاته وبالاداة الادارية التي عليه ان يديرها . وكان هو وكرومر على اتفاق من حيث ضرورة استخدام شبان انجليز مدنيين من خريجي الجامعات عُرفوا بمتانة الخلق لتكون منهم نواة سلك اداري سوداني خاص . ومما زاد في ضرورة اتخاذ تلك الخطوة قيام حرب البوير واستدعاء عدد من الضباط . ومنذ سنة ١٩٠٠ بدأ هؤلاء الشبان يحتلون المراكز الادارية التي كان يشغلها الضباط بالتدريج حتى اذا اشرفنا على نهاية الحقبة التي نؤرخها نجد كل المديرين والمفتشين منهم .

كرومر يشرف على السياسة

وقد ظل كرومر يشرف على وضع الاسس العامة لمستقبل السياسة والادارة في السودان الى سنة ١٩٠٧ ، ومن وقت لآخر يصرح بالنقاط الاساسية من تلك السياسة سواء في تقاريره السنوية او خطبه في ام درمان والخرطوم . ففي ديسمبر سنة ١٩٠٠ خطب جمعاً حاشداً في الخرطوم بقوله « الى حضرات علماء السودان وعمده ومشايخه واعيانه وسكانه كافة . اني اشكر لكم من صميم فؤادي خطابكم والترحيب الذي لقيته منكم . عند زيارتي لهذه البــلاد منذ سنتين اوضحت لحضرتكم انكم ستكونون في المستقبل تحت حكومة كل من جلالة ملكة انجلترا وسمو الخديوي المعظم . ولقد صدرت لي الآن اوامر خصوصية من صاحبة الجلالة مليكتي العظيمة التي تحكم في غير هذه البلاد على ملايين مـــن المتدينين بدينكم الشريف لأعرب لكم عن مزيد اهتمام جلالتها بكل ما يؤول الى سعادتكم واني الآن باسم جلالتها سأقلد فرداً من اشرف اهـــالي السودان المسلمين وساماً انجليزيا نظراً الى ما عرضه عنه سعادة الحاكم العام لجلالتها وهو السيد علي الميرغني .

ولقد تقدمت هذه البلاد كثيراً منذ زيارتي الاخيرة لها وترون ان العهد الذي عاهدتكم عليه وقتئذ مـن جهة اختـرام دياتكم وعوائدكم الدينية قد روعي كل المراعاة . ولقد انشئت لكم المحاكم والمدارس وضربت على اطيانكم ضرائب خفيفة جمعت منكم على ما اظن بلا ظلم ولا اكراه ، وتم وصول سكة الحديد الى الخرطوم ، ولي امل ان تكونوا قد اصبحتم مقتنعين بأن حكامكم سواء كانوا انجليز او مصريين — ولا اميز بينهم لانهم مشتركون في العمل وعلى وفاق تام — ليسوا فقط ذوي مقدرة تفوق جداً مقدرة الحكام السالفين بل ان قلوبهم قد اشربت روح العـدالة والرغبة الزائدة في كل ما من شأنه النفع العام لجميع الاهالي وهذا كله لم يكن له اثر حين كان ظلم الدراويش محيقاً بكم » .

وفي يناير سنة ١٩٠٣ قال « وكثيراً ما يقال لنا نحن معشر الانجليز في هذه الايام اننا متأخرون عن غيرنا من الامم في امر التعليم ، وربما كان لهذه التهمة بعض الصحة ولكن للمسألة وجه آخر عسى الا يفوت نظر المنتقدين. فان نتائج نسقنا الخصوصي في التعليم تظهر بأجـلى مظاهرها في بـلاد كالسودان فالشاب الذي يتربى في احـدى مدارسنا العمومية او كلياتنا الحربية وينشأ على الاستقلال الذاتي والمسؤولية الشخصية ، هو الرجل القوي الحازم الذي لا يعول في الدنيا على احد لانه يتلقى في حداثته تحت سماء الحرية مبادىء تضمن له مستقبلاً نيراً كما هو خليق بفرد من افراد امة مستعمرة مجيدة . فلا يكون آلة متحركة بل يكتسب من حيث لا يدري عوائد وطباعاً تؤهله لان يتدبر ويعمل الفكرة ويأخذ على عاتقه مسؤولية الامور . وبكلمة ان يحكم بالعدل والحزم ، وامثال هؤلاء منتشرون الآن في جميع انحاء هذه البلاد من سواكن الى ما وراء الابيض . ومن وادي حلفا الى اقاصي غوندوكرو . ويمكنني ان اشهد مما شاهدته بنفسي انه حيثما وجدوا نظر اليهم الاهالي على اختلاف طبقاتهم من همجيهم الى ارقاهم عليهم كممثلي نظام يحول دون الظلم وسوء الادارة اللذين سادا في الماضي ».

ولو ان الاتفاقية قد وضعت سلطات قريبة من الاستقلال في يد الحاكم العام الا انه ظل السير ونجت واللورد كرومر على اتصال دائم يتعاونان على الاسس واحياناً لجزئيات . والحكومة البريطانية تحاط علماً بما يجري وتوحي وتوجّه من بعيد حتى يتلاءم ما يطبق من مبادىء سياسية في السودان ، مع ما يجري في البلدان الخاضعة للنفوذ البريطاني عن طريق الحماية او الاستعمار وفيما عدا التعاون والتوجيه من قِبَل المعتمد البريطاني في مصر وحكومة بريطانيا ، فالحاكم العام له حرية التصرف داخل البلاد ، ويتمتع المدير بسلطات واسعة كحاكم مقاطعة منحتها إياه السلطة المركزية ، واقتراحاته فيما يتعلق بالمالية والامن العام تلقى اذناً صاغية في الخرطوم ، ولا تزعجه الحكومة المركزية بتدخلها في شؤون مديريته .

مفتش المركز

وقد تغيرت صفة المفتش عما تركها عليه كتشنر . فبعد ان كان عمله التنقل بين مأموريات عدة ، وبينما كان عددهم لا يتجاوز الاثنين في كل مديرية ، وبينما كان المأمور يتصل رأساً برئاسة المديرية ، تكاثر عددهم بالتدريج واستقروا في ادارة المركز ، واصبح المأمور مسؤولاً لديهم ، وبذا اصبح المفتش دعامة الادارة فهو قاضي المنطقة ورئيس بوليسها ، وهو المسجل والمسّاح والخبير الزراعي والاقتصادي ، ومدير المواصلات والاشغال ، وهو منفذ القوانين الصحية وهو خبير التربية والتعليم ، وبالاختصار اصبح المفتش صورة مصغرة لنواحي الحكومة المتعددة في مركزه . وقد اكتسب بما له من سلطات ونفوذ على حياة الاهالي اينما يتجهون الاحترام المشوب بالرهبة والخوف . فهو قد يستطيع ان يجعل لهم الحياة جحيماً او نعيماً وهو الذي ينتزع احترامهم او يثير سخطهم وتذمرهم بما يعاملهم به .

المصالح الحكومية

واذا كان للحاكم العام ان يكون المرجع الاخير فيما يتعلق بادارة شؤون السودان التي ظلت تتشعب بازدياد ، كان عليه ان يستخدم خبراء يساعدونه في الشؤون المالية والقضائية والادارية . فلا بد من سكرتير للمالية وآخر للحقانية وثالث للادارة ولا بد من الاشراف على المديريات فيما يتعلق بهذه الشؤون عن طريق هؤلاء السكرتيريين ، كل في دائرة اختصاصه ولا بد من خبراء يشرفون على المصالح الفنية من مواصلات وتلغراف وبريد وزراعة ، ومساحة واشغال وتعليم وصحة ، حتى تأتي اصلاحاته نتيجة لدراسة واشراف فنيين وحتى يباشرون عنه اعمال الروتين العادية . ورؤساء تلك المصالح يتعاونون مع المديرين بصفتهم الاداة التنفيذية للحكومة . وعلاقاتهم هي علاقة الانداد الذين يعملون في وفاق ووئام ، لا علاقة رئيس ومرؤوس اما السكرتيريون الثلاثة فانهم يباشرون اعمالهم في دائرة اختصاصهم كرؤساء على المديريين . وظل سلاطين باشا الى قيام الحرب العظمى الاولى يباشر عمله كمفتش عام له الاشراف خاصة على شؤون الوطنيين بما له من سابق معرفة وخبرة بالسودان واهله .

ادارة تعاون بين المختصين

والصفة البارزة في تلك الاداة الادارية هي العمل بالتفاهم والوفاق ، لا تطبيقاً للوائح وقوانين توزع الاختصاصات ، وتجعل لها حدوداً وحواجز ، فمدير المعارف مثلا يفتح مدارسه ويبسط سياسته التعليمية بمعاونة واتحاد مدير المديرية وكل منهما يرى ضرورة الآخر . فالبرامج وتدريب المدرسين والأدوات اللازمة للمدرسة من شأن مدير المعارف ومدير المديرية يقترح المكان الذي تنشأ فيه المدرسة وربما يقوم ببنائها وينشر

الدعاية لها ويشرف عليها من وجهة الادارة والسياسة . كل ذلك يتم دون ان يتقيد كل منهما بلائحة تبين الاختصاصات . ومثل ذلك يتم بين رؤساء المصالح الأخرى والمديريين ، واذا كان لهـذا النظام حسناته مـن حيث مساهمة الجميع في بسط رواق المدنية والعمران في البلاد بتعاون ومساندة ، الا انه قد يعطي للمدير نفوذاً وسلطة في مسائل فنية تعرقل سير العمران والرفاهية اذا اسيء استعمالها . فاذا أصر المدير على ان لا تنشأ مدرسة ابتدائية او ألا يقام مستشفى فقد لا يتم ذلك ، وتحرم مدينة من أعمال عمرانية لا شك في فائدتها .

محاولة ونجت الحكم بمفرده

بالرغم من التعليمات الواضحة للمشاورة مع معتمد بريطانيا في مصر فان ونجت حاول ان يدير السودان حسب ظاهر الاتفاقية التي تعطيه حكماً مطلقاً . ففي سنة ١٩٠٤ اقترح وضع ١٠ ٪ عوائد جمركية لتصدير الماشية لمصر ، وأثار هذا غضب كرومر وأشار على ونجت بأن يفهم هو ومعاونوه ان السودان في مسائله المالية مرتبط بمصر ارتباطاً وثيقاً وان السبب الوحيد لرفع العلم الانجليزي مع العلم المصري وتعيين حاكم عام للسودان هو تفادي إشكالات الامتيازات الاجنبية وبقية تعقيدات المسائل الدولية . فكما هي عليه الحالة في الموسيقى فالذي يدفع له الحق في اختيار اللحن . وفي خطاب بعث به كرومر لوزير خارجية بريطانيا عندما هم بمغادرة مصر في سنة ١٩٠٧ أشار بأنه لاحظ على ونجت نزعة استقلالية لحكم السودان ولـم يتفهم المبادىء الرئيسية التي توجه سياسته ويجهل المسائل المالية كجهل الاطفال . كل هذا بالرغم من ان اعماله جيدة وعلاقته حسنة مع ضباطه . وكان هو (كرومر) يراقب وينصح ويرشد ويرفض اذا استدعى الحال ولكنه يخاف من ان يرجع ونجت الى نزعته الاستقلالية فتفكيره محلي في هذه الناحية

ويرى ان تعني وزارة الخارجية بمسائل السودان اكثر مما كانت تفعل وهو بدوره سيلفت نظر خليفته سير ألدون فورست . وعندما أنشيء مجلس الحاكم العام في سنة ١٩١٠ أشارت المذكرة التي ارفقت مع اللائحة من السير ألدن فورست الى الرقابة التي كانت للمعتمد البريطاني في مصر على إدارة السودان ووضحت كل النقاط التي يجب الاستشارة المبدئية فيها والتي ترسل للعلم بها فقط .

وهكذا ظل السير ريجلند ونجت يدير الدفة بمعاونة ملاحيه وظلت الادارة تتشعب مناحيها وتتزايد اعمالها وظل يتصل بالسكرتيرين ورؤساء المصالح اتصالات غير رسمية ، كل فيما يتعلق بعمله الى ان رؤي انشاء مجلس من رؤساء الادارات الهامة ليشارك الحاكم العام في حمل عبء الادارة الذي أصبح يثقل باطراد ، ولتخضع تلك المشاورات والاتصالات الى نظام مكفول بقانون . وبعد موافقة الحكومتين صدرت لائحة انشاء المجلس في سنة ١٩١٠ .

مجلس الحاكم العام سنة ١٩١٠

لم يكن الغرض من إنشاء المجلس الحد من سلطة الحاكم العام بموجب الاتفاقية فقد ترك لـه العمل بقرارات المجلس ، ولكنه ليعاون ويشاركه المسئولية . ويدخل نوعاً من التنظيم في مناقشة السياسة العامة مع معاونيه في النواحي المختلفة . واذا كان لا بد من استخلاص النواحي التي يمارس المجلس عمله فيها كصاحب سلطة والنواحي التي يكون فيها رأيه استشارياً لقلنا ان سن القوانين والموافقة على الميزانية من أعمال المجلس التي يشترك فيها مع الحاكم العام ، وأصبحت القوانين بعد سنة ١٩١٠ تصدر من « الحاكم العام في مجلسه » ، واذا رأى الحاكم مخالفة مجلسه فيما وافق عليه الأعضاء بالأغلبية فله ان يفعل ذلك لأسباب يدونها . أما ما يتعلق بالسياسة العامة

فرأي المجلس استشاري . ولكن لا يعوتنا انه اذا رأى الحاكم اعتراضات قوية على سياسة ما ، قد يجد مـن العبث الاصرار عليها اذ الاعضاء هم الأيادي التي يوكل اليها امر التنفيذ ولعله يلجأ فيما لو كان متمسكاً بها مع معارضة الاغلبية الى التخلص منهم وتعيين غيرهم وذلك في حدود سلطته . أما شؤون الدفاع والتعيين في الوظائف العليا فلم تمسها لائحة المجلس الا اذا رأى الحاكم الاستئناس برأي الاعضاء .

تقضي لائحة المجلس بأن يكون السكرتاريون الثلاثة والمفتش العام أعضاء بحكم وظائفهم ، ويضاف اليهم آخرون يتراوح عددهم ما بين اثنين وأربعة (وقد أصبحوا خمسة فيما بعد) وتمتد عضويتهم الى ثلاث سنين قابلة للتجديد . وقد خفت قيود الرقابة المالية من مصر بانشاء المجلس اذ كان عليه مراقبة الشؤون المالية في الصرف والايراد طبقاً للقوانين واللوائح التي وضعت للتنظيم المالي للبلاد . وبتشعب النواحي الادارية وكثرة الاعمال العادية تناقصت المراقبة التعاونية المفروضة من قصر الدوباره وخاصة عندما غادر كرومر البلاد .

أما الخطوط الرئيسية للسياسة ، وأما المشروعات العمرانية الكبيرة فلا بد من العمل بها على ضوء ما ينتج من مناقشتها وبحثها مـع المعتمد البريطاني في مصر وربما مع الحكومة البريطانية .

المواصلات

خلفت حملات الفتح خطاً حديدياً ما بين حلفا وعطبرة . وامتد هذا الخط الحربي الـى الخرطوم بحري في أواخر سنة ١٨٩٩ ، وشبكة مـن المواصلات التلغرافية جعلت اتصال السودان بالخارج وبين أجزائه امراً ميسوراً . ورؤي منذ البداية انه لا يرجى للسودان تقدم اقتصادي من حيث الانتاج والتجارة إلا بالمواصلات الحديديـة وخاصة اتصال النيل

بالبحر الأحمر اما عن طريق بربر سواكن أو بطريق طويل ولكنه في الوقت نفسه يمر باقاليم زراعية لها أهميتها وهـو مـن الخرطوم جنوباً محاذياً للشاطىء الشرقي مـن النيل الأزرق الـى ابي حراز ثم الى القضارف فكسلا فسواكن . واخيرا قر الرأي على العمل في خط الاتصال المباشر القصير وهو عطبرة – سواكن وافتتح رسمياً في سنة ١٩٠٦ ولكن حلت بورت سودان محل سواكن كميناء وبهذا تم الاتصال التام السريع مع العالم الخارجي ، وقد صادف نقداً من بعض الجهات في مصر اذ رأوا فيه توهيناً لصلات مصر بالسودان وتحويلاً لتجارة السودان التي كان طريقها الوحيد بواسطة مصر . غير ان كرومر يرى فيه خلق اسواق اخرى جديدة للتجارة السودانية واتتعاشاً لحالته الاقتصادية لا يصل اليها الا بهذا الطريق الحيوي.

وقد واجهت الحكومـة او بالاحرى كرومر مشكلة نفقات توسع المواصلات بالسكة الحديد ، فهي كثيرة النفقات ولا امل البتة في ميزانية حكومة السودان بتحملها . ولذا قد دارت في الرؤوس فكرة بيع الخطوط القائمة لشركة على ان يعهد اليها مد الخطوط الاخرى ، او ترك مـا تم توصيله للحكومة وقيام الشركة بما يجد منها . ولم يكن كرومر متحمساً للشركات . وصادف ان الحكومة المصرية آنذاك اعترضت ايضاً عـلى الشركات . وكان عليها ايجاد المال اللازم عن طريق المنحة او الاقراض للقيام بتلك الاعمال العمرانية وفعلاً وجدت الحكومة المصرية المال اللازم للانفاق منه على الخطوط الجديدة .

دراسة مشروعات الري

واذا كان للسودان ان يتصل بالعالم اولا فما هي المشروعات العامة التي تزيد في انتاجه لاستثمار ذلك الاتصال ؟ وكان طبيعياً ان تتجه الانظار للزراعة والى استغلال مياه النيل ، وكان على ولاة الامور وضع سياسة

مائية موحدة بين مصر والسودان ، وظل المهندسون الانجليز الذين يعملون في خدمة الحكومة المصرية يترددون على السودان لدراسة النيل وروافده ومنابعه يقدرون ما يجلبه من مياه في اشهر السنة المختلفه ، ويقدرون حاجة مصر الحالية والمستقبلة ، ويدرسون الاوضاع ويضعون الخطط للمشروعات التي تستغل بها مياه النيل ، بخزنها وتوزيعها في وقت الحاجة مع تقدير دقيق لنفقاتها وبيان اسبقيتها .

وكانت الخطة فيما يختص بتلك المشروعات استيفاء حاجة مصر اولا ، ثم استخدام ما يفيض منها لحاجة السودان ، وعلى كل حال فالسودان لا يستطيع اقامة مشروعات كبيرة لحقبة من الزمن نظراً لقلة الايدي العاملة وسكانه يقدرون في سنة ١٩٠٣ بـ ١،٧٨٠،٥٠٠ . وهذا قادهم بطبيعة الحال الى الهجرة وتشجيعها ، وكان الرأي السائد ان مصر هي المصدر الطبيعي لزيادة السكان ، فهي في طريقها الى الامتلاك والافاضة ، والسودان لا يزال خالياً ، وسوف يظل كذلك الى زمن بعيد ، واقترح احد الامريكان آنذاك ان يؤتى بزنوج امريكا لتعمير البلاد وزيادة الايدي العاملة فيه ولم يعمل باحدى الوسيلتين . فلا زنوج امريكا هاجروا منها ولا الفلاح المصري غادر قريته ليبني حياة جديدة اوسع رحاباً .

المشروعات بعد الدراسة

واذا كان لحكومة السودان وقتئذ انتشجع الزراعة المطرية واستخدام الآلات الرافعة البخاريـة للأفراد والشركات ، وان تدخل زراعة القطن وتشجيعها بتوزيع التقاوي دون مقابل ، الا انها في نفس الوقت لا بد لها من دراسة احتمالات المستقبل ووضع خطة للتوسع الزراعي تتناسق مـع السياسة المائية العامة التي تركزت بعد دراسة الخبراء ، فقد رؤي ان تحفر قناة في منطقة السدود حتى تحفظ الميـاه الـتي تضيع نتيجة امتصاص

الاعشاب والارض لها وتبخيرها ، لانتشارها في مساحات متسعة ، وكذلك مشروعات تخزين على بحيرة البرت وتانا . فاذا ما تمت هذه اخذت مصر حاجتها وفاض كثير يكفي لأمد بعيد لتوسيع السودان الزراعي الطبيعي . والعقبات في سبيل تنفيذ هذه المشروعات هي مالية اولا لما تتطلبه من نفقات باهظة ، وسياسية ثانياً خاصة فيما يتعلق ببحيرة تانا .

مشروع الجزيرة

ولكن حتى قبل قيام تلك المشروعات قد يأخذ السودان قدراً كافياً من المياه ابان امتلاك النيل وتركز اخيراً مشروع للري على النحو الآتي . يقام سد في المنطقة ما بين الرصيرص وسنار ، وتخرج من ورائه ترعتان احداهما بالبر الشرقي لتروي منطقة شرقي النيل الازرق والاخرى بالبر الغربي لتروي منطقة الجزيرة . واذا كان لهذا المشروع الا يأخذ قطرة مما كان يجري لمصر ففي زمن التحاريق يقف العمل به في السودان ويستطيع السودان زراعة القمح في الزمن المسموح له فيه بالري ، دون الاضرار بصالح مصر ، وسوف يجد له سوقاً في بلاد العرب وربما يزاحم القمح الهندي في الاسواق الأوروبية .

تجارب القطن

واثناء ما كانت ابحاث الري تأخذ هذا الاتجاه كانت تجارب القطن تبشر بمستقبل باهر لهـذا المحصول في الأراضي السودانية . واعيـد نظر المشروع على هذا الضوء ، وتقرر اقامة السد ولكنه رؤي الا بد من خزن طالما ان المحصول الرئيسي سيكون القطن ، نظراً لحاجته لمياه اكثر ومدة أطول . ولا بد تمهيداً لذلك القيام بعمل المساحات والتسجيل لأراضي

الجزيرة . ورؤ ايضاً حصر الزراعة في الجزيرة بترعة واحدة . وقاد هذا بدوره الى اتجاه الخطوط الحديدية الجديدة . فكان لزاماً ان يجري خط وسط سهل الجزيرة لنقل محصولاتها . وكان لا بد من عمل قنطرة للخط على النيل الازرق في الخرطوم .

وقامت جمية زراعي القطن في انجلترا بمجهود لتعضيد مشروع زراعة القطن في الجزيرة . وقابل وفد كبير منهم رئيس الوزراء وبسط له أهمية السودان بعد نجاح تجارب القطن فيه كمورد لأجود انواع القطن . وهذا التأييد من تلك الجماعة القوية ادى الى ان تضمن الحكومة البريطانية قرضاً بثلاثة ملايين جنيه يقدم لحكومة السودان لعمل السد والخزان وحفر الترع والقنالات وتم القرض وشرعت الحكومة في العمل فعلا في خزان سنار الا ان الحرب العالمية اوقفت العمل الى ان استعيد بعد انتهائها .

ومما دعا الى الاهتمام بهذا الخط وضرورة عمله على الجزيرة ما اكتشف في كردفان من حاصلات وخيرات وفيرة تعوزها الاسواق وخاصة الصمغ ، فامتد الخط في الجزيرة من الخرطوم الى سنار ومنها اتجه غربا الى الابيض وتم افتتاحه رسميا في سنة ١٩١٢ . ووجد صمغ كردفان طريقه الى الاسواق الاوروبية والامريكية ونال شهرة يتمتع بها الى وقتنا الحاضر . وقد رؤي ان خط حلفا ــ كرمه لا يقوم بنفقاته فاستعيض عنه بخط من ابي حمد الى كريمة يربط طرف دنقلا ببقية انحاء السودان . اما الجنوب فالبواخر النيلية تصله بالشمال باتنظام ولــو انــه في بطء بعد تمزيق جزر السدود الــتي تعترض المجرى .

الضرائب

ومثلما اتخذت الوسائل لتنمية المرافق الاقتصادية حتى يزيد الدخل الاهلي ودخل الحكومة ، فقد رؤي من الناحية الاخرى تنظيم الضرائب

بطريقة عادلة لا ترهق كاهل السكان ولا تدع وسيلة لهم للهرب منها . وقد اعجب كرومر بضرائب المهدية وهي الزكاة الشرعية . فهي ضئيلة ولا ترهق المنتج . وتوضع على المحصول لا على الارض ، وتجمع عينا عندما يتعذر ايجاد السوق . فالعشر في الزراعات المطرية قد جعل الاساس لضريبة الحكومة ، غير ان المزارع وهو مسلم لا يكتفي بما يخرجه للحكومة بل عليه اخراج العشر وتوزيعه على ذوي الحق حسب الاصول الشرعية ، بينما في المهدية يكتفي بالعشر الذي يذهب لبيت مال المسلمين . وما وضع على السواقي واطيان الجزائر والجروف ما كان مرهقا ، وكذلك الحال في ضريبة القطعان . والنزعة الغالبة هي تفادي كل ما من شأنه ان يثير سخط السكان بتطلب اعباء مالية ، وكل ذلك حدد بقوانين يسير على هديها الموظفون الموكول اليهم جمعها . وفيما يلي جدول لميزانية حكومة السودان الى سنة ١٩٠٢ بالجنيهات المصرية :

السنة	الدخل	المصروفات
١٨٩٩	١٢٦٦٥٦٩	٢٣٠٦٢٣٨
١٩٠٠	١٥٦٦٨٨٨	٣٣١٦٩١٨
١٩٠١	٢٤٢٦٣٠٩	٤٥٧٦٣٣٥
١٩٠٢	٢٧٠٦٢٢٦	٥١٦٦٩٤٥

والفرق في كل هذه الاحوال يغطى من الخزينة المصرية زيادة على ما تتحمله من نفقات الدفاع بواسطة الجيش المصري . وقد اثار هذا نقد بعض الهيئات في مصر اذ رأوا ان الحكومة الانجليزية ترمي الى تضحية المصالح المصرية وخزائنها في سبيل السودان الذي لا يشتركون في حكمه الا اسميا ، وليس لهم اي نفوذ او مساهمة في شؤونه ، بينما ان الانجليز وهم الذين لا يدفعون شيئا لتنمية مرافقه ، يستأثرون بكل ما فيه ويهيمنون على مصائره،

وشؤونه . ويلاحظ كرومر كل نقد يوجه في هذا الصدد ويرد عليه في تقاريره السنوية وتتلخص حججه وبراهينه في الآتي :

ما فائدته مصر حسب رأي كرومر

امرت مصر باخلاء السودان في الثورة المهدية وعد الوطنيون من المصريين ذلك خسارة عظيمة اصابت الجسم المصري ، فهي لا تعيش بغير السودان ، وقد رجع الجسم المتقطع الآن ، وانفقت مصر في سبيله ما انفقت: ولا مراء انه لازم لها وخاصة من حيث المياه . ويتفق كرومر معهم ان من يسيطر على النيل الاعلى وروافده تكون مصر تحت رحمته ، وباستعادة السودان امنت مصر هذه الناحية واستطاعت ان تضع خطط مشروعاتها في الري بكل حرية واطمئنان ، وامنت حدودها الجنوبية التي كانت عرضة للخطر دائما . وما من مشروع للري يقام في السودان الا بعد ان يثبت بالإرقام عدم إضراره بمصالح مصر الحيوية ، وحقها الاول في مياه النيل . ومن هذه الناحيـة يرى كرومر ان السودان ضحي به في صالح مصر لا العكس . وعليه والحالة هذه فما صرف من اموال اتى ثماره مضاعفة ، واقام صرحا للعمران في السودان كفيل بتوطيد الحالة في تلك البلاد حتى لا تعود المصالح المصرية مهددة في المستقبل .

رد المصريين

والمصريون من ناحيتهم لا ينظرون الى الناحية المادية بل الى السياسية ، فهم يرون ان الشريك الثاني استأثر بشؤون السودان وترك لهم الامضاء الموجود في ذيل العقد ، وانهم حين ينظرون الى المستقبل يرون السياسة تتجه الى اقصائهم من السودان تدريجيا ، وتدعيم النفوذ

الانجليزي . وتظل الشركة وهمية والعمل بيد الانجليز بالفعل . ونتيجة لذلك يرون ان انجلترا بمركزها في السودان تستطيع إخضاع مصر لمشيئتها، طالما انها المسيطرة على اعالي النيل ، وان منشآت ريها في السودان معرضة للخطر ، وانهم لا يستكثرون مالا اذا ما كانوا في مثل مركزهم قبل الثورة المهدية ، ولكن المقارنة بين العهدين غير عادلة .

مؤسسة تعليمية لتخليد ذكرى غوردون

كانت ومضة من ومضات العبقرية حين فكر كتشنر في تخليد غوردون بمؤسسة تعليمية تحمل اسمه في الخرطوم . ولعلها كانت تكفيرا للخطايا التي اتهم بها كتشنر في محاولته الانتقام لغوردون ، ومهما كان من امر فان التكفير في امر التعليم بعد موقعة أم درمان مباشرة اتجاه صحيح حمل معه الفكرة حينما ذهب يقضي اجازته في انجلترا في شتاء سنتي ١٨٩٨ ــ ١٨٩٩ وكان الشعب البريطاني متحفزا ومستعدا للاكتتاب لمكانة كتشنر في قلوب الشعب آنذاك ، وللجرح العميق الذي لا يزال داميا في قلوبهم حينما علموا بموت غوردون . ولهذا لا غرابة في ان الاستجابة لنداء كتشنر لتخليد ذكرى غوردون كانت سريعة ومخلصة . فقد اجتمع لديه ما يزيد على المائة الف جنيه في وقت قصير . وسرعان ما وضعت التصميمات اللازمة للبناء ، وسرعان ما بدىء بوضع الاساس . واثناء ذلك ترك امر التعليم في تلك المؤسسة لصاحب الفكرة فماذا كان يود لها ؟ يرى ان تكون الناحية العملية المفيدة هي الغالبة ، وان تكون اللغة العربية صاحبة المكان الاول . ويرى ان تكون في البداية على غرار مدارس اسوان ووادي حلفا . ويرى كرومر الا تتخذ خطوة ثانية الا بعد استشارة الخبراء في التربية والتعليم .

تاسيس المدارس الاخرى

اما في مراحل التعليم الاولي فقد رأت الحكومــة تأسيس مدارس أولية في المدن الكبيرة لتكون نموذجا لما سوف تكون عليه الكتاتيب . ولا بد من الرقابة عليها وعلى غيرها بتفتيش منتظم . واتخذت الخطوات لانشاء مدرسة ابتدائية في أم درمان تقام على غرارها مؤسسات تعليمية في المدن الاخــرى ، وتركزت آراء كتشنر في كلية غوردون التذكــارية عما يأتي : « ورأيي الخاص هو ان تصرف امــوال الكلية على النهوض بالتعليــم الابتدائي وسيأتي التعليم العالي فيما بعد » .

سياسة مدير المعارف العامة

وكان ان اوكل ونجت في اول الامر شؤون التعليم للمستر بونهام كارتر سكرتيره القضائي ، حتى اذا كان نوفمبر من سنة ١٩٠٠ حل بالخرطوم المستر جيمس كري مديرا للمعارف ، واستلم ماكون من نواة في شؤون التعليم . وفي الحال وضع خطته لما يريده من تعليم للبلاد او ما يتوخاه من اغراض له . فرأى فقر البلاد المدقع وان الاداة الادارية فيها لا تسير لولا ما تقدمه مصر من معونة فالتعليم يجب ان يساير تقدم النواحي الاقتصادية الاخرى في بطء وان تقصر اغراضه في اول الامر الى ما يعود على البلاد بانتعاش اقتصادي ، وما يقود الى تيسير الادارة الحكومية . وعلى ذلك فاغراضه يجب ان تكون خلق طبقة من مهرة الصناع بين الوطنيين اولا ، ونشر التعليم بين العامة بالقــدر الذي يجعلهم يفهمون الآلة التي تــدير شؤونهم ثانيا ، وتدريب طبقة من ابناء البلاد تساهم في ادارة دفة الحكومة في الوظائف الصغيرة ثالثا .

واتخذت خطوات لتنفيذ تلك الاغراض ، اذ انشئت ورش صناعية في

ترسانة الوابورات النيلية ، وفي حلفا السكة الحديدية ، والعمل قائم بتشييد مدارس أولية نموذجية في الخرطوم وبربر وأم درمان ودنقلا وود مدني وحلفا وسواكن ، وسوف تمتد امثال تلك المدارس الى المدن الاخرى ، ويقوم بالتدريس فيها اساتذة مصريون اكفاء ولتدريب طبقة من الموظفين لا بد من اقامة مدارس ابتدائية اخرى زيادة على حلفا وسواكن ومدرسة أم درمان الجديدة ، فالحاجة ملحة لهم في الجيش والخدمة المدنية ، وفوق ذلك فالموظفون والضباط المصريون يريدون تعليما لابنائهم . ولقد تبين للمستر كوي ان الاهالي في المدن يقدرون ما تقوم به الحكومة من تعليم ابنائهم .

تدريب المدرسين

وشغل المستر كوي منذ البداية بتدريب المدرسين سواء للمدارس الاولية او الابتدائية ، فأنشأ مدرسة لتخريج معلمي المدارس الاولية في أم درمان . واثناء بحثه ووضع خططه لمعلمي التعليم الابتدائي اتفق مع صديقه المستر بونهام كارتر . وكان يسكن معه في منزل واحد ان ينشأ قسم للمعلمين والقضاة الشرعيين ، لان توسع المحاكم الشرعية يستدعي تدريب قضاة لهذا الغرض . فانشيء هذا القسم في أم درمان اولا الى ان تمت مباني الكلية حيث انتقل الى الخرطوم .

وبدأ المستر كوي بتنفيذ برنامجه فيما يختص بانشاء الكتاتيب الراقية بالتدريج في المدن الكبيرة . وفي اكتوبر سنة ١٩٠١ انشئت مدرسة أم درمان وهذه المدارس تتخذ مناهج الدراسة الابتدائية في مصر اساسا لدراستها مع تحوير بسيط يلائم البيئة السودانية . ولقد تبين للمستر كوي الصعوبات المالية التي تقوم امام انتشار التعليم ورأى في اول الامر ان تكون المدارس

الاولية (الكتائب) الحكومية قليلة العدد كنموذج تنسج على منوالـه الاهلية الخصوصية وتقدم لها اعانات حكومية .

وعندما طاف المدير في ارجاء البلاد تأيدت نظريتـه لضرورة تخريج افواج من السودانيين الذين يتلقون تعليمهم في المدارس الابتدائية ، لعدم كفاءة من يشغلون الوظائف من غير السودانيين ، ولارتفاع اجورهم نسبيا، وعدم ملاءمة الطقس لهم وملاءمتهم له . وأخيرا اذا كانت مصر هي المصدر الرئيسي الذي يجب امداد السودان بتلك الطبقة من الموظفين فهي نفسها في أمس الحاجة لهم وبعضهم قد يتذمر من وجوده هنا . والطبقات التـي تتمتع بالكفاءة والخلق المستقيم تجد السبيل ممهدا في مصر ، ولا ترى حاجة الى الخدمة في السودان . وهكذا كـان يشرح المستر كـوي الحالة كما شاهدها واحسها .

مجلس امناء الكلية

ولقد تركنا الكلية حين لبى الشعب البريطاني نداء كتشنر ، والصورة المختصرة التي رآها صاحب الفكرة لمؤسسته ، وابدى الشعب تحمسا لذكرى غوردون حتى ان الملكة فكتوريا اكتتبت بنفسها ، وقبلت عن طيب خاطر ان تكون راعية المؤسسة الجديدة ، وابدى اللورد سلسبري رئيس الوزراء تعضيده للمشروع نيابة عن الحكومة . وفي يناير سنة ١٨٩٩ اجتمع مجلس كبير في بنك انجلترا لتكوين لجنة تنفيذية تشرف على تنفيذ المشروع ووصفه اللورد سلسبري في ذلك الاجتماع بانه مشروع « فرضته علينا التزاماتنا الامبراطورية فهو محاولة لازالة ما بين الشعوب من حواجز واقامة رابطة من المعاونة الفكرية ونشر الثقافة الانسانية » . واعد مهندس صاحب السمو خديوي مصر الرسومات لمبنى الكلية ووافق عليها اللورد كتشنر . وفي يناير سنة ١٩٠٠ وضع اللورد كرومر الحجر الاساسي باسم الملكة فكتوريا

وقال في اثناء خطابه ان الكلية لا ترتبط بدين خاص وانها مفتوحة للجميع ، وسيكون التعليم فيها باللغة العربية قدر الامكان .

وفي تقريره لسنة ١٩٠٠ تعرض المستر كري لاستجابة الاهالي لهذا النوع من التعليم الذي فُرض عليهم فرضا حسب رأيه ، واندهش من تسابق الناس لادخال ابنائهم المدارس وازدحمت الفصول بالتلاميذ وخاصة في المدن الكبيرة ، ولعلهم عرفوا مزايا التعليم من الخمس مدارس التي انشأها اسماعيل قبل الثورة المهدية .

هدايا اخرى لكلية غوردون

ولم تقتصر التبرعات للكلية على الاكتتابات المالية بل توالت الهدايا . فمنها آلة بخارية لرفع المياه ومطبعة وماكينة خياطة وعدد وآلات اخرى كثيرة ، وخرائط وكتب . واكبر هدية هي التي قدمها المستر ولكم من عدد كاملة لمعامل بكتريولوجية وتحليلية ، وكذلك وهب المستر وليم ماذر عدداً وآلات لانشاء مدرسة صناعية .

وفي اكتوبر سنة ١٩٠٢ تمت المباني وانتقلت الاقسام التي كانت تتلقى الدراسة في أم درمان والخرطوم الى مباني المؤسسة التذكارية ، وكانت تضم آنذاك مدرسة ابتدائية ومدرسة للمعلمين والقضاة الشرعيين ومدرسة صناعية ، ومعملا للتحاليل الكيماوية والبكتريولوجية .

انشاء قسم ثانوي

ولم يشأ ان يكون المستر كري وراء التقدم المادي والاقتصادي في مشروعاته ، فما ان علم بما تزمعه الحكومة من اعمال هندسية للري وما يتبع ذلك من اعمال مساحة وتسجيل ، حتى بدأ يفكر في انشاء مدرسة ثانوية

كجزء من كلية غوردون لتخريج النوع الذي يصلح لتلك الاعمال . ورأى ايضا هو يسعى لتوسع التعليم الابتدائي ان لا بد من قسم ادبي يتخرج منه مدرسون يعرفون اللغة الانجليزية . ولكن اعمـال الهندسة والمساحة تستدعي المبادرة فانشأ ذلك القسم وتخرج منه رعيل التحق بمصلحة المساحة في سنة ١٩٠٧ وفريق آخر التحق بالري والمصلحة القضائية في سنة ١٩٠٩ . واخرج القسم الادبي اول فوج اكمل دراسته الثانوية للتدريس في المدارس الابتدائية سنة ١٩١٢ .

ضرائب خاصة للتعليم الاولي

وبالرغم من الطلب المتزايد للتعليم الاوّلي خاصة وبالرغم من نيات المستر كري الطيبة نحو نشر ذلك النوع منه ، فان المال كان عقبـة كاداء آنذاك ، فالبلاد لا تزال مواردها ضئيلة ، وعجز الميزانية تسدده الحكومة المصرية ، واعمال الادارة والامن العام لها المكان الاول والتعليم يأتي في المرتبة الثانية وقتذاك . ولكن لم يعدم المستر كري الوسيلة التي تحل هذه العقدة فقد فرضت ضريبة خاصة للتعليم يساهم فيها كل من يدفع ضريبة للحكومة وبذا تسنى للمدير انشاء عدد من المدارس الاولية في السنـين القليلة التي سبقت إشعال نيران الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤ . وحينما غادر البلاد في تلك السنة ترك وراءه كليـة غوردون بأقسامهـا الثانوي والابتدائي والصناعي وتدريب المدرسين والقضاة الشرعيين ، وخمسا مـن المدارس الابتدائية الاخرى ، وعددا من المدارس الاولية ومدرسة حربية. وبدأت الادارة الحكومية تدعم بخريجي هذه المدارس فالتحق الخريجون بمصالح الحكومة في وظائف القضاء الشرعي والتدريس والهندسة والمساحة والوظائف الكتابية والجيش . ولا نستطيع اختتام معالجتنا لتأسيس التعليم

وتطوره في السودان دون الاشارة الى الدور البارز المشرف الـــذي لعبه احمد هدايت بك حيث كان المشير الاول للمستر كري . وكذلــك فضل الاساتذة المصريين الذين غرسوا الثقافة العربية الاسلامية .

السودان والحرب العظمى

ثورات محلية

كان غرض حكومة السودان التي تألفت قانونيا في يناير سنة ١٨٩٩ تهدئة الاحوال ونشر لواء الامن العام والعدالة . وكانت توجس خيفة من كل الحركات الدينية ولذا راقبت في اول الامر لجمهر الدراويش اتباع الطرق الصوفية وحذّرت بعض مشائخها وقام عدد ممن ادعى رسالة دينية ضد اعداء الدين . ففي سنة ١٩٠٣ قام شخص يدعى الشريف محمد الامين من مهاجري العزب ، ساح في الاقطار الاسلامية ومر بالسودان في طريقه للحج ، واخيرا رجع من مكة بوثيقة تثبت انتسابه لآل البيت ، وباخرى كنداء لقبائل السودان بتأييده وشد ازره . وعندما حط رحاله في جبال تقلى جهر بدعوته وتبعه عدد من الناس . ولما ترامى الى سمع الحكومة أمره قاد ماهون باشا مدير كردفان حملة من الخرطوم وكان في طريقه للاجازة وداهم الشريف في قرية بالقرب من دار تقلى ، وقُتِل من قاوم من اتباعه واسر الباقون بما فيهم زعيم الحركة نفسه ، فأقتيد للابيض وهناك اعدم شنقاً . وقد دلت التحريات التي قامت بها الحكومة بعد الحادثة ان الدعوة كانت عظيمة الخطر وانه لو تُرِك الامر لها لمدة شهرين فقط لانضوى تحت لوائه عدد ضخم من رجال القبائل .

وفي سنة ١٩٠٤ قام شخص آخر في ضواحي سنجة وادعى انه نبيّ الله عيسى وقطع خط التلغراف ، وتبعه عدد قليل من الناس ولكن الجيش

اخمد حركته في مهدها . وفي سنة ١٩٠٦ قام السكان في تالودي بثورة كان ضحيتها عدد من البوليس والجند والتجار وعلى رأسهم مأمور تالودي ابو رفاس . ولو ان الاسباب المباشرة لهذه الحركة كانت شخصيــة حسب ما تروى الا انها تدل على استهانة الاهالي بسلطة الحكومة وعدم انصياعهم لاوامرها . وفي سنة ١٩٠٧ قبض على رجل من اهالي برقو في القضارف ادّعى انه عيسى ولكنه لم يبشر بدعوته ولم ينضوِ اناس تحــت لوائه . وادعى شخص آخر في مدني نفس الدعوة غير انه رجــع الى صوابه في الحال عندما قبض عليه .

ثورة ود حبوبة

وفي سنة ١٩٠٨ قامت ثورة عبد القادر ود حبوبة في الحلاويين في الجزيرة ورئيس الحركة هو عبد القادر بن محمد إمام المشهور بود حبوبة . ومحمد إمام والد صاحب الحركة من اشهر مشاهير القبيلة وعرف بأصالة الرأي وبعد النظر . اما عبد القادر فقد انخرط في سلــك الانصار عندما امتدت الثورة المهدية الى الحلاويين وسافر مجاهداً في جيوش الامير عبد الرحمن النجومي . وبعد موقعة توشكي كان ضمن الاسرى في مصر ، واخيرا سمح له بالعودة الى بلاده .

واشتهر عبد القادر بين اخوانه باخلاصه الشديد للمهدية ، وهذا ما جلب العداء والتباغض بينه وبين اخوانه ، لانهم قد ساعدوا الحكومة ابان الفتح بجمع الذرة والقبض على المؤمنين بالمهدية . ونقم عبد القادر على أهله الذين قاموا بنصيب في مساعدة الحكــومة . وعندما بــدأت تسوية اراضي الجزيرة في عملها ظن عبد القادر نفسه مغبونا فيها وهذا ما زاد في نقمته على الحكومة التي ظلمته ، واخوته الذين شايعوها . وهو لم ينس

ان الحكومة الحالية قضت على حكومة اسلامية وهو لا يزال مـن اشـد المتحمسين والمعتقدين برسالة المهدية .

ولم يشأ عبد القادر ان يغير عاداته التي كان يتبعها في المهدية ، ولـم يشأ ان يعترف بهذه الحكومة . فقد باع جزءا كبيرا من اطيانه وباثمانها فتح خلواته للضيوف ، وتجمع عليه من هم على مثل رأيه في المهدية وايمانهم بها ، وازورارهم عن الحكومة الجديدة . وترامى الى سمع الحكومة ان عبد القادر يتجمهر اتباعه ويتزايد انصاره . وعندما بلغت الاشاعة حداً من الذيوع والانتشار بعد ان طُلب عبد القادر للمركز ولم يلبِّ الطلب ، ذهب مفتش انجليزي ومأمور مصري لمقابلته . وكان نصيبهما القتل بالخديعة . أيقنت الحكومة ان لا بد من القضاء على الثورة في مهدها قبل ان يستفحل امرها . وقامت بلوكات الجيش من مدني والخرطوم وتم لها القضاء على الحركة بعد ان فقد الجيش عددا من جنوده في مباغتة ليلة قام بها عبد القادر . وقبض على زعيم الثورة بعد وقت من الواقعة ونفذ فيه حكم الاعدام . وهكذا تبين للحكومة ان شعلة المهدية لم تخمد في قلوب بعض الانصار . وكانت هذه آخر محاولة ثورية ضد نظام الحكم حيث تمتـع السودان بهدوء عام بعدها الى ان قامت الحرب العظمى في سنة ١٩١٤ .

الحرب العظمى

اصبحت الدول الاوروبية في حالة حرب والحكم الجديد له في السودان الخمسة عشر عاما شغلت الحكومة اثناءها بالامن وتحسين المواصلات ووضع الاسس لتقدم اقتصادي وتعليمي . ولقد اعان السكان الحكومة لتعمل في هدوء وطمأنينة ، ورضخ الناس للنظام الجديد ، للامن الذي نشره بينهم ، وكانوا في اشـد الحاجـة اليه . والثـورات البسيطـة التي قامت كما ذكرناها سابقا لم تصل الى درجة الازعاج. وها هي الحرب العالمية قد استمر

أوراها فماذا حدث في السودان وما مقدار المساهمة التي قام بها في سبيل النصر ؟

دعاية الحكومة

كان هم الحكومة الاكبر شرح القضية الاوروبية عامة وقضية انجلترا في تلك الحرب خاصة . ولقد كان مفهوما منذ البداية ان لا بد ان تنجرف تركيا وتنضم الى المانيا . وكان على الحكومة ان تهيء الاذهان وتقاوم الدعاية التي تبثها تركيا متكئة على الرابطة الدينية ومقام الخليفة في نظر العالم الاسلامي . وكانت التقارير ترد على الاقاليم منبئة بأن الحالة على ما يرام وان الناس كان مسلكهم مؤيد للحكومة في ذلك العراك العالمي ، وانه ليست هناك دلائل شعور ديني في صالح تركيا فيما اذا اصبحت عدوة لانجلترا .

وفي اكتوبر سنة ١٩١٤ قام الحاكم العام السر ريجلند ونجت بطواف في الاقاليم . فمر بالجزيرة والابيض وبورت سودان واتصل هناك بزعماء القبائل والاعيان وكبار الموظفين شارحا لهم الحالة الاوروبية واهمية انجلترا في تلك الحرب ونبل مقاصدها . ومن الخرطوم قامت جريدة السودان ومحررها آنذاك ليبب جريديني بالدعاية اللازمة بمثل ما كان يشرحه الحاكم العام . وبهذا تهيأ الجو لتلقي نبأ دخول تركيا الحرب ضد بريطانيا .

اجراءات الحكومة بعد دخول تركيا

وفي يوم ٦ نوفمبر وصلت الاخبار للخرطوم باعلان العداء بين تركيا وبريطانيا ، ودعا الحاكم العام نتيجة لذلك في اليوم التالي لسرايه بالخرطوم عددا من الضباط العظام بالجيش المصري ، وخطب فيهم قائلا : « دعوتكم

اليوم لتسمعوا من شفتي الاعلان الذي سيظهر في غازيته السودان بشأن الحرب » . واستمر في حديثه شارحا لهم الاسباب التي دعت لنشوب الحرب وتحدث عن قوة المعسكرين المتقاتلين واحتمالات النتيجة لتلـك الحرب ، واخيرا اهاب بهم ان يظلوا على ولائهم واخلاصهم لواجباتهم ، وختم حديثه بأنه على استعداد لان يعفي من الاشتراك في الاعمال الحربية اولئك الضباط المتحدرين من اصل تركي ولا تسمح ضمائرهم بحمـل السلاح ضد بني جنسهـم .

وبعد ذلك قابل الحاكم العام في نفس اليوم فئة من العلماء وشرح لهم الحالة ايضا . وفي اليوم الثامن من نوفمبر دعا للسراي المشايخ والعلماء من المدن الثلاث وابان لهم الثمار التي جنتها البلاد من الحكم الحالي ومنـاصرة حكومته للاسلام والمسلمين . وتحمس كل الحاضرين ووقعوا على وثيقة ولاء واخلاص ونحا نحوهم اعيان العاصمة المثلثة الذين لم يحضروا الاجتماع ، وكذلك فعل زعماء العشائر واعيان الاقاليم ورجال الدين وكبار الموظفين بالعرائض والتلغرافات . وجمع صاحب جريدة السودان كل ذلك وطبعه في كتاب سماه سفر الولاء ، وهاك بعض مما ورد في تلك العرائض بنصه .

سفر الولاء

حكومتنا العادلة التي لم ير الاسلام والمسلمون منها الا كل خير ديني ودنيوي وجميعنا في استياء من قيام تركيا في هذه الحرب التي نتبرأ منها فانه لا مصلحة فيها للمسلمين بوجه من الوجوه « وسترون بلادنا هادئة رائعة تحت ظلم العلم البريطاني الظافر بالنصر على اعدائه قريبـا ان شاء الله » « دولة العدل والشرف على سائر رعاياها في جميع انحاء المعمورة وخصوصا في السودان بعد ان خلصته من المظالم والاستبـداد ، وسهلت لنا طـرق الحج وزيارة قبر النبي » .

« اننا قد شاهدنا عيانا ما كان وجرى فيما سلف مدة الاتراك من الجور والفجور والاستبداد في الاحكام بدوام الظلم والتنكيل والتمثيل والسجن والقلاقل والاهلاك والاهانة ، وامتد ذلك الظلم الى ان الحق بظلم العرب من الاذية » . « نعلن اخلاصنا ومشاركتنا لدولة بريطانيا العظمى المحبوبة في كل ما يكدّر صفاءها وهي دولة العدل التي خلصت عموم السودان من مشقات العذاب وأتعاب العهد الماضي وصرنا بفضل حمايتها راتعين في بحبوحة الأمن » . « اما نحن فراضون بالحكم الحالي فانه من خير الاحكام » .

« تركيا التي حاربنا ظلمها من قبلكم » « تقلبت علينا أدوار كثيرة وحكمنا الاتراك والدراويش وغيرهم ، ولم نجد عدلاً ما مثل ولاة أمورنا الانجليز الحاضرين الوفيين العاملين » . « نرفع لحكومتنا العادلة ولاءنا واخلاصنا قلباً وقالباً ، اذ لم نر منها سوى احترام ديننا وتعمير مساجدنا وتوظيف العلماء لتعليم ديننا وتوظيف القضاة الشرعيين للفصل في أمورنا بموجب الشريعة المحمدية ، وتشييد المدارس لتربية اولادنا وتعليمهم وتسهيل طريق الحج والزيارة النبوية ونشر العدل والامان في جميع انحاء بلادنا وحسن معاملتنا » .

« ان الحزن والأسف لملء افئدتنا لدخول تركيا في حرب ضد بريطانيا العظمى الامر الذي حصل بلا شك رغم وضد ارادة ورغبة السلطان وعقلاء دولته » . « ان هذه الحرب التي تقوم بها تركيا اسما والالمان فعلا انما هي حرب المانية بكل الوجوه » . « ويكفينا ما شهدناه ورويناه عن آبائنا السالفين من اعمال الحكومات السابقة من الاستبداد او الجور وسوء المعاملات والتهافت على أكل الرشوات وهتك الحرمات ولا سيما حكومة الترك ورجالها » .

هذه مقتطفات وردت في سفر الولاء من تلك العرائض والتلغرافات والخطابات التي سجلها العلماء والأعيان وزعماء العشائر والتي يستشف منها

الباحث الروح التي كانت سائدة آنذاك او التي اريد لها ان تسود ، وان تنتشر دعايتها بين الأهالي بواسطة قادتهم وزعمائهم . وهذه نتيجة لدعاية واسعة النطاق قام بها رجال الحكومة . وترتكز على ان الحرب التي خاضت غمارها تركيا زعيمة العالم الاسلامي لم تكن بالحرب الدينية في كثير او قليل ، وانما انقادت تركيا لالمانيا لمطامع الدنيا لا جهاداً في سبيل الله ، وان الشبان الاتراك الذين بهرتهم المدنية الاوروبية قادوا الخليفة ورجال الدين الى هذا المصير والانصياع لألمانيا .

وقد نجحت الدعاية ايما نجاح وساعد على نجاحها ما يعرفه وما خبره أهل السودان عن تركيا والاتراك . فهم لم يعرفوا الاواصر الروحية التي تربطهم بالخليفة بل عرفوا عن الحاكم والجندي التركي القسوة والفظاظة والجلد بالسياط ونفروا منــه عندمــا كان السودان تحت سيطرة النظام الاداري التركي .

وهكذا عندما اعلنت تركيا الحرب اطمأنت حكومة السودان على ولاء البلاد والشعب ولم يذعنوا للدعاية الدينية التي قامت بها تركيا . ومع ذلك فقد قام نفر قليل ممن يرجع اصلهم الى الاتراك او مــن تغلبت فيهم عاطفة الرابطة الاسلامية بدعاية سرية في شكل منشورات وزعت على رجال الدين. ولكنها لم تأت بنتيجة ما ، وقبض عــلى المتهمين وعلى غيرهم ممن ظنت الحكومة انهم يضمرون لها سوءاً . وما عدا ذلك وما عدا نشر الاشاعات التي تشير الى انتصارات الالمان واندحار الانجليز ، فقد ظلت البلاد بوجه عام في هدوء وأمن مــا عدا دارفور كما سنبينه في فصل خاص وما عدا العصيان الذي حدث في جبال النوبة واستدعى اخضاع العصاة انشغال الجيش المصري اشهراً عديدة .

مساهمة السودان

ساهم السودان بنصيب وافر في سبيل الحرب وخـاصة في الحملة السورية التي قادها أللنبي وفي تموين الجيوش التي كانت ترابط في مصر . فالجمال كانت لا تزال سفينة الصحراء وصدّرت السودان عدداً كبيراً منها والبقر او الغنم تحملها القطارات الحديدية باستمرار نحو مصر لغذاء الجند ، والحاصلات السودانية يرسل فائضها لمجهود الحرب .

ثورات في جبال النوبة

لقد ألمعنا سابقاً الى ثورات قام بها بعض سكان جبال النوبة اثناء الحرب نذكر منها اثنتين . الاولى اشتعلت في جبال التا بمركز الدلنج يرأسها عجبنا . فقد سيطر على مجموعة الجبال التي تحمل اسم التا وأعلن عصيانه على الحكومة وتطلب من السكان موافاته بالضريبة بدلاً من توريدها للحكومة فقامت دورية مكونة من ٣١ مـن الضباط الانجليز و ١٠٥ من الضباط المصريين والسودانيين و ٢٨٧٥ من الجنود ومعهم ٨ مدافع كبيرة و ١٨ مكنة . وقامت هذه القوة بضرب الحصار على مجموعة الجبال ورابطت اشهراً عديدة . وقد تم لها الاستيلاء اخيراً على الجبال والقبض على زعيم الثورة في ديسمبر سنة ١٩١٧ . والثورة الثانية كانت في جبال ميري بمركز كدجلي وزعيم الحركة الفكي علي ولكنها لم تبلغ في خطورتها ثورة عجبنا . وتمكن الجند الحكومي من استلام ناصية الحالة وإعادة المياه الى مجاريها .

وفد سوداني لانجلترا

وعندما دقت اجراس السلام في نوفمبر سنة ١٩١٨ احتفلت البلاد بالنصر وتكون وفد من السادة والعلماء وزعماء العشائر وسافر الى انجلترا

في سنة ١٩١٩ لتهنئة جلالة الملك شخصياً بالانتصار . وبدأت الحكومة في مشروعاتها التي تركتها بسبب الحرب وخاصة مشروع الجزيرة ودخلت المسألة السودانية في طور جديد حيث ارتبطت بالأماني القومية المصرية ، وبدأت الحالة السياسية في مصر تظهر آثارها في السودان ، وتوالت مشاكل واحداث جديدة .

ابراهيم علي يبعث لدارفور

تراءى لكتشنر ومعاونيه منذ البدء ان حكماً مباشراً يرتكز على الخرطوم لا يجدي في دارفور . وهم في رأيهم هذا انما يعتبرون بالدرس الذي تلقته الحكومة المصرية عندما تم لها فتح دارفور على يد الزبير وإسماعيل ايوب ، فقد ظلت الثورات متصلة الحلقات الى ان تم زوال السلطة المصرية، وكلفت الخزانة المصرية اموالا طائلة ، ولذلك عندما فر إبراهيم علي من جيش محمود وهو يمت بصلة للعائلة المالكة في دارفور بعثه كتشنر الى الغرب، لينشر الأمن بين ربوع دارفور ويستلم زمام السلطة المؤقتة الى ان يفرغ الجيش من مهمة الفتح ، وعند ذاك يعمل القائد ما يراه صالحاً لحكم دارفور وفعلا غادر إبراهيم علي النيل ووجهته دارفور ليباشر ما وكل اليه من مهمة.

السلطان علي دينار

وتشاء الاقدار ألا يتم لابراهيم ما يرجوه من ملك وسلطان ، وان يقوم بالمهمة من لم تزوده الحكومة الجديدة ، ومن لم توعز بالأمر . فقد كان علي دينار بن زكريا بن السلطان محمد الفضل ملازماً في ام درمان في شبه اعتقال في أخريات ايام المهدية ، فهو آخر السلاطين الاسميين لدارفور الذين جرت العادة في المهدية ان يحتلوا هذا المنصب منذ ان غادر السيد محمد خالد

زقل البلاد . وقد لوحظ عدم اخلاص وولاء علي دينار للمهدية حينا كان سلطاناً اسمياً واخذ لأم درمان ، وبقي في سلك الملازمين الى اليوم السابق لمعركة كرري ، حيث انتهز فرصة الاضطراب الذي ساد مدينة ام درمان وغادرها بمجموعة من صحبه المختارين يقلون عـن العشرة . وظل سكان دارفور يتجمعون عليه وهو في الطريق ، الى ان قيل انه عبر حدود مملكته الجديدة بما يقرب من الالفين وهناك في الفاشر سلمت له السلطات التي كانت تباشر الحكم نيابة عن حكومة المهدية ، وتمكن بما له من قوة ونفوذ على إزالة منافسه إبراهيم علي .

وعندما وصلت اخبار تلك المنافسة الى اسماع كتشنر خاطب الاثنين بالتريث والاناة حتى تحل جنود الحكومة بالبلاد ، وعندما يعين من يملك قلوب السكان ويجذب احترامهم وطاعتهم له ولكن سرعان ما تبين لابراهيم علي انه ليس بالذي يرتفع الى مستوى علي دينار فترك الامر قبل ان تتدخل الحكومة .

العلاقة بين السلطان والحكومة

وكانت نية حكومة السودان متجهة نحو خلق سلطنة في دارفور يتربع عليها علي دينار ، وتترك له حكم البلاد الداخلي ، ولكنها تمده بالمستشارين ويقيم معه في عاصمته معتمد من قبلها . غير ان علي دينار منذ ان اخلصت له البلاد وتولى الامر ما كان ليرغب او يريد تدخلا من حكومة السودان ، وبدأ يعمل لهذه الغاية ، فاذا ما استشير في امر مقابلته مع مندوب من الحكومة تعلل بمختلف الاعذار ، واذا ما رأى تجمعاً حربياً او قوات تشرف على الحدود احتج على هذا العمل وحذرها من عاقبته ، لانها قد تحرك السكان ويشيع بينهم الاضطراب . وأصبح يراقب بحذر شديد كل قادم من جهة الشرق ، وكل رسول تبعثه الحكومة بخطابات . وكل ما كان يريده

من حكومة السودان هو الاعتراف بسيطرته على البلاد ، مقابل ان يرفع العلمين وان يدفع جزية سنوية .

ولو ان حكومة السودان كانت تريد لنفسها رقابة وسيطرة عـلى دارفور اقوى مما كان يريد لها علي دينار الا انها رضخت للامر الواقع الذي وضعه امامها السلطان . وهي قبل كل شيء ما كانت لترغب في اكثر من تهدئة الأحوال ونشر الامن في ربوع البلاد . وكما قدمنا كانت تحاذر النفقات الباهظة فيما لو اخضعت المديرية للحكم المباشر ، فقد كفاها السلطان مؤونة الادارة والصرف عليها . ولقد اقام نوعاً مـن الادارة ونشر بها الامن ، فلترضى بهذا الوضع وترقبه باهتمام ولتعاونه وتشد ازره ان هو اخلص لها .

مشاكل السلطان

كان على السلطان ان يحمي حدوده من الغرب ، ويجاوره سلاطين يحكمون قبائل متقلبة في ولائها لهم او له . وكان بعضهم يرضخ لسلاطين دارفور عندما كانت دولتها وطيدة الاركان . وتمكن علي دينار من اظهار هيبته ونفوذه فدان له بعضهم ، وطأطأ الرأس البعض الآخر لأنه يفوقهم في نفوذه وعدده وعدته . وكان عليه ان يخضع سنين الناماوي الذي احتمى الى الغرب من الفاشر وظل يرد التجريدة تلو الاخرى من قبل السلطان ، وظل شوكة في جنبه عدداً من السنين . وكان عليه ايضاً اخضاع قبائل البقارة التي تسكن جنوب دارفور من معاليه ورزيقات وبني هلبة وغيرهم . فهم قد تعودوا في القديم الرضوخ لحكم السلاطين احياناً ، واعلان حريتهم وحق التصرف في حق انفسهم احيانا اخرى والسلطان يريد منهم الرضا بحكمه والاعتراف بسلطانه عليهم . فـأذا مـا طاولوا في اظهار ولائهم واخلاصهم ؛ ارسل عليهم التجريدات القوية لتكتسح ارضهم ويفر الكثير

منهم ويلتجيء بأرض كردفان . وهـذا قاده الى اثارة مشاكل بينه وبين القبائل الكردفانية التي تقطن الحدود . فهم في رأيه آووا من فر من رعيته، وهم يخترقون حرمة الحدود احياناً للنهب .

السلطان وسلاطين باشا

وهو في خطاباته للحكومة يشكو من جيرانه رجال قبائل الحدود ، ويشكو من تعديهم على اراضيه ، ويشكو من رعاياه الذين ابدوا العصيان وفروا الى ارض الحكومة ، وبعد ذلك كله يعتب عـلى حكومة السودان لأنها آوت من فر من رعيته ، وخاصة موسى مادبور زعيم الرزيقات ، ومما زاد الطين بلة ان سلاطين باشا المفتش العام لحكومة السودان ، وهو ضابط الاتصال بينه وبين الحكومة يخاطبه ويرد عليه على وجه الاستعلاء . واشتم السلطان من خطابات سلاطين انه يتوعده ويتهدده ، او على الاقل لا يسوغ عباراته في القالب الذي يجب ان يخاطب به الملوك . وسلاطين نفسه يدل على علي دينار بانه ساعده على التربع في دست الحكم في دارفور ، ويذكر بصداقته القديمة ويفتخر بانه يعرف دارفور واحواله لسابق خدمته فيها ولا يرضى السلطان عن هذه النغمة ويرد بانه يدفع الجزية في اوقاتها للحكومة حسب الاتفاق معها ، وانه لا يقبل مرة ثانية ما يشتم منه تهديد او وعيد ، يناشد سلاطين بأنه يكون معه على وفاق حسب ما كان معه من قبل .

ومما جاء في خطاب بعث به من سلاطين الى السلطات بتاريخ ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٣ ما يلي : « ان جل ما ارمي اليه من الغايات هو ان أخلص لكم النصيحة في كل اموركم وعلاقاتكم وواجباتكم نحو الحكومة التي انقذتكم من ايدي الخليفة واعوانه واعادتكم الـى بـلاد آبائكم واجدادكم حتى تحكموها وتقيموا العدل والامن في ارجائها » . وفي ٨ يناير سنة ١٩١٤ خاطبه بقوله : « انني قد كتبت لكم مراراً عديدة وصرحت لكم انني كنت

اول العاملين لاعادة الراحة الى هذه البلاد واعطاء الحرية والامان لاهلها . واطلاق اعناقهم من قيود الظلم والاستبداد . وكيف انني كنت الواسطة لاجل تمتعكم بنعمة العودة الى بلاد آبائكم واجدادكم ؛ لتحكموها بالعدل والحكمة ؛ وترد اليها ما فقدته من سابق مجدها وعزها بسبب الظلم والاستبداد . وقد ذكرت لكم مراراً ان الحكومة لا تزال على عهدها القديم معكم تحفظ لكم اصدق العواطف وتميل الى مساعدتكم ومعاونتكم بكل وسيلة ممكنة ، وكان الاولى بكم ان تثقوا بما قلته لكم مراراً واقوله الآن لان غايتي كما يعلم الله هي راحتكم ودوام مجدكم » .

مشكلته مع الفرنسيين

وفي السنين القليلة التي سبقت اعلان الحرب في سنة ١٩١٤ برزت مشكلة جديدة للسكان وهي توغل الفرنسيين في أواسط أفريقيا الى انه تاخموا دارفور من الغرب ، وبدأوا يضمون الى املاكهم بعض الأراضي التي يعتقد السلطان بأنها جزء من دارفور من قديم الزمان . ودخل معهم في مكاتبات بصدد الحدود وأخبر حكومة السودان بذلك . وتنصحه الحكومة بألا يدخل مع الفرنسيين في مفاوضات او محادثات سياسية بل يترك الأمر للحكومة الانجليزية ، فهي التي تتولاه بالنيابة عن حكومة السودان ، وتطلب منه البيانات التي تساعد حكومة جلالة الملك في حل المشكلة بما يرضي مطامعه وأمانيه . وتندلع نيران الحرب البلقانية في سنة ١٩١٣ وتؤجل المفاوضات الى ان تسوى الاشكالات الأوروبية وتشب الحرب الكبرى في سنة ١٩١٤ ويصرف النظر نهائياً عن المشكلة الى ان تسوي حكومة السودان حساباتها نهائياً مع السلطان كما سيجيء .

ادارة علي دينار

كانت إدارة السلطان هي حكومة الفرد المطلقة ، ولكنه يعتمد في جباية الضرائب وفي إقامة العدل على الشريعة الاسلامية وعُرف عنه التدين والتمسك بتعليم الدين ، وبـدأ يرسل محملا سنوياً للحجاز شأن ملوك المسلمين .

توتر العلاقات

وفي السنتين السابقتين لقيام الحرب بدأت تتوتر العلاقات بينه وبين حكومة السودان . فهو منذ البداية لم يطمئن لها وما كان يريد عرشاً يشاد على حماية او تدخل اجنبي ، بل كان يريد عرشاً خالصاً مستقلاً ، ولكنه من حسن السياسة رأى ان يستعين بالحكومة على الوصول الى غايته . وهو يستلهم الوحي من تاريخ أجداده ايام ان كان ملكهم مستقلا تشوبه شائبة ، ويقتدي بأعمالهم في ادارته وحكمه . ثم هو فوق ذلك أمير مسلم يجب عليه ان يصون عرشه ورعيته من تدخل الذين على غير دينه ، فقد يفسدون عليه دنياه وآخرته . وقد تم له ما أراد من توطيد للعرش واقامة للملك ، فليسلك منهجاً يدل على استقلاله عنهم ، والا يغادر صغيرة او كبيرة تدل على التدخل في شؤونه إلا رد فيها عما يشعر بتفرده بالحكم .

وحكومة السودان من جانبها قد أحنت رأسها في أول الامر ورضخت لسياسة الأمر الواقع لأنه كفاها تكاليف وتضحيات الفتح ، ولأنها كانت في شغل عن دارفور بتشييد ادارة جديدة في بقيــة انحاء السودان ، ولأن مواصلاتها مع دارفور سيئة ان أرادت القيام بحركات عسكرية . وما ان وافت سنة ١٩١٢ حتى تم لها اقامة الأداة الادارية ، وتم لهــا مد الخط الحديدي الى الأبيض ، وبدأت على ما يظهر منذ تلك السنة تفرض نفوذها

على السلطان وتمنع منه ما يمكن ان يزيد في قوته . وكان ان وصل السلطان الى أوج شهرته وعظمته وبدأ يظهر استقلاله . ولا بد مثل هذا الموقف من تصفية الحالة ان لم يكن بالمفاوضات فبالقوة .

شكاوى السلطان

وفي خطاباته المتبادلة مع الحكومة يعرف ان السلطان يشكو من الحكومة في أمور عدة أولاً : انه كان يطلب اسلحة وجبخانة فلا يجاب طلبه واحياناً يكون الرد بندقية واحدة . ثانياً : تعدى الفرنسيون على حدود بلاده ولم تقم الحكومة بعمل يرد المعتدين . ثالثا : تآمر موسى مادبو زعيم الرزيقات حسب ظن السلطان على حكومة دارفور ووافقت حكومة السودان على تآمره . رابعاً : هرب الزيادية من دارفور الى كردفان ولم ترجعهم الحكومة الى سلطانهم الشرعي . خامساً : تعدي الكبابيش على دارفور ولم تقم الحكومة بواجب العدالة والانصاف فيهم . سادساً : لم تسمح حكومة السودان لمندوب السلطان بالذهاب الى الحجاز لشراء الجبخانة ، بل اعطته كية بسيطة من الرمنتون وبغلين هزيلين .

خطاب ونجت لسلطان

وسط هذا الجو من عدم الثقة المتبادلة اشتعلت نيران الحرب العالمية في سنة ١٩١٤ . ونقل الحاكم العام الخبر للسلطان في الخطاب الآتي : —
« أما بعد فلا بد انه بلغكم ان دولة انجلترا العظمى ودول اوروبا الأخرى تحارب الآن الدولة الالمانية التي قد مزقت جميع شرائع الامم ومعاهداتها ، ولم ترع حرمة العهود . وان قسماً من جيوشنا يحارب الآن العدو في قارة اوروبا . وأما الاسطول الانجليزي الذي يفوق الاسطول الالماني بعدد

مدرعاته وعساكره وسلاحه قد اضطر اسطول العدو ان يلتجيء الى موانيء بحرية عديدة ، ولا يتجرأ على الخروج منها . اما في البر فان جيوش الدول المتحالفة معنا فقد تجمعت وبإذن الله ستضرب جيش الالمان الضربة القاضية. وليكن بعلمكم ان اخبار هذه الحرب الحقيقية تنشرها جريدة السودان ، التي تظهر في الخرطوم ، والتي على ما اظن تصلكم في دارفور ، فاذا بلغكم من بعض الناس الجهلاء الذين لا يعرفون الحقائق او المفسدين الذين يحبون نشر أخبار كاذبة أخباراً لا تنطبق على ما تنشره الجريدة المذكورة ، فاني اوصيكم بأن تأمروا موظفيكم بالقبض على هؤلاء الكاذبين ، وتبقوهم عندكم تحت المراقبة او ترسلوهم للحكومة . ثم انه لا بد سيبلغكم خبر وصول جيوش انجليزية كبيرة الى مصر فهذا الخبر صحيح ولكن لا علاقة له بالسودان على الاطلاق ، لأن السودان متمتع الآن بالراحة والطمأنينة بفضل الله تعالى » .

السلطان يخاطب الخليفة العثماني

وببدء الحرب في اوروبا صارت الاشاعات تنتشر في العالم وكل ما بعد من مواطن المعارك دخل فيها عنصر المبالغة ، ووصل السلطان ان الانجليز وحلفاءهم على وشك الانهيار ، وأنهم سوف يخرجون من السودان ، وما على السلطان الا ان يتقدم شرقاً ويقيم دولـة اسلامية في ربوعه . فإذا أضيفت هذه الأخبار الى ما كان يبديه السلطان من نفور والى ما كان بينه وبين حكومة السودان من جفوة ، كان من الطبيعي ان يلجأ السلطان وهو مسلم متدين الى خليفة المسلمين ويخاطبه بقوله : « وقـد أحاطت ايدي النصـارى الكفـار بالمسلمين من يميننا وشمالنـا وورائنا وأمامنـا ، وحازوا ديار المسلمين كلهـا ، ممالك البعض سلطانها مقتول ، والبعض سلطانها مأسور ، والبعض سلطانها مقهور ، يلعبون بأيديهم كالعصفور ،

ما عدا بلادنا دارفور قد حفظها الله من ظلمات الكفار . والداعي أنهم حالوا بيننا وبين الحرمين الشريفين اللذين حرسهم الله ومنحكم بخدمتها . ولم نر حيلة تتوسل بها لأداء الفرض الذي فرضه الله علينا من حج بيته الحرام ، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام ، انجبرنا على مواصلة دولة الانجليز وسرنا نعاملهم تارة بالمشاحنة معهم ، وتارة رغبة في حفظ اعاننا وإسلامنا في بلادنا» ولم يتبين لنا فيما اذا وجد هذا الخطاب طريقه الى الأستانة العلية ام لا .

مخاطبة انور السلطان

وكان من بديهيات الامور ان تنشط الدعاية التركية تضرب على نغمة الجهاد المقدس ، وتهيب بالمسلمين في مشارق الارض ومغاربها بحمل السلاح ومساندة دولة تركيا ومقر الخلافة الاسلامية . وبعث انور باشا بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٩١٥ خطاباً للسلطان علي دينار يخبره فيه بالتعدي الذي حصل من روسيا وانجلترا وفرنسا على تركيا وتحديهم الاسلام، وان خليفة المسلمين اعلن الجهاد المقدس ، والمشيخة الاسلامية افتت بأن الجهاد الآن فرض عينه على كافة المسلمين ، وانه ارسل نوري بك للسنوسي وجعفر بـك له . ويخبره بارسال تجريدة لانقاذ مصر ، ونهم انتصروا على الانجليز في البصرة ، وان حلفاءهم الالمان واهل النمسا يحاربون ، وانهم على اميال من عاصمة فرنسا ، باريس ، والالمان احتلوا جزءاً مـن روسيا وانه اخيراً يهيب بالمسلمين النهوض وقتل الجراثيم التي فتكت بأجسامهم ، وانه يعهد فيه الغيرة الاسلامية والذود عن حياضه واورد له في اختتام خطابه آيات قرآنية مناسبة تدعو الى التضامن والاتحاد .

رد السلطان لانور

ولقد سر السلطان أيما سرور بخطاب انور باشا ورد له « ونخبر جنابكم

اننا منذ انتشاب الحرب بين جلالة سلطان الاسلام وبـين الألداء الكفار والفساق الانجليز وفرنسا وما يليهم ، فمن وقته قطعت ما كان بيني وبين الكفار الملعونين من العلائق الودية ، وجاهرتهم بالعداوة واعلنتهم بالحرب، واستعديت لهم بقدر مـا يستطعني مـن القوة ، غيرة في دين الله وحمية للاسلام » .

الحكومة تجهز الحملة

ومنذ ان علمت الحكومة بنية السلطان في العصيان ، ومنذ ان ترامى اليها انه ينوي الزحف شرقاً الى السودان في سنة ١٩١٦ ، رأت ان تبدأه قبل تنفيذ رغبته . وبدأت تعد حملة تسيرها نحو دارفور ، بالرغم من حاجة انجلترا الى الاسلحة والذخيرة والرجال في ميادين أخرى، وبالرغم مما تقاسيه في الميادين الرئيسية من شدة . وجمعت قـوة تقل عن الـ ٣٠٠٠ جندي أغلبيتها من الجيش المصري ، وقادها كلي باشا . واثناء التجهيز والتجمع وقبل الزحف كانت الرسائل تتوارد عـلى السلطان ، تارة من الحكومة ، واخرى من زعماء الدين في السودان يمحضونه النصح ويشيرون عليه بالا يرمي بنفسه في التهلكة ؟ غير انه رأى فيها فرصة سانحة يستطيع تصفية حساباته نهائيا مع الانجليز ، ولذلك مضى في سبيل الحرب والجهاد .

المسير في دارفور

وزيادة على الصعوبات العامة من حيث الاشتراك في حرب عالمية ، فان حكومة السودان في حرب دارفور قامت امامها صعاب خاصة من حيث النقل وايجاد المياه الكافية غربي النهود في فصل الجفاف ، ولكنها حملة لا بد من القيام بها مهما وقف امامها من صعاب . واتجهت التجريدة نحو ام شنقة

ثم منها لجبل الحلة وابيض واخيراً للفاشر عن طريق مليط الطويل نظراً لانعدام المياه في الطريق القصير .

موقعة برنجية ٢٢ مايو سنة ١٩١٦

وما ان كانت جيوش كلي على بعد نحو ١٢ ميلا شمالي الفاشر حتى احست بوجود قوة بالقرب من قرية برنجيه وكانت خطة السلطان ان يكمن جنده حتى يباغت الجيش الزاحف ويقضي عليه . وقام الميرالاي هدلستون بك (حاكم عام السودان السابق) بحركة استكشافية ، وهب الكمين يطارده مما اضطره الى التراجع واحتلال مكانه في المربع . وخرج فرسان الفور ومشاتهم من خنادقهم ورموا بانفسهم على مربع الجيش . غير ان الجند قد ركزوا اقدامهم وثبتوا مدافعهم وبدأت فوهات بنادقهم وماكيناتهم تصب الحم على جيش السلطان الباسل . وما كان هناك من شك في نتيجة المعركة تحت الظروف التي وصفناها ، اذ لا بد من سيطرة الصبر والنظام على الحماس الغير منتظم ، مهما بلغت درجة البسالة والاقدام . جيش الفور نحو ٥٠٠ قتيل في الميدان وبعضهم بلغ من استهانتهم بالحياة واقدامهم ان رقدت جثثهم على بعد عشر ياردات في المربع .

نهاية علي دينار

لم ير السلطان بداً من مغادرة العاصمة والالتجاء الى منطقة جبل مرة الحصينة ، وانتهى بذلك الفصل الاول من فتح دارفور ، وبعث بيلوكات تقيم نقاطاً في الجهات المختلفة وكان الميرالاي هدلستون بك يرابط بقوة صغيرة في الجهة التي تقع بالقرب من السلطان . وتم الامر بين من بيدهم مقدرات الحملة على الاستجمام والراحة الاستعداد لحملة اخرى قوية . غير

ان هدلستون بك رأى ان كل يوم يمر ربما يزيد عن قوة السلطان ، ووصل الى سمعه ان مماليك السلطان بدأوا يتخلون عنه ، وانه اصبح في شرذمة قليلة من اتباعه ، وان عمليات حربية يقوم بها الآن توفر على الحكومة مالاً وجهداً وهماً . وخاطر وقاد عساكره مقتفياً اثر السلطان حتى داهمه وكانت نهاية علي دينار رصاصة طائشة اردته قتيلا في ٦ نوفمبر سنة ١٩١٦ . وبهذا تم انضمام دارفور نهائياً للسودان بعد ثمانية عشر عاماً مـــن فتح كتشنر واصبح تاريخها جزءاً من تاريخ السودان .

ثورة سنة ١٩٢٤ وما بعدها الى سنة ١٩٣٩

بداية الوعي

ختمت صفحة سفر الولاء وسفر الوفد السوداني المكون من زعماء الدين والعشائر لتهنئة الملك جورج الخامس بانتصار بريطانيا في سنة ١٩١٩ وفي نفس السنة بدأ وعـــي وطني عماده خريجي كلية غوردون التذكارية والمدارس الابتدائية مع الطبقة الواعية من شبان الاعمال الحرة . وتأثروا في وعيهم هذا بمبادىء ولسن التي اعلنها عند انتهاء الحرب والتأهب لمناقشات الصلح في باريس • وفوق هذا قامت الحركة الوطنية في مصر عندما تكتلت الطبقات الواعية وعينت وفداً برئاسة سعد زغلول لمقابلة المندوب السامي البريطاني للتحــدث معــه في شأن الحريــة لمصر • ومـــا كان المندوب السامي في وضع يسمح له باعطائهم وعداً ولــم تتبلور نيات الحكومة البريطانية نحو مصر بعــد . فهم في شغل عنهــا بالمسائل الكبرى التي سيواجهونها في مؤتمر الصلح . والسلطات العسكرية منعت الوفد المصري السفر الى لندن لعرض قضيتهم على الحكومة البريطانية ولم تكتف بذلك بل ادخلت زعماء الوفد السجن ورحلتهم الى منفاهم في مالطة وقامت ثورة بعدها في مظاهرات شعبية صاخبة هاجت الانجليز وقطعت وسائل المواصلات واستدعى الامر من جانب السلطات العسكرية اعلان حالة الطوارىء ولم ير مستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية حينما كان في لجنة في مؤتمر

الصلح ويجلس امامه اللورد اللنبي فاتح القدس الا ان يعينه كندوب سام لمصر لمعالجة الحالة المقلقة هناك بسلطات واسعة .

لجنة ملنر

وعندما هدأت الأحوال نوعاً ما في مصر أطلق سراح المتقلين في مالطة ولم يروا الرجوع لبلادهم بل سافروا لباريس لعرض قضيتهم لمؤتمر الصلح ولكن الأبواب امامهم موصدة . وانجلترا من جانبها بعثت بلورد ملنر على رأس بعثة لتحقيق حالة مصر وتقديم تقرير لحكومته لتهتدي به في علاقاتها مع مصر . وبأوامر من الوفد في اوروبا قاطعها الشعب في مصر ولكنهم تمكنوا من التحدث الى بعض الشخصيات . وبرجوعهم للندن أقنع عدلي باشا سعداً ورفاقه بالدخول في مفاوضات مـع ملنر ولكن الهوة سحيقة بينها ويهمنا وجهات نظر الفريقين فيما يختص بمسألة السودان . فالفريق المصري احتفظ لنفسه بالحق بالرجوع الى مسألة السودان ومن تصريحاتهم عرف انهم يربطونها بالقضية المصرية . اما وجهة النظر الانجليزية فقد وضحها لورد ملنر في تصريحه وهي ان مسألة السودان منفصلة تمام الانفصال عن القضية المصرية وان السودان سيتطور منفصلا عن مصر على اسس الاتفاقية تحت الرعاية الانجليزية وكل ما يهم مصر عن السودان هو مسألة مياه النيل وبريطانيا تضمنها لها . وأرسل الوفد مندوبين يحملون الاقتراحات لاستشارة زملائهم في مصر . وبعد بحث ومناقشة رفضت كل المقترحات .

ما بعد تصريح ملنر

قامت محاولة اخرى بـين عدلي باشا رئيس الوزارة المصرية ولورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية لم يرض المفاوض المصري عن المشروع

الانجليزي الذي ينادي ببقاء الحالة في السودان على ما هي عليه واستمرار الحكومة المصرية في تأدية مهمتها العسكرية في السودان اي انها تتحمل نفقات الجيش المصري في السودان بوحداته المصرية والسودانية او تعطي اعانة مقابل ذلك وانجلترا من جانبها تتعهد الا تقوم منشئات ري جنوبي وادي حلفا الا بعـد قرار مـن لجنة تشترك فيها الجوانب المختصة مصر والسودان ويوغندة . وتمسك كل فريق برأيه عن السودان . فالانجليز لا يريدون تغييراً في الادارة الثنائية نظرياً والانجليزية حقيقة ومصر تود ان تحتفظ لنفسها بالحق في مفاوضات مقبلة بشأن السودان — والطبقة المثقفة في السودان تقرأ وتهتم بأخبار النضال المصرية وتمسكه بأن لا تنفصل قضية السودان عن قضيته وتسمع أخبار البطولات والتضحيات في أسفل الوادي وخطب زعماء الثورة النارية وتتقصى اخبارهم في الجرائد المصرية وموقف الانجليز لا يطمئنهم لأنه اتجاه نحو الانفراد بادارته وضمه لمستعمراتهم في النهاية وهم يتخوفون من هذا المصير ولا سيما انهم يرون عجرفة المفتشين البريطانيين ومطالبتهم حتى بكبار القوم خلع النعال عند دخول مكاتبهم والوقوف لهم بالتحية عندما يمرون راكبين صهوات جيادهم . وفوق ذلك فكل الوظائف ذات المسؤولية وقف عليهم . فلا مشاركة في الحكم ولا تأهيل له في المستقبل .

جمعية الاتحاد السوداني

في مفتتح عام ١٩٢١ . وعندما كانت مصر تسعى جاهدة لنيل حريتها مع تمسكها باخراج النفوذ الانجليزي من السودان واضعافه قرأ ناظر كلية غوردون لبعض الخريجين مقالاً في التيمس الانجليزية ينادي بمبدأ « السودان للسودانيين » وان السياسة الانجليزية يجب ان تؤيد هذا المبدأ وتعمل له والغاية التي ترمي اليها هذه السياسة هي فصل قضية السودان من القضية

المصرية وفي احسن حالاتها ما هي الا تمكيناً للنفوذ الانجليزي ليرسم خطى التطور البطيء الذي يريده . وفي نفس الوقت مـن السنة نشأت جمعية « الاتحاد السوداني » السرية التي تكونت من بعض الموظفين من خريجي المدارس ومن بعض شبان الاعمال الحرة وبعض الطلبة في كلية غوردون وكانوا يتتبعون تطور نضال المصريين من اجل حريتهم ويتناقشون فيها في مجالس انفسهم وسمرهم في نادي الخريجين بام درمان ثم انتقلت المناقشة للمجالس الخاصة في المنازل . وحسب ما يروي السيد سليمان كشة احد مؤسسي هذه الجمعية فان شعارها كان « السودان للسودانيين والمصريين اولى بالمعروف » . وكان نشاطهم يتركز في توزيع المنشورات تنادي بمناهضة الحكم البريطاني . ونجحت في ارسال طلبة لاتمام تعليمهم في مصر وكانت تلك الخطوة في حد ذاتها مجازفة خطيرة من وجهة نظر الانجليز فالطالب الذي يفر من كلية غوردون لمواصلة تعليمه في مصر يعتبر في نظر الحكام البريطانيين مجرماً لا ينصب غضبهم عليه وحده بل ليتعداه الى اهله واصدقائه ومن يظن انهم عاونوه في الهرب. وهذه الجمعية تعمل بطريقة سرية تربطهم المباديء والصدقات واغلبيتهم من موظفي الحكومة والطلبة . ولذلك كان عملهم في الخفاء خوفاً من السلطات البريطانية .

جمعية اللواء الابيض

وتاريخ هذه الجمعية ما هو الا تاريخ حياة رئيسها وبطلها المغفور له الملازم اول علي عبد اللطيف . ولد في حلفا سنة ١٨٩٢ حيث كان والده جنديا في الجيش المصري واتم تعليمه الابتدائي بالخرطوم والتحق بالمدرسة الحربية تخرج بعدها سنة ١٩١٤ برتبة ملازم ثاني وتنقل في خدمة الكتائب السودانية في الجيش المصري وكاداري برتبة نائب مأمور . وعرف بدماثة الاخلاق وطيب المعشر ، له مروءة عالية وشجاعة تصل حد التهور ، وفي

آخر مرة كان يخدم الجيش سنة ١٩٢١ نفس السنة التي شهدت مولد جمعية الاتحاد السوداني واصبح منزله ناديا للسمر والمناقشة في الامور العامة وخاصة من زملائه الضباط وقابلهم نائب المدير البريطاني في الطريق ولم يؤدوا له التحية وعند مناقشتهم في هذا الامر اجابه علي عبد اللطيف بانهم كضباط في الجيش غير ملزمين بتحية الملكيين الا مدير المديرية في مناسبات خاصة . وتمت اتصالات بين نائب المدير والقومندان الانجليزي ادت في النهاية الى احالته للاستيداع فسافر للخرطوم حيث تفرغ للاعمال السياسية المناهضة للانجليز . وكتب مقالاً لم ينشر في حضارة السودان لأن رئيس التحرير ارجأ نشره الى حين تمكن مدير المخابرات من سحبه من الحضارة وتقديمه للمحاكمة بموجبه وبنشره في الصحف المصرية والمقال لا يحوي غير مطالبته بتوسيع فرص التعليم ونزع احتكار السكر من يد الحكومة ونقد لمشروع الجزيرة . وحكم عليه بالسجن سنة .

وعند خروجه من السجن بدأ نشاطاً سياسياً واضحاً يرمي الى ربط قضية السودان بقضية مصر . واثناء ذلك حدث تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذي منح مصر الاستقلال مع التحفظات الأربعة ومن ضمنها ان تبقى مسألة السودان على ما هي عليه دون تغيير . وعندما تكونت لجنة لوضع الدستور على أساس هذا التصريح في مصر اقترحت ان يكون اللقب الملكي « ملك مصر والسودان » وكادت تحدث ازمة سياسية توعدت بريطانيا وهددت وأخيراً كتبوا نصاً يقول بأن لقب الملك يرجأ الى ان تحل مسألة السودان . وفي سنة ١٩٢٤ كانت نتيجة الانتخابات أغلبية كاسحة لحزب الوفد وحسب العرف الدستوري ألّف سعد زغلول الحكومة وفي نفس السنة تكونت جمعية اللواء الأبيض وبدأت نشاطها بارسال التلغرافات مؤيدة المطالب المصرية بالاستقلال الكامل لمصر والسودان .

حكومة الوفد وحكومة العمال

وفي الوقت الذي تسلمت زمام الأمور حكومة دستورية لأول مرة في تاريخ مصر وصل حزب العمال لأول مرة لكراسي الحكم في بريطانيا بزعامة رمزي مكدونالد . وأرسل رئيس الوزارة البريطانية عند افتتاح اول برلمان مصري تهانيه لسعد زغلول لأحدث برلمان وتمنى توثق روابط الصداقة والود بين القطرين وأبدى استعداد بريطانيا للمفاوضة في التحفظات الاربعة في اي وقت . قرئت هذه الرسالة للبرلمان المصري في مارس سنة ١٩٢٤ عند افتتاحه وتضمن خطاب العرش في نفس اليوم تصريحاً مضمونه ان الحكومة ستقوم بعمل خطير وحساس يتوقف عليه مستقبل مصر وهو تحقيق الاستقلال التام بكل ما تحمل كلمة الاستقلال من معان . ولهذا الهدف السامي فان الحكومة على استعداد للدخول في مفاوضات خالية من كل التحفظات والشروط مع الحكومة البريطانية لتحقيق الأماني القومية لمصر والسودان . وهذا أول تصريح رسمي تضمنه خطاب العرش يربط السودان مع مصر في تحقيق الاماني القومية بالاستقلال التام وتناقلته أسلاك البرق حاملة اياه لمختلف بقاع الارض وظهر في الصحف المصرية بعناوين واضحة .

السودان في البرلمانين المصري والانجليزي

وفي الدورة الاولى للبرلمان المصري كانت المناقشات تدور حول مسألة السودان من وقت لآخر والاستجوابات تقدم للحكومة عن المعارضة عن بعض نقاط بالذات تتعلق بمركز بريطانيا الممتاز في السودان مخالفاً لنص الاتفاقية باشراك مصر في الحكم . وانتقد النواب والشيوخ وضع قيادة الجيش المصري في يد اجنبي يحكم السودان في الوقت نفسه . وطالبوا في حين آخر بأن تعرض ميزانية حكومة السودان على البرلمان المصري كما كانت

عليه الحالة قبل الحرب حيث عرضت على الجمعية التشريعية . وانتقدوا سياسة الضغط والارهاب التي تقوم بها حكومة السودان ضد السودانيين الذين يودون السفر لمصر لاظهار ولائهم للتاج المصري . كل هذه المناقشات تدور في البرلمان المصري عن السودان وربطه بقضية مصر وانتقاد انفراد الانجليز بحكمه . ولا بد والحالة هذه ان يكون هناك رد فعل في البرلمان الانجليزي وتقدم الاسئلة والاستجوابات وتظهر التصريحات الرسمية ترد على التصريحات المصرية .

أكد الناطق بلسان الحكومة البريطانية في مجلس اللوردات ان مسألة السودان تخص البريطانيين والسودانيين ولا ثالث لهما وان بريطانيا لا تترك السودان واي تغيير في إدارته الحالية لا ينفذ الا بموافقة البرلمان . وفي الحال رد سعد زغلول بأن مصر سوف لا تترك السودان وستبذل أقصى جهدها لازالة المظالم بالطرق القانونية . وأثناء تلك المصاولات الكلامية كانت سياسة العنف لمناهضة الانجليز في مصر واغتيالاتهم لا زالت مستمرة .

جمعية اللواء الابيض تعمل

كانت جمعية اللواء الأبيض السودانية ورئيسها المغفور له علي عبد اللطيف تراقب التطورات في مصر واتجاهات أول وزارة دستورية شعبية نحو السودان وتصريحاتها الواضحة الاستقلال التام لمصر والسودان ومناقشات برلمانها التي تهدف الى ازالة النفوذ البريطاني من بلادهم وتصريحات الحكومة البريطانية التي نادت بأن مسألة السودان تخص بريطانيا والسودان ولا دخل لمصر بها ولكنهم لم يذكروا شيئاً عن تدريب السودانيين لحكم بلادهم أو حتى إشراكهم في الحكم وبإقصاء مصر عن الميدان يستنتج ان السودان سيضم الى المستعمرات . فمصر تربط قضيتها بقضية السودان وتطلب الاستقلال للبلدين وانجلترا تؤكد بقاءها في

السودان دون الاشارة لخطة ترمي الى تطورات دستورية تهدف إشراكهم في الحكم . فلا غرابة والحالة هذه ان خرج نشاط جمعية اللواء الابيض الى الشارع والجماهير في سلسلة مظاهرات في الخرطوم وام درمان وغيرها من المدن السودانية منادية بسقوط الانجليز ومؤيدة لمصر في نضالها ضدهم لتحقيق الاماني القومية لمصر والسودان وقابلت السلطات الانجليزية هذه الحركة المناهضة لهم بوسائل القمع والارهاب وزجت بزعمائها في السجون مع تعذيبهم هناك ، والمستندات والوثائق التي ضبطت في منزل رئيس الجمعية دلتهم على كل اعضائها العاملين وبذلك قضت علـى الجمعية عقب نشاطها في يونيو سنة ١٩٢٤ .

مظاهرات طلبة المدرسة الحربية

وفي اغسطس من نفس السنة خرج طلبة المدرسة الحربية في مظاهرة سياسية مؤيدة لمصر ونظر البريطانيون اليها كتمرد في صفوف الجيش قد يؤدي الى نتائج خطيرة ولا سيما أنهم لم ينصاعوا لأوامر رؤسائهم من كبار الضباط الانجليز في الجيش المصري ولـم تتمكن السلطات الانجليزية من القبض عليهم الا بعد ان احكمت الحصار عليهم بواسطة الجيش الانجليزي فيمدرستهم . وحملوا الى وابور في عرض النيل الأزرق فترة من الزمن وبعدها ادخلوا السجن العمومي في كوبر . ووضع الجيش المصري بوحداته المصرية والسودانية آنذاك كان استمراراً لوضعه منذ ان احتل البريطانيون مصر في سنة ١٨٨٢ . وكانوا آنذاك الحكام الحقيقين لمصر بالرغم من وجود الخديوي وحكومة مصرية فهو جيشهم الذي دربوه على النمط الانجليزي وقائده السردار وكبار ضباطه من الانجليز . واستعادوا السودان به واصبح السردار في الوقت نفسه حاكماً عامــاً للسودان . ولكن في سنة ١٩٢٤ أصبحت مصر مستقلة ولو انه استقلال محدود بتحفظات ، واصبح لها ملك

ووزارة دستورية تؤيدها أغلبية برلمانية بعد انتخابات عامة حرّة . والضباط الذين يتخرجون من المدارس الحربية في القاهرة والخرطوم يؤدون قسم الولاء والطاعة لملك مصر . ومع ذلك فالوضع في الجيش ما زال على ما هو عليه بعد الاحتلال مباشرة وأصبح التناقض واضحاً بين الحالة القانونية وتطبيقها . والانجليز مسؤولون عن هذا التناقض فلم يعدلوا الوضع في سنة ١٩٢٤ بازالة هذا التناقض . ولا غرابة في ان يتمرد الطلبة الحربيون على رؤسائهم الانجليز الذين لا يدينون لهم بقسم الطاعة والولاء ويؤيدون الجهة التي سيؤدون لها القسم .

المفاوضات وما بعدها

والجو الذي جرت فيه المفاوضات بين سعد ومكدونالد لم يكن ملائماً للوصول الى اتفاق بينهما ، ففي مصر لا تزال اعمال العنف ضد البريطانيين مستمرة وفي السودان أيدت الحركات المناهضة لانجلترا تجاوبها مع الاماني المصرية . وفي لندن انزعج المسؤولون من تلك الحركات العدائية لهم في السودان وقبل بدء المفاوضات عقد اجتماع بين مكدونالد ولورد أللنبي المندوب في مصر والسير لي ستاك حاكم السودان العام كانت نتيجته ان تخرج مصر من السودان ان لم تتعاون مع بريطانيا في استمرار الوضع كما نصت عليه اتفاقية سنة ١٨٩٩ وكما جري تنفيذه منذ ذلك الحين . وفي حالة انفراد البريطانيين بالحكم في السودان لا بد من تكوين قوة دفاع سودانية خالصة ينفق عليها من عائدات زراعة القطن في الجزيرة والتي كانت على وشك البدء فيها . وسافر سعد في هذا الجو وليس على استعداد في ان يفرط او يتنازل عن التصريحات التي تضمنها خطاب العرش وهي تحقيق الاماني القومية في الاستقلال التام لمصر والسودان ، والحكومة الانجليزية من جانبها كانت مصرة على ان مسألة السودان تخصها هي والسودانيين

دون غيرهم وان لا علاقة بين المسألتين . وكانت الهوة سحيقة بين موقف الدولتين وانتهت بالفشل . وفي كتاب أبيض عقب فشـــل المفاوضات آكد مكدونالد ان السودان وديعة في يد بريطانيا ولا تسلم زمام الامور فيه إلا للسـودانيين .

مقتل السردار ونتائجه

وفي نوفمبر سنة ١٩٢٤ كان السير لي ستاك عائداً من اجازته في انجلترا ومر بالقاهرة بصفته قائداً للجيش المصري لانجاز اعماله في وزارة الحربية المصرية . وفي يوم ١٩ نوفمبر أطلق عليه جماعة من المصريين المتحمسين لقضيتهم النار في شوارع القاهرة وأردوه قتيــلا . واستلمت الحكم في بريطانيا وزارة المحافظين عقب سقوط وزارة مكدونالد قبيل هذا الحادث وأرسلت تبليغاً بريطانياً للحكومة المصرية تضمن سحب وحدات الجيش المصري من السودان ودفع ٧٥٠ ألــف جنيه سنوياً لنفقات قوة دفــاع السودان التي سوف تنشأ وإعطاء الحرية لحكومة السودان في ري اراضي الجزيرة كما تريد لا حسب ما اتفق عليه . ولكن هذا البند الأخير سحب أخيراً لان اللورد أللنبي استعجل تسليم التبليغ قبل تسلم النص الاخير من حكومته وما كان يحوي هذا البند وفي موكب عسكري انجليزي حمل لورد اللنبي التبليغ لرئاسة مجلس الوزراء وسلمه لسعد زغلول . وما كان سعد على استعداد لتنفيذ كل بنود التبليغ ولذلك قدم استقالته للملك وقبلت .

وعندما أرادت السلطات الانجليزية تنفيذ سفر الوحدات المصرية الى مصر رفض قائد الطوبجية الامر الا بأوامر تصله من الملك وبعث الملك مندوباً في طائرة خاصة وانصاع القائد لأمر الملك وبدأ يتجهز بأورطته للرحيل . وترامى الى سمع الضباط السودانيين رفض الطوبجية الرحيل

وأشيع انهم سيقاومون واستعدوا لذلك وخرج جماعة منهم على رأس جنودهم للانضمام الى زملائهم في السلاح بكامل معداتهم ، وعندما كانوا في شارع الشاطىء بالقرب من المستشفى العسكري تصدت لهم الجنود البريطانية والتي كانت تحتل كلية غوردون ومنعتهم من الوصول الى الكبرى . ووقعت معركة حامية استمرت بقية اليوم والليل وصباح اليوم التالي وانهزم السودانيون بعد ان أبلوا بلاء حسناً وقدموا تضحيات وعلى رأس المضحين البطل عبد الفضيل ألماظ حيث سقط في المعركة وهو ممسك عدفعه الرشاش وكبدوا البريطانيين خسارة كبيرة ولولا أن ذخيرتهم نفدت لصمدوا وقتاً كبيراً مضحين بأرواحهم . وقبض على الضباط الثوار وأعدموا وهم المغفور لهم سليمان محمد وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وحل وثاق الضابط علي البناء في اللحظة الأخيرة قبل اطلاق الرصاص عليه .

الحالة في ديسمبر ١٩٢٤

عندما انصرمت سنة ١٩٢٤ أخلى السودان من الضباط والجنود المصريين واتبعتهم حكومة السودان بالمدرسين وبعض الموظفين المصريين واقترح نائب الحاكم العام ونائب السودان متعاونين انزال العلم المصري والقضاء على أية صفة قانونية لمصر لأنها لا يستطيعان انشاء جيش مزدوج الولاء وان الاسس التي بنيت عليها ادارة السودان صارت مزعزعة ونزعات التمرد بين صفوف الوحدات السودانية لم تنته بعد وكان من الواجب انهاء النفوذ المصري عقب مقتل السير لي ستاك مباشرة . ولكن هذا الاقتراح لم يلق قبولا من جانب الحكومة البريطانية ومعتمدها في مصر اللورد لويد وهو من غلاة المستعمرين ، وعند مفتتح سنة ١٩٢٥ وبعد تصفية الثورة واقصاء الجيش المصري بدأت حكومة السودان سياسة قمع وإرهاب

وتجسس واذلال . ووضح ذلك المدارس حيث أجلس تلاميـذ المدارس الاولية في البروش عـلى الارض وبيعت مقاعدهم الخشبية بالمزاد وأمر التلاميذ في المدارس الابتدائية وفي كلية غوردون بكنس ونظافة فصولهم وداخلياتهم وخصصت ايام للتلاميذ يقومون فيها بأعمال نظافة عامة من نقل الاتربة والرمال وغيرها ومن يضبط متلبساً بجرعة قراءة الجرائد المصرية يعاقب بالجلد وربما الطرد من المدرسة .

تقييم ثورة ١٩٢٤

كانت فكرة الانجليز عن ثورة ١٩٢٤ انها نتيجة دعاية مصرية وتأييد مالي مصري وبذلك لم تكن حركة قومية سودانية وظهر اثر هذه الفكرة على بعض السودانيين الذين تأثروا بالدعاية الانجليزيـة ونادوا بفكـرة « السودان للسودانيين » كفكـرة مضادة ولكنهم لم يتخـذوا خطوات لانتزاع حريتهم ممن يكبتونها وهم الانجليز وكانوا بهذه الحالة في موقف دفاعي لما ظنوه مطامع مصر نحو ضم السودان لها ولقي هذا الفريق التأييد الكامل من الانجليز طالمـا انهم يناهضون المصريين وحـدهم ولم يطالبوا باشراك في الحكم او تدرج نحو الحكم الذاتي والاستقـلال . اما فريـق الثورة ضد الانجليز سواء منهم رجال جمعية اللواء الابيض او طلبة المدرسة الحربية او الجنود والضباط مـن السودانيين ممـن دخلوا في معركة ضد الجيش الانجليزي فكانوا يرون باعينهم استئثار الانجليز بالنفوذ والسيطرة ويرون عجرفة الحكام واذلالهم للشعب وبارقة الامل الوحيدة للخروج من حالة الكبت هي ربط قضيتهم بمصر التي خطت نحو الاستقلال والحريـة وقرأوا وعلموا ان الكثير من الشعوب نالت حريتها من مستعمريها ومستغليها بمعاونة دول اخرى صديقة ومصر تربطهم ببلادهم اواصر الدم والتاريـخ وفوق ذلك النيل وهم اخوان في السلاح وفي الوظائف الصغيرة التي تركها

الانجليز للفريقين .

ولو كانوا اذيالا للحركة المصرية بأجر يتقاضونه منهـا حسب رأي الانجليز وخصومهم من السودانيين لما وضعوا وظائفهم بل ارواحهم في كفة القدر ولما وصلوا الى درجة الاصطدام المباشر بسيطرة الانجليز والتعرض لارهابهم وكبتهم وتعذيبهم . ولو لم تكن هذه النزعة نحو الحرية والخلاص من السيطرة الانجليزيـة نابعة من قلوبهم وبـدافع من وطنيتهـم لأحنوا رؤوسهم للعاصفة وآثروا السلامة لان الاغراء بالمال لم يكن يوما من الايام دافعا للتضحية بالراحة والنفس. فالذين ماتوا منهم في المعركة والذين عجلت ظلمات السجون بنهايتهم والذين قضوا مدة السجن وخرجوا بعد ان فقدوا وظائفهم لهم منا اسمى غايات التقدير والاعجاب وهم الذين وضعوا أسس الحركة الوطنية التي ادت في نهايتها للحرية والاستقـلال وجنينا ثمـرة ما غرسوه ، وان ما قام به بعضهم من تحول وتنكر لماضيهم او استغلال مشين لمساهمتهم في تلك الحركة لا يجب ان يصرفنا عن جوهرها وانهـا لا زالت بداية الانطلاقة .

مشروع الجزيرة

ومشروع الجزيرة الذي اصبح الآن عمـاد دخلنا القومي وميزانيـة حكومتنا بدأ التفكير فيه كما قدمنا قبل الحرب وبدىء بتنفيذه فعلا وعندما وضعت الحرب اوزارها ارتفعت تكاليـف التشييد لدرجة ان حكومـة السودان اضطرت لاستدانة ملايين أخرى زيادة على الثلاثة التي حصلت عليها قبل الحرب وعقب حوادث سنة ١٩٢٤ بدأ المشروع يؤتي آكله حيث تدفقت المياه في الترع والخزانات وزرعت المرحلة الاولى وعهد على ادارته لشركة انجليزية على اساس توزيع الارباح بنسب متوية بين الشركة والحكومة والمزارعين . فالشركة تمد المزارعين بالسلفيات وتقوم بتسويـق المحصول وتباشر العمليات الزراعية والحكومة عليها الري والمزارع يقوم بالعمل .

ثورة نيالا في سنة ١٩٢١

وفي هذه الحقبة لم تعان حكومة السودان من اضطراب خطير الا في دارفور حيث ثأر الفكي السحيني في نيالا وادعى انه نبي الله عيسى وهاجم مركز نيالا في خمسة آلاف من اتباعه . ولم يكن به الا عدد قليل من رجال البوليس وخمسين من البيادة الراكبة بقيادة اليوزباشي بلال رزق وقتل المفتش ومعه متطوع انجليزي آخر وعدد من رجال البوليس والجيش وظن الثائرون انهم امتلكوا المركز وخرجوا منه . غير ان اليوزباشي بلال رزق قاد ما بقي من رجال الجيش والبوليس والمتطوعين من الموظفين والتجار ورد هجوما ثانيا جرح فيه زعيم الثوار وأخذه اتباعه خارج البلد وانفرط عقدهم وانهزموا بعد ان تركوا في ميدان المعركة المئات من جثث قتلاهم . وجند الحكومة نفذت ذخيرتهم فلو كان هناك هجوم ثالث لما صمدوا له . ويعزى اسباب التذمر والثورة الى قبائل جنوب دارفور كانت دائما في حرية فتاريخها مع ملوك دارفور والتركية السابقة والمهدية وعلي دينار هو تاريخ سلسلة من الثورات ضد نظام الحكم القائم وضد اي سيطرة اجنبية وزعماؤهم كرهوا ادخال الضرائب وحرمانهم من حكم قبائلهم بطريقتهم التقليدية فلا غرابة اذا ما التفوا حول ثائر صاحب رسالة دينية ينقذهم من تلك السيطرة .

سياسة مافي العامة

عين سير جوفري أرثر حاكما عاما للسودان في سنة ١٩٢٥ ولكنه لم يبق كثير حيث استقال من منصبه ولم يتبين لنا ما دعاه للاستقالة ولكن أشيع انه كان على خلاف في تخطيط السياسة العامة مع كبار معاونيه الانجليز في السودان ومع اللورد لويد المندوب السامي البريطاني في مصر ،

وقد لا نعرف الحقيقة الا بعد ان يسمح للباحثين بالاطلاع على الوثائق السرية في دار المحفوظات البريطانية وقد يطول بنا الوقت لانهم الآن فتحوها لسنة ١٩١٢ فقط وخلفه السير جون ما في وعاونه في عهده سكرتيرا اداريا وساعدا أيمن السير هرولد ماكمايكل وأدار الاثنان السودان الى سنة ١٩٣٣ . وتخطيط السياسة في عهد مافي تأثر بثورة ١٩٢٤ وتركزت في تطوير الادارة الاهلية ومنحها سلطات كبيرة ومقاومة النفوذ المصري بالضغط على المثقفين ومراقبة طرق الاتصال بين مصر والسودان وتكونت قوة دفاع السودان واصبح ولاءها للحاكم العام ويصرف عليها من الـ ٧٥٠ الف جنيه التي تدفعها مصر لحكومة السودان لهذا الغرض .

الادارة الاهلية

وزع السيد جون مافي مذكرة للمديرين عن طريق السكرتير الاداري ضمنها مقترحاته لتطوير الادارة الاهلية . وكانت بداية هذه النزعة عقب تصريح ملنر مباشرة اذ صدرت لائحة حددت سلطات واختصاصات لزعماء القبائل البدوية ودرجت الحكومة على تأهيل بعض السودانيين للقيام بوظائف نواب المآمير بدلا من الضباط المصريين . والاختيار لهذه الوظيفة لم يكن على اساس المستوى الثقافي بل لصفات اخلاقية شخصية وبتوصيات من الزعماء السودانيين والانجليز الكبار ولكن مذكرة مافي كانت تهدف الى تأسيس ادارات أهلية تنتظم كل السودان وخصصت لها سلطات ادارية ومالية وقضائية وقدم تفاصيل مشروعه بعد ان اوضح ان اشراك السودانيين في الحكم اما ان يقوم اساسا على زعماء العشائر او على المتعلمين من السودانيين وهو يفضل الاولى . ولا غرابة في ذلك اذا ما علمنا ان تلك السياسة خططت بعد ثورة ٢٤ وعمادها من المتعلمين . وذكر ان الادارة الاهلية التي تعتمد على الزعماء ورجال العشائر ستكون ترياقا ضد الدعاية

المصرية وسيكون عليهم رقابة انجليزية فعالة . وللورد لوجارد تأثير محسوس في اتجاه هذه السياسة حيث طبقها في نيجيريا وكان كتابه Dual mandate إنجيلا لمن يودون تطبيقها في المستعمرات وكانت حكومة السودان قبل عهد مضى بعثت مفتشا انجليزيا لنيجيريا ليدرس تطبيق هذه السياسة هناك ، وعند الموافقة على المشروع وقبل بدء التنفيذ مهد السبيل بدمج بعض المجموعات الصغيرة في أخرى كبيرة حتى لا تتعدد الادارات في منطقة واحدة ولم تخل هذه العملية من اعتراضات وتلتها اختيار الرؤساء من الزعماء المحليين لادارتها وصدرت اللوائح لتحدد الاختصاصات . وفي بداية التنفيذ وخاصة في ناحية المحاكم الاهلية صدرت احكام لا تمت بصلة لقانون العقوبات ولا للعرف والعادة بل هي تشفيات شخصية وضج الناس من احكامها ولكن تدخل المفتش البريطاني خففه من شدتها وبعضها تعدى على اختصاص المحاكم الشرعية مؤيدة بالمفتش واصطدموا بها مما أثار النعرة الدينية حتى خيل للكثيرين ان المحاكم الاهلية تستهدف إزالة محاكم الشريعة الاسلامية وان الانجليز يرمون الى اضعاف الدين .

حالة جمود في النواحي الاخرى

اصبحت حكومة السودان في مأمن من جانب المنافسة المصرية فاجلاء الجيش المصري والمدرسين وبعض الموظفين وبتعيين حاكم عام لا علاقة له بمصر اذ زالت صفة سردار الجيش المصر التي تجعله يخضع لحد ما لوزير الحربية المصرية وانشاء قوة دفاع سودانية تدين بالولاء والطاعة للحاكم العام كلها أمور زادت في قوة الحاكم العام وبالتالي في انفراد الانجليز بادارة السودان ولم يبق من مظاهر ثنائية الحكم الا العلم المصري ، وجمدت ادارة السودان التعليم في مختلف مراحله حيث بقيت المدارس على ما كانت عليها قبل الثورة واصبح الانجليز ينظرون اليها على أنها مكمن الخطر ونزل مستواها لان اجلاء المدرسين المصريين المدربين أحدث فراغا حاولوا ان

علاوه بنقل نظار المدارس الاولية للتعليم في المدارس الابتدائية وبتعيين عدد من خريجي جامعة بيروت الامريكية من اللبنانيين والسوريين للتدريس في كلية غوردون فمن كانت له كفاءة علمية تنقصه الخبرة وطريقة التدريس . وكان للاساتذة المصريين الفضل الاكبر في نهضة التعليم منذ انشاء كليـة غوردون وفتح المدارس الابتدائية .

سياسة رجعية في مجملها

مما تقدم يتضح لنا ان السياسة التي اختطها السيرجون مافي بمعاونة ساعده الاعن ماكمايكل في اعقاب حوادث سنة ١٩٢٤ سياسة رجعية تهدف الى تجميد المدارس والتعليم واثارة النعرات القبلية بانشاء الادارة الاهلية والعمل بالعرف الاهلي الذي انقرض وذهب واحياء سلطة للمشايخ فقدوها منذ أمد بعيد وأغلقوا مدرسة وكـلاء المآمير التي كـان يتخرج منهـا سودانيون للعمل في الادارة وأغلقت ايضا المدرسة الحربية وكان طلبتها يتلقون التدريب اللازم قبل تخرجهم كضباط في الجيش واصبحت الترقية لمرتبة الضباط من الصفوف وبهذا اصبح التعليم يحرم الشاب السوداني من وظائف الادارة والجيش بعد سنة ١٩٢٤ . وضيق الخناق على المتعلمين في سفرهم لمصر حتى لا يروا النور . وأصبح المفتش الانجليزي خريـج جامعات اكسفورد وكمبردج يعزف عن التحدث مع المتعلمين ومؤانستهم الا اذا كان يسبح بحمدهم وصاروا يرون في العمد ورؤساء الادارات أصدقاء وزملاء يوثق بهم ويطمئنون للحديث معهم . واسترعت هـذه السياسة الرجعية انتباه السير جيمس كري اول مدير للمعارف في السودان الى سنة ١٩١٤ . عندما زار السودان مرتين الاولى في سنة ١٩٢٦ والثانية سنـة ١٩٣٢ كتب ما نصه « بعد الحوادث التي انتهت بمقتل ستاك انزعجت الادارة الانجليزية المحلية . فبالرغم من اخلاص السودانيين المتعلمين للحكومة صرنا

تشاهد الاداريين من الشبان الانجليز يبحثون بنشاط واهتمام عن قبائل اختفت وعن زعماء صاروا في طي النسيان كل هذا محاولة منهم لبعث نظام اجتماعي غفى عليه الزمن واختفى الى الابد » .

اتفاقية مياه النيل

كان استرجاع السودان ضرورة استدعتها المنافسة الدولية في وادي النيل والخوف من ان تحتل اية دولة اوروبية واحتمال نقص في مياه النيل اللازمة لحياة مصر وزراعتها وكلما كانت مصر تطالب بنصيبها في حكم السودان كان الرد البريطاني دائما ان مصر لا تحتاج الا لمياه النيل وبريطانيا تضمنها لها وعندما قام مشروع الجزيرة حددت المساحة المنزرعة وحددت المدة التي لا يسمح فيها للسودان بسحب مياه من النيل الا بقدر معلوم كل ذلك لتطمئن مصر على ان حاجاتها الضرورية لاراضيها المنزعة وللتوسع الطبيعي المعقول تصلها بانتظام وفي مواقيتها . ولكن في التبليغ الذي سلمه لورد أللنبي للحكومة المصرية عقب مقتل السردار في سنة ١٩٢٤ نص ان لحكومة السودان مطلق الحرية في زيادة الاراضي المنزعة في الجزيرة . وبالرغم من ان هذا البند من التبليغ سحب نهائيا الا ان مصر ما زالت قلقة على حاجتها الضرورية من مياه النيل وبدأت ابحاث فنية ولجان تستهدف وضع اسس سليمة لتوزيع مياه النيل بين مصر والسودان توجت باتفاقية في سنة ١٩٢٩ ظلت سارية المفعول الى ان عدلت اخيرا في عهد الثورة في السودان كما كان يسمى في حينه وعهد الانقلاب العسكري كما اصبحت تسميه بعد ثورة ٢١ اكتوبر ٦٤ . ومن الناحية السياسية كانت هناك محاولتان بعد سنة ١٩٢٤ تهدفان لحل مشكلة المحافظات الاربعة ومن ضمنها مسألة السودان وكلتاهما كان مصيرهما الفشل وفي الثانية بالذات في سنة ١٩٣٠ كان السودان الصخرة التي تحطمت عليها المفاوضات .

الازمة الاقتصادية

في سنة ١٩٢٩ ظهـرت بوادر تدهور اقتصادي عالمي اثر على اسعار القطن وتسويقه والذي اصبح آنذاك المحصول الرئيسي النقدي للسودان ، وزامل هذه الازمة العالمية نقص في المحصول في السنوات التالية من جراء امراض القطن وهبوط في محصول الذرة من غزوات الجراد . وعيّن المستر فاس من الخزانة البريطانية ليعالج المشكلة الاقتصادية ولا سيما ان الحكومة البريطانية كانت ضامنة للديون التي مولت بها حكومة السودان مشروع الجزيرة ، وأعمل فاس فأسه في تخفيض المصروفات بأن قلل عدد الوظائف واقتطع نسبة مئوية من الماهيات .. ومن ضمن التخفيضات كانت ماهيات خريجي كلية غوردون . وكانت هذه الفئة المتعلمة ترزح تحت الضغط الذي أعقب ثورة ١٩٢٤ . وفي سنة ١٩٢٨ رجعت اول بعثة مدرسين سودانيين لجامعة بيروت الاميركية للتدريس في كلية غوردون . وقد درسوا في جو من حرية القول والكتابة والعقيدة والاجتماعات ما لم يألفوه في السودان واختلطوا بمختلف الشبان من البلاد العربية التي وصلت الى درجة ما في حكم بلادها تفوق ما وصل اليه السودانيون ، وامريكا آنذاك قبلـة من يطالب بتحرير بلاده والجامعة في بيروت امريكية بأساتذتها ومكتبتها العامرة باحدث المؤلفات التي تعالج المسائل السياسية والاجتماعية في حرية تامة . عاش هذا الرعيل الاول من مبعوثي مصلحـة المعارف السودانية اربـع سنوات في هذا الجو .. وعند رجوعهم نشروا بين تلاميذهم افكارا جديدة ونقلوا اليهم صورا عن حياة الحرية والتجديد هناك .

اضراب طلبة كلية غوردون في سنة ١٩٣١

وعندما وصل فاس بفأسه اليهم واقتطع مـن مرتباتهم التي سوف ينالونها بعد تخرجهم كانوا في حاجة الى متنفس من حياة الكبت والضغط

وتتيح لهم العائدون من بيروت آفاقاً من الحرية والانطلاق وها هي الحكومة زادتهم ضيقاً على ضيق وكان ردهم على هذا الاجراء بأن اعلنوا إضرابهم عن الدراسة وواصلوا إضرابهم بالرغم من محاولات الآباء والزعماء الدينيين لاقتلاعهم عنه ، وتكونت لجنة ضمت عشرة من كبار خريجي كلية غوردون للتوسط بين الحكومة والطلبة وكللت مساعيها بالنجاح بأن نقص التخفيض من ٣٠٪ الى ٢٠٪ وبهذا رجعوا للدراسة . والآثار الباقية لهذا الاضراب هي ان مجموعة من السودانيين استخدمت سلاح الاضراب الجماعي ونجحت ، وان الطبقة المثقفة كونت لجنة لمعالجة امر عام فيه مصلحة فريق من المواطنين والبلاد عامة . وكانت محنة أيام الاضراب والتهديد بالرفت وبعدم التعيين والمناقشات التي تدور بينهم مدرسة عملية ، تلقوا فيها مبادىء الوطنية والصبر والجدل والمناقشة في المسائل العامة وهذه هي الدروس التي اهلت الكثير منهم للمساهمة في الحقل الوطني في العهود التي تلت عهدهم .

عهد سايمز

انتهى عهد مافي وماكمايكل وحل محله عهد جديد حين عين السير جورج ستيوارت سايمز حاكماً عاماً والمستر جيلان سكرتيراً إدارياً . وانقشعت بذلك سحابة كانت تظلل السودان حاملة الكبت وتقييد الحريات في أعقاب ثورة ١٩٢٤ وتجميد لجهاز التعليم وتعاونت معها الازمة الاقتصادية العالمية وآفات القطن والذرة مما ادى الى تخفيض المرتبات ونقص عدد الوظائف واقصاء المتعلمين من خريجي كلية غوردون والمدارس الابتدائية من وظائف الجيش والادارة وتأسيس سياسة رجعية ترمي الى اعطاء سلطات استثنائية لرؤساء القبائل وللادارات الأهلية يحكمون فيها بما يدعى بالعرف والعادة ولا عرف ولا عادة هناك ومحاولة المباعدة ما بين مصر والسودان . وبقدوم سايمز كانت الازمة الاقتصادية قد زالت وظهرت مطامع ايطاليا في الحبشة

واضحة جلية للعيـــان ودخلت جيوش موسوليني الحبشـــة وخرج منهـا الامبراطور هيلاسلاسي وأصبحت الفاشستية في جوار مع السودان وهي لا تعرف حـــداً لمطامعها وسترنوا بأبصارها نحو السودان كمجال حيوي للتوسع وستكون خطراً على مصر والسودان بصدد مياه النيل الأزرق . وهذا الموقف الدولي كان له أثره في إجراء المفاوضات بين مصر وانجلترا لحل المسائل المعلقة بين البلدين .

اتفاقية سنة ١٩٣٦

خلافاً للعادة في المفاوضات السابقة فقد جرت في القاهرة لا في لندن واشترك فيها ممثلون لكل الاحزاب ولم ينفرد بها حزب واحد . وعندما اتفق الطرفان المتفاوضان على كل البنود سافروا الى لندن وتمت المراسيم بابرامها ووافق عليها البرلمانان في القاهرة ولندن . ويهمنا في هذا الصدد الفقرة الخاصة بالسودان ، وتفادى الفريقان مشكلة السودان بأن أبقياها على ما كانت عليه على اساس اتفاقية سنة ١٨٩٩ وزادا عبارة غامضة مبهمة تشير الى ان الهدف من حكم السودان هو رفاهية السودانيين وتفاديا مسألة السيادة اذ علقاها ولكن في الملاحق حاولت الاتفاقية ان تعيد للمصريين بعض مـــا فقدوه بعد حوادث ١٩٢٤ . فقد اتفق على رجوع أورطة مصرية للسودان تكون تحت إمرة الحاكم العام وان لا تتخذ إجراءات ضد هجرة المصريين للسودان إلا لدواعي الصحة والأمن وان لا يميز بين الانجليز والمصريين في ممارسة التجارة والهجرة وملكية الاراضي وفي التعيين للوظائف التي لا يوجد سودانيون مؤهلون لها . وهذه الملاحق ارضت نوعاً الكرامة المصرية ولكن لا مشاركة فعلية في الحكم ولا تغيير في الجهاز الاداري مما يساعد على اشراك السودانيين اللهم الا بقدر معلوم توجيه ضرورة التطور . والحاكم العام الجديد وراء كل هذه الاجراءات التي ادت الى رجوع المصريين

للسودان لدرجة محدودة ، ونتيجة لذلك زالت بعض العوائق التي كانت تحول دون الرحلة لمصر في سبيل العلم .

اتجاه جديد لسايمز

ولم يرض عن السياسة التي اتبعها سلفه لتطوير الادارة الاهلية وإهمال المتعلمين وحصرهم في اعمالهم الرسمية كموظفين وهو الذي عرف وعيهم السياسي وتطلعهم لليوم الذي يسيّرون فيه دفة أمورهم . ومن آرائه التي ناقش فيها معاونيه خلق أمة سودانية لها كيانها ولا بد من اشراك الشعب بمختلف قطاعاته وخططت سياسة تهدف الى اشراك المتعلمين في المجالس البلدية في المدن وخاصة في مديرية الخرطوم وكان المستر ارمسترنج مديرها آنذاك هو الذي قام بتنفيذ تلك السياسة وبدأت سياسة تقارب بين الانجليز والسودانيين من خريجي المدارس وخاصة الموظفين منهم وكل هذه محاولات لاصلاح ما أفسدته سياسة مافي وماكمايكل وبدأ التفكير من جانب سايمز في امكانية التعليم الجامعي للسودانيين وأثار هذا الرأي اعتراضات من بعض الاداريين الانجليز والمغالين منهم وهم يرون في السوداني الجامعي منافساً خطيراً لهم لانه سيطالب بالوظائف الكبيرة وهم لا يرون الشهادة الجامعية وحدها كافية لان المستوى السوداني في المجتمع والمنزل لا يؤهله لتلك المناصب ذات المسؤولية وغادر سايمز السودان ولم ينجح في تنفيذ تلك السياسة ولكن في السنين الاولى من الحرب كانت هناك فكرة ترمي للنهوض بالتعليم العالي في المستعمرات البريطانية وكونت لجان خاصة لهذا الغرض أوصت بفتح أبواب التعليم الجامعي للافريقيين في بلادهم ، ولكن هذا موضوع خارج عن نطاق قصتنا لانها تنتهي قبيل الحرب ولكن انصافاً لسايمز واتجاهاته نحو السودانيين الواعين لا بد من تقرير هذه الحقيقة .

مؤتمر الخريجين

بعد ثورة ١٩٢٤ وسياسة الكبت التي اتبعتها حكومة السودان اقتصر نشاط الخريجين على الاطلاع والمناقشة في المسائل الادبية ، وكانت تعقد المساجلات والمناقشة في الاندية او الجمعيات الادبية في المنازل ، ومن وقت لآخر يظهر نشاط لبعضهم في الصحف وكانت قليلة جداً في موضوعات اجتماعية وأدبية وفي المناسبات الدينية كالمولد ورأس السنة الهجرية وغيرها تلقى الخطب والقصائد الشعرية تتحدث عن أمجاد الماضي وتتحسر على الحالة التي أصبحنا فيها . غير ان تلك المساجلات والمناقشات والخطب والقصائد لا تلتزم الموضوع بل تخرج برفق أحياناً وبوضوح وعنف في القليل الى موضوعات سياسية تهز الحكام الانجليز في الاقاليم وادارة المخابرات في العاصمة وقد تعقبها استجوابات وربما مجالس للتأديب أو محاكمات . وكانوا يتناولون اتفاقية سنة ١٩٣٦ المعقودة بين مصر وانجلترا في مناقشاتهم ورأوا انهم اهملوا ولم يستشاروا فيها واهتدوا الى انهم لم تكن لهم هيئة تتحدث باسمهم في مثل هذه الامور التي تمس كيانهم وبرزت فكرة مؤتمر يضم الخريجين في احدى مناقشات الجمعية الادبية في نادي الخريجين بود مدني وكان السيد احمد خير صاحب الفكرة وتلقفها نادي الخريجين بأم درمان لانه في العاصمة اولا وأولها ثانياً وبعد ندوات تحدث فيها عدد من الخريجين خرج مؤتمر الخريجين للوجود في فبراير سنة ١٩٣٨ .

دستوره واهدافه

وكانت رغبة الذين قاموا على تأسيسه ان لا تقف دون ظهوره عوائق تؤدي به لأن هيئة كهذه أصبحت ضرورة . ولئلا يتركوا للحكومة مجالا يقتلونه في مهده ولانه كان يضم بعض كبار الخريجين المعتدلين في آرائهم

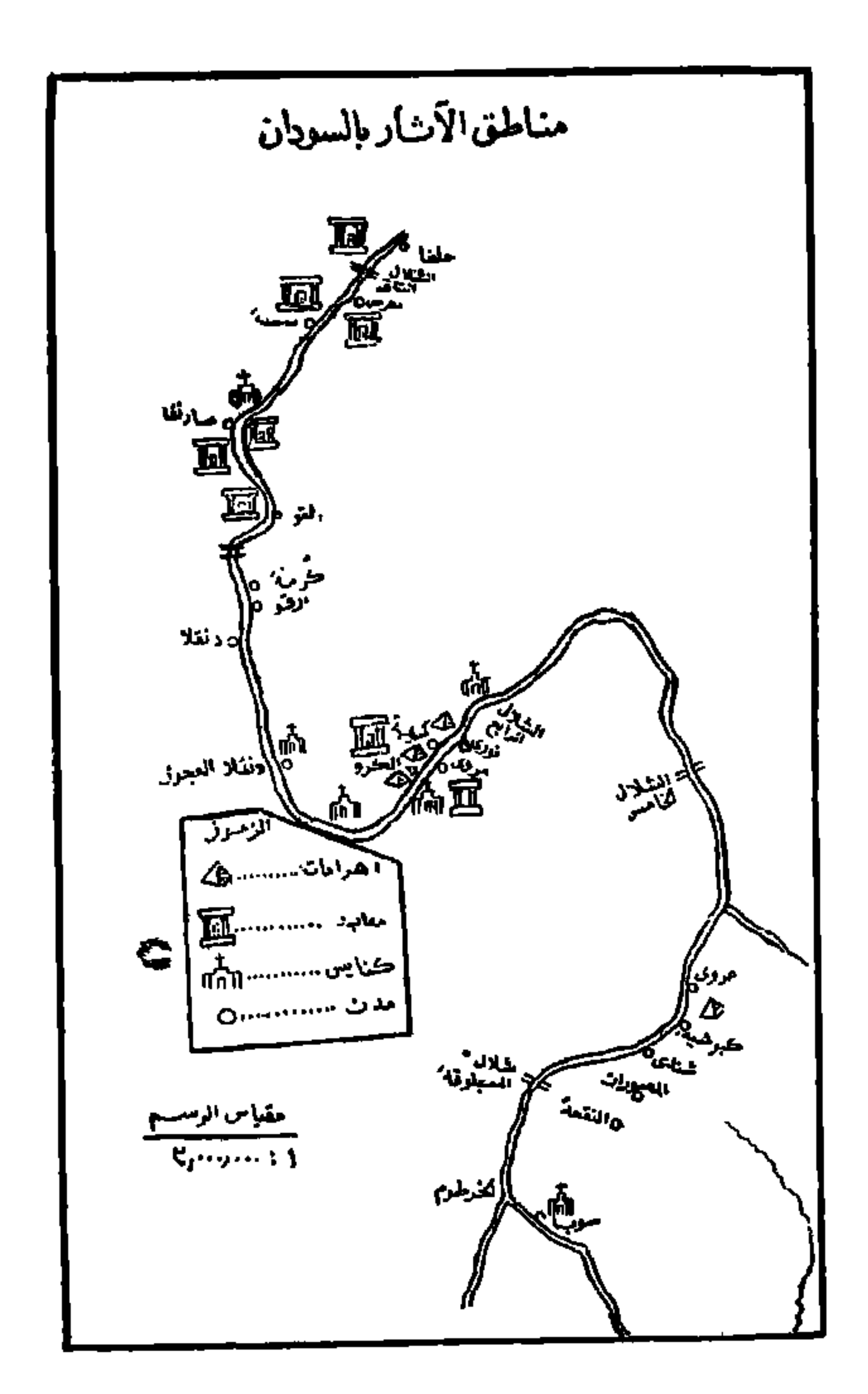
نص دستوره في ديباجته على انه هيئة تخدم مصالح الخريجين أولا ومصالح البلاد عامة ثانياً . وفي الخطاب الـذي وجهه سكرتيره لمكتب السكرتير الاداري ذكر ان الهيئة تهدف الـى العمل في ميدان الاصلاح الاجتماعي والاعمال الخيرية وليس من اهدافها احراج الحكومة او القيـام بنشاط يتعارض مع سياستها وان اغلبية اعضائها من موظفي الحكومة وهم يشعرون بواجباتهم كموظفين وهم على ثقة من ان الحكومة تقدر موقفهم كطبقه اخذت نصيباً من العلم لها واجبات يجب ان تقوم بها للمصلحة العامة ، وكان رد السكرتير الاداري نيابة عن الحكومة الترحيب لقيام المؤتمر طالما ان اهدافه هي خدمة البلاد والاعمال الخيرية ولا تعترف بها الحكومة كهيئة سياسية وليس لها ان تمثل غير وجهة نظر اعضائها ، وبـدأ المؤتمر نشاطه في جمع التبرعات لاعانة وانشاء المدارس الاهلية وكانت هناك حاجة ماسة للمدارس الابتدائية ولا سيما اذا علمنا انها كانت آنذاك عشرة فقط اربع منها نشأت بعد سنة ١٩٢٠ . ولكن منذ البداية كان مؤسسوه يهدفون بعد ان يتركز الى جعله هيئة سياسية تتحدث باسم السودان ، وهذا ما قام به المؤتمر اثناء الحزب وهذه حقبة خارجة عن نطاق بحثنا .

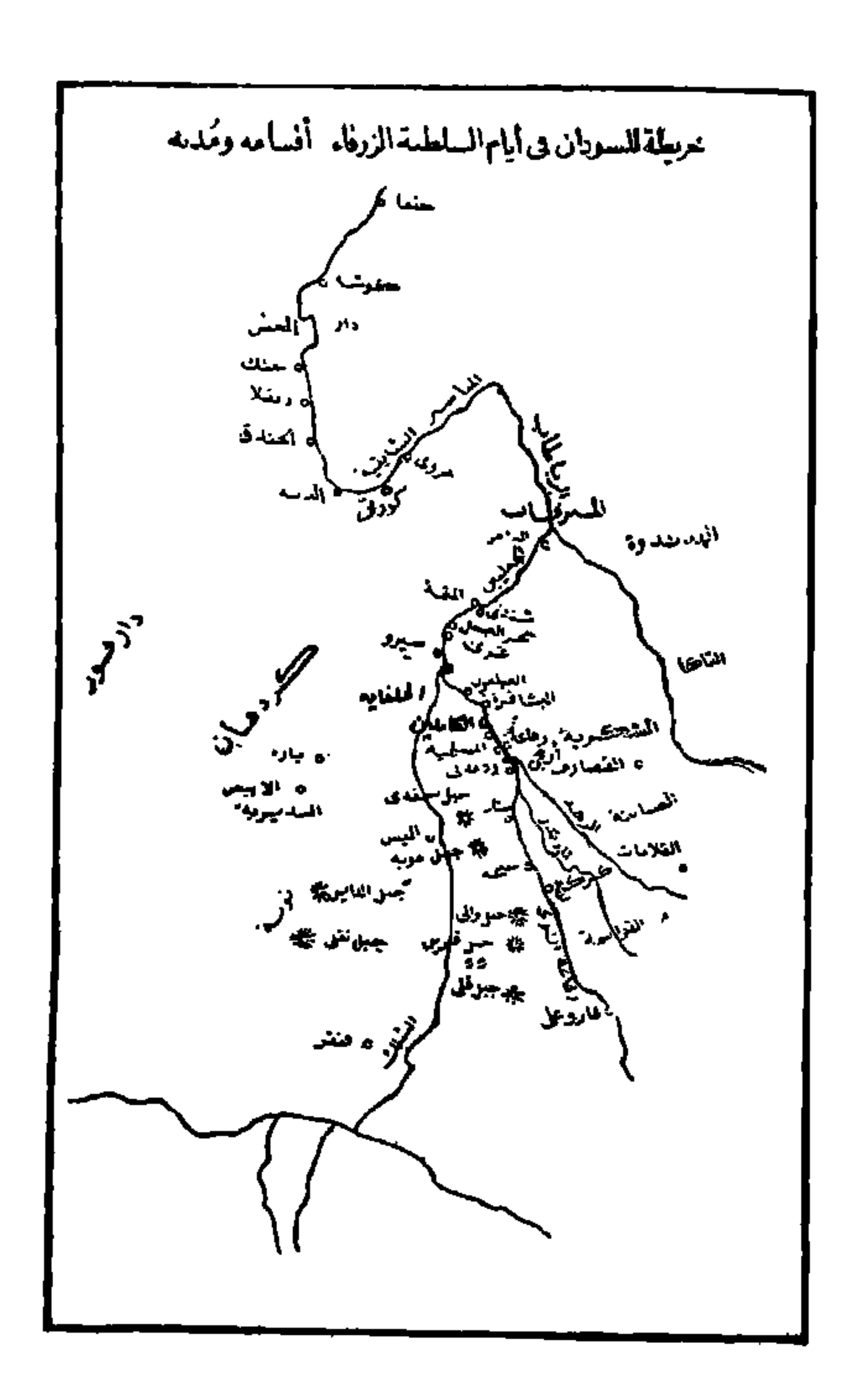
الخريجون والسيدان

تركنـا الزعيمين الدينيين الكبيرين السيد علي المرغني والسيد عبد الرحمن المهدي في سنة ١٩١٩ على رأس وفد التهنئة الذي ذهب لانجلترا . وقبل ذلك اشتركا في سفر الولاء تأييداً لانجلترا في حربها ضـد المانيا وحليفتها تركيا آنذاك . ولم يشتركا في ثورة سنة ١٩٢٤ لا من قريب او بعيد ولكن في الثلاثينيات كان واضحا ان بعض الخريجين قد توثقت علاقاتهم مع السيدين والعداء لا زال مستحكماً بين طائفة الانصار اتباع السيد عبد الرحمن والختمية انصار السيد علي المرغني وانتهج السيد عبد الرحمن سياسة

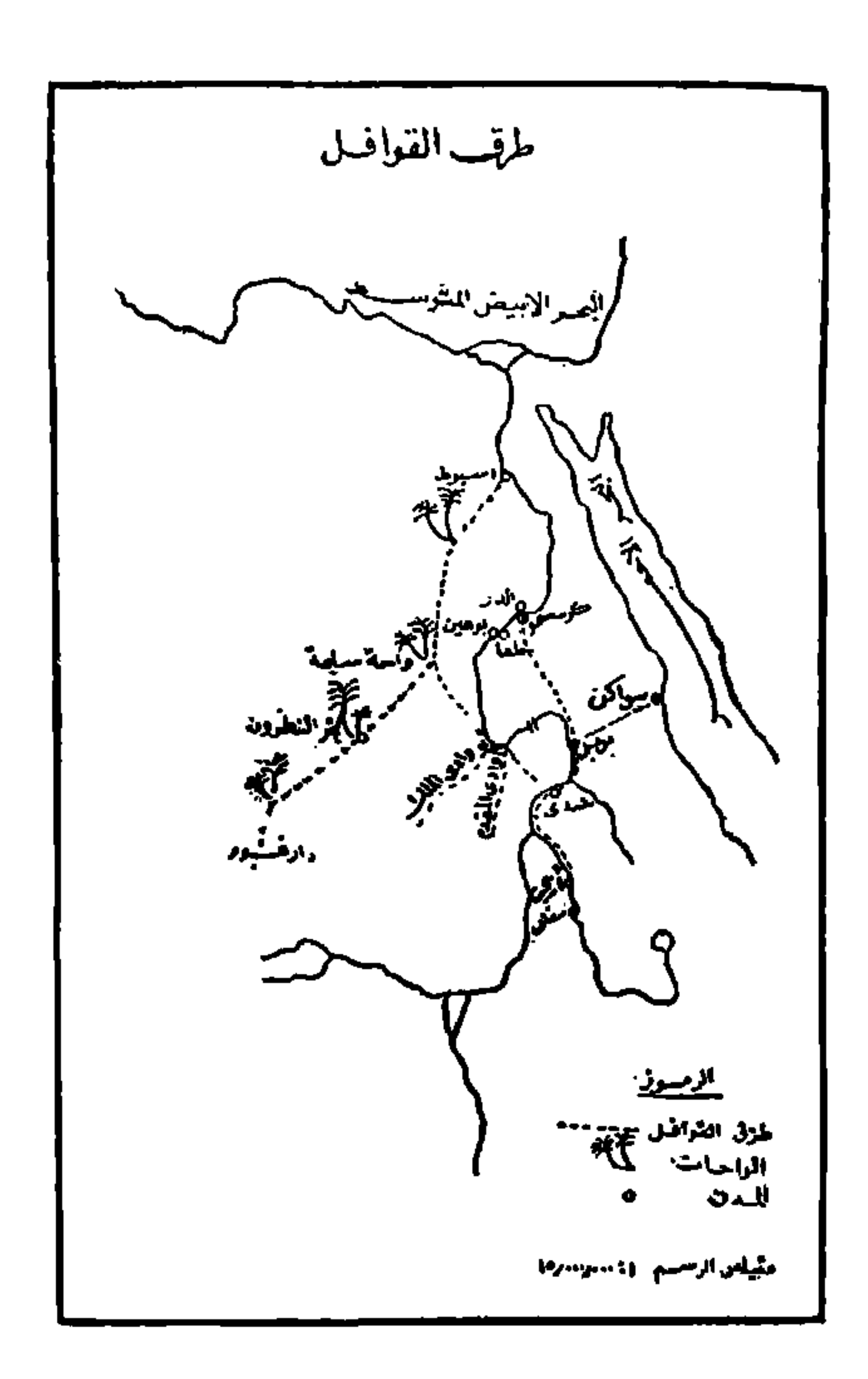
التوسع في زراعة القطن وقد درت عليه خيراً كثيراً مما ازعج الانجليز وحاولوا بمختلف الطرق ايقاف توسعه وزيادة امواله لأنهم يعرفون في طائفة الانصار بذلها وتضحيتها وفدائية اتباعها . وهم بالرغم عن تفاهمهم مع زعيمها يرون فيها قوة فدائية قد تكون خطراً عليهم . ومما زاد في غضبهم ترحيب السيد عبد الرحمن بالوفد المصري التجاري سنة ١٩٣٥ في الجزيرة حيث ردم جسراً على مجرى صغير للنيل في ظرف ساعات لمرور عربات الضيوف . واعطيت الاوامر للمفتشين في دارفور وكردفان لمنع وفود المهاجرين من الوصول لأبا او ام درمان .

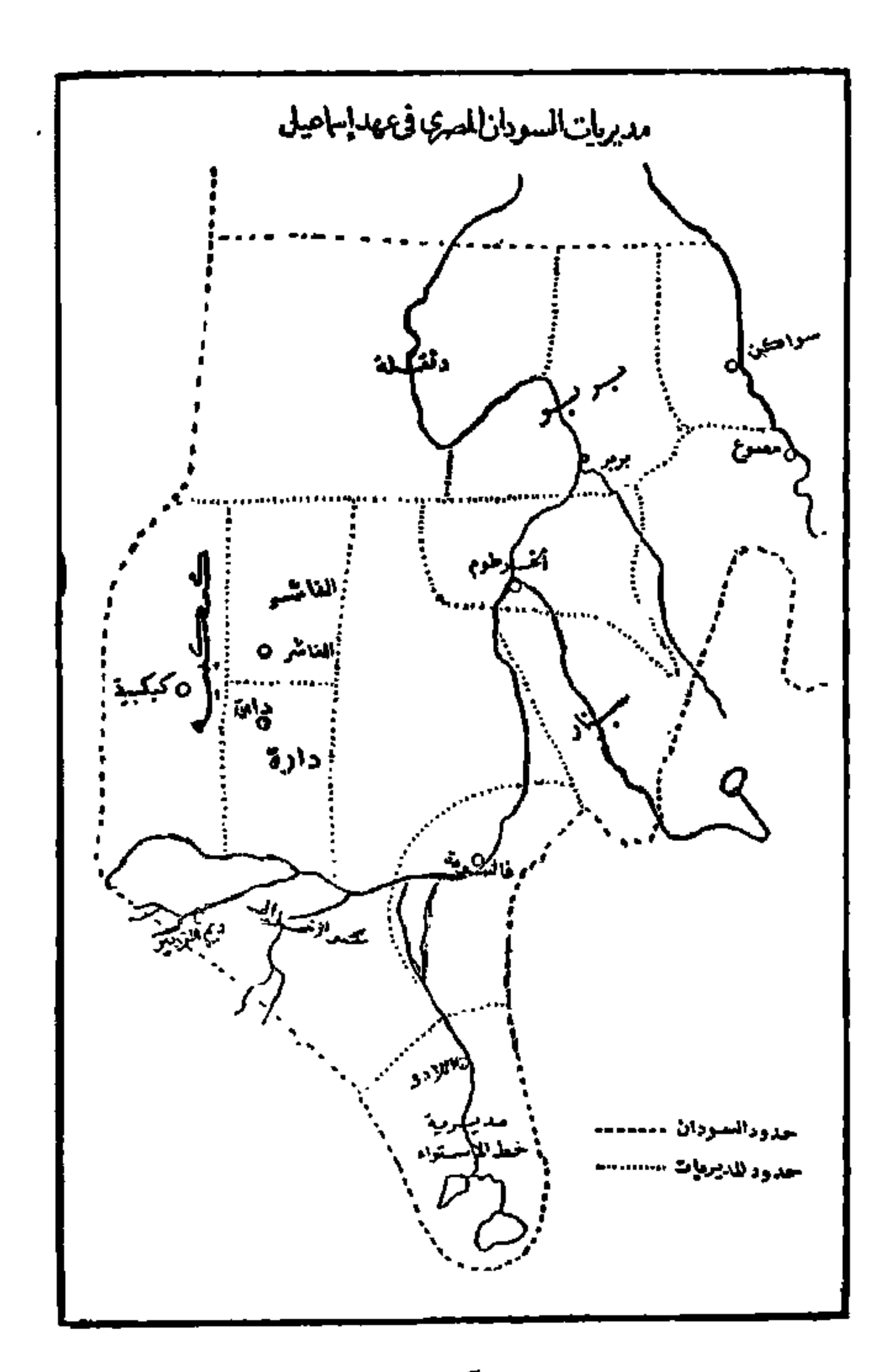
اما نظرة الانجليز للسيد علي المرغني فهي نظرة الاحترام والتحفظ وهو يعاملهم بالمثل متحفظاً في علاقته معهم غير مكشوف ولكنهم لا يخشون خطراً مسلحاً من اتباعه مثلما يخشون من الانصار ويستريحون لهذه الخصومة بين الطائفتين حيث تتفق مع سياسة فرّق تسد . والذي يهمنا في هذا الصدد انه قد تم تقارب وتفاهم بين الخريجين العاملين في الحقل الوطني وبين اكبر زعيمين في السودان ، وبذلك امتد نشاط الحركة الوطنية الى صفوف الشعب وانقسمت الى كتلتين تمثلت أخيراً في الاحزاب والانجليز من جانبهم أرادوا التقرب للخرجين بعقد صداقات شخصية ودعوات متبادلة وإنشاء دار للثقافة تضم مختلف الجنسيات التي تقطن العاصمة والاقاليم ولكن الغرض الاساسي منها للإنجليز والسودانيين المثقفين ، وتكون منتدى لتبادل الآراء والمناقشة في الامور العامة . والصورة التي تظهر لنا قبيل الحرب العالمية الثانية هي اعتراف الانجليز بدور المثقفين واتجهت سياستها نحو التودد اليهم وإشراكهم في المجالس البلدية ، ومن الناحية الاخرى تم التفاهم بين المثقفين وأكبر زعيمين لهما جماهيرهما الغفيرة ، وظهر تجمع هذه القوى في المرحلة التالية في النضال الوطني من أجل الاستقلال .

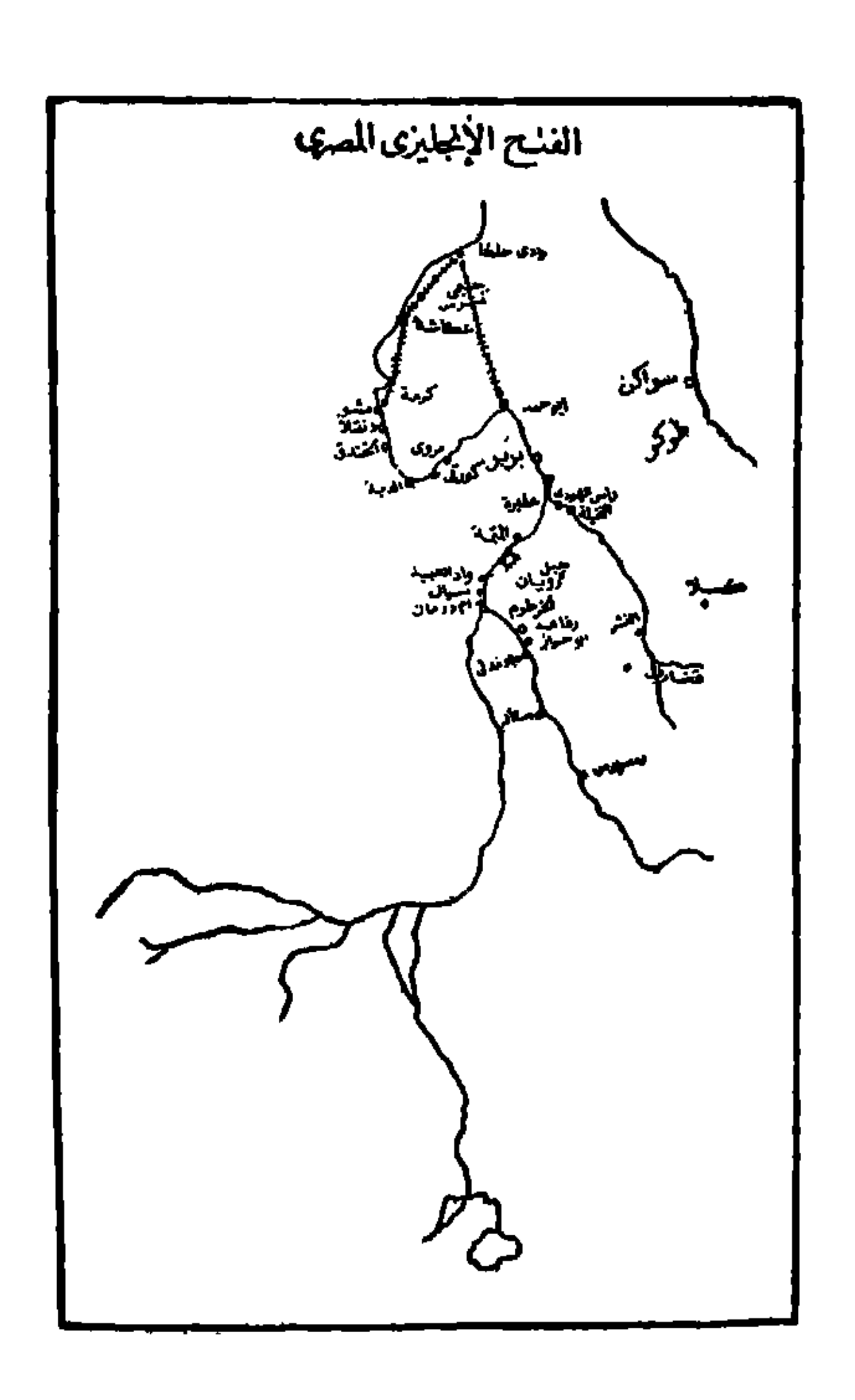

مناطق الآثار بالسودان
حلفا
سمنة
صارتلا
كرمة
دنقلا
دنقلا العجوز
الكرو
نوري
الشلال الرابع
الشلال الخامس
مروى
كبوشية
شندي
المصورات
النقعة
شلال السبلوقة
الخرطوم
سوبا
الرموز
اهرامات
معابد
كنايس
مدن
مقياس الرسم
١ : ٢,٠٠٠,٠٠٠



خريطة السودان فى أيام السلطنة الزرقاء أقسامه ومدنه


طرق القوافل
البحر الابيض المتوسط
اسيوط
الدر
كرسكو
بوهين
حلفا
واحة سليمة
بئر النطرون
دارفور
سواكن
بربر
شندى
الرموز
طرق القوافل
الواحات
المدن
مقياس الرسم ١ : ١٥،٠٠٠،٠٠٠


مديريات السودان المصري في عهد إسماعيل
دنقلة
بربر
سواكن
مصوع
بربر
الخرطوم
الفاشر
الفاشر
كبكبية
دارة
فاشودة
ديم الزبير
اللادو
مديرية
خط الاستواء
حدود السودان
حدود المديريات


الفتح الإنجليزى المصرى
وادى حلفا
عكاشة
كرمة
أبو حمد
سواكن
مروى
بربر
الخندق
عطبرة
أم درمان
الخرطوم
رفاعة
القضارف

الفهرس

صفحة

يفارق عمارة ـ حدود الفونج الشمالية ـ علاقة الفونج بالعثمانيين ـ اصل الفونج ـ نظرية اهل الفونج من الشلوك ـ نظرية الاصل من برنو ـ دور العبدلاب ـ دكين ود نايل ١٥٦٩ م ـ عدلان ود اي ١٦١١ م ـ النهضة الدينية ـ بادي سيد القوم ١٦١١م ـ الحروب الحبشية الاولى ١٦١٨ ـ ١٦١٩ م ـ بادي ابو دقن ١٦٤٥ م ـ استقلال الشايقية ـ النزعات الاستقلالية ـ بادي الاحمر ١٦٩٢ م ـ رحلة بونسيه ١٦٩٨ ـ ١٥٩٩ م ـ وصف بونسيه للحالة في سنار ـ رحلة كرمب ١٧٠١ م ـ كرمب ورفاقه في سنار ـ كرمب في قرى ـ وصف كرمب لسنار ـ سفارة دي رول ـ مقتل دي رول ـ أونسه الثالث ١٧١٦ م ونول ١٧٢٠ م ـ بادي ابو شلوخ ١٧٢٤ والحرب الحبشية الثانية (ابريل ١٧٤٤) ـ بادي بعد الحرب الحبشية ـ حملة كردفان ـ خلع بادي ابو شلوخ ـ الشيخ محمد ابو لكيلك ـ بدء الاضطراب والتدهور ـ جيمس بروس ١٧٧٢ م ـ بروس يغادر سنار ـ منازعات داخلية ـ تقاليد للمجتمع موروثة ـ اثر العروبة والاسلام .

٩٣ — غزوة محمد علي للسودان :

دوافع الفتح ـ عوامل الكشف والوحدة ـ محمد علي لاظوغلي مجهز الحملة ـ ترحيل الجيش الى حلفا ـ اسماعيل بن محمد علي قائد الحملة ـ القواد الكبار ـ تكوين الجيش ـ مسير الحملة ـ الشايقية ـ نظرية الشايقية ـ منطق اسماعيل ـ محمد علي يؤنب ابنه ـ الحرب ـ موقعة كورتي ـ بقية المماليك ـ اسماعيل يختلف مع قواده ـ الزحف جنوباً ـ احتلال شندي ـ في الجزيرة ـ فشل المقاومة في اللحظة الاخيرة ـ تأبين مملكة سنار ـ تجريدة كردفان ـ خطاب المقدوم مسلم .

١١٣ — الحكومة الجديدة :

السرايا من سنار ـ ابراهيم باشا في السودان ـ الغزوات لاجل الصالحين للجندية ـ محمد علي يهتم بالسود للجندية ـ سياسة محمد على في توزيع الجند ـ محمد علي يلح في ارسال السود ـ فرض الضرائب ـ الثورة على الضرائب ـ الانتقال الى واد مدني ـ اسماعيل يغادر العاصمة ـ مطالب اسماعيل من نمر ومساعد ـ محادثة شديدة اللهجة ـ المؤامرات والاغتيال والفوضى ـ المرحلة الاولى لحملة الدفتردار الانتقامية ـ اقتراح اقطاع كردفان ـ المرحلة الثانية لحملة الدفتردار ـ موقعة الدندر ـ تعيين عثمان بك ـ محو بك يخلف عثمان بك ـ آثار سيئة .

الحكومة ـ فكرة ضم بحر الغزال ـ الزبير ضد البلالي ـ الزبير بين موقفي العدو والصديق ـ الزبير يعين مديراً لبحر الغزال ـ نبذة عن تاريخ دارفور ـ محاولة الاتفاق مع ابي مدين ـ الزبير يقاتل الزريقات ـ الزبير يزحف على دارفور ـ مقتل السلطان ـ الحوادث في الخرطوم والقاهرة ـ اسماعيل ايوب يقوم بنفسه للغرب ـ محاولة السلطان الاتصال باستامبول ـ قوة اسماعيل ايوب ـ الحكمدار يرتب الادارة في دارفور ـ مطامع اسماعيل في برقو ـ الزبير اصبح مشكلة ـ الزبير يحل مشكلته بنفسه ـ الزبير في طريقه الى مصر .

صفحة ٢٠٠ — فتوحات إسماعيل في السودان (خط الاستواء) :

الضجة حول خط الاستواء ـ تعيين صموئيل بيكر ـ اوامر اسماعيل ـ الاستعدادات ـ السير جنوباً ـ مقاومة ابو السعود والاهالي ـ تأسيس المحطات ومعاكسة كباريجا ـ التراجع من انيورو ـ بيكر يعتزل الخدمة ـ نتائج حملة بيكر ـ تعيين غوردون ـ مذكرة خديوية عن سياسة الجنوب ـ استقبال غوردون في الخرطوم ـ مسيره من الخرطوم ، غوردون يرجع للخرطوم ـ اقتراحات لغوردون ـ محطة على نهر سوباط ـ الملاريا تفتك برجاله ـ نقل العاصمة الى اللادو ـ تأسيس المحطات العسكرية ـ اقتراح طريق الساحل ـ علاقات امتيسة الاولى ـ استانلي في بلاط امتيسة ـ رجوع ارنست ـ احتلال اوغندة والانسحاب منها ـ غوردون يبرر موقفه .

صفحة ٢١٩ — امبرطورية اسماعيل وحكمدارها غوردون :

اتساع الامبراطورية ـ غوردون ينوي قطع صلته بالسودان ـ غوردون يرجع الى السودان ـ غوردون يعطي السودان ـ غوردون في شرقي السودان ـ اهتمام الخديوي بخط الاستواء ـ اقتراحاته لابطال الرق ـ غوردون يسافر لدارفور ـ مخاوفه من سليمان الزبير ـ آراؤه لسياسة دارفور ـ تحامله على سليمان الزبير ـ خطة اذلال سليمان ـ تعيينات ورتب ونياشين ـ رحلته الى دنقلا ـ في السودان الشرقي ثانياً ـ حالة الزبير في القاهرة ـ غوردون يرفض ـ اسماعيل يطلب غوردون للمشاكل المالية ـ الاقتصاد في النفقات ـ اختلافه مع وكلائه ـ حركة سليمان الزبير ـ اجراءات غوردون ـ اسماعيل يتدخل في الاجراءات ـ منطق غوردون ـ غوردون يرضخ لقول الوشاة ـ الزبير يحاكم غيابياً في الخرطوم ـ الحرب ضد سليمان ـ تعيين أوربيين في الادارة ـ غوردون يفكر في الاستقالة ـ نظرة عامة لغوردون ـ السودان بعد غوردون .

موقعه ابي طليح ــ ولسن الى الخرطوم ــ ولسلي يستمهم ــ حالة طابور الصحراء السيئة ــ الحملة النيلية ــ سكة حديد سواكن ــ الحكومة الانجليزية تعلن الجلاء ــ امل جديد ــ خيبة الامل ــ الانصار يحتلون دنقلا ــ المهدي يؤسس ام درمان ــ ما بعد الخرطوم ــ غزو مصر ــ خطاب لتوفيق باشا ــ الادارة الداخلية ــ المهدى يخلو بنفسه ــ وفاته ــ اخلاقه وصفاته .

الانتصارات تطغي على التعاليم ــ مقارنتها مع الوهابيه ــ اسس تعاليمه ــ الصوفية ــ العمل بالدين ــ حرق الكتب وبطلان العمل بالمذاهب ــ بعض اقوال المهدي ــ مرتبة انصاره ــ طريقة تعاليمه ــ مختارات من مواعظه ــ نموذج من دروسه ــ وصف لصلاة المهدى: دروسه في الوضوء ــ تعاليم اخرى ــ اخلافه .

نساه الخليفة ــ هجرته ــ للمهدى صاحب المكاتبة الاولى ــ صعوبات الخليفة بعد المهدي ــ رأى المهدي في حالة المهدية ــ اثر وفاة المهدي في الحماس للمهدية ــ اهل الغرب ــ خلاف ما بين سكان النيل واهل الغرب ــ الخليفة يعتمد على اخيه يعقوب ــ صفات يعقوب ــ رحيل اهل الغرب لأم درمان ــ بدء الخلاف بين خليفتين ــ الاشراف يظهرون عدم طاعتهم ــ الخليفة شريف يحمل على القضاة والامراء ــ اجتماعات الاشراف ــ جاسوسية ومؤامرات ــ الفريقان يحملان السلاح ــ الوساطة ــ القاضي احمد يحكم ــ الخليفة شريف يتمد مرة اخرى ــ حكم المجلس ــ هيكل الاداره والقضاء ــ قاضي الاسلام ــ ظلم ورشى مردها جهل القائمين بالامر ــ بيت المال ــ اعمال اخرى لبيت المال ــ عمال الاقاليم ــ الجيش ــ مدينة ام درمان .

انذار اهل مصر ــ انذار توفيق ــ انذار الملكة فكتوريا ــ خطاب للسلطان عبد الحميد ــ التفكير في غزو مصر ــ حوادث الجبال ــ تجريد السيد محمد خالد زقل ــ ابو عنجة في الجبال مرة اخرى ــ مقابلة ابي عنجة بأم درمان ــ مقتل مادبو ــ مقتل الامير يوسف ــ ابو الخيرات وابو حمزة ــ عثمان آدم يتوغل في الغرب ووفاته ــ ابو عنجة في الشرق ــ حرب ابي عنجة مع الاحباش ــ النجاشي يسعى للصلح ــ وفاة حمدان ــ الزاكي يخلف ابا عنجة ــ النجومي في دنقلا ــ سير النجومي من دنقلا ــ ود هاوس يعترض طريق

